أبو علي مسكويه الرازي

تجارب الأمم

تحقيق

الدكتور أبو القاسم إمامي

الجزء الثاني

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

AM 8811591 Code I-AR-88-930561 Vol 2

13 COLUMBIA UNIVERSITY

تجارب الأمم

أبو علي مسكويه الرازي

(۳۲۰-٤۲۱)

تجارب الأمم

حقّقه وقدّم له

الدكتور ابوالقاسم امامي

الجزء الثاني

دار سروش للطباعة والنشر

طهران ١٣٦٦ ش / ١٩٨٧م

ButkStax
DS
272
.I242
1987g

v. 2

دار سروش للطباعة والنشر
طهران، شارع الأستاذ مطهّری، مفترق الدکتور مفتح، رقم ۲۲۸.
صندوق البريد ۱۱۶۳-۱۵۸۷۵. التليفون ۷-۸۳۹۰۵۱
الطبعة الأولى: ۱۳۶۶ ش / ۱٤۰۷ ق / ۱۹۸۷ م
تنضيد الحروف: سهيلا ابگينه
الإخراج: مليحه حجتى
تصميم الغلاف: شهرام گلبريان
الخطاط: بيژن بيژنى
الإشراف على الطّباعة: علىرضا جمشيدى، هاشم خارابى
تمّ تنضيد الحروف باللاينوترون فى دار سروش للطباعة والنشر
الليتوغراف: مردمك
طبع من الكتاب ۵۰۰۰ نسخة على مطابع پنگوئن
وتمّ تجليده فى مؤسّسة ميلاد للتّجليد
حقوق الطّبع: محفوظة للدار
الثّمن ۱۷۰۰ ريالٍ ايرانىٍّ

فهرس الموضوعات

تجارب العصر الأمويّ

ايّام معاوية بن ابى سفيان

ص ١٥ — ص ٣٨

ذكر مماحكة جرت بين المغيرة بن شعبة وبين عمرو بن العاص ١٥ المغيرة بن شعبة
يختار الدُعة ١٥ عاقبة هذا الفعل منه ١٦ رأى لمعاوية وتدبير صحيح ١٦
ذكر حيلة لزياد على معاوية ١٧ ذكر حيلة لعبدالله بن خازم ١٩ ذكر تدبير نفذ
للمغيرة بن شعبة على زياد ٢٠ ذكر سياسة زياد العراق حتّى صلح بعد الفساد ٢١
الخطبة البتراء ٢١ ذكر قتله البرئ ٢٣ ضبطه البصرة بشدّة وتأكيده الملك لمعاوية
٢٤ قطع أيدى الحاصبين فى الكوفة ٢٥ إستخلاف زياد سمرة على الكوفة
وتشدّده فى أمر الحروريّة ٢٦ ذكر حيلة للمهلّب بخراسان ٢٦ أسماء كتّاب معاوية
٢٧ من سيرة زياد ٢٨ كلام واقع ارتفع به صاحبه ٣١ ذكر حيلة أهل
البصرة ٣٢ ذكر بعض سيرة معاويه وآرائه ودهائه ٣٣ ماقاله عمر فيه ٣٣
بين معاوية و عمرو بن العاص ٣٣ بينه و بين عمر بن الخطّاب ٣٣ ماكان بينه
وبين المغيرة ٣٤ بين معاوية وهانئ ٣٥ من تشبه بمعاوية ٣٦ كلام
لمعاوية ٣٧.

8/10/03/96 ...
AED8233

أيام يزيد بن معاوية
وماجرى فيها من الأحداث الّتى يليق ذكرها بهذا الكتاب
ص ٣٩ — ص ٨٠

وصايا معاوية ليزيد ٣٩ ذكر راى أشيربه على الحسين بن على عليهما السلام ٤٠
ذكر راى آخر أشير به عليه ٤٠ ماكتبه إليه أهل الكوفة ٤١ ذكر راى أشار به
سرجون على يزيد ٤٢ ذكر تلافى عبيدالله ملك يزيد بعد أن اشرف على الذّهاب وماكان
من مكائده ٤٣ ذكر مكيدة بليغة لشريك ماتمّت له ٤٤ هانئٌ يُطلب إلى القصر ٤٥
مسلم يقبل نحو القصر بالمبايعين ٤٨ الحسين وآراء المشيرين عليه ٥٣
ذكر راى أشير به على الحسين عليه السلام ٥٣ راى أشار به عبدالله بن عبّاس على
الحسين ٥٤ خروج الحسين إلى العراق ٥٦ لقاءٌ بين الحسين والفرزدق ٥٦
ماكان من أمر رسوله قيس بن مسهر ٥٧ خيل الحرّ بن يزيد ٥٨ ماقاله
الطرماح بن عدى للحسين ٦٢ نزول الحسين بنينوى وقدوم راكب بكتاب من ابن زياد
٦٣ عمر بن سعد والخيار الصعب ٦٤ إشتداد العطش على الحسين وأصحابه ٦٥
إلتقاء بين الحسين وعمر بن سعد ٦٥ كتاب ابن سعد إلى ابن زياد فى ما دار بينه
وبين الحسين ٦٦ ما أشار به شمر على ابن زياد ٦٦ جواب ابن زياد لكتاب ابن
سعد ٦٧ قدوم شمر بالكتاب ٦٧ جاء الحرُّ تائبًا ٧٠ سلب الحسين وانتهاب
نسائه ٧٣ ماقاله يزيد بعد تسلُّم كتاب البشارة ٧٤ ذكر حيل ابن الزبير ٧٥
عزل عمرو بن سعيد ٧٦ ذكر راى عبدالملك وما ظهر من حزمه ٧٨ وقعة الحرّة
وإباحة المدينة ثلاثًا ٧٩ بايع أهل المدينة ليزيد على أنّهم خول له ٧٩ ذكر اتفاق
حسن اتفق لمسلم بن عُقبه فى مسيره إلى أهل المدينة وحيلة لأهل المدينة ماتمّت ٧٩
موت مسلم بن عقبة ورمى الكعبة وإحراقها وابن الزبير محاصر فيها ٨٠.

خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية
ص ٨١ — ص ٨٨

ذكر سوء راى ابن الزبير وضعف تدبيره ومخالفته من أشار عليه بالصّواب حتّى فاتته الخلافة ٨١
خطبة ابن زياد بالبصرة بعد انتهاء موت يزيد بن معاوية إليها ٨٣ ذكر طمع عبيدالله
فى الخلافة وما احتال فيه ٨٣ ذكر حيلته فى ذلك ٨٥ ذكر ما حفظ على ابن زياد

فى طريقه من الآراء ٨٦.

خلافة مروان بن الحكم

ص ٨٩ ــ ص ٩٣

كان لايريد الخلافة ولكن ابن زياد أطمعه فيها ٨٩ المروانيون والزبيريون واحتجاجاتهم ٨٩ أسماء كتّاب يزيد و وزرائه ٩١ ذكر حيلة مروان بن الحكم الّتى عادت بهلاكه ٩٢.

أيّام عبدالملك بن مروان

ص ٩٥ ــ ص ٣١٣

خبر التوّابين ٩٥ ذكر رأى سليمان بن صرد ٩٧ قدوم المختار ومازعم ٩٧ قدوم عبدالله بن يزيد و إبراهيم بن محمد من قبل ابن الزبير ٩٨ ذكر رأى عبدالله بن يزيد ٩٨ إجتماع الأمر لسليمان بن صرد ١٠٠ ذكر آراء أشير على سليمان ورأى رءاهُ وحده ١٠١ ذكر الرّأى الّذى رءاهُ سليمان ١٠١ ذكر رأى آخر رءاه أمير الكوفة عبدالله بن يزيد ١٠١ كتاب عبدالله بن يزيد إلى سليمان بن صرد وماكان من جوابه ١٠٣ بين سليمان بن صرد وزُفَر بن الحارث فى قرقيسيا ١٠٥ ذكر رأى أشاربه زفر بن الحارث على سليمان بن صرد وأصحابه ١٠٦ أقاموا فى عين الوردة وخطب سليمان فيها ١٠٨ عبيدالله بن زياد يُسرّح الحصين بن نمير لدفع سليمان ١٠٩ مقتل سليمان بن صرد ١١٠ رأى رءاه ابن أحمر ١١١ ذكر ماكان من المختار بعد التوّابين ١١٣ ذكر السّبب فى اشتداد شوكة الخوارج وماكان من أمرهم ١١٣ ذكر اتّفاق جيّد اتّفق لأهل البصرة وهم فى تلك الحال ١١٤ ذكر رأى صحيح وحيلة تمّت لأهل البصرة حتى حارب عنهم المهلّب ١١٥ إحتيال مختار وهو فى المحبس ١١٨ ذكر رأى سديد أشير به على المختار وماكان من تأتّى المختار له حتّى تمّ له كما أحبّ ١٢١ المختار يُرسل إلى ابن الأشتر ويدعوه ١٢٢ إبراهيم بن الأشتر يبايع المختار ١٢٤ خروج المختار ١٢٥ ماكان من قبل عبدالله بن مطيع ١٢٥ ذكر رأى رءاه ورقاءُ بن عازب ١٤١ فكان رأى ورقاء الأول صوابا وتركه إنفاذ الكتب بالبشارة وتعريفه صاحبه الصّورةَ خطأً ١٤١ ذكر اضطراب النّاس على المختار

وطمعهم فيه بعد خروج إبراهيم الأشتر ١٤٢ ذكر رأى صحيح لعبدالرحمان ١٤٣
مقتل شمر بن ذى‌الجوشن ١٤٨ سراقة حلف أنه رأى الملائكة ١٤٩ ذكر مكيدة
للمختار على ابن الزُّبير لم يتمّ له ١٥٤ ذكر رأى رءَاهُ ابن الزُّبير بعد حبسه محمد بن
الحنفيّة ومن معه بزمزم ١٥٧ ذكر ماكان من المختار بعد وقعة السُّبيع فى الكوفة ١٥٩
خبر الكرسىّ ١٦٠ ذكر مسير مُصعب إلى المختار وحربه ١٦٥ مكيدة
لعبدالله بن وهب على الموالى ١٦٧ غلط المختار فى ذلك ١٦٩ ذكر ظفر بعد
الهزيمة ١٧١ ذكر اتّفاق سيّئٌ بعد الظّفر لأجل عجلة وسوءِ تثبُّت ١٧١ ذكر قتل
عبيدالله بن على بن أبى‌طالب ١٧٢ مصعب يحاصر قصر المختار وهو فيه ١٧٢
مقتل المختار ومقاله فى أمره ١٧٣ ذكر رأى المختار فى تلك الحال وكان صوابًا ١٧٤
ذكر كلام لهؤلاءِ المسلمين واستعطاف حين أحسُّوا بالقتل ١٧٥ كلام آخر بنحو
آخر من الاستعطاف ١٧٦ توبيخ من عبدالله بن عمر لمصعب على فعله هذا ١٧٦
كفُّ المختار سُمِّرت إلى جنب المسجد ١٧٧ كتب مصعب إلى ابن الأشتر يدعوه إلى
طاعته ١٧٧ ماجرى على عمرة امرأة المختار ١٧٧ حصار عبدالله بن خازم رجال
بنى تميم بخراسان ١٧٨ رجوع الأزارقة ١٨١ إقبال الخوارج وعليهم الزُّبير بن
الماحوز ١٨٢ خروج الحارث بن أبى ربيعة من الكوفة ومعه ابن الأشتر ١٨٣ ذكر
رأى لعتّاب بن ورقاء صحيح ١٨٤ ذكر رأى رءَاه الأحنف للخوارج وهو يُعدُّ من سقطاته
١٨٥ ذكر توبيخ للخوارج المهلّب على طريق المكيدة ١٨٥ ذكر مسير عبدالملك
إلى مصعب ١٨٧ ذكر استهانة بعدوٍّ عادت بهلكة ١٨٧ رواح عمرو إلى عبدالملك
وماجرى عليه ١٨٨ ذكر سبب العداوة والشّحناء بين عبدالملك وبين عمرو بن سعيد ١٩٢
ذكر كلام نفع عند سلطان حقود ١٩٣ مسير عبدالملك إلى العراق لحرب مصعب
١٩٣ مقتل إبراهيم الأشتر ١٩٥ مقتل مصعب بن الزُّبير وابنه عيسى بن مصعب
١٩٦ ومن المقامات المشهورة مقام تقدّم فيه رجل بالأدب ١٩٨ توجيه عبدالملك
بن مروان الحجّاج بن يوسف لحرب عبدالله بن الزُّبير ٢٠٠ حصر ابن الزُّبير ومقتله ٢٠٠
ماقالته لابن الزُّبير أمّه أسماء بنت أبى بكر ٢٠١ مقتل ابن خازم فى مرو ٢٠٤
ولاية المهلّب حرب الأزارقة من قبل عبدالملك ٢٠٥ سبب عزل بكير بن وساج
عن خراسان ٢٠٧ ذكر رأى صواب أشير به على بحير فقبله ٢٠٨ ذكر تولية
عبدالملك الحجاج بن يوسف العراق وسيرة الحجّاج ٢٠٩ ذكر وثوب النّاس بالحجّاج

٢١٢ ذكر توانٍ لعبدالرحمان حتّى قُتل وقُتل معـه خلق ٢١٣ ذكر ماكان من
شبيب بن يزيد ومالقى الحجّاج وأشراف الكـوفة منه ٢١٤ ذكر مكيدة صالح على عدىٍّ
٢١٦ ذكر رأى رءاه عدىٌّ بن عميرة فلم يُقبَل حتى هلك الجيش ٢١٩ ذكر سـوء
رأى سَورةَ فى الإقدام حتّى هُزم وفلّ ٢٢١ ذكر عجلة للحجّاج وسـوء رأى له حتى أهلك
ذلك العسكر ٢٢٤ حيلة الحجّاج على محمد بن موسى حتّى حارب الخـوارج وقُتل ٢٣٠
كلام للحرّ لمّا أتى به ليُقتل سلم به ٢٤٠ ذكر رأى سـديد للحجـّاج ٢٤١
ذكر رأى جيّد رءاه قبيصـة بن والق ٢٤٢ مكيدة للمطرف بن المغيرة كاد بهـا شـبيبًا حتى
حبسه عن وجهه ٢٤٢ ذكر دخول شبيب الكـوفة دخلَتَهُ الثّانية ٢٤٧ رأى جيّد رءاه
خالد بن عتّاب ٢٥٠ ذكر مكيدة لشـبيب ٢٥٤ ذكر هلاك شـبيب فـى هذه السـنة
باتّفـاق سـيّئٍ ٢٥٥ ذكر ماكان من المهلّب والأزارقـة ٢٥٧ ذكر اختلاف كلمة
الخوارج إلى أن هلكوا بأجمعهم ٢٥٧ ذكر سـبب هلاكهـم ٢٥٨ وفـى هذه المدّة
التى جرى فيها ماجرى من أمر الأزارقة كان قتال أميّة بن عبدالله بن بكير بن وساج بخـراسان
٢٥٩ ذكر السـبب فـى ذلك ٢٥٩ عاقبة أمر بكير ٢٦٣ ذكر حيلة صـعصعة
على بحير حتى اغتاله وقتله ٢٦٥ ذكر خـروج عبدالرحمان بن الأشـعث على الحجـاج
وسبب خلعه لعبدالملك واجتماع الناس عليه ٢٦٧ ذكر رأى خطأ للحجّاج أفسد به أولئك
الجند وعبدالرحمان حتّى ألجأهم إلى مخالفته وخلعه ٢٧٠ خروج عبدالرحمان نحو العراق
٢٧١ رأى سديد رءاه المهلّب للحجاج فعصاه ٢٧٢ ذكر وقعة دير الجماجـم ٢٧٥
ذكر رأى رءاه عبدالرحمان عند هذه الحال ٢٧٦ دخول الحجـّاج الكـوفة وجلوسـه
للناس ٢٨٠ قتله كميل بن زياد النّخعـى ومادار بينهما من كلام ٢٨١ وصـيّة
المهلّب إلى ولده حين حضرته الوفاة ٢٨٢ ذكر وقعـة الحجّاج وابن الأشـعث بمسكـن
٢٨٣ ذكر تكاسل من ابن الأشعث عاد بوبال عليه واتّفـاق محمود للحجـّاج ٢٨٤
ذكر طمع عياض فى ابن الأشعث ٢٨٥ ذكر ما اغترّ به عبدالرحمان حتّى فـارق رُتبيل ثمّ
اضطرّ إلى معاودته ٢٨٦ ذكر آراءٍ أشيربها على ابن الأشـعث ورأى رءاه وحـده سـديد لو
ساعدوه عليه ٢٨٧ ذكر ماتقدّم به الأسـرى عنه الحجـّاج ٢٨٩ كلام للشـعبى لمّا
حمل إلى الحجـّاج ٢٩٠ فيروز يمنع الحجـّاج أن ينال ماله ٢٩١ ذكر خـديعة
للحجّاج ظنّ الناس بها أنّه آمنهم حتّى قتلهـم ٢٩٣ ذكر هلاك عبدالرحمان بن الأشـعث
ورأى لبعض اصحابه صـحيح ٢٩٤ ذكر سـبب عزل يزيد بن المهلّب عن خـراسان ٢٩٦

مقتل موسى بن عبدالله بن خازم بالترمذ ٢٩٧ ذكر السبب فى ذلك ٢٩٧
ذكر مكيدة ضعيفة تمّت على قوم أغتام ٣٠٠ ذكر مكيدة لعمرو بن خالد ٣٠١ ثم
دخلت سنة ستّ وثمانين ٣٠٧ أسماء وزراء عبدالملك بن مروان وما نقل إلينا من آرائهم
وتدابيرهم الّتى يليق ذكرها بهذا الكتاب ٣٠٧ قبيصة بن ذُوَيب ٣٠٧ أبو الزُّعيزعة
٣٠٨ روح بن زنباع ٣٠٩ ربيعة الغار الحرشى ٣٠٩ صالح بن عبدالرحمان
وهو الّذى نقل الدواوين من الفارسيّة إلى العربيّة ٣٠٩ عبيد بن المخارق ٣١١
يزيد بن أبى مسلم ٣١٢ عبدالملك وكاتب له قبل هديّةً ٣١٢.

خلافة الوليد بن عبدالملك

ص ٣١٥ — ص ٣٤١

ذكر حيلة لتندر مانفذت له وقتل لأجلها ٣١٦ ذكر اتّفاق عجيب مع إضاعة حزم ٣١٨
رأى للحجاج أشار به وهو بواسط على قتيبة وهو بخراسان حتّى فتح بخارىٰ ٣١٩
ذكر غدر نيزك ٣٢٢ فتح شومان وكسّ ونَسَف ٣٢٨ فتح خوارزم ٣٢٨
فتح السغد ٣٣٠ جارية رابعة ليزدجرد أصابها قتيبة ٣٣٤ ما أوصى به قتيبة عبدالله
بن مسلم ٣٣٥ فتوح أخرى تمّت فى هذه المدّة ٣٣٥ ذكر كلام لسعيد بن جبير كان
سبب قتله ٣٣٦ موت الحجّاج بن يوسف ٣٣٧ ودخلت سنة ستّ وتسعين ٣٣٧
من سيرة الوليد بن عبدالملك ٣٣٧ ذكر رأى لعبّاد بن زياد ٣٣٨ فتح كاشغر
ومادار بين مبعوثى قتيبة وملك الصّين ٣٣٨ ذكر كلام لهبيرة فى جواب الملك صار سببا
لحمله الخراج وتهيُّبه الحرب ٣٤٠ من سيرة قتيبة ٣٤١.

خلافة سليمان بن عبدالملك

ص ٣٤١ — ص ٣٦٦

ذكر السبب فى الخلاف بين سليمان وقتيبة ٣٤٣ ذكر عجلة قتيبة بالخلع وما دبّره من
أمره ٣٤٤ ذكر رأى رءاه يزيد لنفسه عاد مكروها عليه ٣٥٢ ما احتال به الأهتم
حتّى قلّد يزيدُ خراسان ٣٥٣ ذكر حيلة تمّت على مسلمة بن عبدالملك بأرض الروم ٣٥٦
سليمان يحرّض يزيد بذكر فتوح قتيبة ٣٥٧ إهتمام يزيد بن المهلّب بجرجان
٣٥٧ ذكر الحيلة التى احتال بها يزيد بمشورة فيروز حتّى ظفر به ٣٥٨ دخول

يزيد بن المهلّب جرجان ٣٥٩ طمع يزيد بن المهلّب فى طبرستان ٣٦٠ يزيد بن المهلّب يفتح جرجان الفتح الآخر ٣٦٢ يزيد بن المهلّب يدخل باب جرجان ويُبِرُّ يمينه فى أهلها ٣٦٤ ذكر رأى اشيربه على يزيد بن المهلّب فلم يقبله فعاد وبالاً عليه ٣٦٤ ودخلت سنة تسع وتسعين ٣٦٥.

خلافة عمر بن عبدالعزيز

ص ٣٦٧ — ص ٣٧٦

ودخلت سنة مائة وفيها خرجت الخارجة على عمر بن عبدالعزيز بالعراق ٣٧٠ عمر بن عبدالعزيز يحبس يزيد بن المهلّب ٣٧٢ ذكر بعض سيرة عمر بن عبدالعزيز ٣٧٣ ابتداء دعوة بنى هاشم ٣٧٥.

خلافة يزيد بن عبدالملك

ص ٣٧٧ — ص ٤٠٥

ودخلت سنة إحدى ومائة ٣٧٧ دخول مسلمة الكوفة ومقتل شوذب الخارجى ٣٧٨ دخول يزيد بن المهلّب البصرة وخلعه يزيد بن عبدالملك ٣٧٨ ذكر اتّفاق سيّئ اتّفق على يزيد بن المهلّب ٣٨١ ذكر آراء أشيربها على يزيد المهلّب فماعمل بها ٣٨٤ ودخلت سنة اثنتين ومائة ٣٨٩ ذكر رأى صواب رءاه يزيد فخالفه فيه أصحابه ٣٨٧ يزيد بن الهملّب والفحل بن عياش كلٌ قتل صاحبَه ٣٩١ منع الجرّاح من بيع ذرّيّة آل المهلّب ٣٩٥ يزيد بن عبدالملك يولّى مسلمة على الكوفة والبصرة وخراسان بعد قتل يزيد بن المهلّب ٣٩٥ سبب طمع التُرك فى سعيد خُدينة ٣٩٦ غزو سعيد التُرك ٤٠٠ ذكر كلمة صارت سبب حتف ٤٠٠ سعيد يقتل حيّان بإطعامه ذهبًا ٤٠١ ذكر سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان ٤٠٢ ظهور أمر الدُعاه فى خراسان ٤٠٢ ثمّ دخلت سنة ثلاث ومائة ٤٠٣ سبب عزل سعيد بن خُدينة عن خراسان ٤٠٣.

[تجاربُ العصر الأُمَوِیّ]

[أيّام مُعاوية بن أبى سفيان]

ذكر مُماحَكةٍ[1] جرت
بينَ المُغيرة بنِ شُعبةَ وبينَ عمرو بنِ العاص

إستعمل معاويةُ عبدَالله بن عمرو بن العاص على الكوفة، فأتاهُ المغيرة بن شُعبة، فقال:

- «استعملتَ عبدَالله بن عمرو على الكوفة، وأباهُ عمرًا على مصر، تكون أنت بين لَحيَىِ[2] الأسد.»

فعزله عنها واستعمل المغيرةَ على الكوفة. وبلغ عمرًا ماقاله المغيرة لِمعاوية، فدخل عمرُو على مُعاوية، فقال:

- «أ تستعملُ المغيرة على خراج الكوفة، فيَغتال المالَ، ويذهب به، فلا تستطيع أن تأخذَهُ منه؟ إستعمِل علىَ الخراج رجلاً يَهابُك، ويَتّقيك.»

فعزل المغيرةَ عن الخراج، واستعملهُ على الصَّلاةِ. فلَقىَ المغيرةُ عمرًا، فبدأ عَمرُو وقال:

- «أنتَ المُشير على أمير المؤمنين بما أشرتَ، فى عبدِالله؟» قال:

- «نَعَمْ.» قال:

- «فهذه بِتِلكَ!»

[المغيرة بن شعبة يَختارُ الدَّعةَ]

ولمّا وَلِىَ المغيرةُ بن شُعبة الكوفةَ، أتاها، وترك التّشَدُّد، وإثارةَ النّاسِ عن أهوائهم، وأحبَّ السّلامةَ، واختارَ الدَّعةَ، فكان يُرى، فيُقالُ له: فلانُ بنُ فلانٍ يَرىٰ رأىَ الشّيعة، وفلانُ يَرىٰ

---

١) المماحكة: اللّجاج والمنازعة. ٢) فى مط: بحى الأسدا. واللَّحيان: العَظمان اللذان فيهما الأسنان.

رَأىَ الخوارج، فكان يقول: [44]

ـ «قضَى اللهُ أن لاتَزالُوا مُختلفين، وسيَحكُمُ بين عِبادِه.»

فأمِنَهُ النّاس.

فكان عاقبة هذا الفعل منه

أن لَقِيَتِ الخوارج بعضُها بعضًا، ورأوا أنّ فى جهاد النّاس الفَضلَ والأجرَ. ففزعوا[1] إلى رُؤسائهم، وتجمّعُوا، وتمّت آراؤهم، واجتمع أمرهم، وبايعُوا المستوردَ بنَ عُلَّفَة[2]، وكان زيادٌ متحصّنًا بفارس، قد عمر قلعة إصطخر. فكان معاويةُ يُكاتبهُ، ويُطالبه بالمال، ويَستقدمهُ، فيأبىٰ.

فأرقَ مُعاويةُ ذاتَ ليلة، فلمّا أصبح، دعا بالمغيرة بن شُعبة، فقال له:

ـ «كيفَ أنتَ بِسرٍّ أستودعُكَ؟»

فقال:

ـ «يا أمير المؤمنين، إن تَستودِعْنى، تَستودِعْ ناصحًا، شفيقًا، وَرِعًا، وَثيقًا.»

رَأيٌ لِمُعاوية وتدبيرٌ صَحيحٌ

قال:

ـ «ذكرتُ زيادًا واعتصامَهُ بأرض فارس، وامتناعَهُ بالقلعةِ، فلم أنَمْ لَيلَتى.»

فأراد المغيرةُ أن يُطأطئ من زيادٍ، فقال:

ـ «مازيادٌ هناك، ياأميرَ المؤمنين.»

قال: «بئسَ الوطاءُ[3] العَجزُ، داهيةُ العرب معه الأموال، مُتحصّنٌ بقلاعِ [45] فارس، يُدبّرُ، ويُربِّض الخَيلَ[4]. مايُؤْمِنُنى أن يُبايعَ لرجُلٍ من اهل هذا البَيتِ، فإذا هو قد أعادَ الحربَ جَذَعةً[5].»

فقال المغيرةُ:

---

١) فى مط: ففرعوا. وما فى الطّبرى يوافق الأصل: ففزعوا. اى: لجأوا، واستغاثُوا.

٢) فى مط: مستور بن علفة. وضبطُ اللاّم فى «عُلّفة» (الكسر والتّشديد) من الطّبرى ٧: ٢٠٠، وابن الأثير ٣: ٤٢١.
وضُبط فى بعضِ المراجع: «عُلَفة» بفتح اللاّم.

٣) فى مط والطبرى: الوَطا. ٤) كذا فى مط: ويُربض الخيل. وفى الطبرى: بربص الخيل.

٥) فى مط والطبرى (٧: ٢٣): قد اعاد: «الحربَ خُدعةً». وقوله: «قد أعاد الحربَ جَذَعةً» اى: جديدةً. وذلك من قولهم: «أعَدتُ الأمرَ جَذَعًا»، اى: جديدًا كما بدأ.

- «أ تأذنُ لى، يا أميرَ المؤمنين، فى إتيانِه؟»

قال:

- «نَعَمْ، وتَلَطَّفْ!»

كان المغيرة يحفظ يدًا لِزيادٍ عندَهُ، فأتى المغيرةُ زيادًا. فقال زيادٌ لمّا رَءاهُ:

- «أفلحَ الزّائرُ.»

فقال المغيرةُ:

- «إليك ينتهى الخبر، أنا المُغيرةُ، إنْ مُعاويةَ استخفَّهُ الوَجلُ، حتّىٰ بَعَثَنى إليك، ولم يكن يعلمُ أحدًا يَمدُّ يدهُ إلى هذا الأمر، غيرَ[1] الحسن، وقد بايع معاويةَ، فخُذْ لِنفسكَ قبل التَّوطين، فيستغنى معاويةُ عنكَ.»

قال:

- «أشِرْ عَلَىَّ، وارمِ الغرضَ الأقصىٰ، ودَعْ عنكَ الفُضولَ، فإنَّ المستشار مُؤتَمنٌ.»

فقال المغيرةُ:

- «فى محض الرّأى بَشاعة[2]، ولاخَيرَ فى التمذيق[3]، أرىٰ أن يصلَ حَبلُكَ بِحبله، وتَشخَصَ إليه.»

قال:

- «أرىٰ، ويقضى اللهُ.»

وأقام زيادٌ فى القلعةِ، وجعلَ يَرتَأى ويمكرُ.

ذكر حيلةٍ لِزيادٍ علىٰ معاوية

فَسنحَ لِزيادٍ من الرّأى أن دَعا بعضَ ثِقاتِه، وبَذَلَ له، ومَنّاهُ و وَعَدَهُ، وقال:

- «إمضِ، حتّىٰ تَأتىَ مُعاوية، فإنَّهُ سَيدعُوكَ، ويسألُكَ عَنّى، فقُلْ له: إنّك قد أمهلتَهُ، [46]
وأضربتَ عنهُ، معَ ما قد احتجبه[4] من الأموال، وارتكبهُ من الأُمور، حتّىٰ قد شاعَ فى النّاسِ: أنّكَ إنّما تُرخِى له الحبلَ، وتُساهِلُهُ، للنّسَبِ بينَكما. فإذا قال: وماذاك؟ فقُلْ: يقول النّاسُ: إنّه أخوكَ،

١) فى مط: «إلاّ عين الحسن»، و فى هامش مط: «عن الحسن» بدل «الأمر غير الحسن».

٢) فى مط: شناعة.

٣) كذا فى الأصل ومط: فى التُمذيق. وفى الطبرى (٢٤:٧): المذيق. وفى هامشه: المتديق. والتُمذيق: الخلط والمَزج. والمَذيق: الممزوج، المخلوط.

٤) فى مط: قد اجتلبه.

وإنَّكَ قد عرفتَ ذاكَ له.»

فذهب الرَّجلُ، حتَّىٰ أتىٰ معاويةَ، فجرىٰ بينهما مالقَّنَهُ زيادٌ.

فقال معاويةُ:

ـ «أ وَقد تحدَّثَ النَّاسُ بذلك؟» قال:

ـ «نعم.»

فسكت معاويةُ، وخرج الرَّجلُ من عندِه، وشاع المَجلسُ، وقال النَّاسُ:

ـ «زياد بن أبى سُفيان.»

ثمَّ كاتب زيادُ مُعاويةَ، وأجابَهُ، واستقرَّتِ المكاتبةُ بينَهما، إلىٰ أن وَرَدَ على مُعاويةَ، علىٰ أن يرفعَ إليه حسابًا بما صار إليه من الأموال، ويَصدُقَهُ فى ماخرج منهُ إلىٰ أمير المؤمنين، وما بقِىَ عندهُ.

فخرج إليه زيادٌ، فأخبرهُ بما حملهُ إلىٰ علىِّ بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ وما فرَّقَهُ فى الأرزاق، والحَمالاتِ[١]، وبقِىَ بَقيَّةٌ، وقال:

ـ «قد أودعتُها عند قوم.»

فصدَّقه معاويةُ، ومكث يُرَدِّدُهُ بذلك.

ثمَّ كتب زيادٌ كُتُبًا إلىٰ قوم:

ـ «قد علمتم ما لى عندكم من الودائع، وهى الأمانةُ الَّتى يقول الله تعالىٰ: إنَّا عَرَضْنا الأمانةَ عَلَى السَّماوَاتِ وَالأرْض، [47] الآيةَ[٢]، فاحتفِظُوا بما قِبَلَكُم.»

وسمَّىٰ فى الكُتبِ بالَّذى أقرَّ لِمعاويةَ، ودَسَّ الكُتُبَ مع رسوله، وأمرهُ أن يتعرَّضَ لبعض من يبلغ معاوية، فتعرَّضَ الرَّسولُ حتَّىٰ أُخِذَ، فأُتِيَ به معاوية.

فقال معاوية لِزيادٍ:

ـ «لئن لم تكن مكرتَ بِى، إنَّ هذه الكُتب لَمِن حاجتى.»

فقرأها، فإذا هى بمثل ما أقرَّ به لِمعاوية.[٣]

فقال معاويةُ:

ـ «أخافُ أن تكونَ مكرتَ بى، فصالِحنى عليها.»

---

١) الحمالات: الحاءُ غير مشكولة فى الأصل، وهى مفتوحةٌ فى الطبرى ٢٦:٧. والحَمالةُ (بالفتح)، والحَمالُ أيضًا بالفتح ج. حُمُل الدِّية، أو الغرامة، يحملها قومٌ عن قوم. والحُمالة (بالضمّ): أجرُ الحَمّال.

٢) س ٣٣ الأحزاب: ٧٢.

٣) أنظر الطبرى ٢٦:٧.

فصالَحَهُ علىٰ شَىء، مِمّا ذُكر أنّهُ عندَهُ، فحمله.

ذِكرُ حيلةِ لِعَبدِ اللهِ بنِ خازمٍ

كان عبدُاللهِ بنُ عامرٍ، والِيًا على البصـرة، من قِبلِ معــاويةَ، فــأنفذ إلىٰ خُــراسانَ قيسَ بن الهيثم[1]، واستبطَأهُ فى بعض الأحوالِ، وكتبَ إليه، يَستَحِثُه حملَ المالِ.

وكان عبدالله بن خازمٍ حاضِرًا، فقال لابنِ عامرٍ:

- «إنّكَ قدوجّهتَ إلىٰ خراسان رجلاً ضعيفًا، وإنّى أخافُ: - إن لَقِىَ حَربًا - أن يَنهـزمَ بالنّاسِ، فتهلكَ خُراسان، وتَفتَضِحَ أخوالُكَ.»

قال ابن عامر:

- «فما الرّأىُ؟» قال:

- «تكتبُ لِى عَهدًا - إن هو انصرفَ عن عدُوٍّ - قمتُ مقامَهُ.»

فكتب له، وسار عبدُ اللهِ بن خازم إلىٰ خُراسانَ فجاشَتْ جماعةٌ من طخـارستان فشـاور [48] قيس بن الهيثم النّاس، فأشار عليه ابنُ خازمٍ أن ينصرفَ، حتّىٰ يجتمع إليه أطـرافُه، فـانصرف. فلمّا سارَ مرحلةً أو مرحلتين، أخرج ابن خازمٍ عهدَهُ، وقامَ بِأمر النّاسِ، ولَقِـىَ العَـدُوَّ، فهـزمهم. وبلغ الخبر المِصرَين[2]، والشّامَ، فَغَضِبتِ القيسيّةُ وقالوا:

- «خَدعَ قيسًا وابنَ عامرٍ»

وأكثروا فى ذلك على معاوية، حتّىٰ بعث إلى عبدِالله بن خازمٍ، فقَدِمَ به واعتذر مِمّا قيل فيه. فقال معاويةُ:

- «فإذا كان غدًا، فقُمْ فى النّاسِ، واعتذِر!»

فرجع ابنُ خازمٍ إلىٰ أصحابه، فقال:

- «قد أُمِرتُ بالخطبةِ، ولَستُ صاحبَ كلامٍ، فاجلِسوا حولَ المنبر، فإذا تكلّمتُ، فصدِّقُونى.»

فقام من الغَدِ، فحمد اللهَ، وأثنىٰ عَليه، ثمّ قال:

---

١) فى مط والطبرى (٦٦:٧) أيضًا: قيس بن الهيثم، ولكن فى الأصل: كلمة مقحمة تقرأ: «سعد بن»، «سـعدى»؟، وسيأتى الإسم: «قيس بن الهيثم» من دون أىّ إضافة، فى الأسطر الآتية من الأصل ومط.

٢) المصران: الكوفة والبصرة. قال ابن الأعرابى: قيل لهما «المصران»، لأنّ عمر - رضىاللهُ عنه - قال: لاتجعلوا البحرَ فى ما بينى وبينكم، مصّروها، أى: صيّروها بصرًا بين البحر وبينى، أى: حدًّا (لع).

ـ «إنّما يتكلّفُ الخطبةَ، إمّا[١] من لايجِد بُدًا منها، وإمّا أحمق يهمر[٢] رأسَه، لايُبالى ماخرج منه، ولستُ بواحدٍ منهما، وقد علم مَن عَرفنى أنّى بصيرٌ بالفُرَص، وثّابٌ عليها، وقّافٌ عند المَهالك، أنفذ بالسَّريّةِ، وأقسم بالسَّويّةِ. أنشُدكم باللهِ، من كان يعرف ذلك مِنّى، لمّا صدّقنى.»

فقال أصحابُه حولَ المنبر:

ـ «صَدقتَ.»

فقال:

ـ «ياأميرَ المؤمنين، [إنّكَ مِمَّن][٣] نَشدتُكَ، قُلْ ما تَعلمُ!»

فقال:

ـ «صَدقتَ.» [49]

ذكر تدبير نَفَذَ لِلمغيرة بن شعبة على زيادٍ

قدم زيادٌ الكوفةَ من عند مُعاويةَ، ونزل فى دار سَلمى بن ربيعةَ الباهلىِّ ينتظرُ أمر معاوية، أن يُجيبَهُ إمرتَهُ على الكُوفة. فبلغ المُغيرةَ بن شُعبة ـ وهو أميرٌ على الكوفة ـ أنّ زيادًا يَنتظرُ الامرةَ. فدعا قطنَ بن عبداللهِ الحارثىَّ، فقال:

ـ «هَلْ فيك من خير: تكفينى المؤونةَ حتّىٰ آتيكَ من عند أمير المؤمنين؟»

قال:

ـ «ما أنا بصاحب ذا.»

فدَعا عُتيبة بن نَهّاس[٤]، فعرض عليه ذلك، فقَبِلَ.

فخرج المغيرةُ، فلمّا قدِم علىٰ مُعاوية، سأله أن يَعزلَه، وأن يُقطعَ له مَنازلَ بِقرقيسا بينَ ظَهرَى قيس. فلمّا سمع معاوية ذلك، خافَ بائقتَهُ، وقال:

ـ «واللهِ، لَتَرجِعَنَّ إلىٰ عَملك يابا عبداللهِ.»

فأبىٰ عليه، فلم يَزِدْهُ ذلك إلاّ تُهمةً له، فردّه إلىٰ عَمله، فطَرقَ المغيرةُ الكوفةَ ليلاً.

قال معيدُ بنُ خالدٍ البَجَلىّ: «فواللهِ إنّى لَفوقَ القصر أحرسه، إذا قَرعُ البابِ[٥]، فأنكرناهُ، فلمّا

---

١) إمّا مَن لايجد: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٦٦:٧): إمامٌ لايجد.

٢) يَهمرُ راسَهُ: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى: يهمر من رأسه. همَر الماءَ ونحوَه (ويهمِرُهُ، ويَهمُرُهُ) صَبَّهُ. همَرَ الكلامَ، وفى الكلام: أكثر فيه.

٣) تكملةٌ عن الطبرى.

٤) نَهّاس: الكلمة مهملةٌ فى الأصل. فى مط: نهاس. وضبطناها حسب مط والطّبرى (٧٢:٧).

٥) إذا قَرعُ البابِ: كذا فى الأصل. وفى مط: اد قرع الباب. وما فى الطبرى: فلمّا قرع الباب.

خافَ أن نُدلّى عليه حجرًا، تَسَمّىٰ لنا. فنزلتُ إليه، وسلّمتُ، فتمثّلَ بِقول القائل:

بِمِثْلِى فَاقرَعِى[1] يَا أُمّ عَمرو   إذَا مَاهَاجَنِى السَّفَرُ النُّفُورُ[2]   [50]

- «إذهب إلى ابن سُمَيّةَ، فرَحْلُه، حتّىٰ لا يُصبحَ إلاّ من وراءِ الجَيشِ[3].»

فخرجتُ، فأتيناهُ، فأدخَلناهُ، حتّىٰ طَرحناهُ، قبلَ أن يُصبحَ من وراءِ الجيش .

ذِكرُ سياسةِ زيادِ العراقَ حتّىٰ صَلحَ بعدَ الفَساد

إنّه بلغ معاويةَ فسادُ أهلِ البصرة، وكثرةُ العَيثِ، وضعفُ السُّلطانِ بها عن ضَبط النّاسِ، وكان والى البصرةِ عبدالله بن عامرٍ، وكان فيه لِينٌ وكَرمٌ. فكان إذا أشير عليه بقَطع السّارقِ ، عَفا عنهُ، وإذا أشيرَ بِقتلِ مَن يَستحقُّ القتلَ، قال:

- «أنا أتألّفُ النّاسَ، وأتحبّبُ إليهم، فكيفَ أنظرُ فى وَجهِ مَن قتلتُ أباهُ، أو أخاهُ، أو قَطعتُهُ.»

فكثر الفَسادُ بالبصرة، فعزلهُ معاويةُ، وكتبَ إليه يَستَزيرُهُ، وولّىٰ حارثَ بن عبدِاللهِ الأزدىَّ، فتركهُ أربعة أشهر، ثمّ عَزلهُ بزيادٍ.

وإنّما أرادَ معاويةُ أن يُولّى زيادًا، فولّى الحارثَ كالفرسِ المُجَلّلِ، فقدِمَ زيادُ البصرةَ، فخَطبَ خُطبَتَهُ البَتراءَ[4]، ثمّ قال:

[الخُطبَةُ البَتْراءُ]

- «أمّا بعدُ، فإنّ الجهالةَ الجَهلاءَ، والضّلالةَ العَمياءَ، والعجزَ[5] المُوقِدَ لأهله النّارَ، الباقىَ عليهم سَعيرُها، مايأتى سُفهاؤكم، ويَشتملُ عليه حُلَماؤكم من الأمور العِظامِ، [51] يَنبُتُ[6] فيها الصَّغيرُ، ولا يَتحاشىٰ منها الكبيرُ، [كأنْ لم تسمعُوا بآيِ اللهِ، ولم تقرَأوا كتابَ اللهِ، ولم تَسمعوا ما أعدّ[7] اللهُ من الثّوابِ الكريمِ لأهلِ طاعتِهِ، والعذابِ الأليم لأهلِ مَعصيتِهِ، فى الزّمنِ السّرمدِ الّذى لايَزُولُ. أتكُونُون كَمَن طَرفَتْ عَينَهُ الدُّنيا،

١) كذا فى مط: فاقرعى. فى الطبرى: فافزعى. وفى حاشيته: فاقرعى.   ٢) فى الطبرى: السَّفْر النعور. فى مط: النَّفْر النُّفور.   ٣) كذا فى مط: الجيش. وفى الطبرى (٧٣:٧): الجسر (فى كلا الموضعين).

٤) سُمِّيت بتراءَ، لأنّه لم يحمد الله فيها، وقيل بل حَمَدَ اللهَ، فقال: «الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسألُهُ المزيدَ من نعَمِهِ، اللّهم، كما رَزَقتَنا نِعَمًا، فألهمنا شكرًا على نعمتك علينا. أمّا بعد،...» انظر الطبرى ٧٣:٧، وابن الأثير ٤٤٧:٣.

٥) كذا فى مط، وفى هامش الطبرى: المجز. فى الطبرى وابن الأثير: الفجر.   ٦) ينبت: كذا فى الطبرى. وفى مط: بيبت. فى هامش الطبرى: يشب.   ٧) فى الطبرى: عدّ الله. وما أثبتناهُ من ابن الأثير

وسدّتْ مَسامعَهُ الشَّهوَاتُ، واختارَ الفانيةَ على الباقية، ولاتذكُرون، أنّكم]١ أحدثتُم٢ فى الاسلامِ الحدَثَ الّذى لم تُسبَقُوا إليه٣ [مِن تَرككُم]٤ هذه المواخرِ٥ المنصوبة، والضّعيفة المسلوبة، فى النّهار المُبصر، والعَددُ غير قليلٍ.

- «ألم تكن منكم نُهاةٌ تَمنعُ الغُواةَ عن دَلجِ٦ اللّيلِ، وغارةِ النّهارِ؟ قرّبتُمُ القرابةَ وباعدتُم [الدينَ، تَعتذِرُون]٧ بغير العُذر، [وتُغطُّون على المختلس]٨ كلُّ امرئٍ منكم يَذُبُّ عن سَفيههِ، صُنعَ مَن لايَخافُ عاقبةً، ولايرجُو معادًا، فلم يَزلْ بِهم مايَرونَ من قِيامِكُم دُونَهم، حتّى انتهكُوا حُرمةَ الاسلامِ، ثمَّ أطرقُوا٩ وَراءَكُم كُنُوسًا فى مَكانِسِ الرِّيَبِ. حرامٌ علىَّ الطّعامُ والشّرابُ حتّىٰ أُسوِّيَها بالأرضِ، هدمًا وإحراقًا، فإنّى رأيتُ آخِرَ هذا الأمر، لايصلح إلّابما يصلح أوّله: لينٌ فى غير ضَعف وشدّةٌ فى غير جَبريّةٍ [وعُنفٍ]١٠.

- «وإنّى أقسمُ باللهِ، لآخُذَنَّ الوَلىَّ بالوَلىِّ، والمُقيمَ بالظّاعنِ، والمُقبلَ بالمُدبرِ، والصّحيحَ منكم بالسّقيمِ، حتّى يَلقَى الرّجلُ منكم أخاهُ فيقول: أنجُ سَعدُ، فقد هلك سَعيدُ. أو تستقيم لى قَناتُكم. إنّ كِذبةَ المنبر بَلقاءُ١١ مشهورةٌ، فمن تعلّق لى بكذبةٍ، فقد حلّت له مَعصيتى. مَن بُيّتَ منكم فأنا ضامنٌ لِما [52] ذهبَ له. إيّاىَ ودَلجَ اللّيلِ! فإنّى لاأوتى بمُدلجٍ إلاّ سفكتُ دَمَهُ، وقد أجّلتكُم فى ذلك بقدر مايأتى الخبرُ الكوفةَ ويرجعُ إليكُم، وإيّاىَ ودَعوىَ الجاهليّةِ! فإنّى لاأجدُ احدًا دَعا بها إلاّ قطعتُ لِسانَهُ.

- «لقد أحدثتُم أحداثًا، وقد أحدثنا لها عُقوباتٍ١٢. فمن غرّقَ قومًا غرّقناهُ، ومَن حرّقَ علىٰ قومٍ حرّقناهُ، ومَن نَقَبَ على قومٍ نقبتُ قلبَهُ، ومَن نبشَ قبرًا دفنتُهُ حيًّا. فكُفُّوا أيديَكُم وألسنتَكُم، أكفُفْ يَدى وأذاىَ. لايظهر من أحدٍ منكم خلافُ ماعليه عامّتُكم إلاّ ضربتُ عُنقَهُ.

١) مابين [ ] تكملةٌ من الطبرى. ٢) فى الأصل: «فأحدثتم» بدون «إنّكم». ٣) فى الطبرى: به.

٤) مابين [ ] تكملةٌ من الطبرى. ٥) المَواخِر، والمَواخير: كلاهما جمعٌ مفرده: الماخور: مجلسُ الفسّاق، بيت الرّيبة والدّعارة. ٦) الدّلجُ: إسمٌ من قولهم: أدلجَ يُدلجُ إدلاجًا: إذا سار أوّلَ الليل، ومنهم من يجعل الإدلاجَ اللّيلِ كلّه. ٧) فى الأصل ومط: «الّذين يعتذرون» وهو تصحيفٌ، وما أثبتناهُ يُؤيّده الطبرى وابن الأثير. ٨) مابين [ ] تكملةٌ من الطبرى. وما فى ابن الأثير: وتعطفون على المختلس.

٩) أطرقوا: كذا فى الطبرى وابن الأثير. وما فى مط وحواشى الطبرى: أطرفوا. ١٠) مابين [ ] تكملةٌ من الطبرى وابن الأثير. ١١) بَلقاء: كذا فى مط. وفى الطبرى: تبقىٰ. ١٢) كذا فى مط: لها عقوبات. وفى الطبرى وابن الأثير: لكلّ ذنبٍ عقوبةٌ.

- «وقد كانت بينى و بين قومٍ أحَنٌ، فجعلتُ ذلك دَبَر أذنى، وتحتَ قدمى. فمن كان منكم مُحسنًا، فليزدْ إحسانًا، ومَن كان مُسيئًا، فلْينزعْ عن إساءَته. إنّى لوعلمتُ أنَّ أحدكُم قد قتلَهُ السّلُّ من بُغضى، لم أكشفْ لهُ قِناعًا، ولم أهتكْ له سِترًا، حتّىٰ يُبدِىَ لى صحيفتَهُ. فإذا فعلَ، لم أناظِرْهُ. فاستأنِفُوا أمورَكم، وأعينُوا علىٰ أنفسكم، فربُّ مُبْتَئسٍ بقدومِنا سَيُسرُّ، ومسرورٍ بقُدومِنا سَيبتئسُ.

- «ايُّها النّاس، إنّا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً، [53] نسوسُكم بسلطان اللهِ الّذى أعطانا، ونذودُ عنكم بِفَيْءِ اللهِ الّذى خوّلَنا. فلَنا عليكم السّمعُ والطّاعةُ فى ما أحببنا، ولكم علينا العدلُ فى ما وَلينا، فاستوجِبوا عدلَنا وفَيْئَنا بمناصحتكم.

- «واعلمُوا أنّى مَهما قصّرتُ عنهُ، فإنّى لاأقصّرُ عن ثلاثٍ: لستُ مُحتجِبًا عن طالبِ حاجةٍ منكم، ولو أتانى طارقًا، ولاحابسًا عطاءًا عن إبّانِهِ ولا مُجمِّرًا لكم بَعثًا، فادعُوا اللهَ بالصّلاح لأئمّتِكُم، فإنّهم ساستُكم المؤدّبون، وكَهفُكُم الّذى إليه تأوُون، ومتىٰ تصلُحوا، يصلُحوا[1]، ولا تُشربُوا قلوبَكم بُغضَهم، فيشتدُّ لذلك غيظُكم، ويطولَ له حُزنُكم.ولا تُدركوا حاجتَكم، مع أنّه لو استُجيبَ لكم، كان شرًّا لكم.

- «أسألُ اللهَ أن يُعينَ كُلاً علىٰ كُلٍّ، وإذا رأيتُمونى أنفِذُ فيكم أمرًا، فأنفِذوهُ على إذلالِهِ، وأيمُ اللهِ إنَّ لى فيكم لَصرعىً كثيرًا، فَلْيحذَرْ كُلُّ امرئٍ منكم أن يكونَ من صَرعاىَ.»

وأمهل النّاسَ حتّىٰ بلغ الخَبرُ الكوفةَ، وعاد إليه وصولُ الخبر منها. فكانَ يُؤخِّر العِشاءَ الآخرةَ حتّىٰ يكونَ آخرَ مَن يُصلّى. ثمّ يُمهِلُ بقدرِ مايَرىٰ أنَّ الانسانَ يبلغ أقصى البصرةِ مِن أدناها، [54] ثمّ يأمرُ صاحبَ شُرطتِه بالخروج، فلايَرىٰ إنسانًا إلاّ قتله.

[ذكرُ قَتلِه البَرىءَ]

فأخذَ ذات ليلةٍ أعرابيًا، فأتى به زيادًا، فقال:

- «هل سمعتَ النّداءَ؟»

قال:

---

١) فى الأصل: ومتى يصلحوا، تصلحوا. وما أثبتناهُ يؤيِّدهُ مط والطبرى وابن الأثير.

ـ «لا، والله، إنّما قدمتُ بحلوبةٍ لى، وغشِيَنى اللّيلُ، فاضطررتُها إلى موضعٍ، وأقمتُ لأصبحَ، ولا عِلمَ لى بما كان من الأمير.»

قال:

ـ «أظنّكَ صادقًا واللهِ، ولكن فى قتلك صلاح الأمّة»!

ثمّ أمر به فضُربت عُنقه.

[ضَبطُهُ البصرةَ بِشدّةٍ وتاكيدُهُ المُلكَ لِمُعاوية]

وكان زيادٌ أوّلَ مَن سدّدَ[1] أمرَ السُلطانِ، وأكّد المُلكَ لِمعاوية، بعد أن كادتِ البصرةُ خاصّةً تخرج عن حدّ الضّبط، وتخرج بخروجها المُلكُ كُلّه. فتقدّم زيادٌ فى العُقوبةِ، وجرّد السّيفَ، وأخذ بالظِّنّةِ، وعاقبَ على الشُبهةِ، وخافهُ النّاسُ خوفًا شديدًا، حتّىٰ أمِنَ النّاسُ بعضُهُم بعضًا، وحتّىٰ كان الشّئُ يسقط من الرّجل أو المراةِ، فلا يعرض له أحدٌ، حتّى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتَبيتُ المرأةُ لاتُغلِقُ عليها بابَها. وساس النّاسَ سياسةً لم يُرَ مثلُها، وهابَهُ النّاسُ هيبةً لم يهابُوها[2] احدًا قبلهُ، وأدرّ العطاءَ.

وقيل لِزياد:

ـ «إنّ السُّبُلَ مَخوفةٌ.»

فقال: [55]

ـ «لاأعانى شيئًا وراءَ المِصر، حتّىٰ أغلبَ على المِصر وأصلحَهُ، فإن غلبنى المِصر، فغيرُهُ أشدُّ غلبةً.»

فلمّا ضبطَ المِصرَ، تكلّف ماوراءَ ذلكَ، فأحكمهُ.

وكان يقولُ:

ـ «لو ضاعَ حَبلٌ بينى وبين خراسان، علمتُ مَن أخذه.»

وكتَب خمسمائةِ رجلٍ من مشيخة أهل البصرةِ فى صحابته، فرزقهم مابين الثّلاثمائةِ إلى الخمسمائةِ، واستعان بعدّةٍ من اصحاب رسول اللهِ، صلّى الله عليه.

وزيادٌ أوّلُ من سيرَ بين يَديهِ بالحربة، ومُشِىَ بين يَديهِ بالعُمُدِ الحديدِ، واتّخذ الحرسَ رابطة

١) سدّد: كذا فى الأصل ومط وابن الأثير (٣:٤٥٠)، وفى الطبرى (٧:٧٧): شدّ أمر السلطان، وفى حواشيه: شدّد أمرهُ.

٢) فى الأصل ومط: لم يهابوه، وما اثبتناهُ يؤيّده الطبرى.

خمسمائة[١]، فكانوا لا يبرحون المسجد، وجعل خراسان أرباعًا، فولّى كُلَّ رُبعٍ رجلاً كافيًا.

[قطع أيدى الحاصبين فى الكوفة]

ولمّا ماتَ المغيرةُ بن شُعبة، كَتبَ معاويةُ إلى زيادٍ بعهدِهِ على الكوفةِ، فكان أوّلَ من جُمعتْ له البصرةُ والكوفةُ، واستخلف على البصرةِ سمرةَ بن جندبٍ، وشخص إلى الكوفةِ، وكان زيادٌ يُقيمُ ستّةَ أشهرٍ بالبصرة، وستّةَ أشهرٍ بالكوفة.

فلمّا دخل الكوفة صعد المنبر، وقال فى خُطبته:

- «إنّى أردتُ أن اشخصَ [56] إليكم فى ألفَين من شُرَطِ البصرة، ثمّ ذكرتُ أنّكم أهل حقٍّ، وأنّ حقَّكم طال مادمغَ الباطلَ، فأتيتُكم فى اهلِ بيتى.»

فلمّا فرغ من خُطبته، حُصِبَ على المنبر، فجلس، حتّى أمسكُوا. ثمّ دَعا قومًا من خاصّته، فأمرهم أن يأخُذوا أبوابَ المسجد، ثمّ قال:

- «ليأخُذْ كلُّ امرئٍ منكم جليسَهُ، ولا يقُولَنّ: لا أدرى مَن جليسى.»

ثمّ أمر بكرسىٍّ، فوضعَ له بباب المسجد، فدعا أربعةً أربعةً، يحلفون باللهِ:

- «مامِنّا مَن حَصَبَكَ.»

فمن حلفَ خلاّهُ، ومن لم يحلفْ، حَبسهُ وعزله، حتّى صار إلى ثمانين[٢]، فقطع أيديَهم على المكان.

قال الشّعبى: فوالله ماتعلّقنا عليه بكذبةٍ، وما وَعدَنا خيرًا أو شرًّا إلاّ أنفذَهُ.

ولمّا قدم الكوفةَ، أتاهُ عُمارة بن عُقبةَ بن أبى مُعيطٍ، فقال:

- «إنّ عمرو بن الحَمِق يجمع من شيعة أبى تُرابٍ.»

فقام إليه عمرو بن الحارث[٣] فقال:

- «مايدعوك إلى رفع مالا تتيقّنه، ولا تَدرى ما عاقبتُه.»

فقال زيادٌ:

- «كلاكُما لم يُصِبْ: أنتَ حيثُ تكلّمنى فى هذا علانيةً، وعمرُو حينَ يردُّك عن كلامِكَ. قوما

---

١) واتّخذ الحرس رابطة خمسمائة: كذا فى مط والطبرى ٧:٧٩.

٢) كذا فى مط: ثمانين. وفى الطبرى (٧:٨٨): ثلاثين، ويُقال: بل كانوا ثمانين .

٣) كذا فى الأصل ومط: الحارث (= الحرث). وما فى الطبرى: حُرَيث.

إلى عمرو بن الحَمِق، فقــولا لهُ: ماهذه الزَّرافــاتُ [57] الّتى تجتمع إليكَ؟ مَن أرادك، وأردتَ كلامَهُ، ففى المسجد.»

[إستخلاف زيادٍ سَمُرةَ على الكوفة]
[وتشدُّده فى أمر الحرورِيَّة]

ثمَّ استخلف زيادٌ على الكوفة سَمُرةَ بن الجندب، وهو من أصـحابِ رسـولِ اللهِ ـ صـلّى اللهُ عليه ـ وخرج زيادٌ إلى البصرةِ، وعاد إلى الكوفة، وقد قتلَ سمرة ثمانيةَ آلافٍ من النّاس، فقال له زيادٌ:

ـ «هل تخاف أن تكون قتلتَ أحدًا بريئًا؟»

قال:

ـ «لوقتلتُ إليهم مِثلَهُم، ماخَشيتُ ذلك.»!

وكان زيادٌ قد تشدَّدَ فى أمرالحَرورِيَّةِ، وأوصىٰ سمرة بذلك، وكان سمرةُ يخلُفُه على البصـرةِ، إذا خرج إلى الكوفة، وعلى الكوفة، إذا خرج إلى البصرةِ، فقتل سمرة منهم خلقًا كثيرًا.

ذِكرُ حيلةِ لِلمُهلَّبِ بِخُراسانَ

كان زيادٌ ولّى الحكم بن عَمرو ناحيةً من خراسان، وكتب إليه:

ـ «إنَّ أهلَ خُتَّلَ[1] سلاحُهم اللُبودُ، وآنِيَتُهُمُ الذَّهبُ.»

فغزاهُم، حتّىٰ إذا تَوسَّطَهُم، أخذوا علَيه بالشِّعابِ والطُّرُقِ، واحـدقُوا به فعىَّ[2] بالأمر، فتولّى المهلَّبُ الحربَ، وولى المغيرة بن أبى صـفرة أمرَ العسكـر، ولم يَزلِ المهلَّبُ يحتالُ، حتّىٰ أخَـذَ عظيمًا من عظماءِ الأعاجم [58] فقال له:

ـ «إختَرْ بينَ أن أقتلَكَ، وبينَ أن تُخرجَنا مِن هذا المضيق.»

١) كذا فى الأصل ومط: خُتَّل. وفى الطبرى (١٠٩:٧): أهل جبل الأشلَ، وفى حـاشيته: الأسـل. والخُتَّلُ: كورةٌ واسعةٌ كثيرةُ المُدن، خلف جيحون، اجلُ من صُغانيان، واوسع خطَّةً، واكثر مدنًا، واكثر خيرًا، وهى على تُخوم السِّندِ يُقال لِقَصَبتِها: هُلْبُك، ولها مُدنٌ كثيرةٌ. قال المرادى:

أيُها السّائلى عَنِ الحارثِ الذُّ ل، وعَن أهلِ وُدِّه الأرجاسِ
عُدْ من خُتَّلٍ، فَخُتّلُ أرضٌ عُرِفتْ بالدَّوابِ، لا بالنّاسِ

٢) كذا فى الأصل والطبرى: عىّ. وفى مط وحواشى الطبرى: عنى. فسعى.

فقال لهُ:

- «أوقِدِ النّارَ حِيالَ طريقٍ مِن هذه الطُّرق، وَمُرْ بالأثقال فَلْتُوجّهْ نحوَهُ، حتّىٰ إذا ظنَّ القومُ أنّكم قد دخلتُم الطريقَ لِتَسلُكُوهُ، فإنّهم[١] سيجتمعون لكم، ويُعرون[٢] ماسواهُ من الطُّرق، إلاّ مَن لا يبالى به، فبادِرُوهم إلى غيره، فإنّهم لايُدركونكم حتّىٰ تخرُجوا منه.»

ففعلُوا ذلك، ونَجَوا، وغنموا غنيمةً عظيمةً، والقومُ كانوا أتراكًا.

أسماءُ كُتّابِ مُعاوية

كتَبَ له على الرّسائل عُبيدالله بن أوسٍ الغَسّانى، ثمّ تولّى له ديوانَ ما بالعراق من صوا فى كِسرىٰ وآلِ كِسرىٰ، وكتب لهُ على الخراج سرجَون بن مَنصور الرُّومىّ.

وكان لِمعاويةَ كاتبٌ يقال له: عبدالرّحمان بن الدُّرّاج، كان من مواليه، فقلّدهُ خراج العراق لمّا قلّد المغيرةَ الحرب بها، وطالبَ أهلَ السّوادِ بأن يُهدوا إليه فى النّوروز، والمهرجان. ففعلوا ذلك، فبلغ عشرة آلافِ ألفِ [١٠٠٠٠٠٠٠] درهمٍ فى سنةٍ.

ثمّ دعا بالدّهاقين، فسألهم عمّا كان من صوا فى كِسرىٰ، فعُرِّفَ [59] أنّ الدّيوان بِحُلوان، فبعث، فأحضرَ، ثمّ استخرج ماكان فيه، فكان أوّل ذلك كلواذى للأساورة، والكُتّابِ، والحاشية.

وكان كسرىٰ لايُقطع الكُتّابَ أكثر من ثلاثين جريبًا. فكتب ابن الدُّرّاج إلى معاوية بذلك، فكتب إليه معاوية: أن استَصفِها، واستخرج مافيها. ففعل، فبلغت صوا فى معاوية على يَدِهِ خمسينَ ألفَ ألفٍ [٥٠٠٠٠٠٠٠].

وكان عمرُو بن سعيد بن العاص يكتب له على ديوان الجند.

وكان معاوية أوّل مَن اتّخذَ ديوان الخاتمِ. وكان سبب ذلك أنّهُ كتبَ لعمرو بن الزُّبير بمائة ألف [١٠٠٠٠٠] درهمٍ إلى زيادٍ، وهو عاملُه على العراق، ففضّ عمرُو الكتابَ، وجعلها مائتَىْ ألفِ [٢٠٠٠٠٠] درهمٍ.

فلمّا رفع زيادٌ حسابَهُ قال له معاوية:

---

١) فى الأصل ومط: فإنّه. وما أثبتناهُ يؤيّده الطبرى.

٢) كذا فى الأصل ومط: يعرون. وفى الطبرى: يُعْرُون. وفى حواشيه: يعزون.

ـ «ماكتبتُ له إلاّ بمائة ألفٍ.»

وقال معاويةُ:

ـ «المائة الألف ينبغى أن تُؤخذَ منه.»

فحبسه مَروانُ، فصار عبدالله بن الزُبير إلى مَروان، وهو على المدينة، فأخبرهُ بِقصّـته، فقـال مروان:

ـ «فإنّ الخبر كيتَ وكيتَ.»

فقال عبدُالله:

ـ «أ رأيتَ ـ إن أعطيناكها ـ أ لكَ عليه سبيلٌ؟» قال:

ـ «لا.» قال:

ـ «فابْعثْ، فخُذْها.»

ففعلَ. [60] واتّخذَ[١] معاويةُ ديوانَ الخاتم، وقلّدهُ عبدَ اللهِ بن مُجمّر، وكان قاضيًا[٢].

[من سِيرة زياد]

وكان زيادٌ يجلس فى كلّ يوم، إلاّ يَومًا فى الجمعة، فيبدأ برُسل عُمّاله، فينظر فـى ما قَـدِمُوا لَهُ، ويَسألهم عن بلادِهم، ويُجيبُهم عن كُتُبِهم، ثمّ ينظر فى نفقاتِه، وفى أعطياتِ رجالِه، ثمّ فـى ما دخل من البياعات، وفى الأسعار، ويَسأل عن الأخبار، وينظر فى مايحتاج إليه من حفـر نَهـرٍ، وإصلاحِ قنطرةٍ، أو تسهيل عَقَبَةٍ، أو نقلِ طريقٍ إلى غيره، ثمّ يأخُذ فـى كُتبِ العُمّالِ، فيُمليهـا بِنفسه، فكان معاوية يفعـل مثل ذلك سـواءً، ولا يخـالفُهُ حتّى كبر[٣]. وكان الضّـحّاكُ بن قيسٍ يُملى وهو يسمع.

وخـلا زيادٌ يَومًا على كاتبه أسـرارًا له، وبِحضـرته عُبيدالله ابنُه. فنَعسَ زيادٌ، فقام لِيَنامَ، وقال لعبيد اللهِ:

ـ «تَعهّدْ هذا، لايُغيّرْ شيئًا مِمّا رسمتُه لهُ.»

فعـرض لِعُبيد اللهِ حـاجةٌ إلى البَولِ، واشـتدّ به ذلك، وكرِهَ أن يُنبِهَ أباهُ، وكرِهَ أن يقـومَ عن الكاتب ويُخلّيَهُ، فشدّ إبهامَيهِ بخيطٍ، وختمهما، وقام لِحاجته، فاستيقظ زيادٌ قبلَ عَودِه. فلمّا نظر إلى الكاتب سألهُ عن خبره، فأخبرهُ، فأحمد ذلك من فِعلِ عبيداللهِ.

---

١) فى مط: اخذ.   ٢) فى مط: قاميا   ٣) كذا فى الأصل ومط: ولا يخالفه حتّى كبر.

وأهدى زيادُ إلى معاوية [61] هدايا كثيرةً، وكان فيها عقد جوهرٍ نفيس، فأعجب به معـاوية. فلمَّا رأىٰ ذلك زيادُ، قال له:

- «يا أمير المؤمنين، دوَّختُ لك العراق، وجَبيتُ لك بَرَّها وبَحرَها، وغَثَّهـا وسـمينَها، وحملتُ لك لُبَّها وقِشرَها.»

فقال له يَزيدُ:

- «أينَ فعلتَ ذلك؟ لقـد نقلناك من ولاءِ ثقيفٍ إلى عزِّ قُـريش، ومن عُبيدٍ إلىٰ أبى سـفيان، ومن القلم إلى المنابر، وبعد، فما أمكنك شَيْءُ ممَّا اعتددتَ به، إلاَّ بِنا.»

فقال معاويةُ:

- «حسبُكَ! وَرِيَتْ بك زنادى.»

وقلَّد معاويةُ عبدالرَّحمان بن زيادٍ خراسانَ بعد مَوتِ أبيه، وكان سَخيًا، فلم يزلْ عليهـا إلى أن وَلىَ يزيدُ، وقتلَ الحسـينَ بن علىٍّ - عليهما السَّلام - واسـتخلف على عمله قيس بنَ الهيثم، وأقبل إلىٰ يَزيدَ، فأنكر قُدومَهُ، ثمَّ رضى عنه، وسأله عمَّا حصل له، فاعترف له بعشـرين ألفَ الفِ [٢٠،٠٠٠،٠٠٠] درهمٍ، فسوَّغَها إيَّاها، وكان معه من العُروض أكثر منها.

فقال يومًا لكاتبه إصطفانوس:

- «ويحكَ! كيف يجيئُنى النَّومُ وهذا المالُ عندى؟»

فقال له:

- «وكم مبلغُه؟»، فقال:

- «قدَّرتُ منه لِمائة سنةٍ، فـى كلِّ يومٍ ألف درهم، لا أحتاج منه إلى شـراءِ رقيقٍ، ولا كُراعٍ، ولا عَرَضٍ من الأعراض[١].» [62]

فقال له إصطفانوس:

- «أنام اللهُ عينَك أيُّها الأميرُ، لا تعجبْ من نَومِك وعندك هذا المالُ، ولكن اعجَـبْ من نَومِكَ إن ذَهبَ، ثمَّ نمتَ.»

قال: واللهِ، لقد ذهبَ ذلك المالُ كلُّه، أودعَ بعضَه فجُحِدَ، وأنفقَ بعضَهُ، وسرقَ أسبابُه بعضَـهُ، فالَ أمرُهُ إلى أن باعَ فضَّـةً كانت حِليةَ مصـحفِه، وكان يركبُ حمارًا صـغيرًا تنالُ رِجلُه الأرضَ

١) كذا بالأصل: عرضٍ من الأعراض (بالعين المهملة)، وفى مط: غرضٍ من الأغراض (بالغين المعجمة).

عليه.

فلقيه مالكُ بن زيادٍ[١]، فقال له:

ـ «مافعلَ المالُ الّذى كنتَ تقولُ فيه ماتقول؟» فقال:

ـ «كُلُّ شئٍ هالِكٌ، إلاّ وَجْهَهُ[٢]، يابا يحيى!»

وكتب معاويةُ إلى سعيد بن العاص: أن:

ـ «إقبضْ أموالَ مَروان، واهدِمْ دارَهُ.»

فأمسك سعيدُ عن ذلك. ثمّ كاتبهُ فى ذلك ثانياً، فراجعه سعيد، فقال:

ـ «ياأمير المؤمنين، قرابةٌ قريبةٌ.»

فكتب إليه ثالثًا، بقبض أمواله، وهدمِ داره، فلم يفعلْ. فعزل سعيدًا[٣]، ووَلّىٰ مَروانَ، وكتب إليه أنْ:

ـ «إهدِمْ دارَ سعيدٍ.»

فأرسلَ الفَعَلةَ، وركب ليهدمَها، فقال له سعيدُ:

ـ «يابا عبدِالمَلِكِ، أتهدمُ دارى؟» قال:

ـ «نعم! كتب إلىّ أمير المؤمنين، ولو كتب إليك، لَفعلتَ.» قال:

ـ «ماكنت لأفعلَ.» قال:

ـ «بَلىٰ واللهِ، لوكتبَ إليكَ لَفعلتَ.» قال:

ـ «كلاّ، يا باعبدِ المَلك.» [63]

وقال لِغلامه:

ـ «إنطلقْ، وجِئْنى بكُتُبِ معاويةَ.»

فجاءَ بها، فقرأها عليه فى ما كتب فى هَدمِ داره.

فقال مَروانُ:

ـ «يابا عثمان! وَردتْ عليك هذِه الكُتُبُ فى هَدمِ دارى، فلم تفعل، ولم تُعلِمْنى!» قال:

ـ «ماكنتُ لأهدمَ دارَك، ولا أمُنُّ عليك، وإنّما أرادَ معاويةُ أن يُحرّضَ بيننَا.»

فقال مَروانُ:

---

١) زياد: كذا فى الأصل، وما فى مط: دينار! ٢) س ٢٨، القصص: ٨٨. ٣) أنظر الطبرى ٧: ١٦٤.

- «بأبى أنتَ، والله اكثرُ مِنّا ريشًا وعقبًا.»
ورجع ولم يهدِمْ دارَ سعيدٍ.

وقدِمَ سعيدُ علىٰ معاوية، فقال:
- «يا باعثمان، كيف تركتَ أبا عبدِالملك؟» قال:
- «تركتُهُ ضابطًا لأعمالك، منفذًا لأمرك.» قال:
- «إنّهُ لَصاحب الخُبزةِ كُفىَ نُضجَها، فأكلَها.» قال:
- «كلاّ، واللهِ يا أمير المؤمنين، إنّه مع قومٍ لايجمل[١] بهم السَّوطُ، ولا يحل[٢]لهم السَّيفُ، يتهاذَون كوقع النَّبلِ، سَهمٌ لَكَ، وسَهمٌ عليكَ.» قال:
- «ماالّذى باعدَ بينَكَ وبينَه؟» قال:
- «خافنى على شَرَفِه، وخفتُه على شرفى.» قال:
- «فماذا لَهُ عندك؟» قال:
- «أسرُّهُ غائبًا، وأسوءُهُ شاهدًا.» قال:
- «تركتَنى يابا عثمان، فى هذه الهَنات؟» قال:
- «إنّكَ تحمّلتَ الثّقلَ، وكُفيتَ الحرمَ[٣]، وكنتَ قريبًا، فلَو دَعوتَ لأجبتَ، ولَو وهيتَ لَرُقِعتَ[٤].»
[64]

[كلامٌ واقعٌ ارتَفعَ به صاحبُهُ]

ومن الكلام الواقع الّذى ارتفع به صاحبُهُ، كلامُ عُبَيد الله بن زيادٍ لِمُعاوية. وذلك أنّهُ وفـد على معاوية، بعد مَوتِ أبيه، فقال له معاويةُ:
- «مَنِ استخلفَ أخى علىٰ عَمَلِه؟»
قال عُبَيدُ اللهِ:
- «إستخلفَ خالد بن اُسيدٍ على الكوفة، وسَمُرَةَ بن الجُندبِ على البصرة.»
فقال له معاويةُ:

---

١) لايجمل: فيها غموض بالأصل. وفى مط: تحمل.
٢) كذا فى الأصل: يحلُ. وفى مط: تحمل.
٣) الحرم: كذا بالأصل. وفى مط: الجزم.
٤) لرُقعتَ: كذا فى الأصل. وفى مط: لوقعت.

ـ «لو استعملك أبوكَ، لاستعملتُك.»

فقال عُبيدُاللهِ:

ـ «أنشُدُك اللهَ، أن يقولَها لى أحدٌ بعدَكَ: لو وَلَاكَ أبوك، أو عمّك، وَلَيتُكَ.»

وكان معاوية لايُولّى أحدًا حتّى يَمتحنَهُ بولايةِ الطّائفِ، فإن أحسنَ الولايةَ، ولاهُ مكّةَ، فإن وفىٰ، ولاهُ معها المدينةَ، ثمّ يُرتّبُهُ كذلك، فلمّا قال عُبيد الله بن زيادٍ ماقال، إسترجَحَهُ، وعَهِدَ إليه، ووَصّاهُ، و ولاهُ مكانَ أبيه. فغزا خراسانَ، وفتحَ رامين[١]، ونصف[٢]، وبيكند[٣]، وهى من بُخارىٰ. فقدم بألفينِ من سَبىِ بُخارىٰ، وكلُّهم جَيّدُ الرّمىِ بالنُّشّاب.

وكان معاويةُ ولّى البصرةَ عبدَ اللهِ بن عَمرو بن غيلان، فاحتال له أهلُ البصرة، حتّىٰ عزله عنهم.

ذِكرُ حيلتهم هذه

[65] خَطبَ عبدُ الله بن عَمرو بن غيلان[٤]، علىٰ منبر البصرة، فحَصَبَهُ رجلٌ من بنى ضَبّة، فأمر به، فقُطعت يَدُهُ، فأتَتهُ بَنوضَبّة، فقالوا:

ـ «إنّ صاحبَنا جنىٰ ماجنىٰ، وقد بلغ الأميرُ فى عُقوبتِه، ولا نأمن أن يبلغَ خبره أميرَ المؤمنين أنّه قُطعَ على فاحشةٍ، ونسألكَ أن تكتبَ إلىٰ امير المؤمنين أنه قُطع علىٰ تبرئة[٥]، وأمر لم يَصِحّ[٦].»

فكتب لهم إلىٰ معاوية بما سألوهُ، فأمسكوا الكتابَ عندهم، حتّى بلغ رأسُ السَّنةِ. ثمّ وافَوه، فقالوا:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، إنّهُ قطع صاحبَنا، وهذا كتابُهُ بإقراره على غير ذَنبٍ.»

فقرأ الكتابَ، وقال:

ـ «أمّا القَوَدُ من عُمّالى، فلاسبيلَ إليه، ولكن، إن شئتُم، وَدَينا صاحبَكم.» قالوا:

ـ «فَدِهِ.»

فَوَداهُ من بيت المالِ، وعزلَ عبدَ اللهِ، و ولّى عُبيدَ الله بن زيادٍ.

---

١) رامين: كذا فى الأصل ومط. وما فى ابن الأثير: رامنى. وفى الطبرى: راميثن. ٢) نصف: كذا فى الأصل ومط. وما فى ابن الأثير: نَسَف. ٣) بيكند: مهملةٌ فى الأصل ومط. والإعجام من ابن الأثير ٣:٤٩٩.

٤) من «غيلان» إلى «غيلان» ساقطةٌ من مط. ٥) كذا فى الأصل: تبرئة. فى مط: تنزية. وفى ابن الأثير: شبهة. ٦) لم يصح: كذا فى الأصل ومط. وما فى ابن الأثير: لم يتّضح (٣:٥٠٣).

ذكر بعض سيرة مُعاوية، وآرائه، وذهائه

[ماقاله عُمر فيه]

كان عُمرُ بن الخَطّاب كثيرًا مايقولُ:

- «تَذكُرون كِسرىٰ وقَيصرَ وذهْيَهُما، وسياستَهما وعندكم معاوية.»

[بينَ معاوية وعَمرو بن العاص]

فمِمّا يَحضُرنا من ذلك: أنَّ عَمرو بنَ العاص، كان وَفَدَ إلىٰ مُعاويةَ ومعه أهلُ مِصرَ، فقال لهم عَمرُو:

- «أنظُروا، إذا دخلتُم على ابن هندٍ، فلاتُسلِّمُوا عليه [66] بالخلافة، فإنّهُ أعظم لكم فى عَينِه، وصَغِّرُوهُ مااستطعتم.»

فلمّا قدِمُوا عليه، قال معاوية لحاجبه:

- «كأنّى بابنِ النّابغةِ، قدصَغَّر شانى عند القوم، فإذا دخل الرّجلُ، أو الوَفدُ، فَتَعتِعُوهُم[١] أشدَّ مايكونُ، فلايبلغَنّى رجلُ منهم، إلاّ وقد أهمّتْهُ نفسُهُ.[٢]»

فكان أوّل مَن دخلَ عليه رجلُ من مصر، يقال له: ابن خَيّاط، فدخل وقد تُعتع، فقال:

- «السّلامُ عَليكَ، يارسُولَ اللهِ!»

فتتابع القومُ على ذلك، فلمّا خرجوا من عندِه، قال لهم عَمرُو:

- «لعنكم اللهُ، نَهيتُكُم أن تُسلِّموا عليه بالامارةِ، فسلَّمتُم عليه بالنُّبوّةِ!»

وكان معاويةُ قدلبس ذلك اليومَ أبهىٰ لِباسِه، واكتحل، وكانَ من أجمل النّاس، إذا فعل ذلك.

[بينه وبين عُمر بن الخطّاب]

ومن ذلك أنّ عُمر بن الخطّاب، كان خرج إلى الشّام، فرأىٰ معاويةَ فى موكبٍ يتلقّـاهُ، ثمّ راح إليه فى موكبٍ.

فقال له عُمرُ:

---

١) تعتعَهُ: تلتله وقلقله فأقبل به وأدبر: حرّكه بعُنف: أكرهه فى الأمر حتّى قلق. تعتع فى الكلام: تردّد من عيٍّ أو حصر (مد. مل).

٢) فى الطبرى (٧:٢٠٧- ٢٠٦): همّته نفسه بالتّلَف.

ـ «يا معاويةُ! تغدُو فى موكبٍ، وتروحُ فى مِثلِه. ويَبلغُنى أنّك تتصبّح فى منزلك، وذَوُو الحاجات ببابِكَ.» فقال:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، العدوُّ بها قريبٌ، ولهم عُيونٌ و جَواسيسُ فأردتُ أن يَرَوا لِلإسلام عِزًّا.»

فقال عُمر:

ـ «إنّ هذا [67] لكَيدُ رجلٍ لَبيبٍ، أو خدعةُ رجلٍ أريبٍ.»

فقال معاويةُ:

ـ «يا أمير المؤمنين مُرْنى بما شئتَ أصِرْ إليه.» قال:

ـ «وَيْحكَ! ماناظرتُكَ[1] فى أمرٍ أعِيبُ عليكَ فيه، إلاّ تركتَنى لاأدرى: آمُرُكَ، أم أنهاكَ[2]!»

[ماكان بينه وبين المغيرة]

ومن ذلك أنّ المغيرةَ كتب إلى معاوية:

ـ «أمّا بعدُ، فإنى كَبرتُ، ودَقّ عَظمى، وشَنِفتْ[3] لى قُريشٌ، فإن رأيتَ أن تعزلَنى، فاعزلْنى.»

فكتب إليه معاويةُ:

ـ «جاءَنى كتابُك تذكرُ أنّه كبرتْ سِنُّك، فلعَمرى، ماأكلَ عُمرَكَ غيرُكَ، وتذكر أنّ قريشًا شَنِفتْ لك، ولَعَمرى، ماأصبتَ خيرًا إلاّ مِنهُم، وتسألُنى أن اعزلَكَ، فقد فعلتُ، فإنْ تَكُ صادقًا فقد شفّعتُكَ[4]، وإن تَكُ مُخادعًا، فقد خادعتُكَ.»

فلمّا ورد المغيرةُ بابَ مُعاوية، ذهبَ كاتبُه إلى سعيد بن العاص، وأشار عليه أن يخطب ولايةَ الكوفة، ودَلَّهُ على وُجوهٍ من الرَّغائب. فلمّا بلغ ذلك المغيرةَ، شقَّ عليه، ودخلَ على يزيد بن معاوية، وعرَّض له بالبيعةِ، فدخل يَزيدُ على أبيهِ، فأعلمه ذلك، فدعا مُعاويةُ المغيرةَ، ورفقَ به، وردّهُ إلى الكوفة، وسألهُ أن يأخذَ بيعةَ يَزيدَ على النّاس. [68]

وقال عَمرُو بنُ العاص:

ـ «مارأيتُ مُعاويةَ مُتّكئًا قطُّ، واضعًا إحدى رجلَيهِ على الأُخرىٰ، كاسِرًا[5] عَينَهُ، يقولُ لِرَجُلٍ:

---

١) فى مط: «ماناظرتك! فى ما أعتب» بدل: «ماناظرتك فى أمر أعتب.» ٢) فى مط: أم نهاك.

٣) شَنِفَ فلانًا، وله: أبغضه، وتنكّره. ٤) شفع فلانًا فى كذا: قَبِلَ شفاعتَهُ فيه.

٥) كسر فلانٌ من طَرْفه، وعلىٰ طَرْفه كسرًا: غضَّ منه شيئًا.

تكلَّمْ، إلاَّ رَجِمتُهُ.»

[بين معاوية وهانى]

حَكى الشَّعبىُّ: أنَّ وفد الكوفة قدِمُوا على مُعاوية لما أراد البيعةَ لِيزيدَ، وفيهم هانئُ بن عُروةَ المرادى. فَبَينا أنا جالسٌ إذ قال هانئُ بنُ عُروة:

- «العَجَبُ من معاويةَ، يُريدُ أن يَقسِرَنا علىٰ بيعة ابنه يَزيدَ، وحالُهُ حالُهُ[1]، وماذاك بكائنٍ.»

وغلامٌ من قريش قاعدٌ فى حلقتِه، فقام، فدخل على مُعاوية، فأخبرهُ بِقول هانئٍ، فقال له:

- أنتَ سمعتَ هانئًا يقولُهُ؟» قال:

- «نعم.» قال:

- «فاخرُجْ من هذا البابِ وائتِ حلَقَتَهُ من بابٍ من أبواب المسجد، غيرَ بابك الّذى خرجتَ منه، فقل له إذا خَفَّ مَن عندَهُ:

- أيُّها الشيْخ! قدسمعتُ مقالتَكَ، ولَستَ فى زَمن أبى بكرٍ ولا عمر، ولا أحبُّ لك أن تتكلَّمَ بهذا الكلام، فإنَّهم بنواُميَّة، وجُرأتُهم جُرأتُهم، وإقدامُهم ماقدعلمتَ.»

ثمَّ قال لهُ معاوية:

- «.. إذا فرغتَ من كلامِكَ، فقلْ له:

- إنَّهُ لم يَدْعُنى إلى هذا، إلاَّ النَّصيحةُ لك.

ثمَّ احفَظْ عَليهِ مايَقول.»

فأقبل الفَتىٰ إلى مجلس هانئٍ، فلمّا خَفَّ مَن عندَهُ، دَنا منه، فكلَّمَهُ بهذا [69] الكلام. فقال له:

- «يابنَ أخى، واللهِ مابلغتْ نصيحتُكَ لى كُلَّ هذا، وإنَّ هذا الكلامَ لَكلامُ مُعاويةَ، أعرفُه، وأشهدُ به.»

فقال الفتى:

- «ماأنا ومعاوية! واللهِ مايَعرفُنى، ولايَدرى مَن أنا.» قال:

- «يابنَ أخى، فلاعليك، ولكن إذا لَقيتَهُ فقُلْ له: يقول لك هانئُ: لا واللهِ، لا إلىٰ ماأردتَ من سبيلٍ. إنهض يابنَ أخى!»

---

١) وحاله حاله: كذا فى الأصل. وما فى مط: حاله (مرّةً واحدة).

فذهب الفتىٰ، فأعلم معاويةَ ماقال، فقال:

ـ «باللهِ نستعين عليه.»

ثمّ أذِن لِلوفد، وقال لهم:

ـ «إرفعوا حوائجكُم.»

ففعلُوا، فلمّا عُرض كتابُ هانئ علىٰ معاويةَ، قال:

ـ «يا هانئُ ماصنعتَ شيئًا، فَزِدْ[1].»

فزاد هانئُ ومعاويةُ يقول:

ـ «ماصنعتَ شيئًا، هاتِ حوائجَكَ!»

حتّىٰ لم يَدَعْ حاجةً لمن[2] يهتمّ به إلاّ رفعها وقضاها. ثمّ قال:

ـ «ياهانئُ لم تصنعْ شيئًا.» فقال:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، قدبقيتْ حاجةٌ.» قال:

ـ «وما هيَ؟» قال:

ـ «بيعة يزيد، أتولاّها له بالعراق.» قال:

ـ «هيَ إليك.»

فقَدِمَ هانئُ، فقام بأمر يزيد، وتولّى المغيرة بن شعبة البيعةَ.

[من تشبّه بمعاوية فى ذلك]

وتشبّهَ بمعـاوية عبدُالملك، وذلك أنّهُ لمّا أرادَ البيعـة للوليد، وجّـهَ الوليدَ إلى القَين، وعامِلَة[3]، فأصلحَ بينهم، وكانت بينهما دِماءُ، فاحتملها. فكانت القَينُ وعامِلَةُ أوّلَ مَن دَعا إلى الوليد.

ثمّ أراد [70] الوليدُ ذلك لِعبد العـزيز ابنه، فـوجّهَهُ إلى قيس بن غسّـان، وكانت بينَهما دِماءُ، فأصلح بينَهم، واحتمل دِماءَهُم، فكانت قيسُ وغسّان أوّل مَن دعا إلى عبدالعزيز.

ثمّ صَنَعَ ذلك سُليمانُ لمّا وقع بين قيس, وجمير بدِمَشـق من الدّماءِ ماوقـعَ. وَجّـهَ ابنَهُ أيّوبَ، فأصلح بينَهم، واحتمل دماءَهم، وماتَ أيّوب قبلَ أن تظهَرَ له بيعةٌ.

ثمّ صنع ذلك يزيدُ بن عبدالملك. كتب إليه ابن هُبَيرة من الجزيرة، يُشير عليه: أن يوجِّه الوليد

---

١) فزد: سقطت من مط. ٢) لمن: سقطت من مط. ٣) القين وعاملة: كذا فى الأصل. وما فى مط: القين و عامله. (فى كلا الموضعين).

بن يزيد، لِيُصلحَ مابينَ قيس. وتَغلبَ. فوجَّهَهُ، فاصلح بينَهم، واحتمل دِماءَهم، فكانوا أوَّلَ مَن تكلَّم فى أمرِ الوليد، وذلك فى حياة أبيه، حتّىٰ بايع[1] بعد هشام له.

[كلامٌ لِمُعاويةَ]

وقال معاويةُ:

- «إنّى لأرفعُ نَفسى، أن يكونَ ذَنبٌ أعظَمَ مِن عَفوى، أو جَهلٌ أكبَرَ مِن حِلمى، أو عَورةٌ لا أواريها بِستْرى، أو إساءةٌ أكثَرَ مِن إحسانى.»

□

---

[1] بايع: كذا فى الأصل. وما فى مط: بويع.

أيَّام يَزيدَ بن مُعاوية

وماجَرىٰ فيها من الأحداث الّتى يَليقُ ذِكرُها بهذا الكتاب

[وَصايا معاوية ليزيد]

كان مُعاويةُ وَطَّأَ لابنه يزيدَ الأُمورَ، وأخذ على الوفود له البيعةَ. فلمّا مرضَ [71] المرضةَ الّتى تُوفِّى فيها، دَعا به وقال:

- «إنّى لا أتَخَوّفُ عليكَ أن يُنازعَكَ هذا الأَمر الّذى استتبَّ لك، إلاّ أربعةَ نفر من قُريش: الحُسين بن علىّ بن أبى‌طالب، وعبدالله بن عُمر، وعبدالله بن الزُّبير، وعبدالرّحمان بن أبى‌بكر.

- «فأمّا عبدالله بن عُمر، فرجلٌ قد وَقَذَته[1] العبادةُ، وإذا لم يبقَ أحدٌ غيرُه، بايعكَ..

- «وأمّا حسينُ بنُ على، فإنّ أهلَ العراق لن يَدَعُوهُ، حتّىٰ يُخرجوه، فإن خرج عليك، فظفِرتَ عليه، فاصفحْ عنه فإنّ له رَحِمًا ماسّةً، وحقًّا عظيمًا..

- «وأمّا ابن أبى‌بكر، فرجلٌ ليستْ له هِمّةٌ إلاّ فى النّساء، واللّهو.

- «وأمّا الّذى يجثم عليك جُثومَ الأسدِ، ويُراوغُكَ رَوغانَ الثّعلب، فإذا أمكنَتهُ فُرصةٌ، وثبَ، فذاك ابنُ الزُّبير، فإنْ هو فَعَلها بِكَ، فقدَرتَ عليهِ، فقطِّعْهُ آرابًا.»

فلمّا مات معاويةُ امتنع هؤلاءِ من البيعة، وخرج عبدُالله بن الزُّبير، والحُسين، إلىٰ مكّةَ لمّا أخذهُما عامل يزيد بالبيعةِ، وكانا يَومَئذٍ بالمدينة. وأمّا عبدالله بن عُمر، فلم يتشدّدْ عليه، وكذلك عبدالرّحمان بن أبى‌بكر.

فلمّا قدِمَ عبدالله بن الزُّبير والحسين مكّةَ، اجتمع النّاس على الحسين، وابنُ الزُّبير قد [72] لَزم جانبَ الكعبةِ، فهو قائمٌ يُصلّى عندها عامّةَ نهاره ويَطوفُ، ثمّ يأتى الحسينَ فى مَن يأتى، ولا يزالُ يُشير عليه بالرّأى، وهو أثقلُ خَلقِ اللهِ على ابن الزُّبير، قد عرف أنّ أهلَ الحجاز

---

[1] فى مط: وقذته. وقَذَ فلانًا يَقِذُه وَقذًا: ضربه حتّى استرخىٰ، وأشرف على الموت.

لا يُطيعونهُ، ولا يُبايعونهُ أبدًا، مادام الحسينُ بالبلدِ، وأنّ الحسينَ أعظم فى نُفوسهم، وأعيُنِهم منهُ، وأطوعُ فى النّاسِ منه.

وبلغ أهلَ العراقِ امتناعُ الحسين من البيعة ليزيد، وأنه لَحِقَ بمكّة، فأرجَفُوا[1] بيزيد.

ذكر رأىٍ أشيرَ به
على الحُسينِ بنِ علىٍّ عليهما السلام

كان عبدُالله بنُ مُطيعٍ لقى الحسين، وهو يُريدُ مكّة، فقال:

ـ «جعلنى الله فِداءَك، أين تُريد؟»

قال:

ـ «أمّا الآن، فإنّى أريدُ مكّة، وأمّا بعدُ، فإنّى أستخيرُ الله عزّوجلّ.»

قال:

ـ «خار اللهُ لك، وجعلنا فداءَك، فإذا أتيتَ مكّة، فإيّاك أن تقربُ الكوفة، فإنّها بلدةٌ مشؤومةٌ قُتل بها أبوك، وخُذِل فيها أخوك، واغتيل بطعنة كادتْ تأتى علىٰ نفسه. إلزمِ الحرمَ، فإنّك سيّد العرب، لايَعدِلُ بك أهلُ الحجاز أحدًا، ويتداعَى النّاس إليك من كُلّ جانبٍ.»

ذِكرُ رأىٍ آخر أشيرَ به عليه [73]

فأمّا محمّد بن الحنفيّة، فإنّهُ أتاهُ، فقال:

ـ «يا أخى، أنتَ أعزُّ خلقِ اللهِ علىّ، ولستُ أذخِركَ نصيحتى[2]، تَنحّ عن الأمصار ما استطعتَ، ثمّ ابعث رُسلَكَ إلى الشّام، فادْعُهم إلى نفسِكَ فإن بايَعوك، حمدتَ اللهَ عليه، وإن اجتَمعَ على غيرك، لم ينقص اللهُ بذلك دينكَ، ولا عقلَكَ، ولا يُذهبُ به مروءتَكَ، ولا فضلَكَ. إنّى أخافُ أن تأتىَ مصرًا من الأمصار، فيختلفَ النّاسُ بينَهم، فمنهم طائفةٌ معك، والأُخرىٰ عليك، فيقتتلُوا، فتكونَ لأوّلِ الأسنّةِ، فإذا خَيرُ هذه الأُمّةِ نَفسًا، وأبًا، وأُمًّا، أضيَعُها دَمًا، وأذلُّها أهلاً.»

فقال له الحسينُ:

ـ «فأينَ أذهبُ يا أخى؟» قال:

---

١) أرجفوا: خاضُوا فى الأخبار السّيِّئة، وذكر الفِتَن.

٢) فى مط: اذخرك نصيحتى. لستُ اذخرك: لستُ اذخر منك.

- «إنزل مكّة، فإن اطمأنّتْ بك الدّار فسبيلُ ذلك، وإن نَبَتْ لك، لحقتَ بالرمال، وشَعَفِ[١] الجبال، وتنقّلتَ[٢] من بلدٍ إلى بلدٍ حتّى يَفرُقَ[٣] لك الرّأىُ، فتستقبلَ الأمورَ استقبالاً، وتستدبرها استدبارًا.»

فقال:

- «يا أخى، قد نصحتَ وأشفقتَ.»

[ماكتبه إليه أهلُ الكوفة]

ثمّ إنّ أهلَ الكوفة، من شيعةِ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالبٍ عليه السّلامُ اجتمعوا، فكاتبُوا الحسين بن علىٍّ:

- «إنّا قد [74] اعتزلنا النّاسَ، فلسنا نُصلّى بصلاتهم، ولا إمامَ لنا، فلو أقبلتَ إلينا رَجَونا أن يجمعَنا اللهُ لك على الإيمان.»

ثمّ اجتمع رُؤساءُ الشّيعة مثل سليمان بن صُرَد، والمسيّب بن نَجَبَة[٤] وأشباههم، وكتبوا إليه:

[«بسم الله الرّحمن الرّحيم»][٥]

- «لِحُسين بن علىٍّ من شيعته المؤمنين. امّا بعدُ، فَحَىَّ هلاً، فإنّ النّاسَ ينتظرونَك، لا رأىَ لَهُم فى غيرِكَ، فالعَجَلَ، ثمّ العَجَلَ، والسّلام.»

ثمّ اجتمعوا ثالثةً، فكتبُوا إليه:

- «مِن شبث بن ربعىٍّ، وحجّار بن أبجر، ويزيد بن الحارث بن رويم، وعَمرو بن الحجّاج، ومحمّد بن عُمير. امّا بعدُ، فقد اخضرَّ الجنابُ، وأينَعَتِ الثّمارُ، [وطَمَتِ الجمامُ،][٦] فإذا شئتَ فاقدَمْ على جُنودٍ مُجنّدةٍ لك[٧]، والسّلام.»

فاجتمعت الرُّسُلُ كلُّهم عند الحسين، وقرأ الكُتبَ، وسألَ الرُّسُلَ عن أمر النّاس، ثمّ كتب أجوبةَ كُتبِهم، وأنفذ مسلم بن عقيل بن أبى‌طالبٍ إليهم، وقال له:

---

١) فى مط: سعف. والشّعفة من كل شىء: أعلاهُ. يُقال: شعفة الجبل، شعفة الرّأس، وايضًا: شعفة القلب: الحبُّ الزائد.
٢) فى مط: ينقلب.
٣) يفرُقُ لك الرّأى: يستبين.
٤) نَجَبَة: مهملة فى الأصل ومط. والضّبطُ من الطبرى ٧:٢٣٣.
٥) البسملة غير موجودة فى الأصل ومط. فأضفناها من الطبرى ٧:٢٣٤.
٦) مابين [ ] تكملة من الطبرى ٧:٢٣٥.
٧) فى الطبرى: على جُندٍ لك مجنَّدٍ.

ـ «إذهبْ، فاعرفْ أحـوالَ النّاسِ، وانظرْ ماكتبوا به، فـإن كان صـحيحاً قـد اجتمع عليه رُؤساؤُهم، وتابعهم مَن يُوثَقُ به، خرجنا إليهم.»

فسار مُسلمُ إلى الكـوفة، وبهـا النُعمان بنُ بشـير الأنصـارى أميرًا [75] من قِبل يزيد. فلمّا تحدّث النّاسُ بمقدمِه دَبُّوا إليه، فبايعه منهم اثناعشر ألفًا. فقام عبدالله بن مسـلم الحضـرمى إلى النُعمان بن بشير، فقال له:

ـ «إنّك ضعيفٌ، أو متضعّفٌ، قد فسد البلاد، وليس يُصلح ما ترىٰ إلاّ الغَشمُ.»

فقال النُعمان:

ـ « لأن اكونَ ضعيفًا وأنا فى طاعة اللهِ، احبُ إلىَّ من أن اكونَ قـويًا، وأنا فـى معصـية اللهِ، وما كنتُ لأهتكَ سترًا سَترَهُ اللهُ.»

فَكَتبَ بقولِ النُعمان إلىٰ يزيد وقيل له[١]:

ـ «إن كانت لك حاجةٌ فى الكوفة، فابعَثْ إليها رجلاً قويًا يُنفِّذُ أمرَك، ويعملُ مثلَ عملِك، فإنّ النُعمانَ بنَ بَشير إمّا ضعيفٌ، او مُتضعّفٌ.»

فدعا يزيدُ كاتبَهُ سَرجُون، وكان يستشيرهُ، فأخبرهُ الخبرَ.

ذكر راىٍ أشارَ به هذا الكاتب على يزيد

قال له:

ـ «أكُنتَ قابلاً من معاوية لوكان حيًا.» قال:

ـ «نعم.» قال:

ـ «فاقبَلْ مِنّى، فإنّهُ ليس لِلكوفة إلاّ عُبيدُاللهِ بن زيادٍ، فولِّهِ.»

وكان يزيدُ ساخطًا عليه، وهمَّ بِعزلِه عن البصرةِ. فكتب إليه برضاهُ عنهُ، وأنّهُ قـد ولاّهُ الكـوفةَ مع البصرةِ، وكتبَ إليه [76] أن يَطلبَ مسلمَ بنَ عقيلٍ، فيقتُلَه.

فأقبل عُبيدُاللهِ فى وُجوهِ أهل البصـرةِ، حتّىٰ قـدم الكـوفة مُتلثّمًا، فـلايَمُرُّ علىٰ مجلسٍ من مَجالسهم فيُسلِّمُ، إلاّ قالُوا:

ـ «وعليك السّلامُ يابْنَ بنتِ رسول اللهِ.»!

وهم يظنّون أنّه الحسين بن علىٍّ، حتّى نزل القصرَ، واجمًا كئيبًا لما رأىٰ.

١) له: سقطت من مط.

ثمّ جمع النّاسَ فخطبهم، وأعلمَهم نيةَّ يزيد[١] فى الاحسان إلى سامعِهم ومُطيعِهم، والشدّة علىٰ مُريبِهم وعاصيهم، ووَعدَ، وأوعدَ، وختمَ الخطبةَ بأن قال:

- «لِيُبق امرُؤٌ على نفسه، الصّدقُ ينبئُ عنك لاالوعيد[٢].»

ثمّ أخذ العُرفاءَ أخذًا شديدًا، ودعا النّاس، فقال:

- «أكتبوا إلى العرفاءِ، ومَن فيكم من طَلِبةِ أمير المؤمنين، وأهلِ الرِّيب، الّذين رَأيُهم الخلاف والشّقاقُ، فمَن كتبَهم لَنا، فهو بَرىءٌ، ومَن لم يكتبْ لَنا أحدًا، فَلْيَضمنْ لَنا ما فى عرافتِه: أن لا يُخالفنا منهم مخالفٌ، ولا يبغى علينا فيهم باغٍ، فمَن لم يفعلْ ذلك، فبَرئت منه الذّمّة وحلالٌ علينا دمُهُ ومالُهُ. وأيُّما عريفٍ وُجد فى عرافته مِن بُغيةِ[٣] أمير المؤمنين احدٌ لم يَرفعْهُ إلينا، صُلبَ علىٰ باب دارِه، وأُلقيتْ تلك العرافةُ من العَطاءِ.»

[77] ذِكرُ تَلافى عُبيدالله مُلكَ يَزيدَ
بعدَ أن أشرف على الذّهاب، وماكانَ من حيله ومكائده

ثمّ إنّ عبيدالله دَعا مَولىً له، فأعطاهُ ثلاثةَ آلافِ درهمٍ، وقال له:

- «إذهب، حتّىٰ تسألَ عن الرّجلِ الّذى يُبايع أهلَ الكوفة[٤]، فأعلِمْهُ: أنّكَ رجلٌ من أهلِ حِمص جِئتَ[٥] لهذا الأمر، وهذا مالٌ تدفعه إليه، لِيتقوّىٰ[٦] به.»

فلم يزلْ يتلطّفُ، ويرفقُ، ويسترشدُ، حتّىٰ دُلّ علىٰ شيخٍ من أهل الكوفة يأخذ[٧] البيعةَ، فلقيهُ، فأخبرهُ.

فقال الشّيخ: «لقد سرّنى لِقاؤك، وساءَنى. أمّا ما سرّنى من ذاك، فما هداك اللهُ لهُ، وأمّا ما ساءَنى، فإنّ أمرَنا لم يَستحكمْ بعدُ.»

قال:

فأدخلهُ عليه، وقبض منه المالَ، وبايعَهُ، ورجع الرّجلُ إلى عُبيدالله، فأخبرهُ.

وانتقل مُسلمُ، حين وافى عُبيدُالله، إلىٰ منزلِ هانئ بنِ عُروةَ المُرادىّ، وكتب إلى الحسين

١) مط: «واعلمهم انّه يريد الاحسان» بدل: «واعلمهم نيّة يزيد فى الاحسان.»

٢) والعبارة فى مط: ليتق امر على نفسه، لاالصّدق ينبى عنك، ولا الوعيد .

٣) فى مط: «امن بقية امير المؤمنين»! بدل «من بغية أمير المؤمنين».

٤) فى مط: يبايع على الكوفة.

٥) كذا فى الأصل والطبرى (٢٢٨:٧): جئتَ. وفى مط: حيث، وهو خطأ.

٦) فى مط: لتقوى.

٧) فى الطبرى: يلى.

يُخبرهُ ببيعةِ بضعة عشرَ ألفًا من أهلِ الكوفة، ويأمُرهُ بالقُدوم عليه.

وقال عبيدُالله لِوُجوهِ أهل الكوفة:

ـ «إنّى أعلمُ أنّه قد سار معى، وأظهرَ الطّاعة لى مَن هُو عَدوٌ لِلحسين، حين ظَنَّ أنَّ الحسينَ قد دخل البَلدَ، وغلبَ عليه، و واللهِ، ماعرفتُ منكم أحدًا.»

وقدم شريكُ بن الأعورُ [78] من البصرةِ، وكانَ من شيعة علىٍّ، عليهالسّلام.

ذِكرُ مَكيدةٍ بَليغةٍ لِشَريكٍ ماتمَّتْ له

فقال لِهانئ:

ـ «مُرْ مُسلمًا يكون عندى، فإنَّ عبيدَالله يعودُنى.»

وقال شريكٌ لِمُسلمٍ:

ـ «أرأيتكَ، إن أمكنتُكَ من عبيدالله، تضربُه بالسّيفِ؟» قال:

ـ «نعم واللهِ.»

وأظهر شريكٌ زيادةً علىٰ مابه من الشّكاةِ، وهو نازلٌ فى دار هانئ. وجاءَ عُبيدُالله يعود شريكًا فى منزل هانئ.

فقال شريكٌ لمسلمٍ:

ـ «إذا تمكَّن عبيدُالله، فإنّى مُطاوِلُه الحديثَ، فاخرجْ إليه بسيفكَ، واقتُله، فليس بينكَ وبين القصر مَن تحولُ دونَهُ، وإن شفانى اللهُ كفيتُكَ البصرةَ.»

فقال هانئ:

ـ «إنّى لأكرَهُ قتلَ رجلٍ فى منزلى.»

وشجّعهُ شريكٌ، وقال:

ـ «هى فرصةٌ لك، وإيّاك أن تُضيّعَها، فانتهزْها فيه، فإنّهُ عَدوُّ اللهِ، وعلامتُك أن أقولَ[1]: إسقونى ماءًا.»

وجاءَ عُبيدالله بن زيادٍ، فدخلَ، وجلسَ، وسأل شريكًا عن وَجْعِه، وقال:

ـ «ما الّذى تَجِدُ، ومتى اشتكيتَ؟»

---

١) أقول: سقطت من مط.

فلمّا طال سُؤالُه إيّاهُ، ورأىٰ أنّ أحدًا لايخرج، خَشِيَ أن يفوتَهُ، فأخذَ يقول:

- «إسقُونى وَيحَكُم [ماءًا]،[١] ماتنتظرون بنفسى[٢] [79] لن[٣] تُحيُوها، إسقونيه[٤] وإن كانت نفسى فيه[٥].»

فقال ذلك مرَّتين، أو ثلاثًا.

فقال عُبيدالله:

- «ماشأنُه؟ أو تَرونه يهجر؟»

فقال هانئ:

- «نعم، أصلحك الله، هذا دَيدنُه منذ الصُبحِ.»

ففَطِنَ مَولىً لِعُبيدالله قائمٌ علىٰ رأسه، فغَمزَهُ، فقام عبيدُالله.

فقال شريكُ:

- «إنتظِرْ، أصلحك الله، فإنّى أريدُ أن أوصىَ إليكَ.»

فقال:

- «أعودُ.»

فلمّا خرج، قال شريكُ لِمُسلمٍ:

- «مامنعكَ من قتله؟» قال:

- «خَصلتانِ: أمّا إحداهما، فكراهةُ هانئٍ أن يُقتلَ فى داره رجلٌ. والأُخرىٰ، فحديثٌ سَمِعتُه من علىٍّ عن النّبىِّ - صلّى اللهُ عليه - أنّ الايمانَ قَيْدَ الفَتك، فلايَفتكُ مُؤمنٌ.»

فلبث شريك بن الأعور بعد ذلك ثلاثًا وماتَ.

[هانئٌ يُطلب إلى القصر]

ودَعا عُبيدُالله هانئَ بنَ عُروةَ، فأبىٰ أن يُجيبَهُ إلاّ بأمانٍ، فقال:

- «مالَهُ ولِلأمان، هل أحدثَ حدثًا؟»

---

١) ماءًا: سقطت من الأصل، فأثبتناها كما فى مط. ٢) فى مط: «بليلى» بدل «بنفسى».

٣) فى مط: أن يحتوها. وفى الطبرى (٢٤٨:٧): «ما تنظرون بسلمى ان تحيوها، اسقنيها.»، فى ابن الاثير: «اسقونيها.»؛ وفى حواشى الطبرى: «ما الإنتظار لسلمى لاتحيّوها.»؛ «ما انتظار سليما لايخييها». أيضًا فى الطبرى (٢٢٤:٧): «ويلكم، تحموني الماء، ولوكانت فيه نفسى». ٤) إسقونيه: ما فى الأصل ومط: إسقنيها.

٥) فيه: ما فى الأصل ومط: فيها. فصحّحنا العبارة خروجًا من الخلط الناتج عن الإقتباس.

فجاءَهُ بنو عمِّه، ورُؤساءُ العشائر، فقالوا:

ـ «لاتجعل علىٰ نفسكَ سبيلاً، وأنتَ بَرىءٌ.»

وأتىَ به، فقال عُبيدالله:

ـ «إيهٍ[1] يا هانئُ، ماهذه الأمورُ الّتى تَربَّص[2] فى دُورك لأمير المؤمنين، وعامّةِ المسلمين؟»

قال:

ـ «وماذاك، يا أميرَ المؤمنين!» قال:

ـ «جئتَ بمسلم بن عقيل، وأدخلتَهُ دارَكَ [80] وجمعتَ السّلاحَ، والرِّجالَ فى دورٍ حَولك[3]، وظننتَ أنّ ذلك يخفىٰ.» فقال:

ـ «مافعلتُ، وما مُسلمٌ عندى.» قال:

ـ «بلىٰ، قد فعلتَ.» قال:

ـ «لا، مافعلتُ.» قال:

ـ «بلىٰ.»

فلمّا كثر ذلك، وأبىٰ هانئُ إلاّ مُجاحَدتَهُ، دعا عبيدُالله ذلك الدَّسيسَ الّذى دسّهُ، وحَمّلَ علىٰ يَدِه المالَ، وكان قدأنِسَ بهم، وداخَلهم، وجعل ينقُلُ كلَّ مايكون منهم، إليه. فلمّا رَءَاهُ هانئُ، قال له عُبيدُالله:

ـ «هل تَعرفُ هذا؟»

فعلم هانئُ أنّه كان عَينًا عليهم، فُسقطَ فى خَلَده[4] ساعةً، ثمّ إنّ نفسَهُ راجَعتْهُ، فقال لهُ:

ـ «إسمعْ منّى، فإنّى، واللهِ الّذى لا إلهَ إلاّ هُو أصدُقكَ: مادعوتُه، ولكن نزل علىَّ، فاستحييتُ من ردِّه، ولَزِمَنى ذمامُه، فأدخلته، وأضَفتُه، وآويتُهُ. فإن شئتَ، أعطيتُكَ موثِقًا، وما تطمئنُّ إليه، لا أبغيك سُوءًا ولا غائلةً، وإن شئتَ أعطيتُكَ رهينةً تكون فى يدك حتّى آتيَكَ، وأنطلقَ إليه، فآمُرَهُ أن يَخرجَ من دارى إلىٰ حيثُ شاءَ من الأرض، فأخرُجَ من ذمامِه وجِواره.»

فقال:

ـ «واللهِ، لاتُفارقنى أبدًا، حتّىٰ تأتيَنى بِه.» قال:

---

١) والضبط فى الطبرى: «إيهٍ» بالتنوين.

٢) ما فى الأصل غيرواضح. وفى مط: تربض، وما أثبتناهُ من الطبرى (٧:٢٥١).

٣) كذا فى الأصل ومط: فى دور حولك. وفى الطبرى (٧:٢٥١): فى الدُّور حولكَ.

٤) فى الأصل ومط، وبعض الأصول: فى جِلدِه! وما ضبطناهُ من الطبرى. وفى ابن الأثير: فى يَدِه. وهو أصحُّ. سُقطَ فى يَدِه: زلَّ، واخطأ فى الكلام، ندِمَ، تحيَّر. ولعلّ «فى خَلَدِه» تعبيرٌ آخر عمّا أثبتَهُ ابن الأثير.

- «واللهِ، لا أجيئُكَ به أبدًا، أنا أجيئُكَ بِضَيفى تقتلُه؟»

قالَ: [81]

- «واللهِ، لَتأتِيَنّى به.»

وقام النّاسُ إليه، يُناشدونهُ فى نفسه، ويقولون:

- «إنّه سلطانٌ، وليس عليكَ فى دفعه إليه عارٌ، ولا نقيصةٌ.» فقال:

- «بَلىْ واللهِ، علىّ فى ذلك، الخِزىُ والعارُ: أدفع جارى وضيفى إلى قاتله، وأنا صحيحٌ، أسمع، وأرىْ، شديدُ السّاعدِ، كثيرُ الأعوانِ!»

فقال عبيدُاللهِ بن زيادٍ:

- «أدنُوهُ مِنّى!»

فأُدنِىَ منه، ولهُ ضَفيرتانِ قد رَجّلهُما[1]. فأمرَ بِضَفيرتَيْهِ، فأُمسِكَ بهما، واستعرضَ وجهَهُ بقضيبِ فى يَدِه، فلم يزلْ يضربُ أنفَهُ، وجَبْهَتَهُ، وجَبينَهُ، حتّىْ نَثَرَ لحمَ خدَّيهِ، وهشَمَ أنفَهُ. وتلوّىْ هانئٌ، وضرب بِيدِه إلى قائمِ سيفِ شُرطىٍّ مِمَّن حَضرَ، فمانَعهُ الرَّجلُ، ومُنِعَ.

فقال عُبيدُالله:

- «أحروريٌ سائرَ اليوم؟ حلّ لنا قتلُك.»

فقام أسماء بن خارجةَ، فقال:

- «أرُسُلُ غُدَرٍ[2] نحنُ منذ اليوم؟ أمرتَنا أن نجيئَكَ بالرَّجلِ، حتّىْ إذا جِئناكَ به، فعلتَ به ماتَرىْ، وزعمتَ أنّك تقتُلُهُ.»

فقال عبيدُاللهِ:

- «إنّكَ هاهُنا.»

وأمِرَ، فَلُهِزَ، وتُعتِعَ ساعةً، ثمّ تُرِك، فجلس، وسكت النّاسُ.

وأمرَ بهانئٍ، فَجُعِلَ فى بيتٍ، ووكّلَ به من يحرسُهُ. وبلغ ذلك مذحجًا، فأقبلتْ إلى القصرِ، فقيلَ لِعُبيداللهِ:

- «هذه مذحجٌ، قد اجتمعت [82] بالباب.»

فقال لِشُريحٍ القاضى:

- «أدخلْ علىْ صاحبهم، فانظرْ إليه، ثمّ اخرجْ، فأعلمهم أنّهُ حَىٌ.»

---

١) رجّل الشعر: سوّاهُ، زيّنهُ، سرّحَهُ.　　٢) ضُبط فى الأصل: ا رُسُلُ غُدَرٍ. وفى الطبرى (٧:٢٥٣): رُسُلُ غدر.

فخرج إليهم شُريحٌ، فأعلمهم أنّهُ رَءَاهُ وهو حَيٌ سالمٌ، وإنّما عاتَبَهُ كما يعاتب الأميرُ رعيَّتَهُ. فانصرفُوا.

[مُسلمُ يُقبِلُ نحوَ القصرِ بالمُبايعين]

وبعثَ مسلمُ بن عَقيلٍ مَن يأتيهِ بالخبر. فأتَوهُ بالخَبرِ على وَجهِهِ، وأمرَ أن يُنادىٰ بشِعاره:

ـ «يامنصورُ أمِتْ.»

وكان قد بايعهُ ثمانية عَشرَ ألفَ [١٨،٠٠٠] رجلٍ. فاجتمعوا إليه، فعقد لجماعةٍ على الأَرباعِ، وقدّم أمامَهُ صاحبَ رُبعِ كِندةَ، وأقبلَ نحو القصر، فتحرّزَ عُبيدُالله، وغلّقَ الأبواب. وسار مسلمُ حتّى أحاط بالقصر، وتداعى النّاسُ، واجتمعوا، حتى امتلأ المسجدُ والسُّوقُ، ومازالُوا يتوثّبون[١] حتّى المساءِ.

فضاق بعبيداللهِ أمرُه، وكان أكبر همِّهِ أن يتمسّك بباب القصر، وليس معه فى القصر إلاّ ثلاثون رجلاً من الشُرَط، وعشرون رجلاً من أشراف النّاسِ، وأهل بيته، وجعل من القصر يُشرفون فيشتمهم النّاس، ويفترُون على ابن زياد وأبيه، ويتّقون أن يرمُوهم بالحجارةِ. ففتح عُبيدُاللهِ البابَ الّذى يلى دارَ الرُّوميّين[٢] ليدخلَ [83] إليه مَن يأتيه، ودعا كثيرَ بن شهابٍ، فأمرهُ أن يخرجَ فى مَن أطاعَهُ من مذحج، فيُخذّلَ النّاسَ عن مسلمِ بن عقيلٍ، ويُخوّفهم عقوبةَ السُّلطانِ، وغائلة أمرِهم، وأمرَ محمّدَ بنَ الأشعث بمثلِ ذلك، فى مَن أطاعَهُ من كِندةَ، أن يرفعَ رايةَ أمانٍ لِمَن جاءَهُ من النّاسِ، وقال لِمثل هؤلاءِ من أهل الشّرف مثلَ ذلك.

فخرجُوا، وجاؤوا بعدّةٍ، فحُبِسُوا، ورجع إليه الرُّؤساء من ناحية دار الرُّوميّين، فدخلوا القصر، فقال لهم عُبيدُاللهِ:

ـ «أشرفوا على القصر فمَنّوا أهلَ الطّاعةِ، وخوّفُوا أهلَ المعصيةِ.»

فتكلّم القومُ، وقالوا:

ـ «أيُّها النّاس! إلحقُوا بِأهاليكُم، ولا تُعجِلُوا الشّرّ، ولا تتعرّضُوا لِلقتلِ، فإنّ أميرَ المؤمنين، قد بعث جُنودَهُ من الشّام، وقد أعطى اللهَ الأميرُ عهدًا لَئن تَمّمتُم علىٰ حربكم، ولم تنصرفوا من

---

١) كذا فى الأصل وهامش الطبرى: يتوثّبون. وفى الطبرى (٧:٢٥٥): يثوبون.

٢) دار الرُّوميّين: ما فى الأصل ومط غير واضح، وما أثبتناهُ يؤيّده الطبرى ٧:٢٥٦.

عشيّتكم، أن يَحرمَ ذرّيّتكم العَطاءَ، ويُفرّقَ مُقاتلتَكم فى مغازى الشّام على غيرطمعٍ، وأن يأخذ البَرىءَ بالسّقيم، والشّاهِدَ بالغائبِ، حتّىٰ لايبقىٰ له فيكم بقيّةٌ من أهلِ المعصيةِ، إلا اذاقَها وبالَ أمرها.»

فأخذ النّاسُ ـ كما [84] سمعوا هذا وأشباهَهُ من رُؤسائهم ـ يتفرّقون. فكانت المرأةُ تاتى إلى ابنها، وأخيها، فتقولُ:

ـ «إنصرف، فإنّ النّاسَ يكفونكَ.»

ويَجىءُ الرّجلُ إلى ابنه، وأخيه، فيقول:

ـ «غدًا يأتيكَ جنودُ الشّامُ، فما تصنع بالحرب؟»

فينصرف به.

فمازال النّاس يتفرّقون، حتّىٰ أمسىٰ مسلمُ بن عقيلٍ، وما معه إلا ثلاثون رجلاً حين صُلّيتِ المغربُ، فصلّىٰ بهم مسلمٌ. فلمّا رأىٰ أنّه قد أمسىٰ وليس معه إلاّ أولئك، خرج متوجّهًا نحو كندة، فما بلغ الأبوابَ ومعه منهم عشرةٌ. ثمّ خرج من الباب، فإذا ليس معه إنسانٌ، والتفتَ فإذا هو لايُحسُ أحدًا يدُلّه على الطّريق، ولاعلى منزلٍ، ولايُواسيه بنفسه إن عرض له عدُوٌّ. فبقى متلدّدًا فى أزقّةِ الكوفة، لايدرى أين يذهبُ.

فمشىٰ حتّى انتهىٰ إلى بابِ امرأةٍ [يُقال لها: طَوعةُ][1] كانت أمّ ولدٍ للأشعث، فزوّجها أسيدًا[2] الحَضرَمى، فولدتْ له بِلالاً. وكان بِلالٌ خرج مع النّاسِ، وأمّه قائمةٌ تنتظر، فسلّمَ مسلمٌ عليها، فردّتْ عليه، فقال لها:

ـ «يا أمةَ اللهِ، إسقينى ماءًا.»

فدخلتْ، فسَقَتْهُ، فجلسَ، فقالتْ:

ـ «يا عبدَالله، إذهبْ إلىٰ أهلك.»

فسكت، ثمّ عادتْ، فسكتَ، فقالت:

ـ «سبحان [85] اللهِ! قُمْ إلى أهلكَ، فمايصلح الجلوسُ علىٰ بابى، ولاأحلُه لكَ.» فقال:

ـ «يا أمة اللهِ، مالى فى هذا المصر منزلٌ، ولاعشيرةٌ، فهل لكِ فى أجرٍ ومعروفٍ، ولعلّى أكافئكِ به بعدَ اليوم.» قالتْ:

---

١) مابين [ ] تكملةٌ من الطبرى ٧:٢٥٨.

٢) أسيدًا: كذا ضُبط فى الأصل، وما فى الطبرى: اسيدًا. من دون ضبط.

ـ «وماذاك؟» قال:

ـ «أنا مسلم بنُ عقيلٍ، كذبنى هؤلاءِ القوم، وغرّونى.» قالتْ:

ـ «أدخلْ!»

ولم يكنْ بأسرعَ من أن جاءَ ابنُها. فقالت:

ـ «يابُنَىَّ، مكرمةٌ وافتكَ.»

وأخذتْ عليه الأيمانَ، أن لايُخبِرَ احدًا، فحَلفَ، فأخبرتْهُ الخبرَ، فاضطجعَ وسكتَ.

وأخذ ابنُ زيادٍ لايسمع لأصحابِ ابن عقيلٍ صَوتًا، فقال لأصحابه:

ـ «أشرفوا، فانظروا مابالُهُم؟»

فأشرَفوا، فلم يَرَوا أحدًا. قال:

ـ «فانظروا، فلعلَّهمُ تحتَ الظِّلالِ قد كمنوا لكم.»

فجعلوا يخفضون شُعَلَ النّارِ فى أيديهم، وينظرون: هل فى الظِّلال احدٌ؟ فكانت أحيانًا تُضىءُ لهم، وأحيانًا لاتُضىءُ، كما يُريدون. فدَلَّوا أنصافَ الطِّنان تُشدُّ بالحِبال، ثمّ تُجعَلُ فيهـا النِّيرانُ، ثمّ تُدلَّىٰ إلى الأرضِ. ففعلُوا ذلك من أقصى الظِّلالِ وأدناها، فلم يَرَوا شـيئًا. فعلموا أنَّ القـوم انصرفُوا نادمين.

فأعلمُوا ابنَ زيادٍ، فأمرَ بفتح باب السُّدَّةِ الّتى فى المسـجد، ثمّ خـرج فصـعد المنبر، وخـرج أصحابُه، فجلسُوا حَولَهُ [86] قبلَ العَتَمة، ونادىٰ:

ـ «بَرِئَتِ الذِّمّةُ من رجلٍ من الشُّرطة، أو العُرفاءِ، أو المناكب والمقاتلة، صـلّى العَتَمةَ إلاّ فـى المسجد!»

فلم تكن إلاّ ساعةٌ حتّى امتلأ المسجدُ.

فقال الحصينُ بن تميمٍ:

ـ «إن شئتَ، صلِّ غيرَكَ، ودخلتَ القصرَ، فإنّى لاآمَنُ أن يغتالَكَ بعضُ أعدائكَ.» فقال:

ـ «مُرْ حَرَسى أن يقومُوا ورائى، وزِدْ فيهم، فإنّى لستُ بداخلٍ بعد أن آثرتُ الخروجَ.»

فصلّىٰ بالنّاس، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّ ابنَ عقيلٍ السَّفيهَ الجاهلَ، قـد أتىٰ مارأيتُم من الخـلافِ والشـقاق، فَبرئـتِ الذِّمّةُ من رجلٍ وجدناهُ فى داره، ومن جاءَ به فله دِيَتُهُ.»

ثمّ توعّدَ الناسَ، وحضّـهم على الطّاعةِ، وخـوّفهم الفـرقةَ والفتنةَ. ونادىٰ حُصـين بن تميمٍ،

فأجابه، وكان علىٰ شُرَطِهِ، فقال:

ـ «ثكلتك أمُّكَ، إن ضاعَ بابُ سكّةٍ من سِكَكِ الكوفة، أو خرجَ هذا الرَّجلُ، ولم تأتني به. فابعث مراصدَ على أفواه السِّكك، وأصبحْ غدًا واستَبْرِىء[1] الدُّورَ، وجُسْ خلالَها حتّىٰ تأتيَني بهذا الرَّجل.»

ثمّ نزل ابن زيادٍ، ودخل القصرَ، وأصبح ابنُ تلكَ العجوزِ، وهو بلال بن أسيد، فغدا إلى عبدالرَّحمان بن محمَّد بن [87] الأشعث، فأخبرهُ بمكان ابن عقيل عندهُ، وكان محمَّد بن الأشعث قد باكرَ ابنَ زيادٍ، وهو عندهُ. فأقبل عبدالرَّحمان حتّىٰ أتىٰ أباهُ، فدنا منه، وسارَّهُ.

فقالَ ابن زياد:

ـ «وما يقول ابنك؟» فقال:

ـ «يقول: إنّ ابن عقيلٍ فى دارٍ من دُورِنا.»

فنخس بالقضيبِ فى جَنبِه، وقال:

ـ «قُمْ، وائتنى به السّاعة.»

وبعث إلىٰ خليفته، وهو فى المسجد أن:

ـ «إبعثْ مع ابن الأشعث سبعين رجلاً من قيسٍ.»

وإنّما كرهَ قومَهُ لأنّه علم أنّ قومَهُ يكرهون أن يُصاب فيهم مثلُ ابن عقيلٍ. ففعلَ ذلك، وسارَ محمَّد بنُ الأشعث، حتّى أطافَ بالدّار.

فلمّا سمع مُسلمُ وقعَ الحوافرِ، بادَرَ إلىٰ سيفه، وخرج إليهم، فاقتحمُوا عليه، فردَّهم، ثمّ عادُوا، فردَّهم، حتّى ضربه رجلٌ منهم بسيفه، فقطع شفَتَهُ، وثناياهُ، وضَربهُ مسلمُ بأعلىٰ رأسه، كادت تأتى عليه، ولكن سَلِمَ. فلمّا رأى النّاسُ ذلك، أخذوا يرمُونه من فوق البيتِ.

فاقبل عليه محمَّد بن الأشعث، فقال:

ـ «إنّك أثخِنتَ، وعجزتَ عن القِتال، فلِمَ تقتُل نفسَكَ، أقبِل إليَّ، ولك الأمان.»

فقال: «آمِنٌ أنَا؟»

قال: «نعم.»

وقال القوم: «أنت آمِنٌ.»

فأمكنِ من نفسه، [88] فدَنَوا منه، وحملوهُ. فقال:

---

[1] كذا فى الأصل، وهامش الطبرى (٧:٢٦٠): واستبرِئْ. فى مط: وابترى. وفى الطبرى: واستبْرِ!

- «يامحمّد بن الأشعث، أراكَ ستعجز عن أمانى..»

وذلك أنّه نزعَ سيفَه من عاتقه، فاستوحش.

- «.. فهل لك فى خير؟ تستطيع أن تبعثَ رجلاً من عندكَ على لِسانى يُبلغُ حسينًا - فإنّى أراهُ قد خرجَ، أو هو خارجٌ غدًا - فيقول له: إنّ ابن عقيلٍ بعثنى، وهو أسيرٌ، لا يَرىٰ أنّه يُمسى وهو يُقتَلُ، وهو يقول لك: ارجع بأهلِ بيتكَ، ولايَغُرّكَ أهل الكوفة، فإنّهم أصحابُ أبيكَ، الّذى كان يتمنّىٰ فِراقَهم بالموتِ، أو القتل، إنّ أهل الكوفة قد كذبوك، وكذبونى، وليس لِكَذوبٍ[1] رأىٌ.»

فقال ابن الأشعث:

- «والله، لأفعلنّ، ولأُعلِمَنّ الأميرَ عُبيدَالله. أنّى آمنتُكَ.»

وذهب به إلى ابن زيادٍ، وأنفذ رجلاً على راحلةٍ إلى الحسين بما قال مُسلمٌ.

فلمّا دخل به على ابن زيادٍ، قال:

- «إنّى آمَنتُه.» قال:

- «وما أنتَ والأمان، كأنّما أرسلناك لِتُؤمِنَهُ، إنّما أرسلناك لِتأتيَنا[2] بِه.»

فسكت، وانتهىٰ بمسلمٍ إليه. فقال:

- «إيهٍ يابن عقيلٍ، أتيتَ النّاسَ، وأمرُهم جميعٌ، وكلمتهُم واحدةٌ، لِتُشتّتَ بينهم، وتحملَ بعضهم على بعضٍ.» قال:

- «كلاّ! لَستُ لذلك أتيتُ، لكنّ أهل المصر زعموا أنّ أباكَ قتلَ خيارَهم، وعملَ فيهم أعمالَ كِسرىٰ وقيصرَ، فأتيناهُم لِنأمُرَ بالمعروف والعدل، وندعو إلى حكم الكتاب.» [89]

وتراجَعا الكلامَ إلى أن قال له ابنُ زيادٍ:

- «قتلنى اللهُ، إن لم أقتلْكَ قتلةً لم يُقتَلْها أحدٌ فى الاسلام.» قال:

- «أما إنّك[3] أحقُّ مَن أحدثَ فى الاسلام، ما لم يكن فيه، وإنّكَ لاتدَعُ سوءَ القتلةِ، وقُبحَ المُثلةِ، وخُبثَ السّريرةِ، ولُؤمَ الغَلبةِ. لا أحدَ[4] من النّاس أحقُّ بها منك.»

وأخذ ابن زيادٍ يشتمه، ويشتم حسينًا و عليًا، وأمسك مُسلمٌ لايُكلّمه.

ثمّ قال:

---

١) وما فى الأصل والطبرى (٧:٢٦٣): لِمكذوبٍ. وفى مط: لِكَذوب. واللاّم اضفناها كما فى مط.

٢) فى الأصل: تاتينا (بدون اللاّم)

٣) فى مط: اما انا إنك!

٤) فى الأصل.ومط: لأحدٍ. وهو خطأ. والتّصحيح من الطّبرى ٧: ٢٦٧؛ وابن الأثير ٤:٣٥.

- «إصعدُوا به فوقَ القصر، فاضربوا عُنقَهُ، ثمّ أتبِعُوا جسَدَهُ رَاسَهُ.»
فصعد وهو يقول:
- «اللّهمّ احكم بيننا وبين قوم غرّونا، وخَذَلُونا.»
وأشرف به علىٰ موضع الحذّائين[1] اليوم، فضُربتْ عُنقُه، وأتبعَ جَسدُه راسَهُ.
ثمّ أمر بهانئ بعد قتل مسلم، أن يُخرجَ إلى السُّوق، فتضربَ عُنقُه. فأُخرج إلى حيثُ تُباعُ فيه الغَنم، وهو مكتوف[2]، فجعل يقول:
- «وامذْحجاه، ولامَذحِجَ لى اليومَ.»
ولاينصرهُ أحدُ، حتّى قُتِلَ. [90]
وأمر بكلّ مَن عرفه مِمَّن خرج مع مُسلم، فأتى به إلى قومه، فضُربت عُنقُه فيهم، وبعث برؤوس مَن قتل منهم إلى يزيدَ وكتبَ بالقصّة.
ولَحِقَ رسولُ مسلم الّذى أشخصهُ محمّد بن الأشعث، الحسينَ، وهو بِزُبالةَ لأربع ليالٍ، فأخبرهُ الخبرَ، وبلّغهُ الرِّسالةَ.
فقال له الحسين:
- «كلُّ ماحُمّ[3] نازلُ، وعندالله نحتسبُ أنفسَنا، وفسادَ أُمّتنا.»

[الحسين وآراءُ المشيرين عليه]

ذكر رأى أشيرَ به على الحسين
عليه‌السّلام

لَقيهُ عُمر بن عبدالرّحمن بن الحارث بن هشام المخزومى، فقال له، وقد قَدِمت عليه كُتبُ العراق:
- «يابنَ عمّ إنّى أتيتُ لحاجةٍ أُريدُ ذِكرَها لك نصيحةً، فإن كنت تَرىٰ أنّك مُستنصِحى، قلتُها، وأدّيتُ ماعلىّ من الحقّ فيها، وإن ظننتَ أنّكَ لاتستنصِحنى، كففتُ عمّا أُريدُ أن أقول.»

---

١) كذا فى الأصل ومط وابن الأثير: الحذّائين. وفى الطبرى: الجزّارين.
٢) مكتوف: كذا فى الأصل والطبرى ٢٦٨:٧. فى مط: مكتوب. وهو خطأ.
٣) حُمّ الأمرُ حمّاً: قُضى. قُدّر.

قال: فقال:

ـ «قُلْ، فوالله ما أستغِشُّكَ، وما أظنُّك بِشَىْءٍ من الهَوىٰ لِقبيحٍ من القولِ والفعل.»

قال: قلت:

ـ «بلغنى أنكَ تُريدُ السَّيرَ إلى العراق، وإنّى أشفقُ أن تأتىَ بلدًا فيه عُمّاله وأمراؤُهُ، ومعهم بيوتُ الأموال. وانّما النّاسُ عَبيدٌ لِهذهِ الدّراهمِ والدّنانير، [91] فلا آمَنُ أن يُقاتِلَك مَن وَعدَك بنصره، ومَن أنتَ أحبُّ إليه مِمَّن يقاتلكَ معه.»

فقال الحسين:

ـ «جزاك اللهُ خيرًا يا بن عمٍّ، مَهما يُقضَ، يَكُنْ، وأنتَ عندى أحمدُ مُشير، وأنصحُ ناصحٍ.»

[رأىٌ أشار به عبدُالله بنُ عبّاس على الحسين]

وأتاهُ عبدُالله ابن عبّاس[1]، فقال:

ـ «يا ابنَ عمٍّ، إنّه قدِ أرجف النّاسُ أنّك سائرٌ إلى العراق، فَبَيِّنْ لى ما أنتَ صانعٌ.»

فقال له:

ـ «إنّى قد أجمعتُ السَّيرَ إلى العراقِ فى أحد يَومَىَّ هذين إن شاءَالله.»

فقال له ابن عبّاس:

ـ «فإنّى أعيذُك باللهِ من ذلك؛ أخبِرْنى ـ رحمك اللهُ ـ أ تسير إلى قومٍ قد قتلُوا أميرَهم، وضبطُوا بِلادَهم، ونَفَوْا عَدُوَّهم؟ فإن كانُوا[2] قد فعلوا ذلك، فَسِرْ إليهم، وإن كانوا إنّما دعوك إليهم، وأميرُهم عليهم، قاهرٌ لَهُم، وعُمّاله يجبون بلادَهم، فإنّهم دعوك إلى الحرب، ولا آمَن أن يغرُّوكَ، ويكذبوك، ويخذُلوك، ويُستنفروا إليك، فيكونوا أشدَّ النّاسِ عليك.»

فقال له الحسين:

ـ «فإنّى أستخير اللهَ، وأنظر.[3]»

فجاءَهُ من الغدِ ابنُ عبّاسٍ، وقال له:

---

١) لقد ورد هذا الأسم: «العباس»، «عبّاس»، وفى مط والطبرى، وابن الأثير: عبّاس. فآثرنا توحيد ضبطه بدون «ال».

٢) فى الأصل ومط: كان. ففضّلنا ضبطَ الطّبرى وابن الأثير.

٣) وهنا ترك مسكويه ذكر مادار بين ابن الزّبير والحسين بن علىٍّ من حديث، عند إتيان ابن الزّبير إيّاهُ، بعد إجماع الحسين على المسير إلى العراق. ولما للحديث من اهميّة تاريخيّة فإنّنا نثبته فى مايلى كما أورده الطبرى (٧:٢٧٤) وابن الأثير (٤:٣٨):

←

- «إبنَ عمٍّ، إنّى أتصبّرُ، ولا أصبِرُ، إنّى أتخوّفُ عليك فى هذا الوجهِ الهلاكَ. إنّ أهلَ العراقِ قومٌ [92] غُدُرٌ، فأقِمْ بهذا البَلدِ، فإنّك سيّدُ أهلِ الحجاز. فإن كانَ أهلُ العراق يريدونكَ كما زعمُوا، فاكتُبْ إليهم، فلينفُوا عدوّهم، ثمّ اقدَم عليهم، فإن أبيت إلاّ الخُروجَ، فسِرْ إلى اليمن،

قال:

فخرج ابن عبّاس من عنده، وأتاهُ ابن الزّبير، فحدّثه ساعةً، ثمّ قال:

- «ما أدرى ما تركُناهُ [كذا] هؤلاءِ القوم، وكفُّنا عنهم، ونحن أبناءُ المهاجرين، و ولاةُ هذا الأمر دونهم، خبرنى ماتُريد أن تصنعَ؟»

فقال الحسين:

- «والله لقد حدّثتُ نفسى بإتيان الكوفة، ولقد كتب إلىّ شيعتى بها، وأشرافُ أهلِها، وأستخيرُ اللهَ.»

فقال ابن الزّبير:

- «أما لوكان لى بها مثلُ شيعتِك، ماعدلتُ بها.»

قال: ثمّ إنّه خَشىَ أن يتّهمَه، فقال:

- «أما إنّك لوأقمتَ بالحجاز، ثمّ أردتَ هذا الأمرَ هٰهُنا، ما خُولِفَ عليك، إن شاءَ اللهُ.»

ثمّ قام، فخرج من عنده، فقال الحسين:

- «ها إنّ هذا ليس شىءٌ يُؤتاهُ من الدُّنيا أحبُّ إليه من أن أخرجَ من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنّه ليس له من الأمر معى شىءٌ، وأنّ النّاس لم يَعدلوهُ بى، فودّ أنّى خرجتُ منها لِتَخلُوَ له.» - انتهى ماعند الطبرى.

وأمّا ابن الأثير، فيختلف ماذكره بعد قول الرّاوى: «ثمّ إنّه خشى أن يتّهمه فقال:»، فقال فى الكامل:

- «أما إنّك لو أقمتَ بالحجاز، ثمّ أردتَ هذا الأمرَ هٰهنا، لما خالفنا عليك، وساعدناك، وبايعناك، ونَصَحنا لك.»

فقال له الحسين:

- «إنّ أبى حدّثنى أنّ لها كبشًا به تستحلُّ حرمتها، فما احبُّ أن أكونَ انا ذلك الكبش.»

قال: «فأقِمْ إن شئتَ وتولّينى أنا الأمر، ولاتُعصَىٰ.»

قال: «ولا أريدُ هذا أيضًا.»

ثمّ إنّهما أخفَيا كلامَهما [دوننا]، فالتفت الحسينُ إلى مَن هناك وقال:

- «أ تدرون مايقول؟»

قالوا: «ماندرى، جعلنا اللهُ فداكَ.» قال:

- «إنّه يقول: أقِمْ فى هذا المسجد أجمعْ لك النّاسَ!»

ثمّ قال له الحسين:

- «واللهِ لئن أُقتَلَ خارجًا منها بشِبْرٍ أحبُّ إلىّ من أن أُقتلَ فيها، ولأن أُقتَلَ خارجًا منها بشبرَين، أحبُّ إلىّ من أن أُقتلَ خارجًا منها بشبر. وأيمُ اللهِ، لوكنتُ فى جُحر هامّةٍ من هذه الهَوامّ، لاستخرجونى، حتّى يقضُوا بى حاجَتهم! والله، ليَعتدُنّ علىّ كما اعتَدَتِ اليهودُ فى السّبْتِ.»

فقام ابنُ الزّبير، فخرج من عنده. فقال الحسين:

- «إنّ هذا ليس شىءٌ أحبُّ إليه من أن أخرجَ من الحجاز، وقد علم أنّ النّاس لايعدلونه بى، فودّ أنّى خرجتُ حتّىٰ يخلوَ له.»

فإنّ بها حُصونًا وشعابًا، وهى أرضٌ عَريضةٌ طويلةٌ، ولأبيك بها شيعةٌ، وأنتَ فى عُزلةٍ عن النّاس، فتكتبُ وتَبُثُّ دُعاءَكَ، فإنّى أرجو أن يأتيكَ ماتُحبُّ فى عافيةٍ.»

فقال له الحسين:

ـ «يا ابنَ عمٍّ، إنّى أعلمُ أنّك ناصحٌ شفيقٌ، ولكنّى قد أجمعتُ على المسير.»

فقال له ابن عبّاس:

ـ «فإن كنتَ سائرًا، فلا تَسِرْ بنسائكَ، وصبيتِكَ، فوَاللهِ إنّى أخافُ أن تُقتلَ كما قُتلَ عثمانُ، ونساءُهُ و وُلدُه ينظرون إليه، و واللهِ الّذى لا إلهَ إلاّ هُوَ: لَو أعلمُ أنّى إذا أخذتُ بِشَعرِكَ وناصيتِكَ، حتّى تجتمع علىَّ وعليك النّاسُ، أطعتَنى وأقمتَ؛ لَفعلتُ.»

فلمّا أبىٰ عليه، قال له:

ـ «قد أقررتَ عينَ ابنِ الزّبيرِ بتخليتِكَ إيّاهُ والحَجازَ، وهو اليومَ لا يُنظَرُ إليهِ معك.»

وخرج من عندالحسين، ومرّ بعبداللهِ بن الزّبير، فقال:

ـ «قرّتْ عينُكَ يا بن الزّبير!»

ثمّ قال: [93]

يا لَكِ من حُمَّرةٍ[1] بِمَعمَرِ خَلا لَكِ الجَوُّ، فَبِيضى وَاصفِرى
وَنَقِّرى ما شئتِ أنْ تُنَقِّرى

قال:

ـ «وما ذاكَ؟»

قال:

ـ «هذا الحسينُ يخرج إلى العراقِ، ويُخلّيكَ والحجازَ.»

[خرُوجُ الحُسينِ إلى العراق]

[لقاءُ بين الحُسين والفَرزدق]

وخرج الحسينُ فى أهل بَيتِه، ونسائه، وصبيتِه. فلقى الفرزدق الشّاعر بالصِّفاح، فتواقفا، فقال

١) كذا فى الأصل: حُمَّرة. وفى هامش الأصل، ومط والطبرى (٢٧٥:٧) وابن الأثير (٣٩:٤): قُبَرة. الحُمَّرة: القُبَرة. نوعٌ من العصافير.

له الحسين:

- «بيّن لنا نبأ النّاس خلفكَ.»

فقال له الفرزدق:

- «الخبيرَ سألتَ. قلوب النّاس معك، وسيوفُهم مع بنى أميّة، والله يفعل مايشاءُ.»

فقال له الحسين:

- «صدقتَ، الأمرُ لله، يفعل مايشاءُ.»

ثمّ حرّك راحلته، وقال:

- «السّلامُ عليك»

وافترقا.

[ماكان من أمر رسوله قيس بن مُسهِر]

وقدكان وصل إلى الحسين كتابُ مسلم بن عقيل، قبلَ أن يُقتلَ بأيّام، يقول فيه:

- «امّا بعد، فإنّ الرّائدَ لايكذبُ أهلَه. إنّ جميعَ أهل الكوفة معك، فأقبِلْ حين تقرأ كتابى، والسّلام.»

فأقبل الحسين بصبيانه ونسائه لا يلوى على شئ، ولايسمعُ قولَ أحدٍ، حتّى بلغَ الحاجرَ من بطن الذّومة[١]، وبعث قيس بن مُسهِر إلى الكوفة بكتابٍ يعرّفُهم [94] فيه أنّه شخص إليهم، لما عرفه من اجتماعِ مَلأهم على نصره، والطّلبِ بحقّه.

فلمّا انتهى قيسٌ إلى القادسيّة، وجد خَيلَ ابن زيادٍ منظومةً مابينها وبين الكوفة، فأخذهُ الحصين بنُ تميم، فبعث به إلى ابن زيادٍ.

فقال له ابن زيادٍ:

- «إصعد القصرَ، فَسُبَّ الكذّابَ بنَ الكذّاب.»

فصعد قيس بن مُسهِر القصرَ، فَحمد اللهَ، وأثنى عليه، ثمّ قال:

- «أيُّها النّاسُ، هذا حسين بن علىّ خيرُ خلق الله، إبنُ فاطمةَ بنتِ رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وفارقتُه بالحاجر، فأجيبُوهُ!»

ثمّ لعن زيادًا وابنَهُ، واستغفر لعلىّ بن أبى طالبٍ. فأمر به عُبيدُالله فرُمِيَ به من فوق القصر،

---

١) من بطن الذّومة: سقطت من مط. وفى الطبرى (٢٨٨:٧) الحاجر من بطن **الرّمّة**.

فماتَ.

[خَيلُ الحرِّ بن يَزيد]

وأقبل الحسينُ، حتّىٰ نزل شراف، وأمر فِتيانَه فاستقوا من الماءِ، ثمّ ساروا صَدرَ يومِهم. فقال رجلٌ:

- «اللهُ أكبرُ.»

فقال الحسين:

- «اللهُ اكبرُ، مِمَّ كبَّرتَ؟» قال:

- «رأيتُ النَّخلَ.»

فقال رجلان أسديّان كانا معه:

- «إنّ هذا مكانٌ مارأينا به نخلاً قطُّ.»

قال الحسين:

- «فما تَرَيانِه رَأىٰ.» فقالا:

- «نَراهُ واللهِ رَأىٰ هَوادى[1] الخَيل.» فقال:

- «وأنا، والله، أرىٰ ذلك.»

فقال الحسين:

- «أما لَنا مَلجأ نعدل إليه؟»[95] نجعلُه فى ظهورنا ونستقبل القومَ من وجهٍ واحدٍ؟»

قال: فقلنا له:

- «نعم، هذا ذوحُسُمٍ[2] إلى جَنبك، تميل إليه عن يسارك.»

فأخذ إليه، ومال أصحابُه معه. فماكان بأسرعَ من أن طلعت علينا هوادى الخيل، فتَبيَّنّاها، وعدلنا. فلمّا رأونا قد عدلنا عن الطَّريق، عَدلوا، كأنّ[3] أسنّتَهم اليَعاسيبُ، وكأنّ[3] راياتهم أجنحةُ الطَّير، فسبقناهم، فنزل الحسين، وضُربت أبنيتُه، وجاءَنا القوم وهُم ألفُ رجلٍ، مع الحُرِّ بن يزيد التّميمى.

فأقبل حتّىٰ وقف هو وخيلُه مقابلَ الحسينِ وأصحابِه فى حَرِّ الظَّهيرةِ، فأمر الحسين أن

---

١) الهادية: المتقدّمة من كل شىءٍ. هاديات الخيل وهواديها: متقدّماتها.

٢) ذوحُسُم: والضبط من الطبرى ٢٩٦:٧.

٣) فى الأصل: كان. والضبط من الطبرى.

يُسقى القومُ، فقام فِتيانهُ يَسقون الخيلَ بالأتوار والطَّساسِ حتّىٰ أرووها.

فكان سبب تقدُّم الحُرّ فى ألفِ رجلٍ أنّ عُبيدَاللهِ بن زيادٍ بعث الحُصين بن تميمٍ، وكان علىٰ شُرَطِه، علىٰ أن ينزل القادسيّة، وينظُم مابين القطقطانية وخفّان بالمسالح. فقدّمَ الحُرّ هذا بين يديه فى ألف رجلٍ يستقبل الحسين، ويكون معه يُسايرهُ، ويحفظُه إلى أن يردَ عليه الخبر.

فحضرت الصّلاةُ، فأذّن مُؤذّنُ الحسين، [96] ثمّ أقامَ. فخرج الحسين فى إزارٍ ونعلين، وقال:

- «أيُّها النّاس، معذرة إلى اللهِ، وإليكم. إنّى لم آتِكم حتّىٰ أتتنى كُتُبكم، وقدمتْ علىّ رسائلُكم أنِ اقدَمْ علينا، فإنّه ليس لَنا إمامٌ. فإن كنتم على ذلك، فقد جِئتُكم، فإن تُعطونى ما أطمئنُ إليه من عُهودكم أقدَمُ مصرَكم، وإن كنتم لِمقدمى كارهين، انصرفتُ عنكم إلى المكان الّذى أقبلتُ منه إليكم.»

فسكتوا عنه.

فقال الحسين لِلحُرّ:

- «أ تريدُ أن تُصلّىَ بأصحابك؟» قال:

- «لا، بل تُصلّى أنتَ ونُصلّى بصلاتكَ.»

فصلّىٰ بهم الحسين، وانصرف الحُرّ إلىٰ مكانه، وأخذ كلُّ رجلٍ منهم بِعنان دابّته، وجلس فى ظلّها. فلمّا كان وقت العصر، أمر الحسين أن يتهيّأوا للرّحيل، ففعلوا. ثمّ إنّه خرج، فأمر مناديه، فنادىٰ بالعصر، واستقدم الحسينُ فصلّى بالقوم، ثمّ سلّم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد اللهُ وأثنى عليه، وأعاد على القوم قريبًا من مقالته الأُولىٰ.

فقال الحُرُّ:

- «إنّا، واللهِ، لاندرى هذه الكتب، والرُّسل الّتى تذكر.»

فدعا الحسين بخُرجَينِ مَملوّينِ كُتُبًا فنشرها بين أيديهم. فقال له الحُرُّ:

- «لسنا من هؤلاءِ الّذين كتبُوا إليكَ، إنّما أمرنا، إذا نحن لقيناك، ألاّ نُفارقَكَ [97] حتّىٰ نُقدمك الكوفةَ على عُبيدِالله بن زيادٍ.»

فقال له الحسين:

- «الموتُ أدنى إليكَ من ذلك.»

ثمّ قال لأصحابه:

- «إنصرفوا بِنا.»

فلمّا ذهبوا لينصرفوا، حال القَوم بينَه وبين الانصراف.

فقال الحسين لِلحُرّ:

ـ «ثكلتْك أمُّكَ، ما تُريدُ؟»

قال:

ـ «أما واللهِ، لوغيرك من العرب يقولُها ما تركتُ ذكر أمّه، كائنًا مَن كان، ولكن لاسبيل إلى ذكر أمّكَ، إلاّ بأحسنِ مانقدر عليه.»

فقال له الحسين:

ـ «فما تُريدُ؟» قال:

ـ «أن انطلق بك إلى عُبيدِالله بن زيادٍ.»

فقال له الحسين:

ـ «إذًا[١] لا أتبعُكَ.»

فقال له الحرُّ:

ـ «إذًا[٢] لاأدعُك.»

فترادّا القول: فلمّا طال الكلام، قال الحرُّ:

ـ «إنّى لم أومَرْ بقتالك، إنّما أمرتُ ألاّ أفارقَكَ حتّىٰ تقدم الكوفة. فإذا أتيتَ حيطانَها، فخُذْ طريقًا لايُدخلك المدينة، ولايُؤدّيك إليها، ولايَرُدُّك عنها يكون بينى وبينكَ نَصفًا، وتكون بالخيار، بين أن تكتبَ إلى يزيد إن أردتَ، أو إلى ابن زيادٍ، إن أردتَ، فلعلّ اللهُ يأتى بأمرٍ يرزقنى فيه العافية أن أبتلىَ بشىءٍ من أمرك.»

فتراضيا، وتَياسرَ الحرُّ عن طريق القادسيّة، وسايَرَهُ الحسين. وأخذ الحسينُ يخطب [98] القومَ ويذكّرهم اللهَ، ويدلُّهم على نفسه ومكانه عن النُّبوّة والحكمة، واستحقاقِه لِلإمامةِ دون الفجَرةِ الفَسقة.

فقال له الحرُّ، وهو يُسايرُهُ:

ـ «ياحسين! أذكّرك اللهَ فى نفسكَ، فواللهِ، لئن قاتلتَ لَتُقتلَنَّ.»

فقال له الحسينُ:

ـ «أ بالموت تُخوّفنى؟»

١، ٢) كذا فى الأصل ومط فى كلا الموضعين: إذًا. والضبط فى الطبرى (٧:٢٩٩) وابن الأثير (٤:٤٧): إذن.

وأنشدهُ أبياتًا، وهى أبياتٌ تمثّلَ بها:

سَأمضى، فَما بِالمَوتِ عارٌ على الفَتىٰ إذا ما نَوىٰ حَقًّا، وَجاهَدَ مُسلمًا
وآسَى الرِّجالَ الصّالحينَ بِنفسِه وفارقَ شرًّا أن يَعيشَ ويُرغَمَا[١]

فكان يسير الحرُّ ناحيةً، والحسينُ ناحيةً. فبينا هم كذلك، فطلع عليهم أربعةٌ من الفرسان، فعدلُوا إلى الحسين، فسلّمُوا عليه، فمنعهم الحرُّ أن يسيرُوا معه.

فقال الحسينُ:

- «مالَكَ تمنعهم؟»

فقال الحرُّ:

- «هٰؤلاءِ لم يأتُوا معك، وإنّماهم أهلُ الكوفة.»

قال الحسينُ:

- «هم بمنزلة مَن جاءَ معى، فإنّهم أنصارى وأعوانى، وقد أعطيتَنى ألاّ تعرضَ لى بشىءٍ، حتّىٰ آتى الكوفة. فإن تممّتَ على ماكان بينى وبينَكَ، وإلاّ ناجزتُك.»

قال: وكفَّ عنهم الحرُّ.

فقال الحسين للقوم:

- «أخبرونى [99] خَبرَ النّاسِ وراءَكم.»

فقالوا:

- «أمّا أشرافُ النّاس، فقد أعظمت رشوتُهم، ومُلِئت غرائرُهم، واستُميلَ وُدُّهم، واستُخلصتْ نصيحتُهم، وهُم ألْبٌ عليك، وأمّا سائر القوم، فأفئدتُهم معك، وسيوفُهم غدًا مشهورةٌ عليك.»

قال:

- «فخَبِّرونى عن رسولى إليكم.» فقالُوا:

- «مَن هو؟» قال:

- «قيسُ بنُ مسهر الصَّيداوى.» فقالوا:

- «نعم، أخذهُ الحُصَين بنُ تميم، فبعث به إلى ابن زيادٍ، فأمرهُ ابن زيادٍ بلعنك، ولعنِ أبيك، فصلّىٰ عليكَ وعلىٰ أبيك، ولعَنَ ابنَ زيادٍ وأباهُ، ودعا النّاسَ إلى نُصرتك، وأخبرهم بمقدمكَ فأمر

---

١) فى الطبرى (٣٠٢:٧): وفارق مثبورًا يغُشُ ويُرغما. وبيتٌ ثالثٌ فى هامشه بثلاث روايات. وانظر أيضًا ابن الأثير ٤٩:٤.

به ابنُ زيادٍ، فأُلقى من طمار القصر، فماتَ.»

فتَغرغرتْ[1] عينا الحسين بالدُّموع، ولم يملكْ دمعَهُ، ثمّ قال:

ـ «فَمِنهُمْ مَن قَضَىٰ نَحبَهُ، ومِنهُمْ مَن يَنتَظِرُ، وَما بَدَّلُوا تبديلاً.»[2]

[ما قاله الطِّرمّاحُ بن عَدىّ للحسين]

فقالُوا[3] له بعدَ ماذَنَوا منه:

ـ «والله، إنّا لَننتَظِرُ، فما نَرىٰ معـك أحَـدًا، ولو لم يُقـاتلك إلاّ هؤلاءِ الّذين نراهم مُلازميكَ، لَكفىٰ بهم، فكيفَ وقد رأينا قبلَ خُروجنا من الكوفة ما لم نَرَ قَطُّ مِثلَهم ناسًا فـى صَـعيدٍ واحـدٍ عُرِضُوا لِيُسرِّحُوا إليك، فَنَنشُدك اللهَ إن قدرتَ [100] ألاّ تَقدّم شبرًا إلاّ فعلتَ. فهاهنا بلدٌ منعك اللهُ به، حتّىٰ ترىٰ رَأيَك، فسِـرْ بِنا حتّىٰ نُنزلَكَ جَبَلَنا الّذى يُدعىٰ أجأ، امتنعنا به واللهِ من ملوكِ غسّانٍ، وحميرَ، ومن النُّعمان، ومن الأسْـودِ والأحمر[4]، واللهِ مادخـل علينا ذُلٌّ قـطُّ، ثمّ تبعـث الرِّجال إلى مَن ينزلُ أجأ، وسَلمىٰ من طَيّءٍ، فيأتيك الرِّجال[5]، وأنا زعيمٌ لك بعشرين ألفَ طائىٍّ يضربون بين يديك بالسُّيوف.[6]»

فقال الحسين:

ـ «جزاكَ اللهَ وقومَكَ خيرًا. إنّه قد كان بينَنا وبين هؤلاءِ القوم من أهل الكوفة قولٌ لَسنا نقدر معه على الإنصراف، ولاندرى علامَ تنصرف بنا وبهم الأُمورُ فى العاقبة.»

فودّعوهُ وقالوا:

ـ «قد حملنا ميرةً من الكوفة لأهلينا، فنحن نحملها إليهم، ونعود إليكَ.»[7]

---

١) كذا فى الأصل ومط: فتغرغرتْ. وما فى الطبرى (٣٠٣:٧) وابن الأثير (٥٠:٤): فترقرقت. تغـرغرت عيناه: تردّد فيهما الدّمع. ترقرقت عيناهُ: دَمعتَا. ترقرق الماءُ وغيرُه: تحرّك واضطرب.

٢) س ٣٣ الأحزاب: ٢٣.

٣) والقائل هو الطِّرمّاحُ بن عدىّ. انظر الطبرى ٣٠٤:٧ وابن الأثير ٥٠:٤.

٤) فى الطبرى ايضًا: الأسود والأحمر. وفى ابن الأثير: الأحمر والأبيض.

٥) زاد فى الطبرى وابن الأثير هنا: ثمّ أقم فينا مابدا لك، فإن هاجَكَ هَيجٌ فأنا زعيمٌ...

٦) زاد فى الطبرى وابن الأثير: والله مايوصَل إليك ومنهم عين تَطرف.

٧) واستعجله الحسين عند التوديع، و وَفى الطِّرمّاح بوَعده، وعاد بعدَ أن وضـع الميرة عند اهله واوصاهم،ولكنّه لمّا بلغ عُذيبَ الهجانات، لقيه سماعة بن بدر، وأخبرهُ بقتله، فرجع إلى أهله. انظر الطبرى ٣٠٥:٧ وابن الأثير ٥١:٤.

[نزول الحسين بنينوىٰ وقدومُ راكبٍ بكتابٍ من ابن زيادٍ]

وسار الحسين، فجعل يتياسرُ، فيأتيه الحرُّ بن يزيد، فيردُّهُ وأصحابَه، فجعل إذا ردَّهم إلى الكوفة ردًّا شديدًا امتنعوا عليه. فلم يزالوا كذلك، حتّى انتهوا إلى المكان الّذى نزل به الحسين[1] - عليه السّلام - فإذا راكبٌ على نجيبٍ له، وعليه السّلاحُ متنكّبًا قوسَهُ، مُقبلٌ من الكوفة، فوقفوا جميعًا ينتظرونه. فلمّا انتهىٰ إليهم، سلّم [101] على الحُرّ وأصحابه، ولم يُسلّم على الحسين وأصحابه، ودفع إلى الحُرّ كتابًا من عُبيدالله بن زيادٍ، فإذا فيه:

- «أمّا بعدُ، فجَعجعْ[2] بالحسين وأصحابِه حيثُ يبلغكَ كتابى، ويقدم عليك رسولى، فلا تُنزلهُ إلاّ بالعَراءِ فى غير حِصنٍ، وعلى غير ماءٍ. وقد أمرتُ رسولى أن يلزمَك حتّىٰ تردَّهُ بإنفاذِ أمرى، والسّلام.»

فلمّا قرأهُ الحرُّ، قال:

- «هذا كتابُ الأمير عبيدِالله، يأمُرنى أن أجَعجعَ بكم فى المكان الّذى يأتينى كتابُه، وهذا رسولُه وقد أمرنى ألاّ يُفارقنى حتّىٰ أنفذَ أمرَهُ.»

وأخذ الحرُّ يُريدُهم على النُّزل هناك على غير ماءٍ، ولا فى قريةٍ. فقالوا:

- «دَعْنا ننزلْ فى هذه القرية. - يعنون الغاضريّة - أو تلك - يعنون نينوىٰ - أو تلك، أو تلك.»

فقال:

- «لا والله، ما استطيع هذا. أما تَرونَ الرّجلَ قد بعثَهُ عينًا علىَّ.»

فقال زُهيرُ بن القَينِ وكان مع الحسين:

- «يا ابنَ بنت رسولِ اللهِ، إنّ قتالَ هؤلاءِ السّاعةَ أهونُ علينا من قِتال مَن يأتينا من بعدهم، فلَعمرى لَيأتينا من بعد مَن ترىٰ مَن لاقِبَلَ لنا به.»

فقال الحسين:

- «لا أبدأهم بالقتال.»

فقال زُهيرُ:

- «فسِرْ بِنا إلىٰ هذه القرية القريبةِ حتّى ننزلَها، فإنّها حَصينَةٌ، وهى على [102] شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم، فقتالُهم اليومَ أهونُ من قِتالِ مَن يجيءُ بعدَهم.»

---

١) والمكان هو نِينَوىٰ. انظر ابن الأثير: نفس الصفحة.

٢) جعجع به: ازعجه. شرّده. حبسه. ألزمه الجعجاع. والجَعْجاع والجَعْجع: المكان الضّيّق الخشن الغليظ.

فقال الحسين:

ـ «و أيّةُ قريةٍ هى؟» قال:

ـ «العَقرُ.»

فقال الحسين، عليه السّلام:

ـ «أللّهمّ أعوذُ بك من العَقر!»[١]

ثمّ نزلَ، وذلك يومَ الخميس الثّانى من المحرّم سنة إحدىٰ وستّين.

[عمر بن سعد والخيار الصّعب]

وكان عُبيدُالله بن زيادٍ قد ولّىٰ عُمر بنَ سعدِ بن أبى وقّاص الرّىّ، وكتبَ عهدَه عليهـا، وجهّـز معه أربعةَ آلافٍ، لأنّ الدّيلمَ كانوا غلبوا علىٰ دَستَبى[٢]، فخـرج عمرُ بن سـعدٍ، وكان قـد عسكـر بحمّام أعين.

فلمّا كان من أمر الحسين ماكان، كتب عُبيدُاللهِ بن زيادٍ إلىٰ عُمرَ بن سعدٍ أن:

ـ «سِرْ إلى الحسين، فإذا فرغنا مِمّا بيننا وبينَه، سِرتَ إلىٰ عملك.»

فكتب إليه عُمرُ بن سعدٍ:

ـ «إن رأيتَ أن تُعفينى، فعلت.»

فقال عُبيدُالله:

ـ «نعم، علىٰ أن تردَّ إلينا عهدَنا.»

فاستعظم عُمرُ بن سعدٍ أمرَ الحسين، وكان يستشير نُصَحاءَهُ، فلا يُشير عليه أحدُ به، ثمّ خـلا فى قلبه الإمارة، فاستجاب وأقبلَ فـى أربعـة آلافٍ حتّىٰ نزل بالحسـين فـى غد يومٍ نزل فيه الحسين بالمكان الّذى ذكرناهُ.

فبعث عمرُ بن سعدٍ مَن يسألُه: ما الّذى جاءَ به. فجاء [103] الرّسـولُ حتّى سـلّم على الحسـين، وأبلغه رسالة عمر.

فقال الحسين:

١) عقرت المراة والرّجلُ عقرًا وعُقرًا: لم يلدا. عقر البعير: قطع إحدى قـوائمه. عقر الحيوان: ذبحـه. عقر الكلبُ الولدَ عضـّه. عقره عن حاجته: قطعه عنها. عَقِرَ عقرًا: بقى مكانَه لم يتقدّم او يتأخّر لفزعٍ أصـابه، كأنّه مقـطوعُ الرّجـل. عقُـرت المراةُ: عقمت. وعقر الرّجلُ والأمر: لم تكن لهما عاقبة.

٢) دَستَبىٰ، دَستَبِى [بفتح الباء وكسـرها]: كورةٌ كبيرة كانت مشـتركة بين الرّىّ وهمذان، فقُسّـمت كورتين.. وتسـمّى قريةٌ منها دَستَبى همذان (مع، يا).

- «كتبَ إلىّ أهلُ مِصركم أن اقدَم. فأمّا إذا كرهتمونى، فأنا أنصرف عنهم.»
فانصرف إلى عمر بجوابه. فقال عمرُ بن سعدٍ!
- «إنّى لأرجو أن يعافينى اللهُ من حَربِه.»
وكتب إلىّ عُبيدِاللهِ بذلك.

[اشتدادُ العطش على الحسين وأصحابه]

واشتدَّ على الحسين وأصحابه العــطش، فــدعا العبّاسَ بن علىٍّ، فبعثه فــى ثلاثين فــارسًا وعشرين راجلاً، وبعث معهم بعشرينَ قِربةً. فدَنَوا من الماءِ ليلاً.

فقال عمرو بن الحجّاج الزُبيدىُ، وكان قد أرسله عمرُ بن سـعدٍ فـى خمسـمائةٍ على الشّـريعة يمنعون الحسينَ وأصحابَه من الماءِ بِكتابٍ ورد عليه من عُبيدِاللهِ:
- «مَن الرَّجلُ، وما جاءَبك؟» قال:
- «جئنا نشرب من هذا الماءِ الّذى حلأتمونا[1] عنه.» فقال:
- «إشربْ هنأك اللهُ.» قال:
- «لا واللهِ، ما أشربُ والحسين ومَن ترى من أصحابه عِطاشٌ.» فقال:
- «لاسبيل إلىّ سقى هؤلاءِ، إنّما وُضِعنا بهذا المكان لِنمنعَهم الماءَ.»
فلمّا دَنا أصحابُه قال لِرجّالته:
- «إملأوا قِرَبَكم.»

وشَدَّ على القوم مع أصحابه فملأوا قِـرَبَهم، وثار بهـم عمرُو بن الحجّـاج، فقـاتلهم العبّاس وأصحابه، حتّى انصرف أصحابُ القِرَب [104] بالقِرَب، فأدخلوها على الحسين وأصحابه.

[التقاءُ بينَ الحسين وعُمر بن سعدٍ]

وبعث الحسينُ إلى عُمر أن:
- «إلقَنى اللّيلةَ، بين عسكرى وعسكرك.»

فخرج إليه عمرُ بن سعدٍ فى نحو من عشـرين فـارسًا، وأقبل الحســينُ فــى مثل ذلك. فلمّا التقيا، أمَرَ الحسين أصحابَه أن يتنحّوا، وأمر عُمر بن سـعدٍ أصـحابَه بمثل ذلك، فـانكشفتا عنهما حيث

[1] حلأهُ الشئَ تحليئًا: منعه منه.

لاتُسمع أصواتُهما، فتكلّما، فأطالا، حتّىٰ ذهب هزيعٌ من اللّيل. ثمّ انصرف كُلُّ واحدٍ إلى أصحابه، وتحدثَ النّاسُ بينَهم بالظّنون ولايدرون حقيقة شىء. ثمّ التقيا بعد ذلك مرارًا ثلاثًا وأربعًا.

[كتاب ابن سعدٍ إلى ابن زياد]
[فى مادار بينه وبين الحسين]

فكتب عُمر بن سعدٍ إلى عبيدالله بن زيادٍ:

ـ «أما بعدُ، فإنّ اللهَ قد أطفأ النّائرة، وجَمعَ الكلمة، وأصلح أمرَ الأمّة. هذا الحسينُ قد أعطانى:

أن يرجع إلى المكان الّذى أتىٰ منه،

أو أن نُسيّرهُ إلىٰ أىّ ثغرٍ من الثُغور شِئنا، فيكون رجلاً من المسلمين: له ما لهم، وعليه ما عليهم،

أو أن يأتىَ أمير المؤمنين يزيدَ، فيَضع يدَه فى يده، فيرىٰ فيه رأيَه، وفى هذا لكم رضىً، وللأمّة صلاحٌ.»[1]

فلمّا قرأ عبيدُالله الكتابَ، قال:

ـ «هذا كتابُ ناصحٍ لأميره، وشفيقٍ علىٰ قومه، قد قَبلتُ.»

[ما اشار به شمرٌ على ابن زيادٍ]

فقام إليه شَمرُ بنُ ذى الجوشن، فقال:

ـ «تَقبلُ هذا منه، وقد نزل بأرضكَ [105] وإلى جَنبك؟ فإنّما وافىٰ لِيُزيلَ سلطانَكَ. واللهِ، لئن رحلَ من بلادك ولم يضعْ يدَه فى يدك، لَيكوننّ أولىٰ بالقُوّة والعِزّ، ولَتكوننّ أولىٰ بالضّعف والعجز، فلاتُعطه هذه المنزلةَ، فإنّها من الوهن، ولكن لِينزل على حُكمك، فإن عاقبتَ، فأنتَ أولىٰ بالعقوبة، وإن عفَوتَ، كان ذلك لَكَ. ولقد بلغنى أنّ الحسينَ وعُمرَ بن سعدٍ يجلسان، فيحدّثان عامّةَ اللّيل.»

فقال عبيدُالله بن زياد:

---

١) أنظر ايضًا الطبرى ٣١٥:٧، وابنَ الأثير ٥٥:٤.

- «نِعمَ مارأيتَ، الرأى رَأيُكَ.»

ثمّ قال ابن زيادٍ:

- «أخرج أنتَ بجواب كتاب عمر بن سعدٍ. فليعرض على الحسين وأصحابه النُزُولَ على حكمى، فإن فعلوا، فليبعث بهم إلىّ سلمًا، وإن أبوا، فقاتِلُوهم. فإن فعلَ عمر بنُ سعدٍ، فاسمعْ منه وأطعْ، وإن أبىٰ، فأنت الأميرُ على النّاس، و ثِبْ عليه، واضربْ عُنُقَهُ، وابعثْ إلىّ برأسه.»

[جواب ابن زيادٍ لكتاب ابن سعدٍ]

ثمّ كتب إلى عُمرَ بن سعدٍ:

- «أمّا بعد، إنّى لم أبعثكَ إلى الحسين لِتُطاوله، وتكُفَّ عنه، ولا لِتُمنّيَهُ السلامةَ والبقاءَ، ولا لتقعُدَ له شافعًا عندى. أنظرْ: إن نزل الحسينُ وأصحابُه علىٰ حُكمى واستسلموا، فابعث بهم، وإن أبَوا، فازحف إليهم حتّى تقتلَهم وتمثّلَ بهم، [106] فإنّهم لذلك مستحقّون[١]. فإن أنتَ فعلتَ جزيناكَ خيرًا، لأنّك السّامعُ المُطيعُ، وإن أنتَ أبيتَ، فاعتزلْ عمَلَنا وجُندَنا، وخَلِّ بينَ شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر [فإنّا قد أمرناهُ بأمرنا][٢]، والسّلام.»

[قدومُ شَمِر بالكتاب]

فقدم شَمِرُ بالكتاب، فقرأهُ عُمر، وقال لِشمر:

- «ما لَك ويلك! لاقرّبَ اللهُ دارَكَ! وقبّح اللهُ ماقدِمتَ به! إنّكَ أنتَ ثنيتَهُ عمّا كتبتُ به إليه، وقد - واللهِ - أفسدتَ علينا أمورًا رجونا معه الصّلاحَ، واللهِ ياشَمِر! لايستسلم حسينُ، إنّ نفسَه نفسُ أبيْهُ.»

فقال له شمرُ:

- «أخبرنى ماأنت صانعُ، تَمضى لأمر أميرك، وإلاّ فخَلّ بينى وبين العسكر.» قال:

- «لا، ولاكرامةَ لك! أنا أتولّىٰ ذلك.» قال:

- «فدونك!»

---

١) هنا زيادةُ فى الطبرى (٣١٦:٧) وابن الأثير (٥٥:٤) مع اختلاف طفيف بينهما، ونحن نوردُ ما فى الطبرى: «.. فإن قُتل حسينُ فأوطِ الخيلَ صَدرَه وظهرَهُ، فإنّه عاقٌ مشاقٌ [= شاقٌ - إبن الأثير.] قاطعٌ ظلوم، وليس دهرى فى هذا أن يضرّ بعدَ الموت شيئًا، ولكن علىّ قولٌ لوقد قتلتُه، فعلتُ هذا به. إن أنت مضيتَ لأمرنا فيه جزيناك جزاءَ السّامع المطيع، وإن أبيتَ فاعتزل..»

٢) زيادة من الطبرى.

فركب عمر بن سعدٍ فى النّاس، ثمّ زحف نحوَهم، والحسين جالسٌ أمامَ بيته مُحتَبٍ[١] بسيفه.

فقال له العباس بن علىٍّ:

ـ «يا أخى أتاك القومُ، أما تراهم؟»

وكان الحسين قد خفق برأسه [على رُكبتَيه،][٢] فنهض ثمّ قال:

ـ «يا عبّاسُ اركبْ ـ بنفسى أنتَ ياأخى ـ حتّىٰ تلقاهم فتقول لهم: مالكم؟ ومابدا لكم؟ وتسألهم عمّا جاءَ بهم.»

فأتاهُم العبّاسُ، واستقبلهم فى نحو عشرين فارسًا، فقال لهم:

ـ «ما جاءَ بكم؟ وما بدا لكم؟» فقالوا:

ـ «إنّ أمر الأمير قد جاءَ بكيتَ وكيتَ.» قال:

ـ «فلا [107] تعجلوا حتى أرجع إلى أبى عبدِالله، فأعرضَ عليه ماذكرتم.»

فانصرف العبّاسُ يركُضُ نحو الحسين، يُخبِرُهُ الخبرَ، وتركَ أصحابَه يخاطبون القومَ. ثمّ أقبل العبّاس يركُضُ، فقال:

ـ «إنّ أبا عبدِالله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشيّة حتّى ننظرَ فى هذا الأمر، فإنّ هذا الّذى جِئتُم به، لم يَجر [بينكم وبينه][٣] فيه منطقٌ، فإذا اصبحنا التقينا، فإمّا رضيناهُ فاستسلمنا، وإمّا كرهناهُ فرددنا.»

وكان الحسين قال لِلعبّاس:

ـ «إرجع إليهم، فإن استطعت أن تُؤخّرَهم إلى غُدوة وتدفعهم عنّا العشيّة، لعلّنا نُصلّى لِرَبّنا ونستغفره، ونُوصى إلى أهلنا.»

فجاءَهم رسولُ عُمر، فقام بحيث يسمعون الصَوتَ، وقال:

ـ «قد أجّلناكم إلى غدٍ، فإن استسلمتم سرّحناكم إلى أميرنا، وإن أبيتُم، فلَسنا تاركيكُم.»

فجمع الحسينُ أصحابَه، وحمد اللهَ، وأثنىٰ عليه، ودعا دُعاءًا كثيرًا، وقال:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّى لا أعرفُ أهلَ بيتٍ أبرّ، ولاأوصَلَ من أهلِ بيتى. فجزاكم اللهُ عنّى خيرًا، وإنّى لاأظنّ يومًا من هؤلاءِ إلاّ غدًا، وإنّى قد أذنتُ لكم، فانطلقوا جميعًا فى حِلٍّ، ليس عليكم منّى ذِمامٌ. هذا اللّيلُ قد غشيكم [108] فاتخذوهُ جملاً، ليأخذْ كُلُّ رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل

---

١) احتبى: جلس على أليتَيه، وضمَّ فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.

٢) تكملة من الطبرى ٣١٨:٧. خفق: مال. نام.

٣) مابين [ ] تكملةٌ من الطبرى: ٣١٩:٧.

بيتى، وتفرَّقُوا بسوادكم ومدائنكم، فإنَّ القـومَ إنَّما يطلبوننى، ولَو قـد أصـابونى، لَهَـوا عن طلب غيرى.»

فقال له إخوتُه:

ـ «لِمَ نفعلُ ذلك؟ لِنبقىَ بعدَك؟ لاأرانا اللهُ ذلك أبدًا، قبّح اللهُ العيشَ بعدَك.»

وتكلّم أهلُه كلُّهم مثل ذلك.

ثمَّ قام مسلم بنُ عَوسجة الأسدىُّ فقال:

ـ «نحن نُخلّى عنك، ولم نُعذرْ فيك! واللهِ، لولم يكن معى سـلاحٌ، لقـذفتُهم بالحجـارةِ دونكَ حتّى أموتَ، ويعلم اللهُ أنّا حفظنا غيبةَ رسول اللهِ ـ صَـلّى اللهُ عليه ـ والله، لوعلمتُ أنّى أُقتلُ، ثمَّ أحيىَ، ثمَّ أُقتلُ، ثمَّ احرقُ،ثمَّ يُذرىٰ بى، يُفعل بى ذلك سبعين مرّةً، ما فارقتُك. فكيف وإنّما هى قتلةٌ واحدةٌ، ثمَّ هى الكرامة الّتى لاانقضاءَ لها أبدًا.»

ثمَّ قـام زهير بن القين، فقـال مثل ذلك، وتكلّم جماعةُ أصـحابه بمثل ذلك، وأشـبهَ كلامُ بعضهم كلامَ بعضٍ، وكانوا اثنينِ وثلاثين رجلاً من الفُرسان وأربعين راجلاً.

ثمَّ أوصى الحسين، وقال لأُختِه:

ـ «يا أُخيّةُ، أقسم عليك، فَبَرّى قَسَمى، لاتَشُقّى علىَّ جيبًا، ولا تَخمشـى وجهًا، ولا تَدعى علىَّ بالويل والثُبور إذا [109] أنا هلكتُ.»

فبكت، فارتفعت الأصواتُ من جهة النّساءِ، ولهنَّ الرِّقّةُ والجزعُ.

وقالت أختُه:

ـ «بأبى وأمّى أبا عبدالله! استقتلت؟»

فردَّد غُصّتَهُ، ثم قال:

ـ «لوتُرِكَ القَطا لَنامَ.» فقالت:

ـ «يا ويلتىٰ! أفتُغصَبُ نفسُكَ اغتصابًا؟ فذلك أروعُ لقِلبى، وأعظم لِبلائى.»

ثمَّ لطمت وجهَها وخرَّتْ مغشيًا عليها، فصـبَّ الحسـين على وجههـا الماءَ، وعزّاها بكـلامٍ طويلٍ.

وحرسهم باللّيل أصحاب عمر بن سعدٍ. فلمّا أصبحوا ـ وذلك يومَ الجمعة، وقيل: يومَ السّبت، وكان يوم عاشورا ـ خرج الحسين، فعبّى أصحابَه، وأمر بأطناب البيوتِ، فقُرنت حتّى دخل بعضُها فى بعضٍ، وجعلو ها وراءَ ظهورهم لتكون الحربُ من وجهٍ واحدٍ، وأمر بحطبٍ وقصَبٍ كانوا

جمعوهُ وراءَ البُيوت، وكان من ورائهم موضعٌ منخفضٌ كأنّها ساقيةٌ، فأمر، فحفروهُ من اللّيل فى ساعةٍ، وجعلوهُ كالخندق، وطُرح ذلك الحطبُ والقصبُ فيه، وأُلقىَ فيه النّارُ، وقال:

ـ «لانُؤتىٰ من ورائنا.»

قال الشّعبى: ففعلوا ذلك، وكان لهم نافعًا.

وأمر الحسين بمسكٍ، فميثَ فى جفنةٍ عظيمةٍ، واطّلى[1]، وركب دابّته، ودَعا بمصحفٍ فوضعه [110] أمامَه، واقتتل أصحابُه بين يديه قتالاً شديدًا.

[جاء الحرُّ تائبًا]

فحرّك الحرُّ دابّته، حتّى استأمن إلى الحسين، وقال له:

ـ «بأبى أنتَ وأُمّى، ماظننتُ الأمر ينتهى بهؤلاءِ القوم إلىٰ ما أرىٰ، وظننتُ أنّهم سيقبلون منك إحدى الخصال الّتى عرضتَها عليهم، فقلتُ فى نفسى: لاأبالى أن أطيعَ[2] القوم فى بعض أمورهم، وأمّا الآن فإنّى جئتُ تائبًا ومُواسيًا لك بنفسى حتّى أموتَ بين يديك، أ ترى لى ذلك توبةً؟» قال:

ـ «نعم. يتوب اللهُ عليك ويغفر لك. إنزل!» قال:

ـ «أنا فارسًا خيرٌ لك منّى راجلاً، أقاتلهم على فرسى ساعةً، وإلى النُّزول مايصيرُ آخر أمرى.»

ثمّ بارز، فقتل واحدًا بعد آخر.

فلم يزل يُبارز الواحد من أصحاب الحسين، فيقتل عدّةً من أصحاب عمر بن سعدٍ.

فقام عَمرو بن الحجّاج رافعًا صوتَه:

ـ «يا حمقىٰ، أ تدرون مَن تقاتلون؟ [تقاتلون][3] فرسانَ المصر، وقومًا مُستميتين. واللهِ، لايبرز لهم منكم أحدٌ إلاّ قُتل، لاتبرزوا لهم! فإنّهم قليلٌ، وقلّ مايبقون، وقد جهدَهم العطشُ.»

فقال عمرُ بن سعدٍ:

ـ «صدقتَ.»

وأرسل فى النّاس، فعزم عليهم أن:

---

١) اطّلى بكذا، إدّهن به. وفى الطبرى (٣٢٧:٧): ثمّ دخل الحسين ذلك الفسطاط (الذى كان أمر به فضرب] فتطلّى بالنّورة. وفى الكامل (٤: ٦٠): فاستعمل النّورة.

٢) فى الطبرى (٣٣٢:٧): «اصيع» بدل «أطيع».

٣) مابين [ ] تكملةٌ من مط.

- «لايبارزْ منكم رجلٌ رجلاً منهم.»

فأخذت الخيلُ تحمل، وأصحابُ الحسين تَثبتُ، وإنّما [111] هم اثنان وثلاثون فارسًا. فقال عمر:

- «لِيتقدّم الرُماةُ إلى هذه العدّة اليسيرة، فليرشُقوهم بالنّبل.»

فتقدّموا، فلم يُلبثوهم أن عقروا خيلَهم، فصاروا كلُهم رجّالةً. وقاتلوا قتالاً لم يُرَ أعظمُ منه ولا أشدُ، إلاّ أنّهم كانوا إذا صُرِعَ الواحدُ منهم أو الاثنان تبيّن ذلك عليهم، وإذا قتلوا أضعافَ عدّتهم من أولئكَ لم يتبيّنْ عليهم.

ووصل النّاس إلى الحسين، وقاتل بين يديه كلُّ مَن استهدف لِلنّبل، فُرمِيَ يمينًا وشمالاً، حتّىٰ سقطوا، وجعل أصحابه يستقتلون بين يديه، ويسلّمون على الحسين، ويودّعونه، ثمّ يقاتلون حتّىٰ يُقتلوا.

فكان أوّل مَن قُتل من بنى أبى طالبٍ عليٌّ الأكبر بن الحسين بن عليٍّ، ثمّ عبدالله بن مسلم بن عقيلٍ، ثمّ محمّد بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، ثمّ جعفر بن عقيل بن أبى طالبٍ.

قال: ثمّ رأينا غلامًا كان وجهه شقّة قمر، فى يده سيفٌ، وعليه قميص ونعلان، وقد انقطع شِسعُ أحدهما. فحمل عليه رجلٌ، فضربه بالسيفِ على رأسه، فوقع الغلام لوجهه، وصاح:

- «يا عمّاه!»

فجلّى الحسين كمايُجلّى الصَقرُ، ثمّ شدّ على الرّجل بسيفه، فاتّقاهُ فضرب ساعَده، [112] فأطنّها[1] من المرفق وتنحّىٰ عن الغلام، وانجلت الغبرةُ، فرأيتُ الحسين قائمًا على رأس الغلام، والغلامُ يفحص برجله الأرضَ، والحسين يقول:

- «بُعدًا لِقوم قتلوك، ومَن خَصمُهم جدُّك.»

ثمّ قال:

- «عزَّ، والله، علىٰ عمّكَ أن تدعوَهُ، فلايُجيبك، أو يجيبك، ثمّ لاينفعك.»

ثمّ احتمله، فكأنّى أنظر إلى رجلَى الغلام يخطّان فى الأرض، وقد وضع الحسينُ صدرَه على صدره.

قال: فقلتُ فى نفسى: مايصنع به؟ فجاءَ به حتّى ألقاهُ مع ابنه عليّ بن الحسين والقتلىٰ حوله من أهل بيته، فسألتُ عن الغلام، فقيل لى: القاسمُ بن الحسن بن عليّ بن أبى طالبٍ ـ صلوات

---

١) فى مط: «فقطعها» بدل «فأطنّها.»

اللهِ على جميعهم.

ومكث الحسين طويلاً من النّهار، وكلّما انتهىٰ إليه رجلٌ انصرف عنه وكره أن يتولّى قتلَه، حتّى أتاهُ مالك بن النُّسَير، فضربه علىٰ رأسِه بالسّيف، فقطع بِرُنسَ خَزٍّ كان عليه، وأدمىٰ رَأسَه، فألقىٰ ذلك البرنسَ، ودعا بقلنسوةٍ، فلبسَها واعتمَّ، وكان قد أعيىٰ وبلّدَ[1]، ولم يبق له قوّةٌ، وجَهدَهُ العطش. فدنا إلى الماءِ لِيشربَهُ، فرماهُ حُصين بن تميمٍ بسهمٍ، فوقع فى فمه يتلقّى الدّمَ من فيه، فيرمى به إلى السّماءِ، ثمّ حمد الله وأثنى [113] عليه، ثمّ جمع يَدَهُ وقال:

ـ «أللّهمّ احصِهم عددًا، واقتلهم بدَدًا، ولاتَذَرْ منهم احدًا.»

ثمّ أقبل إليه شمر بن ذى الجوشن فى نحو من عشرةٍ من رَجّالة أهلِ الكوفة، وطلب منزل الحسين الّذى فيه ثِقلُه. فمشى نحوَهم[2]، فحالُوا بينه وبين رحله.

فقال الحسين:

ـ «ويلكم! إن لم يكنْ لكم دينٌ، فكونوا فى دنياكم أحرارًا، امنعوا أهلى من طَغامِكم وجُهّالكم.»

قال ابن ذى الجوشن:

ـ «ذلك لك.»

وأقدم عليه بالرَّجّالة.

قال عبدالله بن عماد: فلقد رأيتُه وهو يحمل على مَن فى يمينه فيطردهم، وعلى مَن فى شماله فيطردهم وعليه قميصُ خَزٍّ وهو مُعتَمٌّ، فوالله، مارايتُ مكثورًا[3] قُتل ولدُه وأهل بيته وأصحابُه، أربطَ جَأشًا منه، ولا أمضىٰ جَنانًا، ولاأجرأ مُقدَمًا[4]. والله، مارايتُ قبله ولا بعدَه مثلَه، إن كانت الرَّجالةُ لَتنكشفُ عن يمينه وشماله انكشافَ المِعزىٰ إذا شدَّ فيها الذّئبُ. فكأنّى بزينب أختِه وهو على تلك الحال، قد خرجت وأنا أنظرُ إلىٰ قرطها يجول بين أذنها وعاتقها وهى تقول:

ـ «ليتَ السّماءُ انطبقت على الأرض.»

وكان قد دَنا عمرُ بن سعدٍ من الحسين، فقالت:

---

١) كذا فى الأصل: بلّد. والضبط فى الطبرى (٧:٣٥٩): وبُلّد. والصحيح مافى الأصل. بَلَّدَ: فتر فى العمل وقصّر. سقط إلى الأرض من الضّعف. وفى مط: نكد، وهو تصحيف.

٢) فى الطبرى (٧:٣٦٢): نحوه، فى هامشه: نحوهم.

٣) كذا فى مط والطبرى (٧:٣٦٤): مكتورًا. وفى هوامش الطبرى: مكسورًا. والمكتور: المغلوب بالكثرة.

٤) فى مط: احرى مقدمًا. والضبط فى الطبرى: مقدمًا. وفى الأصل يُشبه أن يكون: مُقدمًا.

- «يابن سعدٍ [114] أ يُقتَلُ أبو عبدِالله وأنت تنظُر إليه؟»
وكأنّى أنظر إلى دموع [عُمر بن]٣ سعدٍ تسيلُ علىْ خدّيهِ ولحيته، وصرف وجهَه عنها.
فنادىٰ فى النّاس شمرُ:
- «ويحكم! ماتنتظرون بالرّجل؟ أقتلوهُ، ثكلتكم أمّهاتكم!»
فحُمل عليه من كلِّ جانب، وضُرب على كتفه وطُعن.
فقال شمرُ لخَولى بن يزيد الأصبحى:
- «إنزل، فاحتزَّ رأسَه»
فضعف وأرعد.
فقال له سنان بن أنس، وهو الّذى طعنه:
- «فتّ الله عضدَيك!»
فنزل، فذبحه وأخذ رأسَه.

[سَلبُ الحسين وانتهابُ نساءِه]

وسُلب الحسين حتّى سراويلُه، وتُرك مجرّدًا، ومال النّاس على الابل والمتاع، فانتهبوه وانتهبوا نساءَه، فإن كانت المرأةُ لَتُنازع ثوبَها عن ظَهرها حتّى تُغلب عليه، فيذهب به، حتّى جاءَ عمرُ بن سعدٍ، فقال:
- «لايدخلنّ بيتَ هؤلاءِ النّسوة أحدٌ، ولا يعرضنّ لهذا الغلام المريض.»
يعنى علىُّ بن الحسين، وكان مريضًا.
وقُتل من أصحاب الحسين عليهالسّلام اثنان وسبعون رجلاً، وسُرِّح برأسه إلى بن زيادٍ.

[عند ابن زيادٍ]

فحدّث حميدُ بن مُسلمٍ، قال: كنتُ واقفًا عند ابن زيادٍ حين عُرض عليه علىُّ بن الحسين عليهما السّلام، فقال:
- «ما اسمُك؟» قال:
- «علىُّ بن الحسين.» قال:

٣) مابين [ ] ساقط من الأصل، فأثبتناه كما فى مط.

ـ «أ ولم يقتلِ اللهُ علىَّ بن الحسين؟»
فسكتَ.
فقال له ابن زيادٍ:
ـ «مالكَ [115] لاتتكلّم؟» قال:
ـ «قد كان لى أخٌ يُقالُ له علىُّ بن الحسين أيضًا، [فقتله النّاس].» فقال:
ـ «قد قتله الله.»
فسكتَ.
فقال ابن زيادٍ:
ـ «مالكَ لاتتكلّمُ؟» قال:
ـ «أللهُ يَتوفّى الأنفُسَ حينَ مَوتِها[1]، وماكانَ لِنَفسٍ أنْ تموتَ ألاّ بإذنِ اللهِ[2].» قال:
ـ «أنتَ والله منهم، ويحكم انظُروا هذا قد أدرك[2]، والله إنّى لأحسبُهُ رجلاً.»
فكشف عنه بعض أصحاب ابن زيادٍ، فقال:
ـ «نعم، قدأدرك[3].» فقال:
ـ «أقتله.»
فقال علىٌّ:
ـ «فوكُل بهؤلاءِ النّسوة مَن يكون مَحرمًا لهنّ يسير معهنّ إن كنتَ مُسلمًا.»
فقال ابن زيادٍ:
ـ «دعوهُ، سِرْ أنت معهنّ.»
وبعث بهنّ معه إلى الشّام.

[ماقاله يزيد بعد تسلّم كُتُبِ البشارة]

فيقال: إنّ يزيد لمّا وردت عليه كُتب البشارة، دمعت عينُه وقال:
ـ «كنتُ أرضىَ من طاعتهم بدون قتل الحسين؛ لعن الله ابن سُميّة، أمَا إنّى لوكنتُ صاحبه لَعفَوتُ عنه.»
ولمّا وُضعت الرؤوس بين يَدَى يزيد، قال يزيد:

١) س ٣٩ الزمر: ٤٢. ٢) س ٣ آل عمران: ١٤٥. ٣) فى الطبرى (٦٧٣:٧): أنظروا هل أدرك؟

نُفلّق[١] هامًا من رجالٍ أعزّةٍ علَينا، وهم كانوا أعقّ وأظلَما

ثمّ جهّز النّساءَ وعلىّ بن الحسين، وضمّ إليهم جيشًا حتّىٰ ردّهم إلى المدينة.

***

ذكر حيل ابن الزّبير

كان ابن الزّبير يُظهر أنّه عائذٌ بالبيت، ويُبايع النّاسَ سرًّا. وبلغ ذلك يزيد بن معاوية، فأعطى اللهَ عهدًا: لَيُوثَقنّ فى سلسلةٍ. فبعث بسلسلةٍ من فضّةٍ وعمرو بن العاص [116] يومئذٍ عامل مكّة، وكان شديدًا عليه، ولكنّه كان كثير المداراة رفيقًا. فلمّا ورد البريدُ بالسّلسلةِ رفق حتّىٰ ردّهُ ردًّا جميلاً. وخطب النّاسَ، وعابَ أهلَ الكوفة خاصّةً، وأهلَ العراق عامّةً بقتل الحسين، وبكىٰ وقال:

ـ «لقد كان لأبى عبدالله ـ رضى اللهُ عنه ـ فى ماجرىٰ على أبيه وأخيه من هؤلاءِ القوم نام، ولكنّه ماحُمّ نازلٌ.»

ثمّ عظّم ماجرىٰ عليه واستفظعه، وقال فى كلامه:

ـ «لقد قتلوهُ كثيرًا صيامُه بالنّهار، طويلاً صلاتُه باللّيل، ماكان يُبدل بالقرآن غناءًا، ولا بالصّيام شُربَ الخمر، ولا بالمجالس فى حَلَق الذّكر الرّكضَ فى طلب الصّيد.»

يُعرّض بيزيد. فثار إليه أصحابُه وقالوا له:

ـ «أيّها الرّجلُ! أظهِرْ بيعتَك، فلم يَبقَ بعد الحسين أولىٰ بهذا الأمر منك.» فقال:

ـ «لاتعجلوا!»

وعلا أمرُه بمكّة، وكاتبه أهلُ المدينة وقالوا:

ـ «أمّا إذ هلك الحسين فليس أحدٌ يُنازع ابنَ الزّبير.»

وبلغ ابنَ الزّبير[٢] أنّ مروان تمثّل لمّا اجتاز به البريد ومعه سلسلةٌ من فضّةٍ وجامعة يجعل فيها ابن الزّبير:

فخُذها، فليستْ لِلعزيز بخُطّةٍ وفيها مَقالٌ لامرئٍ متذلّلِ

أعامرُ إنّ القوم سامُوك خُطّةً وذلك فى الجيران، غزلاً[٣] بمغزلِ [117]

١) كذا فى مط: نفلّق. وفى الطبرى (٧:٣٧٦): يفلّقن.
٢) وبلغ ابن الزبير: سقطت من مط.
٣) غزلاً: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٧:٣٩٨): غزلٌ بمغزل.

أراكَ إذا قد صرتَ[١] لِلقوم ناصحًا يُقال له بالغرب[٢]: أدبِرْ وأقبِل

وأرسل مروانُ ابنيه وقال:

ـ «إذهبا فتعرّضا لابن الزُّبير، ثمّ تَمثَّلا بهذه الأبيات إذا بلّغته الرُّسل الرِّسالة.»

ففعلا، فلمّا تعرّضا لِيُنشداهُ، بادر ابن الزُّبير وقال:

ـ «إى بنى مروان، قد سمعتُ ماقال أبوكما، فاذهبا، فأنشِداهُ:

إنّى لَمِن نَبعةٍ صُمٌّ مَكاسرُها إذا تناوَحَتِ القصباءُ والعُشَرُ

فلا أَلينُ لِغير الحقِّ أسالُهُ حتّى يَلينَ لِضِرسِ الماضِغِ الحَجَرُ »

[عزل عَمرو بن سعيد]

ثمّ إنّ يزيد اتّهم عَمرو بن سعيدٍ وظنّ أنّه يقدر على أخذ ابن الزُّبير وليس يفعل، فعزله، وولّى الوليدَ بن عُقبة. وخرج عمرٌو حتّى قدم على يزيد، فـرحّب به يزيد، وأدنىٰ مجلسَـه، ثمّ عاتبه فـى أشياء كان يأمر بها فى ابن الزُّبير فلايُنفذها. فقال:

ـ «يا أمير المؤمنين، الشّاهد يَرىٰ ما لايرى الغائب، وإنّ جُـلَّ أهل مكّـة قـد كانوا مالوا إليه، و أعطوهُ الرِّضا، و دعا بعضُهم بعضًا إليه سرًّا و جَهرًا، ولم يكـن معـى جندٌ أتقـوّىٰ بهـم عليه لوناهضتُه، وقد كان يحذر منّى ويتحرّز، [118] وكنت أنا أرفق به وأداريه لِئَلاّ يسـتوحش، فـإذا استمكنتُ منه وثبتُ عليه، مع[٣] أنّى ضَيَّقتُ عليه، ومنعتُه من أشياء لوتمكّن منها كانت معونةً له، وجعلتُ على مكّةَ وطُرقها وشعابها رجالاً لايَدَعون أحدًا يدخلها حتّىٰ يكتبوا لى اسمه، واسم أبيه، وماجاءَ فيه، وما الّذى يُريد. فمن كان من أصحابه أو ممّن أتّهمه، رددتُه صـاغرًا، وقـد بعثَ الوليد، وسيأتيك من أثره وعَمَلِه ماتعرف به مُبالَغتى فى أمرك، ومناصحتى لك.»

فعـذَرهُ يزيد، وتلقّاهُ بجميلٍ[٤]، ولبث الوليد مدّةً بمكّـة، ثمّ عزله يزيد، وولّىٰ عثمان بن محمّد بن أبى سفيان. فكان حَدَثًا، فلم يضبط الأمرَ، ولاكان له رأىٌ.

وظهر فى المدينة أنّ يزيد بن معاوية يشـرب الخمر حتّىٰ يترك الصّلاة، وصحّ عندهم ذلك، وصحّ غيرُه ممّا يُشبهُه، فجعلوا يجتمعون لِذلك[٥] حتّى خلعوهُ، وبايعوا عبدَالله بن حنظلة الغسـيل،

١) فى الطبرى (٣٩٨:٧): إذا ماكنت. ٢) فى الطبرى: بالدّلو. وفى مط: بالعرب وفى حواشى الطبرى: بالغرب، كما فى الأصل. ٣) فى مط: ومع (بالواو). ٤) فى مط: بجهلٍ، بدل: بجميل.

٥) فى مط: كذلك، بدل: لذلك.

ووثبوا على عثمان بن محمّد بن أبى سفيان ومَن معه من بنى أميّة ومَن يَرىٰ رَأيَهم، فنفَوهم وكانوا ألف رجل. فخرجوا حتّىٰ نزلوا دارَ مروان بن الحكم، فحاصرهم النّاس حصارًا ضعيفًا، فتولّىٰ تدبيرَهم مروانُ، لأنّ عثمان بن محمّدٍ كان غِرًّا لايُرجع [119] إلىٰ رايه.

وكتب مروان إلى يزيد كتابًا من جُماعة بما جَرىٰ عليهم ويطلبون الغوثَ منه. قال الرّسول: فلمّا وردتُ على يزيد، قال:

- «أما تكون بنوأميّة ومواليهم ألف رجل بالمدينة؟» قلتُ:

- «بلىٰ.» قال:

- «فما استطاعُوا أن يُقاتلوهم ساعةً من نَهار؟» فقلتُ:

- «إجمع النّاس كلُّهم عليهم، فلم تكن لهم بهم طاقةٌ.»

فكتب إلى عبيدالله بن زيادٍ أن اغزُ ابن الزُّبير، فقال:

- «والله لاأجمعهما للفاسق أبدًا: أقتل ابن رسول الله وأغزو البيتَ؟»

وندب مسلم بن عُقبة المرّى، وهو شيخٌ كبيرٌ مريضٌ[١]، للمدينة، فخرج ونادىٰ أن:

- «سيروا إلى[٢] الحجاز على أخذ أعطياتكم كَمَلاً، ومعونةِ مائة دينارٍ توضع فى يد الرّجل من ساعته.»

فانتدب له اثناعشر ألف رجل. ووصّاهُ يزيدُ، إذا ظفر، أن ينهب المدينة ثلاثة أيّام، وذلك فى سنة ثلاثٍ وستّين.

وكان معاويةُ وصّىٰ يزيدَ:

- «إذا أرابك من أهل المدينةِ ريبٌ، فارمهم بمسلم بن عُقبة.» ولمّا بلغ أهلَ المدينة خبر مسلمٍ ومَن معه، أخذوا على بنى أميّة المحصورين فى دار مروان العهودَ والمواثيق، ألاّ يدلُّوا على عورةٍ لهم، ولا يبغونهم غائلةً. وأخرجوهم، فلقوا [120] مسلم بن عُقبة بوادى القُرىٰ مع أثقالهم، فسأل مسلمٌ عمرو بن عثمان بن عفّان عن القوم واستشارهُ، فقال:

- «علىّ عهدٌ ألاّ أدلّ على عورةٍ.»

فانتهرهُ مسلم وقال:

- «والله، لولا أنّك ابن عثمان، لضربتُ عُنقك، والله، لاأُقيلها[٣] قُرشيًا بعدَك.»

١) فى مط: اربض المدينة. ٢) فى مط: على. ٣) فى مط: اقتلها.

وبلغ ذلك النّاسَ، فهابُوهُ.

وقال مروان لابنه عبدالملك:

ـ «أدخل قبلى إلى مسلم، لعلّه يجتزى[١] بك منّى.»

فدخل عليه عبدالملك، فقال:

ـ «هاتِ ماعندك، أخبرنى خَبَرَ النّاس، وكيف ترَى؟»

ذكر راى عبدالملك وماظهر من حزمه

قال:

ـ «نعم، أرىٰ أن تسيرَ بمن معـك، فتركبَ هذا الطريق إلى المدينة، حتّى إذا انتهيت إلى أدنى نخلٍ بها نزلتَ، فـاستظلّ النّاس بظلّه، وأكلوا من صـفوه، حتّى إذا كان الليلُ، أذكيتَ الحـرسَ اللّيلَ كُلّه عُقبًا بينَ أهل عسكرك، حتّى إذا أصبحتَ وصلّيت الصبحَ، مضيتَ بهم، وتركتَ المدينة ذاتَ اليسار، ثمّ أُدرتَ بالمدينة، حتّى تاتيَهم من قِبل الحرَّة[٢] مُشـرِّقًا، ثمّ تستقبل القـوم، فـإذا استقبلتم، أشرقت الشّمس عليهم، وطلعت من أكتاف أصحابك، فلاتُوذيهم، وتقع فى وجـوههم فتوذيهم، ويَرون مادمتم مُشرِّقين [121] ايتلاق بيضكم، وحرابِكم، واسنّة رما حِكم وسـيوفِكم ودروعكم وسواعدِكم، ما لاترونه أنتم لشَىء من سلاحهم ماداموا مغرّبين، ثمّ قاتِلْهم[٣]، واستعن اللهَ عليهم.»

فقال له مسلمُ:

ـ «للهِ أبوك، أىُّ امرئٍ ولد إذ ولَدَك[٤]، لقد رأى بك خَلفًا.»

ثمّ إنّ مروانَ لَقيَهُ، فقال له:

ـ «إيه.» فقال:

ـ «أليس قد لقيك عبدالملك؟» قال:

ـ «بلى، وأىُّ رجلٍ عبدالملك! [قلْ][٥] ماكلّمتُ من رجال قريشٍ شبيهًا به.»

١) يجتزى: كذا فى الأصل. ومط: يجتزى (بالزّاء المعجمة): يكتفى.

٢) كذا فى الأصل: الحرّه. وفى مط: الحَرّة. والحَرّة: ارض ألبستها الحجارة السُود، كأنما احـرقت بالنار واكثر الحـرار حول المدينة وتسمّى مضافة إلى اماكنها، مثل: حرّة اوطاس، حرّة تبوك، و... (يا، مع).

٣) قاتلهم: فى الأصل: قاتلتم. وما أثبتناه يوافق مط والطبرى ٧:٤١١.

٤) اىُّ امرئٍ وَلَدَ إذ وَلَدَك: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: اى امرا انت.

٥) مابين [ ] زيادة من الطبرى.

[وقعة الحرّة وإباحة المدينة ثلاثًا]

ثمّ ارتحل، وعمل برأى عبدالملك، فكانت وقعة الحرّة، وذلك فى سنة ثلاثٍ وستّين، وهى من أعظم الوقائع وأشدّها. هزم فيها مسلم بن عُقبة مِرارًا، وأهلُ المدينة مِرارًا، وكثر القتلىٰ فى الفريقين، ولم يكن فى اقتصاص الحديثِ بأسره فائدةٌ، إلاّ أنّ آخِرهُ كان قَتل عبدالله بن حنظلة الغسيل، وخَلق من أهل المدينة وصالحيهم، وانهزم الناس.

فأباحَ مسلمُ المدينة ثلاثًا يقتلون الناسَ ويأخذون الأموال.

[بايع أهل المدينة ليزيد بن معاوية]
[علىٰ أنّهم خَوَلٌ له]

وجِيءَ بيزيد بن وهب بن ربيعة ـ وهو من وجوه قريش ـ فقال له:

ـ «بايع!» فقال:

ـ «أبايع علىٰ سنّة أبىبكر وعُمرَ.» قال:

ـ «أقتلوهُ!» قال:

ـ «فإنّى أبايع.» قال:

ـ «لاوالله! لا أقيلُك عثرتَك.»

فقام مروان بن الحكم وكلّمه، لصهر كان بينهما، فأمر بمروان، [122] فوُجِئَتْ عُنقُه، ثمّ قال:

ـ «بايعوا على أنّكم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية.»

ثمّ أمر بقتل يزيد بن وهبٍ.

هذا، وبلغ أهل مكّة ماجرى على أهل المدينة، وما ارتكب منهم. ففتّ ذلك فى أعضادهم، وجاءَهم[1] منه أمرٌ عظيم، وعرفوا أنّه نازلٌ بهم.

ذكر اتّفاقٍ حسنٍ
اتّفق لمسلم بن عُقبة فى مسيره إلى أهل المدينة
وحيلةٍ لأهل المدينة ما[2] تمّت

كان بعث أهل المدينة إلى كلّ ماءٍ بينهم وبين أهل الشام، فصبّوا فيه زِقًّا من قطران، وعُوِّر،

١) جاءهم: كذا فى الأصل. وما فى مط: جاء بهم.

٢) فى مط: وما تمّت.

فأرسل اللهُ عليهم السَّماءَ حتّى لم يحتاجوا أن يَستقُوا بدلو، حتّى وردوا المدينة.

[موت مُسلم بن عُقبة ورمى الكعبة وإحراقها]
[وابن الزبير مُحاصَرٌ فيها]

واستخلف مسلمٌ على المدينة رَوح بن زنباع متوجِّهًا إلى مكّة، يُريد ابنَ الزُّبير. فلمّا كان ببعض الطريق هلك، وذلك فى آخر المحرَّم من سنة أربعٍ وستّين.

ولمّا حضرهُ الموتُ، دعا الحُصين بن نُمَير السَلولى[1]، وقال له:

ـ «يا بردعة الحمار، والله، لولا أنّ أمير المؤمنين عهد إلىّ ـ إن حدث بى حدثٌ ـ أن أستخلفك لَما ولّيتُك، ولكن انظر وصيّتى، وإيّاك والمخالفة! خُذْعنّى أربعًا: أسرعِ السيرَ، وعجّلِ الوقائع، وعَمِّ الأخبار، ولاتمكّن قريشًا من أذنك.»

ومات. [123]

وخرج الحصين بن نمير إلى مكّة، وقد بايع أهلُ مكّة ابن الزُّبير، وقدم عليه نجدة بن عامرٍ مع الخوارج يمنعون البيتَ، فحاصرهم الحصين، وأخرج ابنُ الزُّبير إليهم أخاه المنذرَ بن الزُّبير. فلمّا اشتدّ القتال، دَعوه إلى المبارزة، فخرج وقُتل، وقُتل معه عِدّةٌ من وُجوه أصحاب ابن الزّبير، ولم يزل القتال دائمًا بينهم طولَ صفر، ولمّا مضت ثلاثة أيّامٍ من شهر ربيع الأوّل، نصبوا المجانيق على البيت، ورَمَوهُ بالحجارة والنّار، وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطّارةٌ[2] مِثلَ الفنيقِ[3] المُزبِدِ[4] ... نرمى بها أعوادَ هذا[5] المَسجِدِ

واحترقت الكعبة، وتصدّع منها ثلاثةُ أمكنة، واحترق ماكان فيها من خَشبٍ، وما عليها من كسوةٍ.

وقد قيل: إنّما احترقت، لأنّ أصحاب ابن الزُّبير كانوا يوقدون حولها، فطارت إليها شَررُه ليلةَ ريحٍ، فاحترقت.

---

١) السَلولى: كذا فى الأصل ومط. والظاهر انه تصحيف. وما فى الطبرى (٧:٤٢٤): السَّكونى.

٢) الخطارة: المقلاع. المنجنيق. ٣) الفنيق من الابل: الفحل. ٤) المزبد: كذا فى الأصل والطبرى (٧:٤٢٦)، وفى مط: المريد. ٥) فى مط: أعلى المسجد، بدل: هذا المسجد.

[خلافة معاوية بن يزيد]

ولم يزل الحصار والقتال واقعًا على ابن الزُّبير - وهو يُصابر - إلىٰ أن وَردَ نَعيُ يزيد بعد أربعةٍ وستّين يومًا من الحصار، وذلك في جُمادى الأُولىٰ سنة ثلاثٍ وستّين، ويُقال: أربعٍ وستّين، [124] وكانت ولايتُه ثلاثَ سنين وكسرًا، وبايع الناس مُعاوية بن يزيد بن معاوية بالشام، وبايعوا عبدالله بن الزبير بالحجاز.

ذكر سوء رأى ابن الزُّبير وضعف تدبيره، ومخالفته مَن أشار عليه بالصواب حتّى فاتته الخلافة

مكث أهل الشام مع الحصين بن نُمير يقاتلون ابن الزُّبير، وليس عندهم خَبرٌ وقد ضيّقوا على ابن الزبير، فبلغ ابن الزبير موتُ يزيد، فصاح:

- «إنَّ طاغيتكم قد هلك، فمن شاءَ منكم أن يدخُلَ في ما دخل فيه الناسُ[1]، فليفعلْ، ومَن كره، فليلحقْ بالشام.»

فلم يسمع النّاس منه.

فدعا ابن الزبير الحصين بن نُمير، وقال:

- «أدنُ منّى!»

فخرج أحدهما إلى الآخر، فطاوله الحديث، إلى أن دُعى الّذى أخبر ابن الزُّبير بالخبر، وكان

---

١) الناس: كذا في الأصل. وفي مط: المسلمون.

دَيِّنًا فاضلاً، وبينه وبين الحصين صهرٌ، فلمّا سمع الحصين كلامَه، عرف صحّة الخبر، فقال لابن الزّبير:

ـ «إن يكُ هذا الرّجل هلك، فأنت أحقُّ مَن أرىٰ بهذا الأمر، هلمّ فلنُبايعك، على أن تخرج معى إلى الشّام، [125] فإنّ هذا الجند الّذى معى، هم وجوه الناس، وفرسانهم، فوالله، لايختلف عليك اثنان، وتُؤمن النّاس، وتهدر هذه الدماءَ الّتى كانت بيننا وبينك، والّتى كانت بيننا وبين أهل الحَرّة.»

فأبى ابن الزّبير أن يخرج إلى الشّام، وكان ذلك من جدّ مروان وإقباله، وإدبار ابن الزّبير.

وكان من ردّ ابن الزّبير على الحصين أن قال:

ـ «أنا أهدر تلك الدماءَ، حتّى أقتل بكلّ رجلٍ عشرةً.»

فأخذ الحصين يُكلّمه سرًا، وهو يُجيبه جهرًا.

فقال الحصينُ بن نُمير:

ـ «قبح الله من يعدّك[1] بعد هذا داهيًا، أو أريبًا[2]. قد كنتُ أظنّ أنّ لك رأيًا، ألا، أرانى أكلّمك سرًّا وتُكلّمنى جهرًا، وأدعوك إلى الخلافة، وتوعدنى بالقتل، وأبذلُ لك طاعةً فى مَن معى، وتهدّدهم بالهلاك.»

ثمّ خرج من عنده، وصاح فى الناس بالرّحيل، وخرج إلى المدينة. وقدم ابن الزبير، فأرسل إليه:

ـ «أمّا خروجى إلى الشّام، فلايمكن، فإنّى أتبرّكُ بالبيت، ولكن بايعوا لى هناك، فإنّى بعد ذلك أومنكم، وأقدَم عليكم[3].»

فردّ عليه الحصين، وقال:

ـ «إن أنت لم تقدَم بنفسك، وجدنا مَن نُبايعُه هناك.»

وأقبل بأصحابه نحو المدينة. [126] فاستقبله علىُّ بن الحسين بن علىٍّ، عليه‌السلام، فسلّم عليه، ولم يكد يلتفت إليه أحدٌ، واجترأ[4] أهل المدينة وأهل الحجاز على أهل الشّام، وذلّوا حتّى

---

١) يعذك: كذا فى الأصل. وما فى مط: يعذل. وهو خطأ.
٢) أريبًا: كذا فى الأصل. وما فى مط: اوريبًا! وهو خطأ.
٣) والعبارة فى الطبرى (٧:٤٣١): ولكن بايعوا لى هنالك، فإنّى مؤمنكم وعادلٌ فيكم.
٤) واجترأ: كذا فى الأصل وما فى مط: واجترى.

كان لاينفرد منهم رجلٌ إلاّ أخذ بلجام دابّته، ونكّس عنها. فكانوا يجتمعون فى عسكرهم، ولايتفرّقون.

فاجتمعت إليهم بنوأميّة، وقالوا:

- «لانبرح حتّى تحملونا.»

ففعلوا. فخرج بنوأميّة بنسائهم وعيالاتهم، ومضى ذلك الجيش، حتّى دخل الشام.

ولم يلبث معاوية بن يزيد إلاّ ثلاثة أشهر، حتّى مات ويقال: بل مكث أربعين يومًا، وكان أقرّ عُمّالَ أبيه.

[خطبة ابن زياد بالبصرة]
[بعد انتهاءِ موت يزيد بن معاوية إليها]

وبلغ موت يزيد بن معاوية عبيدالله بن زيادٍ بالبصرة، فصعد المنبر، وخطب النّاس، وقال:

- «يا أهل البصرة! قد علمتم قيامى بأمركم، وجبايتى الأموالَ، وتفرقتها، وانسبونى، فوالله، تجدونى مهاجرًا إليكم، و والدى ومولدى فيكم ودارى. ولقد وليتكم، وما أحصىَ ديوان مقاتلتكم إلاّ سبعين ألفًا، ولقد أحصى اليوم ثمانين ألفًا، وماكان ديوان عيالكم إلاّ سبعين ألفًا، وقد أُحصى اليوم مائة ألفٍ وأربعين ألفًا، وماتركتُ لكم ذاظِنّةٍ أخافه [127] عليكم، إلاّ وهو فى سجنكم. وقد توفّى أمير المؤمنين يزيدُ، واختلف أهل الشّام، وأنتم اليوم أكثر الناس عددًا، وأوسعهم بلادًا. فاختاروا رجلاً ترضونه [و][١] تجتمعون عليه، إلى أن يجتمع أهل الشّام، فإن اختاروا مَن ترضونه دخلتم فى ما دخلوا فيه، وإن كرهتم ذلك، كنتم على جديلتكم، فما بكم إلى أحدٍ من أهل البلدان حاجةٌ، ومايستغنى النّاس عنكم.»[٢]

ذكر طمع عُبيدالله فى الخلافة
وما احتال فيه

وكان عبيدالله قد أنفذ باللّيل إلى شقيق بن ثور، ومالك بن مسمعٍ وحُصين بن المنذر، وفرّق فيهم مالاً كثيرًا. فلمّا خطبهم هذه الخطبة، قام هؤلاء، وهم رؤساء النّاس، فقالوا:

---

١) الواو زيادة منّا ولم تكن موجودة لا فى الأصل ولا فى مط.

٢) قس بما فى الطّبرى ٤٣٣:٧.

ـ «مالَنا غيرك، ولانعرف أحدًا هو أقوىٰ على هذا الأمر منك.»

وبايعه هؤلاء، وبايعه النَّاس. فجعل الرَّجل إذا خرج من عنده، مسح يَدَهُ على الحائط ويقول:

ـ «أ ظنَّ ابن مرجانة أنَّا نُولّيه أمرنا فى الفُرقة، كما تولاّه إلى اليوم؟»

فلم تمض بعبيدالله أيّامٌ حتّى جعل سلطانه يضـعف. فكـان يأمر بالأمر، فـلايُمتثلُ، ويرتأى الرّأىَ، [128] فـلايُقبل ويُردُّ عليه، ويأمر بحبس الظَّنين، فيُحـال بين أعوانه وبينه. فبينا هو كذلك، إذ ظهر رجلٌ بالبصـرة، يدعو إلى ابن الزُّبير، وكثر الناس معـه. فبلغ ذلك عبيدَالله، وأراد أخذه، فامتنع عليه، وكثُف جمعُه، وقعد الناس عن عبيدالله، وقال فى خُطبته:

ـ «يا أهل البصرة، قد عرفتم بيعتى فى أعناقكم، وحرصى على ضبط أموركم، وقد تقاعد عنّى من يُريد فُرقتكم، وأن يضرب بعضكم وجوه بعضٍ آخـر بالسَّـيف. و والله يا أهل البصـرة، لقـد لبسـنا الخزَّ واليُمنةَ[1] واللَّيِّن من الثِّياب، حتّى لقـد أجمته[2] جلودُنا، فما نُبالى أن نلبس الحـديدَ أيّامًا.»

فما لبث أن رُمى بجماع النَّاس، فقال لهم:

ـ «أيُّها الناس، إنَّ هذا المال فيكم، فخذوا أعطياتكم، وأرزاق ذراريكم.»

وأمر الكُتّابَ بتحصيل النَّاس، وتخريج الأسماء، واستعجلهم حتّى وكَّل بهم مَن يحبسهم فى ديوانٍ، وأسرج لهم الشُّموعَ، فكانوا يأخـذون المالَ، ويتقـاعدون عنه، فكفَّ عن إخـراج المال، وكان فى بيت مال البصرة يومئذٍ ألف ألف [١٠٠٠٠٠٠٠] درهم، فنقـل مابقـى منهـا إلى مَن أودعَها عنده.

ودعا عُبيدُالله [129] محاربة[3] السلطان وأرادهم على القتال. فقال له أخوه عبدالله بن زيادٍ:

ـ «قد علمتَ أنَّ الحرب دِوَلٌ، فلعلَّها تدول عليك، وقد اتَّخذنا أموالاً بين أظهر هؤلاءِ القـوم، فإن ظفروا بك أهلكونا، ثمَّ اهلكوها، فلم تبقَ لك باقيةٌ.»

وقال له:

ـ «والله لئن قاتلتَ القوم لأعتمدنَّ على ظُبَة سيفى حتّى يخرُج من صُلبى.»

---

١) اليُمنة: كذا فى الأصل. وفى مط: اليمنية. واليُمنة واليَمنة (بكسر الياء وفتحها): ضربٌ من بُرود اليمن.

٢) أجمته: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: أجهته. أجِمَ الطعامَ وغيره أجمًا: ملَّه من المداومة عليه.

٣) محاربة: فى الأصل ومط غموض. فى مط: «بحاربة» من دون نقط. وفى الأصـل: بُحـاربة، بخـارية؟ ويبدو أنهـا تصحيف، بدليل ما فى ابن الأثير: «محاربة» وذلك فى هامش الطبرى. وما فى الطبرى (٤٣٩:٧): خاصة السلطان.

فلمّا رأى عبيدُالله ذلك، همَّ بالهرب، فاحتال باللّيل حتّى فرَّ مستخفيًا إلى مسعود بن عمرو، وكان سيِّد الأزد، حتّى حصل فى داره.

ذكر حيلته فى ذلك

وجّه عُبيدالله إلى الحارث بن قيس الأزدى، وذكّره بيدٍ له عنده، وسألهُ أن يحمله إلى منزله، ويكتم أمرَه، حتّى يجتمع النّاس.

فقال له الحارث:

- «إنَّ مسعود[1] بن عَمرو سيِّد الأزد، وإن طَلبك عندى لم أقدرْ على الامتناع منه، ولكن سأحتال لك من قبل امرأته، فإنّها بنت عَمِّه.»

فقال له ابن زيادٍ:

- «فخُذ معك مالاً تُطمعها فيه.» قال:

- «هاتِ»

فحمل معه مائة ألف درهم، فخرج بها الحارث حتّى أتى بها امرأة مسعودٍ، ومعه عُبيدالله، وعبدُالله ابنا زيادٍ، فاستأذن عليها، فأذنت له، ودخل. [130]

ثمّ قال لها الحارث:

- «قد أتيتكِ بأمرٍ تسودين به نساءَك، وتُظهرين به فضلَ قومك، وتتعجَّلين الغِنىٰ فى دنياكِ، هذه مائة الف دينار، خُذيها وضُمّى عُبيدَالله.» فقالت:

- «أخاف ألاّ يرضىٰ مسعودٌ.»

فقال الحارث:

- «ألبِسيه ثوبًا من ثيابه، وأدخليه بيتَكِ، وخلّى بيننا وبين مسعودٍ.»

فقبضت المال، وفعلت، ودخل الحارث على مسعودٍ، وأخذ يحدّثه بحديث عُبيدالله، فقال:

- «إنّه كان يتعوَّذ من طارق الشرّ، وإنّك من طوارق الشرّ.»

وقام حتّى دخل على ابنة عمّه، وأخذ برأسها لِيضربها، فخرج عبيدالله، وقال:

- «والله لقد أجارتنى ابنة عمِّك عليك، وهذا ثوبك علىَّ، وطعامُك فى مذاخرى[2]، وقد التفَّ علىَّ بيتك.»

---

١) فى مط: ابن مسعود بن عمرو، بدل: إنَّ مسعود بن عمرو.

٢) فى الأصل: مداخرى (بالدال المهملة)، ←

وشهد له الحارث. ولم يزالا[1] به حتّى سكن ورضىَ.

ثمّ ركب مسعودُ من ليلته، ومعه الحارث، وجماعةٌ من قومه، فطاف فى الأزد ومجالسهم، وقال:

- «إنّ ابن زيادٍ قد فُقد، ولانأمن اضطرابَ النّاس، وأن يلطُخوكم به.»

فقدكان أبوه زيادُ استجار بهم ومنعوه، فأصبحوا فى السّلاح، فلمّا أصبح النّاس، وفقدوا [131] ابن زياد، قالوا:

- «أينَ توجّه؟»

فقالت عجوزٌ من بنى عقيل:

- «أين تَرونَه توجّه؟ اندحس، والله، فى أجمة أبيه.»

فقال النّاس:

- «صدقتِ. ما هو إلاّ فى الأزد.»

ثمّ اجتمع النّاس على عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطّلب، وهو الّذى يلقّب ببّة[2]، على أن يقعد لهم، حتّى يجتمع أمر النّاس، فتولّى الأمرَ.

واضطرب النّاس بالبصرة، ووقعت الفتنة بين الأزد وتميمٍ، وتأدّىٰ إلى الحرب، فبعث مسعود مع ابن زيادٍ مائة من الأزد حتّى خرجوا به إلى الشام.

ذكر ماحُفظ على ابن زيادٍ فى طريقه من الآراء

قال عبيدالله ذات ليلة:

- «إنّه قد ثقل علىّ ركوب الإبل، فوطّئوا لى على ذى حافر.»

قال: فألقيتْ له[3] قطيفةٌ على حمار، فركبه[4]، وإنّ رجليه لَتكادان تخُدّان فى الأرض.

← فاعجمنا الدال كما فى مط. ومذاخر الحيوان: امعاءه. وفى الطبرى: فى بطنى (٧:٤٤٥).

١) لم يزالا: كذا فى الأصل وهو الصّحيح. وما فى مط: لم يزل إلاّ.
٢) ببّة: كذا فى الأصل والطبرى (٧:٤٤٦-٤٤٧). جاء فى الطبرى: فقال الفرزدق حين بايعه:
وبايعت اقوامًا وفيتُ بعهدهم ... وببّة قد بايعتُهُ غيرَ نادمِ
٣) له: فى الأصل: لى. فاثبتناها كما فى مط.
٤) فركبه: فى الأصل: فركبتُه فاثبتناها كما فى مط.

قال بشّار بن شريح اليشكرى: فإنّه يسير ويحدّثنى، إذ سكت سكتةً طويلةً، فقلتُ: والله ماسكت إلاّ لشىء فى نفسه. فدنَوتُ منه، فقلتُ:

- «أنائمٌ أنتَ؟» قال:

- «لا.» قلتُ:

- «فما أسكتكَ؟» قال:

- «كنتُ [132] أحدّث نفسى.»

قال، قلتُ:

- «أفلا أحدّثكَ ماكنتَ تحدّثُ به نفسَك؟» قال:

- «هاتِ، فوالله ما أراكَ تصيبُ، ولاتكيس.» قلتُ:

- «تقول: ليتنى لم أكن قتلتُ حسينًا.» قال:

- «وماذا؟» قلتُ:

- «تقول: ليتنى لم أكن قَتلتُ مَن قَتلتُ.» قال:

- «وماذا؟» قلتُ:

- «تقول[1]: ليتنى لم أكن بنيتُ البيضاءَ.» قال:

- «وماذا؟» قلتُ:

- «تقول: ليتنى لم أكن استعملتُ الدّهاقين على العرب.» قال:

- «وماذا؟» قلتُ:

- «**تقول**[2]: ليتنى كنتُ أسخىَ ممّا كنتُ.»

فقال لى:

- «والله، مانطقتَ بصوابٍ، ولا سكتَّ عن خطأ:

أمّا الحسين، فإنّه سار إلىّ يُريدُ قتلى، فاخترتُ أن أقتله على ان يقتلنى، وأمّا البيضاء، فإنّى اشتريتُها من عبدالله بن عثمان الثّقفى، فأرسل يزيد بألف ألف [١،٠٠٠،٠٠٠] درهم، فأنفقتُها عليها، فإن بقيتُ فلأهلى، وإن هلكت لم آسَ على مالم أغرم عليه[3].

---

١) تقول: سقطت من مط هنا وفى الموضع الآتى. وتجد الحوار عند الطبرى أيضًا (٤٥٧:٧).

٢) كذا فى الأصل ومط: «تقول». وفى الطبرى: «وتقول» بزيادة الواو.

٣) والعبارة فى الطبرى: لم آس عليها ممّا لم أعنُف فيه (٤٥٨:٧).

وأمّا استعمال الدّهاقين، فإنّ ابن أبى بكرة وزاذا نفرُوخ رفعا علىّ عند معاوية، حتّى ذكرا قشورَ الأرزّ، وبلّغا خراجَ العراق مائةَ ألف ألف [١٠٠،٠٠٠،٠٠٠] يضمنانها، فخيّرنى معاويةُ بين الضّمان والعزل، فكرهتُ العزلَ، فكنتُ [133] إذا استعملتُ العربَ كسروا الخراجَ، وإن أقدمتُ على الرّجل منهم أوغرتُ[١] صدورَ عشيرته، وإن أغرمت[٢] قومَه أضررتُ بهم، وإن تركتُه ضاعَ لى حقٌ وأنا أعرف مكانَه، فوجدتُ الدّهاقين أعرف بالجباية، وأوفى بالأمانة، وأهونُ على المطالبة منكم، مع أنّى قد جعلتُكم أمناءَ عليهم،

وأمّا قولك فى السّخاءِ، فماكان لى مالٌ أجودُ به عليكم، ولو شئتُ لأخذتُ بعض مالِكم، فخصصتُ به بعضَكم دونَ بعضٍ، فتقولون: ماأسخاه! ولكن عممتُكم به، وكان عندى أنفع لكم،

ولكنّى سأخبرك بما حدّثتُ به نفسى:

قلتُ: ليتنى قاتلتُ أهلَ البصرة، فإنّهم بايعونى طائعين، وأيمُ الله، إنّى حرصتُ على ذلك، ولكن إخوتى أتونى، وقالوا: إن قاتلتَهم، وظهروا عليك، لم يُبقُوا منّا أحدًا، وإن تركتهم تغيّب الرّجل منّا عند أخواله وأصهاره. فرقّ لهم قلبى. وكنتُ أقول: ليتنى أخرجتُ أهل السّجن، فضربتُ أعناقهم. وأمّا إذ فاتتنى هاتان الخصلتان، فليتنى أقدَم الشامَ ولم يُبرموا أمرًا.» [134]

---

١) أوغرتُ: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: «اغرمتُ» وهو خطأ.

٢) اغرمتُ: كذا فى الأصل والطبرى. وفى مط: غرمت.

[خلافة مروان بن الحكم]

[كان لايُريد الخِلافة ولكن ابن زيادٍ أطمعه فيها]

وقدم عبيدالله بن زيادٍ الشّامَ، وكان قدمها الحُصين بن نُمير ومَن معه[1]، وهمَّ مروان بن الحكم أن يسير إلى ابن الزُّبير فيبايعه، واجتمع النّاس على ذلك. فذهب عبيدالله حتّى لقى مروانَ، وقال:

- «استحييتُ لك ممّا تُريد، أنت كبير قريشٍ وسيّدُها تَصنع ماتَصنع؟»

فقال:

- «مافات شيءُ بعدُ.»

واجتمع إليه بنوأميّة ومواليهم، وتجمّع إليه أهلُ اليمن، وهو يقول:

- «مافات شيءُ بعدُ»

كالمعتذر إليه.

[المروانيُّون والزُّبيريُّون واحتجاجاتهم]

وكان الضّحّاك بن قيسٍ بدمشق لمّا قدم عبيدُالله بن زيادٍ، وكان يَهوىٰ هَوى ابن الزُّبير، والنُّعمانُ بن بشير بحِمص يُبايع لابن الزُّبير، وزُفر بن الحارث بقنّسرين يبايع لابن الزُّبير.

وكان حسّان بن مالك بن بحدل الكلبى يرى الأمر لبنى أميّة، ويَهوىٰ هواهم، لأنّه كان خالَ خالد بن يزيد بن معاوية، فهو يحبُّ أن يبايع له، وكان بالأردن، فجمع النّاس وخطبهم، وقال:

- «أيُّها الناس، ما شهادتكم على ابن الزُّبير، وعلى قتلىٰ أهل الحَرّة؟» قالوا:

---

١) فى الأصل ومط: وكان قدمها الحصين بن نُمير ومن معه الشّام. وكلمة «الشّام» زائدةٌ فحذفناها. أنظر الطبرى ٤٦٧:٧.

ـ «نشهد أنّ ابن الزُّبير منافقٌ، وأنّ قتلىٰ أهلِ [135] الحرّة فى النّار.» قال:

ـ «فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة؟» قالوا:

ـ «نشهد أنّ يزيد مؤمنٌ، وأنّ قتلانا فى الجنّة.» قال:

ـ «وأنا أشهدُ ـ لئن كان دين يزيد بن معاوية حقًّا يومئذٍ ـ إنّه اليوم وشيعتَه على حقٍّ، وإن كان ابن الزُّبير يومئذٍ وشيعته على باطلٍ، إنّه اليوم وشيعته على باطلٍ.» قالوا:

ـ «صدقتَ، نحن نبايعك ونقاتل معك مَن خالفَك على أن تُجنّبنا عبدَالله وخالدًا ابنَى يزيد، فإنّهما غلامان، ونكرهُ أن يأتيَنا النّاسُ بشيخٍ ونأتيَهم بصبىٍّ.»

فكتب حسّان بن مالك إلى الضّحّاك بن قيسٍ:

ـ «إنّك تُبايع ابنَ الزُّبير، وقد عرفتَ حقوق بنى أُميّة عليك.»

وعظم عليه الفرقة، ودعاهُ إلى الجماعة. وكتب جماعة بنى أُمية بمثل ذلك. فأبى الضّحّاك بن قيسٍ، ومَن يَرىٰ رأيَهُ.

واجتمعت بنوأُميّة ومَن يَرىٰ رَأيَهم، فبايعوا مَروان لسنّه، وذلك فى المحرّم سنة خمسٍ وستّين.

وكان مروانُ لايحدِّث نفسَه بذلك، ولايحلم به، حتّى قدِمَ عليه عُبيدالله بن زيادٍ من البصرة، فأطمعه، واتّفق ماحكيناهُ [136] من أمر حسّان، وجوابِ أهل الشّام له.

وكان الحصينُ بن نُمير لقى مروان، فشرط عليه شروطًا أجابه مروانُ إليها، فكان يهوىٰ هواهُ. فلقى مالك بن هُبيرة الحُصين بن المنذر، وقال له:

ـ «هلمّ نُبايِع هذا الغلام الّذى نحن ولدنا أباه وهو ابن أُختنا، فقد عرفتَ منزلتنا كانت من أبيه وهو غدًا يحملنا على رقاب العرب.»

يعنى خالد بن يزيد.

فقال حُصين:

ـ «لا، لَعَمرى ما تأتينا العرب بشيخٍ فنأتيهم[١] بصبىٍّ.»

فقال مالكٌ:

ـ «هذا، ولمّا نَرِدْ تهامةَ، ولمّا يبلغ الحزام الطُّبيين[٢].»

فقال الحصين:

---

١) وفى مط: فيأتيهم.　　٢) وفى مط: الطنبين. وهو خطأ.

- «مهلاً يا باسليمان!»
فقال له مالكٌ:
- «إسمع كلامى، والله لئن استخلفت مروانَ وآل مروان، ليحسدنّكَ على[1] سوطك، وشراك نعلك، وظلّ شجرة تستظلّ بها. إنّ مروان أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، فإن بايعتموهُ كنتم عبيدًا لهم، ولكن عليكم بابن أختكم خالدٍ.»
فأبى النّاس إلاّ شيخًا، فاجتمعوا على مروان، وقالوا:
- «مروان خليفتنا، على أن يكونَ الأمر بعده لخالد بن يزيد.»
فلمّا اجتمع رأى النّاس رضى حسّان بن بَحْدَل أيضًا، وتمّ [137] الأمر لمروان، وسار إلى الضّحّاك، والتقيا بمرج راهط، فاقتتلا قتالاً عظيمًا، وقُتل من أهل الشّام مقتلةً عظيمةً لم يُقتلوا مثلَها قطُّ، وقُتل الضّحّاكُ.
وخرج نعمان بن بشير، لمّا بلغه مقتل الضّحّاك، هاربًا من حمص ليلاً، ومعه امرأتُه وثقلُه، فتحيّر[2] ليلتَه كلَّها، وطلبه قومٌ، فظُفر به، وحُزّ رأسُه، وجِىءَ به إلى مروان.
وأطبق أهل الشّام على مروان واستوسقوا[3] له، فجاءَ[4] إلى مصر، وعليها عبدالرّحمان بن جَحدر[5] القرشىُّ، يدعو إلى ابن الزّبير، فقاتله فقتله، وآمن النّاسَ، وبايعه أهلُها، فرجع إلى دِمَشق.

أسماءُ كتّاب يزيد و وزرائه

كتب ليزيد عبيدُالله بن أوس الغسّانى كاتب معاوية. وكتب له على ديوان الخراج سرجون بن منصور، وهو الّذى أشار عليه، لما بلغه مسير الحسين إلى الكوفة بأن يولّىَ عبيدَالله بن زياد، وقد مرّ ذكره، وكتب إليه عن يزيد:
- «أمّا بعدُ، فإنّ المحبوبَ[6] مسبوبٌ يومًا ما، والمسبوبَ محبوبٌ يومًا ما، وقد انتميتَ إلى منصب كماقال الأوّل:

رُفِعْتَ فجاوَزْتَ السّحابَ وفوقَهُ فما لَكَ إلاّ مَرقَب الشّمس مرقَبُ

---

١) والعبارة من «على سوطك» إلى «كنتم» سقطت من مط. ٢) فى مط: لتحيّر. ٣) فى مط: استوثقوا. ٤) فى مط: فجاؤوا. ٥) جحدر: كذا فى الأصل. فى مط: جحد. وفى الطبرى (٤٦٧:٧): جحدم. ٦) فى مط: المحبوب مسبوب. (كذلك فى الموضعين الآتيين).

[138] وقد ابتُلى بالحسين زمانُك بين الأزمان، وبلدُك بين البُلدان. وبُليتَ به من بين العُمّال، فإمّا أن تُعتَقَ[١]، أو تعود عبدًا، والسّلام.»

وقلّد سلمة بن حريد الأزدى من كتاب فلسطين الخراجَ بمصر، وكان يكتب لعبدالله بن الزّبير، ويقوم بجميع أموره، إلى أن قُتل. واجتمع النّاسُ على عبدالملك بن مروان، وفيهم عبدُالله بن صفوان بن أميّة بن خَلف.

وأمّا عبيدُالله بن زياد، فكتب له مهران الترجمان، وقام بأمره كُله، ولم يزل معه إلى أن مات يزيد، فأخرجه أهلُ البصرة من بلادهم.

وقلّد يزيد بن معاوية سلمَ بن زيادٍ خراسانَ، وكان يكتب له اصطفانوسُ، فأقام بها، إلى أن ظهر ابن الزّبير، وتُوفّى يزيد. فاستخلف سلمُ على خراسان عبدَالله بن حازمٍ، وانصرف فى سنة اربعٍ وستّين، وتباطأ فى مسيره ليعلم على ماتستقرُ الأُمورُ، فورد البصرةَ فى سنة خمسٍ وستّين.

فدعا سلمُ يومًا بإصطفانوس، وسلّم اثنى عشر الف الف [١٢،٠٠٠،٠٠٠] دينار، وقال له:

ـ «احتفظ به، فما فيه قيمة درهمٍ[٢] ظُلم فيه مُسلمُ ولا مُعاهَدُ.»

فقال [139] اصطفانوس بالفارسيّة:

ـ «فمن أين هذا كلّه!»

فقال:

ـ «من هدايا العُمّال وأهلِ الكُوَر والدّهاقين.»

وكان أهلُ خراسان أحبّوا سلمًا محبّةً ما أحبّوها واليًا قطُّ، وسُمّى باسمه أيّامَ ولايته، أكثرُ من عشرين ألف مولودٍ، ثمّ ثاروا به حين بلغهم موتُ يزيد حتّى استخلف عليهم، وخرج، وهلك مروان بن الحكم بعد تسعة أشهرٍ من ولايته، وجعل ولىَّ عهدِه ابنَه عبدَالملك، وبعدَه سليمان، وكان سبب هلاكه أنّ النّاس أشاروا عليه أن يتزوّج أمّ خالد بن يزيد ليغضّ منه، لأنّ النّاس كانوا يتشوّفونه[٣]، وينتظرون بلوغَه.

ذكر حيلة مروان بن الحكم الّتى عادت بهلاكه

فتزوّج مروان أمّ خالدٍ، فدخل يومًا على مروان وعنده جماعةٌ كثيرةٌ، فمشى بين الصّفّين،

---

١) «فإمّا أن تعتق»: سقطت من مط.

٢) فما فيه قيمة درهم: كذا فى الأصل. وفى مط: فما فيه دينارٌ واحد.

٣) مافى الأصل: يتشوّفونه (بالفاء).وما فى مط: يتشفونه.والمثبت هوالصّحيح.

فالتفت مروان إلى مَن حولَه، فقال:

- «إنّه ماعلمتُ لأحمق، تعالَ يابنَ الرّطبةِ الإست.»

يُقصّرُ به لِيُسقطَهُ من عين النّاس.

فرجع [140] إلى أمّه، وبكىٰ بين يديها، وقال:

- «خاطبني بحضرة النّاس بكذا.»

فقالتْ له أمّه:

- «لاتُعرّفنّ أحدًا، ولايَعرفنّ هو منك، واسكتْ فإنّي أكفيكَهُ.»

فدخل عليها مروان، وقال لها:

- «هل قال لك خالدٌ فيّ شيئًا؟»

فأنكرته، وبسطتْ له وجهَها، وقالت:

- «وأيُّ شيء يقول خالدٌ فيك؟»

ثمّ مكثت[١] أيّامًا حتّى أنس مروان، فنام عندها، فغطّته بوسادة وأمسكته عليه حتّى مات[٢].

---

١) مكثت: كذا فى الأصل: وما فى مط: «مكث» وهو خطأ.

٢) كان هلاك مروان فى شهر رمضان سنة خمس وستين. تجد القصة فى الطبرى ٥٧٧:٧، وفى ابن الأثير ١٩١:٤، وفى المسعودى ٨٩:٣.

[أيّام عبدالملك بن مروان]

وكان مروان قبل هلاكه بعث بعثين: أحدهما إلى المدينة، عليهم حبيش بن دلجة، والآخر إلى العراق، عليهم عبيدالله بن زياد.

فأمّا عبيدُالله، فسار حتّى نزل الجزيرة، وأتاه الخبر بها بموت مروان، وخرج إليه الشّيعة من الكوفة، وهم الّذين تسمّوا بالتّوّابين، يطلبون بدم الحسين بن علي[1]، وسنذكر من أخبار التّوّابين وأخبار أهل المدينة، مايليق ذكره بهذا الكتاب.

خبر التّوّابين

فأمّا خبر التّوّابين[2]، فإنّه لمّا قُتل الحسين بن عليّ، عليهما السلام[3]، اجتمعت الشّيعة بالكوفة، ولامَ بعضُها بعضًا، ورأوا أنّهم جَنَوا جنايةً عظيمةً باستدعائهم [141] الحسين إلى الكوفة، ثمّ تقاعدِهم عنه، إلى أن جرىٰ عليه ماجرىٰ، وأنّه لايغسل عنهم هذا العارَ[4]، ولايمحو عنهم هذا

---

١) وزاد في مط: «رضي الله عنهما».
٢) تجد خبر التّوّابين عند الطبرى ٧:٤٩٧، ٥٣٨؛ وعند ابن الأثير ٤:١٥٨؛ وعند المسعودى فى مروج الذّهب ٣:٩٣.
٣) عليه السّلام: لا توجد عبارة التّسليم هذه فى مط.
٤) العار: كذا فى الأصل. وما فى مط: العمار. وهو خطأ.

الإثمَ، إلاّ الخروج والتوبة إلى الله، والطلب بدمه، إلى أن يَقتلُوا قاتليه أو يُقتلوا قبلَ ذلك.

فاجتمع الكلُّ إلى خمسةٍ من الرُّؤساءِ، وهم: سليمان بن صُرد، والمسيَّب بن نَجَبة[١]، وعبدالله بن سعد بن نُفيل الأزدى، وعبدالله بن والٍ التَّيمىّ، ورفاعة بن شدّاد البجلىّ.

ثمَّ اجتمع هؤلاءِ الخمسة على سليمان بن صُرد، وكانت له صحبةٌ من النّبىّ، صلّى الله عليه وسلَّم، فرأسوه[٢]، وقالوا:

ـ «لابدَّ من رئيسٍ واحدٍ تكون له رايةٌ يُحَفُّ بها، ورأىٌ يُصدَر عنه.»

فرضُوا بسليمان بن صُرد، وخطبهم سليمان خطبةً طويلةً، قال فى آخرها:

ـ «كونوا كتوّابى بنى إسرائيل، إذ قال لهم نبيُّهم: إنّكم ظَلَمتُم أنفسَكم باتّخاذِكمُ العِجلَ، فتُوبُوا إلىٰ بارئكم، فاقتُلوا أنفسكم، ذٰلِكُمْ خَيرٌ لكُمْ عندَ بارئكُمْ[٣]. وإنّى أرىٰ أنَّ الله قد سخط عليكم ممّا[٤] أتيتمُوه فى أمر ابن نبيّكم، فلايُرضيه شىءٌ أو تُبيروا[٥] قَتلةَ الحسين، فلاتَهابُوا الموتَ، فوالله ماهابه أحدٌ إلاّ ذلَّ.»

وتكلَّم كلامًا كثيرًا يُشبه هذا. [142]

فقال خالد بن سعد:

ـ «أمّا أنا، فوالله، لَو أعلم أنَّ قَتلىَ نفسى يُخرجنى من ذنبى، ويُرضى عنّى ربّى، لَقتلتُها، ولكن هذا الّذى ذكرتَه من قتل الأنفس إنّما أمر به قومٌ، فأُشهد الله ومَن حضرَ، أنَّ كلَّ مالٍ أملكه، سوىٰ سلاحى الّذى أُقاتل به، صدقةٌ على المسلمين، أُقوّيهم به على قِتال القاسطين.»

وقام جماعةٌ، فتكلَّموا بمثل ذلك.

فقال سليمان:

ـ «حسبُكم، مَن أراد من هذا شيئًا، فليأتِ بماله عبدَالله بن والٍ التَّيمى، فإذا اجتمع عنده مايكفى جهَّزنا به ذوى الخَلّة من أشياعكم.»

وكتب سليمان بن صرد إلى المدائن، وبها جماعةٌ من الشّيعة، ورأسُهم سعدُ بن حُذيفة بن اليمان، بما اجتمع عليه رأىُ القوم من إخوانهم، وذكَّر بمقتل حُجرٍ وأصحابه، وبما يُقاسيه الشّيعة من الذُّلِّ، وحضَّهم على التَّوبه، واستقدمهم.

---

١) نَجبه: كذا فى الأصل. وما فى مط مهملة إلاّ فى الياء التحتانية. وفى مط: فرأسورة! وهو تصحيف.

٢) فراسوهُ: كذا فى الأصل

٣) س ٢ البقرة: ٥٤.

٤) ممّا: كذا فى الأصل. وفى مط: بما.

٥) تُبيروا: كذا فى الأصل. تُبيروا: تُهلكوا، تُبيدوا. وفى مط: تُثيروا. وهو تصحيف.

فلمّا قرأ سعد بن حُذَيفة الكتابَ على الشّيعة الّذين كانوا بالمدائن، أجابوهُ بالسّمع والطّاعة. فأجاب سليمانَ بن صُرد، بما وَجَدَ عند الشّيعة من الحرص، وأنّهم جادُّون ينتظرون الدّاعيَ، فإذا جاءَ [143] الصريخُ أقبلنا ولم نعرِّج، إن شاءَ الله.

وكتب سليمان إلى أهل البصرة، وإلىٰ مَن يتشيع بها بمثل ذلك، فجاءَهُ الجوابُ بمثل ما أجابَهُ أهلُ المدائن،

ولم يزل النّاس فى الاستعداد إلى أن هلك يزيد، وقام بالأمر مروان، ومدةَ ذلك ثلاث سنين وشهران.

وهلك يزيد، وأميرُ العراق عبيدُالله بن زيادٍ، وهو بالبصرة، وخليفتُه بالكوفة عمرُو بن حُريثٍ، واجتمعت الشّيعة إلى سليمان بن صرد، وقالوا:

- «قد مات هذا[1] الطاغية، وهم اليوم مضطربون مشغولون، فقُمْ بنا نَثِبْ على عَمرو بن الحُريث، ثمّ نُظهر الطَّلبَ بدم الحسيْن، ونتتبع قَتلَتَهُ فنقتلهم، وندعو النّاس إلى أهل البيت المدفوعين عن حقوقهم.»

ذكر رأى سليمان بن صُرد فى ذلك

فلمّا أكثرَ النّاسُ، وأطالوا عليه، قال لهم سليمان:

- «رويدًا،لاتعجَلوا، إنّى قد نظرتُ فى ما تذكرون، فرأيتُ أنّ قتلةَ الحسين هم أشراف الكوفة، وفُرسان العرب، وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ماتُريدون علموا أنّهم المطلوبون [144] فكانوا أشدّ شيء عليكم. وقد نظرت فى من معى منكم، فعلمت أنّهم لوخرجوا لم يُدركوا ثأرَهم، ولم يشفُوا نفوسَهم، ولم يَنكأُوا[2] فى عدوّهم، وكانوا لهم جَزرًا، ولكن بُثُّوا دعاتَكم، فإنّى أرجو أن يكون النّاس أسرعَ استجابةً حيث هلك هذا الطاغية.»

[قدوم المختار، ومازعم]

ففعلوا، وخرجت منهم دُعاةٌ يدعون النّاس، فاستجاب لهم ناس كثيرٌ بعد هلاك يزيد بن

١) هذا الطاغية: كذا فى الأصل ومط ولكن كلمة غيرواضحة زيدت فوق كلمتى «مات هذا» تشبه أن تكون «أمير»، وباعتبارها تكون العبارة فى الأصل: «أمير هذا الطاغية».

٢) لم ينكأُوا: كذا فى الأصل. نكأ العدوَّ (ينكأ): جرحه، وقتله. وفى مط: ولم ينكُوا. من قولهم: نكا العدوَّ، وفيه (ينكى): أوقع به. هزمه وغلبه.

معاوية أضعاف من كان استجاب لهـم قبل ذلك. فلمّا كان بعـد ذلك، قـدم المختار بن أبى عُبيدٍ، فزعم أنّه من قبلِ المهدىُ محمّد بن الحنفيّة يدعوهم إلى الطّلب بدم الحسين. فكانت الشّيعة قد انقادت لِسليمان بن صُرد. فكان المختار، إذا خاطب الشّيعةَ، ودعاهم إلى نفسه، قالوا:

ـ «هذا سليمان بن صُرد شيخ الشّيعة.»

فيقول المختار:

ـ «هذا ليس لكم بصاحب، إنّما يريدُ أن يخرجَ فيقتلَ نفسَه، ويقتلَكم. ليس له بصرٌ بالحرب، ولاعلمٌ بها.»

فلايُقبلُ منه.

[قدوم عبدالله بن يزيد و ابراهيم بن محمّد]
[من قبل ابن الزّبير]

وقدم الكوفة عبدالله بن يزيد أميرًا على حربها وثغرها، وقـدم معـه من قبل ابن الزّبير إبراهيم بن محمّد بن طلحة بن عبدالله [145]، أميرًا على خـراج الكـوفة. فبلغهما أنّ الشّـيعة خـارجةٌ، وأنّهم[1] طائفتان: طائفةٌ كثيرةٌ مع سليمان بن صُـرد، وطـائفة يسيرةٌ مع المختار، وأشـير على عبدالله بن يزيد أن يجمع الشّرطةَ والمقاتلةَ ووجوهَ النّاس وينهض إليهم، وقيل له:

ـ «إذا صِرتَ إلى منزله، دعوته، فإن أجابك حبستَه[2]، وإن قاتلَك، قاتلتَهُ وقد جمعـتَ له وعبّات وهو مغترٌ.»

وقيل له:

ـ «إن لم تفعل بذاك، خرج[3] عليك، وقد اشتدّت شوكته، وتفاقم أمرُه.»

ذكر راى عبدالله بن يزيد

فنظر عبدالله بن يزيد، فإذا القوم يطلبون غيرَه بدم الحسين، فكره أن يستَحضِهم. فقال لمن أشار عليه بما حكيناه:

ـ «حدّثونى مايُريدون» قال:

١) فى الأصل: أنهما وهو خطأ، وما أثبتناهُ يوافق مط.
٢) فى مط: جلسته. وهو خطأ.
٣) فى الأصل ومط: «وخرج» ـبالواو ـ وحذفناها بمقتضى السّياق.

- «يذكرون أنّهم يطلبون بدم الحسين.»

فقال:

- «أنا قتلتُ الحسين؟ لعن الله قاتل الحسين.»

وقال:

- «ألله بيننا وبين هؤلاءِ القوم، إن تركونا لم نطلبهم.»

ثمّ خطب النّاسَ، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

- «فقد بلغنى أنّ طائفة من أهل هذا المصر، أرادوا أن يخرجوا علينا، فسألتُ عن السّبب الّذى دعاهم إلى ذلك ماهو؟ فقيل [146] لى: إنّهم يطلبون بدم الحسين بن علىّ. فرحم الله هؤلاءِ القوم، قد ـ والله ـ دُللتُ على أماكنهم، وأمرتُ بأخذهم، وقيل لى: إبدأ بهم، قبل أن يبدأوك، فأبيتُ ذلك، وقلت: إن قاتَلونى قاتلتُهم، وإن تركونى لم أطلبهم. وعلامَ يُقاتلوننى؟ فوالله ماأنا قتلتُ حسينًا، ولا أنا ممّن قاتَلهُ. ولقد أُصبتُ بمقتله، رضى الله عنه. هؤلاءِ القوم آمنون، فليخرجوا، ولينتشروا ظاهرين، ثمّ ليسيروا إلى قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم، وأنا ظهيرٌ لهم. هذا ابن زيادٍ قاتل الحسين، وقاتل أخياركم، وأماثلكم، قد توجّه إليكم عهدُ العاهدِ به، على مسيرة ليلةٍ من مَنبجَ[1]، فقتاله و الإستعداد له أجزىٔ وأرشدُ من أن يجعلوا بأسَكم بينكم، فيسفكَ بعضكم دماءَ بعضٍ، فيلقاكم العدوُّ غدًا وقد رققتم[2]، وتلك أمنيّة عدوّكم، فإنّه قد أقبل إليكم. أعدىٔ خلق اللهِ لكم مَن ولىَ عليكم هو وأبوهُ سبع سنين لايُقلعان عن قتل أهل العفاف والدّين، ومَن قَتلَ مَن تبغون دَمَهُ قدجاءَكم، فاستقبِلوهُ بحدّكم وشوكتكم، واجعلوها به، ولا تجعلوها بأنفسكم، [147] فإنّى لم آلُكم نُصحًا. جمع اللهُ كلمتنا، وأصلح لنا أئمتنا.»

فخرج أصحاب سليمان بن صُرد ظاهرين، يشترون السلاحَ، ويتجهّزون بمايُصلحهم.

وأمّا النّفر الّذين مع المختار، فإنّهم سكتوا، لأنّ المختار كان يُريد ألاّ يُهيجَ امرًا حتّى ينظر: إلى مايصير أمر سليمان بن صُرد. ورجا أن تستجمع له الشّيعة، فيكونَ أقوى على درك مايطلب.

---

١) مَنبج: كذا فى المراصد والطبرى ٥١١:٧. وما فى الأصل: منبح ـ بالحاء المهملة، وما فى مط: منيح، وكلاهما تصحيف.

٢) رققتم: كذا فى الأصل: رققتم: ضعفتم. وفى مط: وفقتم. وهو خطأ.

[اجتماع الأمر لسليمان بن صُرد]

واجتمع لسليمان أمرهُ فى سنة خمسٍ وستّين، وكان قد واعد أصحابَه، وكاتب أهلَ المدائن وغيرَهم لِغُرّةِ شهر ربيع الأوّل، فخرج فى تلك اللّيلة إلى المعسكر بالنُخيلة، ودار فى النّاس ووجوه أصحابه، فلم تُعجبه عدّةُ النّاس. فبعث حكيم بن منقذ فى خيلٍ، وبعث الوليد بن حُصين فى خيلٍ، وقال:

ـ «اذهبا حتّى تدخلا الكوفة، فناديا: يالَثاراتِ الحسين! وابلُغا المسجد الأعظم، فناديا بذلك.»

فخرجا، فكانَ أوّلَ خلق الله دَعَوا: يالَثاراتِ الحسين. وكثر المستجيبون وكثر البكاءُ والنّحيب. وكان الرّجل إذا سمع هذا النّداء، فارق أهلَه و ولدَهُ، وتركهم يبكون، ووثب إلى سلاحه [148] وودّعهم، ثمّ خرج.

قال:

فلم يُصبح حتّى جاءَهُ نحوُ ممّن كان فى عسكره حين دخله، ثمّ دعا بديوانه حين أصبح، فوجد مَن جاءَ أربعة آلاف رجلٍ من جملة ستّة عشر ألفًا كانوا بايعوهُ، فقال:

ـ «سبحان الله! أما هؤلاءِ بمؤمنين؟ أما يخافون الله؟ أما يذكرون ما عطَوا من العهود والمواثيق؟»

وجعل يبعث ثقاتِه إلى من تخلّف عنه يُذكّرهم الله. فخرج إليه نحوُ من ألف رجلٍ. فحمد اللهَ، وأثنىٰ عليه، ثمّ قال:

ـ «أيُّها النّاس، إنّه ماينفعنا المُكرَهُ، وإنّما ينفعنا ذوالنّيّة. فمَن كان يُريد حَرثَ الدنيا، فوالله مايأتى فيئًا[١]، ولاغنيمةٌ، ماخلا رضوان اللهِ، ومامعنا ذهبٌ ولا فضّةٌ، ولاخزٌ، ولاحريرٌ، وماهو إلاّ سيوفنا فى عواتقنا، ورماحُنا فى أكفّنا، وزادُ قدر البُلغةِ إلى لقاءِ عدوّنا، فمن كان ينوى غيرهذا، فلايَصحبنا.»

فأجابه النّاس:

ـ «إنّما خرجنا للهِ، وللتّوبة إليه من ذنبنا، والطّلبِ بدم ابن بنت رسول الله، وإنّما نُقدم على حدّ السيوف، وأطراف الرّماح.»

١) فيئًا: كذا فى الأصل. وما فى مط: فيها.

ذكر آراءٍ أشير على سليمان ورأى رءاهُ وحدَه

أمّا أكثر النّاس، فأشاروا على سليمان أن يقصدوا الكوفةَ، وقالوا:

- «إنّا خرجنا [149] نطلب بدم الحسين، وقَتَلةُ الحسين كلُّهم بالكوفة: عُمر بنُ سعدِ بن أبى وقّاص، وروؤس الأرباع، وأشراف القبائل، فأينَ نذهب وندع الأوتادَ. والله، مانلقىٰ، إنَ مضينا نحو الشام، وهذه الخيل الّتى أقبلت، إلاّ عبيدَالله وحدَهُ ممّن نطلبه، و وراءَكم ألدُّهم بالكوفة، مثل عبيدالله.[۱]»

فقال سليمان بن صرد:

- «والله، لقد جِئتم برأى، فهلمُّوا أيُّها الناس بجميع ماعندكم.»

فلمّا سمع هذا وأمثاله، قال:

- «لكن أنا لاأرى لكم ذلك.»

ذكر الرّأى الّذى رءاهُ سليمان

قال:

- «إنّ الّذى قتل صاحبكم هو الّذى عبّى إليه الجنودَ فألزم الناسَ المسيرَ إليه كارهين، وهذّدهم.» ثمّ قال:

- «لا أمان له عندى دون أن يستسلم، فأمضى فيه حكمى، هذا الفاسق، ابن الفاسق، ابن مرجانه، عبيدالله بن زيادٍ. فإن يُظهر الله عليه كان مَن بعدَه أهونُ شوكةً، ورجونا أن يدين لكم مَن وراءَكم من أهل مصركم، فينظرون مَن شرك فى دم الحسين، فيقتلونه، وإن قاتلتم الآن أهل مصركم، ماعدم الرجلُ أن يرى رجلاً غدًا وقد قتل أخاه، أو أباه، أو حميمَه، أو رجلاً [150] لم يكن يريد قتلَه، فيكثر أعداؤكم. فاستخيروا اللهَ وسيروا.»

فتهيّأ النّاس للخروج.

ذكر رأى آخر رءاه أمير الكوفة عبدالله بن يزيد

لمّا بلغ عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة أنّ سليمان خارجٌ بأصحابه نحو عُبيدالله بن زيادٍ، رأيا أن يأتياهم، فيعرضا عليهم الإقامة، وأن تكون أيديهم واحدةً، فإن أبوا إلاّ

۱) مثل عُبيدالله: كذا فى الأصل ومط. قس بما فى الطبرى ٥:٥٤١-٥٤٢.

الشُخوص، سألوهم النَظرَ حتَى يجهزوا معهم جيشًا، فيقاتلوا عدوَهم بكَتَفٍ وحَدٍّ[١].

فراسلا سليمان بن صُرد وقالا:

- «إنَا نريد أن نجيئك لأمرٍ عسى الله أن يجعل لنا و لك فيه صلاحًا.»

فقال سليمان للرَسول:

- «قُل لهما، فليأتيانا.»

وأحسنَ سليمان تعبئةَ النَاس. وجاءَ عبدالله بن يزيد، فى أشراف أهل الكوفة، وجاءَ ابراهيم فى جماعةٍ من أصحابه. وكان عبدالله بن يزيد قال لِكلّ رجلٍ معروفٍ علم أنَه شرك فى دم الحسين: لا تصحبنى؛ مخافة أن ينظروا إليه، فيعدُوا عليه.

وكان عمر بن سعدٍ طول تلك الأيَام الَتى كان سليمان فيها مُعسكرًا بالنُخيلة، لايبيت إلاَ فى قصر الامارة مع عبدالله بن يزيد مخافة أن يأتيه القوم وهو غافل، فيُقتل.

ولمَا دخل عبدالله بن يزيد إلى سليمان، حمدالله، وأثنى عليه، [151] ثمَ قال:

- «إنَ المسلم أخو المسلم، لايخونه، ولا يغشُه، وأنتم أهل مصرنا، وأحبُ النَاس إلينا، فلاتفجعونا بأنفسكم، ولاتستبدُوا علينا برأيكم، ولاتنقصوا عددَنا بخُروجكم، وأقيموا معنا حتَى نتيسَرَ ونتهيَأ، فإذا علمتم أنَ عدوَنا قد شارف بلادَنا خرجنا إليهم بجماعتنا، فقاتلناهم.»

وتكلَم إبراهيم بنحو من هذا.

فتكلَم سليمان، وحمدالله، وأثنى عليه، وقال:

- «قد علمتُ أنَكما قد محضتُمانى النَصيحة، واجتهدتما فى المشورة، ونحن فقد خرجنا على نيَة، ولن ننقضَها، ونسأل اللهَ العزيمة، والتَشديدَ.»

فقالا:

- «فأقيموا حتَى نُجهِزَ معكم جيشًا كثيفًا، فتلقوا عدوَكم بكتفٍ وجمعٍ وحدٍّ.»

فقال سليمان:

- «تنصرفون ونرى رأيَنا.»

فعرضا عليه الصَبرَ عليهما، حتَى يجعلا له ولأصحابه خراج **جُوخى**[٢] **دون النَاس.**

---

١) كذا فى الأصل: بكتف وحدٍّ. وما فى مط: بكتف وجدٍ، وهو تصحيف.

٢) جُوخى: نهرٌ عليه كورةٌ فى سواد بغداد بالجانب الشرقى منه الراذان، وهو بين خانقين وخوزستان، قالوا: ولم يكن ببغداد مثل كورة جوخى، كان خراجها ثمانين ألف ألف [٨٠٠٠٠٠٠٠] درهم، حتَى صُرفت دجلةُ عنها فخربت (المراصد وياقوت).

فأبى سليمان وقال:

- «ماخرجنا للدُّنيا.»

وإنّما فعَلا ذلك، لِما داخلهم من إقبال عبيدالله بن زيادٍ نحو العراق.

وأبطأ على سليمان أصحابه من أهل البصرة والمدائن، فخرج من عسكره بالنُّخيلة، ومرّ نحو **الأقساس**[١]، وتخلّفَ عنه ناسٌ كثيرٌ.

فقال سليمان:

- «لَو خرجوا فيكم مازادوكم إلاَّ خَبالاً، لأنَّ اللهَ كرِهَ [152] انبعاثهم، فثبّطهم.»

ثمّ خرج حتّى صبّح قبر الحسين. فلمّا انتهى النّاس إليه، صاحوا صيحةً واحدةً، وبكَوا. فما رُوى يومٌ كان أكثر باكيًا منه، وجعلوا يدعون اللهَ، ويسالونَه أن يتوب عليهم، وأحسن النّاسُ بالمنطق، وزادهم ذلك بصيرةً، وشحذ رأيَهم، ووطّنوا أنفسهم على الجهاد، وحبِّ الشهادة.

[كتاب عبدالله بن يزيد إلى سليمان بن صُرد
وماكان من جوابه]

ثمّ ساروا، فلحقهم كتابٌ من عبدالله بن يزيد، وهم بالقيّارة، مع **المُحل**[٢] بن خليفة الطائىّ.

قال المُحلُ:

فلقيتُه، وأبلغتُه السّلامَ والكتابَ، فاستقدم أصحابَه حتّى ظنَّ أن قد سبقهم. فوقف، وأشار إلى النّاس، فوقفوا، ثمّ قرأ الكتابَ، فإذا فيه:

- «بسم الله الرّحمن الرّحيم. من عبدالله بن يزيد إلى سليمان بن صُرد ومَن معه من المسلمين. سلام عليكم. أمّا بعدُ، فإنّ كتابى هذا كتاب ناصحٍ، وكم من ناصحٍ مُستغِشٌ، ومن غاشٍ مُستنصحٍ. إنّه قد بلغنى أن قد أقبل من الشّام، جموعٌ عظيمةٌ، وأنتم تريدون أن تلقَوهم بالعدد اليسير، وإنّه مَن يُرِدْ أن ينقل الجبالَ عن مراتبها، تَكلُّ مَعاولُه، وينزع، وهو مذموم الفعلِ والعقلِ. ياقومَنا، لاتُطمعوا عدوّكم فى أهل بلادكم، فأنتم خيارُ كلّكم، ومتى يُصبكم عدوّكم، أطمعهم ذلك فى مَن وراءكم [153] من أهل مصركم. ياقومَنا، إنّهم إنْ يَظهَروُا عليكم، يَرْجُمُوكُم، ويُعيدُوكم فى مِلّتِهم، ولَنْ تُفلحُوا إذًا أبدًا[٣]، ياقومَنا، إنّ أيدِيَنا وأيديَكم واحدةٌ، وعدوّنا

---

١) الأقساس: قريةٌ بالكوفة وكورة يُقال لها: أقساس مالك (المراصد).

٢) المُحل: ما فى الأصل ومط غير مضبوط، فضبطناه كما فى الطبرى ٥:٥٤٨.

٣) س ١٨ الكهف: ٢٠.

وعدوُكم واحدٌ، ومتى تجتمع كلمتنا نظهـر على عدوُنا، ومتى تختلفْ تهُـنْ شـوكتُنا. ياقـومَنا، لاتستغِشُوا نُصحى، ولاتخالفوا أمرى، وأقبِلُوا حين يُقرأ عليكم كتابى، أقبل الله بكم إلى طاعته، والسّلام.»

فلمّا قرأ الكتابَ[١]، قال ابن صُرد للنّاس:

ـ «ماذا تَرونَ؟» قالوا:

ـ «ماذا نرى؟ قد أبينا هذا عليهم، ونحن فى مصرنا، وأهلنا، والآن حين خرجنا، ووطّأنا أنفسنا على الجهاد، نفتأ عزيمتّنا؟ ماهذا برأى.»

ثمّ نادَوهُ:

ـ «أخبرنا برأيك!»

قال:

ـ «رأيى أن لاننصرف عمّا جمعَنا اللهُ عليه، لأنّا وهؤلاءِ مختلفون، لأنّهم لوظهـروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزُبير، ونحن لانرى الجهاد مع ابن الزُبير إلاّ ضلالاً، وإن ظهـرنا رددنا الأمر إلى أهله، وإن أُصبنا، فعلىٰ نيّتنا، تائبين من ذنوبنا. لأنَّ لنا شكلاً، ولابن الزُبير شكلاً.»

فانصرف النّاس معه حتّى نزلوا هيت[٢].

وكتب سليمان جواب الكتاب، ولاطفه، وأثنى عليه، واعتذر إليه، بأنّهم تائبون خرجوا على نيّة الجهاد، وتوجّهوا [154] لأمر لاينقضونه.[٣]

---

١) تجد الكتابَ عند الطبرى (٥٤٩:٧) أيضًا و باختلاف طفيف.

٢) هيت: سُمّيت باسم بانيها، وهى بلدةٌ على الفرات فوق الأنبار، ذات نخل كثير وخيرات واسعة على جهـة البرية فى غربى الفرات (المراصد).

٣) والجواب كما فى الطبرى (٥٥٠:٧):

«بسم الله الرّحمن الرّحيم. سلام عليك، أمّا بعد، فقد قرأنا كتابك، وفهمنا مانويت. فنعم ـ والله ـ الوالى، ونعـم الأمير، ونعم أخو العشيرة أنت والله من نأمنه بالغيب، ونستنصحه فى المشورة، ونحمده على كلّ حـال، إنّا سـمعنا الله، عزّوجلّ، يقول فى كتابه: إن الله اشترىٰ مِنَ المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنّةَ (إلى قوله:) وبشـرْ المؤمنين [س ٩ التوبه: ١١١] إنّ القوم قد استبشروا ببيعتهم الّتى بايعوا. إنّهم قـد تابوا من عظيم جـرمهم، وقـد توجّهـوا إلى الله، وتوكّلوا عليه، ورضوا بما قضى اللهُ. ربّنا عليك توكّلنا، وإليك أُنبنا، وإليك المصير، والسّلام عليك.»

فلمّا أتى هذا الكتاب إلى عبدالله بن يزيد، قال:
- «استمات القوم. أوّل كتابٍ يَردُ عليكم يكون بقتلهم.»

[بين سليمان بن صرد وزُفر بن الحارث]
[فى قرقيسيا]

وسار القوم إلى قرقيسيا، وبها زُفر بنُ الحارث بن كلابٍ، قد تحصّن بها من القوم، ولم يخرج إليهم. فبعث سليمان إلى المسيَّب بن نَجبه، فقال له:

- «إيتِ ابنَ عمِّك هذا، فقل له: فليُخرجْ لنا سُوقًا، فإنّا لسنا إيّاهُ نريد، إنّما صمدنا لهؤلاء المُحلّين.»

فانتهى المسيَّب إلى الحصن، وانتسب، واستاذن. فقيل:
- «هذا رجلٌ حسن الهيئة يستاذن عليك، ويزعم أنّه المسيَّب بن نجبة.»

فقال زُفر بن الحارث:
- «هذا فارس مُضَر، وهو بعدُ رجلٌ ناسك له دين، فأذنوا له.»

وجاءَ، فأجلسه إلى جانبه، وسائلهُ، وألطفهُ فى المسالة.

ثمّ خاطبه المسيَّب، وقال:
- «مِمَّ تَحصَّنُ، إنّه والله، ما إيّاكم نُريد، وما قصدنا إلاّ هؤلاءِ الظَلَمةَ المُحلّين، فأخرجْ لنا سوقًا، فإنّا لانُقيم بساحتك إلاّ يومًا أو بعض يومٍ.»

فقال له زُفر بنُ الحارث:
- «إنّا لم نُغلقْ أبواب المدينة إلاّ لِنَعلم: إيّانا اعتريتم، أم غيرنا. وما نعجز عن النّاس ما لم تدهمنا حيلةٌ، وما نحبُ [155] أنّا بُلينا بقتالكم، وقد بلغَنا عنكم صلاحٌ وسيرةٌ حسنةٌ جميلةٌ.»

ثمّ دعا ابنَه، وأمر أن يضعَ لهم سُوقًا جامعةً، وأمر للمسيَّب بفرسٍ وألف درهمٍ.

فقال المسيَّب:
- «أمّا المال، فلاحاجة لى فيه، ولا له خَرَجْنا، وأمّا الفرس، فإنّى أقبلُه، فلعلّى أحتاج إليه إن غمز[1] فرسى تحتى.»

وخرج حتّى أتى أصحابه، وأُخرجت لهم السُوق، وبعث إلى المسيَّب بعشرين جَزورًا، وإلى

١) فى مط: عمر. وهو خطأ. فى الطبرى (٥:٥٥٢) إن ظَلَعَ فرسى أو غمز. غمزت الدابة: ظلعت، اى مالت من رجلها.

سليمان بن صُرد مثل ذلك. وكان سأل عن وجوه العسكر، فأخرج إلى كلّ واحدٍ منهم بعشر جزائر وعلفٍ كثير، وطعام واسع، وأخرج إلى العسكر عيرًا عظيمةً، وشعيرًا كثيرًا.

وقال غلمان زُفر للنّاس:

ـ «هذه عيرٌ، فاجتزروا منها ما أحببتم، وهذا شعيرٌ، فاحتملوا ما أردتم، وهذا دقيقٌ، فتزوّدوا ما أطقتم.»

فأخصب القوم، ولم يحتاجوا إلى كثير شيء من السُوق الّتى أُخرجت لهم. وبعث إليهم زفر بن الحارث:

ـ «إنّى خارجٌ إليكم، ومُشيّعُكم، ومُشيرٌ عليكم برأيٍ عندى، والله موفّقكم.»

ذكر راى أشار به زفرُ بن الحارث على سليمان بن صرد وأصحابه

[156] ثمّ إنّ زُفَر خرج إليهم من الغد، وقد خرجوا على تعبئة، فسايرهم، وقال لسليمان:

ـ «إنّه قد بُعث بخمسة من الأمراء، وقد فصلوا من الرقّة الحُصين بن نُمير، وشُر حبيل بن ذى الكُلاع، وأدهم بن مُحرز الباهلى، وربيعة بن المُخارق[1] الغَنوى، وحملة[2] بن عبدالله الخثعمى، وقد جاؤوكم مثل الشوك والشجر، أتاكم والله عددٌ كثيرٌ، وحدٌ حديدٌ، وأيمُ الله، لَقلّ ما رأيتُ رجالاً أحسنَ هيئةً ولا عُدّةً، ولا أخلقَ بكل خيرٍ، من رجالٍ أراهم معكم، ولكنّه قد بلغنى أنّه قد أقبلت إليكم عدّةٌ لا تُحصى.»

قال ابن صُرد:

ـ «على الله توكّلنا، وعليه فليتوكّل المتوكّلون.[3]»

فقال لهم زُفَرُ:

ـ «فهل لكم فى أمرٍ أعرضه عليكم؟ لعلّ الله أن يجعل لنا ولكم فيه خيرًا.»

قال سليمان:

ـ «وما هو؟»

قال:

---

١) ما فى الأصل ومط: المحارق. وما فى الطبرى: المخارق. ٢) حملة: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: جبلة. ٣) ١٢ يوسف ٦٧: ١٤ إبراهيم ١٢ بتصرّف.

- «نفتح لكم مدينتنا، فتدخلونها، فيكون أمرنا واحدًا، وأيديكم مع أيدينا.»

فقالوا:

- «لانفعل ذلك.»

قال زُفر:

- «فتنزلون على باب مدينتنا، ونخرج، ونُعسكر إلى جانبكم، فإذا جاءنا هذا العدوُ قاتلناه جميعًا.»

فقال سليمان لزُفَر:

- «قد أرادنا أهلُ مدينتنا على مثل ماذكرتَ، ثمّ كتبوا إلينا به بعد مافصلنا، فلم نفعل.» [157]

قال زُفر:

- «فلو ضممتُم رأينا إلى رأيهم، وأقمتم معنا، وكاتبتم أهل مصركم، فبادَروا إليكم بما عرضوا عليكم لَرجونا أن يصل إلينا عدوُنا ونحن مجتمعون بحدٍّ واحدٍ، وشوكةٍ واحدةٍ، فكانت الدَبرةُ عليهم.»

فقالوا:

- «فإنّا لانفعل.»

فقال زُفر:

- «فانظروا الآن ماأشير به عليكم، فاقبلوهُ، وخذوا به، فإنّى عدوُ القوم، وأُحبُ أن يجعل الله الدائرة على القوم، وأنا لكم وادُّ، أُحبُ أن يحوطكم الله بالعافية. إنّ القوم قد فصلوا من الرَّقّة، فبادرهم إلى عين الوردة، فاجعلوا المدينة فى ظهوركم ويكون الرستاقُ والماء والمادّة فى أيديكم، ومابين مدينتنا وبينكم فأنتم له آمنون. والله، لو أنّ خيولى كرجالى، لأمددتُكم، اطوُوا المنازلَ الساعةَ إلى عين الوردة، فإنّ القوم يسيرون سير العساكر، وأنتم على خُيول، والله، لَقلّ مارأيتُ جماعةَ خيلٍ اكرم منها. تأهّبوا إليها من يومكم هذا، فإنّى أرجو أن تسبقوهم إليها، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة، فلا تقاتلوهم فى فضاء[1] تُرامونهم، وتطاعنونهم، فإنّهم أكثر منكم، فلا آمنُ أن يُحيطوا [158] بكم، ولا تقفوا لهم تُرامونهم، وتطاعنونهم، فإنّه ليس لكم مثل عددهم، وإن استهدفتم لهم لم يُلبثوكم أن يصرعوكم، ولاتصفُوا لهم حين يلقونكم. فإنّى لاأرىٰ معكم رجالاً، ولا أرى جميعكم إلاّ فُرسانًا، والقوم لاقوكم بالرّجال والفرسان، فالفرسان تحمى

١) فضاء: كذا فى الأصل. وما فى مط: قضاء. وهو خطا.

رجالَها، والرَّجالُ تحمى فُرسانَها، وانتم لارجال لكم تحمى فُرسانكم. فالقوم فى المقانب والكتائب. ثمّ بُثّوها فى مابين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كُلّ كتيبةٍ كتيبةً إلى جانبها، فإن حُمل على احدى الكتيبتين، ترجّلت الأُخرى، فنفّست عنها الخيل والرِّجالُ، ومتى ماشاءت كتيبةٌ ارتفعت، ومتى ماشاءت كتيبةٌ سفلت، ولو كنتم فى صفٍّ واحدٍ، فزحفت إليكم الرِّجال، فدفعتم عن الصَّفّ انتقض، فكانت الهزيمة.»

ثمّ وقف، فودَّعهم، فاثنى النّاس عليه، ودعَوا له، وقالوا له خيرًا.

وقال له سليمان:

ـ «نعم المنزول به أنتَ، اكرمتَ النُّزُلَ[1]، واحسنتَ الضِّيافة، ونصحتَ فى المشورة.»

[موقعة عين الوردة]

ثمّ إنّ القوم جدُّوا فى السّير، فجعلوا كلّ مرحلتين مرحلةً، حتّى انتهوا إلى عين الوردة، وسبقوا القومَ إليها، ونزلوا فى [159] غربيِّها، فأقاموا خمسًا لايبرحون، فاستراحوا فأراحوا خيلَهم، ثمّ خطبهم سليمان، فأطال خطبته، وذكر الدُّنيا، فزهّد فيها، والآخرةَ فرغّب فيها، ثم قال:

ـ «أمّا بعدُ، فقد أتاكم الله بعدوّكم الّذى دأبتم له فى السّير آناءَ اللّيل والنّهار، تريدون فى ماتُظهرون التّوبةَ النّصوحَ، ولقاءَ الله مُعذرين. فقد جاؤوكم، بل أنتم جئتموهم فى دارهم وحيّزهم[2]، فإذا لقيتموهم، فاصدقوهم، واصبروا، ولايولّينّهم أحدٌ دُبرَهُ إلاّ متحرّفًا لقتال، أو متحيّزًا إلى فئة، ولاتقتلوا مُدبرًا، ولاتُجهزوا على جريح، ولاتقتلوا أسيرًا إلاّ أن يكون من قتلة إخواننا بالطَّفّ، فإنّ هذه كانت سيرة أميرالمؤمنين علىّ بن أبى‌طالبٍ فى أهل هذه الدّعوة.»

ثمّ قال سليمان:

ـ «إن قُتلتُ، فأمير النّاس المسيَّب بن نجبة، فإن أُصيبَ، فأمير النّاس عبدالله بن سعد بن نُفيل، فإن أُصيب، فأمير النّاس عبدالله بن والٍ، فإن أُصيب، فأميرهم رفاعة بن شدّادٍ.[3]

ثمّ بعث المسيَّب بن نجبة فى أربعمائة فارس، وقال له:

ـ «سِرْ حتّى تلقى أوّل عسكرٍ من عساكرهم، فشُنّ فيهم الغارةَ، فإن رأيت ماتحبّ، وإلاّ

---

١) النُّزُل: كذا فى الأصل. وفى الطبرى ومط: النزول. والنُّزُل: النّازلون.
٢) كذا فى الأصل والطبرى: وحيّزهم. وفى مط: خيرهم.
٣) أنظر الطبرى ٧:٥٥٥.

فانصرفْ إلىَّ، وإيَّاك أن تنزلَ، أو ينزلَ احدٌ من [160] أصحابك.»

فمضى المسيَّب، حتَّى لقى رجلاً أعرابيًا يسوق أحمرةً. فقال:

- «علىَّ بالرَّجل.»

فأتى به، فقال:

- «كم بيننا وبين أدنى هؤلاءِ القوم؟»

قال:

- «أدنىٰ عسكرهم إليك عسكرُ ابنِ ذى الكُلاع، وبينه وبين الحُصين بن نُمير اختلاف. ادَّعىٰ حُصينٌ أنّه على جماعة النَّاس، وقال ابن ذى الكلاع: ماكنتَ لِتُولَّى[1] علىَّ. وقد تكاتبا فى ذلك إلى عبيدالله، [فهما ينتظران أمرَه][2] فهذا عسكر ابن ذى الكُلاع على رأس ميل.»

قال:

فتركنا الأعرابىَّ، ومضينا مُسرعين، فوالله ماشعروا بشىء حتَّى أشرفنا عليهم وهم غارّون فحملنا إلى جانب عسكرهم، فوالله، ما ثبتوا وانهزموا، وخلّوا لنا معسكرهم، فقتلنا منهم، وجرحنا، وأخذنا من المعسكر ماخفَّ علينا، وصاح المسيَّب فينا:

- «الرَّجعة، الرَّجعة، إنكم قد نُصرتم وغنمتم وسلمتم، فانصرفوا.»

فانصرفنا إلى سليمان.

[عُبيدالله بن زياد يُسرِّح الحصين بن نمير لدفع سليمان]

وأتى الخبرُ عبيدالله، فسرَّح إلينا الحصين بن نُمير مُسرعًا، حتَّى نزل فى اثنى عشر ألفًا، فخرجنا إليه وقد عبّى سليمان ميمنتَه وميسرته، ووقف فى القلب. فلمّا دنَوا منّا دعَونا إلى الجماعة مع عبدالملك بن مروان، وإلى الدُّخول فى طاعته، ودعَوناهم إلى أن يدفعوا إلينا عبيدالله بن زيادٍ [161] فنقتله ببعض مَن قتله من إخواننا، وأن يخلعوا عبدالملك بن مروان، وإلى أن نُخرج من بلادنا من آل الزُّبير، ثمَّ نردَّ الأمر إلى أهل بيت نبيِّنا الّذين هم أولى بالأمر. فأبى القوم، وأبينا.

١) لتولّى: كذا فى الأصل. وما فى مط: تتولى.

٢) مابين [ ] أخذناه عن الطبرى ٧:٥٥٧. كما يوجد عند ابن الاثير ٤:١٨١.

ثمّ حملت ميمنتُنا على ميسرتهم فهزمتهم، وحملت الميسرةُ، وحمل سليمان فى القلب فهزمناهم حتّى اضطررناهم إلى عسكرهم، فكان الظَّفر لنا حتّى حجز اللّيلُ بيننا وبينهم، وقد أحجزناهم فى عسكرهم.

فلمّا كان من الغد، صبّحهم ابنُ ذى الكُلاع فى ثمانية آلاف، أمدّهم بها عُبيدالله بن زيادٍ، وكان عبيدالله أنفذ إليه يشتمه، ويقول:

ـ «عملتَ عملَ الأغمار، وضيّعت مَسالحك وعسكرك. سِرْ إلى الحصين بن نُمير، حتّى توافيه، فهو أميرٌ للنّاس.»

فجاءهُ مددًا، وغاديناهم القتالَ. فاقتتلنا قتالاً لم يَرَ الشّيب والمُردُ مِثلَه، وكان فينا قُصّاصٌ يقصّون، ويحضّون[1]، ويقولون:

ـ «أبشروا عبادَالله، فحُقّ لِمَن ليس بينَه وبين لقاءِالله، والرّاحة من أبرام الدّنيا، وأذاها، إلاّ فراق هذه النّفس الأمّارة بالسّوء؛ أن يكون سخيًّا بفراقها، مسرورًا بلقاءِ ربِّه.»

فاقتتلنا اليوم الثّانى كقتال أمسِ، ثمّ اقتتلنا اليوم الثّالث [162] مثل ذلك، إلى أن كثرَنا أهلُ الشّام، وانعطفوا[2] علينا من كلّ جانبٍ.

فلمّا نظر سليمان إلى ذلك، قال:

ـ «عبادَالله، من أراد البكورَ إلى ربّه، والتّوبةَ من ذنبه، والوفاءَ بعهده، فإلىّ.»

وكسر جفنَ سيفه، ففعل معه ناسٌ كثيرٌ مثل ذلك، ومشى النّاس بالسّيوف، مُصلتين، فقتلوا من أهل الشّام مقتلةً عظيمةً، وجرحوا فيهم فأكثروا.

[مقتل سليمان بن صُرد]

فلمّا رأى الحصينُ بن نمير صَبرَنا وبأسَنا، بعث رجالاً ترمى بالنّبل، واكتنفهم الخيلُ والرّجالُ. فقُتل سليمان، وأخذ الرايةَ المسيّبُ بن نجبة، فقاتل وأحسنَ وصَبَرَ صبرًا لم يُرَ مثلُه، وقاتل قتالاً لم يُسمع بمثله، وماظنّ أحدٌ أنّ رجلاً واحدًا يقدر أن يُبلى ما أبلى، إلى أن قُتل، وأخذ الرايةَ عبدُالله بن سعد.

قال:

---

١) يحضّون: كذا فى الأصل. وفى مط: يحصون.

٢) انعطفوا: كذا فى مط. وفى الطبرى: تعطّفوا. وفى الأصل: انعطّفوا (بهمزة باب الانفعال وتشديد باب التفعّل!) وهو خطأ. والمثبت يوافق مط.

فبينا نحن نُقاتل معه إذ جاء فرسانُ ثلاثةُ أنفذهم أهل المدائن على خيولٍ مُقلّمة تطوى المنازلَ يبشّرونا بخروج أصحابنا من المدائن وخروج المثنّى بن محربة فى أهل البصرة، والجميع نحوُ من خمسمائة فارسٍ.

فقال عبدالله بن سعدٍ لمّا قالوا له: أبشر بمجىء إخوانكم:

- «ذلك لوجاؤونا ونحن أحياءٌ.»

قال:

فنظروا إلى ماأساءَ أعيُنَهم، ولم يلبثوا أن قُتل عبدالله بن سعدٍ، وناذينا عبدالله بن [163] والٍ، وكان قد استُلحم فى عصابةٍ معه إلى جانبنا، فحمل عليهم رفاعةُ بن شدّاد، فكشفهم عنه، ثمّ أقبل إلى رايته، فأخذها، ونادىٰ النّاس:

- «يا عبادَ الله، مَن أراد الحياة الّتى لاوفاةَ لها، والراحةَ الّتى لانصَبَ بعدها، والسُرور الّذى لاحُزنَ فيه، فإلىّ.»

ثمّ قاتلناهم، وكشفناهم. ثمّ انعطفوا علينا، وكثرونا من كلّ جانبٍ حتّى ردُّونا إلى مكاننا الّذى كنّا به. (قال: وكنّا بمكانٍ لايقدرون أن يأتوا فيه، إلاّ من وجهٍ واحدٍ) وحَملتْ علينا خيلُ عظيمةٌ فيها أدهم بن مُحرز عند المساء، فقُتل عبدالله بن والٍ، فنادينا رفاعةَ، وقُلنا:

- «أمسكْ رايتَك.» فقال:

- «لاأريدُها.» قلنا:

- «إنّا لله، مالكَ؟» قال:

- «إرجعوا بنا، فلعلّ [الله][1] يجمعنا ليوم شرٍّ لهم.»

فوثب إليه عبدالله بن عوف بن أحمر.

ذكر رأىٍ رءَاهُ ابن أحمر

فقال:

- «أهلكتَنا، والله، لئن انصرفتَ ليركبُنّ أكتافنا، فلانبلغ فرسخًا حتّى نهلك من عند آخرنا، فإن نَجا منّا ناجٍ أخذه الأعرابُ وأهل القرىٰ فتقرّبوا به إليهم، فيقتلُ صبرًا[2]. ننشدك الله أن تفعل. هذه الشمس قد طفلت للمغيب، وهذا اللّيلُ قد غشيَنا [164] هلمّ نقاتلهم على حالنا هذه، فإنّا الآن مجتمعون ممتنعون، فإذا غسق اللّيل ركبنا خُيولَنا أوّل اللّيل، فرمينا بها، فكان ذلك أوّل

---

١) الله: تكملةٌ من الطبرى ٧:٥٦٥.

٢) يقال: «قُتل فلانٌ صبرًا» أى: حُبس على القتل حتّى يُقتل.

شأن حتّى نُصبحَ، فنسير على مهلٍ، ويحمل الرجلُ منّا جريحَه، وينتظرَ صاحبَه، ويسيرَ العشرة والعشرون معًا، ويعرف النّاس الوجه الّذى يأخذون، فيتّبعُ بعضهم بعضًا. ولوكان ماذكرتَ لم تقف أمٌ على ولدٍ، ولم يعرف رجلٌ وجه صاحبه، ولم نُصبح إلاّ ونحن بين مقتولٍ ومأسورٍ.»

فقال له رفاعةُ:

- «نعم مارأيتَ.»

وأخذ يُحمِّل.

فقال ابن أُحمر:

- «قاتِلْ معنا ساعةً واحدةً، رحمك الله، ولاتُلقِ بيدك إلى التّهلكة.»

ومازال يناشده حتّى احتبس عليه، وتحدّث النّاس بما عزم عليه رفاعة من الرُّجوع، وكان لاتزال الجماعة تنادى:

- «عبادَ الله، روحوا إلى ربّكم، والله، مافى شىء من الدُّنيا خلفٌ من رضا الله. قد بلغنا أنّ طائفةً منكم يريدون الرُّجوع إلى ماخرجوا منه، وأن يركنوا إلى الدُّنيا الّتى قليلاً مايلبثون فيها. ثم يحملون، فيقاتلون حتّى يُقتلوا.»[١]

فلمّا أمسى النّاس ورجع أهل الشّام إلى معسكرهم، نظر رفاعة إلى كلّ رجلٍ قد عُقر به[٢]، وإلى [165] كلّ جريحٍ لايعين على نفسه. فدفعه إلى قومه. ثمّ سار بالنّاس ليلته كلّها حتّى عبر الخابور، وقطع المعابر كلّها وكان لايمرُّ بمعبرٍ إلاّ قطعه. وأصبح الحصين، فوجدهم قد ذهبوا، وكان رفاعة قد خلّف وراءَهم أبا الجُويريّة فى سبعين فارسًا يسيرون وراءَ النّاس فإذا سقط رحْلٌ حمله، وإذا سقط متاعٌ قبضه حتّى يعرّفه. فلم يزالوا كذلك حتّى مرُّوا بقرقيسيا، فبعث إليهم زفرُ من الطّعام والعلف مثلَ ماكان بعثه فى المرّة الأولى، وأرسل إليهم الأطبّاءَ، وقال لهم:

- «أقيموا ما أُحببتم، فلكم عندنا الكرامة والمواساة.»

فأقاموا ثلاثًا ثمّ تزوّدوا ما أحبُّوا، ورحلوا.

فاستقبلهم مددهم من البصرة، ومن المدائن، فتباكوا، وتناعَوا إخوانَهم، وانصرف أهل البصرة والمدائن إلى بلدانهم، وقدم النّاس الكوفة والمختار محبوسٌ.

ووردت البشارة على عبدالملك بن مروان، فأظهر سرورًا عظيمًا، وقال للنّاس:

---

١) كذا فى الأصل. وفى مط: وأن تركنوا إلى الّتى قليلاً ماتلبثون فيها ثمّ تحملون، فتقاتلون، حتى تُقتلوا. انظر الطبرى ٥٦٧:٧.

٢) كذا فى الأصل ومط والطبرى: قد عُقر به. فى الكامل (١٨٥:٤): قد عُقربه فرسُه.

- «لم يبق بعد هؤلاءِ أحدٌ عنده دفاعٌ ولا امتناعٌ.»

ذكر ماكان من المختار بعد التوّابين [166]

لمّا انصرف النّاس إلى الكوفة إذِ المختارُ محبوسٌ، فكتب من حبسه إلى رفاعة بن شدّاد:

- «أمّا بعدُ، فمرحبًا بالعُصَب الّذين عظّم الله لهم الأجر، ورضى انصرافهم حين قفلوا[١]. إنّ سليمان قد قضىٰ ماعليه، وتوفّاهُ اللهُ، فجعل روحَه مع أرواح الأنبياءِ والصدّيقين والشهداءِ والصّالحين، ولم يكن بصاحبكم الّذى به تُنصرون. إنّى أنا الأمين المأمون المأمور، أنا أمير الجيش، وقاتل الجبّارين، والمنتقم من الأعداءِ، والمقيد من الأوتار.[٢] فأعِدّوا، واستعِدّوا، واستبشروا، وأبشروا. أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيِّه، وإلى الطّلب بدماءِ أهل البيت، والدّفع عن الضعفاءِ وجهاد المُحلّين، والسّلام عليك[٣].»

وتحدّث النّاس بهذا من أمر المختار، فبلغ ذلك عبدالله بن يزيد وابراهيم بن محمّد، فخرجا فى النّاس حتّى أتيا المختارَ، فأخذاهُ.

وفى هذه الأيّام اشتدّت شوكة الخوارج بالبصرة، وقُتل نافع بن الأزرق.

ذكر السبّب فى اشتداد شوكة الخوارج وماكان من أمرهم

لمّا اشتغل أهل البصرة بالإختلاف الّذى كان بين الأزد وربيعة وتميم، بسبب [167] مسعود بن عمرو، وكثرت جُموع نافع بن الأزرق، فأقبل حتّى دنا من الجسر، فبعث إليه عبدُالله بن الحارث مسلمَ بن عُبيس بن كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمسٍ فى أهل البصرة، فخرج إليه، فأخذ يحوزه عن البصرة ويرفعه عن أرضها، حتّى بلغ مكانًا من أرض الأهواز يقال له: دُولاب. فتهيّأ النّاس بعضهم لبعضٍ وتزاحفوا، فجعل مسلم بن عُبيسٍ على ميمنته الحجّاجَ بن باب الحميرىّ، وعلى ميسرته حارثةَ بن بدر التميمىّ. وجعل ابن الأزرق على ميمنته عُبيدةَ بن

---

١) قفلوا: كذا فى الأصل والطبرى ٥٦٩:٧. وفى مط: نقلوا. ٢) الأوتار: كذا فى الأصل والطبرى. وفى مط: الأوتاد. ٣) عليك: ليست فى الطّبرى. وهى موجودةٌ فى الأصل ومط.

هلال اليشكرىَ، وعلى ميسرته الزُبير بنَ الماحوزَ التَّميمىَّ، ثمّ التقوا، فاضطربوا، واقتتل النّاس قتالاً لم يُرَ قطُّ أشدُّ منه. فقُتل مسلمُ بن عبيسٍ أمير أهل البصـرة، وقُتل نافـع بن الأزرق رأسُ الخوارج، وأمَّر أهلُ البصرة عليهم الحجّاجَ بن بابٍ، وأمَّرت الأزارقةُ عليهم عبدَالله بن الماحـوز، ثمّ عادوا، فاقتتلوا أشدَّ قتالٍ، فقُتل الحجّاجُ بن بابٍ أميرُ أهل البصرة، وقُتل عبدُالله بن الماحـوز أميرُ الأزارقة. ثمّ إنّ أهل البصرة أمّروا عليهم ربيعة بن الأحرم التّميمىّ، وأمَّرت الأزارقة عليهم عُبيدالله بن الماحوز، ثمّ عادوا فاقتتلوا حتّى [168] امسَوا وقد كره بعضـهم بعضًـا وملّوا القتالَ. فإنّهم لمتواقفون متحاجزون إذ جاءت الخوارجَ سريّةٌ لهم جامّةٌ لم تكن شـهدت القتالَ، فحملت على النّاس، فانهزموا، وقاتل أمير البصرة ربيعةُ بن الأحرم[١]، فقُتل، وأخـذ الرّايةَ حـارثةُ بن بدرٍ، فقاتل ساعةً وقد ذهب عنه الناس، فقاتل من وراءِ النّاس فـى حُماتهـم وأهلِ الصّبـر منهـم. ثمّ أقبل بالنّاس حتّى نزل بهـم منزلاً بالأهواز، وبلغ ذلك أهلَ البصـرة، فهـالهم، وراعهــم، وامتنع نومُهم.

وبعث بن الزُبير الحارثَ بن عبدالله بن أبى ربيعـة القـرشىّ على تلك الحزّة[٢]، فقـدم، وعزل عبدالله بن الحارث، فاقبلت الخوارج نحو البصرة ليس دونها كبيرُ مانعٍ.

ذكر اتّفاقٍ جيّدٍ
اتّفق لأهل البصرة وهم فى تلك الحال

فبينا النّاس على حالهم تلك من الخوف والشدّة، إذ قدم المهلّب بن أبى صُفرة من قِبل عبدِالله بن الزُبير معه عهدُه على خراسان.

فقال الأحنفُ للحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة والنّاس عامّةً:

- «أيُها النّاس، لا والله، ما لهذا الأمر إلاّ المهلّب، فاخرجوا [169] بنا إليه نكلّمه.»

فخرج ومعه أشراف النّاس، فكلّموه فى أن يتولّى قتال الخوارج، فقال:

- «لاأفعل. هذا عهدُ أميرالمؤمنين معى على خراسان، ولم أكن لأدعَ وجهى وأقاتلَ دونكم.»

فدعاه ابن أبى ربيعة، فكلّمه فى ذلك، فقال له مثل ماقاله للقوم ولم يُجبْه.

---

١) ربيعة بن الأحرم: كذا فى الأصل ومط. فى الطبرى (٥٨٢:٧): ربيعة الأجذم (بالذال المعجمة وبدون «ابن»).
٢) الحزّة: كذا فى الأصل ومط والطبرى. وفى الأصل كُتب فوق كلمة «الحزّة»: الحرب.

ذكر راى صحيح وحيلة
تمت لأهل البصرة حتّى حارب عنهم المهلّب

ثمّ اجتمع النّاس، فأداروا بينهم الرّأىَ، فاتّفقوا مع ابن أبى ربيعة، أن يكتبوا على لسان ابن الزّبير:

«بسم الله الرّحمٰن الرّحيم»

- «من عبدالله بن الزّبير عبدالله أمير المؤمنين، إلى المهلّب بن أبى صُفرة، سلامٌ عليك. فإنّى أحمد اليك الله الّذى لا إله إلاّ هو.

أمّا بعدُ، فإنّ الحارث بن عبدالله كتب إلىّ يذكر الأزارقةَ المارقةَ، وأنّهم اصابوا جندًا للمسلمين كان عددهم جمًّا، وأشرافهم كثيرًا، وذكر أنّهم قد أقبلوا نحو البصرة، وقد كنتُ وجّهتك إلى خراسان، وكتبتُ لك عليها عهدًا، وقد رايتُ حيثُ ذُكر أمرُ هذه المارقة أن تخرجَ إليهم، وتلىَ قتالَهم، ورجوتُ أن يكون ميمونًا طايرُك، مباركًا على أهل مصرك، والأجر فى ذلك أفضل [170] من المسير إلى خراسان، فسِرْ إليهم راشدًا، فقاتِل عدوَّ الله وعدوَّك، ودافع عن حقّك وحقوق أهل مصرك، فإنّه لن يفوتك من سلطاننا خراسانُ، ولاغيرُ خراسان، إن شاءالله، والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته.»

فأتى المهلّب بذلك الكتاب فقرأه، فلمّا فهمه، قال:

- «فإنّى والله لاأسير إليهم إلاّ أن تجعلوا لى ماغلبتُ عليه، وتُعطونى من بيت المال ما أتقوّى[١] به، ومن معى، وأنتخبَ من فرسان النّاس و وجوههم وذوى الشّرف مَن أحببتُ.»

فقال جميع أهل البصرة:

- «ذلك لَكَ.»

قال:

- «فاكتبوا على الأخماس بذلك كتابًا.»

ففعلوا، إلاّ ماكان من مالك بن مِسمع، وطائفةٍ من بكر بن وائل، فاضطغنها[٢] عليهم المهلّب.
فقال الأحنف وعُبيدالله بن زيادِ بن ظَبيان وأشراف أهل البصرة للمهلّب:

---

١) اتقوّى به ومَن معى: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٧:٥٨٤): مااُقوّى به من معى.
٢) فاضطغنها: كذا فى الأصل والطبرى ٧:٥٨٤، وفى مط: فاصطفها، وهو خطأ.

ـ «وما عليك أن لايكتبَ لك مالكُ بن مِسمع، ولامَن تابعه من أصحابه إذا أعطاك الّذى أردتَ جميعُ أهل البصرة، وهل يستطيع مالكُ خلاف جماعة النّاس، أو له ذلك؟ إنكمشْ أيُّهـا الرّجـل، واعزمْ على أمرك، وسِرْ إلى عدوّك.»

ففعل ذلك المهلّب، وأمّر على الأخماس. [171] فـأمّر عبيدالله بن زياد بن ظبيان على خُمس بكر بن وائل، وأمّر الحريش بن هلال السّعدى على خُمس بنى تميم.

وجاءت الخوارج حتّى انتهت إلى الجسر الأصغر عليهـم عبيدالله بن الماحـوز، فخـرج إليهـم المهلّب فى أشراف النّاس وفُرسانهم ووجوههم، فحاربهم عن الجسر ودفعهـم عنه، فكـان أوّل شىء دفعهم عنه البصرة، ولم يكن بقى لهم إلاّ أن يدخلوها، فارتفعوا إلى الجسر الأكبر. ثمّ عبّى لهم، فسار فى الخيل والرّجال، فلمّا رأوا أن قد أظلّ عليهم وانتهـى إليهـم ارتفعـوا فـوق ذلك مرحلةً أخرى، فلم يزل يحوزهم مرحلةً بعد مرحلة، ومنزلةً بعد منزلة، حتّى انتهـوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له: سُلّى وسِلّبرى[1]، فاقاموا به.

ولمّا بلغ حارثة بن بدر الغُدانى أنّ المهلّب قد أمّر على قتال الأزارقة، قال لمن اتّبعه وبقى معه من النّاس:

كَرنِبُوا و دَولِـبُوا   وحيثُ شِئتُم فاذهبُوا
قد أمّر المُهلّبُ

فأقبل من كان معه نحو البصرة، فصرفهم الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعـة إلى المهلّب. ولمّا نزل المهلّب بالقوم، خندق عليه، ووضع المسالحَ، وأذكى العيون، وأقـام [172] الأحـراس، ولم يزل الجند على مصافّهم والنّاس على راياتهم وأخماسهم، وأبوابُ الخنادق عليها رجـالٌ موكّلون بها، فكانت الخوارج إذا أرادوا بيات المهلّب وجدوا أمرًا مُحكمًا وثيقًا شديدًا، فرجعوا ولم يُقابلهم إنسانٌ قطُّ كان أشدَّ عليهم منه، ولاأغيظَ لقلوبهم منه.

فمن ذلك أنّهم بعثوا عُبيدةَ بن هلال، والزُّبيرَ بن الماحوز فى خيلين عظيمين ليلاً إلى معسكـر المهلّب، فجاء الزُّبيرُ من جـانبه الأيمن، وعبيدةُ من جـانبه الأيسـر، ثمّ كبّروا وصـاحوا بالنّاس، فوجدوهم على تعبئتهم ومصافّهم حَذِرين مُعدّين. فلمّا ذهبوا ليرجعوا، ناداهم عُبيدالله بن زياد بن ظبيان، فقال:

وَجَدتُمونا وُقُرًا أنجـادًا   لاكُشُفًا خُورًا ولاأوغادًا

---

١) سُلّى وسِلّبرى: كذا فى الأصل. وفى مط: سلى وسلرى. وفـى ياقـوت ص ٢٣٢ و ٢٤٤: سِلّى و سِـلّبْرى، وعن محمد بن موسى: سُلّى، ومجموع اللفظين موضع واحد من نواحى خوزستان قرب جندى سابور.

فردُوا عليه وتشاتموا. فلمّا أصبح النّاس أخرجهم المهلّب على تعبئتهم، وأخماسهم، ومواقفهم، وخرجت الخوارج على مثل ذلك من التّعبئة، إلاّ أنّهم أحسنُ عُدّةً، وأكرم خيولاً، وأكثر سِلاحًا من أهل البصرة، وذلك أنّهم مخروا الأرض وجرّدوها، وأكلوا مابين كرمان إلى الأهواز، فجاءُوا وعليهم مَغافر تُضرب إلى صدورهم، [173] وعليهم دُروعٌ يسحبونها، وسوقٌ من زرَدٍ يشدُّونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم، والتقى الناسُ، وقاتلوا كأشدِّ القتال، فصبر بعضُهم لبعضٍ عامّةَ النّهار.

ثمّ إنّ الخوارج شدّت على النّاس أجمعها شدّةً مُنكرةً، فأجفل النّاس وانصاعوا منهزمين لايلوى امرُؤٌ على ولدٍ، حتّى بلغ البصرة هزيمةُ النّاس، وخافوا السّبىَ، وأسرع المهلّبُ حتّى سبقهم إلى مكانٍ يفاعٍ فى جانب سَنَنِ المنهزمين، ثمّ نادى النّاسَ:

- «إلىَّ إلىَّ عباداللهِ!»

فثاب إليه جماعةٌ من قومه، وثاب إليه ساريةُ بن عمان، حتّى اجتمع إليه نحو من ثلاثة آلاف رجلٍ. فلمّا نظر إلى من اجتمع، رَضىَ جماعتَهم، فحمداللهَ وأثنىٰ عليه، ثمّ قال:

- «أمّا بعدُ، فإنّ الله يَكِلُ الجمعَ الكثير إلى أنفسهم فيُهزمون، ويُنزل النّصرَ على الجمعِ اليسير فيَظهرون، ولعمرى مابكم الآن من قلّةٍ، إنّى لجماعتكم لَراضٍ، ولأنتم والله أهلُ الصّبر وفرسانُ أهل المصر، وما أحبُّ أنّ أحدًا ممّن انهزم معكم. لوكانوا فيكم مازادوكم إلاّ خبالاً. عزمتُ على كلّ امرئٍ منكم لمّا أخذ عشرة أحجار معه، ثمّ امشوا بنا نحو معسكرهم، فإنّهم الآن آمنون [174] وقد خرجت خيلُهم فى طلب إخوانكم، فوالله إنّى لأرجو ألاّ ترجع خيلُهم حتّى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم.»

فقبلوا منه وفعلوا ما أمرهم به، ثمّ أقبل بهم زحفًا، فلا والله ماشعرت الخوارج إلاّ بالمهلّب يضاربهم فى جانب عسكرهم، ثمّ استقبلوا عبيدالله بن الماحوز وأصحابَه وعليهم السّلاح والدّروع كاملاً، فيأخذ الرّجل من أصحاب المهلّب يستعرض وجه الرّجل بالحجارة فيرميه حتّى يُثخنه، ثمّ يطعنه برمحه، ويُضاربه بسيفه، فلم يُقاتلهم إلاّ ساعةً حتّى قُتل عبيدالله بن الماحوز، وضرب الله وُجوهَ أصحابه، وأخذ المهلّبُ عسكرَ القوم ومافيه، وقُتل الأزارقة قتلاً ذريعًا، وأقبل من كان فى طلب أهل البصرة منهم راجعًا وقد وضع لهم المهلّب خيلاً ورجالاً فى الطّريق

تختطفهم وتقتلهم. فـانكفأوا راجعين مفلولين مغلوبين، فـارتفعوا إلى كرمان وجـانب اصـبهان. وأقام المهلّب بالأهواز، وانصرف الخوارج على تلك الحـال من الفلول وقلّة العـدد حتّى جاءتهم [175] مادّةٌ لهم من قبل البحرين، فخرجوا نحو كرمان وإصبهان، وأقـام المهلّب، فلم يزل ذلك مكانه حتّى جاءَ مصعبُ إلى البصرة، وعزل الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة عنهـا، وكتب المهلّب بالفتح كتابًا بليغًا.

[احتيال المختار وهو فى المحبس]

وفى هذه المدّة الّتى جرىٰ ماحكيناه، كان المختار يحتال من محبسه ويُراسـل الشّـيعة، حتّى اجتمعوا له، فراسله وُجوههم مثل رفاعة بن شـدّادٍ، والمثنّى بن محـرَمة[١]، وسـعد بن حُـذيفة بن اليمان، ويزيد بن أنسٍ، وأحمر بن شُميط[٢]، وعبدالله بن شدّادٍ، وقالوا له:

- «نحن لك بحيث يسرُك، فإن شئتَ أن نأتيك حتّى نُخرجكَ، فعلنا.»

فسُرَّ المختارُ باجتماعهم له وقال:

- «لاتُريدُوا هذا، فإنّى خارج فى أيّامى هذه.»

قال:

وكان المختارُ قد بعث غُلامًا له يُدعىٰ رزينًا، إلى عبدالله بن عُمر يسأله أن يشـفع له، فكتب له عبدالله بن عُمر كتابًا لطيفًا إلى عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمّدٍ يقول فيه:

- «قـد علمتما مابينى وبين المختار بن أبى عُبيدٍ من الصّـهر، فـأقسمتُ عليكما بحـقّ مابينى وبينكما لمّا خلّيتما سبيلَه.»

فلمّا قرَءَا كتابَه، أرسلا إلى المختار [176] وكفّلاهُ من قومٍ، وحلّفـاه بالّذى لاإله إلاّ هو عالم الغيب والشّهادة، لايبغيهما غائلةً، ولايخرج عليهما ماكان لهما سلطان، فإن هو فَعـلَ فعليه ألفُ بدنةٍ ينحرها لدى رتاج الكعبة ومماليكهُ كلُهم ذَكَرُهم وأُنثاهم أحرارٌ. فحلف لهم بذلك.

فكان المختار بعد ذلك يقول:

- «قاتلهم الله، ماأحمقهم حين يَروَن أنّى أفـى لهـم باليمين الّتى حلّفـونيها. أمّا يمينى لهـم بالله، فإنّه ينبغى لى إذا حلفتُ على يمينٍ، فـرأيتُ ما هو خيرُ منهـا، أن أدعَ ماحلفـتُ عليه، وآتىَ

---

١) محرَمة: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٥٩٩:٨): والمثنّى بن مخرّبة العبدى.

٢) شُميط (بالشين المعجمة): كذا فى الأصل. وفى مط: سميط، بالسين المهملة.

الّذى هو خيرٌ، وأُكفِّرَ عن يمينى، وأمّا هذه البدنةُ فـأهون علىَّ من بَصـقةٍ، وما ثمن ألف بدنةٍ مِمّا يَهولُنى، وأمّا عِتقُ مَوالىَّ، فواللهِ، لَوددتُ أنّه قد استتبَّ لى أمرى ثمَّ لم أملِك مملوكًا أبدًا.»

ثمَّ اختلفت الشيعة إلى المختار، ولم يزل يُبايعُ له ويَقوىٰ أمرُه حتّى عزل ابنُ الزُّبير عبدَالله بن يزيد، وإبراهيم بن محمَّد، وبعـث عبدَالله بن مُطيعٍ على عملهما إلى الكـوفة، فقـدِمَ عبدالله بن مُطيعٍ، [177] وطلب المختار، وبعـث إليه من يَثِقُ به ليأتيه به، فتمارض المختار، وألقـى عليه قطيفةً وجعل يتقفقفُ[1]. فأقبل صاحبُ عبدالله بن مُطيعٍ وأخبرهُ بعلّتِه، فصدَّقهُ، ولَهِىَ عنه. وبعـث المختار إلى أصحابه، فأخذ يجمعهم فى الدُّور حولَهُ ويُواطِئُ أصـحابَه على الوثوب بالكـوفة فـى المحرَّم ويدعوهم إلى المَهدىّ محمّد بن الحنفيّة، ويزعم أنّه وزيرُه وخليلُه والشّيعةُ مجتمعةٌ له.

فتلاقى القومُ يومًا، فاجتمع رُؤساؤهم فى منزل سعر بن أبى سعر الحنفىّ وفيهـم عبدالرحمن بن شُريحٍ، وكان عظيم الشّرف، وسعيدُ بن مُنقـذٍ، والأسـودُ بن جـراد[2]، و قـدامةُ بن مالك الجُشَمىُّ، وقالوا:

- «إنَّ المختار يُريد أن يخرج بنا وقـد بايعناه، ولاندرى: أرسـله إلينا محمَّد بن الحنفيّة أم لا؟ فـانهضوا بنا إلى ابن الحنفيّة، فلنُخبرهُ بما قـدم علينا وما دعانا إليه، فـإن رخَّص لنا فـى اتّباعه اتَّبعناهُ، وإن نهانا عنه اجتنبناه.»

فخرجوا، فلحقوا بابن الحنفيّة وإمامُهم عبد الرَّحمن بن شُريح.

قال الأسود بن جراد: فقلنا لابن الحنفيّة: [178]

- «إنَّ لنا إليك حاجةً.»

قال:

- «أ فَسِرٌ هى، أم علانيةٌ؟»

فقلنا:

- «لا، بل هى سِرٌ.»

قال:

- «فرويدًا إذًا.»

---

١) تَقفقف: اصطكّت أسنانُه واضطرب حَنكاه من البَردِ وغيره.

٢) جراد: كذا بالأصل. وفى مط: حرار. وما فى الطبرى (٨:٦٠٥): جَرّاد (بالتشديد).

فمكث قليلاً، ثمّ تنحّى عن مجلسه، وانفرد. فدعانا، فقمنا إليه، فبدأ عبدالرّحمن بن شُريح، فحمدالله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّكم أهل بيتٍ خصّكم الله بالفضيلة، وشرّفكم بالنّبوّة، وعظّم حقّكم على هذه الأمّة، فلا يجهل حقّكم إلاّ مغبون الرّأى، منحوس النّصيب، وقد أصبتم بالحسين ـ رحمة الله عليه ـ فخَصّتكم مصيبتُهُ وقد عمّت المسلمين. وقدم علينا المختار يزعم أنّه قد جاءنا من تلقائكم، و دعانا إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، وإلى الطّلب بدماءِ أهل البيت، والدّفع عن الضّعفاءِ، فبايعناهُ على ذلك، ثمّ رأينا أن نأتيَكَ فنذكر لكَ مادعانا إليه، فإن أمرتَنا باتّباعه اتّبعناهُ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناهُ.»

ثمّ تكلّمنا واحدًا واحدًا وهو يستمع، حتّى إذا فرغ من الاستماع وفرغنا من الكلام، حمد الله وأثنىٰ عليه، وصلّى على النّبىّ محمّدٍ ـ صلّى الله عليه ـ [179] ثمّ قال:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّكم ذكرتم ماخصّنا الله به من فضله، وإنّ الله يُؤتيهِ مَن يشاءُ واللهُ ذو الفَضل العظيم، فله الحمدُ. أمّا ماذكرتم من مصيبتنا بالحسين، فإنّ ذلك كان فى الذّكر الحكيم، وهى مَلحَمَةٌ كُتبت عليه، وكرامةٌ أهداها الله له، رفع الله بماكان منها درجاتِ قومٍ عنده، ووضع بها آخرين، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا. وأمّا ماذكرتم من دُعاءِ مَن دَعاكم إلى الطّلب بدمائنا، فوالله، لَوددتُ أنّ الله انتصرلنا من عدوّنا بمن شاءَ من خلقه، أقول قولى هذا وأستغفرالله لى ولكم.»

قال: فخرجنا من عنده ونحن نقول: قد أذن لنا، ولو كره لَقال: لاتفعلوا!.

قال: فجئنا وقومٌ من الشّيعة ينتظرون مقدمنا مِمّن كُنّا أعلمناهُ مَخرجَنا وأطلعناهُ على ذات أنفسنا ممّن كان على رأينا من إخواننا، وقد كان بلغ المختارَ مَخرجُنا، فشقّ ذلك عليه، وخَشِيَ أن نأتيه بأمر يخذّل الشّيعةَ عنه، وكان قد أرادهم على أن ينهض بهم قبل مقدمنا [180] فلم يتهيّأ له ذلك، فلم يكن إلاّ شهرًا وزيادة شىء حتّى أقبل القوم على رواحلهم، ودخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم، فقال لهم:

ـ «ماوراءَكم؟ قد فُتِنتم وارتبتم؟»

فقالوا له:

- «قد أمرنا بنصرتك.»

فقال:

- «الله أكبر[١]، أنا أبو اسحاق، اجمعوا لى الشيعة.»

فجُمع له منهم من كان قريبًا، فقال:

- «يا معشر الشيعة، إنّ نفرًا منكم أحبّوا أن يعلموا مصداقَ ما جئتُ به، فرحلوا إلى إمام الهدى، والنّجيب المرتضى، وابن خير من مشى، حاشى النّبىّ المصطفى، فسألوهُ عمّا قدمت له عليكم، فنبّأهم أنّى وزيرُه وظهيرهُ ورسولُه وخليلُه وأمركم باتّباعى وطاعتى.»

فقام عبدالرحمن بن شريح فقال:

- «يا معشر الشيعة، إنّا كنّا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصّةً، ولجميع إخواننا عامّةً، فقدمنا على المهدىّ بن علىّ، فسألناهُ عن حربنا، وعمّا دعانا إليه المختار منها، فأمرنا بمظاهرته ومؤازرته، فأقبلنا طيّبةً أنفسُنا، منشرحةً صدورُنا، قد أذهب الله منها الشكّ والغِلّ والرّيب، واستقامت لنا بصيرتنا [181] فى قتال عدوّنا، فليُبلغ هذا شاهدُكم غائبكم، واستعدّوا، وتأهّبوا.»

ثمّ جلس وقُمنا رجلا رجلاً، فتكلّمنا بنحو من كلامه، فاستجمعت له الشّيعة، وحدبت[٢] عليه.

ذكر رأى سديد أشير به على المختار
وماكان من تأتّى المختار له حتّى تمّ له كما أحبّ

قال عامرُ الشّعبى: كنتُ أنا وأبى أوّل من أجاب المختار، فلمّا تهيّأ أمره ودنا خروجه. قال له أحمر بن شُميط، ويزيد بن أنس، وعبدالله بن شدّاد:

- «إنّ أشراف أهل الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع، ونحن نضعف عنهم، فلوجاء مع أمرنا إبراهيم بن الأشتر رجونا بإذن الله، القُوّةَ على عدوّنا، فإنّه فتىً بئيس[٣] وابن رجل

١) الله اكبر: كذا فى الأصل. وما فى مط: الله (بدون اكبر).

٢) حدبت: كذا فى الأصل. وما فى مط: حدقت. حدِبَ عليه: تعطّف وحَنا.

٣) بئيس: الكلمة غير واضحة فى الأصل، فاثبتناها كما فى الطبرى ٦٠٩:٨. وما فى مط: فتى عشيرته. وفى الكامل: رئيس (حواشى الطبرى ٦٠٩:٨). والبئيس والبئس: الشّجاع. من قولهم: بَؤُسَ يبؤُس، اى: اشتدّ و شجع.

شريفٍ بعيد الصّوت، وله عشيرة ذات عزٍ وعددٍ.»

فقال لهم المختار:

[المختار يُرسل إلى ابن الأشتر ويدعوه]

ـ «فالقوهُ وادعُوه وأعلِمُوه ما أمرنا به من الطّلب بدم الحسين.»

قال الشّعبى: فخرجوا إليه وأنا [فيهم وأبى وتكلّم][١] [182] يزيد بن أنس، فقال له:

ـ «إنّا قد أتيناك فى أمرٍ نعرضه عليك وندعوك إليه، فإن قبلتَه كان خيرًا لك، وإن تركته فقد أدّينا إليك النّصيحة، ويجب أن تكون عندك مستورًا.»

فقال له ابراهيم بن الأشتر:

ـ «مِثلى لاتُخاف غائلتُهُ وسعايتُهُ، ولا التّقرُب إلى السّلطان باغتياب النّاس، وإنّما أولئك، الصّغارُ الأخطار الدّقاق هِمَمًا.»

فقالوا له:

ـ «إنّا ندعوك إلى أمرٍ قد أجمع رأىُ الملأ من الشّيعة، كتاب الله، وسنّة نبيّه، والطّلب بدماء أهل البيت، والدّفع عن الضُعفاء.»

وتكلّم أحمر بن شُميط، فقال له:

ـ «إنّى ناصحٌ ولحظّكَ مُحبٌ، وإنّ أباك قد هلك وهو سيّد النّاس، وفيك منه خلفٌ إن رَعيتَ حقّ الله وقد دعوناك إلى أمرٍ إن أجَبْتَنا إليه عادت لك منزلةُ أبيك فى النّاس، وأحييتَ أمرًا قد مات. إنّما يكفى مثلك اليسير حتّى يبلغ الغايةَ الّتى لا مذهبَ وراءَها.»

ثمّ أقبل عليه القوم يدعونه ويُرَغّبونَهُ.

فقال لهم إبراهيم:

ـ «فإنّى أجيبكم إلى الطّلب بدم الحسين وأهل بيته على أن تولُونى الأمر.»

فقالوا:

ـ «أنت لذلك أهلٌ [ولكن][٢] ليس إلى ذلك سبيلٌ. هذا المختارُ قد جاءنا من قبل المهدىّ، [183] وهو الرّسول والمامور بالقتال، وقد أمرنا بطاعته.»

---

١) مابين المعقوفتين مطموسٌ فى الأصل، فاثبتناه كما فى مط والطبرى.

٢) ولكن: مطموسةٌ فى الأصل و ماخوذة من مط.

فسكت عنهم ابن الأشتر ولم يُجبْهم، وانصرفنا من عنده إلى المختار وأخبرناهُ، فغبر ثلاثًا.

ثمّ إنّ المختار دعا بضعة عشر رجلاً من وُجوه أصحابه ـ قال الشّعبى ـ وأنا وأبى فيهم، فسار بنا، ومضىٰ أمامنا يقدُ بنا بيوت الكوفة قدًا لاندرى اين يُريد، حتّى وقف بنا على باب إبراهيم بن الأشتر، فاستأذنّا عليه، فأذن لنا، وأُلقيت لنا وَسائدُ، فجلسنا عليها، وجلس المختار معه على فراشه.

فقال المختار بعد أن حمدالله وأثنى عليه، وصلّى على محمّدٍ صلّى الله عليه:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّ هذا كتابٌ إليك من المهدىّ محمّد بن علىٍّ أمير المؤمنين الرِّضا، وهو اليوم خير أهل الأرض، و ابنُ خير أهل الأرض كلّها قبل اليوم بعد الأنبياء، وهو يسالك أن تنصرنا وتؤازرنا، فإن فعلتَ اغتبطت، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجّةٌ عليك، وسيُغنى الله المهدىّ محمّدًا وأولياءَهُ عنك.»

قال الشّعبى: وكان المختار قد دفع الكتاب إلىّ حين خرج من منزله، فلمّا قضىٰ كلامَه قال لى:

ـ «إدفع الكتاب [184] إليه.»

قدفعتُه إليه، فدعا بالمصباح، وفضّ خاتمَهُ، ثمّ قرأ فإذا هو:

ـ «بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد المهدىّ إلى إبراهيم بن الأشتر، سلامٌ عليك، فإنّى أحمد إليك الله الّذى لاإلهَ إلاّ هو. أمّا بعدُ، فإنّى قد بعثتُ إليكم بوزيرى وأمينى ونجيبى الّذى ارتضيتُ لنفسى المختارَ، وقد أمرتُه لقتالِ عدوّى والطّلب بدماءِ أهل بيتى، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومَن أطاعك، فإن نصرتنى وأجبتَ دعوتى وساعدتَ وزيرى كانت لك به فضيلةٌ عندى، ولك بذلك أعِنّةُ الخيل، وكلُّ جيشٍ غازٍ، وكلُّ مِصرٍ ومنبرٍ وثغرٍ ظهرتَ عليه فى مابين الكوفة وأقصى بلاد الشّام، علىّ بالوفاءِ به، عهدُ الله وميثاقُه، فإن فعلتَ نِلتَ به عندالله أفضل الكرامة، وإن أبيتَ هلكتَ هلاكًا لاتستقيله[1]. والسّلام.»

---

۱) لاتستقيله: كذا فى الأصل. وفى مط: تستقيله.

فلمّا قرأ إبراهيم الكتابَ، قال:

ـ «قد كتبَ إلىَّ محمَّد بن الحنفيّة وكتبتُ إليه قبل اليوم، فماكان يكتب إلىَّ إلاَّ باسمه واسم أبيه.»

قال له المختار:

ـ «إنَّ ذلك زمانٌ وهذا زمانٌ.»

قال إبراهيم:

ـ «فمَن يعلم أنَّ هذا كتاب [185] محمَّد بن الحنفيّة إلىَّ؟»

فقال له يزيد بن أنس، وأحمر بن شُميط وعبدالله بن كامل، وجماعةٌ.»

ـ «نشهدُ كُلُّنا أنَّ هذا كتابُ محمَّد بن الحنفيّة.»

[إبراهيم بن الأشتر يبايع المختار]

قال الشّعبىُّ: فشهدوا كلُّهم إلاَّ أنا وأبى. قال: فتأخَّر عند ذلك إبراهيم عن صدر الفراش، وأجلس المختارَ عليه، وقال:

ـ «أبسطْ يدَكَ أبايعك.»

فبسط المختار يَدَهُ، فبايعه. قال الشّعبى: ثمَّ دعا لنا بفاكهةٍ، فأصبنا منها، ودعا لنا بشرابٍ من عسلٍ، فشربنا، ثمَّ نهضنا وخرج معنا ابن الأشتر، فركب المختار، وركب معه حتّىٰ دخل رحلَهُ.

فلمّا رجع إبراهيم منصرفًا أخذ بيدى، فقال لى:

ـ «إنصرف بنا يا شعبىُّ.»

قال: فانصرفتُ معه، ومضى بى حتّى دخل رحلَه، وقال:

ـ «ياشعبىُّ، إنّى قد حفظتُ أنّك لم تشهدْ أنت ولا أبوك. أفترى هؤلاءِ شهدوا على غيرحقٍّ؟»

قال، فقلت:

ـ «قد شهدوا على ما رأيت، وهم سادةُ القُرّاءِ، ومشيخة المصر، وفرسان العرب، ولا أرىٰ مثل هؤلاءِ يقولون إلاَّ حقًّا.»

قال:

فوالله، لقد قُلتُ هذه المقالة وأنا لهم مُتَّهِمٌ[1] على شهادتهم، غير أنّى يُعجبنى الخروجُ وأنا

١) متّهم: كذا فى الأصل. وما فى مط: منهم!

أرىٰ رأىَ القومِ، وأُحبُ تمامَ ذلك الأمر، فلم أُطلِعْهُ على ما في نفسي من ذلك. [186]

فقال لي إبراهيم بن الأُشتر:

- «أُكتبْ لي أسماءَهم، فإنّي ليس كلُّهم أعرفُ.»

ودعا بصحيفةٍ، ودَواةٍ، فكتب فيها:

- «بسـم الله الرَّحمن الرَّحيم. هذا ماشـهد عليه السّائب بن مالكٍ الأشـعرى، وزيد بن أنسٍ الأسدىَ، وأحمر بن شُميطٍ الأَحمسىَ، ومالك بن عَوفٍ النَّهدىَ.. (حتّى أتىٰ على أسـماءِ القـوم، ثمَّ كتبَ:) شـهدوا أنَّ محمَّد بن علىٍّ كتب إلى إبراهيم بن الأشـتر يأمرهُ بموازرة المختار ومظاهرته على قتال المُحِلّين، والطَّلب بدماءِ أهل البيت، وشهد على هؤلاءِ النَّفـر الّذين شـهدوا بهذه الشَّهادة شـراحيل بن عبدالله، وهو أبو عامر الشّـعبىُّ الفقيه، وعبدالرَّحمن بن عبدالله محمَّد النَّخَعىَ، وعامر بن شراحيل الشعبىَ.»

فقلت:

- «ماتصنع بذلك - رحمك الله - فقال:

- «دَعْهُ يكونُ.»

قال: ودعا إبراهيم عشيرتَه وإخوانه ومَن أطاعه، وأقبلَ يختلف إلى المختار.

[خروج المختار]

قال هشامٌ، قال أبو مخنفٍ:

فكان إبراهيم يروح كلَّ عشيّةٍ عند المساءِ إلى المختار، فيمكثُ عندهُ حتّى تصوبَ النُّجوم، ثمَّ ينصرف. فمكثوا بذلك يدبُّرون أمرهم، حتّى اجتمع رأيُهـم على أن يخـرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأوَّل [187] سنة ستٍّ وستّين، و وَطَّن على ذلك شيعتَهم ومَن أجابهم.

فلمّا كان عند غروب الشَّمس، قام إبراهيم بن الأشتر، فأذَّن، ثمَّ استقدم، فصلّى بنا المغـربَ، ثمَّ خرج بنا بعد المغرب حين قلت: أخوك أو الذِّئبُ[١]، وهو يريد المختار، فأقبلنا علينا السِّلاحُ.

[ماكان من قبل عبدالله بن مطيع]

وقد كان أتىٰ إياسُ بن مضاربٍ عبدَالله بن مطيعٍ، فقال له:

---

١) أخوك أو الذئبُ: كذا في الأصل والطبرى ٦١٣:٨. وما في مط: احول الذب. (باهمال الحرفين الأخيرين).

ـ «إنَّ المختار خارجٌ إحدى اللَّيلتين.»

فخرج إياسُ فى الشُرطة، وكان إياسُ أشار على ابن مطيع، فقال له:

ـ «قد بعثتُ ابنى إلى الكُناسة، فابعث فى كلّ جبَّانةٍ[١] عظيمة بالكوفة رجلاً من أصحابك فى جماعةٍ من أهل الطَّاعةِ ليهابَ المريبُ الخروجَ عليك.»

فبعث ابن مطيعٍ عبدَ الرَّحمن بن سعيد بن قيسٍ إلى جبَّانة السَّبيع، وقال:

ـ «إكفِنى قومَكَ، ولا أُوتَيَنَّ من قِبلِكَ.»

وبعث بجماعةٍ يجرون مجراهُ إلى الجبابين[٢] و وصَّاهم أن يكفيه كلُّ رجلٍ قومَهُ، وأن يحكم الوجه الَّذى وجَّهه فيه، وبعث شبث بن ربعى إلى السَّبخة، وقال:

ـ «إذا سمعتَ صوت القوم توجَّهْ نحوهم.»

فكان هؤلاءِ قد خرجوا يوم الاثنين، فنزلوا الجبابين، وخرج إبراهيم بن الأشتر من رحله بعد [188] المغرب يريد إتيان المختار وقد بلغه أنَّ الجبابين قد حُشيتْ رجالاً وأنَّ الشُرَطَ قد أحاطت بالسُّوق والقصر.

فقال حميد بن مسلم ـ وكان صديقًا لإبراهيم بن الأشتر يصير كلَّ ليلةٍ إلى المختار: خرجتُ مع إبراهيم من منزله بعد المغرب ليلة الثُّلاثاءِ حتَّى مررنا بدار عمرو بن حُريثٍ ونحن مع ابن الأشتر كتيبةٌ نحو مائةٍ، علينا الدُّروعُ قد كفَّرنا عليها بالأقبية ونحن متقلِّدو السُّيوف ليس معنا سلاحٌ غيره، فقلت لإبراهيم:

ـ «خُذ بِنا فى الأزقَّة وتجنَّبِ السُّوقَ.»

وأنا أرى أنَّه يأخذ على ناحية بجيلة[٣] ويخرج إلى دار المختار، فلا يلقانا مَن نكترث له.

وكان إبراهيم فتًى حدثًا شجاعًا فكان لايكره أن يلقاهم، فقال:

ـ «والله، لأمُرَّنَّ على دار عمرو بن حُريثٍ إلى جانب القصر وسط السُّيوف، فلأرعِبَنَّ عدوَّنا ولأرينَّهم هوانهم علينا.»

قال: فأخذنا على باب الفيل، ثمَّ على دار عمرو بن حُريثٍ حتَّى إذا جاوزناها لقِينا إياسَ بن مُضاربٍ فى الشُرطة مُظهرين السِّلاحَ، فقال لنا:

---

١) الجبانة، ج جبابين: مااستوى من الأرض فى ارتفاعٍ، ولاشجرفيه. المقبرة. الصَّحراء.

٢) فى الأصل: الجبَّانين (بالنونين) وهو خطأ.

٣) بجيلة: كذا فى الأصل والطبرى ٨:٦١٥. فى مط: نخيلة.

- «من أنتم؟» فقال:
- «إبراهيم بن الأشتر.»

فقال له ابن مضارب:

- «ماهذا الجمع الّذى معك، وماتُريد؟ والله إنّ [189] أمرك لمريبٌ، ولقد بلغنى أنّك تمرّ كلّ عشيّة هاهنا، وما أنا بتاركك حتّى آتى بك الأميرَ، فيرى فيك رأيَهُ.»

فقال إبراهيم:

- «لاأبًا[1] لغيرك، خلّ سبيلَنا.» قال:
- «كلاّ والله، لاأفعل.»

ومع إياس، رجل من هَمْدان يُقال له: أبوقَطَن، كان يصحب أمَراءَ الشُرطة، فهم يكرمونه ويوثرونه وكان صديقًا لابن الأشتر، فقال ابن الأشتر:

- «يا با قَطَن، أَدْنُ منّى.»

ومع أبى قَطَن، رمح طويل، فدَنا أبوقطن منه ومعه الرُمح وهو يَرىٰ أنّ ابن الأشتر يطلب إليه أن يشفع له إلى ابن مضارب، لِيُخلّىَ سبيلَهُ. فقال إبراهيم، وتناول الرُمح من يده:

- «إنّ رمحك هذا لطويلٌ.»

ثمّ حمل به إبراهيم بن الأشتر على ابن مضارب، فطعنه فى ثغرة نَحره، فصرعه، وقال لرجل من قومه:

- «إنزل، فاحتزّ رأسَه.»

فنزل إليه، فاحتزّ رأسَه، وتفرّق أصحابُه، ورجعوا إلى ابن مطيع. فبعث ابن مطيع ابنَه راشدًا مكانَ أبيه على الشُرط، وبعثَ مكان راشد بن إياس سُويدَ بن عبدالرّحمن المنقرىَ تلك اللّيلة، وأقبل إبراهيم الأشتر إلى المختار ليلة الثّلاثاء، فدخل عليه، فقال له إبراهيم:

- «إنّا اتّعدنا للخروج ليلةَ الخميس [190] وقد حدث أمرٌ لابُدَّ من الخروج اللّيلةَ.»

قال المختار:

- «وما هو؟» قال:
- «عرض لى إياسُ بن مضارب فى الطّريق ليحبسنى بزعمه، فقتلتُه وهذا رأسُه مع أصحابى على الباب.»

---

١) لاأبا لغيرك: كذا فى الأصل والطّبرى ٨:٦١٥. وما فى مط: لاأبًا لغيرك!

فقال المختار:

ـ «فبشّرك الله بخير، فهذا طائرٌ صالحٌ، وهو أوّل الفتح، إن شاءَ اللهُ.»

ثم قال المختار:

ـ «قُم يا سعيد بن منقذ، فأشعِل النّارَ فى الهرادىّ، ثمّ ارفعها للمسلمين، وقُمْ يا عبدالله بن شدّادٍ، فنادِ: يا منصورُ أمِتْ، وقُمْ أنت يا قدامة بن مالك، فنادِ: يالَثاراتِ الحسين.»

ثمّ استدعى المختار دِرعَه وسلاحَه، فأُتى به، فلبسه.

فقال إبراهيم للمختار:

ـ «إنّ هؤلاءِ الرؤوس الّذين وضعهم ابن مطيعٍ فى الجبابين، يمنعون إخواننا أن يأتونا ويُضَيّقون عليهم، فلو أنّى خرجتُ بمن معى حتّى آتىَ قومى فيأتينى كلُّ مَن بايعنى منهم، ثمّ سِرتُ بهم فى نواحى الكوفة، ودعوتُ بشعارنا، فخرج إلىّ من أرادَ الخروج إلينا، ومن قدر على إتيانك من النّاس، فمَن أتاك من النّاس حبستَه عندك إلى مَن معك، ولم تفرّقهم، فإن عُوجلتَ وأتيتَ، كان معك مَن تمتنع به، وأنا لوقد فرغتُ من هذا الأمر عجلتُ إليك فى الخيل والرّجال.»

قال له:

ـ «فاعجلْ، [191] وإيّاك أن تسيرَ إلى أميرهم تُقاتله، ولا تُقاتل أحدًا وأنت تستطيع ألاّ تُقاتل، واحفظْ ما وصّيتُكَ به، إلاّ أن يبدأك أحدٌ بقتال.»

فخرج إبراهيم بن الأشتر من عنده فى الكتيبة الّتى أقبل فيها حتّى أتىٰ قومَه، فاجتمع إليه جُلُّ مَن كان بايعه وأجابه. ثمّ إنّه سار بهم فى سكك الكوفة طويلاً وهو يتجنّب السّكك الّتى فيها الأمراء حتّى انتهى إلى مسجد السّكون. فعجلت إليه خيلٌ لزَحْر[١] بن قيس، فشدّ عليهم إبراهيم وأصحابُه، فكشفوهم حتّى انتهوا إلى زَحْر بن قيس، فانصرف عنهم وركب بعضهم بعضًا كلّما لقيهم زقاقٌ دخل فيه منهم طائفةٌ، فانصرفوا يسيرون، ثمّ خرج إبراهيم يسير حتّى انتهى إلى جبّانة أُثير، فوقف فيها طويلاً ونادىٰ أصحابُه بشعارهم، فبلغ سويد بن عبدالرّحمن المِنقرى مكانَهم فى جبانة أُثير، فرجا أن يُصيبهم فيحظى بذلك عند ابن مطيع، فلم يشعر ابن الأشتر إلاّ وهم معه فى الجبّانة.

فلمّا رأى ذلك ابن الأشتر قال لأصحابه:

ـ «يا شُرطة الله انزلوا إلى هؤلاءِ الفُسّاق الّذين خاضوا فى دماءِ أهل بيت رسول الله، صلّى

١) زَحْر بالحاء المهملة: كذا فى الأصل والطبرى ٨:٦٥٢ وما فى مط: زجر، بالجيم المعجمة.

الله عليه.»

فنزلوا، ثمّ شدّ عليهم إبراهيم [192] فضربهم حتّى أخرجهم إلى الصّحراء، و ولّوا منهزمين يركب بعضهم بعضًا وهم يتلاومون، فيقول قائلٌ منهم:

- «إنّ هذا لأمرٌ[1] يُراد، مايلقَون لنا جماعةً إلاّ هزمونا.»

ولم يزل إبراهيم يهزمهم حتّى أدخلهم الكناسة.

وقال أصحاب إبراهيم لإبراهيم:

- «إتّبعهم واغتنم ماقد دخلهم من الرُعب، فقد علم الله إلى مَن تدعو وماتطلب، وإلى مايدعون وما يطلبون.» قال:

- «لا، ولكن سيروا بنا إلى صاحبنا حتّى يؤمن الله بنا وحشتَه ويكون من أمره على علمٍ، ويعرفَ هو أيضًا ماكان من غَنائنا[2] فيزدادَ هو وأصحابه قوّةً وبصيرة إلى قُواهم وبصائرهم، مع أنّى لا آمَنُ أن يكون قد أُتِىَ.»

فأقبل إبراهيم فى أصحابه، فلمّا أتىٰ دار المختار وجد الأصوات عاليةً والقوم يقتتلون وقد جاء شبث بن ربعى من قِبل السَّبخة، فعبّى له المختار والنّاس يقتتلون، وجاءَ إبراهيم من قِبل القصر، فبلغ حجّارًا وأصحابَه أنّ إبراهيم قد جاءَهم من ورائهم، فتفرّقوا قبل أن يأتيهم إبراهيم وذهبوا فى الأزقّة والسّكك، وحملت طائفةٌ من أصحاب المختار على شبث بن ربعىٍ وهو [193] يقاتل يزيد بن أنسٍ، فخلّى لهم الطّريق حتّى اجتمعوا جميعًا. ثمّ اضطرّ شبثٌ إلى أن ترك لهم السّكّة.

وأقبل شبثٌ حتّى أتى ابن مطيعٍ، فقال له:

- «إبعث إلى أمراءِ الجبابين[3] ليأتوك، فاجمع إليك جميع النّاس، ثمّ انهد إلى هؤلاءِ القوم فقاتلهم، وابعث إليهم مَن تثِقُ به فليكفِكَ قتالَهم، فإنّ أمر القوم قد قوى وقد ظهر المختار، واجتمع له أمره.»

وبلغ ذلك المختارَ من مشورة شبثٍ على ابن مطيعٍ، فخرج فى جماعةٍ من أصحابه حتّى نزل فى ظهر دير هندٍ ممّا يلى بُستانَ زائدة فى السَّبخة، وخرج أبوعثمان النّهدى، فنادى فى شاكر وهم مجتمعون فى دورهم يخافون أن يظهروا فى الميدان لِقرب كعب بن أبى كعبٍ منهم. وكان

١) فى الأصل ومط: إنّ هذا الأمر، فأثبتنا العبارة كما فى الطبرى ٦١٨:٨.
٢) غنائنا (بالغين المعجمة.) كذا فى الأصل ومط وحواشى الطبرى. وما فى الطبرى: عنائنا، بالعين المهملة.
٣) فى الأصل: الجبّانين. وما أثبتناه يوافق مط والطبرى ٦١٩:٨.

كعبُ هذا قد أخذ عليهم بأفواه السِّكك حين بلغه أنّهم يخرجون، وسدّ طرقهم. فلمّا أتاهم أبوعثمان النّهدى فى عصابةٍ من أصحابه، نادى:

ـ «ياألثاراتِ الحسين، يا منصورُ أمِتْ، يا أيُّها الحىُّ المهتدون، ألا إنّ أمين[١] آل محمّدٍ قد خرج، فنزل دير هندٍ، وبعثنى داعيًا ومبشّرًا، فاخرجوا [194] إليه، رحمكم الله.»

فخرج القوم من الدُّور يتداعون:

ـ «يا لَثاراتِ الحسين.»

ثمّ ضاربوا كعب بن أبى كعبٍ حتّى خلّى لهم الطّريق، فأقبلوا إلى المختار حتّى نزلوا معه فى عسكره، وخرج عبدالله بن قُرادٍ فى جماعةٍ من خثعم نحو المائتين، حتّى لحق بالمختار، ونزلوا معه فى عسكره وقد كان عرض لهم كعب بن أبى كعبٍ، فلمّا عرفهم ورأى أنّهم قومُه خلّى عنهم ولم يُقاتلهم، وخرجت شبامُ إليهم فتوافىٰ إلى المختار ثلاثة آلاف وثمانمائةٍ من جملة اثنى عشر ألفًا كانوا بايعوه، فاستجمعوا له قبل انفجار الفجر، فأصبح وقد فرغ من تعبئته.

ثمّ إنّ ابن مطيعٍ بعث إلى أهل الجبابين، فأمرهم أن ينضمُّوا إلى المسجد، وقال لراشد بن إياس بن مضاربٍ:

ـ «نادِ فى النّاس فليأتوا المسجد.»

فنادى المنادى:

ـ «ألا برئَتِ الذّمّةُ من رجلٍ لم يحضر المسجد اللّيلةَ.»

فتوا فى النّاس فى المسجد، فلمّا اجتمعوا، بعث ابن مطيع شَبَثَ بن ربعىٍّ فى نحو ثلاثة آلافٍ إلى المختار، وبعث راشد بن إياسٍ فى أربعة آلافٍ إلى المختار، وبعث راشد بن إياسٍ فى أربعة آلافٍ من الشُّرَط.

فسرّح المختار إبراهيم بن الاشتر قبل راشد بن إياسٍ فى تسعمائة مقاتلٍ، ويقال: [195] فى ستّمائةَ فارسٍ وستّمائةَ راجلٍ، وبعث نُعيم بن هُبيرة أخا مَصقَلة بن هُبيرة فى ثلاثمائة فارسٍ وستّمائة راجلٍ نحو شبثٍ، وقال لهما:

ـ «إمضيا حتّى تلقيا عدوّكما، وإذا لقيتماهم، فانزلا فى الرجال وعجّلا القِراعَ، و ابدءاهم بالإقدام، ولاتستهدفا لهم فإنّهم أكثر منكم، ولاترجعا إلىّ حتّى تَظهرا، أو تُقتَلا.»

فتوجّه إبراهيم بن الأشتر إلى راشدٍ وقدّم المختارُ يزيد بن أنسٍ فى تسعمائةٍ أمامه، وتوجّه

١) أمين: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: أمير.

نُعيم بن هُبيرة قِبَلَ شبثٍ.

فقال سغر بن أبى سغر: لمّا انتهينا إلى شبثٍ قاتلناهُ قتالاً شديدًا، فجعل نعيم بن هبيرة يُضاربهم حتّى أشرقت الشّمس، وضربناهم حتّى أدخلناهم البيوتَ، فسمعتُ شبث بن ربعىّ ينادى أصحابه:

- «ياحُماة السُوءِ، بِئسَ فُرسان الحقائق أنتم، أ من عبيدكم تهربون؟»

قال: فثابت إليه منهم جماعةٌ، فشدُّ علينا وقد تفرّقنا وهُزمنا. فصبر نعيم بن هبيرة فقُتل، ونزل سغر بن أبى سغر فأسر، [وأسرتُ أنا][1] وأسر خُليدُ مولى حسّان، وأسر أبوسعيد الصّيقل.

قال: فسمعتُ أبا سعيد الصّيقل هذا يقول: سمعتُ شبث بن ربعى يقول لخليدٍ:

- «مَن أنتَ؟» قال:

- «خُليدُ مولى حسّان.»

فقال [196] له شبثُ:

- «يَابنَ المَتكاءِ، تركتَ بيعَ الصَّحناءِ[2] بالكناسة، وكان جزاءُ مَن أعتقك أن تعدوَ[3] عليهم بسيفك تضرب رقابهم. إضربوا عُنُقَه.»

فقُتلَ، ورأى سغرًا الحنفىَّ، فعرفه، فقال:

- «أخو بنى حنيفة؟» فقال:

- «نعم.»، قال:

- «ويحك! ما أردتَ إلى اتّباع هؤلاءِ السّبائيّة، قبّح الله رأيَك؟ دَعُوا ذا.»

فقلتُ فى نفسى: قتلَ المولىٰ وترك العربىَّ، إن علم أنّى مولىً قتَلَنى، فلمّا عُرِضتُ عليه، قال: «مَن أنتَ؟» فقُلتُ:

- «من بنى تيم الله.»، قال:

- «أ عربىٌّ أنتَ أم مولىً.»، فقلتُ:

- «لا، بل عربىٌّ، أنا من آل زياد بن أبى حفصة.»، فقال:

- «ذكرت الشّرفَ المعروفَ، إلحَقْ بأهلك.»

---

١) مابين [ ] تكملةٌ من الطبرى ٨:٦٢٣.

٢) الصَّحناء: كذا فى الأصل. وفى مط: الصحنا. وما فى الطبرى: الصحناة. والصَّحناءُ: الصَّحناة: إدامٌ يُتّخذ من السّمك الصّغار المملّح.

٣) فى الأصل: تعدوا (بالألف). وفى مط تغدو (بالغين المعجمة.) وما أثبتناه يطابق الطبرى.

فأقبلتُ حتّى انتهيت إلى الحمراءِ، وكانت لى بصيرةٌ فى قتال القوم، فجئتُ إلى المختار، وقد وضعتُ فى نفسى أن آتى أصحابى حتّى أقتل معهم أو أظفر بظفرهم.

قال: فأتيتُه وقد سبقنى إليه سعرُ الحنفىّ وجاءَهُ قتلُ نُعيمٍ وأقبلتْ إليه خيل شبث، فدخل من ذلك أصحابَ المختار أمرٌ كبيرٌ.

قال: فدنوتُ من المختار، فأخبرتُه بماكان من أمرى، فقال لى:

ـ «أسكت، فليس هذا بمكان الحديث.»

وجاءَ شبثُ [197] حتّى أحاط بالمختار وبيزيد بن أنسٍ، وكان ابن مطيعٍ أنفذ ابن رُوَيمٍ فى ألفين من قِبَل سِكّة لحّامٍ، فوقفوا فى أفواه تلك السِّكك، وجعل المختار يزيدَ بن أنسٍ على خيله، وخرج هو فى الرَّجّالة.

قال: فحملتْ علينا خيلُ شبث حملتين فمايزول رجلٌ منا من مكانه، فقال يزيد بن أنسٍ لنا:

ـ «يا معشر الشيعة، قد كنتم تُقتلون، وتُقطع أيديكم وأرجُلكم وتُسمل عُيونكم، وتُرفعون على جذوع النّخل فى حُبِّ أهل بيتِ [نبيّكم][1] وأنتم مقيمون فى بيوتكم وطاعةِ عدوّكم، فما ظنُّكم بهؤلاءِ القوم إن ظهروا عليكم اليوم، إذًا والله لايَدَعون منكم عينًا تَطرفُ، وليَقتلُنّكم صبرًا، ولَترَوُنّ فى أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموتُ خيرٌ منه. والله، لايُنجيكم منهم إلاّ الصّدقُ والصّبرُ والطّعنُ الصّائب فى أعينهم، والضّربُ الدّراكُ على هامهم، فتيسّروا لِلشّدةِ، وتهيّأوا للحملة، فإذا حرّكتُ رأسى مرّتين فاحملوا.»

فتهيّأنا، وجثونا على الرُّكب، وانتظرنا أمرَه.

وكان إبراهيم بن الأشتر حين توجّه إلى راشدٍ، لقيه فى مُرادٍ، فإذا معه أربعة آلافٍ، فقال إبراهيم [198] لأصحابه:

ـ «لايهولنّكم كثرةُ هؤلاءِ، فوالله لَرُبَّ رجلٍ خير من عشرةٍ، ولَرُبَّ فئةٍ قليلةٍ غَلَبتْ فئةً كثيرة بإذن الله، والله مع الصّابرين[2].»

ثمّ قال:

ـ «يا خُزيمة بن نصر، سِرْ إليهم فى الخيل.»

---

١) نبيكم: سقطت من الأصل ومط. وأثبتناها كما يقتضيه السّياق وكما فى الطبرى ٨: ٦٢٤.

٢) س ٢ البقرة: ٢٥٠. ولا يخفى أن فى الآية: «كم من فئةٍ...» بدل «ولَرُبَّ فئة...».

ونزل هو يمشى فى الرَّجال، واقتتل النَّاس، فاشتدَّ قتالهم، وبصر خُزيمة[١] بن نصر العبسىُّ براشد بن إياس، فحمل عليه فطعنه فقتله، ثمَّ نادى:

- «قتلتُ راشدًا وربِّ الكعبة.»

وانهزم أصحاب راشدٍ، وأقبل إبراهيم بن الأشتر نحو المختار، وبعث إليه مَن يُبشّره بالفتح عليه. فلمَّا جاءَهم البشير، كبّروا، واشتدَّت أنفسُهم، ودخل أصحابَ ابن مطيعٍ الفشلُ، وسرَّح ابن مطيعٍ حسَّان بن قائد بن بُكير العبسىَّ فى جيشٍ كثيفٍ، فاعترض إبراهيمَ ليردَّه بالسَّبخة، فقدَّم إبراهيمُ خزيمة بن نصر إلى حسَّان بن قائدٍ فى الخيل، ومشىٰ إبراهيم نحوه فى الرَّجال، فانهزموا، وتخلَّف حسَّان بن قائدٍ فى أُخريات النَّاس يحميهم، وحمل عليه خزيمة، فلمَّا رءَاه عرفه، فقال له:

- «ياحسَّان، قد عرفتك، فالنَّجا.»

فعثر لحسان فرسُه، فوقع، فقال:

- «لعًا لك[٢] [199] أبا عبدالله.»

وابتدره النَّاس، فأحاطوا به، فضاربهم ساعةً بسيفه.

فناداه خُزيمة:

- «إنَّك آمنٌ يا باعبدالله، لاتقتل نفسك.»

وجاءَ حتَّى وقف عليه، ونَهْنَهَ النَّاسَ عنه، ومرَّ به إبراهيم.

فقال خزيمة:

- «هذا ابن عمِّى، وقد آمنتُه.»

فقال إبراهيم:

- « أحسنت.»

وأمر خزيمة بفرسه حتَّى أتى به فحمله عليه، وقال:

- «إلحقْ بأهلك.»

---

١) وبصر خزيمة بن نصر العبسىُّ: فى الأصل ومط وفى حواشى الطَّبرى: وبصر نصر بن خزيمة، والظَّاهر أنَّه سهوٌ فى الكتابة. وما فى الطبرى (٨:٦٢٥): وبصر خزيمة بن نصر العبسىّ، كما أثبتناه.

٢) لعًا: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨:٦٢٦): تعسًا. لعًا: صوتٌ معناه الدُّعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته. يُقال: لعًا لفلانٍ، وفى الدُّعاء عليه بالتعس يقولون: لالعًا له.

وأقبل إبراهيم نحو المختار وشبثٌ محيطٌ بالمختار ويزيد بن أنسٍ. فلمّا رَءَاهُ يزيد بن الحارث وهو على أفواه السّكك الّتى تلى السّبخة، أقبل نحوه ليصدّه عن شبث وأصحابه. فبعث إبراهيم طائفةً من أصحابه معَ خزيمة بن نصر، فقال:

ـ «أغنِ عنّا يزيد بن الحارث.»

وصمد هو فى بقيّة أصحابه نحو شبث بن ربعىّ. فلمّا رَءَاه أصحاب شبثٍ، أخذوا ينكصون وراءَهم رويدًا رويدًا، فلمّا دَنا إبراهيم من شبثٍ وأصحابه حمل عليهم، فانكشفوا حتّى انتهوا إلى أبيات الكوفة، وحمل خزيمة بن نصرٍ على يزيد بن الحارث بن رُويم، فهزمه، وازدحم القوم على أفواه السّكك فوق البيوت، وأقبل المختار فى جماعة النّاس إلى يزيد بن الحارث. فلمّا انتهى أصحاب المختار إلى [200] أفواه السّكك، رَمَتْهُ تلك المراميةُ بالنّبل، فصدّوهم عن دخول الكوفة، ورجع النّاس من السّبخة منهزمين إلى ابن مطيع وجاءَ قتل راشد بن إياسٍ، فسُقط فى يديه، فقال عمرُو بن الحجّاج الزُّبيدى لابن مطيع:

ـ «أيُّها الرَّجل لاتُسقط فى خلدك ولاتُلق بيديك[١]، أُخرج إلى النّاس فاندبهم إلى عدوّك، فإنّ النّاس كثير عددهم وكلّهم معك إلّا هؤلاء الطّائفة الّتى خرجت عليك، واللهُ مُخزيها وأنا أوّل منتدبٍ، فاندبْ معى طائفةً ومع غيرى طائفةً.»

فخرج ابن مطيعٍ، فخطب النّاس وحضّهم، وقال فى خطبته:

ـ «أيُّها النّاس، قاتلوا عن حرمكم وعن مصركم، وامنعوا مِن فَيْئكم، والله لئن لم تفعلوا لَيُشاركنّكم فى فَيْئكم مَن لاحقٌ له فيه، والله لقد بلغنى أنّ فيهم من مُحرّريكم خمسمائة رجل عليهم أميرٌ منهم، وانّما ذهابُ عِزّكم وسلطانكم حين يكثرون.»

ثمّ نزل.

وكان يزيد بن الحارث منعهم أن يدخلوا الكوفة، ومضى المختار من السّبخة حتّى ظهر إلى الجبّانة، وقال:

ـ «نِعمَ مكانُ المُقاتل هذا.»

فقال له إبراهيم بن الأشتر: [201]

ـ «قد هزمهم الله وفلّهم، وأدخل الرُّعبَ قلوبَهم وتنزل هاهنا، سِرْبنا، فوالله ما دون القصر

---

١) لاتُسقط فى خلدك ولاتُلق بيدك: كذا فى الأصل. وفى مط:... فى جلدك... وما فى الطبرى (٨:٦٢٧): ولايسقط فى خَلَدك ولاتُلق بيدك.

أحدٌ يمنع، لِيقُمْ هاهنا كلُّ شيخٍ ضعيفٍ وذى عِلّة، وضَعُوا ماكان لكم من ثَقَلٍ ومتاعٍ بهذا الموضع حتّى نسير إلى عدوّنا.»

ففعلوا. واستخلف المختار عليهم أبا عثمان النَّهدىّ، وقدّم إبراهيم الأشتر أمامَه، وعبّى أصحابَه على الحال الّتى كانوا عليها فى السَّبخة، وبعث عبدُالله بن مطيعٍ عَمرَو بن الحجّاج فى ألفى رجلٍ، فخرج عليهم من السّكّة المعروفة بالثّوريّين، فبعث المختار إليهم أن:

- «إطوه ولاتَقُمْ عليه.»

فطواه إبراهيم، ودعا المختار يزيد بن أنسٍ، فأمره أن يصمد لعمرو بن الحجّاج، فمضى نحوه، ومضى المختار فى أثر إبراهيم، وأمره أن يدخل الكوفة من قِبل الكُناسة، فمضى وخرج إليه من سكّة ابن مُحرزٍ، وأقبل شَمِرُ بنُ ذى الجوشن فى ألفين، فسرّح المختار إليه سعيدَ بن منقذ الهَمْدانىّ، فواقعه، وبعث إلى إبراهيم أنْ:

- «إطوه وامضِ على وجهك.»

فمضى حتّى انتهى إلى سكّة شبث وإذا نَوفل بن مُساحقٍ [202] فى نحو خمسة آلاف رجلٍ، وقد أمر ابن مطيعٍ، فنودى فى النّاس أن:

- «إلحقوا بابن مُساحقٍ.»

واستخلف شبث بن ربعىٍّ على القصر، وخرج ابن مطيعٍ حتّى وقف بالكناسة.

فقال حصيرة بن عبدالله: إنّى لأنظر إلى ابن الأشتر حين أقبل فى أصحابه، حتّى إذا دنا منهم، قال لهم:

- «إنزلوا.»

فنزلوا. فقال:

- «إقرنوا خيولكم بعضها إلى بعضٍ، ثمّ امشوا إليهم مُصلتين، ولايهولنّكم أن يُقال: جاءكم شبث بن ربعىّ، وآل عُتَيبة بن النّهاس، وآل الأشعث، وآل فلانٍ وفلانٍ....»

حتّى [سمّى][1] بيوتًا من بيوتات أهل الكوفة، وقال:

- «إنّ هؤلاءِ لو وَجَد أوّلُهم حرَّ السّيف لَرأيتم قد انصفقوا عن ابن مطيعٍ انصفاق المعزىْ عن الذّئب.»

قال حصيرة: فإنّى لأنظر إليه وإلى أصحابه حتّى قرنوا خيولهم وحتّى أخذ بن الأشتر أسفل

---

١) سمّى: كذا فى الطبرى ٨:٦٢٩. وفى الأصل: سمّوا. وما فى مط: سمًّا. والصحيح ما فى الطبرى.

قَبائه، فأدخله فى منطقةٍ له حمراء من حواشى البُرد وقد شدَّ بها على القباءِ وقد كفَر بالقَباءِ على الدِّرع، ثمّ قال لأصحابه:

ـ «شُدُّوا عليهم فدىً لكم عمّى وخالى.»

قال: فوالله مالبّثهم [203] أن هزمهم، فركب بعضهم بعضًا على فم السِّكّة، وازدحموا، وانتهى ابن الأشتر إلى ابن مُساحقٍ، فأخذ بلجام دابّته ورفع عليه السّيفَ، فقال له ابن مساحق:

ـ «يابن الأشتر، أنشدك الله، أ تطلبنى بثأر، هل بينى وبينك من جِنَةٍ[1]؟»

فخلّى سبيلَه وقال:

ـ «أذكرها.»

فكان يذكرها له.

وأقبلوا حتّى دخلوا الكناسة فى آثار القوم حتّى دخلوا المسجد وحصروا ابن مطيعٍ ثلاثًا.

وجاءَ المختار حتّى نزل جانب السُّوق، وولّى حصارَ القصر إبراهيم بن الأشتر، ويزيد بن أنسٍ، وأحمر بن شُميط. فلمّا اشتدّ الحصار على بن مطيعٍ كلّمه الأشراف، وكان يفرّق فيهم الدّقيق من القصر.

فقام إليه شبث بن ربعىّ فقال له:

ـ «أصلحك الله، أنظر لنفسكَ ومَن معك، فوالله ماعندنا غَناءٌ عنك ولا عن أنفسهم.»

قال ابن مطيعٍ:

ـ «هاتوا، أشيروا علىّ برأيكم.»

قال شبثٌ:

ـ «الرّأى أن تأخذ لنفسك من هذا الرّجل أمانًا وتخرج ولا تهلك نفسك ومَن معك.»

قال ابن مطيعٍ: [204]

ـ «والله إنّى لأكرهُ أن آخُذَ منه أمانًا والأمور مستقيمةٌ لأمير المؤمنين بالحجاز كلّه وبالبصرة.»

قال:

ـ «فتخرج ولايشعر بك أحدٌ حتّى تنزل منزلاً بالكوفة عند مَن تثق به، فلايُعلم بمكانك حتّى

---

١) الجنة: الحقد والغضب. من قولهم: وَحَنَ يَوْحَنُ وحْنًا وحِنةً. وفى الطبرى (٨: ٦٣٠): إحنة. والإحنة: الحقد والضّغن. من قولهم: احِنَ عليه أحَنًا وأحْنًا: حقَدَ.

تخرج فتلحق بصاحبك.»

فقال لأسماء بن خارجة ولغيره من أشراف النّاس:

- «ماترون فى ما أشار به علىّ شبثٌ؟»

فقالوا:

- «مانرى الرّأى إلاّ ما أشار به عليك.»

قال:

- «فرويدًا حتّى أمسىَ.»

فلمّا أمسىٰ جمعهم، وحمد الله، وأثنى عليهم[1] وردُّوا عليه مثلَه، وقال:

- «جزاكم الله خيرًا، اخذ امروٌ حيث أحبَ.»

ثمّ خلّى عن القصر، وخرج من نحـو درب الرّوميّين حتّى أتى دار أبى موسى، ففتح أصحابه الباب ونادَوا:

- «يابن الأشتر، امنون نحن؟»

قال:

- «أنتم آمنون.»

فخرجوا، وبايعوا المختار، وجاءَ المختار حتّى دخل القصـر، فباتَ به وأصبح، فخـطب النّاس وحضّ على البيعة، وقال:

- «أيُّها النّاس، لا والّذى جعل السّماءَ سقفًا محفوظًا، والأرض فجاجًا سبُلاً[2]، ما بايعتم بعد بيعة علىّ بن أبى طالبٍ وآل علىٍّ أهدى منها.»

ثمّ نزل، [205] فدخل ودخل النّاس وأشرافهم، فبسـط يدَه، وابتدره النّاس فبايعـوه، وجعـل يقول:

- «تُبايعون على كتاب الله، وسنّة نبيّه، والطّلب بدماءِ أهل البيت، وجهاد المُحلّين، والدّفع عن الضُّعفاءِ، وقتال من قاتلنا، ومسالمة من سالمنا، والوفاءِ ببيعتنا، لانُقيلكم، ولانستقيلكم.»

فإذا قال [الرّجل][3]: نعم، بايعه.

وأقبل المختار يمنّى النّاس، ويستجرّ مودّتهم ومودّة الأشراف، ويحسن السّيرة جَهدَه. وجاء

---

١) فى مط: عليه، بدل: عليهم، وهو خطأ. ٢) س ٢١ الأنبياء: ٣٢-٣٣ (بالاقتباس والتّلخيص).

٣) مابين [ ] ليس موجودًا لا فى الأصل، ولا فى مط، وزدناه من الطبرى: ٨:٦٣٣.

ابن كامل، وكان على شرطته، فقال:

- «إنّ ابن مطيع فى دار أبى موسى، وقد عرفتُ ذلك بالصّحّة.»

فلم يُجِبْهُ بشىء، فأعادها عليه، فلم يُجبه، فظنّ ابن كامل أنّ ذلك لايُوافقه، وكان ابن مطيع قبلُ للمختار صديقًا. فلمّا أمسى بعثَ إلى ابن مطيع بمائة ألف [١٠٠،٠٠٠] درهم، وقال له:

- «تجهّز بهذه واخرج، فإنّى قد شعرتُ بمكانك، وظننتُ أنّه لم يمنعك من الخروج إلاّ أنّه ليس فى يدك مايُقوّيك على الخروج.»

وأصاب المختار فى بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف [٩،٠٠٠،٠٠٠] فأعطى أصحابَه الّذين قاتل [206] بهم حين حصر ابن مطيع فى القصر، وهم ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل، خمسمائةٍ كلّ رجل، وأعطى ستّةَ آلاف من أصحابه أتوه بعد ما أحاط بالقصر، وأقاموا معه تلك الأيّام الثلاثة مائتين مائتين، واستقبل النّاس بخير، ومنّاهم، وأحسن السيرة وأدنى الأشراف.

ثمّ ولّى الولايات، وعقد الألوية، فأوّل رجل عقد له المختار رايةً عبدالله بن الحارث أخو الأشتر، عقد له على آذربيجان، وبعث سعد بن حذيفة بن اليمان على حُلوان، وكان معه ألفا فارس ورزقه ألف درهم فى كلّ شهر، وأمره بقتال الأكراد وإقامة الطُرق، وكتب إلى عُمّاله على الجبال أن يحملوا أموال كُوَرهم إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بحلوان، وبعث عبدالرّحمن بن سعيد بن قيس إلى الموصل وبها محمّد بن الأشعث بن قيس من قِبل الزّبير، فتنحّىٰ له عن الموصل، ثمّ شخص إلى المختار مع أشراف قومه وغيرهم، فبايع له ودخل فى ما دخل فيه أهل بلده.

ثمّ وثب المختار بمن كان معه بالكوفة من قتلة الحسين، عليه السلام [207] والمتابعين على قتله، فقتل مَن قدر عليه وهرب بعضهم فلم يقدر عليه.

وكان سبب ذلك أنّ مروان بن الحكم لمّا استوسقت له الشّام بالطاعة، بعث عُبيدالله بن زيادٍ إلى العراق، وجعل له ما غلب عليه، وأمره أن ينهب الكوفة إذا ظفر بأهلها ثلاثًا.

وقد كنّا ذكرنا من أمر التّوّابين وابن زيادٍ ماكان بعين الوردة.

ثمّ بعد ذلك مرّ بأرض الجزيرة وبها قيسُ عيلان[١] على طاعة ابن الزّبير، فلم يزل عُبيدالله مشتغلاً بهم عن العراق نحوًا من سنة، ثمّ أقبل إلى الموصل، وكتب عبدالرّحمن بن سعيد بن قيس عامل المختار على الموصل إلى المختار:

---

١) كذا فى الأصل والطبرى (٨:٦٤٣): قيس عيلان، بالعين المهملة. وفى مط: قيس غيلان، بالغين المعجمة.

- «أمّا بعدُ، فإنّى أخبرك أيُّها الأمير، أنّ عبيدالله بن زياد قد دخل أرض الموصل، ووجّـه قبلى خيلَه ورجالَه، وأنّى قد انحزتُ إلى تكريت حتّى يأتينى رأيك وأمرك، والسّلام.»

فكتب إليه:

- «قد أصبتَ، فلاتبرحنّ مكانَك حتّى يأتيك أمرى.»

ثمّ بعث المختار إلى يزيد بن أنس، فدعاه وقال:

- «يايزيد، إنّ العالم ليس كالجاهل، وإنّى أخبرك خبر مَن [208] لم يَكذِبْ ولم يُكذَبْ[١]، أنا صاحبُ الخيل الّتى تجرُّ جعابَها وتضفر أذنابَها حتّى توردها منابت الزّيتون[٢]، أخرج إلى الموصل حتّى تنزل أدانيها، فإنّى مُمدُّك بالرّجال.»

فقال يزيد بن أنس:

- «سرِّح معى ثلاثة آلاف من الفرسان أنتخبهم وخلّنى والفرج الّذى توجّهنى له، فإن احتجت إلى الرّجال فسأكتب إليك.»

وقال المختار:

- «فاخرج وانتخب على اسم الله من أحببتَ.»

فخرج فانتخب ثلاثة آلاف فارس، وخرج معه المختار، وانصرف وقال له:

- «إذا لقيت عدوّك فلاتُناظرهم، وإذا أمكنتك الفرصة فلاتُؤخّرها، وليكُنْ خبرك[٣] عندى كلّ يوم، وأنا مُمدُّك وإن لم تستمدّ، لأنّه أشدُّ لعضدك، وأعزُّ لجندك، وأرعب لعدوّك.»

فقال له يزيد بن أنس:

- «لاتمدّنى إلاّ بدعائك، فكفىٰ به مددًا.»

فقال النّاس:

- «صحبك الله، وأدّاك وأيّدك.»

و ودّعوه. فقال لهم:

- «سلوا اللهَ لى الشّهادة. وأيم الله لئن لقيتُهم ففاتنى النّصر، لاتفوتنى الشّهادة إن شاء الله.»

---

١) لم يَكذِبْ: كذا فى الأصل. وما فى مط: غير مضبوط. وفى الطبرى لم يكذَبْ. أُكذبه: حمله على الكذب. كذّبه: نسبه إلى الكذبْ كما هو معلوم.

٢) وزاد فى الطبرى (٦٤٣:٨): غائرةً عيونها، لاحقةً بطونها.

٣) وليكنْ خبرك: كذا فى الأصل والطبرى ٦٤٤:٨. وفى مط: ولكرخيل!!

وكتب المختار إلى عبدالرّحمن بن سعيد بن قيس:

ـ «أمّا بعدُ، فخلِّ بين يزيد [209] وبين البلاد إن شاءالله، والسّلام عليك.»

وخرج يزيد بن أنس، فبات بالمدائن، ثمّ اعترض أرضَ جوخَى[١]، حتّى خرج بهم فى الرّاذانات، وحتّى قطع بهم إلى الموصل ونواحيها، وبلغ مكانَه ومنزلَه عُبيدَالله بن زيادٍ، وسأل عن عِدَّتهم، فأخبرتْهُ عيونُه أنّه خرج معه من الكوفة ثلاثة آلاف فارس.

فقال عبيدالله:

ـ «فأنا أبعث إلى كلّ ألفٍ ألفين.»

وبعث إليه ربيعةَ بن المخارق و عبدَالله بن حَملة كلّ واحد منهما فى ثلاثة آلاف، ثمّ قال:

ـ «أيُّكما سبق فهو أميرٌ على صاحبه.»

فسبق ربيعة بن المخارق، ونزل بيزيد بن أنس وهو بباتلى[٢]، فخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريضٌ مُضْنًى، فطاف فى أصحابه على حمارٍ معه الرّجال يُمسكونهُ، فجعل يطوف على الأرباع، ويقف على ربعٍ ربعٍ، ويقول:

ـ «ياشُرطةَ الله، اصبروا، وصابروا عدوَّكم تَظفروا، وقاتلوا أولياءَ الشّيطان إنّ كيدَ الشّيطان كان ضعيفًا[٣]. إن هلكتُ فأميركم ورقاءُ بن عازب الأسديّ، فإن هلك فأميركم عبدالله بن ضمرة العَذَوىّ[٤]، فإن هلك فأميركم سعر بن أبى سعرٍ الحنفىّ.[210]

قال: ونحن نرى فى وجهه أنّ الموتَ قد نزل به. ثمّ عبّى ميمنةً وميسرةً، وجعل ورقاء بن عازبٍ على الخيل، ونزل هو بين الرّجال على السّرير، ثمّ قال:

ـ «أبرزوا لهم بالعراء، وقدّمونى فى الرّجال، ثمّ إن شئتم فقاتلوا عن أميركم[٥]، وإن شئتم ففرُّوا عنه.»

قال: فأخرجناهُ وذلك يوم عرفة سنة ستٍّ وستّين. فأخذنا نُمسك أحيانًا ظَهرهُ، فيقول: اصنعوا كذا، إصنعوا كذا. فيامر بأمره، ثمّ لايكون بأسرع من أن يغلبه الوجع، فيوضع هنيهةً ويقتتل

---

١) جُوخَى: جُوخا: نهر عليه كورة واسعة فى سواد بغداد، بالجانب الشّرقىّ منه الرّاذان [الراذانان ـ يا] وهو بين خانقين وخوزستان. صرفت الدّجلة عن هذه الكورة حتّى خربت (مع).

٢) باتلى: كذا فى الأصل. وفى مط: بانكى (بإهمال الحرف الأوّل). وفى الطبرى ٨:٦٤٥: ساب تلى (بإهمال الجزء الأوّل) ومصحّفات فى الهامش.

٣) س ٤ النّساء: ٧٦.

٤) العَذَوىّ: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: العذرىّ.

٥) عن أميركم: كذا فى مط. وما فى الأصل: عن أمركم. فأثبتنا الكلمة كما فى مط.

النّاس، فحملت ميمنتُنا على ميسرتهم، وميسرتُنا على ميمنتهم، وحمل ورقاء بن عازب ومعه الخيل من ميسرتنا، فهزمهم، فلم يرتفع الضُحىٰ حتّى هزمناهم وحوينا عسكرَهم، وانتهينا إلى ربيعة بن المخارق صاحبهم وقد انهزم عنه أصحابه وهو نازلٌ يُنادى:

- «يا أولياءَ الحقّ، يا أهل السّمع، والطّاعة، إلىّ إلىّ، أنا ابن المخارق.»

فحمل عليه عبدالله بن ورقاء الأسدى، وعبدالله بن ضمرة العَدَوى، فقتلاهُ.

قال: وأتى يزيد بن أنس بثلاثمائة أسير وهو فى السُوق، فأخذ يُومى بيده [211] أن:

- «اضربوا أعناقهم.»

فقُتلوا من عند آخرهم، وما أمسى يزيد بن أنس حتّى مات، وكان أوصى بأنّ الأمير بعده ورقاء بن عازبٍ، فصلّى عليه ودفنه.

ذكر راى رَءَاهُ ورقاءُ بن عازب

ثمّ إنّ ورقاءَ بن عازب دعا رؤوس الأرباع وفرسانَ أصحابه، فقال لهم:

- «ياهؤلاءِ، ماذا ترون فى ما أخبرتُكم، إنّما أنا رجلٌ منكم.»

وكان أعلمهم أنّ عُبيدالله أقبل فى ثمانين ألفًا من أهل الشّام.

فقال ورقاء:

- «لستُ بأفضلكم رأيًا، فأشيروا علىّ. هذا الرّجل قد جاءَكم فى جِدِّه وحدِّه، ولا أرى لنا بهم طاقةً على هذه الحال، وقد هلك يزيد بن أنس أميرنا، وتفرّقت عنّا طائفةٌ منّا. فلو انصرفنا اليوم من تلقاءِ أنفسنا قبل أن نلقاهم وقبل أن نبلغهم، فيعلموا إنّما ردّنا عنهم هلاكُ صاحبنا فلايزالوا هائبين لنا ولقتلنا أميرَهم، ولأنّا إنّما نعتلّ لانصرافنا بموت صاحبنا، فإنّا إن لقيناهم اليوم لم ينفعنا هزيمتنا إيّاهم قبل اليوم إذا هزمونا.»

فقالوا:

- «فإنّك والله نعم [212] ما رأيت، إنصرف بنا، رحمك الله.»

فبلغ مُنصرَفهم المختارَ وأهلَ الكوفة، ولم يعلموا كيف كان الأمر.

فكان راى ورقاء الأوّل صوابًا
وتركُه إنفاذَ الكتب بالبشارة وتعريفه صاحبَه الصُورةَ خطأً

فأرجف النّاسُ أن يزيد بن أنس هلك، وأنّ النّاس انهزموا وما أشبه ذلك، فقلِق المختارُ،

وبعث المختار عينًا له، فعاد إليه بالخبر[١].

فدعا المختار إبراهيم بن الأشتر، فعقد عليه على سبعة آلاف رجل، وقال له:

ـ «سِرْ حتّى إذا لقيت جيشَ ابن أنس فارددهم معك، ثمّ سِرْ بهم حتّى تلقى عدوّك فتُناجزهم.»

فخرج إبراهيمُ وعَسكرَ بحمّام أعيَن.

ذكر اضطراب النّاس على المختار وطمعهم فيه بعد خروج إبراهيم الأشتر

لمّا خرج إبراهيم كثر إرجافُ النّاس بالمختار، وقالوا:

ـ «تأمّر علينا بغير رضىً منّا ولا ولايةٍ من محمّد بن عليٍّ، وقد أدنىٰ موالينا، فحملهم على رقابنا، وغصبنا عبيدَنا، فحَرَبَ[٢] بذلك أيتامَنا وأراملَنا.»[٣]

واتّعدوا منزل شبث بن ربعيٍّ. [213] وكان شبثٌ إسلاميًا جاهليًا. وقالوا:

ـ «هو شيخُنا.»

فأتوه، فذاكروه هذا الحديث. ولم يكن فى جميع ما عمله المختار شىءٌ[٤] أعظمَ على النّاس من أن جعلَ للموالى نصيبًا من الفَىْء.

فقال لهم شبثُ:

ـ «دعونى حتّى ألقاهُ.»

فلقيه، فلم يَدَعْ شيئًا ممّا أنكره أصحابه إلاّ ذاكره به، فكان لايذكر لهم خصلةً إلاّ قال المختار له:

ـ «أرضيهم، وآتى كلَّ شىءٍ أحبّوا.»

حتّى ذكر الموالىَ والمماليك، فقال:

ـ «عمدتَ إلى موالينا وهم فَىْءٌ أفاءَهم الله علينا وهذه البلادُ كلُّها، فأعتقنا رقابَهم نأملُ الأجر

---

١) والعبارة فى الطبرى (٦٤٩:٨): فبعث إلى المختار عامله على المدائن عينًا له من أنباط السّواد، فأخبرهُ الخبر.

٢) حَرَبَ الرَّجلَ (يحرُب حَرَبًا): سلَبه ماله وتركه بلاشىء.

٣) والعبارة فى الطبرى (٦٤٩:٨):... فحملهم على الدّوابّ، وأعطاهم وأطعمهم فيئنا، ولقد غصبتنا عبيدُنا، فحرب بذلك أيتامنا وأراملنا.

٤) فى الأصل ومط: «شيئًا» (بالنّصب) وهو خطأ كما لايخفى.

من الله والشُكر منهم، فلم ترضَ بذلك، حتّى جعلتَهم شركاءَ فى فيئنا.»

فقال المختار:

- «إنّا ستتركهم لِمواليهم، فهل تجعلون لى على أنفسهم - إن أنا فعلتُ ذلك - عهدَالله وميثاقه، وما أطمئنُ إليه من الأيمان، أن يُقاتلوا معى بنى أميّة وابن الزُبير؟»

فقال شبث:

- «ما أدرى، حتى أخرج إلى أصحابى فأذاكرهم ذلك.»[1]

فخرج ولم يرجع، وأجمع رأى أشراف الكوفة على قتال المختار.

فركب شبثُ وشمر بن ذى الجوشن ومحمدُ بن الأشعث وغيرهم حتّى دخلوا على كعب بن أبى كعب الخثعمىّ، وذكروا [214] ما اجتمع عليه رأيهم من قتال المختار، وقالوا:

- «تأمّر علينا بغير رضىً منّا، وزعم أنّ ابن الحنفيّة بعثه إلينا، وقد علمنا أنّه لم يبعثه، وفعلَ وصنَعَ، وأخذ عبيدَنا وموالينا، وأطعمَهم فيئَنا.»

وسألوه أن يُجيبَهم إلى ما سألوه من قتاله معهم. فرحّب بهم كعبُ وأجابهم إلى مادعَوه إليه. ثمّ دخلوا على عبدالرّحمن بن مخنف، فدعَوه إلى ذلك.

ذكر راى صحيح لعبد الرّحمن

فقال لهم:

- «ياهؤلاء، إن أبيتم إلاّ أن تخرجوا لم أخذُلكم، وإن أطَعتم لم تخرجوا.» فقالوا:

- «ولِمَ؟» فقال:

- «لأنّى أخاف أن تتفرّقوا، وتختلفوا، وتتخاذلوا، ومع الرُجل والله شجعاؤكم[2] وفرسانكم من أنفسكم. أ ليس معه فلانٌ وفلانٌ؟ ثمّ معه عبيدُكم و مواليكم، وكلمة هؤلاءِ واحدةٌ، وهؤلاءِ أشدُ حنقًا عليكم من عدوّكم، فهو يُقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم، وإن انتظرتموه قليلاً كفيتموهُ بقدوم أهل الشام، أو مجىء أهل البصرة [215] فتكونوا قد كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم.»

فقالوا:

---

١) انظر الطبرى (٨: ٦٥٠-٦٥١).

٢) شجاؤكم: كذا فى الأصل. شجعاؤكم = شجعانكم. وفى مط وهامش الأصل: شجعانكم.

ـ «ننشدك الله أن تخالفنا وتُفسد علينا.»

قال:

ـ «فأنا رجل منكم فإذا شئتم فاخرجوا.»

فلقى بعضهم بعضًا، وقالوا:

ـ «ننتظر حتّى يذهب عنه ابن الأشتر.»

فأمهلوا حتّى إذا بلغ إبراهيم ساباط خرجوا إلى جبابينهم بجماعة الرؤساء، فلمّا بلغ المختارَ اجتماعُ النّاس عليه مثل شمر بن ذى الجوشن، وشبث بن ربعىّ، وحسان بن فائد، وربيعة بن ثروان، وحجّار بن أبجر ورُوَيم بن الحارث، وعمرو بن الحجّاج الزُبيدى، وغيرهم ممّن ذكرناهم قبلُ، ومَن لم نذكرهم، بعث رسولاً يركض إلى إبراهيم الأشتر وهو بساباط أن:

ـ «لاتَضعْ كتابى من يدك حتّى تُقبل بمن معك.»

وبعث إليهم فى ذلك اليوم:

ـ «أخبرونى ما تُريدون فإنّى صانعٌ كلّ ماأحببتم.»

قالوا:

ـ «فإنّا نريد أن تعتزلنا، فإنّك زعمتَ أنّ ابن الحنفيّة بعثك ولم يبعثك.»

فأرسل إليهم المختار أن:

ـ «إبعثوا إليه من قبلكم وفدًا، وأبعثُ من قِبلى وفدًا، ثمّ انظروا فى ذلك حتّى تتبيّنوه.»

وهو يُريد أن يُريّثهم[١] بهذه المقالة. [216] ليقدم عليه إبراهيم الأشتر وقد أمر أصحابه فكفّوا أيديهم، وأخذ أهل الكوفة عليهم بأفواه السّكك، فليس شىءٌ يصل إلى المختار ولا إلى أصحابه من الماءِ إلاّ القليل يجيئُهم إذا غفلوا عنه.

ثمّ إنّ شمر بن ذى الجوشن أتى أهل اليمن، فقال لهم:

ـ «إن اجتمعتم فى مكان نجعل فيه مجنّبتين ونقاتل من وجهٍ واحدٍ، فأنا صاحبكم، وإلاّ فلا، والله لاأقاتل فى سكّةٍ واحدة ضيّقةٍ ونقاتل من غير وجهٍ.»

وانصرف إلى جماعة قومه فى جبّانة بنى سَلول، ولمّا بلغ المختارَ ذلك، جعل يواصل مكاتبة إبراهيم، فلمّا بلغ إبراهيمَ بن الأشتر خبرُه، نادى من يومه فى النّاس، وسار بقيّة عشيّته تلك، ثمّ

١) يريّثهم: كذا فى الأصل والطبرى ٦٥٣:٨. وما فى مط: يرتبهم.

نزل سُوَيعةً، فتعشّى هو وأصحابه، وأراحوا دوابّهم شيئًا كلاشىء، ثمّ سار بقيّة ليلته ليلته كلّها وصلّى الغداة بسورا، ثمّ سار من يومه وصلّى صلاة العصر على باب الجسر من الغد، ثمّ سار حتّى بات ليلته فى المسجد. ولمّا كان اليوم الثّالث من مخرجهم على المختار خرج المختار إلى المنبر فصعده وكان شبث بن ربعىّ بعث إليه ابنَه [217] يقول له:

- «إنّما نحن عشيرتك وكفُّ يمينك، والله لانقاتلك أبدًا فثِقْ بذلك منّا، وكان كارهًا لقتاله، ولمّا حضرت الصّلاة واجتمع أهل اليمن كره كلُّ رأسٍ أن يتقدّمه صاحبه.»

فقال لهم عبدالرّحمن بن مخنفٍ:

- «هذا أوّل الخلاف، قدّموا الرِّضا فيكم، فإنّ فيكم سيّد قُرّاءِ أهل المصر، فليصلّ بكم رفاعة بن شدّادٍ.»

ففعلوا، فلم يزل يُصلّى بهم حتّى كان يوم الوقعة.

ثمّ إنّ المختار لمّا نزل، عبّى أصحابه، فقال إبراهيم بن الأشتر:

- «إلى أىّ الفريقين أحبُّ إليك أن نسير.»

فنظر المختار وكان ذا رأىٍ، فكرهَ أن يسير إلى قومه، فلا يبالغ فى قتالهم، فقال:

- «سِرْ إلى مُضَر بالكُناسة، وكان عليهم شبث بن ربعىٍّ، وأنا أسير إلى أهل اليمن.»

ففعلا. ثمّ إنّ القوم اقتتلوا كأشدّ قتالٍ اقتتله قومٌ، وانكشف من أصحاب المختار أحمر بن شُميط وعبدالله بن كامل وأصحابهما، فلم يُرع المختار إلاّ وقد جاءه الفلُّ قد أقبل فقال:

- «ماوراءكم؟» فقالوا:

- «هُزِمنا.» قال:

- «فما فعل أحمر بن شُميط؟» قالوا:

- «تركناه قد نزل عند مسجد القُصّاص وقد نزل معه ناسٌ [218] من أصحابه.»

وقال أصحاب ابن كاملٍ:

- «ماندرى مافعل.»

فصاح بهم أن انصرفوا، ثمّ أقبل معهم قطعةً، ثمّ بعث عبدالله بن قُراد الخثعمى وكان على أربعمائة من أصحابه، فقال:

- «سِرْ فى أصحابك إلى ابن كامل، فإن يكن هلك، فأنت مكانه، وإن تجده حيًّا، فَسِرْ فى مائةٍ من أصحابك كلُّهم فارس، وادفعْ إليهم بقيّة أصحابك، ومُرْهم بالجدّ معه والمناصحة، ثمّ

امض في المائة حتّى تأتى جبّانة السُّبيع.»

فمضى، فوجد عبدالله بن كامل واقفًا عند حمّام عمرو بن حُريث معه ناسٌ من أصحابه قد صبروا وهو يقاتل القوم، فدفع إليه ثلاثمائة من أصحابه، ثمّ مضى حتّى نزل جبّانة السُّبيع، وأخذ فى السّكك حتّى انتهى إلى مسجد عبدالقيس، فوقف عنده، وقال لأصحابه:

- «ماترونَ؟»

وهم مائةُ خيارٌ. قالوا:

- «أمرُنا لأمرك تَبعٌ.» فقال:

- «والله إنّى لأُحبُّ أن يظهر المختار، و والله إنّى لَكارهٌ أن يهلك أشراف قومى وعشيرتى اليوم، و والله لأن أموتَ أحَبُّ إلىَّ من أن آتيهم من ورائهم فيهلكون على يدى.»

ثمّ وقف، وبعث المختار مالك بن عمرو النّهدىَ - وكان من أشدّ [219] النّاس بأسًا - فى مائتى رجل، وبعث عبدالرّحمن بن شريك فى مائتى فارس إلى أحمر بن شميط، وثبت هولاء مكانه، فانتهوا إليه وقد عَلاهُ القومُ وكثروا عليه، فاقتتلوا عند ذلك كأشدّ القتال.

ومضى الأشتر حتّى لقى شبث بن ربعىّ وخلقًا من مُضَر كانوا معه، فقال لهم إبراهيم:

- «ويحكم انصرفوا، فوالله ماأحبُّ أن يُصابَ أحدٌ من مُضَر على يدى، فلا تُهلكوا أنفسكم.»

فأبوا، فقاتلوهُ، فهزمهم، وجاءَت البشرىٰ إلى المختار من قبل إبراهيم بهزيمة مُضَر، فبعث المختار بالبشرىٰ إلى أحمر بن شميط وإلى ابن كامل، والنّاس على أحوالهم كلّ سكّةٍ منهم قد أغنتْ مايليها، واجتمعت شبام وقد رأسوا عليهم أبا القَلوص، وقد أجمعوا أن يأتوا أهل اليمن من ورائهم، فقال بعضهم لبعض:

- «أما والله، لو جعلتم حدّكم هذا على من خالفكم من غيركم، لكان أصوبَ. فسيروا إلى مُضَر وإلى ربيعة فقاتلوهم.»

وشيخهم أبوالقَلوص ساكتٌ لايتكلّم، فقالوا:

- «مارأيك؟» فقال:

- «قال الله عزّوجلّ: قاتِلوا الّذين يَلُونَكم مِنَ الكُفّارِ، وَلْيَجِدُوا [220] فيكُمْ غِلْظَةً[1]. قوموا!»

فقاموا، فمشى بهم قيسُ رُمحين أو ثلاثة، ثمّ قال:

- «إجلسوا.»

---

١) س ٩ التّوبة: ١٢٣.

فجلسوا. ثمّ مشىٰ بهم الثانية أنفس من ذلك شيئًا، ثمّ الثالثة كذلك، ثمّ قعدَ، فقالوا له:

- «ياباالقلوص، والله إنكَ عندنا لأشجع العرب، فما يحملك على الّذى تصنع؟» قال:

- «إنّ المجرَّب ليس كمن لم يجرِّب. إنّى أردتُ أن ترجع إليكم انفسكم، وكرهتُ أن أحملكم على القتال وأنتم على حال دَهَش.» قالوا:

- «أنت أبصر بما صنعتَ. فلمّا خرجوا إلى جبّانة السُّبيع استقبلهم قومٌ، فهزموهم وقتلوا رئيسهم ودخلوا الجبّانة فى آثارهم يتنادَون:

- «ياَلَثارات الحسين.»

فاجابهم ابن شُميط:

- «يا لَثاراتِ الحسين.»

وقاتل يومئذٍ رفاعة بن شدّادٍ حتّى قُتل، وقُتل خلقٌ من الأشراف واستُخرج من دُور الوادعيّين خمسمائة أسير. فأتى بهم المختار مكتَّفين، فأخذ رجلٌ من بنى نهدٍ من رؤساءِ أصحاب المختار يُقال له عبدالله بن شريكٍ لايخلو بعربىٍّ إلاّ خلّى سبيلَه. فرُفع ذلك إلى المختار، فقال المختار:

- «إعرضوهم علىّ، فانظروا كلّ من شهد منهم قتلَ الحسين فأعلمونى به.»

فأخذوا لايمرّ عليه رجلٌ شهد قتل الحسين إلاّ قالوا له:

- «هذا مِمّن شهد [221] قتله.»

فقدّمه، فيضرب عنقه، حتّى قتل منهم قبل أن يخرج مائتين وأربعين قتيلاً، وأخذ أصحابه كلّما رأوا رجلاً قد كانوا تأذّوا به، وكان يُماريهم، أو يضُرُّ بهم، خلَوا به فقتلوهُ، حتّى قُتل ناسٌ كثيرٌ منهم، ومايشعر بهم المختار.

ثمّ أخبر به المختار من بعدُ، فدعا بمن بقى من الأُسارىٰ فأعتقهم وأخذ عليهم المواثيق ألاّ يُجامعوا عليه عدوًّه ولايبغُوه ولا لأصحابه غائلةً، إلاّ سراقة بن مرداس البارقىّ، فإنّه أمر به أن يُساق معه إلى المسجد، ونادىٰ منادى المختار مَن أغلق عليه بابه فهو آمنٌ إلاّ رجلاً شرك فى دَم آل محمّدٍ.

وكان يزيد بن الحارث بن رؤيم وحجّار بن أبجر بعثا لهما رسلاً، فقالا لهم:

- «كونوا قريبًا من أهل اليمن، فإن ظهروا، فلتكنْ علامتكم كذا وإن ظُهِرَ عليكم فلتكنْ علامتكم كذا.»[١]

١) والعبارة فى الطبرى (٨:٦٦١-٦٦٠): فإن رايتموهم قد ظهروا، فأيُّكم سبق إلينا فليقُل: «صرفان» وإن كانوا هزموا، فليقل: «جُمزان».

فلمّا هُزم أهلُ اليمن أتتهم رُسلُهم بعلامتهم، فقاما جميعًا فقالا لقومهما:

ـ «إنصرفوا إلى بيوتكم.»

فانصرفوا.

فأمّا عمرو بن الحجّاج الزُّبيدى، فإنّه كان مِمّن شهد قتلَ الحسين، فركب راحلتَه، ثمّ ذهب عليها، فأخذ طريق شرافٍ و واقصةٍ، فلم يُرَ حتّى السّاعة، ولايُدرىٰ [222] أرضٌ لَحستْه[1]، أم سماءٌ حَصَبتْهُ!

[مقتل شمر بن ذى الجوشن]

وأمّا شَمِرُ بنُ ذى الجوشن، فإنّ المختار أنفذ فى طلبه غلامًا يُدعىٰ رزينًا. فحدّث مسلم بن عبدالله الكِنانى[2]، قال: تَبِعَنا رزين[3] غلام المختار فلحِقَنا، وقد خرجنا من الكوفة على خيولنا مضمَّرةً، فأقبل يتقطّرُ به فَرسُه. فلمّا دَنا منه قال لنا شَمِرُ:

ـ «أركضوا وتباعدوا، فلعلّ العبدَ يطمع فىّ.»

قال: فركضنا وأمعنّا، وطمع العبدُ فى شمر، وأخذ شمرُ يستطرد له، حتّى إذا انقطع عن أصحابه حمل عليه شمرُ، فدقّ ظَهرَهُ، وأتى المختارُ فأخبر بذلك، فقال:

ـ «بُؤسًا لِرزين، أما لو يستشيرنى ما أمرتُه أن يخرج لأبى السابغة.»

ومضى شمرُ حتّى نزل ساتيدَما، فنزل إلى جانب قريةٍ يُقال لها: الكلبانية[4] على شاطئ نهرٍ إلى جانب تَلٍّ، ثمّ أرسل إلى تلك القرية، فأخذ منها عِلجًا فضربه، ثمّ قال:

ـ «النَّجا بكتابى إلى مصعب بن الزُّبير.»

[وكتب عنوانه: للأمير المصعبِ بن الزُّبير][5] من شمر بن ذى الجوشن. فمضى العلج حتّى دخل قريةً فيها بيوتٌ وفيها أبو عَمره، وكان المختار بعثه فى تلك الأيّام إلى تلك القرية لتكون مسلحةً فى مابينهُ وبين أهل البصرة، فلقى ذلك العلجُ علجًا من تلك القرية، [223] فأقبل يشكو إليه ما لقى من شمر، فسألوا العلج عن مكانه، فأخبرهم به، فإذا ليس بينهم إلّا ثلاثة فراسخ

١) لَحسته: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى: بَخسته.

٢) الكنانى: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: الضبابى.

٣) رزين: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨:٦٦١): رزْبىّ.

٤) الكلبانية: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨:٦٦٢): الكلتانية.

٥) مابين [ ] تكملة من الطبرى.

فساروا إليه.

قال: وكنّا قُلنا لشمرٍ تلك اللّيلة:

ـ «لو أنّك ارتحلتَ بنا من هذا المكان، فإنّا نتخوّف به.» فقال:

ـ «أكلُّ هذا فَرَقًا من الكذّاب، والله لا أتحوّل منه ثلاثة أيّامٍ، ملأ الله قلوبكم رُعبًا.»

فوالله ماشعرنا إلاّ وقد أشرفوا علينا من التّلّ، فكبّروا، ثمّ أحاطوا بنا وخرجنا نشتدُّ على أرجُلنا وتركنا خَيلَنا، وأعجل شمرٌ عن لبس سلاحه.

قال: فأمرُّ على شمرٍ وإنّه لَمُؤتزرٌ بِبُردٍ يُقاتلهم، وكان أبرص، فكأنّى أنظر إلى بياض مابين كشحيه وهو يُطاعن الأقوام، فما هو إلاّ أن أمعنت ساعةً إذ سمعتُ التكبير وقائلاً يقول:

ـ «قتل الله الخبيثَ.»

[سراقةُ خلَفَ أنّه رأى الملائكة]

فأمّا سراقة بن مرداس البارقىّ، فإنّه حلف واجتهد فى اليمين أنّه رأى الملائكةَ معهم تُقاتل على خُيولٍ بُلْقٍ، وقال لهم:

ـ «أنتم أسرتمونى؟ ما أسرنى إلاّ قومٌ على دوابٍّ لهم بُلْقٍ، عليهم ثيابٌ بيضٌ.»

فقال المختار:

ـ «أولئك الملائكة، اصعدِ المنبر، فأعلِم النّاسَ ذلك.»

فصعد واجتهد فى اليمين وأخبرهم بذلك. [224] ثمّ نزل فخلا به المختار وقال:

ـ «إنّى علمتُ أنّك لم ترَ الملائكةَ، وإنّما أردتَ ما قد عرفتُ: ألاّ أقتلَك، فاذهبْ عنّى حيث أحببتَ، لاتُفسد علىّ أصحابى.»

فخلّىٰ عنه، وذهب حتّى لحق بمصعب بن الزّبير، وقال:

ألا أبلغْ أبا إسحاقَ أنّى رأيتُ الخَيلَ دُهمًا[1] مُصمَتاتِ
أرى عَيْنَىَّ مالم تَرأياهُ كِلانا عالمٌ بالتُّرّهاتِ

وانجلت وقعة السُّبيع عن سبعمائةٍ وثمانين قتيلاً وكانت يوم الأربعاءِ لِستٍّ ليالٍ بقين من ذى الحجّة سنة ستٍّ وستّين.

وخرج أشراف النّاس، فلحقوا بالبصرة، وتجرّد المختار لقتلى الحسين، وقال:

---

١) دُهمًا: كذا فى الأصل. وفى الطبرى (٨:٦٦٥): بُلْقًا.

ـ «مامن ديننا تَركُ قومٍ قتلوا الحسين أحياءًا يمشون فى الدُّنيا آمنين. ناصرُ آلِ محمّدٍ إذًا أنا فى الدُّنيا، أنا إذًا الكذّاب ـ كماسمَّونى ـ ألحمد لله الّذى جعلنى سيفًا ضربهم به، ورُمحًا طعنهم به، وطالَبَ وترهم، والقائمَ بحقّهم، سمُوهم، ثمّ تتبّعوهم، حتّى تُفنوهم. إنّه لايسوغ لى طعامٌ ولاشرابٌ حتّى أطهِّر الأرض منهم وأنقّى المصرَ منهم.» [225]

ودلّ عبدالله بن دَبّاسٍ على نفرٍ ممّن قتل الحسين. منهم: عبدالله بن أسيد بن النّزال الجهنىُّ، ومالك بن النُّسير البَدّىُّ وحَمَل بن مالك المحاربىُّ. فبعث إليهم المختار، فأخذوا وأدخلوا عليه عشاءًا.

فقال لهم المختار:

ـ «يا أعداءالله وأعداءَ كتابه وأعداءَ رسوله وآل رسوله! قتلتم مَن أمرتُم بالصّلاة عليه فى الصّلاة.» فقالوا:

ـ «رحمك الله، بُعثنا ونحن كارهون، فامنُنْ علينا، واستَبْقِنا.»

قال المختار:

ـ «فهلاّ مَننتُم على الحسين بن بنت نبيّكم واستَبقيتُمُوهُ وسقيتمُوهُ.»

ثمّ قال المختار لِلبَدّى:

ـ «أنتَ صاحبُ برنسه؟» فقال عبدالله بن كاملٍ:

ـ «نعم، هو هو.»

فقال المختارُ:

ـ «إقطعوا يَدَ هذا ورجلَيه، ودعُوهُ يضطرب حتّى يموت.»

ففُعل به ذلك، وأمر بالآخرَين فقُتلا.

ثمّ بعث رجالاً كانوا معه يُقال لهم: الدّبّابة، إلى دارٍ فى الحمراءِ فيها عبدالرّحمن بن أبى خُشكارة، وعبدالرّحمن بن قيس الخولانى وغيرهما فجئنا بهم حتّى أدخلناهم عليه، فقال لهم:

ـ «ياقتلة الصّالحين، ياقتلة سيّد شباب أهل الجنّة، ألا ترون اللهَ قد أقادَ منكم اليوم؟ لقد جاءكم الورسُ بيوم نحسٍ.»

وكانوا أصابوا [226] من الورس الّذى كان مع الحسين، أخرجوهم إلى السُّوق، فضربوا رقابَهم، ففُعل ذلك بهم وكانوا أربعةً.

وأخذ السّائب بن مالك الأشعرىَ ـ وكان فى خيلٍ للمختار ـ ثلاثة نفرٍ مِمّن شهد قتلَ الحسين، فانتهىٰ بهم إلى المختار، فأمر بهم فقُتلوا فى السُّوق.

وبعث المختار عبدالله بن كامل إلى عثمان بن خالدٍ، وإلى أبى أسماء بسر بن أبى سمط[١]، وكانا ممّن شهدا قتلَ الحسين وفى سلبه، فأحاط عبدالله بن كاملٍ عند العصر بمسجد بنى دَهمان، ثمّ قال:

« علىّ مثل خطايا بنى دهمان منذ خُلقوا إلى يوم يُبعثون إن لم أوتَ بعثمان بن خالد، إن [لم][٢] أضرب أعناقكم من عند آخركم.»

فقلنا له: «أمهلنا حتّى نطلبه.»

فخرجوا مع الخيل فى طلبه، فوجدوهما جالسَين فى الجبّانة يريدان أن يخرجا إلى الجزيرة، فأُتى بهما عبدُالله بن كامل، فضَرب أعناقهم، ثمّ رجع فأخبر المختارَ خبرهما، فأمره بأن يرجع فيحرقهما بالنّار، وقال:

ـ «لايُدفَنا، بل ليُحرقا[٣] بالنّار.»

وبعث أباعمرة صاحبَ حرسه حتّى أحاطوا بدار خولى بن يزيد الأَصبحىّ وهو صاحب راس الحسين ـ عليه السّلام ـ فاختبىٔ فى مخرجه [227] فخرجت امرأته إليهم، فقالوا لها:

ـ «أينَ زوجُكِ؟» فقالت:

ـ «لا أدرى، أين هو..»

وأشارت بيدها إلى المخرج. فدخلوا، فوجدوه وقد وضع على راسه قوصرةً، وأخرجوه.

وكان المختار خرج يسير بالكوفة ومعه ابن كامل، فأُخبروه الخبر، وأقبل حتّى قتله إلى جانب أهله، ثمّ دعا بنارٍ فحرّقه.

وكانت امرأته نصبت له العداوة حين جاءَ براس الحسين.

وكان عبدالله بن جعدة بن هُبيرة أكرم خلق الله على المختار لقرابته بعلىٍّ، فكلّم عمرُ بن سعد عبدَالله بن جَعده، وقال:

ـ «خذ لى من هذا الرّجل أمانًا.»

فكتب له:

«بسم‌الله الرّحمن الرّحيم»

ـ «هذا أمانٌ من المختار بن أبى عُبيد لعمر بن سعد بن أبى وقّاصٍ. إنّكَ آمنٌ بأمان الله على

---

١) بسر بن أبى سمط: كذا فى الأصل وفى الطبرى (٨:٦٧٠): بشر بن سوط. ٢) تكملة من الطبرى.
٣) فى الأصل: لايُدفنا، بل يُحرقا. ولام الأمر زدناه. وفى الطبرى (٨:٦٧٠): لايدفنانْ يُحرقا.

نفسك ومالك وأهلك وأهل بيتك وولدك، لاتُؤاخذُ بحَدَثٍ كان منك قديمًا ماسمعتَ وأطعتَ، ولزمتَ رحلَكَ ومِصرَكَ وأهلَكَ، ولم تُحدث حدثًا. فمَن لقى عمر بن سعد من شُرطة الله وشيعة آل محمّدٍ ومن غيرهم من النّاس، فلايعرض له إلاّ بخيرٍ. شهد السّائب بن مالكٍ، [228] وأحمر بن شُميط، وعبدالله بن شدّادٍ، وعبدالله بن كاملٍ.»

وجعل المختار على نفسه عهد الله وميثاقه ليَفِيَنّ لعمر بن سعدٍ بما أعطاه من الأمان، إلاّ أن يحدث حدثًا، وأشهد الله على نفسه وكفى بالله شهيدًا.»

فكان أبوجعفر محمّد بن علىّ الباقر عليه السّلام يقول:

ـ «أمّا أمان المختار لعمر بن سعد: إلاّ أن يحدثَ حدثًا، فإنّه كان يريد: إذا دخل الخلا وأحدث.»

فقال المختار ذات يوم وهو يحدّث جُلساءه:

ـ «لأقتلنّ رجلاً عظيم القدمين، غائر العينين، مشرف الحاجبين، يسرُّ قتلُه المؤمنين والملائكة المقرّبين.»

فكان الهيثم بن الأسود النّخعى عند المختار، فسمع هذه المقالة، فوقع فى نفسه أنّ الّذى يُريده عمر بن سعد بن أبى وقّاص. فلمّا رجع إلى منزله دعا ابنه العريان، فقال:

ـ «إلقَ عمر بن سعدٍ اللّيلةَ، فخبِّرْه بكذا وكذا وقُلْ له: خُذْ حِذرَك.»

قال: فأتاه فاستخلاه، ثمّ حدّثه الحديث.

فقال له عمر بن سعدٍ:

ـ «جزى الله اباك عن الاخاءِ[1] خيرًا، كيف يريد هذا بى بعد الّذى أعطانى من العهود والمواثيق.»

ثمّ خرج من ليلته حتّى أتىٰ حمّامَه، [229] وأخبر مولًى له بما أريد به، فقال له:

ـ «وأىُّ حدثٍ أعظم ممّا صنعتَ، إنّك تركتَ رحلَك وأهلك، إرجع إلى رحلك، لاتجعلْ للرّجل عليك سبيلاً.»

فرجع إلى منزله، وأتى المختارُ بخبر انطلاقه، فقال:

ـ «كلاّ، إنّ لى فى عُنقه سلسلةً سترُدّه.»

فلمّا أصبح المختار بعث أباعمرة وأمره أن يأتيه به. فجاءَ حتّى دخل عليه، فقال:

---

١) عن الاخاءِ خيرًا. كذا فى الأصل. وما فى مط: عن الأخْياءِ خيرًا.

ـ «أجبْ.»

فقام عمر، فعثر فى جبّةٍ[١] له ويضربه أبوعمرة بسيفه فقتله، وجاءَ برأسه فى أسفل قبائه حتّى وضعه بين يدى المختار.

فقال المختار لابنه حفص بن عُمر، وهو جالسٌ عنده:

ـ «أتعرف هذا الرّأس؟»

فاسترجع، وقال:

ـ «نعم، ولاخير فى العيش بعده.»

قال له المختار:

ـ «صدقتَ، فإنّك لاتعيش بعدَه. ألحقوا حفصًا بأبى حفصٍ!»

فقُتل، فإذا رأسُه مع رأس أبيه.

ثمّ قال المختار:

ـ «هذا بالحسين، وهذا بعلىّ بن الحسين ولا سواء. والله لوقتلتُ به ثلاثة أرباع قريش ماوفوا أنملةً من أنامل الحسين.»

وبعث المختار برأسيهما إلى محمّد بن الحنفيّة، وكتب إليه:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم»

ـ «للمهدىّ محمّد بن علىّ [230] من المختار بن أبى عُبيد. سلامٌ عليك أيُّها المهدىُّ، فإنّى أحمد الله إليك الّذى لا إله إلاّ هو. امّا بعد، فإنّ الله بعثنى نقمةً على أعدائكم، فهم بين أسير وطريدٍ وقتيلٍ وشريدٍ، فالحمد لله الّذى قتل قاتليكم، ونصر مؤازريكم، وقد بعثتُ إليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا ممّن شرك فى دم الحسين وأهل بيته ـ رضى الله عنهم[٢] ـ كلّ مَن قدرنا عليه، ولن يعجز الله من بقى ولستُ بمُنجمٍ عنهم حتّى لايبلغنى أنّ على أديم الأُرض منهم أرمًا[٣]، فاكتبْ إلىّ أيُّها المهدىُّ برأيك أتْبعْهُ وأكُنْ عليه، والسّلام عليك أيُّها المهدىُّ ورحمة الله وبركاته.»

وطلب المختار كلّ من ذكر له من قتلة الحسين وشيعته، وأعدائه، فقتلهم وأحرقهم، ومن

---

١) فعثر فى جبّة. والكلمة الأخيرة غيرواضحة فى الأصل ومط فقرأناها فى ضوء مافى الطبرى.

٢) كذا فى الأصل: رضى الله عنهم. وفى مط: صلوات الله عليهم. وما فى الطبرى (٨: ٦٧٥): رحمة الله عليهم. وفى هامشه: عليهم السلام.

٣) أرمًا: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: أرميًا. وفى هامشه: ادميًا.

هرب ولم يقدر عليه هدم دارَهُ.

ثمّ إنّ المختار بلغه أنّ أهل الشأم قد أقبلوا نحو العراق، فعرف أنّه يُبدأ به، فخشى أن يأتيه أهل الشأم من المغرب، ويأتيه مصعب بن الزُبير من قبل البصرة، فأخذ يُدارى ابن الزُبير ويكايدهُ. وكان عبدالملك بن مروان قد بعث عبدالملك بن الحارث بن الحكم [231] بن أبى العاص إلى وادى القُرىٰ.

ذكر مكيدة للمختار على إبن الزُبير لم يتمّ له

كتب المختار إلى ابن الزُبير:

- «أمّا بعدُ، فقد بلغنى أنّ عبدالملك بن مروان بعث إليك جيشًا، فإن أحببتَ أن أمدّك بمددٍ فعلتُ.»

فكتب إليه عبدالله بن الزبير:

- «أمّا بعدُ، فإن كنتَ على طاعتى فلستُ أكره أن تبعث الجيش إلى بلادى وتبايع لى النّاس قِبلك، فإذا أتتنى بيعتُك صدّقتُك فى مقالتك، وعجّل إلىّ بتسريح الجيش، ومُرْهم أن يسيروا إلى من بوادى القُرىٰ من جند ابن مروان، فيقاتلوهم، والسّلام.»

فدعا المختار شرحبيل بن ورس بن همدان، فسرّحه فى ثلاثة آلافٍ أكثرهم الموالى، ليس فيهم من العرب إلاّ سبعمائة رجلٍ، فقال:

- «سيروا مع شرحبيل وأطيعوه.»

وقال لشُرحبيل:

- «إذا دخلتَ المدينة فاكتب إلىّ حتّى يأتيك أمرى.»

وهو يريد: إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميرًا من قِبله، ويأمر ابنَ ورسٍ أن يمضى إلى مكّة حتّى يحاصر ابن الزُبير، ويقاتله. فخرج يسير قِبل المدينة. [232]

وخشى ابن الزبير أن يكون المختار إنّما يكيده. فبعث من مكّة إلى المدينة عبّاس بن سهلٍ فى ألفين، وأمره أن يستنفر الأعراب، وقال له ابن الزُبير:

- «إن رأيتَ القوم فى طاعتى، فاقبل منهم، وإلاّ فكايدْهم حتّى تُهلكهم.»

ففعلوا:

وأقبل عبّاس بن سهل حتّى لقى ابن ورسٍ، وقد عبّى ابن ورسٍ أصحابه ميمنةً وميسرةً. فدعا

وسلَّم عليه، ونزل هو يمشى فى الرَّجَّالة وميمنته وميسرته على الخيول.

وجاءَ عبَّاسٌ مع أصحابه وهم متقطِّعون على غير تعبئةٍ، فيجدُ ابن ورسٍ على الماءِ قد عبّى أصحابه تعبئة القتال، فدنا منه، فسلَّم عليه، ثمَّ قال له:

- «أخلُ معى.»

فخلا به، فقال:

- «رحمك الله، أ لستَ فى طاعة ابن الزُّبير؟»

فقال له ابن ورسٍ:

- «بلىٰ.» قال:

- «فسِرْ بنا إلى عدوِّ الله وعدوِّه الّذى بوادى القُرىٰ، فإنّ ابن الزُّبير حدَّثنى أنّه إنَّما أشخصكم صاحبكم إليه.»

قال ابن ورسٍ:

- «ما أُمرتُ بطاعتكم. إنّما أُمرتُ أن آتى المدينة، فإذا تركتُها كاتبتُ صاحبى.»

فقال عبّاس بن سهلٍ:

- «إن كنتَ فى طاعة ابن الزّبير، فقد أمرنى أن أسير بك وبأصحابك إلى عدوّنا بوادى القُرىٰ.»

فقال ابن ورسٍ:

- «ما أُمرتُ بطاعتك وما أنا [233] بمتّبعكَ دون أن أدخل المدينة، ثمّ أكتب إلى صاحبى، فيأمرنى بأمره.»

فلمّا رأى العبّاس لَجاجَه عرف خلافه، وكره أن يُعلمه أنّه فطن له، فقال:

- «فرأيك أفضل، إعمل بما بدا لك، فأمّا أنا فإنّى سائرٌ إلى وادى القُرىٰ.»

ذكر مكيدة عبّاس بن سهلٍ بأصحاب المختار

ثمّ جاءَ عبّاس بن سهلٍ، فنزل بالماءِ، وبعث إلى ابن ورسٍ بجُزُرٍ[1] كانت معه، فأهداها له مع دقيقٍ وغنمٍ مسلَّخةٍ، وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعًا، وبعث عبّاسٌ إلى كلّ عشرة

١) بجُزر: كذا فى الأصل. وما فى مط: بحرز (مهملة إلاّ فى الحرف الأخير). وفى الطبرى (٨: ٦٩٠): بجزائر. والجُزُر والجزائر: جماعة الجزور. والجزور مايصلح لأن يُذبح من الإبل.

منهم شاةً، فذبحوها واشتغلوا بها، وتركوا تعبئتهم، واختلطوا على الماء.

فلمّا رَأىٰ عبّاس بن سهل أنّهم قد شُغلوا، جمع من أصحابه نحواً من ألف رجل من ذوى البأس و النّجدة، ثمّ أقبل نحو فسطاط شرحبيل بن ورس، فلمّا رءاهم ابن ورس مُقبلين إليه، نادىٰ فى أصحابه، فلم تتوافَ إليه مائة رجل. حتّى انتهىٰ إليه عبّاسُ وهو يقول:

ـ «يا شُرطةَ الله، إلىَّ إلىَّ، قاتلوا المُحلّين أولياءَ الشّيطان الرَّجيم، فقد غدروا، وفجروا.»

قال: فوالله ما اقتتلنا إلاّ شيئًا [234] ليس بشىء، حتّى قُتل ابن ورس فى سبعين من أهل الحفاظ، ورفع ابنُ سهل رايةَ الأمان لأصحاب ابن ورس، فأتوها إلاّ نحواً من ثلاثمائة رجل انصرفوا مع سلمان بن حُميد[1] الهَمْدانىّ.

فلمّا وقعوا فى يد عبّاس بن سهل أمر بهم فقُتلوا إلاّ نحواً من مائة رجل كَرِهَ ناس مِمَّن دُفعوا إليهم قَتْلَهم، فخلّوا سبيلهم، فرجعوا، فماتَ أكثرهم فى الطّريق.

وبلغ المختارَ أمرُهم، فخطب النّاسَ وقال:

ـ «ألا، إنّ الفُجّار الأشرار قَتلوا الأبرار الأخيار.»

ثم كتب إلى محمّد بن الحنفيّة مع صالح بن مسعود الخثعمى:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم»

ـ «أمّا بعد، فإنّى كنتُ بعثتُ إليك جُندًا ليُذلّوا لك الأعداءَ، وليحوزوا لك البلادَ، فساروا حتّى إذا أظلّوا على طَيبةَ، لقيهم جُند الملحد، فخدعوهم بالله، وغرّوهم، فلمّا اطمأنّوا إليهم وثبوا بهم فقتلوهم، فإن رأيتَ أن أبعث إلى المدينة من قِبلى جُندًا كثيفًا وتبعث إليهم من قِبلكَ رُسُلاً حتّى يعلم أهل المدينة أنّى فى طاعتك، وإنّما بعثتُ الجندَ عن أمرك، فافعلْ، فإنّكَ ستجدهم أعرفَ بحقّكم أهلَ البيت، وأرأفَ بكم منهم بآل الزُّبير والملحدين، [235] والسّلام.»

فكتب إليه محمّد بن الحنفيّة:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّ كتابك لمّا بلغنى قرأته وفهمته، وعرفتُ تعظيمكَ لحقّى وماتنوى به من سُرورى، وإنّ أحبّ الأمور إلىّ ماأُطيع اللهُ فيه، فأطع اللهَ ما استطعتَ فى ما أعلنتَ وأسررتَ. واعلمْ أنّى لو أردتُ القتالَ لوجدتُ النّاس إلىّ سراعًا، والأعوان لى كثيرًا، ولكنّى أعتزلهم وأصبر

---

١) حُميد: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨:٦٩١): سلمان بن حُمير.

حتّى يحكم الله لى وهو خير الحاكمين.»

فأقبل صالح بن مسعودٍ إلى ابن الحنفيّة، فودّعه، وسلّم عليه، وهو كان حامل كتاب المختار، فأعطاه جواب الكتاب، وقال:

ـ «قُلْ له: فليتّقِ الله، وليكففْ عن الدّماءِ.»

قال: فقلت له:

ـ «أصلحك الله، أ ولم تكتبْ إليه بهذا؟»

قال ابن الحنفيّة:

ـ «قد أمرتُه بطاعة الله، وطاعة الله تجمع الخيرَ كلّه، وتنهى عن الشرّ كلّه.»

فلمّا قدم كتابُه على المختار، أظهر للنّاس:

ـ «إنّى قد أمرتُ بأمرٍ يجمع البِرَّ واليُسرَ، ويَضرحُ[١] الكفرَ والغدرَ.»

ذكر رأى رءاهُ ابن الزُّبير

[بعد حبسه محمّد بنَ الحنفيّة ومَن معه بزمزم]

ثمّ إنّ عبدالله بن الزُّبير حبس محمّد بن الحنفيّة ومَن معه من أهل بيته وسبعة عشر [236] رجلاً من أهل الكوفة بزَمْزَم كرهوا البيعةَ لمن لم تجتمع عليه الأُمّة وهربوا إلى الحَرم، وتوعّدهم القتلَ والاحراقَ، وأعطى اللهَ عهدًا ـ إن لم يُبايعوا أن يُنفِذَ فيهم ماتوعّدهم به، وضرب لهم فى ذلك أجلاً.

فأشار بعضُ من كان مع ابن الحنفيّة عليه أن يبعثَ إلى المختار وإلى مَن كان بالكوفة رسولاً يعلمهم حالَهم وحالَ مَن معهم وما توعّدَهم به ابن الزُّبير، فوجّه ثلاثة نفر من الكوفة حين نام الحرس على باب زَمْزَم، وكتب معهم إلى المختار وأهل الكوفة يُعلمهم حالَه وحالَ من معه وما توعّدهم به ابن الزُّبير من القتل والحرق بالنّار، ويسألهم ألاّ يخذُلوهُ كما خذلوا الحسينَ وأهل بيته.

١) يضرح: كذا فى الأصل والطبرى ٦٩٣:٨. وفى مط: يصرح. وفى حواشى الطبرى: يطرح. ضَرَحَ الشىءَ: دفعه وأبعده. ضَرَحَ القبرَ: شقّهُ: حفره.

فقدموا على المختار، ودفعوا إليه الكتاب. فلمّا قرأهُ قال:

- «هذا كتاب مهديّكم وصريخ أهل بيت نبيّكم! قد حُظر عليهم كما يُحظَرُ على الغنم، ينتظرون القتلَ والتّحريقَ بالنّار فی آناءِ اللّيل وتاراتِ النّهار، ولستُ أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرًا مؤزّرًا.»

و وجّه أبا عبدالله الجدلیَّ فی سبعين رجلاً من أهل القوّة، ووجّه ظبيان بن عثمان التّميمی فی أربعمائة، [237] وأبا المعتمر فی مائة، وهانیُ بن قيس فی مائة وعمير بن طارق فی أربعين، ويونس بن عمران فی أربعين، وكتب إلی محمّد بن علیٍّ بتوجيه الجنود إليه، فخرج النّاس بعضهم فی أثر بعض.

وجاءَ أبو عبدالله الجدلیُّ فی سبعين راكبًا حتّی نزل ذاتَ عِرق. ولحقَهُ عُقبةُ فی أربعين، ويونس فی أربعين، فتمُّوا مائةً وخمسين فارسًا. فسار بهم حتّی دخلوا مسجد الحرام ومعهم الكافر كوباتُ[1] وهم ينادون:

- «يا لَثاراتِ الحسين»

حتّی انتهوا إلی زمزم وقد أعدّ ابن الزّبير الحطب ليُحرقهم وقد كان بقی من الأجل يومان. فطردوا الحرسَ، وكسروا أعوادَ زَمزَم، ودخلوا على محمّد بن الحنفيّة، فقالوا له:

- «خلِّ بيننا وبين عدوِّ الله ابن الزّبير!»

فقال لهم:

- «إنّی لا أستحلُّ القتال فی حرم الله.»

فقال ابن الزّبير:

- «أ تحسبون أنّی مُخَلٍّ سبيلهم دون أن يبايع وتُبايعوا؟»

فقال أبوعبدالله الجدلیّ:

- «إی وربِّ الرُّكن والمقام، لَتُخلّينَّ سبيلَه أو لَنُجالدنَّك بأسيافنا جِلادًا يرتاب منه المبطلون.»

فقال ابن الزّبير:

---

١) الكافر كوبات: كذا فی الأصل والطبری ٨:٦٩٤. فی مط: الكافركربات. وفی حواشی الطبری عن الأصول الأخریٰ: الكافركوبات. والكافر كوبات جمعٌ مفرده الكافر كوب وهو مركبٌ من لفظتين: عربيّةٍ وفارسية معناه: قامع الكافر: آلةٌ حربيةٌ.

- «ماهؤلاءِ إلاّ أكلة راس، والله لو أذنتُ لأصحابى لَقَطفتُ رؤوسهم فى ساعة.»
فقال له قيس بن مالك: [238]
- «إن رُمتَ ذلك، رجوتُ أن يُوصل إليك قبل أن ترى ماتحبُ.»
فكفَّ ابن الحنفيّة أصحابه وحذّرهم الفتنة.
ثمّ قدم أبو المعتمر وبقيّة النّاس ومعه المال حتّى دخلوا المسجد فكبّروا[١]:
- «يا لَثاراتِ الحسين.»
فلمّا رءاهم ابن الزّبير خافهم، وخرج محمّد بن الحنفيّة ومن معه إلى شِعْب علىّ وهم يسبّون ابن الزّبير، ويستأذنون محمّد بن الحنفيّة فيه، ويأبى عليهم. واجتمع فى الشّعب مع محمّد بن علىّ أربعة آلاف رجل، فقسم بينهم ذلك المال.

ذكر ماكان من المختار بعد وقعة السُبيع بالكوفة

ثمّ إنّ المختار بعد أن فرغ من قتال مَن ذكرناهم فى وقعة السُّبيع، ماترك إبراهيم بن الأشتر إلاّ يومين حتّى أشخصه إلى الشّام لحرب عبيدالله بن زياد، وأخرج معه وجوهَ أصحابه ممّن شهد الحروبَ وجرّبها، وخرج المختار يُشيّعه ويوصيه ومعه الكرسىّ ويليه قومٌ كالسَّدَنةِ. وسنذكر خبر الكرسىّ إن شاءَ الله.

وكان موضع عسكر إبراهيم بموضع حمّام أعيَن، فلمّا أراد أن ينصرف عنه [239] قال لابن الأشتر:

- «خُذْ عنّى ثلاثًا: خفِ اللهَ فى سرّ أمرك وعلانيته، وعجّل السّيرَ، وإذا لقيتَ عدوّك فناجزهم ساعةَ تلقاهم، وإن لقيتَهم ليلاً فاستطعتَ ألاّ تُصبح حتّى تُناجزهم فافعل، وإن لقيتَهم نهارًا فلا تنتظر بهم اللّيلَ.» ثمّ قال:
- «هل حفظتَ ما أوصيتُكَ به؟» قال:
- «نعم.» قال:
- «صحبك الله»
ثمّ انصرف.

---

١) فكبّروا: يا لثارات الحسين. كذا فى الأصل ومط والطبرى.

خبر الكرسىّ

كان طفيل بن جعدة بن هُبيرة قد ضاقت يَدُهُ، وكانت أمُه أم هانئ بنت أبى‌طالب أُخت علىّ عليه السّلام لأبيه وأمّه، وكان المختار يطالب آلَ جعدة بكرسىّ علىّ بن أبى‌طالب، فيقولون:

- «لا والله، ماهو عندنا»

فيقول المختار:

- «لاتكونوا حَمقى» - ويتوعّدهم.

قال طفيلٌ: فاحتَرْتُ يومًا وأنا على إضاقتى تلك، فرأيتُ كرسيًا عند جارٍ لى زيّاتٍ قد ركبه الوسخ. فخطر ببالى أن لو قلتُ للمختار: هذا كرسىُّ على بن أبى‌طالب؛ لَقبِلَه. فأرسلتُ إلى الزّيّات أن:

- «ابعث إلىّ بكرسيّكَ.»

فأرسلَ به إلىّ، فأتيتُ المختار، فقلت له:

- «إنّى كنت [240] أكتُمكَ أمر الكرسىّ الّذى كنتَ تلتمسه، وقد بدا لى أن أظهرهُ، لأنّ جعدة بن هبيرة كان يجلس عليه كأنّه يَرى أنّ فيه أثرةً من علم.» فقال:

- «سبحان الله! فأخّرتَ هذا إلى اليوم! إبعث به!»

قال: وقد كنتُ تقدّمتُ بغسله وقد غُسل، فخرج عُودَ نُضارٍ، وقد كان تشرّبَ الزّيتَ، فخرج ابيضَ وقد غُشّىَ. فأمر لى المختار باثنَى عشر ألفًا، ثمّ دعا:

- «الصّلاة جامعة.»

وخطب، فقال:

- «إنّه لم يكن فى الأُمم الخالية أمرٌ إلاّ هو كائنٌ فى هذه الأُمّة مثله، فإنّه كان فى بنى إسرائيل التّابوت، فيه بقيّةٌ ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، وإنّ هذا فينا مثل التّابوت، اكشفوا عنه.»

فكشفوا عنه أثوابَه، وقامت السّبائيّة، فكبّروا ثلاثًا. فلمّا خرج المختار مع إبراهيم بن الأشتر لوجه عُبيدالله بن زيادٍ، أخرج الكرسىّ على بغلٍ يُمسكه عن يمينه سبعةٌ وعن يساره سبعةٌ. فقُتل أهل الشّام مقتلةً لم يُقتَلوا مثلَها، فزادهم ذلك فتنةً، فارتفعوا فيه حتّى غَلَوا، وكان أوّل من سدَنَهُ موسى بن ابى موسى الأشعرى، ثمّ حَوْشب البرشمى[1]، فكانوا [241] يرون أنّ المختار يتكلّم

---

١) البرشمى: كذا فى الأصل ومط (بالشين المعجمة) وما فى الطبرى: البرسمى (بالسين المهملة).

عنه بوحى، وأشباه هذا[١].

فأمّا إبراهيم بن الأشتر، فـإنّه سـار من يومه مُسـرعًا لاينثنى، يريد أن يلقـى عبيدالله بن زيادٍ وأهل الشّام قبل أن يدخلوا أرض العراق، فسبقهم إلى أرض الموصل، وأسـرع إليه السّيرَ حتّى لقيه بخازر[٢] إلى جنب قريةٍ يقال لها: باربيثا[٣] بينها وبين الموصـل خمسـة فـراسخ، وأخـذ ابن الأشتر لمّا دَنا من ابن زيادٍ لايسير إلاّ على تعبئةٍ ويسير بهم جميعًا لايفرّقهم إلاّ أنّه يبعث الطّفيل بن لقيطٍ فى الطّلائع، وكان شجاعًا بئيسًا.

ثمّ أرسل عُمير بن الحُباب السُلمى إلى ابن الأشتر أنّى معك وأريد لقـاءَك اللّيلةَ. فـأرسل إليه ابن الأشتر أن: إلقَنى اذا شئتَ.

فأتاه عميرٌ ليلاً، فبايعه وأخبره أنّه على ميسرة صاحبه، و واعده أن ينهزم بالنّاس، فقال له ابن الأشتر:

- «فإنّى أستشيرك فى أمر فأشِرْ علىّ.» قال:

- «نعم.» قال:

- «أ ترىٰ أن أخندق علىّ وأتلوّم يومين أو ثلاثةً؟»

قال عُمير بن الحباب:

- «لاتفعل، إنّا لله، وهل يريد القوم إلاّ هذه، إن طـاولوك وماطلوك هو خير لهـم [242] هم كثيرُ أضعافكم، وليس يُطيق القليلُ الكثيرَ فى المطاولة، ولكن ناجز القوم، فإنّهم قد مُلئوا منكم رُعبًا وإنّهم إن شامُوا[٤] أصحابك وقاتلوهم يومًا بعـد يوم ومرّةً بعـد مرّةٍ، أنِسـوا بهـم واجترأوا عليهم.»

قال إبراهيم:

- «الآن علمتُ أنّك لى مناصحٌ، صدقتَ الرّأىَ ومارأيتَ. أما إنّ صاحبى، بهذا الرّأى أمرنى.»

قال عُمير:

- «فلاتعدُونّ رأيَهُ، فإنّ الشّيخ قد ضرّسته الحروبُ، وقاسىٰ منها مالم تُقاس. ناهِض الرّجلَ إذا أصبحتَ.»

---

١) أنظر الطبرى ٨: ٧٠٢-٧٠٦.

٢) بخازر: كذا فى الأصل والطبرى ٨:٧٠٧. وفى مط: بحازر. وفى حواشى الطبرى: بجازر، بحازر، بحارر.

٣) باربيثا: كذا فى الأصل والطبرى. وفى مط: باربيتا. وفى حواشى الطبرى: باريثا، باديثا، ومصحّفات أُخرى.

٤) شامُوا: كذا فى الأصل والطبرى ٨:٧٠٨. وما فى مط: سامتوا. سامته: وازاهُ وقابَلهُ. شامَهُ: قاربه. دَنا منه.

وانصرف عُميرُ، وأذكى ابن الأشتر حرسَهُ تلك الليلةَ الليلَ كلَّه، ولم يدخل عينَه غُمضٌ حتّى إذا كان فى السَّحر الأوّل عبّى أصحابَه ميمنةً وميسرةً، وألحقَ أميرَ الميمنة بالميمنة، وأمير الميسرة بالميسرة، وأمير الرَّجّالة بالرَّجّالة، وضمَّ الخيلَ وعليها أخوه لأمّه عبدُالرَّحمن بن عبدالله، فكانت وسطًا من النّاس، ونزل إبراهيم يمشى[١]، وقال للنّاس:

ـ «إزحفوا.»

فزحف النّاس معه رويدًا رويدًا حتّى أشرف على تلٍّ عظيمٍ مُشرفٍ على القوم، فجلس عليه، وإذا أولئكَ لم يتحرّكْ منهم أحدُ بعدُ [243] فدعا ابن الأشتر بفرسٍ له فركبه، ثمّ مرّ بأصحاب الرّايات، فكلّما مرّ على رايةٍ وقف عليها وقال:

ـ «يا أنصارَ الدّين وشيعةَ الحقّ وشرطةَ الله! هذا عُبيدالله بن مرجانة قاتلُ الحسين بن علىّ ابن فاطمة بنتِ رسول الله، صلّى الله عليهم، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته، وبينَ الفرات أن يشربوا منه وهم ينظرون إليه، ومنعه أن يأتى ابنَ عمّه فيصالحه، ومنعه أن ينصرفَ إلى رحله وأهله، ومنعه الذّهاب فى الأرض العريضة، حتّى قتله وقتلَ أهل بيته، قد جاءكم الله به، وجاءه بكم. و والله إنّى لأرجو أنّه ماجمع بينكم فى هذا الموطن وبينه، إلاّ ليشفىَ صُدورَكم، ويسفك دَمَهُ على أيديكم.»

وسار فى مابين الميمنة والميسرة، فرغّبهم فى الجهاد، وحرّضهم على القتال. ثمّ رجع حتّى نزل تحت رايته، وزحف القوم إليه، وقد جعل ابن زياد على ميمنته الحصين بن نمير السّكونى، وعلى ميسرته عمير بن الحباب وشرحبيل بن ذى الكَلاع على الخيل، وهو يمشى فى الرّجال.

فلمّا تدانى الصّفّان حمل الحصين بن النُّمير فى ميمنة أهل [244] الشّام على ميسرة أهل الكوفة وعليها علىّ بن مالك الجُشَمى، فثبت له هو بنفسه، فقُتل، ثمّ أخذ رايتَه قُرّة بن علىّ، فقُتل أيضًا فى رجال أهل الحفاظ، وانهزمت الميسرة، فأخذ الرّايةَ عبدالله بن ورقاء السّلُولىّ، فاستقبل المنهزمين وقال:

ـ «يا شرطة الله، إلىّ إلىّ.»

فاقبل جلُّهم إليه، فقال:

١) يمشى: كذا فى مط والطبرى. وفى الأصل: يمسى (بالسين المهملة) فأعجمناها.

- «هذا أميركم يُقاتل. إلى أينَ؟ سيروا بنا إليه.»

فأقبل حتّى أتاهُ، فإذا هو كاشفٌ عن راسه يُنادى:

- «إليَّ إليَّ، أنا ابن الأشتر، إنّ خير فُرّاركم كُرّاركم، ليس مُسيئًا من أعتب.»

فثاب إليه أصحابُه. وأرسل إلى صاحب الميمنة:

- «إحملْ على ميسرتهم.»

وهو يرجو أن ينهزم لهم عمير بن الحباب كمازعم.

فحمل عليه سفيان بن يزيد بن المغفَّل صاحب الميمنة، فثبت لهم عُمير بن الحباب وقاتله قتالاً شديدًا. فلمّا رأى إبراهيم ذلك، قال لأصحابه:

- «أمُّوا هذا السَّواد الأعظم، فوالله لو قد فضضناهُ لانجفل من ترون منهم يمنةً ويسرةً انجفالَ طيرٍ زُعِق بها فطارت.»

قال ورقاءُ بن عازب: فمشينا إليهم حتّى إذا دنونا منهم اطّعَنّا بالرِّماح قليلاً، ثمّ صرنا إلى السُّيوف والعُمُد [245] فاضطربنا بها مليًّا. فوالله ماسمعتُ من وقع الحديد على الحديد إلاّ مَياجِنَ[1] قصّارى دار الوليد بن عُقبة بن أبى مُعيط. ثمّ انهزموا، فسمعتُ إبراهيم بن الأشتر يقول لصاحب رايته:

- «إنغمس برايتكَ فيهم.» فيقول له:

- «جُعلت فداءَك، إنّه ليس متقدَّم.» فيقول:

- «بلىٰ، فإنّ أصحابك يقاتلون، وإنّ هؤلاءِ يهربون.»

فإذا شدّ إبراهيم بسيفه، فلايضرب أحدًا إلاّ صرعه. وكرّ إبراهيمُ بن الأشتر الرِّجالَ بين يديه كأنّهم الحُملان، وإذا شدَّ، شدَّ أصحابُه معه شدّةَ رجلٍ واحدٍ.

فلمّا انهزم أهل الشّام، قال ابن الأشتر:

- «إنّى قد ضربتُ رجلاً فقتلتُه و وجدتُ منه رائحة المسك، ضربةً شرّقتْ يدَيه وغرّبتْ رجليه، تحت رايةٍ منفردة على شاطئ جازر، وأظنّه طاغيتهم، فالتمسوهُ.»

فالتمَسوهُ، فإذا هو عبيدالله بن زيادٍ قتيلاً، ضربهُ فقطَّهُ[2].

وحمل شريكُ بن حرير[3] على الحصين بن نُمير السَّكونى وهو يحسبه ابن زيادٍ، فاعتنق كلُّ

١) مياجن: لا نقط فيها فى الأصل والنقط من الطبرى (٧١٢:٨). وما فى مط: مناجر.

٢) فقطَّه: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطّبرى: فقدّهُ. ولايخفى الفرق بينهما.

٣) حرير: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى وهامشه: جدير، جرير، حدير.

واحدٍ منهما صاحبَه، ونادىٰ شريكٌ:
- «أُقتلونى وابنَ الزّانية.»
فقُتل ابن نُمير.
وكان شريك بن حرير [246] مع علىٌ أصيبت عينُه معه، فلمّا انقضت حربُ علىٌ لَحِقَ ببيت المَقدِس، فلمّا جاءَهُ قتلُ الحسين قال:
- «أعاهد الله، لئن وجدتُ من يطلب بدم الحسين أقبل إليه، ولأُقتلنَّ ابن مرجانة، أو لأُموتنَّ دونه.»
فلمّا بلغه خروج المختار يطلبُ بدم الحسين، جاءَهُ، فوجّهه مع ابن الأشتر.
وقُتل ابن ذى الكُلاع، وتبع أصحابُ إبراهيم أهلَ الشّام المنهزمين فكان من غرقَ أكثرَ ممّن قُتل. وأصابوا من عسكرهم كلَّ شىء من الغنائم.
ومضى ابن الأشتر إلى الموصل، وبعث عُمّاله، فبعث أخاه عبدالرّحمن بن عبدالله على نصيبين، فغلب على سنجار و دارا و ما والاهما من أرض الجزيرة، وخرج من أهل الكوفة كلُّ من كان قاتل المختار وهزمهم، فلحقوا بمصعب بن الزُّبير بالبصرة وفيهم شَبَث بن ربعىّ. وكان المختار قال لأصحابه:
- «سيأتيكم الفتح من قبل إبراهيم بن الأشتر. قد هزموا أصحاب ابن مرجانة.»
وخرج المختار من الكوفة، واستخلف عليها السّائب بن مالك الأشعرى، وخرج بالنّاس، فنزل ساباط، وقال للنّاس:
- «أبشروا، فإنّ شرطة الله [247] قد حسُّوهم بالسُّيوف يومًا إلى اللّيل بنصيبين أو قريبًا منها.»
قال: ودخلنا المدائن واجتمعنا إليه، فصعد المنبر، فوالله إنّه ليخطبنا، ويأمر بالجِدّ والاجتهاد والثّبات على الطاعة والطّلبِ بدماءِ أهل البيت، إذ جاءَته البُشرىٰ تترىٰ، يتبع بعضُها بعضًا بقتل عُبيدالله بن زيادٍ وهزيمةِ أصحابه، وأخذِ عسكره، وقتلِ أشراف أهل الشّام، فقال المختار:
- «يا شرطة الله، أ لم أبشّركم بهذا قبل أن يكون؟» قالوا:
- «بلىٰ والله، لقد قلتَ ذلك.»
قال الشّعبىُّ: فيقول لى رجلٌ من بعض جيراننا:
- «أ تؤمن الآن يا شعبىُّ؟»
قال: قلت:

- «بأىّ شىء أومنُ؟ بأنّ المختار يعلم الغيب؟ لاأومنُ بذلك أبدًا.» قال:
- «أ ولم يقُلْ لنا أنّهم انهزموا؟» فقلتُ:
- «بلى، ولكن زعم أنّهم هُزموا بنصيبين من أرض الجزيرة، وإنّما هو بخازر من أرض الموصل.» فقال:
- «والله لاتُؤمنُ حتّى ترى العذابَ الأليم.»

ذكر مسير مُصعَبٍ الى المختار وحربه

لمّا قدم شبثٌ على مُصعب بن الزُبير كان تحته بغلةٌ له قد قُطع ذَنَبها [248] وقُطع طرفُ أذنها، وشقّ قباءَه وهو يصيح:
- «ياغوثاه، ياغوثاهُ!»
فعُرّف مُصعبٌ أنّ بالباب رجلاً صفته كذا وكذا، فقال لهم:
- «نعم، هذا شبث بن ربعىّ، ولم يكن ليفعلَ هذا غيرُه، أدخلوهُ.»
فأُدخل إليه، وجاءَه أشراف النّاس من أهل الكوفة، فأخبروه بما أُصيبوا به من وُثوب عبيدهم ومواليهم عليهم، وشكوا إليه، وسألوه النّصرَ لهم والمسيرَ إلى المختار معهم. وقدم عليهم محمّد بن الأشعث بن القيس، ولم يكن شهد وقعة الكوفة، وانّما كان يُقَصُ له. فلمّا بلغه هزيمةُ النّاس، تهيّأ للشُخوص، وسأل عنه المختار، فأُخبر بمكانه، فسرّح وراءهُ قومًا، فلم يلحقوه، ومضى إلى مُصعبٍ، فأدناه مُصعبٌ وقرّبه وأكرمه لشرفه، وهدم المختار دار ابن الأشعث.
ثمّ قال مُصعبٌ لمحمّد بن الأشعث لمّا أكثر عليه النّاس:
- «إنّى لاأسير حتّى يأتينى المهلّب بن أبى صفرة.»
فكتب مُصعبٌ إلى المهلّب وهو عامله على فارس أن:
- «أقبلْ إلينا لتشهد أمرنا وتسير معنا إلى الكوفة.»
فتباطأ عنه المهلّب كراهةً للخروج، واعتلّ بشىء من الخُراج، [249] فأمر مُصعبٌ محمّد بن الأشعث بن قيس، فى بعض ماكان محمّد يستحثّه:
- «إيتنى بالمهلّب.»
فخرج محمّد بكتاب مُصعبٍ إلى المهلّب، فلمّا قرأه، قال:
- «مثلك يا محمّد فى شرفك يأتى بريدًا؟ أما وجد المُصعبُ بريدًا غيرك؟»
قال محمّد:

ـ «إنّى، والله، ما أنا ببريدٍ لأحدٍ، غير أنّ نساءَنا وأبناءَنا وحُرَمَنا غَلَبَنا عليهم عبداننا وموالينا.»

فخرج المهلّب بجموع كثيرة وأموالٍ عظيمةٍ معه فى هيئةٍ وعُدَّة وجموعٍ ليس بها أحدٌ من أهل البصرة. ولمّا ورد بابَ مُصعب صادفه وقد أذن للنّاس، فحجبه الحاجب وهو لايعرفه، فرفع المهلّب يدَه وكسر أنفه. فدخل الحاجب إلى المُصعب وأنفُه يسيل دمًا، فقال له:

ـ «ما لك؟» قال:

ـ «ضربنى رجلٌ ما أعرفه.»

ودخل المهلّب، فلمّا رءاه الحاجب، قال:

ـ «هُو ذا.»

فقال له مُصعبُ:

ـ «عُدْ إلى مكانك.»

ثمّ عسكر مُصعبُ عند الجسر الأكبر، وقدّم أمامه عَبّاد بن الحصين الحبطىَّ من بنى تميم على مقدّمته، وبعث عُمر بن عبدالله بن معمَر على ميمنته، وبعث المهلّب على ميسرته، وبعث على الأخماس مالك بن مِسمعٍ [250] ومالك بن المنذر، والأحنف بن قيسٍ، وزياد بن عَمرو الأزدىَ، وقيس بن الهيثم.

وبلغ ذلك المختارَ، فقام فى أصحابه، فحمدالله وأثنى، وقال:

ـ «يا أهلَ الدّين وأعوانَ الحقّ وأنصار الضّعيف وشيعة آل الرّسول! إنّ فُرّاركم الّذين بغَوا عليكم فهزمتموهم، أتَوا أشباههم من الفاسقين، فاستغوَوهم عليكم ليمصحَ الحقُّ ويُنعش الباطل، ويُقتل أولياءُ الله. والله لو هلكتم ما عُبدالله فى الأرض إلاّ بالفَرى على الله واللّعن لأهل بيت نبيّه، صلّى الله عليه. انتدبوا مع أحمر بن شُميط.»

فعسكر بحمّام أعين. ودعا المختارُ رؤوس الأرباع الّذين كانوا مع ابن الأشتر، فبعثهم مع ابن شُميط، لأنّهم فارقوا ابن الأشتر لما رأوا من تهاونه بأمر المختار، فبعثهم المختار مع ابن شُميط، وبعث معه جيشًا كثيفًا.

وسار أحمر بن شُميط حتّى ورد المذارَ وجاءَ مُصعبُ حتّى عسكر قريبًا منه، ثمّ عبّى كلٌ واحدٍ منهم جنده، وجعل أحمرُ بن شميط على ميمنته عبدالله بن كاملٍ، وعلى ميسرته عبدالله بن وهبِ بن نضلة[١]، وعلى الخيل رزين بن عبدالله السّلولى، وعلى الرَّجَّالة كثير بن اسماعيل [251]

---

١) نضلة: كذا فى الأصل والطبرى ٧٢١:٨. وما فى مط: فضلة.

الكندىَ، وجعل أبا عمرة على الموالى وكان مولًى لِعُرَيْنَة.

مكيدةُ لعبدالله بن وهبٍ على الموالى

فجاءَ عبدالله بن وهبٍ وكان على الميسرة، إلى ابن شُميطٍ وقد أخلاهُ، فقال له:

- «إنّ الموالى والعبيد إلى[١] خَورٍ عند المصدوقة، وأنّ معهم رجالاً كثيرًا على الخيل وأنتَ تمشى، فمُرْهم لينزلوا معك، فإنّ لهم بك أُسوةً، وإنّى أتخوّف إن طُردوا ساعةً فطُوعِنوا وضُوربوا، أن يطيروا على متونها، ويُسلموك، وإنّك إن أرجلتَهم لم يجدوا من الصَبْر بُدًّا.»

وإنّما غشّ الموالىَ والعبيدَ لما كان لَقِىَ منهم بالكوفة، فأحبَّ - إن كانت عليهم الدُبرةُ - ألاّ يكونوا فُرسانًا بل رجّالةً، فلاينجو منهم أحدٌ. ولم يتّهمه ابن شميط، وظنّ أنّه إنّما أراد بذلك نصيحته ليصبروا ويقاتلوا فقال:

- «يا معشر الموالى، انزلوا معى، فقاتلوا.»

فنزلوا معه ثمّ مشَوا بين يديه وبين يدى رايته.

وجاء مصعب بن الزُبير وقد جعل عبّاد بن الحصين على الخيل، وأقبل عبّادُ حتّى دنا من ابن شُميط وأصحابه فقال:

- «إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة [252] رسوله، صلّى الله عليه، وإلى بيعة أمير المؤمنين عبدالله بن الزُبير.»

فقال الآخرون:

- «إنّا ندعوكم إلى كتاب الله، وسنّة رسوله، صلّى الله عليه، وإلى بيعة الأمير المختار، وإلى أن يجعل الأمر شُورى فى آل الرّسول، فمن زعم من النّاس أنّ أحدًا ينبغى أن يتولّى عليهم بَرِئْنا منهم وجاهدناه.»

فانصرف عبّادُ إلى مُصعب فأخبره فقال له:

- «إرجع، فاحمل عليهم.»

فحمل على بن شميط، فلم يَزُلْ منهم أحدٌ. ثمّ انصرف إلى موقفه، وحمل المهلّب على ابن كامل، فجال أصحابُه بعضهم فى بعض، فنزل ابن كامل، وانصرف عنه المهلّب، ثمّ وقف ساعةً، وقال لأصحابه:

---

١) إلى خَوَرٍ: كذا فى الأصل. وفى مط: إلى حور. وما فى الطبرى: آلُ خَوَرٍ.

ـ «احملوا حملةً صادقةً، فقد أطمعوكم.»

يعنى جولتهم الّتى جالوها. فحمل عليهم حملةً منكرةً، فولّوا، وصبر ابن كامل فى رجال همدان، فأخذ المهلّبُ يسمع اتّصال[1] القوم:

ـ «أنا الغلام الشاكرىّ، أنا الغلام الشبامىّ، أنا الغلام الثّورىّ.»

وحمل عمر بن عبدالله بن مَعمر على عبدالله بن أنس، فقاتل ساعةً ثمّ انصرف عنه، وحمل النّاس جميعًا على ابن شميط، فقاتل حتّى قُتل، وتنادى أصحابه:

ـ «يا معشر بجيلة وخثعم، الصّبر الصّبر.» [253]

فناداهم المهلّب:

ـ «الفرار الفرار، فهو اليوم أنجىٰ لكم، علامَ تقتلون أنفسكم مع هذه العبدان، أضلّ الله سعيكم.»

ثمّ نظر إلى أصحابه فقال:

ـ «والله ماأدرى استحرار القتل إلاّ فى أصحابى وقومى.»

ومالت الخيل على رجّالة ابن شُميط فانهزمت وأخذت فى الصّحراء، فبعث مُصعب بن الزّبير عبّاد بن الحصين على الخيل وقال:

ـ «إيّما أسير أخذتّه فاضربْ عُنقَه.»

وسرّح محمّد بن الأشعث فى خيلٍ عظيمةٍ من خيل أهل الكوفة ممّن كان المختار طردهم، فقال:

ـ «دونَكم ثأرَكم.»

فلم يكن على المنهزمين قومٌ أشدّ عليهم منهم، كانوا لايعفون عن أسير إنّما هو القتل، فلم يَنجُ من ذلك الجيش إلاّ طائفةٌ من أصحاب الخيل، وأمّا رجالتهم، فأبيدوا.

فتحدّث عبدالرّحمن بن أبى عُمير الثّقفى، قال: والله إنّى لجالسٌ عند المختار حين أتاه هزيمة القوم، فأصغى إلىّ برأسه وقال لى:

ـ «قُتلت والله العبيدُ قتلةً ماسمعتُ بمثلها قطُّ.»

ثمّ قال:

---

١) كذا فى الأصل ومط وبعض الأصول فى هامش الطبرى: اتصال. وما فى الطّبرى (٨:٧٢٢): يسمع شعار القوم. وفى بعض الأصول: اتّصال.

- «وقُتل ابن شميط وابن كامل، وفلان وفلان..»
فسمّى قومًا من العرب ورجالاً كان الواحد منهم خيرًا من أمّةٍ من النّاس.»
قال: فقلت:
- «إنّا لله، هذه والله [254] مصيبةٌ.»
فقال لي:
- «ما من الموت بُدٌ، وما من ميتةٍ أموتُها أحبَّ إليّ من مثل ميتة ابن شميط، حبّذا مَصارع الكِرام.»

قال: فعلمتُ أنّ الرّجل قد حدّث نفسه إن لم يُصب حاجتَهُ، أن يُقاتل حتّى يموتَ.

وأقبل مصعبٌ حتّى قطع من تلقاءِ واسط القَصَب، ولم تكن واسطُ هذه بُنيتْ بعدُ، وأخذ فى كَسكَر، ثمّ حمل الرّجال وأثقالهم وضعفاءَ النّاس فى السُّفن، فأخذوا فى نهر يُقال له: نهر خُرشيذ، ثمّ خرجوا من ذلك النّهر إلى الفرات. وكان أهل البصرة يخرجون فيجرُّون سفنهم ويقولون:

عوّدنا المُصعَبُ جَرَّ القَلسِ والزّنبريّات الطّوال القُعُسِ

ولمّا بلغ المختارَ أنّهم قد أقبلوا إليه فى البرّ والبحر، سار حتّى نزل السَّيلحين، ونظر إلى مجتمع الأنهار: نهر الحيرة، ونهر السَّيلحين، ونهر القادسيّة، ونهر يوسف[1]، فسكر الفرات على مجتمع الأنهار، فذهب ماءُ الفرات كلّه فى هذه الأنهار، وبقيت سفُن أهل البصرة فى الطّين.

فلمّا رأوا ذلك، خرجوا من السُّفن يمشون، وأقبلت خيلُهم تركض حتّى أتَوا ذلك السّكر، فكسروهُ. [255]

[غلطُ المختار فى ذلك]

فكان غلط المختار فى ذلك، أنّه حيث سكر الماءَ وقطعه عن القوم، وجب أن يخلّف على السّكر جيشًا قويًا. فصمد القوم لمّا كسروا السّكر صَمدَ الكوفة، فلمّا رأى المختار ذلك أقبل إليهم حتّى نزل حَرُورا، وحال بينهم وبين الكوفة، وقد كان حصّن قصرَه والمسجد، وأدخل فى قصره عُدّةَ الحصار، واستعمل على الكوفة عبدالله بن شدّاد.

وجاءَ مُصعبٌ فى جيشه، وخرج إليه المختار، وقد جعل على ميمنته سليم بن يزيد الكندى،

---

١) يوسف: كذا فى الأصل ومط وبعض الأصول فى هامش الطبرى. وما فى الطبرى (٨:٧٢٥): بُرسف.

وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهَمْدانى ثمّ الثّورى، وكان على شرطته عبدالله بن قُراد الخثعمى، وعلى الخيل عمر بن عبدالله النَّهدىّ، وعلى الرّجال مالك بن عَمرو النَّهدىّ.

وجعل مُصعبُ على ميمنته المهلّب بن أبى صفرة، وعلى ميسرته عمر بن عبدالله بن مَعمر التّيمىّ، وعلى الخيل عبّاد بن الحصين الحبطىّ وعلى الرّجال مقاتل بن مِسمع الكندىّ، ونزل هو يمشى، وجعل على الكوفة محمّد بن الأشعث. فجاءَ محمّد حتّى نزل بين مُصعبٍ والمختار مقربًا[١] مُيامنًا، فلمّا رأى ذلك المختارُ [256] بعث إلى كلّ خُمسٍ من أخماس البصرة رجلاً من أصحابه فى خيلٍ، ووقف فى بقيّة أصحابه، وزاحف النّاس ودَنا بعضُهم من بعضٍ، وحمل سعيدُ بن منقذ وعبدُالرّحمن بن شريح على بكربن وائل، وعبد القيس، وهم فى الميسرة عليهم عبدُالله بن مَعمر، فقاتلهم ربيعةُ قتالاً شديدًا وصبروا لهم، وأخذ سعيد بن منقذ وعبدالرحمن بن شريح لايُقلعان، إذا حمل أحدهما فانصرف، حَمَلَ الآخرُ، وربما حملا جميعًا.

فبعث مصعبُ إلى المهلّب:

ـ «ماتنتظر أن تحملَ مَن بإزائك؟ ألا ترى ما يلقى هذان الخُمسان اليوم؟ إحملْ بأصحابك.»

فقال المهلّب:

ـ «إنّى لَعمرى ماكنتُ لأُجزر الأزدَ وتميمًا خشيةَ أهلِ الكوفة حتّى أرى فرصتى.»

وبعث المختارُ إلى عبدالله بن جعدة أن:

ـ «احملْ على مَن يليك.»

فحمل عليهم، فكشفهم حتّى انتهوا إلى مُصعب. فجثا مُصعبُ على رُكبتيه، ولم يكن فرّارًا، فرمى بأسهمه، ونزل النّاس، فقاتلوا ساعةً، ثمّ تحاجزوا.

فبعث مُصعبُ إلى المهلّب وهو فى خُمسين من الأخماس جامّين كثيرَى العددِ والفرسان:

ـ «لاأبًا لك ماتنتظر أن تحمل على القوم؟»

فمكث غير بعيد. ثمّ إنّه قال [257] لأصحابه:

ـ «قد قاتل القوم منذ اليوم وأنتم وُقوفٌ، وقد أحسنوا، وبَقِىَ ماعليكم، احملوا واصبروا واستعينوا بالله.»

فحملوا حملةً عظيمةً، فحطّموا أصحاب المختار حطمةً مُنكرةً فكشفوهم. وقال عبدالله بن

---

١) مقربًا: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨:٧٢٦): مغرّبًا.

عمرو النّهدىّ، وكان من أصحاب صفّين:

- «ألّلهـمّ إنّى على ماكنتُ عليه ليلةَ الخميس بصـفّين، اللّهـم إنّى أبرأ إليك من فعـل هؤلاء المنهزمين.»

وجالدَ بسيفه حتّى قُتل.

وأتى مالك بن عمرو النّهدى بفرسه، وكان على الرّجّـالة، فـركبه وانقصـف أصـحاب المختار انقصافةً شديدةً كأنّهم أجمةٌ فيها حريقٌ. فقال مالك حين ركب:

- «ما أصنع بالرُّكوب؟ والله لأن أقتلَ هاهنا أحـبُّ إلىّ من أن أُقتل فـى بيتى. أينَ أهل البصائر؟»

فثاب إليه نحوٌ من خمسين رجلاً.

ذكر ظفر بعد هزيمة

وذلك عند المساء. فكـرّ على أصـحابه محمّدُ بن الأشـعث وكان إلى جـانبه، فقُتل محمّد بن الأشعث هو وعامّةُ أصحابه. وانتهى المختار فى أصحابه إلى محمّد بن الأشـعث قتيلاً ومالك بن عمرو يحسُّهم بالسّيف، فقال:

- «يامعشر الأنصار، كرُّوا على الثّعـالب الرّوّاغة.»

[258]

فحملوا عليهم، وانهزم أصحاب مُصعبٍ وطلع القمرُ.

وأمر المختار مناديًا فنادى:

- «يا محمّدُ!»

وكان علامةً بينه وبين أصـحابه، فحملوا على مُصـعبٍ، فهـزموه وأدخلوهُ عسكـره، ولم يزل المختار وأصحابه يُقاتلونهم حتّى أصبحوا وأصبح المختار وليس عنده أحدٌ.

ذكر اتّفاق[١] سَىّءٍ بعد الظّفر لأجل عجلةٍ وسوءِ تثبّتٍ

وكان أصحابه قد وغلوا فى أصحاب مُصعبٍ، فقال له بعض من كان معه:

- «أيُها الأمير، ماتنتظر؟ قد هُزم أصحابك ومابقى معك أحدٌ انصرفْ إلى القصر.»

١) ذكر اتفاق سَىّءٍ: كذا فى الأصل. وما فى مط: ذكر راى سَىّءٍ.

قال المختار:

ـ «والله مانزلتُ وأنا أريد الرُكوب، فأمّا إذا انصرف أصحابى فقدّموا فرسى.»

فركب حتّى دخل القصر منهزمًا، وانصرف أصحاب المختار حين أصبحوا، فوقفوا مليًّا، فلم يَروا المختار، فقالوا:

ـ «قد قُتل.»

فهرب منهم طائفةٌ ممّن أطاق الهرب، واختفوا فى دور الكوفة وتوجّه منهم نحو القصر نحو من ثمانية آلافٍ لم يجدوا مَن يقاتل بهم و كانوا فى الأصل عشرين ألفًا فلمّا أتوا القصر وجدوا المختار فى القصر، فدخلوا معه.

وأصبح مُصعبُ فأقبل يسير بمن [259] معه من أهل البصرة ومَن خرج إليه من أهل الكوفة، فأخذ بهم نحو السَبخة، فمرّ بالمهلّب.

فقال له المهلّب:

ـ «يا له فتحًا ما أهنأهُ! لو لم يكن محمّد بن الأشعث قُتل.» قال:

ـ «صدقتَ، فرحم الله محمّدًا.»

[ذكر قتل عُبيدالله بن علىّ بن أبى طالب]

ثمّ قال:

ـ «يا مُهلّبُ!» قال:

ـ «لبّيك أيُّها الأمير.» قال:

ـ «هل علمتَ أنّ عبيدالله بن علىّ بن أبى طالبٍ قد قُتل؟» قال:

ـ «إنّا للهِ، وإنّا إليه راجعون.»

قال مصعبُ:

ـ «أما إنّى كنتُ أحبُ أن يرى هذا الفتح، ثمّ لانجعل أنفسنا أحقّ بشىء ممّا نحن فيه منه. أتدرى من قتله؟ انّما قتله مَن يزعم أنّه لأبيه شيعةٌ. أما إنّهم قتلوهُ وهم يعرفونه.»

[مُصعبُ يُحاصِر قصرَ المختار وهو فيه]

ثمّ مضى حتّى حاصر المختار، وقطع عنهم الماءَ والمادّة، وبعث عبدالرّحمن بن محمّد بن الأشعث، فنزل الكناسة، وبعث إلى الجبابين ليقطع عن المختار وأصحابه الماءَ والمادّة، فأصابهم

جهدٌ شديدٌ. وكان المختار ربما خرج هو وأصحابه، فقاتلوا قتالاً ضـعيفًا، وكان لاتخـرج له خيلٌ إلاّ رُميتْ بالحجارة من فوق البيوت ويُصبُّ عليهم الماءُ القذر، فاجترأ النّاس عليهم. فكان أفضل معايشهم من نسائهم. وذلك أنّ المرأة كانت تخـرج من منزلهـا معهـا الطّعـام واللُّطَفُ[١] والماءُ قدالتحفت [260] عليه، فتخرج كأنّها تريد المسجد الأعظم للصّلاة أو تزور قرابةً لها، فـإذا دَنَتْ من القصر فُتح لها، فدخلت على حميمها بطعامه وشرابه ولَطَفِه. وإنّ ذلك لَيبلغ مُصعبًا.

وكان المهلّبُ ذاحُنكة وتجربة، فقال:

- «أيُّها الأمير، اجعل عليهم دروبًا حتّى يمكنك أن تمنع مايأتيهم من جهـة أهليهـم وتدعَهـم فى حصنهم حتّى يموتوا فيه.»

وكان القوم إذا اشتدّ عليهم العطش استقَوا ماءَ البئر، وطرحوا فيه العسـل ليُغيِّر طعمَه. فـأُخذ ثلاث نسوةٍ فى الشّاميِّين أتين أزواجهنّ فى القصر، فبُعث بهـنّ إلى مُصـعبٍ ومعهـنّ الطّعـام والشّراب، فردّهنّ مُصعبٌ ولم يعرض لهنّ.

فقال المختار يومًا لأصحابه:

- «وَيْحَكُم! إنّ الحصـار لايزيدكم إلاّ ضـعفًا، انزلوا بنا، فلنُقـاتلْ حتّى نُقتَلَ كرامًا إن قُتِلنا، والله ما أنا بيائسٍ، إن أنتم صدقتموهم، أن ينصركم الله.»

فضعفوا وعجزوا، فقال لهم المختار:

- «أمّا أنا والله لاأعطى بيدى، ولا أحكّمهم فى نفسى.»

ولمّا رأى عبدالله بن جعـدة بن هبيرة مايُريد المختار، تدلّى من القصـر، فلحـق بأناسٍ من إخوانه، فاختبأ عندهم. [261]

[مقتل المختار وماقاله فى أمره]

ثمّ إنّ المختار أزمع الخروج حين رأى من أصحابه الضّـعف والفشـل. فـأرسل إلى امرأته أمّ ثابتٍ بنت سَمُرة بن جُندب، فأرسلتْ إليه بطيبٍ كثير، فاغتسل وتَحنّطَ، ثمّ وضـع ذلك الطّيب على رأسه ولحيته، ثمّ خرج فى تسعة عشر نفسًا فيهم السّائب بن مالك الأشـعرىّ، وكان خليفته على الكوفة إذا خرج. ولمّا خرج المختار من القصر قال للسّائب:

---

١) اللُّطف: الرِّفق، الهديّة. يُقال: أهدى إليه لطفًا، وما أكثر تُحَفَهُ وألطافه. واللُّطف: اليسير من الطّعام. ويُقال: هؤلاء لطفُ فلان، أى: أصحابه واهله الّذين يُلطفونه.

ـ «ماذاترى؟» قال:

ـ «أنا أرىٰ، أم الله؟» قال:

ـ «بل الله، ويحكَ أحمقُ أنت. إنّما أنا رجلٌ من العرب لمّا رأيتُ ابن الزُّبير انتزىٰ على الحجاز، ورأيتُ نجدة انتزىٰ على اليمامة، ورأيتُ مروان انتزى على الشّام، لم أكنْ دون أحدٍ من رجال العرب، فأخذتُ هذه البلاد، وكنتُ كأحدهم، إلاّ أنّى قد طلبتُ بثأر أهل بيت النّبىّ، صلّى الله عليه وسلّم وعليهم، إذ نامت عنه العرب، فقتلتُ مَن شرك فى دمائهم، وبالغتُ فى ذلك إلى يومى هذا. فقاتِلْ على حَسَبك إن لم تكنْ لك نيّةٌ.»

ـ «قال: إنّا لله، وإنّا إليه راجعون، وماكنتُ أصنع أن أقاتل على حَسَبى؟»

فتمثّل المختار عند ذلك بشعر غيلان بن سلمة الثّقفىّ: [262]

وَلَو يرانى أبو غيلان إذ حَسَرتْ ... عَنّى الهُموم بأمرٍ ما له طَبَقُ
لَقالَ رُهبًا ورُعبًا يُجمَعان معًا ... غُنمُ الحياة،وهول الموت والشَّفَقُ
إمّا يُسفَ على مجدٍ ومكرمةٍ ... أو أُسوةٌ لك فى مَن يُهلك الوَرِقُ

ثمّ خرج فى تسعة عشر رجلاً، فقال للنّاس:

ـ «أ تؤمنونى وأخرجُ إليكم؟» فقالوا:

ـ «لا، إلاّ على الحكم.» فقال:

ـ «لا أحكّمكم فى نفسى أبدًا.»

فضارب بسيفه حتّى قُتلَ.

ذكر راى المختار فى تلك الحال وكان صوابًا

كان المختار قال لأصحابه حين أتوا أن يبايعوا على الخروج:

ـ «إذا أنا خرجت فقُتلتُ لم تزدادوا إلاّ ضعفًا وذُلاًّ، فإن نزلتم على حكمهم وثب أعداؤكم الّذين وترتموهم. يقول كلُّ رجلٍ منهم لبعضكم: هذا عنده ثأرى، فيُقتل ويَنظر بعضكم إلى بعضٍ فيرى مصرعَه ومصرعَ أحبّته، فيقولون: ياليتنا كنّا[١] أطعنا المختار وعملنا برايه، ولو أنّكم خرجتم معى، كنتم إن أخطأتم الظّفرَ، مُتّم كرامًا، وإن هرب منكم هاربٌ فدخل فى عشيرته اشتملت عليه عشيرته، أنتم غدًا أذلُّ مَن على [263] ظهر الأرض.»

١) فى الأصل: ياليتنا إنّا كنّا فحذفنا «إنّا» لأنّها زائدة.

فكان الأمر على ماقال.

ولمّا كان من الغد، قال لهم بجير بن عبدالله:

- «ياقوم، قد كان صاحبكم أمس، أشار عليكم بالرّأى لوأطعتموه، ياقوم، إنّكم إن نزلتم على حكم القوم ذُبحتم كما تُذبح الغنم، أخرجوا بأسيافكم حتّى تموتوا كرامًا إن قُتلتم.»

فقالوا:

- «قد أمرَنا بهذا مَن كان أطوعَ عندَنا وأنصح لنا منك فعصيناه، أ فنحنُ نطيعك؟»

فأمكنوا القوم من أنفسهم ونزلوا على الحكم. فبعث إليهم مُصعبُ عبّادَ بن الحصين، فكان يخرج بهم مكتّفين، فأدركتهم النّدامةُ حينئذٍ، فقُتلوا من عند آخرهم.

ذكر كلامٍ لهؤلاءِ المسلمين واستعطافٍ حين أحسّوا بالقتل

قال بُجير بن عبدالله المسلىّ[١] حين أتى به مصعبُ ومعه ناسٌ كثيرُ منهم:

- «الحمد لله الّذى ابتلانا بالإسار وابتلاك بالعفو، وهما منزلتان، فى إحديهما رضا الله، و فى الأخرى سخطه. مَن عفا عفا الله عنه وزاده عزًّا، ومَن عاقبَ لم يأمن القصاص، يابن الزُّبير، نحن أهل قبلتكم وعلى ملتكم ولسنا تُركًا ولا ديلمًا، خالفنا إخوانَنا [264] من أهل مصرنا، فإمّا أن نكونَ أصبنا وأخطأوا، وإمّا أن نكون أخطأنا وأصابوا، فاقتتلنا كما اقتتلَ أهلُ الإسلام[٢] بينهم فقد اختلفوا واقتتلوا، ثمّ اصطلحوا واجتمعوا. لقد ملكتم فأسجِحوا، وقدرتم فاعفوا.»

فلم يزل بهذا القول ونحوه حتّى رقّ لهم النّاس، ورقّ مصعبُ أيضًا، وأراد أن يخلّى سبيلَهم. فقال عبدالرّحمان بن محمّد بن الأشعث:

- «تخلّى سبيلَهم يابن الزّبير؟ اخترنا، أو اخترهم!»

و وثب محمّد بن عبدالرّحمان بن سعيد بن قيس، فقال:

- «قُتل أبى وخمسمائة من همدان وأشراف العشيرة، ثمّ تخلّى سبيلهم ودماؤنا ترقرق فى أجوافهم، اخترنا أو اخترهم.»

و وثب كلّ قوم وأهل بيت كان أُصيب منهم رجلٌ، فقالوا نحوًا من هذا القول. فلمّا رأى مصعبُ ذلك، أمر بقتلهم، فنادَوه بأجمعهم:

---

١) المسلىّ: كذا فى الأصل والطبرى (٨:٧٤٠) وما فى مط: المسلمى.

٢) أهل الاسلام: كذا فى الأصل ومط، وما فى الطبرى (٨:٧٤٠): أهل الشام.

ـ «يابن الزُّبير، لاتقتلنا، اجعلنا على مقدِّمتك إلى أهل الشّام غدًا، فوالله ما بك ولا بأصحابك عنّا غدًا غِنًى إذا لقيتم عدوّكم، فإن قُتلنا لم نُقتل حتّى نُرقّهم، وإن ظفرنا بهم كان ذلك لك ولمن معك.»

فأبى عليهم وتبع رضا أصحابه.

فقال بُجير المسلىّ:

ـ «إنّ حاجتى إليك ألاّ أقتلَ مع هؤلاء، إنّى أمرتُهم أن يخرجوا [265] بأسيافهم فيقاتلوا حتّى يموتوا كرامًا، فعصَونى.»

فقدِّم ناحيةً فقُتل.

كلامٌ آخر بنحو آخر من الاستعطاف

ثمّ إنّ مسافر بن سعيد بن نمران قال لمصعب:

ـ «يابن الزُّبير، ماتقول لله إذا قدمت عليه وقد قتلتَ أمّةً من المسلمين صبرًا حكّموك فى دمائهم وكان الحقُّ فى دمائهم ألاّ تقتل نفسًا مسلمةً بغير نفس، فإن كنّا قتلنا عدّةَ رجالٍ منكم فاقتلوا عدّةَ من قتلنا منكم وخلّوا سبيلَ بقيّتنا وفينا رجالٌ كثيرٌ لم يشهدوا موطنًا من حربنا وحربكم يومًا واحدًا كانوا فى الجبال والسّواد يجبون الخراجَ ويؤمّنون السُّبُل.»

فلم يستمع له. فقال:

ـ «قبح الله قومًا أمرتهم أن يخرجوا ليلاً على حرس سكّةٍ من هذه السّكك فنطردهم ثمّ نلحق بعشائرنا، فعصونى حتّى نموتَ الآن ميتة العبيد، فأنا أسألكَ ألاّ تخلط دمى بدمائهم.»

فقدّم ناحيةً فقُتل. فكان عدد مَن قُتل صَبرًا ستّةَ آلافٍ سوى مَن قُتل فى المعركة.

توبيخٌ من عبدالله بن عمر لمصعبٍ على فعله هذا

[266] فلقى مصعب بن الزّبير يومًا عبدالله بن عُمر، فسلّم عليه، فأعرض عنه ابن عمر، فقال:

ـ «أنا ابن أخيك مصعبُ.» فقال:

ـ «نعم، أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداةٍ واحدةٍ. عِشْ مااستطعت!»

فقال مصعبُ:

ـ «إنّهم كانوا كفرةً فَجرةً.»

فقال ابن عمر:

- «والله لوقتلتَ عدَدَهم غنمًا من تراث أبيك، لكان ذلك سرفًا.»

[كفُّ المختار سُمِّرت إلى جنب المسجد]

ثمّ إنّ مصعبًا أمر بكفِّ المختار فقُطعتْ، ثمّ سُمِّرتْ بمسمار حديد إلى جنب المسجد، فلم يزل على ذلك حتّى قدم الحَجّاج بن يوسف، فنظر إليها، فقال:

- «ماهذه؟» قالوا:

- «كفُّ المختار.»

فأمر بنزعها.

[كتب مُصعبُ إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته]

وبعث مصعبُ عُمّاله على الجبال والسّواد. ثمّ كتب إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته ويقول له:

- «إن أنت أجبتنى ودخلتَ فى طاعتى، فلك الشّام، وأعنّةُ الخيل، وما غلبتَ عليه من أرض المغرب ومادام لآل الزُّبير سلطانٌ.»

وكتب إليه عبدالملك بن مروان من الشّام يدعوه إلى طاعته ويقول:

- «إن أجبتنى ودخلت فى طاعتى، فلك العراق.»

فاستشار إبراهيم أصحابَه، فاختلفوا عليه، فقال إبراهيم:

- «لو لم أكن أصبتُ عُبيدَالله بن زياد ورؤساءَ الشّام، لأجبتُ عبدالملك [267] مع أنّى لاأختار على أهل مصرى مصرًا، ولا على عشيرتى عشيرةً.»

فكتب إلى مصعب، فأجابه مصعب: أن أقبِلْ. فأقبلَ إليه، وبعث المهلّبَ إلى عمله، وهى السّنة التى نزل فيها المهلّبُ على الفرات.

[ماجرى على عَمرةَ امرأةِ المختار]

ثمّ إنّ مُصعبًا بعث إلى عَمرة بنت النّعمان بن بشير وهى امرأة المختار، فقال لها:

- «ماتقولين فى المختار؟»

فقالتْ:

- «رحمه الله، كان عبدًا من عبادالله الصالحين.»

فرفعها مصعبُ إلى السِّجن، وكتب إلى أخيه عبدالله أنّها تزعم أنّه نبىٌ. فكتب إليه أن اقتُلْها. فأخرجها بعد عَتَمةٍ، وسلّمها إلى مَطَر، فضربها ثلاث ضرباتٍ بالسَّيف، فقالت:

- «يا أبتاه، يا أهلاه، يا عشيرتاه!»

فسمع بها أبان بن النّعمان بن بشير، فلطمه وقال له:

- «يابن الزّانية، قطعتَ نَفسَها قطع الله يمينَك.»

ولزمه مطرٌ حتّى رفعه إلى مصعب، فقال:

- «إنّ أختى مسلمةٌ.»

وادّعى شهادةَ بنى قَفل، فلم يشهد له أحدٌ، فقال مصعبُ:

- «خلُّوا سبيلَه فإنّه رأى أمرًا فظيعًا[1].»

فقال عمربن أبى ربيعة:

إنّ من أعجبِ العجائب عِندى ... قتلُ بيضاءَ حُرّةٍ عُطبولِ[2] [268]
قُتلتْ هكذا على غير جُرمٍ ... إنّ للهِ درّها من قتيلِ
كُتب القتلُ و القِتال علينا ... وعلى المحصنات جَرُّ الذُّيولِ

حصار عبدالله بن خازم رجالَ بنى تميم بخراسان

وفى هذه السّنة كان حصار عبدالله بن خازم مَن كان بخراسان من رجال بنى تميم بسبب مَن قَتلَ منهم ابنَه محمّدًا. وذلك أنّ بنى تميم تفرّقوا بخراسان أيّام ابن خازم. فأتى قصرًا يُعرف بِقرتْبا[3] عدّةٌ من فرسان بنى تميم وأنجادهم مثل عثمان بن بشير، وشعبة بن ظهير النّهشلى، و ورد بن العلَق، وزهير بن ذُؤيب العدوىّ، وجبهان بن مشجعة الضّبّى، ورقبة بن الحرّ، والحجّاج بن ناشب، فأتاهم ابن خازم فحصرهم، وخندقَ على نفسه خندقًا حصينًا لئلاّ يبيّتوه، فكانوا

---

١) وجاء فى الطبرى (٧٤٣:٨): إن المصعب بعث إلى أمّ ثابتٍ بنت سَمُرة بن جندب امرأة المختار، وإلى عمرة بنت النّعمان بن بشير وهى امرأة المختار، فقال لهما: «ماتقولان فى المختار؟» فقالت أمّ ثابتٍ: «ماعسينا أن نقول؟ مانقول فيه إلاّ ماتقولون فيه انتم.» فقالوا لها: «إذهبى.» وأمّا عمرة فقالت: «.....»

٢) العُطبول، والعُطبُل: المرأة الفتيّة الجميلة الممتلئة.

٣) كتب فى هامش الأصل: قَرتْبا: قريةٌ فىَ سواد مَرو. وجاء فى المراصد: فرناباذ: قريةٌ كبيرة بينها وبين مرو خمسة فراسخ.

يخرجون ويقاتلونه ثمّ يرجعون إلى القصر. فخرج ابن خازم يومًا على تعبئة من خندقه فى ستّة آلاف، وخرج أهل القصر، فقال عثمان بن بشير:

- «لاأظنّ لكم اليوم بهم طاقة، فانصرفوا.»

فقال زهير بن ذُؤيب العدوى: امرأته طالقٌ إن يرجع حتى ينقض صفوفهم. وكان إلى جنبهم نهرٌ يدخله الماءُ فى الشتاء، ولم يكن يومئذٍ [269] فيه ماءٌ، فاستبطنه زهير، فسار فيه ولم يشعر به أصحاب ابن خازم حتّى حمل عليهم، فحطّم أوّلهم على آخرهم واستداروا وكرّ راجعًا واتبعوهُ على جنبتى النّهر يصيحون به ولاينزل إليه أحدٌ حتّى انتهى إلى الموضع الّذى انحدر منه، فخرج، وحمل عليهم، فأفرج له القوم حتى رجع.

فقال ابن خازم لأصحابه:

- «إذا خرج إليكم زهيرٌ فطاعنتموه فاجعلوا فى رماحكم كلاليب، فاعلقوها فى أداته ودرعه.»

فالتفت إليهم ليحمل عليهم، فخلّوا رماحهم، فجاءَ يجرّ[1] أربعة أرماحٍ حتّى دخل القصر، فأرسل ابن خازم إلى زهير:

- «أرأيتَك إن آمنتُكَ و أعطيتُك مائة ألفٍ وجعلتُ لك باشان[2] طعمةً تناصحنى؟»

فقال زهير للرّسول:

- «ويحك! كيف أناصح قومًا قتلوا الأشعث بن ذُؤيب؟»

فرجع الرّسول فأسقط بها عند موسى بن عبدالله بن خازم. فلمّا أطال عليهم الحصار، أرسلوا إلى ابن خازم أن:

- «خلّنا نخرج فنتفرّق.» فقال:

- «لا، إلاّ أن تنزلوا على حكمى.» قالوا:

- «فإنّا ننزل على حكمك.»

فقال لهم زهير:

- «ثكلتكم أمّهاتكم، والله [270] ليقتلنّكم عن آخركم، فإن طبتم بالموت نفسًا فموتوا كرامًا، أخرجوا بنا جميعًا، فإمّا أن تموتوا جميعًا، وإمّا أن ينجُوَ بعضكم ويهلك بعضٌ. وأيم الله، لئن شددتم عليهم شدّةً صادقةً ليُفرجنّ لكم عن مثل طريق البريد، فإن شئتم كنتُ أمامكم، وإن

١) فجاءَ يجرّ أربعة أرماح: كذا فى الأصل. وما فى مط: فجاء باربعة أرماح.

٢) باشان: كذا فى الأصل. وما فى مط: باسان (مهملة).

شئتم كنتُ خلفكم.»

قال: فأبوا عليه، فقال:

ـ «أمّا إنّى سأُريكم.»

ثمّ خرج هو و رقبة بن الحُرّ ومع رقبة غلامٌ له تركىٌّ، وشعبة بن ظهير، فحملوا على القوم، فأفرجوا لهم، فمضوا. فأمّا رقبة وغلامُه وشُعبةُ فمضوا على وجوههم، وأمّا زهير فرجع إلى أصحابه حتّى دخل القصر، فقال لأصحابه:

ـ «قد رأيتم، فأطيعونى.» فقالوا:

ـ «إنّ فينا من يضعف عن هذا ويطمع فى الحياة.» قال:

ـ «أبعدكم الله، والله لا أكون أجزعكم من الموت.»

ففتحوا القصر، ونزلوا على حُكمه، فأرسل إليهم، فقيّدهم، ثمّ حُملوا رجلا رجلا، فأراد أن يمنّ عليهم، فأبى ابنه موسى وقال:

ـ «والله، لئن عَفَوتَ عنهم لأتّكئنّ على سيفى حتّى يخرج من ظهرى.»

فقال له عبدالله:

ـ «أما والله، إنّى لأعلم [271] أنّ الغىّ فى ما يأمرنى به.»

فقتلهم جميعًا إلاّ ثلاثةً: الحجّاج بن ناشبٍ ـ كلّمه فيه رجالٌ من بنى تميم كانوا معتزلين من عَمرو؛ وحنظلة، وجبهان بن مسجعة، وهو الّذى كان ألقى نفسَه على ابنه محمّد يوم قُتل، فقال ابن خازم خَلّوا عن هذا البغل الدّيزج؛ ورجل من بنى سعدٍ، وهو الّذى قال يومَ لحقوا ابن خازم: انصرفوا عن فارس مُضر.

فأمّا زهير بن ذُؤيبٍ، فأرادوا حملَه مقيّدًا، فأبىٰ وأقبل يَحجِل[1] فى قيده حتّى جلس بين يديه، فقال له ابن خازم:

ـ «كيف شُكرُك إن أطلقتُك وجعلتُ لك باشان طعمةً؟» قال:

ـ «لو لم تصنع بى إلاّ حقن دَمى لشكرتُك.»

فقام ابنه موسى، فقال:

ـ «تقتل الضّبعَ وتترك الذّيخ[2]؟ تقتل اللّبوءَةَ وتترك اللّيثَ؟» قال:

---

١) حجل المقيّدُ: قفز فى مشيه على الرّجلين معًا.

٢) فى هامش الأصل: الذّيخ: ولد الذّئب من الضّبع. والسّمع ولد الضّبع من الذّئب. وجاء فى المنجد: الذّيخ: الذّئب الجرىء. ذَكَر الضّباع الكثير الشّعر. والسّمع ولد الذّئب من الضّبع.

- «ويحك! يُقتل مثل زهير؟ مَن لِقتال عدوّ المسلمين، مَن لنساء العرب؟»
قال:
- «والله لو شركت فى دم أخى لقتلتُك.»
فقام رجلٌ من بنى سُلَيم إلى ابن خازم، فقال:
- «أُذكّرك الله فى زهير.»
فقال له موسى:
- «إتخذْه فحلاً لبناتك!»
فغضب ابن خازم، وأمر بقتله. قال زهيرٌ:
- «فإنّ لى حاجةً: لاتخلط دمى بدماءِ هؤلاءِ اللّئام، فقد [272] نهيتُهم عمّا صنعوا، وأمرتُهم أن يموتوا كرامًا،وأن يخرجواعليكم مُصلتين السّيوف، والله لوفعلوا لشغلوا بُنيّك[١] هذا بنفسه عن طلب الثّار بأخيه.»
وأمر به فنُحّى ناحيةً وقُتل.
فما أشبه هذا الرّأى برأى المختار حتّى كأنّ أحدَهما أخذ عن صاحبه، ولعلّ الوقتين كان واحدًا، فإنّ الزّمان متقاربٌ.

[رجوعُ الأزارقة]

وفى هذه الأيّام الّتى شُغل فيها النّاس بعضهم ببعض، رجعت الأزارقة إلى قرب الكوفة، وذلك فى سنة ثمان وستّين.
وكان عبدالله بن الزّبير ردّ أخاه مُصعبًا على العراق أميرًا بعد أن كان عزله بابنه حمزة وظهر من ابنه حمزة خفّةٌ فعزله. فلمّا ردّ مُصعبًا، بعث مُصعبُ الحارث بن أبى ربيعة على الكوفة أميرًا، وصار هو إلى البصرة،وكانت الأزارقة قد لحقت بفارس وكرمان ونواحى إصبهان بعدما أوقع بهم المهلّب بالأهواز. فلمّا أشخص المهلّب إلى الموصل كان عُمر بن عبيدالله بن مَعمر على فارس، فانحطّت الأزارقة مع ابن الزّبير بن الماحوز على عمر بن عبيدالله، فلقيهم، فقاتلهم قتالاً شديدًا، ثمّ ظفر بهم وانهزموا،وتبعهم عمربن عبيدالله، وكتب بالفتح إلى مُصعب، ولحقهم بإصطخر وقد ثبتوا له، فلقيهم وقاتلهم قتالاً شديدًا وقتل ابنه. ثمّ إنّه ظفر بهم [273] وقطعوا قنطرة

---

١) بنيّك: كذا فى الأصل. وما فى مط: ابنك.

طَمَسْتان[1]، وارتفعوا إلى إصبهان و كرمان، فأقاموا بها حتّى اجتبروا[2]، وقَوُوا، واستعدُّوا وكثروا.

ثمّ إنّهم أقبلوا حتّى مرُّوا بفارس، وفيها عُمر بن عُبيدالله بن مَعمر، فقطعوا أرضَه من غير الوجه الّذى كان فيه أخذوا على سابور[3]، ثمّ خرجوا على أرجان، فلمّا رأى عمر بن عُبيدالله أنّ الخوارج قد قطعتْ أرضَه موجّهةً إلى البصرة خشيَ ألاّ يحتملها له مُصعبُ، فشمّر فى آثارهم مُسرعًا حتّى أتى أرجان[4]، فوجدهم حين خرجوا موجّهين إلى الأهواز. وبلغ مُصعبًا إقبالُهم، فخرج، فعسكر بالنّاس بالجسر الأكبر وقال:

ـ «والله، ما أدرى ما الّذى أغنى عنّى أن وضعتُ عُمر بن عبيدالله بن مَعمر بفارس، وجعلتُ معه بها جُندًا أجرى عليهم أرزاقهم فى كلّ شهر، وأوفّيهم أعطياتهم فى كلّ سنة، وآمُرُ لهم من المَعاون كلّ سنة بمثل الأعطيات، قَطعَ أرضَه الخوارج إلىّ، وقد أزحتُ عِلّته، وقد أمددتُه بالرّجال، وقوّيتُهم، والله، لو قاتلهم ثمّ فرّ لكان أعذر له عندى، وإن كان الفارُّ غير مقبول العذر، ولا كريم الفعل.»

[إقبال الخوارج وعليهم الزُّبير]

وأقبلت الخوارج وعليهم الزُّبير [274] بن الماحوز حتّى نزلوا الأهواز. فأتتهم عيونهم أنّ عمر بن عُبيدالله فى أثرهم، وأنّ مُصعبًا قد خرج من البصرة.

فقام الزُّبير خطيبًا وقال بعد حمدالله:

ـ «أما بعدُ، فإنّ من سوءِ الرّأى والحين وقوعكم بين هاتين الشّوكتين، إنهضوا بنا إلى عدوّنا، فلنَلْقَهم من وجهٍ واحدٍ.»

فسار بهم حتّى قطع بهم الأرض إلى جُوخى، ثمّ أخذ على النّهروانات، ثمّ لزم شاطئَ دجلة حتّى خرج على المدائن، فشنّ بها الغارات، وقتل الولدان والنّساءَ والرّجال،وبقر بطونَ الحبالى. وانتهوا إلى ساباط، ففعلوا ذلك، وقتلوا نُباتة[5] بنتَ أبى يزيد بن عاصم الأزدىّ، وكانت من أجمل

---

١) طمستان: فى الأصل ومط: طميسان. وفى الطبرى (٨:٧٥٤): طمستان وهو الصحيح. وفى ياقوت: طَمَسْتان: بلفظ التثنية، كأنّه «طم» و «استان» كقولهم: «دهستان» وأمثاله. مدينة بفارس.

٢) اجتبروا: كذا فى الأصل والطبرى ٨:٧٥٤. فى هامش الطبرى عن الأصول: اختبزوا. وفى مط: اجزوا. اجتبر: استغنى بعد الفقر.

٣) سابور: كذا فى مط والطبرى. وما فى الأصل غير واضح.

٤) أرجان: كذا فى الأصل ومط وما فى الطبرى (٨:٧٥٤): ارّجان (بتشديد الرّاء).

٥) نباتة: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨:٧٥٦): بُنانة.

نِساءِ دهرها، وكانت قرأت القرآن، وهى أفصح امرأةٍ، غشوها[١] بالسَّيف، قالتْ:

- «وَيْحكم هل سمعتُم بأنّ الرِّجال كانوا يقتلون النِّساءَ؟ وَيْحكم، هل سمعتم بقتل امرأةٍ؟ وَيْحكم أ تقتلون مَن لايبسط إليكم يدًا ولايُريد بكم ضرًا، ولايملكُ لنفسه نفعًا؟ أ تقتلون مَن ينشأ فى الحِلية وهو فى الخصام غير مُبين؟»

فقال رجلٌ منهم:

- «لو تركتموها!» فقال له آخرُ:

- «أعجبك جمالُها [275] يا عدوَّ الله! كفرتَ وافتتنتَ.»

وانصرف الآخر عنه وتركهم، قال: فظننّا أنّه فارقهم. وحملوا عليها فقتلوها.

[خروج الحارث بن أبى ربيعة من الكوفة ومعه ابن الأشتر]

ثمّ إنّ النّاس بالكوفة أتوا الحارث بن أبى ربيعة، فصاحوا إليه وقالوا:

- «أخرجْ، فإنّ هذا عدوّنا قد أظلّ علينا.»

فتقاعد إلى أن أكثروا الصِّياح فخرج حتّى نزل النُّخيلة، فأقام بها أيّامًا.

فوثب إبراهيم بن الأشتر، فحمدالله وأثنى عليه، ثمّ قال:

- «أمّا بعدُ، فإنّه قد سار إلينا عدوٌّ ليست له بقيّةٌ، يُخيف السُّبُلَ ويخرِّب البلاد، فانهض بنا إليه.»

فأمر بالرَّحيل، فخرج حتّى نزل دير عبدالرّحمان، فأقام فيه حتّى دخل شبث بن ربعىٍّ، فكلمه بنحو ماكلّمه به ابن الأشتر، فارتحل، ولم يكدْ، فرجز به النّاس وكان يلقّب بالقُباع:

سارَ بِنا القُباعُ سيرًا نُكرًا   يسير يومًا و يُقيم شهرًا

فأشخصوه من ذلك المكان. فكلّما نزل بهم منزلاً أقام، يصيح[٢] به النّاس وينادونه حول فسطاطه. فلم يبلغ الصراةَ إلاّ فى بضعة عشر يومًا وقد انتهى إليها[٣] طلائع العدوّ، وأوائلُ الخيول. فلمّا أتتهم العيون بأن جماعة أهل [276] المصر قد أتوهم[٤] قطعوا الجسر بينهم وبين النّاس.

---

١) غشوها: كذا فى مط والطبرى. وما فى الأصل عشوها. غشيه بالسّوط: ضربه.

٢) يصيح: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨:٧٥٩): يضجّ.

٣) إليها: كذا فى الأصل. وما فى مط: إليه.

٤) أتوهم: فى الأصل ومط: أتاهم. وهو خطأ كما لا يخفى.

فقال إبراهيم بن الأشتر للحارث بن أبى ربيعة:

ـ «اندُبْ معى النّاسَ حتّى أعبر إلى هؤلاءِ الأكلب فأجيئك برؤوسهم.»

فقال شبث بن ربعىّ، وأسماء بن خارجة، ومحمّد بن عُمير:

ـ «أصلح الله الأمير، دَعْهم، فليذهبوا، لاتبدأ بهم.»

وكانوا حسدوا إبراهيم بن الأشتر. فلمّا أتَتْ أيّامٌ اجتمع النّاس فقالوا:

ـ «يا أيُّها الأمير، ماقُعودُنا بهذا الجسر، فليُعَدْ، ثمّ اعبُرْ بنا إليهم، فإنّ الله سيرُيكَ ماتُحبُّ.»

فأمر بالجسر، فأُعيدَ وعبر النّاسُ إليهم، فطاروا إلى المدائن، فتبعهم المسلمون، فخرجوا، فأتبعهم الحارثُ بن أبى ربيعة، عبدَ الرّحمان بن مخنفٍ فى ستّة آلافٍ ليُخرجهم من أرض الكوفة، فإذا وقعوا فى أرض البصرة خلاّهم، فاتبعهم حتّى وقعوا فى أرض البصرة، ثمّ وقعوا إلى إصبهان، فانصرف عنهم من غير قتال[١]، ومضَوا حتّى نزلوا بعتّاب بن ورقاء بِجَيّ، وحاصروه. فكان يخرج إليهم فيقاتلهم ولا يطيقهم. وكانت إصبهان يومئذ طعمةً لإسماعيل بن طلحة بن مصعب الزّبير، فبعث عتّابًا، فصبر لهم عتّابُ، فكان يقاتلهم على باب المدينة، ويرمون [277] من السُّور النُشّاب والحجارة. فلمّا طال الحصار ونفدتِ الأطعمة هلك كراعهم وأصابهم الجهد الجهيد.

ذكر رأى لعتّاب بن ورقاء صحيح

فدعاهم عتّابُ بن ورقاء، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعدُ، أيُّها النّاس، فإنّه قد أصابكم من الجَهد ماترَون. فوالله، إن بقى إلاّ أن يموت أحدكم على فراشه، فيجيى أخوه فيدفنه إن استطاع. وبالحرىّ أن يضعف عن ذلك، ثمّ يموت هو، فلايجد من يدفنه ولايصلّى عليه، فاتّقوا اللهَ، فوالله ما أنتم بالقليل الّذى تهون شوكتُهم، وإنّ فيكم لفرسان أهل المصر وإنّكم لصُلَحاء مَن أنتم منه.اخرجوا بنا إلى هؤلاءِ القوم، وبناحياةٌ وقوّةٌ، قبل أن لايستطيع رجلٌ أن يمتنعَ من امرأةٍ لوجاءَتْهُ. فقاتَلَ رجلٌ عن نفسه وصبرَ وصدقَ، فواللهِ إنّى لأرجو، إن صدقتموهم، أن يُظفركم اللهُ بهم.»

---

١) والعبارة فى الطبرى (٨: ٧٦١-٧٦٢): فاتبعهم الحارث بن أبى ربيعة عبدالرّحمان بن مخنف، فى ستّة آلافٍ ليخرجهم من أرض الكوفة، فإذا وقعوا فى أرض البصرة خلاّهم، فاتبعهم حتّى إذا خرجوا من أرض الكوفة إلى اصبهان انصرف [فانصرف ـ الهامش] عنهم ولم يقاتلهم، ولم يكن بينه وبينهم قتال.

فناداه النّاس من كلّ جانب:

- «وُفّقتَ وأصبتَ، أخرج بنا إليهم.»

فجمع إليه النّاس من اللّيل، وأمر لهم بعشاء كثير، فتعشّى النّاسُ عنده. [278]

ثمّ إنّه خرج بهم حتّى أصبح على راياتهم، فصبّحهم فى عسكرهم، وهم آمنون أن يُؤتَوا فى عسكرهم، فأخلَوا لهم حتّى انتهوا إلى الزّبير بن الماحوز، فقاتل فى عصابة نزلوا معه حتّى قُتل.

وانحازت الأزارقة إلى قطرىّ، فبايعوه، فمشوا إلى قطرىٌ مُصلتين للسّيوف، فارتحلوا منهزمين، فكان آخر العهد بهم.

ذكر رأى رآه الأحنف للخوارج وهو يُعَدُّ من سقَطاته

يُقال: إنّ الخوارج دسّوا إلى الأحنف مَن جلس إليه، وذاكَره بهم، فقال:

- «إنّ هؤلاء إن ركبوا بناتِ سحَاج، وقادوا بناتِ صهّال، ونزلوا اليوم أرضًا وغدًا أخرى، فبالحرىّ أن يبقوا.»

فلمّا بلغ ذلك قَطريًا، ذهب وخلاّهم، ومضى نحو كرمان، فأقام بها حتّى اجتمعت إليه جموعٌ كثيرةٌ، وأكل الأرضَ، واجتبى المال، وقوى، ثمّ أقبل حتّى أخذ فى أرض إصبهان، ثمّ خرج من شعب ناشط إلى إيذج[1] وأرض الأهواز، والحارث بن أبى ربيعة عامل مُصعبٍ على البصرة. فكتب إلى مُصعب:

- «قد تحدرت الخوارج إلى الأهواز، وليس لهم إلاّ المهلّب.»

فبعث [279] إلى المهلّب، وهو على الجزيرة والموصل وأمره بقتال الخوارج والمسير إليهم، وبعث إلى عمله إبراهيم بن الأشتر. وجاءَ المهلّب حتّى قدم البصرة، وانتخب النّاسَ وسار بمن أحبَّ. ثمّ توجّهَ نحو الخوارج، وأقبلوا إليه حتّى التقوا بسولاف[2]، فاقتتلوا بها ثمانية أشهر أشدّ قتالٍ يكون.

ذكر توبيخ للخوارج المهلّبَ على طريق المكيدة

ثمّ إنّه بلغهم أنّ مُصعبًا قد قُتل، ونحن نذكر خبره فى ما بعدُ، وذلك قبل أن يبلغ المهلّبَ

---

١) إيذج: لانقط فى الأصل ومط، فضبطناه حسب الطّبرى ٨:٧٦٤.

٢) بالضم، ثم السكون، وآخره فاء: قرية على غربىّ دجيل من أرض خوزستان قرب مناذر الكبرى (مراصد الاطلاع).

وأصحابه. فناداهم الخوارج:

ـ «ألا تُخبروننا ماقولكم فى مُصعبٍ؟» قالوا:

ـ «إمام هُدىً.» قالوا:

ـ «هو وليُكم فى الدُّنيا والآخرة.» قالوا:

ـ «نعم.» قالوا:

ـ «وأنتم أولياؤه أحياءً وأمواتًا.» قالوا: «نعم.» قالوا:

ـ «فما قولكم فى عبدالملك بن مروان؟» قالوا:

ـ «ذاك ابن اللّعين نحن منه براءٌ إلى الله، هو عندنا أحلُّ دمًا منكم» قالوا:

ـ «فأنتم منه براءٌ فى الدنيا والآخرة.» قالوا:

ـ «نعم، كبَراءتنا منكم.» قالوا:

ـ «وأنتم له أعداء أحياءً وأمواتًا.» قالوا:

ـ «نعم، كعداوتنا لكم.» قالوا:

ـ «فإنّ أمامكم مُصعبًا قتله عبدالملك، ونراكم ستجعلون غدًا عبدالملك [280] إمامَكم، وأنتم اليوم تَبرَّأون منه وتلعنونه.» قالوا: ـ «كذبتم يا أعداءَالله.»

فلمّا كان من الغد تبيَّن لهم قتلُ مُصعبٍ، فبايع المهلّب النّاس لعبدالملك بن مروان. فأتتهم الخوارج فقالوا لهم:

ـ «ماتقولون فى مُصعبٍ؟» قالوا:

ـ «يا أعداءَالله، لانُخبركم ماقولُنا فيه.» قالوا:

ـ «فقد أخبرتمونا أمسِ أنّه وليُكم فى الدُّنيا والآخرة، وأنّكم أولياؤه أحياءً وأمواتًا، فأخبرونا ماقولكم فى عبدالملك؟» فقالوا:

ـ «ذاك إمامنا وخليفتنا.»

ولم يجدوا ـ إذ بايعوه ـ من أن يقولوا هذا القول بُدًّا. فقالت لهم الأزارقة:

ـ «يا أعداءَالله أنتم أمس تبرّأون منه فى الدُّنيا والآخرة، وتلعنونه، وهو اليوم إمامُكم وخليفتكم. وقد قتل إمامكم الّذى كنتم تولّونه، فأيُّهما المُحقُّ، وأيُّهما المبطل، وأيُّهما المهتدى، وأيُّهما الضّالُّ!» فقالوا لهم:

ـ «يا أعداءَالله، رضينا بذاك إذكان يلى أمورَنا ونرضى بهذا كما كُنّا رضينا بذاك.» قالوا:

ـ «لا والله، ولكنّكم إخوان الشّياطين وعبيد الدُّنيا.» وتشاتموا.

ذكر مسير عبدالملك إلى مُصعب

[281] كان لايزال عبدالملك يخرج من دمشق ومُصعبٌ من الكوفة. فإذا تدانيا هجم الشتاء، فانصرف كلٌ واحدٍ إلى مكانه حتّى إذا كان سنة تسعٍ وستّين - وقد قيل سنة سبعين - خرج عبدالملك من دمشق نحو العراق يُريد مصعب بن الزُبير، فقال له عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق:

- «إنّك تخرج إلى العراق وقد كان أبوك وَعَدَنى هذا الأمرَ من بعده، وعلى هذا، جاهدتُ معه وقد كان من بلائى معه مالم يَخْفَ عليك، فاجعلْ لى هذا الأمر من بعدك.»

فلم يُجِبْهُ إلى شىءٍ من ذلك. فانصرف عمرٌو إلى دمشق، فغلب عليها. ورجع عبدالملك فى أثره وإنّ عَمرًا اجتمع النّاسُ إليه، فصعد المنبر فخطبهم، وقال بعد حمدالله والثّناءِ عليه:

- «أيّها النّاس إنّه لم يَقُمْ أحدٌ من قريشٍ قبلى على هذا المنبر، إلاّ زعم أنّ له جَنّةً ونارًا يُدخل الجنّةَ من أطاعه، والنّارَ من عَصاهُ. وإنّى أخبركم أنّ الجنّةَ والنّار بيدالله، وأنّه ليس إلىّ من ذلك شىءٌ. غيرَ أنّ لكم علىّ حُسنَ المواساة والعطيّة.»

ثمّ إنّ عبدالملك وعَمرًا اقتتلا أيّامًا على باب دمشق [282] وتأدّى الأمر بينهما إلى الموادعة والصُلح، وكتبا بينهما كتابًا وآمنه عبدالملك.

فيقال: إنّ عمرو بن سعيدٍ جاءَ فى خيلٍ متقلّدًا قوسًا، وأقبل حتّى أوطأ فرسه سرادقاتِ عبدالملك، فانقطعت الأطناب وسقط السُرادق، ونزل عَمرٌو فجلس وعبدالملك مُغضَبٌ، فقال لعمرو:

- «يا باأميّة، كأنّك تَشبّهُ بتقلّدك هذه القوس بهذا الحىّ من قيسٍ.» فقال:

- «لا، ولكنّى أتشبّهُ بمن هو خيرٌ منهم: العاص بن أميّة.»

ثمّ قام مُغضبًا والخيل معه حتّى دخل دمشق، ودخل عبدالملك أيضًا دمشق. فبعث إلى عمرو أن:

- «أعط النّاس أرزاقهم»

فأرسل إليه عمرٌو:

- «إنّ هذا ليس لك ببلدٍ، فاشخَصْ عنه.»

ذكر استهانة بعدوّ عادت بهلكة

فلمّا كان بعد أيّام، بعث إلى عمرو أن:

ـ «إيتِنى أخاطبك.»

فلمّا أتىَ رسولُه عَمرًا يدعوه، صادف الرّسولُ عبدَالله بن يزيد بن معاوية عند عمرو، فقال عبدالله لعمرو:

ـ «يا باأميّة، لأنتَ أحبُّ إلىّ من سمعى وبصرى، وقد أرى هذا الرّجل بعث إليك أن تاتيَهُ، وأنا أرىٰ لك ألاّ تفعلَ.» فقال عمرُو:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «لأنّه يقال: إنّ عظيمًا من ولد [283] إسماعيل يُغلقُ أبوابَ دمشق، ثمّ يخرج منها، فلا يلبث إلاّ أن يُقتل.» فقال له عمرو:

ـ «والله لوكنتُ قائمًا ما تخوّفتُ أن لايُنبِّهنى[١] ابن الزّرقاءِ، ولاكان ليجترئُ على ذلك منّى.»

[رواح عمرو إلى عبدالملك وماجرى عليه]

وقال عمرُو للرّسول:

ـ «أبلغه عنّى السّلام وقُلْ له: أنا رائحٌ إليك العشيّة.»

فلمّا كان العشىُّ، لبس عمرُو درعًا حصينةً بين قَباءٍ قوهىٍّ وقميصٍ، وتقلّدَ سيفَه. فلمّا نهض متوجّهًا عثر بالبساط، فقال حُميدٌ:

ـ «أما والله لئن أطعتنى لم تأته.»

وقالت له امرأتُه تلك المقالة، فلم تلتفت ومضى فى مائة رجلٍ من مواليه، وقد بعث عبدالملك إلى بنى مروان، فاجتمعوا عنده. فلمّا بلغ عبدَالملك أنّه بالباب، أمر أن يُحبَسَ مَن كان معه، وأذن له. فدخل ولم يزل أصحابه يُحبسون عند كلّ بابٍ حتّى دخل عمرٌ قعر الدّار وليس معه إلاّ وصيفٌ له. فرمى عمرُو ببصره، فإذا حولَه بنومروان وفيهم حسّان بن بحدل الكلبى، وقبيصته بن ذؤيب الخُزاعى. فلمّا رأى جماعتهم أحسّ بالشرّ، فالتفت إلى وصيفه، فقال:

ـ «إنطلِقْ ويحك إلى يحيى بن سعيدٍ يعنى أخاهُ، فقُلْ له يأتنى.» [284]

فقال له الوصيف ولم يفهم ماقال له:

ـ «لبّيك.» فقال له:

ـ «أغربْ فى حرقِ الله وناره»

---

١) أن ينبهنى: كذا فى الأصل والطبرى ٨:٧٨٦. وما فى مط: يهنى وهو خطأ.

وقال عبدالملك لحسّان وقبيصة:

- «إذا شئتما، فقوما فالتقيا وعَمرًا[١] فى الدّار.»

فقال عبدالملك لهما كالممازح:

- «ليطمئنّ عمرُو! أيّكما أطول؟»

فقال حسّانُ:

- «قبيصة أطول منّى يا أميرالمؤمنين بالامرة.»

وكان قبيصة على الخاتم. ثمّ التفت عمرُو إلى وصيفه، فقال:

- «إنطلق إلى يحيى فمُرْهُ أن يأتينى.» فقال له:

- «لبّيك.» ولم يفهم عنه.

فقال له عمرُو:

- «أغربْ عنّى.»

فلمّا خرج حسّان وقبيصة، أمر بالأبواب فأغلقت، ودخل عمرُو، فرحّب به عبدالملك، وقال:

- «هاهنا يا باأميّة رحمك الله.»

فأجلسه معه على السّرير وجعل يحدّثه طويلاً ثمّ قال:

- «يا غلامُ خذ السّيف عنه.»

فقال عمرُو:

- «إنّا لله، يا أمير المؤمنين.»

فقال عبدالملك:

- «أو تطمع أن تجلس معى متقلّدًا سيفك!»

فأخذ السّيف عنه، ثمّ تحدّثا ما شاءَ الله، ثمّ قال له عبدالملك:

- «يا باأميّة!» فقال:

- «لبّيك يا أميرالمؤمنين!» فقال:

- «إنّكَ حيث خلعتنى اليتُ بيمين، أنّى إن ملأتُ عينى منك وأنا مالكُ لكَ، أن أجمعك فى جامعة.»

فقال له بنومروان:

---

١) ما فى الأصل ومط وفى هامش الطبرى: «وعمرُو». فأثبتناه كما فى الطبرى (٨:٧٨٧): وعمرًا.

ـ «ثمّ تُطلقُه [285] يا أميرالمؤمنين؟» قال:

ـ «ثمّ أطلقُه. وما عسيتُ أن أصنع بابى أميّة.»

فقال بنومروان:

ـ «أبِرّ قَسَمَ أميرالمؤمنين.»

قال عمرُو:

ـ «فإنّى أبرُّ قسم أميرالمؤمنين.»

فأخرج من تحت فراشه جامعةً فطرحها إليه، ثمّ قال:

ـ «يا غلامُ قُمْ فاجمعه فيها.»

فقام فجمعه فيها، فقال عمرُو:

ـ «أذكُرك الله يا أميرالمؤمنين أن تخرجنى فيها على رؤوس النّاس.» فقال عبدالملك:

ـ «أمكرًا يا باأميّة وأنت فى الحديد! لاها الله، ماكنّا لنُخرجك فى جامعةٍ على رؤوس النّاس ولا نخرجها منك إلاّ صُعدًا[١].»

ثمّ اجتبذهُ اجتباذةً أصاب فَمُهُ منها السّرير فكسر ثنيّته. فقال عمرُو:

ـ «أذكرُك الله يا أميرالمؤمنين، أن يدعوك كسرُ عظمٍ منّى إلى أن تركب ماهو أعظم منه.»

فقال له عبدالملك:

ـ «والله لو أعلم أنّك تبقى علىّ أو تفى لى وتصلح قريش لأطلقتُك، ولكن ما اجتمع رجلان فى بلدةٍ على مثل مانحن عليه إلاّ أخرج أحدُهما صاحبَه.»

فلمّا رأى عمرُو مايُريدُ قال:

ـ «أ غدرًا يابن الزّرقاءِ؟»

وأذّن المؤذّن العصر، فخرج عبدالملك يصلّى بالنّاس، وأمر عبدَ العزيز بن مروان بقتله. فقام إليه عبدالعزيز بالسّيف، فقال: [286] له عمرُو:

ـ «أذكُرك الله والرّحم، دَعْنى يتولّ قتلى من هو أبعد رحمًا منك.»

فألقى عبد العزيز السّيف، وجلس وصلّى عبد الملك صلاةً خفيفةً، ودخل وغُلّقت الأبواب. ورأى النّاس عبدالملك حيث خرج وليس معه عمرُو، فذكروا ذلك ليحيى بن سعيدٍ، فأقبل فى النّاس حتّى حلّ بباب عبدالملك ومعه ألفُ عبدٍ لعمرو وأناسٌ من أصحابه كثيرٌ، فجعل مَن معه

---

١) صُعدًا: كذا فى الأصل. وفى مط: سعيدًا. وهو خطأ.

يصيحون:

- «أسمعْنا صوتَك يا باأميَّة!»

وأقبل مع يحيى جماعةٌ فكسروا باب المقصورة، وضربوا النّاسَ بالسُّيوف، فضُرب الوليد بن عبدالملك ضربةً على رأسه، واحتمله إبراهيم بن عربيٍّ صاحبُ الدّيوان، فأدخله بيتَ القراطيس.

ولمّا دخل عبدالملك دارَهُ وجد عَمرًا حيًّا بعدُ. فقال لعبدالعزيز:

- «ما منعك من قتله؟» قال:

- «إنّه ناشدني الله والرَّحم، فرققتُ له.»

فقال عبدالملك:

- «أخزى الله أمّك البوّالةَ على عقبها[١] فإنّك لم تُشبهْ غيرها.»

ولم يكونا من أمٍّ واحدةٍ.

ثمّ قال عبدالملك

- «يا غلام ائتني بالحربة.»

فأتاهُ بها فهزّها، ثمّ طعنه بها [287] فلم تجزْ[٢]، ثمّ ثنّى فلم تجزْ. فضرب بيده إلى عضد عَمرو، فوجد مَسَّ الدّرع، فضحك، ثمّ قال:

- «ودارعٌ أيضًا إن كنتَ لمُعِدًّا. يا غلام ايتني بالصَّمصامة.»

فأتاه بسيفه، ثمّ أمر بعمرو، فصُرع وجلس على صدره، فذبحه وهو يقول:

يا عَمرُو إنْ لاتَدَعْ شتمي ومنقصتي　　أضربْكَ حيثُ تقول الهامةُ اسقوني

وانتفض عبدالملك رعدةً فوضع على سريره.

ودخل يحيى بن سعيد و من معه على بني مروان، فخرجوا هم ومَن معهم من مواليهم، فقاتلوا يحيى وأصحابه. وقام عبدالعزيز، فأخذ المال في البُدور، وجعل يُلقيها إلى النّاس. فلمّا نظر النّاس إلى الأموال ورأوا راسَ عَمرو، وكان ألقيَ إليهم، تفرّقوا وانتهبوا المال. ثمّ أمر عبدالملك بعد ذلك بتلك الأموال، فجُبيتْ حتّى عادتْ كلّها إلى بيت المال.

وفقد عبدُالملك ابنَه الوليد، فجعل يقول:

- «ويْحَكم اين الوليد؟ وأبيهم لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثأرَهم.»

---

١) عقبها: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ٧٩٠): عقبيها.

٢) فلم تجزْ (في كلا الموضعين): كذا في الأصل. وما في مط: لم تجر. وفي الطبري لم تجزْ.

فأتاه إبراهيم بن عربىٍّ، وقال:

ـ «هذا الوليد عندى ليس به [288] بأسٌ.»

ثمّ أتى عبدُالملك بيحيى بن سعيد، فأمر بقتله، فقام إليه عبدالعزيز فقال:

ـ «جعلنى الله فداءك يا أميرالمؤمنين. أ تُراك قاتلاً بنى أميّة فى يوم واحدٍ؟»

فأمر به فحُبس. وأُتيَ عبدالملك بجماعة منهم فحبسهم[١]، وكان همّ بقتلهم، فأُشير عليه أن يُسيِّرهم إلى عدوّه، فإن هم قُتلوا، كُفِيَ أمرهم، وإن سلموا رأيتَ رأيك، ولايكون قد آثرت على نفسك قومًا هم اليوم معك.

فألحقهم بمصعب. فلمّا قدموا عليه ودخل إليه يحيى بن سعيد، قال له ابن الزُّبير:

ـ «أفلتَّ وانحصَّ الذَّنَبُ[٢].» فقال:

ـ «والله إنّ الذَّنَب لَبِهُلْبِهِ[٣].»

ذكر سبب العداوة والشّحناء
بين عبدالملك وبين عمرو بن سعيدٍ

كان الشرّ بينهما قديمًا، لأنّ ابنى سعيد وابنى مروان أعنى: محمّد بن سعيد و عمرو بن سعيد؛ ومعـــاوية بن مروان، وعبدالملك بن مروان، كانوا وهم غِلمانٌ لايزالون يأتون أمّ مروان بن الحكم الكنانيّة يلعبون عندها. فكانت تصنع لهم الطّعام، ثمّ تأتيهم به وتضع بين يدى كلّ واحدٍ صحفةً على حدة، ثمّ تُوَرِّش[٤] بين معاوية [289] بن مروان وبين محمّد بن سعيد وبين عبدالملك بن مروان وعمرو بن سـعيد،فيقتتلون، وربّما تصـارموا الحين لايكلّم بعضُـهم بعضًـا.فكان ذلك دأبهما كلّما أتوها حتّى ثبتت الشّحناءُ فى صدورهم على الصّبىّ، ثمّ نشأت تلك العداوة معهما.

فذُكر أنّ خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبدالملك ذات يوم:

ـ «عجبٌ منك ومن عمرو بن سعيدٍ كيف أصبتَ غِرّتَهُ فقتلتَهُ!»

فقال عبدالملك:

أدنَيتُه مِنّى ليسكُـــنَ ذُعرُهُ   فأصُولَ صولةَ حازمٍ مستمكنِ

---

١) انظر الطبرى ٧٩٢:٨   ٢) انحصّ: انقطع. وذلك مثلٌ يُضرب لمن يشرف على الهلكة، ثمّ يُفلت منها.

٣) الهُلْبُ: الشّعر كلّه، أو: ماغلُظ منه وخشن كشعر ذنب النّاقة، أو: شعر الذَّنَب وحده. الثّأز: هَيَّجها.

٤) أرّش بينهم: أفسد، وأغرى بعضهم ببعض.

ثمّ إن ولد عمرو بن سعيد دخلوا على عبدالملك بعد الجماعة وهم أربعةٌ: أميّة، وسعيد، واسماعيل، ومحمّد. فلمّا نظر إليهم عبدالملك، قال:

- «إنّكم أهل بيتٍ لم تزالوا ترَون أنّ لكم على جميع قومكم فضلاً لم يجعله الله لكم، وإنّ الّذى كان بينى وبين أبيكم لم يكن حديثًا، بل كان قديمًا فى أنفس أوّليكم على أوّلينا فى الجاهليّة.»

فأقطع بأميّة بن عمرو وكان أكبرهم سنًا وأنبلهم وأعقلهم، فلم يتكلّم بشىء. فقام سعيد بن عمرو، وكان الأوسطَ، فقال: [290]

ذكر كلامٍ نَفعَ عند سلطانٍ حقودٍ

- «يا أميرالمؤمنين، ماتبغى علينا أمرًا كان فى الجاهليّة، وقد جاء الله بالإسلام فهدم ذلك، ووعد جنّةً، وحذّر نارًا. فأمّا الّذى بينك وبين عمرو، فإنّ عمرًا ابنُ عمّك، وأنت أعلم وما صنعت، وقد وصل عمرُو إلى ربّه وكفى بالله حسيبًا. ولعمرى لئن أخذتنا بماكان بينك وبينه لَبطنُ الأرض خيرٌ لنا من ظهرها.»

فرقّ لهم عبدالملك رقّةً شديدةً، وقال:

- «إنّ أباكم خيّرنى بين أن أقتله أو يقتلنى، فاخترتُ قتلَه على قتلى. فأمّا أنتم فما أرغبنى فيكم، وأوصلنى لقرابتكم، وأرعانى[1] لحقّكم!»

فأحسن جائزتَهم.

[مسير عبدالملك إلى العراق لحرب مُصعب]

ثمّ سار عبدالملك من الشام إلى العراق لحرب مُصعب وذلك فى سنة سبعين. وكان قال له خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد:

- «إن وجّهتنى إلى البصرة مستخفيًا فى موالىّ وأتبعتنى خيلاً يسيرةً، رجوتُ أن أغلبَ لك عليها.»

فأنفذه عبدالملك. فقدِمَها فى مواليه، ونزل [291] على عمرو بن أصمع، ولم يتمّ له ما أراد، وعُلِمَ به، فهرب بعد أن أثار فتنةً، وقاتل مدّةً. وبادَرَ مُصعبُ إلى البصرة، فوجد خالدًا قد خرج بمن

---

١) أرعانى: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: أرجانى. وهو خطأ.

معه، فأتبعه بخِداش بن يزيد، فأدرك مُرَّةَ بن محكان، فأخذه وقتله.

وكتب عبدالملك إلى المروانيّة من أهل العراق، فأجابه كلُّهم، وشرط كلُّ واحدٍ ولاية إصبهان، فأنعم بها لهم. منهم: حجّار بن أبجر، وعتّاب بن ورقاء، والغضبان بن القبعثرى، وزحر بن قيس، ومحمّد بن عُمير، وغيرهم.

وسار عبدالملك وعلى مقدّمته محمّد بن مروان، وعلى ميمنته عبدالله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد، وسار مصعبٌ وقد خذله أهل الكوفة، وأشار رؤساء أهل الشام على عبدالملك أن يُقيم ويقدّم الجيوش، فإن ظفروا، فذاك. وإن لم يظفروا أمدّهم بالجيوش خشيةً على النّاس، وإن أُصيب فى لقائه مُصعبًا لم يكن وراءه مَلِكٌ.

فقال عبدالملك:

ـ «لايقوم بهذا الأمر إلاّ قرشىٌ له رأىٌ، ولعلّى أبعث مَن له شجاعةٌ وليس له رأىٌ، وإنّى أجد فى نفسى [292] أنّى بصيرٌ بالحرب، شجاعٌ بالسّيف إن أُلجيتُ إليه، ومُصعبٌ فى بيت شجاعة، أبوه شجاع قريش، وهو شجاعٌ ولا علم له بالحرب، ومعه مَن يخالفه، ومعى مَن ينصح لى.»

فسار عبدالملك حتّى نزل مَسْكِن، وسار مُصعبٌ إلى باجُمَيرا[1]، وكتب عبدالملك إلى أهل العراق، فأقبل إبراهيم بن الأشتر بكتاب عبدالملك مختومًا لم يقرأهُ، فدفعه إلى مُصعبٍ، فقال له مُصعبٌ:

ـ «مافيه؟» قال:

ـ «ماقرأتُه.»

فقرأه، فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولايةَ العراق، فقال لمصعب:

ـ «إنّه والله ماكان أحدٌ آيَس منه منّى. ولقد كتب إلى أصحابك كلّهم بمثل ماكتب إلىّ. فأطِعنى فيهم واضرب أعناقهم.» قال:

ـ «إذًا لايناصحنا عشائرهم.» قال:

ـ «فأوقِرْهم حديدًا وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هنالك، ووكّل بهم مَن إن غُلبتَ، ضرب أعناقهم، وإن غَلبتَ مننتَ بهم على عشائرهم.» فقال:

ـ «يا بالنّعمان، أنا لفى شغل عن ذلك، يرحم الله أبابحر، إن كان ليُحذّرنى غدرَ أهل العراق،

---

١) فى الأصل غير واضح. وفى مط: باحمرا. فأثبتنا ما فى الطبرى (٨:٥٠٨): باجُمَيرا. وفى هامشه عن الأصول: باحميراء، باخميرا ، باحميراء، باخميراء. قال ياقوت: باجُميرى موضعٌ دون تكريت.

كأنّه كان ينظر إلى مانحن فيه.»

وتمثّل مُصعبُ:

وإنّ الأُولىٰ بالطّفّ من آل هاشمٍ تأسّوا، فسنّوا للكرامِ التأسّيا

[293] فعلم النّاس أنّه قد استقتل.

[مقتل إبراهيم الأشتر]

ولمّا تدانى العسكران تقدّم إبراهيم بن الأشتر، فحمل على محمّد بن مروان فأزاله عن موضعه، وهرب، فوجّه عبدالملك عبدالله بن يزيد بن معاوية، والتقى القوم، فقُتل إبراهيم بن الأشتر، وقُتل مسلم بن عَمرو الباهليّ، وهرب عتّاب بن ورقاء، وكان على الخيل مع مُصعب.

فقال مُصعبُ لقَطَن بن عبدالله الحارثيّ:

- «أبا عثمان قدّم خيلَك.» قال:
- «ماأرىٰ ذلك.» قال:
- «ولِمَ؟» قال:
- «أكرهُ أن تُقتلَ مذحج فى غير شىء.»

فقال لحجّار بن أسيد:

- «قدّم رايتَك.» قال:
- «إلى هذه العذرة؟» قال:
- «ما تتأخرُ إليه، والله أنتَنُ وألأمُ.»

وقال لعبد الرّحمان بن سعيد بن قيس مثل ذلك. فقال:

- «ماأرى أحدًا فعل ذلك فأفعلَه.»

فقال مُصعبُ:

- «يا إبراهيم، ولا إبراهيم لى اليوم.»

ولمّا أُخبر ابن حازم وهو بخراسان مَسيرَ مُصعب إلى عبدالملك، قال:

- «أ معه عُمر بن عبيدالله؟» قيل:
- «لا، استعمله على فارس.» قال:
- «أ معه، المهلّبُ» قيل:
- «استعمله على الموصل.» قال:

ـ «أ معه عبّاد بن الحصين؟» قيل:

ـ «لا، استخلفه على البصرة.» فقال:

ـ «وأنا بخراسان.» ثمّ تمثّل: [294]

خُذيني، فجُرّيني ضَباعِ[١] وأبشري　　　بلَحْم امرئٍ لم يَشهدِ اليومَ ناصرُه

وقال مُصعبٌ لابنه عيسى بن مُصعبٍ:

ـ «يابُنَيّ اركبْ أنت ومَن معك إلى عمّك بمكّة، فإنّي مقتولٌ.» وأخبره بماصنع أهل العراق. فقال ابنُه:

ـ «والله لاأخبر قريشًا عنك أبدًا، ولكن الحَقْ أنت بالبصرة فإنّهم على الجماعة، أو [الحَقْ][٢] بأميرالمؤمنين.»

فقال مصعب[٣]:

ـ «لاوالله، لا أفِرُّ، ولكن أقاتل. فلعمرى ما السّيف بعار وما الفرار لى بعادة.»

[مقتل مصعب بن الزّبير وابنه عيسى بن مصعب]

ثمّ أرسل عبدالملك إلى مُصعب مع أخيه محمّد بن مروان:

ـ «إنّ ابن عمّك يُعطيك الأمان.»

فقال مُصعبٌ:

ـ «إنّ مثلى لاينصرف عن مثل هذا الموقف إلاّ غالبًا أو مغلوبًا.»

فلمّا أبى مصعبٌ قبولَ الأمان، نادى محمّد بن مروان عيسى بنَ مُصعبٍ وقال:

ـ «يابن أخى، لاتقتل نفسَك، لك الأمانُ.»

فقال له مُصعبٌ:

ـ «قد آمَنك عمُّك، فامض إليه.»

قال:

---

١) ضَباعِ: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨٠٧:٨): جَعارِ.

٢) مابين [ ] تكملة من الطبرى.

٣) وما فى الطبرى (٨٠٧:٨): قال مصعبٌ: والله لاتتحدّث قريشٌ أنّى فررتُ بما صنعتْ ربيعة من خذلانها حتّى أدخل الحرم منهزمًا، ولكن أقاتل. فإن قُتلتُ فلعمرى ماالسّيف بعار، وما الفرار لى بعادة ولا خلق، ولكن إن أردت أن ترجع فارجع. فرجَع فقاتل حتى قُتل.

- «لاتحدّثُ نساء قريش أنّى أسلمتُك. [للقتل][١].»

وتقدّم بين يدى مصعبٍ، فقاتل حتّى قُتل. وأثخن مصعبُ، ونظر إليه زائدة بن قُدامة، فشدَّ عليه، فطعنه، وقال:

- «يالثارات المختار.»

فصرعه، ونزل إليه عبيدالله بن زياد بن ظبيان، فاحتزّ رأسه، فاتى به [295] عبدالملك، فأمر له بألف دينار، فأبىٰ أن ياخذَهُ، وقال:

- «إنّى لم أقتله على طاعتك. إنّما قتلتُه على وترٍ صنعه بى.»

يعنى بذلك أخاه، لأنّ مُصعبًا أتى بالنّابئ بن زياد بن ظبيان ورجلٍ من بنى نمير قد قطعا الطّريق، فقتل النّابئ وضرب النُميرى بالسّياط وتركه.

وحدّث ابن عبّاس عن أبيه قال: إنّا لوُقوفٌ مع عبدالملك وهو يحارب مصعبًا إذ دَنا منه زيادُ بن عمرو، فقال:

- «يا أميرالمؤمنين، إنّ اسماعيل بن طلحة كان لى جارَ صدقٍ وقلّ ما أرادنى مصعبُ بسوءٍ إلاّ دفعه عنّى. فإن رأيتَ أن تؤمنه على دمه.» قال:

- «هو آمنٌ.»

فمضى زيادُ، وكان ضخمًا وعلى ضخمٍ حتّى صاح بين الصفّين:

- «اين أبو النّحترى[٢] إسماعيل بن طلحة؟»

فخرج إليه. فقال:

- «إنّى أريد أن أذكر لك شيئًا.»

فدنا حتّى اختلفت اعناقُ دَوابّهما، وكان النّاس يتنطّقون بالحواشى[٣] المحشوّة. فوضع زيادُ يدَه فى منطقة إسماعيل، ثمّ اقتلعه عن سرجه وكان نحيفًا، فقال:

- «انشدك الله يا أبا المغيرة، فإنّ هذا ليس بالوفاءِ لمصعبٍ.» فقال:

- «هذا أحبُّ إلىّ لك من أن أراك غدًا مقتولاً.»

ولمّا قُتل مصعبُ [296] وابنه عيسى، قال عبدالملك:

---

١) مابين [ ] تكملة من الطبرى.

٢) النحترى: كذا فى الأصل. وفى مط: النحرى. وما فى الطبرى (٨:٨٠٨): البخترى.

٣) بالحواشى: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: الجواشن.

ـ «وارُوهُ، فقد كانت الحُرمة بيننا قديمةً، ولكنْ هذا الملك عقيمٌ.»

وكان عبدالملك ومصعبُ يتحدّثان إلى حُبّى، و هما بالمدينة. فلمّا قيل لها: قُتل مصعبُ، قالت:

ـ «تَعِسَ قاتله.» قيل:

ـ «فإنّما قتله عبدالملك.» قالت:

ـ «بأبى القاتلُ والمقتول.»

وقد روى أن مقتل مُصعبٍ والحربَ بينه وبين عبدالملك كان فى سنة اثنتين وسبعين.

ومن المقامات المشهورة

مقامٌ[١] تقدّم فيه رجلٌ بالأدب

لمّا دخل عبدالملك الكوفة، وجاءته القبائل تُبايعه، خاطب كلاً بما بسطه حتّى تقدّم إليه عَدْوان. قال معبد بن خالد الجدلى: فقدّمنا رجلاً وسيمًا جميلاً، وتأخرْتُ ومَعبدُ كان دميمًا.

فقال عبدالملك: «مَنْ؟»

فقال الكاتب: «عَدْوان.»

فقال عبدالملك:

غدير الحىِّ من عَدْوا ... نَ كانوا حيّة[٢] الأرض

بغى بعضُهُمُ بعضًا ... فلم يرعوا على بعض [297]

ومنهم كانت السّادا ... تُ والموفون بالقرض

ثمّ أقبل على الرُجل، فقال:

ـ «إيه.» فقال:

ـ «لا أدرى.» فقلتُ من خلفِه.

ومنهم حَكَمٌ يقضى ... فلايُنقَضُ ما يقضى

ومنهم مَن يجيز الحَجْ ... جَ[٣] بالسُّنّةِ والفرض

---

١) فى الأصل: ومن المقامات المشهورة «ذكر» مقام تقدّم فيه رجل بالأدب فحذفنا كلمة «ذكر». وما فى مط: بدون «ذكر».

٢) فى الأصل: حيّة، كما فى الطبرى ٨:٨١٥. وما فى مط: جنة.

٣) الحجّ: كذا فى الأصل. فككنا الادغام فى إثبات البيت، لكون مفصل المصراعين بين الجيمين.

وهم مَن وَلَدُوا أشبَوا[1] بسرِّ الحسب المحض

قال: فتركنى عبدالملك، ثمّ أقبل على الجميل، فقال:

- «مَن يقول هذا؟» قال:
- «لا أدرى.» فقلتُ من خلفه:
- «ذو الإصبع.»
- «فأقبل على الجميل، فقال:
- «لم سمّى ذا الإصبع؟» فقال:
- «لاأدرى.» فقلتُ من خلفه[2]:
- «لأن إصبعه قُطعت يوم الكُلاب.»

فقال للجميل:

- «وما اسمه؟» فقال:
- «لاأدرى.» فقلتُ من خلفه
- «حُرثان بن الحارث.»

فاقبل على الجميل فقال:

- «من أيّكم كان؟» قال:
- «لاأدرى.» فقلتُ من خلفه:
- «من بنى تاجٍ، وهو يقول:

أبعدَ بنى تاجٍ وسعيَك بينهم فلاتُتبعَنْ[3] عينيك مَن كان هالكا
إذا قلتُ معروفًا لأُصلحَ بينهم يقول وُهيبُ: لاأصالحُ ذٰلكا [298]
فأضحى كظَهر العير جُبٌّ سنامُه يطيف به الولدان أحدَبَ باركا

ثمّ أقبل على الجميل، فقال:

- «كم عطاؤك؟» فقال:
- «سبعمائة.»

---

١) مَن وَلَدوا أشبَوا: كذا فى الأصل. وما فى الطبرى (٨:٨١٥): مُذْ وُلدوا شبُّوا. أشبى الرَّجلُ: وُلد له وَلَدٌ ذكىٌّ، فهو مُشبىٌ ومُشب.

٢) فى مط: من خلقه (بالقاف!) وهو خطأ تكرر فى المواطن الآتية ايضًا.

٣) فلاتتبعن: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: فلاتبتغى!

وقال لى:

ـ «فى كم أنتَ؟» قلتُ:

ـ **«فى ثلاثمائة.»**

فأقبل على الكاتِبَين فقال:

ـ «حُطّا من عطاءِ هذا أربعمائة، وزيداها فى عطاءِ هذا.»

فرجعتُ وأنا فى سبعمائة وهو فى ثلاثمائة.

ثمّ فرّق عبدالملك عُمّالَه ولم يفِ لأحدٍ شرط عليه ولايةَ إصبهان.

وفى هذه السَّنة، وجّه عبدالملك بن مروان الحجّاجَ بن يوسف لحرب عبدالله بن الزُّبير.

[توجيه عبدالملك بن مروان الحجّاجَ بن يوسف]
[لحرب عبدالله بن الزُّبير]

وكان السَّبب فى توجيهه دون غيره أنّ عبدالملك لمّا أراد الرُّجوع إلى الشّام، قام الحجّاج بن يوسف، فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إنّى رأيتُ فى منامى أنّى أخذتُ عبدالله بن الزُّبير فسلختُه، فابعثنى إليه، وولّنى قتالَه.»

فبعثه فى جيشٍ من أهل الشّام كثيفٍ. فخرَج ولم يعرض للمدينة، وسلك طريق العراق، فنزل بالطّائف، وكان يبعث البعوث فيقتتلون هناك. فكلُّ ذلك تُهزم خيلُ ابن الزُّبير، وترجع خيلُ الحجّاج بالظَّفر.

ثمّ كتب الحجّاج إلى عبدالملك [299] يستاذنه فى دخول الحرم عليه وحِصاره، وأخبرهُ أنّ شوكتَه قد كلّت وتفرّق عنه أصحابه. فأذن له. وكتب عبدالملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق بمن معه من الجُند، بالحجّاج وكان بالبصرة واليًا عليها. فسار فى خمسة آلافٍ من أصحابه حتّى لحق بالحجّاج وذلك فى شعبان سنة اثنتين وسبعين.

[حصر ابن الزُّبير ومقتله]

فلمّا دخل ذوالقعدة، رحل الحجّاج من الطّائف حتّى نزل بئر ميمون، وحصر ابن الزُّبير، وقدِم عليه طارقُ لهلالِ ذى الحجّة، ولم يطُفْ بالبيت، ولم يصل إليه، وكان يلبس السّلاحَ، ولايقرب

النّساءَ ولا الطّيبَ، إلى أن قُتل ابن الزّبير ولم يحجّ ابن الزّبير ولا أصحابه فى هذه السّنة لأنّهم لم يقفوا بعرفة.

وحجّ الحجّاج بالنّاس فى هذه السّنة، ثمّ حصر ابن الزّبير ثمانية أشهر، ونصب المجانيق على البيت. فلمّا رمى البيتَ رعدت السّماء وعلا صوتُ الرّعد والبرق صوتَ الحجارة، فأعظم ذلك أهل الشّام وأمسكوا أيديَهم. فرفع الحجّاج برقّة[1] قبائه فغرزها فى منطقته، ورفع الحجرَ فوضعه فى المنجنيق، ثمّ مدّه وقال: لأصحابه:

- «إرموا!» [300]

ورمى معهم. فلمّا أصبحوا جاءَت صاعقةٌ تتبعها أخرى، فقتلتْ من أصحابه اثنَىْ عشر رجلاً. فانكسر أهل الشّام، فقال الحجّاج:

- «ياقومِ، لاتُنكروا ذلك، فإنّى ابن تهامة وهذه صواعقُها، وهذا الفتح قد حضرنا، فأبشروا، إنّ القوم سيصيبهم مثل ما أصابكم.»

فصعقتْ من الغد، فأصيب من أصحاب ابن الزّبير عدّةٌ. فقال الحجّاج:

- «ألا تَرون أنّهم قد أصيبوا وأنتم على الطّاعة وهم على الخلاف؟»

فتفرّق عامّة من كان مع الزّبير، وخرجوا إلى الحجّاج فى الأمان حتّى بلغ عدّة المستأمنة عشرة آلافٍ. وكان فى من خرج إلى الحجّاج ابنا عبدالله ابن الزّبير: حمزة وخُبيب، بعد أن أخذا أمانًا لأنفسهما.

فدخل على أمّه أسماء بنت ابى‌بكر، فقال:

[ماقالته لابن الزّبير أمّه أسماءُ بنتُ أبى بكر]

- «يا أمّه، قد خذلنى النّاسُ حتّى ولدى وأهلى، فلم يبقَ إلاّ اليسير، مَن ليس عنده من الدّفع إلاّ صبر ساعة. والقوم يُعطوننى من الدّنيا، فما رأيُك؟» فقالت:

- «أنتَ والله يابُنَىَّ أعلمُ بنفسك. إن كنتَ تعلم أنّك على حقٍّ فامضِ له، فقد قُتل عليه أصحابُك، ولا تمكّن من رقبتك تَلعَب بها غلمانُ بنى أميّة، وإن كنتَ إنّما أردتَ الدّنيا فبئس العبد أنتَ. أهلكتَ [301] نفسك، ومَن قُتل معك. فإن قلتَ: إنّى كنتُ على حقٍّ، فلمّا وَهَنَ أصحابى، ضعُفتُ. فهذا ليس فعلُ الأحرار ولا أهل الدّين، وكم خُلودك فى الدّنيا. القتلُ أحسن.»

---

١) فى الأصل: برقة (برقة؟). وفى مط: ترقة. وفى الطّبرى (٨٤٥:٨): بِرَكّة وفى حواشيه: برقة.

فدَنا ابن الزُّبير، فقبّل رأسَها، وقال:

ـ «هذا رأيى، ولكنّى أحببتُ أن أعلم رأيَك، فزدينى بصيرةً، فانظُرى ياأُمّه، إنّى مقتول من يومى هذا، فلا يشتدّ حزنُك، وسلّمى لأمر الله، فإنّ ابنك لم يتعمّدْ إتيانَ مُنكر، ولاعملَ بفاحشة، ولم يجُرْ فى حُكمٍ، ولم يتعمّدْ ظُلمَ مسلمٍ ولامُعاهَدٍ. اللّهم، إنّى لاأقول هذا تزكيةً لنفسى، ولكن تعزيةً لأُمّى لِتسلوَ عنّى.»

فقالت أمّه:

ـ «إنّى لأرجو أن يكون عزائى فيك حسنًا. أخْرجْ، حتّى أنظرَ إلى مايصير أمرُك.» قال:

ـ «يا أُمّه، لاتدعى لى الدُّعاءَ قبلُ وبعدُ.» قالتْ:

ـ «لا أدَعه أبدًا.»

ثمّ قالت:

ـ «اللّهم ارحم طول ذلك القيام فى اللّيل الطّويل، وذلك النّحيب والظّمأ فى هواجر المدينة ومكّة وبرّه بأبيه وبى. اللّهم إنّى قد أسلمته لأمرك فيه، ورضيتُ بما قضيتَ، فأثِبْنى فى عبدالله ثواب الشّاكرين الصّابرين.»

ثمّ دَنا عبدالله فقبّلها، فقالت:

ـ «هذا وداعٌ فلاتبعد.»

وكان [302] عليه الدّرع. فلمّا عانقها وجدتْ مَسَّ الدّرع، فقالت:

ـ «ماهذاصنيع مَن يُريد ماتُريد.» قال:

ـ «مالبسته إلاّ لأشدّ منكِ.» قالت:

ـ «فإنّه لايشدّ منّى.»

فنزعَها، ثمّ أدرج كمّيه، وأدخل أسفل قميصه وجبّة خَزٍّ عليه فى أسفل المنطقة، وهو يقول:

إنّى إذا أعرف يَومى أصبرُ   إذْ بعضهُم يعرفُ ثُمّ يُنكر

قال بعضهم: والله لقد رأيتُ ابن الزُّبير يخرج وقد كثره النّاس، فيحمل فلايبقى بين يديه أحدٌ، وينهزم النّاس، فيقف بالأبطح مايدنو منه أحدٌ، حتّى ظننتُ أنّه لايُقتَل.

وكان الحجّاج وطارق بن عَمرو جميعًا فى ناحية الأبطح إلى المروة والبابين، لِكلّ طائفة منهم بابٌ. فمرّةً يحمل عبدالله بن الزُّبير فى هذه النّاحية ومرّةً فى هذه النّاحية ولكأنّه أسدٌ فى أجَمة، مايُقدم عليه الرّجال فيعدو فى أثرهم، ثمّ يصيح:

- «أباصفوان ويل امّهِ فتحًا لوكان له رجالٌ،

لوكان قِرنى واحدًا كُفيتُه.»

فقال أبوصفوان:

- «إى والله و ألف.»

فلمّا كان يوم الثلاثاء، وقد أخذت علينا الأبواب، أذّن المؤذّن فصلّى بأصحابه، وقرأ نون والقلم[١] [303] حرفًا حرفًا، ثمّ سلّم وقام وحمدالله وأثنى عليه، ثمّ قال:

- «إكشفوا وجوهكم حتّى أنظر.»

وعليهم المغافر والعمائم. فكشفوا وجوههم فقال:

- «يا آل الزُّبير، لوطبتم لى نفسًا عن أنفسكم كنّا أهل بيتٍ من العرب اصطُلمنا، لم تُصبنا ربّانيّةٌ[٢]. أمّا بعدُ، يا آل الزُّبير، فلايُرغكم وقعُ السُّيوف، فإنّى لم أحضر موطنًا قطّ إلاّ ارتُثِثتُ[٣] فيه بين القتلىٰ، وما أجد من دواءِ جراحها أشدَّ ممّا أجد من ألم وَقْعِها. صونوا سيوفكم كماتصونون وجوهكم، لاأعلم امرأ كسر سيفَه واستبقى نفسَه، فإنّ الرَّجل إذا ذهب سلاحُه فهو كالمرأة. غُضّوا أبصاركم عن البارقة، وليشغلْ كلُّ امرئٌ منكم قِرنَه، ولايُلهينّكم السُّؤالُ عنّى. فلاتقولُنّ: أين عبدالله بن الزُّبير؟ ألا[٤] مَن كان سائلاً فإنّى فى الرَّعيل الأوّل. إحملوا على بركة الله.»

ثمّ حمل حتّى بلغ الحجون، فرُمى بآجُرّة، فأصابت فى وجهه، فأرعش لها، ودَمِىَ وجهُه. فلمّا وجد سخونة الدّم تسيل على وجهه ولحيته، قال:

فلسنا على الأعقاب تَدمىٰ كُلُومُنا ولكنْ على أقدامِنا تقطر الدِّمَا [304]

وتَمثّلَ أيضًا[٥]:

عن أىِّ يومَىَّ من الموتِ أفِرّ أيومَ لم يُقدَرْ، أمْ يومَ قُدِر

وصاحتْ مولاة لآل الزُّبير مجنونةٌ:

- «وا أميرالمؤمنيناه!»

---

١) س ٦٨ القلم: ١.

٢) ربّانيّة: كذا فى الأصل. سقطت من مط من قوله: «لوطبتم» إلى: «أمّا بعد» فسقطت كلمة «ربانيّة» أيضًا. وفى الطبرى (٨: ٨٥٠): زبّاءُ بتّةٌ. وفى حاشيته: ربانيّة، زبّاء بتّة.

٣) ارتثثت: كذا فى الأصل.وفى مط: ارتثت. وفى الطبرى: «ارتُثثتُ فيه من القتلى» بدل: ارتثثتُ فيه بين القتلى.

٤) فى الأصل: إلاّ. فاثبتناها: ألا، كما فى مط والطبرى.

٥) التمثّل بالبيت الآتى لم يرد فى الطبرى ٨: ٨٥١، حيث نجد البيت السابق فيه.

فأشارت لهم إليه، فقُتل.

وجاء الخبر إلى الحجّاج، فسجد وجاءَ هو وطارق حتّى وقفا عليه، فقال طارق:

- «ماولدتِ النّساءُ أذكر من هذا.»

فقال الحجّاج:

- «أ تمدحُ من يخالف طاعة أميرالمؤمنين؟» قال:

- «نعم، هو أعذر لنا، ولولا هذا ماكان لنا عذرٌ. إنّا لَمُحاصروهُ وهو فى غير خندق ولاحِصن ولامَنَعة منذ سبعة أشهر، ينتصف منّا بل يفضل علينا فى كلّ ما التقينا.»

فبلغ كلامُهما عبدَالملك، فصوّب طارقًا.

ثمّ دخل الحجّاج مكّة، فبايع مَن بها من قريش، وبعث برأس ابن الزُّبير وجماعة من أهله إلى المدينة، فنُصبت بها، ثمّ ذهب بها إلى عبدالملك بن مروان.

وبعث عبدالملك إلى عبدالله بن خازم، وهو بخراسان يُقاتل بحير بن ورقاء الصّريمى يدعوه إلى طاعته ويقول له:

- «إنّ خراسان لك طعمة سبع سنين، فبايع لى.» [305]

وكان عبدالملك بعث برأس ابن الزُّبير، فغسله وحنّطه وكفّنه وبعث به إلى أهله بالمدينة. وحلف لايُعطى عبدالملك طاعةً أبدًا.

فقال ابن خازم للرّسول:

- «لولا أنّ الرُّسُلَ لاتُقتل، لأمرتُ بضرب رقبتك، ولكن كُلْ كتابَهُ.»و أكَلَهُ.

[مقتل ابن خازم فى مَرو]

وكتب عبدالملك إلى بُكير بن وَساج[1] أحد بنى عوف بن سعد، وكان خليفة ابن خازم على مَرو بعهده على خراسان، ووعده ومنّاهُ. فخلع بُكير عبدالله بن الزُّبير ودعا إلى عبدالملك بن مروان، فأجابه أهل مرو، وبلغ ابن خازم، فخاف أن يأتيه بُكير بأهل مرو، فيجتمعَ عليه أهل مرو، وأهلُ ابْرَشهر الّذين مع بَحير. فأقبل إلى مرو أن يأتى ابنَه بالترمذ، فاتبعه بَحير فلحقه بقرية يقال لها: شاه مَزغَنْد، بينها وبين مرو ثلاثة فراسخ. فقاتله ابن خازن، فقُتل عبدالله بن خازم، وكان الّذى ولى قَتله وكيع بن عُميرة القُريعى، اعتَونَ عليه بَحير بن ورقاء وعمّار بن عبدالعزيز الجُشَمى و

١) وساج: كذا فى الأصل. وفى مط: وساح. وما فى الطبرى (٨:٨٥٤): وشاح. وفى حواشيه عن الأصول: وساج.

وكيع، فطعنوه وصرعوه، فقعد وكيعُ على صدره فقتله.

فقال بعض الولاة لوكيع:

- «كيف قتلتَ ابن خازم؟» قال:

- «غلبتُه بفضل القنا. لمّا صُرع قعدتُ على صدره، فحاول [306] القيام، فلم يقدر عليه، وقلتُ: يالثارات. دُوَيلة.»

ودُويلةُ اخٌ لوكيع من امّه، قُتل فى تلك الأيّام.

قال: فتنخّم فى وجهى، وقال:

- «لعنك الله، تقتل كبش مُضَر بأخيك: علج، لايُساوى كفًا من نوى - أو قال: - من تراب؟»

قال: فما رأيتُ أحدًا أكثر ريقًا منه على تلك الحال عند الموت، لقد ملأ وجهى منه. فذكر ابن هُبيرة يومًا هذا الحديثَ، فقال:

- «هذه والله البسالة.»

وبعث بُحير ساعة قُتل ابن خازم رجلاً من بنى غُدانة إلى عبدالملك بقتل ابن خازم، ولم يبعث بالرّأس، وأقبل بُكير بن وساج فى أهل مرو حين قُتل ابن خازم، فأراد أخذَ رأس ابن خازم. فمنعه بَحير، فضربه بُكير بعمودٍ، وأخذ الرّأسَ، وقيّدَ بَحيرًا وحبسه. وبعث بُكير بالرّأس إلى عبدالملك، وكتب إليه يُخبره أنّه هو الّذى قتله.

[ولاية المهلّب حَرْبَ الأزارقة من قبل عبدالملك]

وفى هذه السّنة[1] وجّهَ عبدالملك أخاه بشر بن مروان من الكوفة إلى البصرة واليًا عليها. ثمّ كتب إليه:

- «أمّا بعدُ، فابعث المهلّب فى أهل مصره إلى الأزارقة لينتخب من أهل مصره و وجوههم و فرسانهم أولى الفضل والتّجربة منهم، فإنّه أعرفُ بهم، وخَلِّهِ ورأيَه فى الحرب، [307] فإنّى أوثق شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين، وابعثْ من أهل الكوفة بعثًا كثيفًا، وابعث عليهم رجلاً معروفًا حسيبًا شريفًا يُعرف بالباس والنّجدة والتّجربة للحرب، ثمّ أنهضْ إليهم أهلَ المصرين، فَليتبعوهم أىّ وجهٍ ماتوجّهوا حتّى يُبيرَهم الله ويستأصلهم، والسّلام عليك.»

فدعا بشرٌ المهلّبَ، فأقرأه الكتاب، وأمره أن ينتخبَ مَن شاءَ. فبعث بجُذَيع بن قبيصة وهو

---

١) سنة أربعٍ وسبعين.

خال ابنه يزيد، فأمره أن يأتى الدّيوان، فينتخب النّاس. فشقّ على بشر أنّ إمرة المهلّب جاءَتْ من قبل عبدالملك فلايستطيع أن يبعث غيرَه. فأوغرتْ صدره عليه حتّى كأنّ له إليه ذنبًا. ودعا بشرُ بن مروان عبدالرّحمان بن مخنف، فبعثه على أهل الكوفة، وأمره أن ينتخب فُرسان النّاس و وُجوههم وأولى الفضل منهم والنّجدة.

قال عبدالرّحمان بن مخنف: قال لى بشر:

ـ «إنّك قد عرفت منزلتَك منّى وأثرتَك عندى، وقد ولّيتُك هذا الجيش لِلّذى[١] عرفتُ من جرائك[٢] وغَنائك وشرفك وبأسك، فكُنْ عند أحسن ظنّى بك، أنظر هذا الكذّاب[٣] ـ يعنى المهلّب و وَقعَ فيه و سبّعَهُ[٤] ـ (كذا) فاستبِدّ عليه بالأمر، [308] ولا تقبلنّ له مشورةً ولا رأيًا.»

وتنقّصه وقصّر به.

قال عبدالرّحمان: فترك أن يوصينى بالجندِ وقتال العدوّ والنّظر لأهل الاسلام، وأقبل يغرينى بابن عمّى حتّى كأنّى سفيهٌ من السُفهاءِ، أو ممّن يُستصبىٰ ويُستجهل. مارأيتُ شيخًا فى مثل سنّى ومنزلتى طُمع منه فى مثل ما طمع فيه هذا الغلام منّى. شبّ عمرُو عن الطّوق.

قال: ولمّا رَءَانى لستُ بالنّشيط إلى جوابه قال:

ـ «مالك؟» قلتُ:

ـ «أصلحك الله، وهل يسعنى إلاّ أن انقاذ لأمرك فى كلّ ما أحببت أو كرهتَ؟» قال:

ـ «إمضِ راشدًا.»

فودّعتُه وخرجت من عنده.

وخرج المهلّب حتّى نزل رامهُرمُز، فلقى الخوارج، فخندق عليه، وأقبل عبدالرّحمان بن مخنف بأهل الكوفة، فنزل قريبًا من المهلّب على ميلٍ، أو ميلٍ ونصفٍ، حيث يتراءَى العسكران برامهرمز، فلم يلبث النّاس إلاّ عشرًا حتّى أتاهم نعى بِشر، وتُوفّى بالبصرة، وارفضّ النّاس من أصحاب المهلّب وأصحاب عبدالرّحمان بن مخنف، وهم رؤساءُ أهل البصرة والكوفة، وبقيا فى قلّةٍ. وكان بشرٌ استخلف خالد بن عبدالله بن أسيدٍ، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حُريثٍ،

---

١) لِلّذى: كذا فى الأصل وهو الصّحيح. وما فى مط: الّذى.

٢) جرائك: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨٥٦:٨): جزئك.

٣) انظر هذا الكذّاب: كذا فى الأصل. وفى مط: أنظر هذا الكتاب! وهو خطأ. وما فى الطّبرى أنظر هذا الكذا كذا يقع فى المهلّب!

٤) سبعه: كذا فى الأصل. وفى مط: شيعته. سبعه: ذعره. عابه. شتمه.

وكان ممَّن انصرف من أهل الكـوفة: زحـر بن قيس، [309] وإسـحاق بن محمَّد بن الأشـعث، ومحمَّد بن عبدالرَّحمان بن سعد بن قيس. فبعث عبدالرَّحمان ابنَه جعفرًا فى آثارهم، فردَّ إسحاقَ ومحمَّدًا، وفاتَه زحـر بن قيس، فحبسـهما يومين، ثمَّ أخـذ عليهما ألاَّ يفـارقاه. فما لَبِثا إلاَّ يومًا حتَّى انصرفا ولحقا بزحر بن قيس بالأهواز، فاجتمع بها ناسٌ كثيرٌ ممَّن يريد البصـرة، فبلغ ذلك خالد بن عبدالله، فكتب إلى النَّاس كتابًا، وبعث رُسُلاً تضرب وُجوهَ النَّاس وتردُّهم. فقـدم مولىً له، فقُرِئَ الكتاب على النَّاس وقـد جمعـوا له، وكان فيه حضٌّ على الجهـاد وتوبيخٌ للرُؤسـاء، وتهديدٌ لعامَّة النَّاس، ويقول فى آخره:

- «أيُّهـا النَّاس، اعلموا على مَن اجترأتم ومَن عصيتم. إنه عبدالملك بن مروان أميرالمؤمنين الَّذى مافيه غميزةٌ، ولا عنده رُخصةٌ على من خالفه وعصىٰ أمرَه، وإنَّما سوطُه سـيفُه، فـلاتجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فإنِّى لم آلُكم نصيحةً. إذهبوا إلى مكتبكـم[1] وطـاعة خليفتكـم، ولاترجعـوا عاصين مخالفين، فأُقسم بالله لاأثقفُ عاصيًا بعد كتابى هذا إلاَّ قتلتُه والسَّلام.»

فلم يلتفت النَّاس إلى ما فى الكتاب، وأقبل رؤساءُ [310] الكوفة حتَّى نزلوا إلى جانب الكوفة فى قريةٍ لآل الأشعث، وكتبوا إلى عَمرو بن حُريثٍ:

- «أمَّا بعدُ، فإنَّ النَّاس لمَّا بلغهم وفاة الأمير رحمهالله، تفـرَّقوا فلم يبق معنا أحـدٌ، فاقبلنا إلى الأمير، وإلى مصرنا، وأحببنا ألاَّ ندخلَ الكوفة إلاَّ بإذن الأمير وعلمه، والسَّلام.»

فكتب إليهم:

- «أمَّا بعدُ، فإنَّكم تركتم مكتبكم وأقبلتم عاصين مخالفين، فليس لكم عندنا أمانٌ ولا إذنٌ.»

فلمَّا أتاهم كتابه انتظروا حتَّى إذا كان اللَّيل دخلوا إلى رحـالهم، فلم يزالوا مقيمين حتَّى قـدم الحجَّاج بن يوسف.

[سبب عزل بكير بن وساج عن خراسان]

وفى هذه الأيَّام عزل عبدالملك بكيرَ بنَ وساج عن خراسان، و ولاَّها أميَّة بن عبدالله بن خالد بن أسيد. وكان سبب ذلك أنَّ نميمًا اختلفت بخراسان، فصار منهم قومٌ يتعصَّبون لبَحير ويطلبون

١) مكتبكم: الكلمة تكررتْ فى موضعين، فى الموضع الأوَّل غموضٌ فاثبتناها كما هى فـى الموضـع الثانى وكما فـى الطبرى ٨: ٨٥٨، ٨٥٩. وفى هوامش الطبرى: امكتتكم (فى كلا الموضـعين). فـى مط: مكتتكـم؟ والموضـع الثانى محذوف فى مط.

بكيرًا، وصار منهم يعذرون بُكيرًا ويتعصّبون له. فخاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد ويقهرهم عدوّهم من المشركين. فكتبوا إلى عبدالملك أنّ خراسان لاتصلح بعد الفتنة إلاّ على رجل من قريش لايحسدونه.

فوجّهَ عبدالملك أميّة بن [311] عبدالله، وكان يحبّه ويقول:

- «هو لِدَتى[1].»

وكان بَحير كما كتبنا فى ماتقدّم من خبره، فى حبس بُكير لماكان منه فى رأس ابن خازم حين قتله. فلم يزل محبوسًا عنده حتّى استعمل عبدالملك أميّة بن عبدالله بن خالد بن أسيد. فلمّا بلغ ذلك بُكيرًا أرسل إلى بَحير ليصالحه، فأبى عليه وقال:

- «ظنّ بُكيرٌ أنّ خراسان تبقىٰ له فى الجماعة.»

فمشى بينهم السُفراء، فأبى بَحيرٌ.

ذكر راى صواب أشير به على بَحير فقبله

ثمّ دخل عليه ضرار بن حصن الضَبّى، فقال:

- «إنّى لاأراك مائقًا، يُرسل إليك ابن عمّك يعتذر إليك وانت أسيرٌ فى يده فلاتقبل منه! لوقتلك ماخَبَقت[2] فيه عنزٌ. ما أنت بموفَّق، إقبل الصُلح، واخرج وأنت على أمرك.»

فقبل مشورته وصالح بُكيرًا.

قال: فأرسل إليه بُكيرٌ بأربعين ألفًا، وأخذ على بَحير ألاّ يغتاله. فلمّا بلغ بَحيرًا أنّ أميّة قارب أبرَشهر، قال لرجل من عجم مرو:

- «دُلّنى على طريق قريب لاألقى الأمير قبل قدومه ولك كذا وكذا.»

وأجزل له العطيّة. وكان عالمًا بالطريق. فخرج إلى أرض [312] سرخس فى ليلة، ثمّ مضىٰ به إلى نيسابور.

فوافى أميّة حتى قدم أبرَشهر، فلقيه، فأخبره عن خراسان وما يُصلح أهلها ويُحسن طاعتهم ويخفّ على الموالى مؤونتهم، ورفع على بكير أموالاً قد أصابها، وحذّره غدرَه، وسار معه حتّى

---

١) لِدَتى: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨٦١:٨): هو نتيجتى اى لدتى.

٢) خَبَقتْ: فى الأصل حيقت، ولم نجد لها معنى. وفى مط: حنقت. وما أثبتناه يؤيّده الطبرى ٨٦١:٨. خَبَقتْ: ضَرطتْ واكثر استعماله فى الإبل والغنم.

قدم مرو. وكان أميّة سيّدًا كريمًا. فلم يعرض لبُكير ولا لعمّاله، وعرض عليه أن يولّيه شُرطتَه، فأبى بكيرٌ، فولأُها بَحيرًا. وقد كان لام بُكيرًا رجالٌ من قومه وقالوا[١]:

ـ «أبيت أن تليَ حتّى ولأُها بَحيرًا، وقد عرفتَ ماكان بينكما.» قال:

ـ «كنتُ أمس والى خراسان تُحمل الحراب بين يدىّ وأصبر اليوم على الشُرطة أحمل الحربة!»

وقال أميّة لبُكير:

ـ «إختَرْ ماشئتَ من عمل خراسان.» قال:

ـ «طخارستان.» قال:

ـ «هى لك.»

قال: فتجهّز بُكيرٌ، وأنفق مالاً كثيرًا، فقال بَحيرٌ لأُميّة:

ـ «إن أتى بكيرٌ طخارستان خلعك.»

فلم يزل يُحذّره حتّى حَذِرَه، وأمره بالمقام.

ذكر تولية[٢]عبدِالملك الحجّاج بن يوسف العراق وسيرة الحجّاج

ولمّا توفّى بشر بن مروان، كاتب عبدُالملك الحجّاجَ بن يوسف وهو بالمدينة [313] و ولاّهُ العراقَ. فأقبل فى اثنى عشر راكبًا على النّجائب، حتّى دخل الكوفة حين انتشر النّهار. فجاءه، وكان بشرٌ بعث المهلّب إلى الحروريّة، وانصرف كثيرٌ من النّاس عنه بعد وفاته. وقد كتبنا أمرَه فى ما تقدّم. فبدأ الحجّاجُ بالمسجد، فدخله، ثمّ صعد المنبر وهو متلثّم بعمامةٍ حمراءَ خزٍّ، فقال:

ـ «علىّ بالنّاس.»

فحسبوهُ وأصحابَه خارجةً. فهمّوا به، حتّى إذا اجتمع إليه النّاس قام فكشف عن وجهه، ثمّ قال:

«أنا ابنُ جَلا وطَلاّعُ الثّنايا   مَتىٰ أضعِ العِمامَةَ تَعرِفُونى

أما والله، إنّى لأحمل الشرّ محملَه[٣]، وأحذوهُ بنعله[٤] وأجزيه بمثله، وإنّى لأرى رؤوسًا قد

---

١) فى الأصل ومط: قال. فصحّحناها كما فى الطبرى ٨٦٢:٨.

٢) مافى الأصل: ولاية وهو سهوٌ.

٣) محمله: كذا فى الأصل والطبرى ٨٦٤:٨. وفى مط: حمله، وهو خطأ.

٤) بنعله: كذا فى الأصل والطبرى، وهو الصّحيح. وما فى مط: ينعله.

أينعتْ، وحانَ قِطافُها، وإنّى لأنظر إلى الدّماءِ ترقرق بين العمائم واللُّحى. قد شمّرتْ عن ساقها تشميرًا.

هذا أوانُ الشَدّ، فاشتَدّى زِيَمْ   قد لفّها اللّيل بسوّاق، حَطِم[١]
ليس براعى إبلٍ، ولا غَنَمْ   ولا بجزّارٍ[٢] على ظهر وَضَمْ
قد لفّها اللّيلُ بعَصْلَبِىّْ   مهاجرٍ ليس بأعرابىّْ

إنّى والله، يا أهل العراق ما أُغمز تَغماز [314] التّين، ولا يُقعقعُ لى بالشّنان، ولقد فُررْتُ عن ذكاءٍ وفتّشت[٣] عن تجربةٍ، وجريتُ من[٤] الغايةِ. إنّ اميرالمؤمنين نثل كنانته، ثم عجم عيدانَها، فوجدنى أمرّها عودًا [وأصلبَها مكسرًا] فرماكم بى. فإنّكم طال ما أوضعتم فى الفتن وسننتم سُنَنَ الغىّ. والله لألحونّكم لَحْوَ العود، ولأعصبنّكم عَصْبَ السّلَمة، ولأضربنكم ضَرْبَ غرائب الابل. إنّى والله لاأعِدُ إلاّ وفيتُ، ولا أخلق إلاّ فريت، فإيّاى وهذه الجماعات وقيلاً وقالاً وما يقول وفيم أنتم وذاك. والله لتستقيمُن على سبل الحقّ، أو لأدعنّ لكلّ رجلٍ منكم شغلاً فى جسده. مَن وجدناه بعد ثالثةٍ من بعث المهلّب سفكتُ دمه وأنهبت ماله.»

ثمّ دخل منزله ولم يزد على ذلك.

ويُقال: إنّه لمّا طال سكوته تناول محمّد بن عُمير حصًى ليحصبه بها، وقال:

ـ «قاتله الله، ما أعياهُ وآدامه[٥]!»

فلمّا تكلّم الحجّاج جعل الحصى ينتشر من يده ولايعقل به.

ثمّ دعا الحجّاج بالعرفاء، وقال:

ـ «إلحقوا بالمهلّب وائتونى بالبراءات بموافاتهم، ولاتغلقنّ أبواب الجسر ليلاً ونهارًا، فقد بلغنى رفضكم للمهلّب وإقبالكم إلى [315] مصركم عُصاةً مخالفين. وإنّى لأُقسم لكم بالله ما أجد أحدًا بعد ثلاثة إلاّ ضربت عنقه.»[٦]

فلمّا كان اليوم الثالث سمع تكبيرًا فى السُوق، فخرج حتّى جلس على المنبر، فقال:

---

١) الحطِم: كذا ضبطت فى الأصل. وضبطها الطبرى: «حُطَمْ».
٢) بجزار: النقطة التحتانية واحدةً فى الأصل: بحرّار؟ بجرّار؟ وما فى الطبرى: بجزّار.
٣) فتّشت عن تجربة: نقط الشين أثبتناها بقرينة ما فى مط، فما فى مط: فتشيت.
٤) جريت من الغاية: كذا فى الأصل. وفى الطبرى: جريت إلى الغاية. والعبارة ساقطةٌ من الطبرى.
٥) ادمه: كذا فى الأصل، وهى ساقطة من مط. الأدمة: السُمرة. وفى الطبرى: أدْمه.
٦) تجد الخطبة وتفسير الفاظها عند الطبرى ٨: ٨٦٤.

- «يا أهل العراق وأهل الشّقاق ومساوئُ الأخلاق، إنّى سمعتُ تكبيرًا لايُراد به الله فى التّرغيب، ولكنّه تكبيرٌ يراد به التّرهيب. وقد عرفت أنّها عَجاجةٌ تحتها قصفٌ. يابنى اللُّكيعة وعبيدَ العصا[١] وأبناءَ الأيامى، إن لاتربع رجل على ظلعه ولايحسن حقن دمه ويبصر موضعَ قدمه، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعةً تكون نكالاً لما قبلَها وأدبًا لمابعدَها.»

فقام إليه عمير بن ضابئٍ التميمىّ ليتكلم بعُذره[٢] فقال:

- «أ سمعتَ كلامنا بالأمس؟» قال:

- «نعم،» قال:

- «أ لستَ الّذى غزا أميرالمؤمنين عثمان؟» قال:

- «بلىٰ.» قال:

- «فما حملك على ذلك؟» قال:

- «حبس أبى وكان شيخًا كبيرًا.» قال:

- «أو ليس الّذى يقول:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكِدتُ وليتنى ... تركتُ على عثمان تبكى حلائلُه

إنّى لأحسب فى قتلك صلاح المصرين. قم إليه يا حَرَسىُّ فاضرب عُنقَه.»

فقام إليه [316] الحرسىُّ، فأخرجه وضرب عنقَه، وأنهبَ مالَه، وأمر مناديًا فنادىٰ:

- «ألا إنّ عميرًا أتى بعد ثالثةٍ وقد كان سمع النّداءَ، فأمرنا بقتله. ألا إنّ ذمّة الله بريئةٌ ممّن بات اللّيلة من جند المهلّب.»

فخرج النّاس، فازدحموا على الجسر، فعبرفىتلك اللّيلة أربعة آلاف مذحجٍ. وخرج العرفاء إلى المهلّب، وهو برامهرمز، فأخذوا كُتُبه بالموافاة.

وقال المهلّب لأصحابه:

- «قدم العراقَ أميرٌ ذَكَرٌ، اليومَ قوتل العدوُّ.»

قال عمرو بن سعيد: فوالله إنّى لأسير بين الكوفة والحيرة إذ سمعتُ زجرًا[٣] مضريًا، فعدلتُ إليه وقلتُ:

- «ما الخبر؟» قالوا:

---

١) العصا: كذا فى الأصل والطبرى (٨٦٨:٨). وفى مط: الحصى!

٢) بعذره: كذا فى الأصل. وفى مط: بغدره.

٣) فى الطبرى: رجزًا. وفى مط: زحرًا.

ـ «قدم علينا رجلٌ من شرّ أحياءِ العرب، من هذا الحىّ، من ثمود، أسقف الساقين، أشرح[١] الجاعرتين، أخفش العينين. فقدّم سيّد الحىّ عمير بن ضابى فضرب عنقه.»

ولقى ابن الزُّبير إبراهيم بن عامر، فسأله عن الخبر، فقال وذلك فى السُّوق:

أقول لإبراهيم لمّا لقيته ... أرى الأمر أضحى[٢] مُنصبًا متشعّبا
تَجهّزْ وأسرعْ فالحَقِ الجيشَ، لا أرىٰ ... سوى الجيش، إلّا فى المهالك مذهبا
تَخيّرْ فإمّا أن تزور ابن ضابئٍ ... عُميرًا وإمّا أن تزور المهلّبا [317]
هما خُطّتا حتفٍ نجاؤك منهما ... ركوبُك حَوليًا من الثّلج أشهبا
فأمسىٰ ولو كانت خراسان دُونه ... رَءَاها مكان السُّوق، أو هى أقربا

ولمّا قتل الحجاج عمير بن ضابئ، خرج من فوره حتّى قدم البصرة، فقام فيهم بخطبة، مثل الّتى[٣] قام بها فى أهل الكوفة، وتوعّدهم مثل وعيده إيّاهم. فأُتىَ برجلٍ من بنى يشكر، وقيل له:

ـ «هذا عاصٍ.» فقال:

ـ «إنّ لى فتقًا، وقد رَءَاهُ بشرٌ فعذرنى، وهذا عطائى مردود فى بيت المال.»

فلم يقبل منه، وقدّمه فضرب عنقه. ففزع أهل البصرة، فخرجوا حتّى تداكُوا على العارض برامهرمز، فقال المهلّبُ:

ـ «جاءَ النّاس أمرٌ ذَكَرٌ.»

ذكر وُثوب النّاس بالحَجّاج

خرج الحجّاج بالنّاس حتّى نزل رستقباذ، ومعه وجوه أهل البصرة، وكان بينه وبين المهلّب ثمانية عشر فرسخًا. فقام فى النّاس، فقال:

ـ «إنّ ابن الزُّبير زادكم فى أعطياتكم زيادة فاسقٍ منافقٍ، ولستُ أُجيزها.»

فقام إليه عبدالله بن الجارود العبدى، فقال:

ـ «ولكنّها زيادة أميرالمؤمنين عبدالملك، وقد [318] أثبتها لنا.»

فكذّبه وتوعّدهُ، فخرج ابن الجارود على الحجّاج، وبايعه وجوهُ النّاس. فاقتتلوا قتالاً شديدًا،

---

١) أشرح: كذا فى الأصل. وفى مط: أشرع. وما فى الطبرى (٨٧١:٨): ممسوح الجاعرتين.
٢) أضحىٰ: سقطت من الأصل. فأثبتناها كما فى مط. وما فى الطبرى: أمسى.
٣) فى الأصل ومط والطبرى (٨٧٣:٨): الّذى. وفى هامش الطبرى: الّتى. وهو الصّحيح.

فقُتل عبدالله بن الجارود وجماعةٌ ممّن ثار معه، وبعث الحجّاج برأسه ورؤوس عدّةٍ من أصحابه إلى المهلّب، ونصب برامهرمز ثمانية عشر رأسًا من وجوه النّاس. فساءَ ذلك الخوارجَ، وكانوا رجَوا أن يكون من النّاس فُرقةٌ واختلافٌ. وانصرف الحجّاج إلى البصرة، وكتب إلى المهلّب وإلى عبدالرّحمان بن مخنف:

- «أمّا بعدُ، إذا أتاكم كتابى هذا، فناهضوا الخوارج. والسّلام.»

فناهض المهلّب وعبدالرّحمان الأزارقة، فأجلَوهم عن رامهرمز من غير قتالٍ شديدٍ، ولكنّهم زحفوا إليهم حتّى أزالوهم، وخرج القوم كأنّهم على حاميةٍ، حتّى نزلوا بكازرون.

ذكر توانٍ لعبدالرّحمان حتّى قُتل وقُتل معه خلقٌ

وسار المهلّب وعبدالرّحمان حتّى نزلوا بهم، فخندق المهلّب ولم يخندق عبدالرّحمان، فقال المهلّب لعبدالرّحمان:

- «إن رأيت أن تخندق عليك فعلتَ.» فقال أصحاب عبدالرّحمان:

- «خندقُنا سيوفنا.»

فلمّا كان اللّيل زحف الخوارج إلى المهلّب [319] ليبيّتوهُ، فوجدوه قد أخذ حِذْرَه، فمالوا نحو عبدالرّحمان، فوجدوه لم يخندق. فنهض عبدالرّحمان وقاتلهم وانهزم عنه أصحابه، ونزل فى جماعةٍ من أهل الحفاظ والصّبر، فقاتلوا حتّى قُتل عبدالرّحمان وقُتلوا كلُّهم حولَه.

فلمّا أصبح المهلّب جاءَ حتّى دفنه وصلّى عليه، وكتب بمصابه إلى الحجّاج، فكتب الحجّاج بذلك إلى عبدالملك ونَعىٰ عبدَالرّحمان وذمّ أهل الكوفة. وبعث الحجّاج على عسكر عبدالرّحمان بن مخنف، عتّابَ بن ورقاء، وأمره إذ ضمّتها الحرب أن يسمع للمهلّب ويطيعَ. فساءَهُ ذلك ولم يجد بدًا من طاعة الحجّاج، ولم يقدر على مراجعته. فجاءَ حتّى أقام فى ذلك العسكر، وقاتل الخوارج، وأمرُهُ إلى المهلّب، وهو فى ذلك يعنى أمورَهُ ولايكاد يستشير المهلّبَ فى شىء. فلمّا رأى المهلّبُ ذلك اصطنع رجالاً من أهل الكوفة فيهم بسطام بن مصقلة، فأغراهم بعتّابٍ.

فلمّا كان ذات يومٍ، أتى عتّابُ المهلّبَ يسأله أن يرزق أصحابَه. فأجلسه المهلّب معه على مجلسه، فسأله عتّابُ سؤالاً فيه تجهُّمٌ وغِلظةٌ وترادّا الكلامَ حتى قال [320] له المهلّبُ:

- «يابنَ اللّخناء.»

وذهب ليرفع القضيب عليه، فوثب إليه ابنُه المغيرة، فقبض على القضيب وقال:

- «أصلح الله الأميرَ، شيخٌ من أشياخ العرب وشريفٌ من أشرافهم. إن سمعتَ منه ماتكرهُ

فاحتمله.»

فقبله وقام عتّابُ، فاستقبله بسطام بن مصقلة يشتمه ويقع فيه فلمّا رأى عتّابُ ذلك كتب إلى الحجّاج يشكو إليه المهلّبَ ويخبرهُ أنّه أغرى به سفهاءَ أهل البصرة ويسأله أن يضمّهُ إليه، ووافق ذلك حاجةً من الحجّاج إليه فى مالقى من شبيب، ومالقيه أيضًا أشرافُ الكوفة منه. وسنذكر من خبره مايليق بهذا الكتاب إن شاءَالله. فبعث إليه الحجّاج أن:

ـ «إقدم واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلّب.»

فبعث المهلّب ابنَه حبيبًا، وأقام المهلّب يقاتلهم سنةً.

ذكر ماكان من شبيب بن يزيد ومالقى الحجّاجُ وأشرافُ الكوفة منه

كان ابتداء أمر شبيب صحبته لرجل يعرف بصالح بن مسرّح، وكان صالحُ يرىٰ رأى الصُفريّة وكان ناسكًا مُصفرَّ الوجه صاحب عبادة، وله أصحابُ يُقريهم القرآن ويفقّهُهُم [321] ويقصُ عليهم، ويقدَم الكوفة فيقيم بها الشّهرَ أو الشّهرين، وكان بأرض الموصل والجزيرة، وله قَصص محفوظٌ[1] وكلامٌ مستحسن، وكان إذا فرغ من التّحميد والصّلاة على محمّدٍ ذكرَ أبابكر فأثنى عليه، وثنّى بعمر، وذكر عثمان وماكان من أحداثه، ثمّ عليًا وتحكيمه الرّجالَ فى أمر الله، ويتبرأ من عثمان وعلىٍّ، ثمّ يدعو إلى مجاهدة أئمّة الضّلال ويقول:

ـ «تيسّرُوا يا إخوانى للخروج من دار الفناء، إلى دار البقاء، واللّحاق بإخواننا المؤمنين الذين باعوا الدُّنيا بالآخرة، ولاتجزعوا من القتل فى الله، فإنّ القتل أيسر من الموت، والموتُ نازلٌ بكم عندما تُرجَمُ[2] الظّنون، فيفرّق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم، وإن اشتدّ لذلك جزعكم. ألا، فبيعوا أنفسكم طائعين وأموالَكم، تدخلوا الجنّة.»

وأشباه ذلك من الكلام. وكان فى من يحضره من أهل الكوفة سُويد والبُطين. فقال يومًا لأصحابه:

ـ «ماتنتظرون؟ مايزداد أئمّة الجور إلاّ عُتوًا وعُلوًا وتباعدًا من الحقّ، وجُرأةً على الرّبّ. فراسلوا إخوانكم حتّى يأتوكم وننظرَ مانحن صانعون وأىّ وقتٍ إن خرجنا [322] نحن خارجون.»

---

١) قَصصٌ محفوظ: كذا فى الأصل. وما فى مط: قصصٌ محفوظةٌ.

٢) الرَّجم: أن يُتكلّم بالظّن. ومنه قولهم «رجْم بالغيب»، أو: «رجمًا بالغيب».

فبينا هو كذلك، إذ أتاه المحلّل[١] بن وائلٍ بكتاب شبيبٍ وقد كتب إلى صالح:

- «أمّا بعدُ، فقد كنتَ دعوتنى إلى أمرٍ استجبتُ له، فإن كان ذلك، فإنّك شيخ المسلمين، ولم نعدل بك منّا أحدًا، وإن أردت تاخير ذلك، أعلمتنى، فإنّ الآجال غاديةٌ ورائحةٌ، ولا آمَنُ أن تخترمنى المنيّةُ ولمّا أجاهد الظّالمين. جعلنا اللهُ وإيّاك ممّن يُريد الله بعمله، والسّلام عليك.»

فأجابه صالحٌ بجوابٍ جميلٍ يقول فيه:

- «إنّه لم يمنعنى من الخروج مع ما أنا فيه من الاستعداد إلاّ انتظارك، فاقدَمْ علينا ثمّ اخرج بنا، فإنّك ممّن لاتُقضَى الأمورُ دونَه، والسّلام.»

فلمّا ورد كتابه على شبيب دَعا نفرًا من أصحابه فجمعهم إليه، منهم: أخوه مَصاد بن يزيد و المحلّل بن وائل، والصَّقر بن حاتم، وابراهيم بن حجر، وجماعة مثلهم. ثمّ خرج حتى قدم على صالح بن مسرّح، وهو بدارا من أرض الموصل. فبثّ صالحُ رُسُلَه، و واعدهم الخروج فى هلال صفر ليلة الأربعاءِ سنة ستٍّ وسبعين. فاجتمع بعضهم إلى بعض، واجتمعوا عنده فى تلك اللّيلة.

فتحدّث فروة بن لقيط قال: إنّى لمعهم تلك اللّيلة وكان رأيى استعراض النّاس [323] لما رأيت من المنكر والفساد فى الأرض. فقمتُ إليه، فقلت:

- «يا أميرالمؤمنين، كيف ترى السِّيرة فى هؤلاءِ الظَّلَمة؟ أنقتلهم قبل الدُّعاءِ، أم ندعوهم قبل القتال؟ فإنّى أخبرك برأيى فيهم قبل أن تخبرنى برأيك فيهم. إنّا نخرج على قوم طاغين باغين، قد تركوا أمر الله، أوَ راضين بذلك؟ فأرىٰ أن نضع[٢] فيهم السَّيف.» فقال:

- «لا، بل ندعوهم، فلعمرى، لايجيبك إلاّ مَن يرى رأيَك، وليُقاتلنّك مَن يُزرى عليك، والدُّعاءُ أقطع لحجّتهم، وأبلغ فى الحجّة لك عليهم.»

قال: فقلت له:

- «فكيف ترىٰ فى مَن قاتَلَنا فظفرنا به، وماتقول فى دمائهم وأموالهم؟» فقال:

- «إن قاتلنا وغنمنا فلَنا، وإن تجاوزنا وعفَونا، فموسعٌ علينا ولَنا.»

فأحسنَ لنا القولَ.

ثمّ قال صالحٌ لأصحابه ليلته:

---

١) المحلل: ضبط هذا الاسم مضطرب فى الأصل، فتارة بالحاء المهملة واخرى بالجيم المعجمة. فأثبتناه بالحاء المهملة كما فى الطبرى ومط.

٢) نَضع: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: تصنع. وهو خطأ.

ـ «إتّقوا الله عباد‌الله، ولاتعجلوا إلى قتال أحدٍ من النّاس إلاّ أن يكونوا يُريدونكم، فإنّكم خرجتم غضبًا لله حيث انتُهكت مَحارمُه، وعُصى فى الأرض، وسُفكت الدّماءُ بغير حقّها، وأُخذت الأموال غصبًا، فلاتعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملوا بها. وهذه دوابُ لمحمّد بن مروان فى هذا الرُستاق، فابدأوا بها، فاحملوا رجْلكم وتقوّوا بها على عدوّكم.» [324]

ففعلوا ذلك وتحصّن منهم أهل دارا، وبلغ خبرهم محمّد بن مروان، وهو يومئذٍ أمير الجزيرة، فاستخفّ بأمرهم، وبعث إليهم عدىّ بن عُميرة فى خمسمائة، وكان صالحُ فى مائة وعشرة، فقال عدىُ:

ـ «أصلح الله الأمير، تبعثنى إلى رأس الخوارج ومعه رجالٌ سُمُّوا لى، وإنّ الرّجل منهم خيرٌ من مائة فارس فى خمسمائة.» فقال له:

ـ «فإنّى أزيدك خمسمائة، فسرْ إليهم فى ألف فارس.»

فسار من حَرّان فى ألف رجلٍ وكأنّما يُساق إلى الموت. وكان عدىُ رجلاً يتنسّك. فلمّا نزل ذوغان نزل بالنّاس وأنفذ إلى صالح بن مسرّح رجلاً دسّهُ إليه. فقال له:

ـ «إنّ عديًا بعثنى إليك يسألك أن تخرج من هذا البلد وتأوى بلدًا آخر وتقاتل أهله، فإنّ عديًا للقائك كارهُ.»

فقال صالح:

ـ «إرجع إليه، فقُلْ له: إن كنت ترىٰ رأينا فأرنا من ذلك مانعرف، ثمّ نحن مدلجون عنك، وإن كنت على رأى الجبابرة وأئمّة السّوء، رأينا رأينا. فإمّا بدأنا بك، وإمّا رحلنا إلى غيرك.»

فانصرف إليه الرّسول، فأبلغه. فقال عدىُ:

ـ «ارجع إليه فقل له: إنّى والله لاأرى رأيك، ولكنّى أكرهُ قتالَك وقتالَ غيرك من المسلمين، فقاتل غيرى.» [325]

ذكر مكيدة صالحٍ على عدىٍ

فقال صالحُ لأصحابه: اركبوا. فركبوا. وحبس الرّجلَ عنده حتّى خرجوا، ثمّ تركه ومضى بأصحابه حتّى أتىٰ عديًا فى سوق ذوغان وهو قائمُ يصلّى الضّحى، فلمْ يشعر إلاّ والخيل طالعةٌ عليهم. فلمّا دَنا صالحُ منهم رَءَاهم على غير تعبئةٍ، وقد تنادَوا، وبعضُهم يجول فى بعضٍ. فأمر شبيبًا، فحمل عليهم فى كتيبةٍ، ثمّ أمر سُويدًا، فحمل فى كتيبة، وكانت هزيمتهم. وأُتى عدىُ بدابّته فركبها، ومضى على وجهه، واحتوى صالحُ على عسكره ومافيه، وذهب فلُ عدىٍ حتّى

لحقوا بمحمّدَ بن مروان. فغضب، ثمّ دعا خالد بن جَزءِ[١] السُلمى، فبعثه فى ألفٍ وخمسمائة، ودعا الحارث بن جعونة فبعثه فى ألفٍ وخمسمائة، وقال لهما:

- «أخرجا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة وعجّلا. فأيّكما سبق فهو الأمير على صاحبه.»

فخرجا، وأغذّا السَير، وجعلا يسألان عن صالحٍ، فقيل له:

- «توجّهْ نحو آمد.»

فاتّبعاه حتّى انتهيا إليه بآمد، فنزلا ليلاً وخندقا وهما يتساندان كلٌ واحدٍ منهما على حدته. فوجّه صالحُ شبيبًا إلى الحارث بن جعونة فى شطر أصحابه، وتوجّه هو [326] نحو خالد السُلمى، فاقتتلوا أشدَّ قتالٍ اقتتله قوم، حتّى حجز بينهم اللّيل وقد انتصف بعضهم من بعضٍ.

فتحدّث بعض أصحاب صالحٍ قال: كنّا إذا حملنا عليهم استقبلتنا رجّالتهم بالرّماح، ونضحتنا[٢] رماتهم بالنّبل وخيلهم تُطاردنا فى خلال ذلك، فانصرفنا عند اللّيل وقد كرهناهم وكرهونا. فلمّا رجعنا وصلّينا وتروّحنا وأكلنا من الكسر دعانا صالحُ وقال:

- «يا أخلاّئى ماذا تَرون؟»

فقال شبيبُ:

- «أنا أرى إن قاتلنا هؤلاءِ وهم معتصمون بخندقهم لم نَنلْ منهم طائلاً. والرّأى أن نرحل عنهم.»

فقال صالحُ:

- «أنا أرى ذلك.»

فخرجوا من تحت ليلتهم حتّى قطعوا أرض الجزيرة وأرض الموصل، ومضَوا حتّى قطعوا الدّسكرة. فلمّا بلغ ذلك الحجّاجَ سرّح إليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثة آلاف. فسار، وخرج صالحُ نحو جَلُولا وخانقين، واتّبعه الحارث حتّى انتهى إلى قرية يُقال لها: **الزّبح**[٣] وصالح يومئذٍ فى تسعين رجلاً. فعبّى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنةً وميسرةً، وجعل صالحُ أصحابه كراديس ثلاثةً، فهو فى كردُوس وشبيب فى [327] ميمنته فى كردوس، وسُويد بن سُليم[٤] فى كردوس

---

١) جزء: كذا فى الأصل والطبرى ٨٨٩:٨. وما فى مط: حزّ.   ٢) نضحتنا: غيرواضحة فى الأصل ومط. فأثبتناها كما فى الطبرى ٨٨٩:٨. نَضحَ القومَ ونضحَهم بالنبل: رماهم ففرّقهم.

٢) الزّبح: كذا فى الأصل ومط. وفى الطّبرى (٨: ٨٩٠) المذبح. وفى حواشيه: المديح، المدبح.

٣) فى الطبرى: سليم. وما فى مط: مسلم. وما فى الأصل مضطربٌ حيث ضبط على وجهين: سليم وسلم فى المواطن المختلفة. فوجدنا الضبط كما فى الطبرى.

من ميسرته، وفى كلّ كردوس منهم ثلاثون رجلاً. فلمّا شدّ عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سُليم وثبت صالح، فقتل، وضارب شبيبُ حتى صُرع عن فرسه، فوقع فى رجاله، فجاءَ حتّى انتهى إلى موقف صالح، فوجده قتيلاً، فنادى:

- «يا معشر المسلمين.»

فلاذوا به، وقال لأصحابه:

- «ليجعلْ كلُّ رجلٍ منكم ظهره إلى ظهر صاحبه، وليطاعن عدوّه إذا أقدم عليه حتّى ندخل هذا الحصن ونرى من رأينا.»

ففعلوا ذلك حتّى دخلوا الحصن وهم سبعون رجلاً مع شبيب، وأحاط بهم الحارث بن عُميرة مُمسيًا، وقال لأصحابه:

- «أحرقوا الباب، فإذا صار جمرًا فدعوه، فإنّهم لايقدرون على خروجهم حتّى تصبّحهم فتقتلهم.»

ففعلوا ذلك بالباب، ثمّ انصرفوا إلى معسكرهم. فقال شبيب لأصحابه:

- «ماتنتظرون ياهؤلاء؟ فوالله، لئن صبّحوكم إنّه لَهلاكُكم.» فقالوا:

- «مُرنا بأمرك.» فقال لهم:

- «بايعونى إن شئتم، أو مَن شئتم منكم، ثمّ اخرجوا بنا حتّى نشدّ عليهم فى عسكرهم [328] فإنّهم آمنون منكم، فإنّى أرجو أن ينصركم الله.» قالوا:

- «فابسطْ يدَك.»

فبايعوه. فلمّا جاؤوا إلى الباب وجدوه جمرًا، فأتوا باللُّبود، فبلّوها بالماء، ثمّ ألقوها عليه، وخرجوا، ولم يشعر الحارث بن عُميرة إلاّ وشبيبُ وأصحابه يضربونهم بالسُّيوف فى جوف عسكرهم. فضارب الحارث حتّى صُرع، واحتمله أصحابُه وانهزموا وخلّوا لهم العسكرَ ومافيه، ومضَوا حتّى نزلوا المدائن. وكان ذلك الجيش أوّل جيشٍ هزمه شبيبُ.

فأمّا صالح بن مسرّح فإنّه أُصيب من سنةٍ كما حكينا من أمره، ثمّ ارتفع فى أدانى أرض الموصل، ثمّ ارتفع نحو آذربيجان يجبى الخراج.

وكان سفيان بن أبى العالية قد أمر أن يدخل فى خيلٍ معه طبرستان، فأمر بالقفول، فصالح صاحب طبرستان، واقبل فى نحو من ألفٍ، وورد عليه كتاب الحجّاج:

- «أمّا بعدُ، فأقم بالدسكرة فى من معك حتّى ياتيَك جيش الحارث بن عُميرة من ذى الشّعار، وهو الّذى قتل صالح بن مسرّح، ثم سِرْ إلى شبيب حتّى تناجزه.»

ففعل سفيان ذلك ونزل الدّسكرة، ونودى فى جيش الحارث بن عُميرة بالكوفة [329] والمدائن:

- «بَرِئَت الذّمّةُ من رجل من جيش الحارث بن عميرة لم يوافِ ابن العالية بالدسكرة.

قال: فخرجوا حتّى أتوه، وارتحل سفيان فى طلب شبيب، ثمّ ارتفع عنهم كأنّه يكره لقاءَهم وقد أكمن لهم مصادًا فى خمسين رجلاً فى هزم من الأرض. فلمّا رأوهُ جمع أصحابه، ثمّ مضىٰ فى سفح من الجبل مشرقًا. فقالوا:

- «هرب عدوُّالله.» واتّبعوه.

ذكر رأى رَءَاه عدىّ بن عُميرة فى تلك الحال فلم يُقبَلْ حتّى هلك الجيش

فقال لهم عدىُّ بن عُميرة الشيبانى:

- «أيّها النّاس، لاتعجلوا عليهم حتّى نضرب فى الأرض فنستبرئها، فإن يكونوا كمنوا كمنًا حذرناه، وإلاّ كان طلبهم[1] بايدينا، لن يفوتنا.»

فلم يسمع منه النّاس، وأسرعوا فى آثارهم. فلمّا رأى شبيبُ أنّهم قد تجاوزوا الكمين خرجوا إليهم. فحمل شبيبُ من أمامهم، وصاح بهم الكمين من وراءهم. فلم يقاتل أحدُ وكانت الهزيمةُ وثبت ابن أبى العالية فى نحو مائتى رجل، فقاتلهم قتالاً شديدًا حتّى انتصف من شبيب، فقال سويد بن [330-331][2] سليم:

- «أ منكم من يعرف أمير القوم ابنَ أبى العالية؟»

فقال شبيب:

- «أنا من أعرف النّاس به. أما ترى صاحبَ الفرس الّذى دونه المرامية، فإنه هو. فإن كنت تريده فأمهله قليلاً.»

ثمّ قال:

- «يا قعنب، أخرجْ فى عشرين، ثمّ ائتهم[3] من وراءهم.»

---

١) طلبهم: كذا فى الأصل. وما فى مط: طلبتهم.

٢) طفر المرقّم من رقم 329 إلى رقم 331 فأثبتنا الرقمين لصفحة واحدة، حتّى لاتغيّر أرقام الصفحات.

٣) ائتهم: أثبتناها كما فى مط والطبرى ٨:٨٩٨. وما فى الأصل: اتهم. وهو خطأ.

فخرج قعنبُ فى عشرين، فارتفع عليهم. فلمّا رأوه يريد أن يأتيهم من ورائهم جعلوا ينقصون ويتسلّلون. وحمل سويد بن سُليم على سفيان بن أبى العالية، فطاعنه، فلم يصنع رُمحاهما شيئًا، ثمّ اضطربا بسيفيهما، ثمّ اعتنق كلُّ أحدٍ منهما، فوقعا إلى الأرض يعتركان، ثمّ تحاجزا[١]، وحمل عليهم شبيبُ، فانكشف من كان معه. ونزل غلامُ لسفيان، يُقال له غزوان [نَزَل][٢] عن برذونه، وقال لسفيان:

ـ «اركبْ يامولاى.»

فركب سفيان وأحاط به أصحاب شبيب، فقاتل دونه غزوان حتّى قُتل، وكانت معه رايتُه. وأقبل سفيان بن أبى العالية منهزمًا حتّى انتهى إلى بابل مهروذ، فنزل بها، وكتب إلى الحجّاج، وكان الحجّاج أمر سَورة بن أبجر أن يلحق بسفيان، فكاتب سَورة سفيانَ وقال: انتظرنى. فلم يفعل، وعجّل نحو الخوارج. فلمّا عرف الحجّاج خبر سفيان، وقرأ كتابَه، قال للّناس:

ـ «مَن صنع كما صنع هذا وأبلى [332] كما أبلىٰ، فقد أحسنَ.»

ثمّ كتب إليه يعذرهُ ويقول له:

ـ «إذا خفّ عليك الوجع، فأقبل ماجورًا إلى أهلك.»

وكتب إلى سَورة:

ـ «أمّا بعدُ، يابن أمّ سورة، فما كنتَ خليقًا أن تجترئَ على ترك عهدى وخذلان جندى، فإذا أتاك كتابى فابعث رجلاً ممّن معك صليبًا[٣] إلى المدائن، فلينتخبْ من الخيل الّتى بها خمسمائة رجل، ثمّ لُيقدّم بهم عليك، ثمّ سِرْ بهم حتّى نلقىٰ هذه المارقة، وأخبرنى فى أمرك، وكِدْ عدوّكَ، فإنّ أفضل أمرِ الحربِ المكيدة. والسّلام.»

فلمّا أتى سَورةَ كتاب الحجّاج، بعث عدىّ بن عميرة إلى المدائن وكان بها ألف فارس، فانتخب منهم خمسمائة رجل، ثم رحل بهم حتّى قدم على سَورة ببابل مهروذ. فخرج فى طلب شبيب، وخرج شبيبُ يجول فى جُوخىٰ، وسورة فى طلبه. فجاءَ شبيبُ إلى المدائن وتحصّن منه أهلها وهى أبنية المدائن الاولىٰ. فدخل المدائن وأصابَ دوابَّ من دوابِّ الجند، وقتل مَن ظهر له، ولم يدخلوا البيوت، فأُتى فقيل:

١) تحاجزا: كذا فى مط. وفى الطبرى: تحاجزوا. وما فى الأصل غامضٌ، ويشبه أن يكون: تحاجزنا.

٢) نزل: سقطت من الأصل ومط. فأثبتناها نقلاً عن الطبرى.

٣) صليبًا: كذا فى الأصل والطبرى ٨٩٨:٨. وما فى مط: صلبًا. والصّليب: الخالص النّسب. يقال: هو عربى صليبٌ. أى: خالص النّسب.

- «هذا سَورةُ بن أبجر قد أقبل إليك.»

فخرج فى أصحابه حتّى انتهى إلى النّهروان، فنزل به، وتوضّأ هو وأصحابه، ثمّ أتوا [333] مصارع إخوانهم الّذين قتلهم علىّ بن أبى‌طالب، رضى الله عنه، فاستغفروا لإخوانهم، وتبرّأوا من علىّ وأصحابه، وبكوا فأطالوا البكاءَ، ثمّ عبروا جسر النّهروان، فنزلوا من جانبه الشّرقى، وجاء سَورةُ حتّى نزل بقطراثا[1]، وجاءته عيونه، فخبّرته بمنزل شبيبٍ بالنّهروان.

ذكر سوءِ راى سَورةَ فى الإقدام حتّى هُزم وفلّ

فدعا سورة رؤساءَ أصحابه، فقال لهم:

- «إنّهم قلّ مايلقون مُصحرين أو على ظهيرةٍ إلاّ انتصفوا، وقد حُدِّثتُ أنّهم لايزيدون على مائة رجل، وقد رأيتُ أن أنتخبكم وأسير فى ثلاثمائة رجلٍ منكم من أقويائكم وشجعانكم فأبيّتهم، فإنّهم آمنون لبياتِكم. فإنّى والله أرجو أن يصرعهم الله مَصرعَ إخوانهم بالنّهروان من قبل.» فقالوا:

- «إصنع ما أحببتَ.»

فاستعمل على عسكره حازم بن قدامة، وانتخب ثلاثمائة من شجعاءِ أصحابه، ثمّ أقبل بهم حتّى قرب من النّهروان، وبات وقد أذكى الحرس[2] ثمّ بيّتهم. فلمّا دَنا أصحاب سَورةَ منهم نذِروا بهم. فاستوَوا على خيولهم، وتعبّوا بتعبئتهم. فلمّا انتهى إليهم سَورةُ وأصحابُه أصابوهم قد حذِروا. فحمل عليهم سَورةُ، ثمّ [334] صاح شبيبٌ بأصحابه، فحمل عليهم حتّى تركوا العرصة، وحمل شبيبٌ وجعل يضرب ويقول:

مَنْ يَنِكِ العَيْرَ يَنِكْ نيّاكا   [جَنْدَلَتانِ اصطَكّتا اصطاكاكا][3]

ورجع سَورةُ إلى أصحابه مفلولاً قد هزم فُرسانه وأهل القُوّة من أصحابه. فضحك بهم وأقبل نحو المدائن، وتبعهم شبيبٌ حتّى انتهى سَورةُ إلى بيوت المدائن، ودُفع شبيبٌ إليهم وقد دخل النّاس، وخرج ابن أبى العُصَيفر[4]، وهو أميرٌ على المدائن، فرماهم النّاس بالنّبل ومن فوق البيوت بالحجارة، ثمّ سار إلى تكريت. فبينا ذلك الجند بالمدائن إذْ أرجف النّاسُ بينهم فقالوا:

١) قطراثا: كذا فى الأصل والطبرى ٨: ٩٠٠. فى مط: قطراثا. وفى حواشى الطبرى: قطراثا، قطرابا، قطراثا.
٢) الحرس: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: الحرث. وهو خطأ.
٣) المصراع تكملةٌ من الطبرى ٨: ٩٠١.
٤) أبى العُصَيفر: كذا فى الأصل والطّبرى. وما فى مط: أبى العصيفن. وهو خطأ.

ـ «هذا شبيبٌ قد أقبل يُريد أن يُبيِّتَ أهلَ المدائن.»

فارتحل عامّة الجند، فلحقوا بالكوفة، وإنّ شبيبًا لَبتكريت، ولمّا أتى الحجّاجَ خبرُهُ، قال:

ـ «قبّح الله سورةَ، ضيّع العسكر، وخرج يُبيِّت الخوارج. والله لأسوءنّه.»

ثمّ دعا الحجّاجُ الجَزْلَ وهو عثمان بن سعيد، فقال له:

ـ «تيسّرْ للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتَهم، فلاتعجل عجلةَ الخَرق النّزق، ولاتُحجم إحجامَ الوانى الفَرِق. هل فهمتَ؟» قال:

ـ «نعم، أصلح الله الأمير، قد فهمتُ[١] ماقال.» [335] قال:

ـ «فاخرج، فعَسكِرْ بدير عبدالرّحمان حتّى يخرج إليك النّاس.» فقال:

ـ «أصلح الله الأمير، لاتبعثَنّ معى أحدًا من الجُند المفلول[٢] المهزوم، فإنّ الرُعبَ قد دخل قلوبهم، وقد خشيتُ أن لاينفعَك والمسلمين منهم أحدٌ.» قال:

ـ «ذلك لك ولا أراك إلاّ وقد أحسنتَ الرّأىَ ووُفّقتَ.»

ثمّ دعا أصحابَ الدّواوين، فقال:

ـ «إضربوا على النّاس بالبعث، فأخرجوا أربعة آلافٍ من النّاس وعجّلوا.»

فجُمعتِ العرفاءُ، وأجلس أصحاب الدّواوين، وضربوا البعثَ [وأخرجوا أربعة][٣] آلاف. فأمرهم بالعسكر، ثمّ نودى فيهم بالرّحيل. ثمّ ارتحلوا ونادى منادى الحجّاج أنْ:

ـ «برئت الذّمةُ من رجلٍ أصَبناه من بعث الجَزْل متخلّفًا.»

فمضى الجزل بهم حتّى أتى المدائن، فاقام بها ثلاثًا، ثمّ خرج وبعث إليه ابن أبى عصيفر بفرسٍ وبرذونٍ وألفى درهمٍ، و وُضع للنّاس من الجزر والعلف ماكفاهم ثلاثة أيّام، وأصاب النّاس من ذلك ماشاؤوا.

ثمّ إنّ الجَزْلَ خرج بالنّاس فى أثر شبيبٍ، فطلبه فى أرض جوخىٰ، فجعل شبيبٌ يُريه الهيبة، فيخرج من رستاقٍ إلى رستاقٍ، ومن طسُّوجٍ إلى طسُّوجٍ يُريد بذلك أن يفرّقَ [336] الجزلُ أصحابَه، ويتعجّل إليه فيلقاه فى عددٍ يسيرٍ على غير تعبئةٍ.

فجعل الجَزْلُ إلاّ على تعبئةٍ، ولاينزل إلاّ خَنْدَقَ على أصحابه. فلمّا طال ذلك على شبيبٍ دعا

---

١) سقط من مط، من قوله: «قد فهمتُ» إلى قوله: «لاتبعثنّ».

٢) المفلول: كذا فى الأصل. وفى مط: المفلوك! وهو خطأ.

٣) انمحاءٌ فى الأصل. فأثبتنا مابين [ ] كما فى مط.

يومًا أصحابه، وهم مائةٌ وستّون رجلاً. فجعل على كلّ أربعين منهم رجلاً، فهو في أربعين، و مُصادُ أخوهُ في أربعين، وسويد بن سُليم في أربعين، والمحلّل بن وائل في اربعين، وقد أتَتْهُ عيونُه أنّ الجَزْلَ بن سعيدٍ قد نزل بئر سعيد، فقال لأخيه وللأمراءِ الّذين ذكرناهم:

- «إنّي أريدُ أن أبيّتَ اللّيلة هذا العسكر، فائتِهم أنت يامُصادُ من قبل حلوان، وسآتيهم أنا من أمامهم من قِبل الكوفة، وائتِهم أنت يامحلّل من قِبل المغرب، وَلْيُلِحّ[1] كلُّ امرئٍ منكم على الجانب الّذى يحمل عليه، ولا تُقلعوا عنهم حتّى يأتيكم أمرى.»

قال فروة بن لقيط: وكنت أنا في الأربعين الّذين كانوا معه، فقال لجماعتنا:

- «تيسّرُوا، وليسِرْ كلُّ امرئٍ منكم أميره، ولينظرْ مايأمر به أميرُه فَلْيَتّبِعْهُ.»

فلمّا قَضمتْ دوابُّنا، وذلك أوّل ماهدأت العيونُ، خرجنا حتّى انتهينا إلى دير الخرّارة[2]، فإذا للقوم مَسلحةٌ عليهم عياضُ بن أبى لينة [337] فماهو إلاّ أن رَءَاهم مُصادُ أخو شبيبٍ حتّى حمل عليهم في أربعين رجلاً، وكان أمام شبيب، أراد أن يرتفع عليهم حتّى يأتيهم من ورائهم كما أمره. فلمّا لقى هؤلاءِ قاتلهم، فصبروا ساعةً، وقاتلوهم. ثمّ إنّا دُفعنا إليهم جميعًا فهزمناهم، وأخذوا الطّريق الأعظم، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يَزْدَجِرد إلاّ نحو ميلٍ. فقال لنا شبيبُ:

- «إركبوا معاشر المسلمين أكتافَهم[3] حتّى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم.»

فاتّبعناهم مُلظّين بهم، مُلحّين عليهم، مانُرفّه عنهم وهم منهزمون، مالهم همّةٌ إلاّ عسكرهم. ومنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم ورشقوهم بالنّبل، وكانت لهم عيونٌ قد أتتهم فأخبرتهم بمكاننا. وكان الجَزْلُ قد خَندقَ عليه وتحرّز، و وضع هذه المسلحة الّذين لقيناهم، ووَضع مسلحةً أخرى ممّا يلى حُلوان. فلمّا اجتمعت المسالح، ورشقوهم أصحابهم بالنّبل، ومنعونا من خندقهم، نظر شبيبُ أنّه لايصل إليهم، فقال لأصحابه:

- «سيروا ودعوهم.»

فلمّا سار عنهم أخذ طريق حلوان حتّى كان منهم على سبعة أميال. قال لأصحابه:

---

١) وَلْيُلِحّ: كذا في الأصل. وما في مط والطبرى (٩٠٤:٨): وَلْيَلِجْ.

٢) الخرّارة: كذا في الأصل والطبرى ٩٠٤:٨. وفي مط: الحرارة. وفي حواشى الطبرى: الجرارة. الجرارة.

٣) اكتافهم: نقطة الحرف الثالث زالت في الأصل. فاثبتناها كما في مط. وما في الطبرى (٩٠٥:٨): اكتافهم. ويبدو أنّ الصحيح هو ما في مط. بدليل قوله في الأسطر الآتية: «وأحطنا بعسكرهم».

- «إنزلوا، فأقضموا دوابّكم [338] وقيلوا وتروّحوا، وصلّوا ركعتين، ثمّ اركبوا.»

ففعلوا. ثمّ أقبل بهم راجعًا إلى عسكر أهل الكوفة، وقال:

- «سيروا على تعبئتكم الّتى عبّأتُكم عليها أوّلَ اللّيل، وأطيفوا بعسكرهم كما أمرتكم.»

فأقبلنا معه، وقد أدخل أهل العسكر مسالحهم إليهم، وقد أمنوا، فماشعروا حتّى سمعوا وقعَ حوافر خيولنا، فانتهينا إليهم قبل الصُبح، وأحطنا بعسكرهم، ثمّ صِحْنا بهم من كلّ ناحية، فاذاهم يقاتلوننا ويرموننا بالنّبل من كلّ جانب، فقال شبيب لأخيه مُصادٍ:

- «خلّ لهم سبيل الكوفة.»

وكان يقاتلهم من ذلك الوجه. فلمّا راسله أخوه شبيبُ بهذا، أقبل إليه، وجعلنا نقاتلهم من الوجوه الثّلاثة، فلم نقدر أن نستفلّ منهم أحدًا. فسِرْنا، فتركناهم، وخرج الجَزْلُ مع الصبح يتبعهم ويطلبهم، وجعل لايسير إلاّ على تعبئة، ولاينزل إلاّ على خندق، وكان شبيبُ يدَعه ويضرب فى أرض جوخىٰ وغيرها يكسر الحجّاج، فطال ذلك على الحجّاج.

ذكر عجلة للحجّاج و سوء راى له حتّى أهلك ذلك العسكر [339]

فكتب الحجّاج إلى الجَزْل كتابًا قُرِئ على النّاس، نسخته:

- «أمّا بعدُ، فإنّى قد بعثتك فى فرسان أهل المصر و وجوه النّاس، وأمرتُك باتّباع هذه المارقة وأن لا تُقلع عنها حتّى تقتلها أو تفنيها. فوجدتَ التّعريس[1] فى القُرىٰ والتّخييم فى الخنادق أهون عليك من المُضىّ لمناهضتهم ومناجزتهم.»

فشقّ ذلك على الجَزْل.

قال: فأرجفنا بأميرنا وقلنا: يُعزل. فمالبثنا أن بعث الحجّاج على ذلك الجيش سعيد بن المجالد وعهد إليه أنّه، إذا لقى المارقة، أن يزحف إليهم ولايناظرهم ولايطاولهم ولايصنع صنيع الجزل. وكان الجزل يومئذٍ قد انتهى فى طلب شبيبٍ إلى النّهروان وقد لزم عسكرَه وخندق عليه.

وجاء سعيد حتّى دخل عسكر أهل الكوفه أميرًا. فقام فيهم خطيبًا. فحمدالله وأثنى عليه، ثمّ قال:

- «يا أهل الكوفة، إنّكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتم عليكم أميرَكم. أنتم فى طلب هذه

١) التعريس: كذا فى مط والطبرى ٨:٩٠٧. وما فى الأصل قريب إلى كونه التعريش (بالشين المعجمة). عرّس المسافرون: نزلوا آخر الليل للرّاحة. عرّش فلانٌ: بنى عريشًا. والعريش: السقف. أو مايُستظلّ به.

الأعاريب العُقف[1] منذ شهرين، قد أخربوا بلادكم وكسروا خراجكم وأنتم حذرون فى جوف هذه الخنادق ولاتزايلونها إلاّ أن يبلغكم أنّهم قد ارتحلوا عنكم [340] ونزلوا بلدًا سوىٰ بلدكم. أخرجوا على اسم الله إليهم.»

فخرج وأخرج النّاس معه، وجمع إليه خيولَ أهل العسكر، فقال له الجَزْل:

- «ماتُريد أن تصنع؟» قال:

- «أريد أن أقدم على شبيبٍ فى هذه الخيل.» فقال له الجزل:

- «أقم أنتَ فى جماعة النّاس فارسهم وراجِلهم ودعنى أصحر له، ولاتفرّق أصحابك، فإنّ ذلك شرٌ لهم وخيرٌ لك.» فقال له:

- «قِفْ أنتَ فى الصّفّ.» فقال:

- «يا سعيد بن مجالدٍ، ليس فى ما صنعتَ رأىٌ، أنّا برىءٌ من رأيك هذا. سمع الله ومن حضر من المسلمين.» فقال:

- «هو رأىٌ إن أصبتُ فالله وفّقنى، وإن يكن غير صواب فأنتم منه بُرَءاءُ.»

قال: فوقف الجزلُ فى صفّ أهل الكوفة، وقد أخرجهم من الخندق. وجعل على ميمنتهم عياض بن أبى لينة الكندى، وعلى ميسرتهم عبدالرّحمان بن عوف أبا حميد الرّاسبى[2]. ووقف الجزل فى جماعتهم واستقدم سعيد بن مجالدٍ، فخرج وأخرج النّاسَ معه وقد أخذ شبيب إلى براز الرُّوز، فنزل **قطيطا**[3]، وأمر دهقانها أن يشترى لهم مايصلحهم ويتخذ لهم غداءً.

ففعل. فدخل مدينة قطيطا، وأمر بالباب فأُغلق، فلم يفرغ [341] [من الغداء][4] حتّى أتاه سعيد بن مجالدٍ فى أهل العسكر. فصعد الدّهقان ثمّ نزل قد تغيّر لونه، فقال:

- «مالك؟» قال:

- «قد والله جاءك جمعٌ عظيم.» فقال:

- «بلغ شواؤك؟» قال:

- «لا.» قال:

---

١) العُقف: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى: العُجف. وفى حواشيه: العقف.
٢) الراسبى: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨:٩٠٨): الروانى.
٣) قطيطا: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨:٩٠٩): قطيطيا.
٤) مابين [ ] تكملةٌ من الطّبرى ٨:٩٠٩.

- «دَعْهُ.»

قال: ثمّ أشر ف إشرافةً أخرىٰ، فقال:

- «قد أحاطوا بالجوسق.» قال:

- «هاتِ شواءَك.»

فجعل يأكل غير مكترثٍ لهم. فقال لمّا فرغ:

- «قوموا إلى الصّلاة.»

وقام وتوضّأ وصلّى بأصحابه الأُولى، ولبس درعه وتقلّد سيفَه وأخذ عمودَ حديدٍ، ثمّ قال:

- «أسرجوا لى البغلة.» فقال أخوه مصادُ:

- «أخى هذا اليوم تُسرج بغلةً؟» قال:

- «نعم، أسرجوها.»

فركبها، ثمّ قال:

- «يافلان أنت على الميمنة، وأنت يافلان على الميسرة.» وقال لمصادٍ:

- «أنت على القلب.»

وأمر الدّهقان، ففتح الباب فى وجوههم، فخرج إليهم وهو يحكّم. فجعل سعيدُ وأصحابه يرجعون القهقرىٰ حتّى صار بينهم وبين الدّير ميلُ، وجعل سعيد يصيح:

- «يا معشر هَمْدان، أنا ابن ذى مُرّان، إلىّ إلىّ.»

ونزع سرابانةً[1] كانت عليه. فنظر شبيبُ إلى مُصادٍ فقال له:

- «استعرضهم استعراضًا، فإنّهم قد تقطّعوا. فإنّى حاملُ على أميرهم، وأثكلنيك الله إن لم أثكلْ ولدَه.»

ففعل مُصادُ ماأمره به [342] وحمل هو على سعيد بن مجالدٍ، فعلاهُ بالعمود، فسقط ميّتًا وانهزم أصحابه، وماقُتل منهم يومئذٍ إلاّ قتيلُ واحدٍ. وانكشف أصحاب سعيد بن مجالد حتّى انتهوا إلى الجَزْل، فناداهم الجَزْل:

- «أيّها النّاس، إلىّ إلىّ.»

وناداهم عياض بن أبى لينة:

- «أيّها النّاس، إن تكن أميركم هذا القادم هلك، فهذا أميركم الميمون النّقيبة[2]. أقبِلوا إليه.»

---

١) سرابانة: كذا فى الأصل. وما فى مط: سربانة. وفى الطبرى (٨: ٩١٠): وأخذ قلنسوته ووضعها على قربوس سرجه.

٢) الميمون النّقيبة: كذا فى الأصل والطبرى ٨: ٩١٠. وما فى مط: الميمون التعبئة!

فأقبلوا إليه. فمنهم مَن أقبلَ إليه، ومنهم مَن ركب رأسَه منهزمًا. وقاتل الجَـزْلُ قتالاً شـديدًا حتّى صُـرع، وقـاتل عنه خـالد بن نهيك وعياض بن أبى لينة حتّى اسـتنقذاهُ وهو مرتثٌ. وأقبل النّاس منهزمين حتّى دخلوا الكوفة، وأتى بالجـزل حتّى دخـل المدائـن، وكتب إلى الحجّـاج بن يوسف:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّى أخبر الأمير، أصلحه الله، أنّى خـرجت من الجُند الّذى وجّهنى فيه إلى عدوِّه، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إلىّ فيهـم ورأيَهُ. فكنتُ أخـرج إليهـم إذا رأيتُ الفـرصةَ، وأحبس النّاس عنهم إذا خشيتُ الورطة، فلم أزَلْ كذلك وقد أرادنى العدوُّ بكـلّ ريدةٍ، فلم يُصِـبْ منّى غِرّةً حتّى قدم علىَّ سعيد بن مجالدٍ رحمه الله، فأمرتُه بالتُّؤدة، ونهيتُه عن العجلة، وأمرتُه ألاَّ يقـاتلهم إلاَّ فى جماعة النّاس عامّةً [343] فعصانى وتعجّل إليهـم فـى الخيل، وكنتُ أشـهدتُ اللهَ عليه وأهلَ المصرين، وإنّى برىءٌ من رأيه الّذى رأى، وإنّى لاأهوىٰ ماصنع. فمضى، تجاوز الله عنه، ودُفع النّاسُ إلىّ، فنزلتُ ودعَوتهم إلىّ، ورفعـتُ لهـم رايتى، وقـاتلتُ حتّى صُـرعتُ فحملنى أصحابى من بين القتلىٰ، فما أفقتُ إلاَّ وأنا فى أيديهـم على رأس ميلٍ من المعـركة، فـأنا اليوم بالمدائن فى جراحاتٍ قد يموت الإنسان من دونها، ويعانى من مثلهـا. فليسـأل الأمير، أصـلحه الله، عن نصيحتى له ولجندِه، وعن مكايدتى عدوَّهُ، وعن موقفى يوم البأس. فإنّه يستبين له عند ذلك أنّى قد صدقتُه ونصحتُ له. والسّلام.»

فكتب إليه الحجّاج:

ـ «أمّا بعدُ، فقد أتانىٰ كتابك وقرأته وفهمت كلَّ ماذكرته فيه من أمر سـعيدٍ وأمر نفسـك وقـد صدّقتك فى نصيحتك لأميرك، وحيطتك على أهل مصـرك، وشـدّتك على عدوّك وقـد رضـيتُ عجلةَ سعيد وتؤدتَك. فأمّا عجلته فانّها أفضت به إلى الجنّة وأمّاتؤدتك فإنّهامالم تَدَعِ الفرصةَإذا أمكنتْك، [وتركُ الفرصة إذا لم تكن][1] حزمٌ، وقد أحسنتَ وأصبتَ وأجـرت، وأنت عندى من أهل السّمع، والطاعة والنّصيحة، وقـد أشـخصتُ إليك حيّان[2] بن أعسـر [344] ليداويك ويعـالجَ جراحتك، وبعثتُ إليك بألفى درهمٍ، فأنفقْها فى حاجتك ومماينوبك. والسّلام.»

وبعث عبدالله بن أبى عصيفر إلى الجَزل بألف درهمٍ، وكان يعوده ويتعاهده باللُّطفِ والهديّة.

وأقبل شبيب حتّى قطع دجلة عند الكرخ، وبعث إلى سوق بغداد، وكان ذلك اليومُ يومَ سوقهم،

١) [وترك الفرصة..] سقطت من الأصل ومط. فأثبتناها نقلاً عن الطبرى ٨:٩١٤.

٢) حيّان بن أعسر: كذا فى الأصل. وفى مط: حبان اعرا! وما فى الطبرى: حيّان بن ابجر.

فآمنهم، وكان بلغه أنّهم يخافونه، وهو وأصحابه يريدون أن يشتروا من السوق دوابَّ وثيابًا وأشياءَ ليس لهم منها بدٌّ، ثمّ أخذ بهم نحو الكوفة، فساروا، وبلغ الحجّاجَ مكانُه بحمّام [أعين][١] فبعث إلى سُوَيد بن عبدالرّحمان السّعدى، فجهّزه فى ألفى فارس نقاوة وقال له:

ـ «أخرج إلى شبيب، فالقَهُ واجعل ميمنةً وميسرةً، ثمّ انزل إليهم فى الرّجال، فإن استطرد لك فدعْهُ ولاتتّبعْهُ.»

فخرج، فعسكرَ بالنّاس بالسَّبخة، وبلغه أنّ شبيبًا قد أقبل. فسار نحوَه وكأنّما يُساقون إلى الموت. وأمر الحجّاج عثمانَ بن قَطَن فعَسكرَ بالنّاس فى السَّبخة، ونادى:

ـ «ألا، بَرِئت الذّمّة من رجلٍ من هذا الجند بات اللّيلةَ بالكوفة ولم يخرج إلى عثمان بن قَطَنٍ بالسَّبخة.»

فبينا سويد بن عبدالرّحمان يسير فى الألفين الّذين معه وهو يعبّئهم [345] ويحرّضهم، إذْ قيل له:

ـ «قد غشيك شبيبُ.»

فنزل، ونزل معه جُلُّ أصحابه، وقدّم رايتَه، فأخبر أنّ شبيبًا لمّا أخبر بمكانك، تركَكَ، ووجد مخاضةً فعبر الفراتَ يُريد الكوفة من غير الوجه الّذى أنتَ به. ثمّ قيل لهم:

ـ «أما تراهم؟»

فنادى فى أصحابه، فركبوا فى آثارهم وإنّ شبيبًا أتىٰ دار الرّزق، فنزلها، فقيل له:

ـ «إنّ أهلَ الكوفة بأجمعهم مُعسكرون.»

فلمّا بلغ مكانُ شبيب، ماجَ بعضهم فى بعضٍ، وجالوا وهمّوا بدخول الكوفة حتّى قيل لهم:

ـ «هذا سويدُ بن عبدالرّحمان فى آثارهم قد لحقهم وهو يقاتلهم فى الخيل.»

ومضى شبيبُ حتّى أخذ على شاطئ الفرات، ثمّ أخذ على الأنبار، ثمّ دخل وقُوقا، ثمّ ارتفع إلى أدانى آذربيجان. فتركه الحجّاج، وخرج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة عروة بن شعبه. فما شعر النّاس بشىءٍ حتّى جاءَ كتاب مادرواسب دهقان بابل مهروذ إلى عروة بن المغيرة بن شعبة أنّ تاجرًا من تُجّار أهل بلادى أتانى يذكر أنّ شبيبًا يُريد أن يدخل الكوفة فى أوّل هذا الشّهر المستقبل، وأحببتُ إعلامَك لترىٰ رأيَك ثمّ لم ألبثْ أن جاءَنى جائيانِ [346] من جيرانى، فحدّثانى أنّه قد نزل خانيار[٢].

---

١) بحمّام [أعين]: الأصل غير واضح. وما أثبتناه بين [ ] من مط.

٢) وفى الطبرى خانيجار، بدل: خانيار.

فأخذ عُروة كتابه، فأدرجه وسرّح به إلى الحجّاج بالبصرة. فلمّا قرأه الحجّاج أقبل جادًا إلى الكوفة، وأقبل شبيبٌ حتّى انتهى إلى قريةٍ يُقال لها: حزى، على شاطئ دجلة، فعبرمنها، وقال لأصحابه:

- «يا هؤلاء، إنّ الحجّاج ليس بالكوفة وليس دون الكوفة شيءٌ إن شاءالله، فسيروا بنا.»

فخرج يبادر الحجّاج إلى الكوفة.

وكتب عُروة إلى الحجّاج:

- «إنّ شبيبًا أقبل مُسرعًا يُريد الكوفة، فالعجلَ العجل.»

فطوى الحجّاج المنازل، واستبَقا إلى الكوفة: فنزلها الحجّاج صلاةَ العصر، ونزل شبيبٌ السَّبخة صلاةَ المغرب والعشاءِ الآخرة، ثمّ أصاب هو وأصحابه من الطّعام شيئًا يسيرًا، ثمّ ركبوا خيولهم. فدخل الكوفة، وجاء شبيبٌ حتّى انتهى إلى السُّوق. ثمّ شدّ حتّى ضربَ باب القصر بعموده.

قال: فحدّثنى جماعةٌ أنّهم رأوا ضربة شبيب بابَ القصر، ثم أقبل حتى وقف عند المصطبّة[1] وقال:

وكأنّ حافرَها بكلّ خميلةٍ فرقٌ[2] يكيلُ به شحيحٌ مُعدِمُ

ثمّ اقتحم أصحابُه المسجد، وكان لايفارقه قوم يصلّون فيه، فقتل جماعةً. ومرّ بدار [347] حوشَب وهو على الشُّرط، فوقفوا على بابه وقالوا:

- «إنّ الأمير يدعو حوشبًا.»

فأخرج ميمون غلامه برذون حَوشَبٍ فكأنّه أنكرهم وأراد أن يدخل إلى صاحبه، فقالوا له:

- «كما أنتَ حتّى يخرجَ صاحبك.»

فسمع حوشبٌ الكلام، فأنكر القوم، فلمّا رأى جماعتَهم أنكرهم وذهب ليصرف فعجّلوا نحوه، ودخل وأغلق البابَ وقتلوا غلامه ميمونًا وأخذوا برذونَه ومضَوا. حتّى مرّوا بالجحّاف بن بسيط الشّيبانى من رهط حَوشَب. فقال له سُويدٌ:

- «إنزل إلينا.» فقال:

- «ما تصنع بنزولى؟» قال سويدٌ:

---

١) المصطبُ: سندان الحدّاد. المصطبّة والمصطَبة: مكان ممهّدٌ قليل الإرتفاع عن الأرض يُجلس عليه.

٢) فرق: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٩١٧:٨): كيلٌ. وفى بعض الأصول: قرو.

- «إنزل أقضِكَ ثمن البكرة التى كنتُ ابتعتُها منك بالبادية.»

فقال له الجحّاف:

- «بئس ساعة القضاء هذه السّاعة، وبئس المكان لقضاءِ الدّين، أما ذكرت أداءَ أمانتك إلاّ واللّيل مُظلمٌ وأنتَ على متن فرسك! قبّح الله دِينًا لايصلح ولا يتمّ إلاّ بقتلِ وسفكِ لدماءِ أهل القبلة.»

ثمّ مرّوا بمسجد بنى ذُهل، فلقوا ذُهل بن الحارث، وكان يُصلّى فى مسجد قومه فيُطيل الصّلاة، فصادفوه منصرفًا إلى منزله، فقتلوهُ. ثمّ خرجوا متوجّهين نحو الرّدمة، وأمر الحجّاج فنُودىَ:

- «يا خيل الله اركبى وأبشرى.»

وهو فوق القصر [348] وهناك مصباحٌ مع غلامٍ له قائمٍ. فكان أوّل من جاءَ من النّاس عثمان بن قَطَنٍ ومعه مواليه وناسٌ من أهله، فقال:

- «أعلموا الأمير مكانى، أنا عثمان بن قطن، ليأمرنى بأمره.»

فناداه ذلك الغلام:

- «قِفْ مكانَك حتّى يأتيك أمر الأمير.»

وجاءَ النّاس من كلّ جانبٍ، وبات عثمان فى مَن اجتمع إليه من النّاس حتّى أصبح.

وكان عبدالملك بن مروان قد بعث محمّد بن موسى بن طلحة على سجستان، وكتب له عليها عهدَهُ، وكتب إلى الحجّاج:

- «إذا قدِم عليك محمّد بن موسى بن طلحة فجهّزْ معه ألفَى رجل، وعجّل سراحه إلى سجستان.»

فلمّا قدم محمّد بن موسى الكوفة جعل يتحبّس ويتجهّز. فقال له نُصحاؤه:

- «تعجّلْ أيُّها الرّجل إلى عملك، فإنّك لاتدرى مايحدث.»

فأقام على حاله وحدثَ من أمر شبيب ماحدثَ.

حيلة الحجّاج على محمّد بن موسى حتّى حارب الخوارجَ وقُتل

فقيل للحجّاج:

- «إن سار هذا إلى سجستان مع نجدته وصهره لعبدالملك فلجأ إليه ممّن تطلب أحدٌ منعك

منه؟» قال:

- «فما الحيلة؟» قالوا:

تأتيه فتسلّم عليه وتذكر نجدتَه وباسَه وأنّ شبيبًا فى طريقه وقد أعياك، وأنك ترجو أن يُريح الله منه على [349] يديه، فيكون له ذكر ذلك[1] وشهرتُه.»

فكتب إليه الحجّاج:

- «إنّك عاملٌ على كلّ بلدٍ مررتَ به، وهذا شبيبٌ فى طريقك تجاهدُ ومَن معه ولك ذِكره وصيتُهُ، ثمّ تمضى إلى عملك.» فاستجاب له.

ثمّ إنّ الحجّاج بعث بشر[2] بن غالبٍ الأسدىّ فى ألفى رجلٍ، وزيادةَ بن قدامة فى ألفين، وأبا الضُّريس مولى تميمٍ فى ألفٍ من الموالى، وأعينَ صاحب حمّام أعين مولى بشر بن مروان فى ألفٍ، وجماعةً غيرهم. واجتمع تلك الأمراءُ فى أسفل الفرات، فترك شبيبُ الوجهَ الّذى فيه جماعة أولئك القُوّاد، وأخذ نحو القادسيّة. فوجّه الحجّاج زحر بن قيس فى جريدة خيلٍ نُقاوة ألفٍ وثمانمائة فارس، وقال له:

- «اتبعْ شبيبًا حتّى تواقعه حيث ما أدركتَه مالم يعطف عليك وينزل فيقيم لك فلاتبرح حتّى تواقعه.»

فخرج زحرُ حتّى انتهى إلى السيلحين، وبلغ شبيبًا مسيره إليه، فأقبل نحوه فالتقيا، فجعل زحرُ على ميمنته عبدالله بن كناز[3] اليهودىّ، وكان شجاعًا وعلى ميسرته عدىّ بن عميرة الكندىّ، وجمع شبيب خيلَه كلّها كبكبةً واحدة، ثمّ اعترض بها الصّفّ يُوجف وجيفًا حتّى انتهى إلى زحر بن قيس. فنزل زحرُ فقاتل [350] حتى صُرع وانهزم أصحابه. فظنّ القوم أنّهم قتلوهُ. فلمّا كان فى السَّحر وأصابه البرد قام يمشى حتّى دخل قريةً فبات فيها وحُمل منها إلى الكوفة وبوجهه أربع[4] عشرة ضربةً، فمكث أيّامًا ثمّ أتى الحجّاج وعلى وجهه القُطنُ، فأجلسه معه على السّرير.

وقال أصحاب شبيبٍ لشبيبٍ، وهم يظنّون أنّهم قتلوا زَحْرًا:

- «قد هزمنا لهم جُندًا، وقتلنا أميرًا من أمرائهم عظيمًا. إنصرفْ بنا الآن وافرين[5].» فقال

---

١) ذلك: كذا فى الأصل. وفى مط: لك. وهو خطأ.

٢) بشر بن غالب: كذا فى الأصل والطبرى ٩٢٣:٨. وما فى مط: بشير بن غالب.

٣) كذا فى الأصل: كناز. وما فى مط: كنان.

٤) فى الأصل: أربعة (بالتأنيث) فصحّحنا العدد كما فى مط.

٥) وافرين: فى الأصل غموض. وما أثبتناه يؤيّده الطّبرى (٩٢٢:٨) ومط. وفى بعض الأصول: واقرين.

لهم:

ـ «إنَّ قتلَنا هذا الرَّجلَ وهزيمتنا هذا الجند قد أرعبت هذه الأُمراءَ، فاقصدوا بنا قصدَهم، فوالله لئن نحن قتلناهم، مادونَ قتلِ الحجّاج وأخذِ الكوفة شىءٌ.» فقالوا:

ـ «نحن طوع أمرك، فرأيك.»

قال: فانقضَّ[١] بهم جوادًا حتّى أتى نجران الكوفة بناحية عين التّمر، ثمّ استخبر عن القوم فعُرِّف اجتماعَهم بِرُوذآباد فى أسفل الفرات على رأس أربعةٍ وعشرين فرسخًا من الكوفة، وبلغ الحجّاجَ مسيرُ شبيب إليهم، فبعث إليهم يقول لهم:

ـ «إن جمعكم قِتالٌ، فأميرُكم زايدة بن قدامة.»

قال عبدالرحمن: فانتهى إلينا شبيب وفينا سبعة أمراء، على جماعتهم زايدة بن قدامة، وقد عبّى [351] كلُّ أمير أصحابَه على حِدَةٍ وهو واقفٌ فى أصحابه. فأشرف على النّاس شبيب وهو على فرسٍ له كُميتٍ أغرّ، فنظر إلى تعبئتهم، ثمّ رجع إلى أصحابه، فأقبل فى ثلاث كتائب يوجفون، حتّى إذا دنا من النّاس مَضتْ كتيبةٌ فيها سُوَيد بن سليم، فيقف فى ميمنتنا، وفيها زياد بن عَمرو العَتَكىّ، ومضتْ كتيبةٌ فيها مُصادٌ أخو شبيب، فوقفت بإزاءِ ميسرتنا، وفيها بشر بن غالبٍ الأسدى، وجاءَ شبيبٌ فى كتيبة حتّى وقف مقابل القلب.

قال: فخرج زايدة بن قدامة يسير فى النّاس بين الميمنة والميسرة يُحرِّض النّاسَ ويقول:

ـ «عبادَالله، إنكم الطيّبون الكثيرون، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون. إصبروا، جُعلتُ لكم الفداء لِكرَّتين أو ثلاثٍ، ثمّ هو النّصر، ليس دونه شىءٌ إلاّ ترونَهم. والله مايكونون مائتى رجلٍ، إنّما هم أكلةُ رأسٍ، وهم السُّرّاق المُرّاق، إنّما جاؤوكم ليُهريقوا دماءَكم ويأخذوا فَيئَكم[٢]، فلايكونوا على أخذه أقوىٰ منكم على منعه، وهم قليلٌ وأنتم كثيرٌ، وهم أهل فُرقةٍ وأنتم أهل جماعةٍ، وغُضُّوا الأبصارَ واستقبلوهم بالأسنّة، ولاتحملوا عليهم حتّى آمُرَكم.»

ثمّ انصرف إلى موقفه. [352]

وحمل سُويد بن سُليم على زياد بن عَمرو، فانكشف صفُّهم، وثبتَ زيادٌ فى جماعة، ثمّ ارتفع عنهم سُويدٌ قليلاً، ثمّ كرّ عليهم ثانيةً.

قال فروة بن لقيط: إطَّعنّا ساعةً وصبروا لنا حتّى ظننتُ أنّهم لن يزولوا. وقاتل زياد بن عَمرو

---

١) فانقضّ بهم جوادًا: كذا فى الأصل والطبرى، وما فى مط: فانقض بهم جاذًا! وفى بعض الأصول: فمانقضوا لهم.

٢) فيئكم: كذا فى الأصل والطبرى ٨:٩٢٣. وما فى مط: فيكم.

قتالاً شديدًا. فلقد رأيتُ سويدَ بن سليم يومئذٍ وإنَّه لأشدُّ العرب قتالاً وأشجعهم ومايَعرض[١] لهم.

قال: ثم ارتفعنا عنهم، فاذاهم يتقوّضون، فقال لنا أصحابُنا:

- «ألا تراهم يتقوّضون؟ إحملوا عليهم.»

فراسلَنا شبيبٌ:

- «خلّوهم حتّى يخفّوا.»

فتركوهم قليلاً، ثمّ حمل عليهم الثّالثة، فانهزموا. فنظرتُ إلى زياد بن عَمرو وإنّه لَيُضربُ بالسّيوف، وما من سيفٍ يُضرب به إلاّ نبا عنه، ولقد اعتوره أكثر من عشرين سيفًا وهو مجفّف، فماضرّه شيءٌ منها. ثمّ إنّه والله انهزم. ثمّ انتهينا إلى محمّد بن موسى بن طلحة عند المغرب، فقاتلنا قتالاً شديدًا وصبَرنا. ثمّ إنّ مُصادًا حمل على بشر بن غالبٍ فى الميسرة، فصبرَ وأبلىٰ وكرُمَ، ونزل معه رجالٌ من أهل الصّبر نحو خمسين، فضاربوا بأسيافهم حتّى قُتلوا. فلمّا قُتلوا انهزم أصحابه.

قال: وشددنا على أبى الضُّريس فهزمناهُ حتّى انتهى إلى موقف أعين. [353] ثمّ شددنا عليه وعلى أعين فهزمناهم حتّى انتهوا إلى زايدة بن قُدامة. فلمّا انتهوا إليه، نزل ونادىٰ:

- «يا أهل الإسلام، الأرضَ الأرضَ، إليَّ إليَّ. لايكونوا على كُفرهم أصبرَ منكم على إيمانكم.»

فقاتل عامّة اللّيل إلى السّحر.

ثمّ إنّ شبيبًا شدَّ عليه فى جماعةٍ من أصحابه، فقتلَهُ وربَضةً[٢] حولَه من أهل الحِفاظ.

وقال شبيب لأصحابه:

- «إرفعوا السّيف عن النّاس وادعوهم إلى البيعة.»

فدَعَوهم عند الفجر إلى البيعة. قال عبدالرّحمن بن جُندَب: فكنتُ ممّن قُدّم فبايعتُه وهو واقفٌ على فرسٍ وخيلُه واقفةٌ دُونَه. فكلُّ مَن جاء ليبايعه نُزع سيفُه عن عاتقه وأُخذ سلاحُه، ثمّ يُدنى من شبيبٍ فيسلّم عليه بأميرالمؤمنين، ثمّ يبايع. فإنّا لكذلك، إذْ أضاءَ الفجر، ومحمّد بن موسى

---

١) مايَعرض لهم: كذا فى الأصل. وفى مط: وما تعرض لهم. والعبارة فى الطبرى (٨:٩٣٤): وإنّه لأشجع العرب واشدُّه (كذا) قتالاً ومايعرض له.

٢) والعبارة فى الطّبرى (٨:٩٢٥): فقتله وأصحابَه وتركهم ربضة [وربضة ـ الهامش] حوله من أهل الحفاظ. وفى مط: وقتلوه وربضة حوله من أهل الحفاظ. والضبط فى الأصل: «ورَبَضَةً» فضبطنا حسب الطبرى: «ربْضة». الرَّبَضَة: مقتل كلّ قوم قُتلوا فى موقعة واحدة. والرُّبضة: الجُثّة. الجماعة من الغنم والنّاس.

بن طلحة فى أقصى العسكر مع أصحابه قد صبروا. وأمر مؤذّنه فأذّن، فلمّا سمع الأذان قال:

- «ماهذا؟» قالوا:

- «هذا محمّد بن موسى بن طلحة، لم يبرح.» قال:

- «ظننتُ أنّ حُمقه وخُيلاءَهُ سيحمله على هذا. نَحُّوا هؤلاءِ عنّا، وانزلوا بنا فلْنُصلّ.»

فنزل، وأذّن هو، ثمّ استقدم، فصلّى بأصحابه، فقرأ: وَيلٌ لِكُلِّ [354] هُمَزَةٍ[١]، و: أرأيتَ الّذى يُكذّبُ بالدّين[٢]. ثمّ سلّم وركبوا.

فأرسل شبيبٌ إلى محمّدٍ:

- «إنّك امرؤٌ مخدوعٌ، قد اتّقى بك الحجّاج وأنتَ جارٌ لى، ولك حقٌّ. فانطلق لِما أُمرتَ به ولك اللهُ ألاّ أرِيَك.»

فأبى إلاّ محاربته. فأعاد إليه الرّسولَ، فأبىٰ إلاّ قتاله. فقال له شبيبٌ:

- «كأنّى بأصحابك لو التقتْ حلَقتا البِطانِ، لأسلموك، فصُرعتَ مَصرَعَ أصحابك فأطعنى وانطلقْ لشانك، فإنّى أنفسُ بك عن القتل.»

فأبى ودعا إلى البراز، فبرز له البُطين، ثمّ قَعنبٌ، ثمّ سُويدٌ، فأبىٰ إلاّ شبيبًا. فقالوا لشبيبٍ:

- «قد رغب عنّا إليك.» قال:

- «فماظنُّكم؟ هم الأشراف.»

فبرز له شبيبٌ، وقال:

- «أنشدُك الله فى دمك، فإنّ لك جوارًا.»

فأبىٰ. فحمل عليه بعموده الحديد، وكان فيه اثنى عشر رطلاً. فهشَمَ بيضةً عليه ورأسَه، ثمّ نزل إليه فكفنه ودفنه. وابتاع ماغنموا له من عسكره، فبعث به إلى أهله واعتذر إلى أصحابه. قال:

- «هو جارى بالكوفة، ولى أن أهبَ ماغنمتُ لأهل الرِّدّة.» فقال له أصحابه:

- «مادون الكوفة أحدٌ يمنعها.»

فنظر، فإذا أصحابه قد جُرحوا. فقال لهم:

- «ماعليكم أكثر ممّا فعلتم.» [355]

وخرج بهم إلى نِفَّر، ثمّ خرج بهم إلى بغداد نحو خانيجار، فأقام بها. ولمّا بلغ الحجّاج أنّ شبيبًا

---

١) س ١٠٤ الهُمزة: ١. ٢) س ١٠٧ الماعون: ١.

قد أخذ نحو نِفَّر، ظنّ أنّه يريد المدائن وهى باب الكوفة، ومَن أخذ المدائنَ كان مافى يديه من أرض الكوفة أكثر. فهال ذلك الحجّاجَ، وبعث إلى عثمان بن قطن، وسرّحه إلى المدائن و ولّاهُ منبرها والصّلاةَ ومعونةَ جُوخيْ كلّها وخراجَ الإستان. فخرج مسرعًا حتّى نزل المدائن، وعزل الحجّاجُ ابنَ أبى عُصيفر، وكان بها الجزْلُ مُقيمًا يداوى جراحاته، وكان ابن أبى عُصيفر يعوده ويُكرمه ويُلطِفُه. فلمّا قدم عثمان بن قَطَن لم يكن يتعاهدهُ ولايُلطِفُه بشىء. فكان الجزل يقول:

- «أللّهم زدْ ابنَ أبى عُصيفر جودًا، وزِدْ عثمان بن قَطَن ضيقًا وبُخلاً.»

ثمّ إنّ الحجّاج دعا عبدالرّحمان بن محمّد بن الأشعث، فقال له:

- «انتخب النّاس.»

وأخرج من قومه ستّمائة من كِندة، ومن سائر النّاس ستّةَ آلاف، واستحثّه الحجّاج، فعسكر بدير عبدالرّحمان. فلمّا أراد الحجّاج إشخاصَهم كتب إليهم كتابًا قُرِئَ عليهم: [356]

- «أمّا بعدُ، فقد اعتدتُم[1] عادةَ الأذِلّاءِ و ولّيتم الدُّبُرَ[2] يومَ الزّحف دابَ الكافرين. وإنّى قد صفحتُ عنكم مرّةً بعد مرّة، وتارةً بعد أخرىٰ. وإنّى أقسم لكم بالله قسمًا صادقًا، لئن عُدتم لذلك لأوقِعَنّ بكم إيقاعًا أكون به أشدَّ عليكم من هذا العدوّ الّذى تهربون منه فى بطون الأودية والشّعاب، وتستترون منه بأفناءِ الأنهار وألواذ الجبال. فخاف مَن كان له معقولٌ على نفسه، ولم يجعل عليها سبيلاً، وقد أعذر من انذر، والسّلام.»

وارتحل عبدالرّحمان فى النّاس حتّى مرّ بالمدائن، فنزل بها يومًا حتّى تشرّىٰ به أصحابُه حوائجَهم، ثم نادى فى النّاس بالرّحيل، فارتحلوا. ثمّ أقبل حتّى دخل على عثمان بن قَطَن، ثمّ أتى الجزلَ، فسألهُ عن[3] جراحته. وحدّثه ساعةً. فقال له الجزل:

- «يابن عمّ، إنّك تسير إلى فرسان العرب، وأبناءِ الحرب، وأحلاس الخيل[4] والله لكأنّما خُلقوا من ضلوعها، ثمّ بُنوا على ظهورها، ثمّ هم أُسْدُ الأجَم[5] الفارس منهم أشدُّ من مائة، إن لم يُبدأ به بَدَأ، وإن هُجْهِجَ أقدمَ. وإنّى قد قاتلتُهم وبلَوتُهم، [357] فإذا أصحرتُ لهم انتصفوا منّى وكان لهم الفضل علىّ وإذا خندقتُ علىّ أو قاتلتُهم فى مضيق نِلتُ منهم ما أُحبُّ، وكان لى

١) اعتدتم: كذا فى الأصل. وما فى مط: اعدتم.

٢) الدّبُر: كذا فى الأصل. وما فى مط: الدبور.

٣) فى الأصل: فساله به من جراحته: وفى مط والطبرى: فساله عن جراحته. فاثبتنا العبارة كما فى الأخيرين.

٤) احلاس الخيل: كذا فى الأصل والطبرى ٨: ٩٣١. وما فى مط: اجلاس الحبل!

٥) الأجم: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: الآجام.

عليهم، فلاتَلقَهم وأنتَ تستطيع، إلاّ فى تعبئةٍ أو خندقٍ.»

ثمّ ودّعه. وقال له الجزل:

ـ «هذه فرسى الفُسيفِساءُ، خُذها فإنّها لاتُجارىٰ.»

فأخذها. ثمّ خرج بالنّاس نحو شبيب، فلمّا دَنا منه ارتفع عنه شبيبٌ إلى دقوقا وشهرزور. فخرج عبدالرّحمان فى طلبه حتّى إذا كان على التُخوم، أقام، وقال:

ـ «إنّما هو فى أرض الموصل، فليقاتلوا عن بلادهم أو لِيدَعوا.[١]»

فكتب إليه الحجّاج:

ـ «أمّا بعدُ، فاطلبْ شبيبًا و اسلُكْ فى أثره أين سلَكَ، حتّى تُدركه فتقتلَه، أو تنفيَه. فإنّما السُلطان سُلطانُ أميرالمؤمنين، والجُندُ جُندُه. والسّلام.»

فخرج عبدالرّحمان حتّى قرأ الكتاب فى طلب شبيبٍ. فكان شبيبٌ يَدَعُه حتّى إذا دَنا منه يُبيّتُهُ فيجده قد خندق، وحذِر، فيمضى ويَدَعُه، فيتبعُه عبدالرّحمان. فإذا بلغه أنّه قد تحمّل، وأنّه يسير، أقبلَ فى الخيل. فإذا انتهى إليه، وجده قد صفّ الخيلَ والرَّجّالةَ المراميةَ، [358] فلاتُصيب له غِرّةٌ ولاغفلةٌ، فيمضى ويَدَعُه. ولمّا رأى شبيبٌ أنّه لايُصيبُ غِرّتَه، ولايصل إليه، جعل يخرج، كلّما دَنا منه عبدالرّحمان حتّى يَنزل على مسيرة عشرين فرسخاً منه، ثمّ يُقيم فى أرضٍ غليظةٍ خشنةٍ، فيجىءُ عبدالرّحمانِ فى خيله وثَقَله، حتّى إذا دَنا من شبيبٍ ارتحل عنه شبيب، فسار خمسة عشر فرسخًا أو عشرين فرسخًا، فنزل منزلاً غليظًا خشنًا. ثم يقيم حتّى يدنو عبدالرّحمان. فكانِ شبيبٌ قد عذّب ذلك العسكرَ، وشقّ عليهم، وأحفىٰ دوابّهم، ولقُوا منه كلّ بلاءٍ. فلم يزل عبدالرّحمان يتبعه حتّى مرّ به على خانقين، ثمّ جَلُولاء، ثمّ تامرّا[٢]، ثمّ أقبل إلى البَتّ ونزل بها، وعلى تخوم الموصل، ليس بينها وبين سواد الكوفة إلاّ نهر حَوْلايا. وجاء عبدالرّحمان حتّى نزل شرقىّ حَوْلايا وهو فى راذان الأعلى من أرض جُوخىٰ، ونزل فى عواقير[٣] من النّهر، ونزلها عبدالرّحمان حيث نزلها وهى تُعجبه، يرى أنّها مثل الخندق والحصن، وأرسل إلى عبدالرّحمان:

ـ «هذه الأيّامُ أيّامُ عيدٍ لنا ولكم، فإن رأيتم أن توادعونا حتّى تمضى هذه الأيّامُ فعلتم.»

---

١) لِيدَعُوا: كذا فى الأصل ومط: وفى الطبرى (٩٣١:٨): ليدعوه. وفى بعض الأصول: ليدعوا.

٢) تامرّا: كذا فى الأصل ومط والطبرى ٩٣٢:٨. وفى بعض الأصول: سامرّا. تامرّا: نهرٌ كبير تحت بغداد شرقيّها، مخرجه من جبال شهرزور ممّا يجاورها وينسب إليه طسُوجٌ من طساسيج بغداد (مراصد الاطلاع).

٣) عواقير: كذا فى الأصل. وفى مط: عواقير. وما فى الطبرى: عواقيل.

فأجابه عبدالرَّحمان [359] إلى ذلك ولم يكن شيءٌ أحبَّ إلى عبدالرَّحمان من المطاولة والموادعة.

فكتب عثمان بن قَطَن إلى الحجّاج:

- «امّا بعدُ، فإنّى أخبر الأمير، أصلحه الله، أنّ عبدالرّحمان بن محمّد بن الأشعث قد حفر جوخىٰ كلّها خندقًا واحدًا، وخلّى شبيبًا، وكسر خراجَها، فهو يأكُلُ أهلَها. والسّلام.»

وكتب إليه الحجّاج:

- «قد فهمتُ ماذكرتَ، وقد - لَعَمرى - فعل عبدالرّحمان غير مَرضىٍّ، فسِرْ إلى النّاس، فأنت أميرُهم، وعاجلِ المارقة حتّى تلقاهم.»

وبعث الحجّاج إلى المدائن مطرِّف بن المغيرة بن شعبة، وخرج عثمان حتّى قدم على عبدالرّحمان ومَن معه وهم معسكرون على نهر حَوْلايا قريبًا من البَتّ وذلك يوم التّروية عشاءًا. فنادى النّاسَ وهو على بغله:

- «أيّها النّاس، أخرجوا إلى عدوّكم.»

فوثب إليه النّاس فقالوا:

- «أنشدك الله، هذا المساءُ قد غشينا، والنّاس لم يوطّنوا أنفسهم على القتال. فَبِتِ اللّيلةَ، ثمّ اخرج على تعبئة.»

فجعل يقول:

- «لأناجزنّهم، فليكونَنّ الفرصة لى أو لهم.»

فأتاهُ عبدالرّحمان، فأخذ بعنان بغلته وناشده الله لمّا نزل، وقال له عقيل بن شدّاد السّلولى:

- «إنّ الّذى تريد من مناجزتهم السّاعةَ، أنت فاعله غدًا وهو خيرٌ لك وللنّاس. [360] إنّ هذه ساعة ريحٍ وغَبرةٍ وقد أمسيتَ، فانزلْ، ثمّ ابكرْ بنا غدوةً.»

فنزل، فسفت عليه الرّيح، وشقّ عليه الغبار، ودعا صاحب الخراج العُلوجَ، فبنَوا له قُبّةً وبات فيه. ثمّ أصبح وخرج بالنّاس، فاستقبلهم ريحٌ شديدة وغبرة. فصاح النّاس إليهم وقالوا:

- «ننشدك الله أن تخرج بنا فى هذا اليوم، فإنّ الرّيح علينا.»

فأقام ذلك اليوم، وكان شبيب يخرج إليهم. فلمّا رءاهم لم يخرجوا إليه أقام. فلمّا كان من الغد خرج عثمان يعبّئُ النّاس على أرباعهم، وسألهم:

- «مَن كان على ميمنتكم وميسرتكم؟» قالوا:

- «كان خالد بن نَهيك بن قيس الكندى على ميسرتنا، وعقيل بن شدّاد السّلولى كان على

ميمنتنا.» فقال لهما:

ـ «قِفا مواقفكما الّتى كنتما بها، فقد ولّيتُكما المجنّبتين، فاثبتا ولاتفرّا، فوالله لاأزول حتّى تزول نخيلُ راذان عن أصولها.» فقالا:

ـ «فنحن والله الّذى لا إله إلاّ هو، لانفرُّ حتّى نظفرَ أو نُقتلَ.» فقال لهما:

ـ «جزاكما الله خيرًا.»

ثمّ أقام حتّى صلّى بالنّاس الغداة، ثمّ خرج بالخيل، ونزل يمشى فى الرّجال.

وخرج شبيبٌ وهو يومئذٍ فى مائةٍ [361] وأحدٍ و ثمانين رجلاً. فقطع إليهم النّهر، وكان هو فى ميمنة أصحابه، وجعل على ميسرته سُويد بن سُليم، وجعل فى القلب مُصادًا أخاه، وزحفوا. وكان عثمان بن قَطَنٍ يقول فيُكثر:

ـ «لَنْ يَنفعَكم الفِرارُ إن فَرَرْتُم من الموتِ أو القتلِ، وإذًا لاتُمتَّعون إلاّ قليلاً[1].»

ثمّ قال شبيبٌ لأصحابه:

ـ «إنّى حاملٌ على ميسرتهم ممّا يلى النّهر، فإذا هزمتُها فليحمل صاحب ميسرتى على ميمنتهم، ولايبرح صاحب القلب حتّى يأتيه أمرى.»

وحمل[2] فى ميمنة أصحابه ممّا يلى النّهر على ميسرة عثمان بن قَطَن، فانهزموا، ونزل عقيل بن شدّاد مع طائفةٍ من أهل الحفاظ، فقاتل حتّى قُتل، وقُتلوا معه. ودخل شبيبٌ عسكرهم، وحمل سُويد بن سُليم فى ميسرة شبيب على ميمنة عثمان بن قطن، فهزمها وعليها خالد بن نهيك الكندى. فنزل خالدٌ فقاتل قتالاً شديدًا، وحمل عليه شبيب من ورائه، فلم يَنْثَنِ حتّى علاه بالسّيف فقتله. ومشى عثمان بن قَطَنٍ، وقد نزلت معه العرفاء وأشراف النّاس والفرسان نحو القلب، وفيه أخو شبيبٍ فى نحوٍ من ستّين رجلاً. فلمّا دنا منهم عثمان بن قَطَنٍ شدّ عليهم فى الأشراف وأهل الصّبر، فضربوهم حتّى فرّقوا بينهم. [362] وحمل شبيبٌ من ورائهم بالخيل، فماشعروا إلاّ والرّماح فى أكتافهم يُكبُّهم لوجوههم. وعطف عليهم سويد بن سليم أيضًا فى خيله، ورجع مُصادٌ وأصحابه، وقاتل عثمان بن قطن، فأحسن القتال. ثمّ إنّهم شدّوا عليه، فأحاطوا به، وحمل عليه مُصادٌ أخو شبيب، فضربه ضربةً بالسّيف استدار لها، وقال:

ـ «وكان أمر الله قدرًا مقدورًا[3].»

---

١) س ٣٣ الأحزاب: ١٦.

٢) وحمل: كذا فى الأصل. والكلمة سقطت من مط.

٣) س ٣٣ الأحزاب: ٣٨

ثمّ إنّهم قتلوهُ، وقُتل معه العُرفاءُ و وجوه النّاس، فقُتل من كندة يومئذٍ مائةٌ وعشرون رجلاً، وقُتل من سائر النّاس نحوٌ من ألف، ووقع عبدالرّحمان بن محمّد بن الأشعث، فعرفه ابن أبى سبرة، فنزل وناوله الرُّمح وقال له: إركبْ، فركب وارتدف ابن أبى سبرة وقال له عبدالرّحمان:

- «نادِ فى النّاس: الحقوا بدير ابن أبى مريم.»

فنادى. ثمّ انطلقا ذاهبين، وأمر شبيبٌ أصحابه، فرفعوا عن النّاس السّيف ودعاهم إلى البيعة، فأتاهُ من بقى من الرّجال، فبايعوه. وبات عبدالرّحمان بدير النّعار[١]، فأتاهُ فارسان. فخلا أحدهما بعبد الرّحمان طويلاً يناجيه، وقام الآخر قريبًا منهما، ثم مضى مع ـ حبه، فكان النّاس يتحدّثون أنّ ذاك كان شبيبًا وأنّه كان كاتبه. [363] ثمّ خرج عبدالرّحمان آخر اللّيل، فسار حتّى أتى دير ابن أبى مريم، فإذا هو بأصحاب الخيل قد وضع لهم ابن أبى سَبْرةَ صُبَرَ[٢] الشّعير والقَتَّ كأنّها القُصُور ونَحَرَ لهم من الجزر ماشاؤوا، واجتمع النّاس إلى عبدالرّحمان فقالوا له:

- «إن علم شبيبٌ بمكانك أتاك وكنتَ له غنيمةً، قد تَفرّق عنك النّاسُ وقُتل خيارهم، فالحقْ أيّها الرّجل بالكوفة.»

فخرج، وخرج معه النّاس، وجاءَ حتّى اختبأ[٣] من الحجّاج، إلى أن أخذ له الأمان بعد ذلك.

ثمّ إنّ شبيبًا اشتدّ عليه الحرُّ وعلى أصحابه، فأتى ماه بهراذان[٤]، فتصيّف بها ثلاثة أشهر. وأتاه ناس ممّن كان يطلب الدّنيا كثير، ولحق به ناس ممّن كان يطلبهم الحجّاج بمالٍ وتباعاتٍ. فمنهم رجلٌ يقال له: الحرّ بن عبدالله بن عوفٍ، كان قَتَلَ دهقانين من أهل دَرقيط[٥] كانا ضيفين عليه، ولحق بشبيب حتّى شهد معه مواطنه، حتّى قتل شبيبٌ، وله مقامٌ عند الحجّاج وكلامٌ سَلِمَ به من القتل يجب أن نُثبتَهُ. وهو أنّ الحجّاج، لمّا آمَنَ بعدَ قتل شبيبٍ كلّ من خرج إليه من أصحاب المال، خرج إليه الحرُّ فى من خرج. فجاءَ أهل الدّهقانين يستَعدُون عليه الحجّاج. فأُتى به. [364]

---

١) النّعار: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٩٣٩:٨): اليعار. وفى حواشى الطبرى: البقار، البعار، النعار وصورٌ أخرى مهملة.

٢) صُبَر: جمع مفرده الصُبرة: الكومة من الطّعام. يقال: اشترى الطعام صُبرةً. اى: جزافًا بلاكيلٍ أو وزنٍ.

٣) اختبأ: كذا فى الأصل. وفى مط: احتبا. وما فى الطبرى: اختبى. اختبأ: اختبى.

٤) ماه بهزاذان: ما فى الأصل مهمل فى الأول والثالث فضبطناه حسب الطبرى ٩٤١:٨. وفى حواشى الطبرى عن الأصول والمخطوطات: نهراذان، بهزاذان، بهزادان.

٥) درقيط: نهر درقيط: كورة ببغداد من جهة الكوفة (ياقوت).

كلامٌ للحرّ، لمّا أُتِىَ به ليُقتلَ، سَلِمَ به

فقال له الحجّاج:

ـ «يا عدوّ الله قتلتَ رجلين من أهل الخراج؟» فقال له:

ـ «قد كان ـ أصلحك الله ـ منّى ماهو أعظم من هذا.» قال:

ـ «وماهو؟» قال:

ـ «خروجى من الطّاعة وفِراقى الجماعة. ثمّ إنّك آمنتَ كلّ مَن خرج إليك وهذا أمانى وكتابك لى.»

فقال له الحجّاج:

ـ «قد لعَمرى فعلتُ أولىٰ لك.»

وخلّى سبيلَه.

رجَعنا إلى حديث شبيبٍ. ثمّ إنّه لمّا انفسخ الحرُّ عن شبيب خرج من ماهٍ فى نحو من ثمانمائة رجلٍ. فأقبل نحو المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبه. فجاءَ حتّى نزل قناطر حُذيفة بن اليمان. فكتب ماذرواسب، وهو عظيم بابل مهروذ، إلى الحَجاج يُخبره خبر شبيب. فقام الحجّاج فى النّاس، فحمدالله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أيّها النّاس، لتُقاتلنّ عن بلادكم وعن فيئكم[١] أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوعُ وأسمع وأصبر على البلاءِ منكم، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيئكم.»

فقام إليه النّاس من كلّ جانبٍ يقولون:

ـ «نحن نقاتلهم ونُعتبُ الأميرَ، فليندبْنا إليهم، فإنّا حيثُ سرّهُ.»

وقام إليه زَهرةُ[365]بن حُويّة.وهو يومئذٍ شيخٌ كبيرٌ،لايستتمُّ قائمًا حتّى يُؤخذَ بيده،فقال:

ـ «أصلحَ الله الأميرَ. إنّك إنّما تبعث النّاس متقطّعين، فاستنفر النّاس إليهم كافّةً، وابعث عليهم رجلاً متينًا شجاعًا، محربًا مجرّبًا ممّن يرى الفرارَ هضمًا وعارًا، والصّبرَ مجدًا وكرمًا.»

فقال له الحجّاج:

ـ «فأنت ذاك. فاخرجْ!» فقال له:

ـ «أصلح الله الأمير. إنّما يُصلح النّاسَ فى هذا رجلٌ يحمل الرّمح والدّرعَ، ويهزُّ السّيفَ ويثبت على متن الفرس، وأنا لاأطيق من هذا شيئًا. قد ضعُفتُ وضعف بصرى، ولكن أجرى[٢] فى

١) فيئكم: كذا فى الأصل. وما فى مط: فيكم.

٢) أجرى: كذا فى الأصل. وما فى مط: أخرنى.

النّاس مع أمير، فإنّى إنّما اثبتُ على الرّحالة، فأكون مع الأمير فى عسكره وأشير عليه برأيى.»
فقال له الحجّاج:
- «جزاك الله عن الإسلام والطّاعة فى أوّل الإسلام وآخره خيرًا. فقد نصحتَ وصدَقتَ. أنا مُخرج النّاس كافّةً، ألا، فسيروا أيُها النّاس.»
فانصرف النّاس وجعلوا يتيسّرون، ولايدرون مَن أميرهم.

ذكر رأى سديدٍ للحجّاج

وكتب الحجّاج إلى عبدالملك بن مروان:
- «أمّا بعدُ، فإنّى أخبر أميرَالمؤمنين، أكرمه الله، [366] أنّ شبيبًا قد شارف المدائن، وإنّما يريد الكوفة، وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله فى مواطن كثيرة، فى كلّها تُقتل أمراؤهم وتُفلّ جنودهم. فإن رأى أميرالمؤمنين أن يبعث إلىّ أهلَ الشام فيقاتلوا عدوّهم ويأكلوا بلادَهم، فليفعلْ.»
فلمّا أتى عبدالملك كتابُه، بعث إليه سفيان بن الأبرد فى أربعة الاف، وبعث إليه حبيب بن عبدالرّحمان بن مذحج فى ألفين، فسرّحهم حين أتاه كتاب الحجّاج، وكان بعث الحجّاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه، وكان على خيل الكوفة مع المهلّب وهم الجيش الّذى كان بشر بن مروان بعث عليهم عبدالرّحمان بن مخنف إلى قَطرى، وقد أخبرنا فى ما مضى بمقتل عبدالرّحمان بن مخنف. فبعث الحجّاج عتّابَ بن ورقاء على ذلك الجيش الّذى أُصيب فيهم عبدالرّحمان، وكان جرى لعتّاب مع المهلّب كلامٌ تأدّى إلى وحشة.
فلمّا أن جاءَ فى هذا الوقت كتاب الحجّاج إلى عتّاب بن ورقاء بأن يأتيه، سُرَّ بذلك، ودعا الحجّاج أشراف الكوفة، فيهم: زهرة بن حُويّة، وقبيصة بن والق، فقال:
- «مَن ترونَ أن أبعث على هذا الجيش؟» فقالوا:
- «رأيك أيُها الأمير [367] أفضل.»
- «فإنّى قد بعثتُ إلى عتّاب بن ورقاء، وهو قادمٌ[1] عليكم الّيلة، فيكون هو الّذى يسير فى النّاس.»
قال زَهرة بن حُويّة:

١) قادم: كذا فى الأصل. وفى مط: قادر. وهو خطأ.

ـ «أصلح الله الأمير، رميتَهم بحجرهم، لا والله، ما يرجع إليك حتّى يظفرَ أو يُقتلَ.»

ذكر رأى جيّدٍ رءاه قبيصة بن والق

فقال قبيصة بن والق:

ـ «إنّى أشير عليك برأى اجتهدتُه نصيحةً لأمير المؤمنين، وللأمير ولعامّة المسلمين. إنّا قد تحدّثنا وتحدّث النّاس. إنّ جيشًا فَصَل إليك من أهل الشّام، وإنّ أهل الكوفة قد هزموا، وهان عليهم الفرار والعار من الهزيمة، فقلوبهم كأنّما هى فى قومٍ آخرين. فإن رأيتَ أن تبعث إلى جيشك الّذى أمدِدتَ به من أهل الشّام فيأخذوا حذرهم، ولايلبثوا إلاّ وهم يرون أنّهم ميّتون، فعلتَ. فإنّك تُحارب حُوّلاً قُلّبًا، طعّانًا رحّالاً، وقد جهّزتَ إليه أهل الكوفة، ولستَ واثقًا بهم كلّ الثّقة، وإنّما إخوانهم هؤلاءِ القوم الّذين بُعثوا إليك من الشّام. إنّ شبيبًا، بينا هو فى أرضٍ، إذْ هو فى أرضٍ أخرىٰ، ولا آمَنُ أن يأتيهم [368] وهم غارّون[1]. وإن يهلكوا نهلك وتهلك العراق.»

فقال:

ـ «للهِ أنتَ! ما أحسن ما رأيتَ لى، وما أحسن ما أشرتَ به علىَّ.»

فبعث إلى مَن أقبل إليه من الشّام، فأتاهم كتاب الحجّاج وقد نزلوا هيتَ، فقرأوه، فإذا فيه:

ـ «أمّا بعدُ، فإذا حاذيتم هيت فدعوا طريق الفرات والأنبار وخذوا على عين التّمر حتّى تقدَموا الكوفة إن شاءالله.»

فأقبل القوم سراعًا، وقدِم عتّاب بن ورقاء فى اللّيلة التى قال الحجّاج إنّه قادم. فأمره الحجّاج، فخرج بالنّاس وعسكر بحمّام أعين، وأقبل شبيبُ حتّى انتهى إلى كَلواذىٰ، فقطع منها دجلةَ. ثمّ أقبل حتّى نزل مدينة بَهُرَسير، وصار بينه وبين مطرّف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة، فقطع مطرّفُ الجسر، وبعث إلى شبيب أن ابعث رجالاً من وجوه اصحابك.

مكيدةُ للمطرّف بن المغيرة كاد بها شبيبًا حتّى حبسه عن وجهه

واظهر مطرّف أنّه يريد أن يدارسهم القرآن وينظر فى مايدعو إليه، فإن وجده حقًّا تبعه. فبعث إليه شبيبُ رجالاً فيهم قَعنب وسويد والمحلّل، و وصّاهم [369] شبيبُ ألاّ يدخلوا السّفينة حتّى يرجع رسوله من عند مطرّف، وبعث إلى مطرّف أن:

١) غارّون: كذا فى الأصل والطبرى ٨:٩٤٤. وفى مط: غازون.

- «إبعث إليّ من أصحابك بعدّة أصحابي يكونوا رُهنًا في يدي حتّى ترد على أصحابي.»
فقال مطرّفُ لرسوله:
- «إلقهُ وقلْ له: كيف آمنك على أصحابي إذا بعثت بهم الآن وأنتَ لاتامنني على أصحابك.»
فأبلغه الرّسول، فقال شبيبُ:
- «إنّك قد علمتَ أنّا لانستحلُّ الغدرَ في ديننا، وأنتم تستحلُّونه وتفعلونه.»
فبعث إليه مطرّفُ جماعةً من وجوه أصحابه. فلمّا صاروا في يد شبيب، سرّح إليه أصحابه. فأتوا مطرّفًا، فمكثوا أربعه أيّام يتناظرون[1]، ثمّ لم يتّفقوا على شيء. فلمّا تبيّن لشبيبٍ أن مطرّفًا غيرُ تابعهِ[2]، تعبّى للمسير، وجمع أصحابه وقال لهم:
- «إنّ هذا الثّقفيّ قطعني عن رأيي منذ أربعة أيّام. وذاك أنّي هممتُ أن أخرج في جريدةٍ من الخيل حتّى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام، رجاءَ ان أصادف غِرّتَهم قبل أن يحذروا، وكنتُ ألقاهم متقطّعين عن المصر ليس عليهم أميرٌ كالحجّاج يستندون إليه، ولا مصرٌ كالكوفة يعتصمون به، وقد جاءتني عُيونٌ أنّ أوائلهم قد دخلوا [370] عين التّمر، فهم الآن قد شارفوا الكوفة[3]. وجاءتني أيضًا عيوني من نحو عتّاب أنّه قد نزل بجماعة أهل الكوفة والبصرة. فما أقربَ ما بيننا وبينهم. فتيسّروا بنا للمسير إلى عتّاب بن ورقاء.»
وكان عتّابُ يومئذٍ قد أخرج معه جماعةَ أهل الكوفة مقاتلتهم وشبّانهم، فوافىٰ معه أربعون ألفًا من المقاتلة، وعشرة آلافٍ من الشّبّاب. فكانوا خمسين ألفًا. وهدّدهم الحجّاج إن هربوا كعادة أهل الكوفة، وتوعّدهم.
وعرض شبيبُ أصحابه في المدائن، فكانوا ألف رجل، فخطبهم، وحمدالله وأثنى عليه، ثمّ قال:
- «يامعشر المسلمين، إنّ الله عزّوجلّ قد كان ينصركم وأنتم مائةٌ ومائتان، وأنتم اليوم مئون ومئون. ألا، إنّي مُصلٍّ الظّهرَ ثمّ سائرٌ بكم إن شاءالله.»
فصلّى، ثمّ نودي في النّاس، فأخذوا يتخلّفون ويتأخرون.
قال فروة بن لُقيط: فلمّا جاز بنا ساباط، ونزلنا معه قصّ علينا، وذكّرنا بأيّام الله وزهّدنا في

---

١) يتناظرون: كذا في الأصل. وما في مط: يناظرون.
٢) غيرتابعه: هكذا قرأناها، وليست واضحةً تمامًا في الأصل. وما في مط: غير تابعة!
٣) سقط من مط، من قوله: «وقد جاءتني» إلى قوله: «قد شارفوا الكوفة».

الدُنيا، ورغِّبنا فی الآخرة. ثمَّ أذَّن موذِّنه، فصلَّى بنا العصر، ثمَّ أقبل حتَّى أشرف بنا على عتَّاب بن ورقاء. فلمَّا رَءَاهم نزل من ساعته، وأمر مؤذِّنه فأذَّن، ثمَّ تقدَّم، فصلَّى بهم المغرب، وخرج [371] عتَّاب بالنَّاس كلِّهم، فعبَّأهم، وكان قد خندق أوَّل أيّامٍ نزل. وكان يُظهر أنّه يريد أن يسير إلى شبيب بالمدائن. فلمَّا صفَّ عتَّابُ النَّاسَ بعث على ميمنته محمَّد بن عبدالرَّحمان بن سعيد بن قيس، وقال له:

ـ « يابن أخی، إنّك شريفٌ، فاصبِرْ وصابِرْ.» فقال له:

ـ «أمَّا أنا فوالله لأُقاتلنَّ ماثبتَ معی إنسانٌ.»

وقال لقبيصة بن والق:

ـ «إكفِنی الميسرة.» فقال:

ـ «أنَا شيخٌ كبيرٌ. غايتی أن أثبت تحت رايتی..»

وكان يومئذٍ على ثُلث بنی تغلب.

ـ «.. أما ترانی لا أستطيع القيام، إلاَّ أن أقامَ؟ وأخی نُعيم بن عُليم وهو ذوجَزْءٍ[1] وغَناءٍ.»

فبعثه على ميسرته، وبعث حنظلة بن الحارث، ابنَ عمِّ عتَّابٍ وشيخ أهل بيته على الرَّجَّالة، وبعث معه ثلاثة صفوف فيه الرَّجَّالة معهم السُّيوف، وصفٌّ هم أصحاب الرِّماح، وصفٌّ فيه المرامية. ثمَّ سار بين الميمنة والميسرة، ويمرُّ بأهل رايةٍ رايةٍ، فيحثُّهم على الصَّبر ويقصُّ عليهم. وقال فی ما حُفظ من كلامه:

ـ «إنَّ أعظَم النَّاس نصيبًا فی الجنَّة الشُهداءُ، وليس الله لأحدٍ من خلقه بأحمدَ منه للصَّابرين. ألا ترون أنّه يقول: إصبروا، إنَّ اللهَ مع الصَّابرين[2]»؟ وليس [372] الله لأحدٍ أمقتَ منه لأهل البغی. ألا ترون أنَّ عدوَّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه، لايرون ذلك إلاَّ قربةً لهم عند الله، فهم شرار أهل الأرض وكلاب أهل النَّار. أين القُصّاصُ؟»

قال ذلك مرارًا، فلم يُجبه أحدٌ منّا. فلمَّا رأى ذلك، قال:

ـ «أينَ من يروی شعر عنترة؟»

قال: فلا والله ماردَّ عليه أحدٌ كلمة. فقال:

ـ «إنّا للهِ، كأنّی بكم قد فررتم عن عتَّاب، وتركتموهُ تُسفی فی إسته الرِّيحُ.»

---

١) ذوجَزْءٍ: كذا فی الأصل. وما فی مط: ذوحرا والجزء: الكفاية. وفی الطبری (٨: ٩٥٠): ذاحزمٍ وعَزمٍ وغَناءٍ.
٢) س ٨ الأنفال: ٤٦.

ثمَّ أقبل حتّى جلس فى القلب معه زهرة بن حُويّة جالسٌ وعبدالرّحمان بن محمّد بن الأشعث. وأقبل شبيبٌ وهو فى ستمائة وقد تخلّف عنه من النّاس أربعمائة، فقال:

- «ماتخلّف عنّى إلاّ مَن لاأحبُّ أن أراهُ فينا.»

فبعث سُويد بن سُليم فى مائتين إلى الميسرة، وبعث المجلّل بن وائل فى مائتين إلى القلب. ومضى هو فى مائتين إلى الميمنة، وذلك بين المغرب والعشاءِ الآخرة حين أضاءَ القمر فناداهم:

- «لمن هذه الرّايات؟» قالوا:

- «رايات ربيعة.»

فقال شبيبٌ:

- «راياتٌ طال ما نصرتِ الحقَّ، وطال مانصرتِ الباطلَ، لها فى كلّ نصيبٌ. أنا أبوالمدلّه، أثبتوا إن شئتم.»

ثمّ حمل عليهم وهم على مسنّاة [373] أمام الخندق، ففضّهم، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق. فجاءَ شبيب حتّى وقف عليه، وقال لأصحابه:

- «مثل هذا ماقال الله عزّوجلّ: واتْلُ عليهم نبأ الّذى آتيناهُ آياتِنا، فانسلخَ منها فأتْبَعهُ الشّيطانُ، فكانَ من الغاوينَ[1].»

ثمّ حمل على الميسرة وفيها عتّاب بن ورقاء، وحمل سُويد بن سُليم على الميمنة، وعليها محمّد بن عبدالرّحمان، فقاتل فى الميمنة فى رجال تميم وهمدان، فأحسن القتالَ. فمازالوا كذلك حتّى أُتوا، فقيل لهم:

- «قُتل عتّاب بن ورقاء.»

قال: فانفضّوا، ولم يزل عتّابُ جالسًا على طنْفسة فى القلب هو وزهرة بن حويّة، إذ غشيهم شبيبٌ، فانفضّ عنه النّاس وتركوه. فقال عتّابُ:

- «يازهرة، هذا يومٌ كثر فيه العدَد وقلَّ فيه الغَناءُ. لَهفى على خمسمائة فارسٍ معى من وجوه النّاس من نحو رجال تميم. ألا صابرٌ لِعدوّه! ألا مواسٍ بنفسه؟»

فمضى النّاس على وجوههم. فلمّا دنا منه شبيبُ وثب فى عصابة قليلة صبرتْ معه، فقال له بعضهم:

- «أصلحك الله. إنّ عبدالرّحمان [374] بن محمّد قد هرب عنك وانصفق معه ناسٌ كثيرٌ.»

---

١) س ٧ الأعراف: ١٧٥.

فقال:

ـ «قد فرّ قبلَ اليوم، ومارأيتُ ذلك الفتى يُبالى ماصنع.»

ثمّ قاتلهم ساعةً وهو يقول:

ـ «مارأيتُ كاليوم قطُّ موطنًا لم أبْلَ بمثله أقلَّ ناصرًا ولا أكثر هاربًا خاذلاً.»

فرءاهُ رجلٌ من بنى تغلب من أصحاب شبيب، وكان أصاب دمًا فى قومه، ولحق بشبيبٍ، فقال لشبيبٍ:

ـ «والله، إنّى لأُقتلنّ هذا المتكلّم عتّابَ بن ورقاء.»

فحمل عليه وطعنه، فوقع و وطئت الخيلُ زهرةَ بن حُويّة. فأخذ يذبُّ بسيفه وهو شيخٌ كبير لايستطيع أن ينهض. فجاءَه الفضل بن عامر الشيبانى، فقتله، وانتهى إليه شبيبٌ، فوجده صريعًا، فعرفه وقال:

ـ «مَن قَتلَ هذا؟» فقال الفضل:

ـ «أنا قتلتُه.» فقال شبيبٌ:

ـ «هذا زُهرة بن حُويّة. أما والله، لئن كنتَ قتلتَ على ضلالةٍ لَرُبَّ يومٍ من أيّام المسلمين قد حَسُنَ فيه بلاؤك، وعظم فيه غناؤك، ولرُبَّ خيلٍ للمشركين هزمتَها وسريّةٍ له ذعرتَها، ومدينةٍ لهم فتحتها، ثمّ كان فى علم الله أن تُقتلَ ناصرًا للظّالمين.»

وقُتل وُجوهُ العرب فى المعركة، واستمكن شبيبٌ من أهل العسكر، فقال:

ـ «إرفعوا عنهم السَّيفَ!» [375]

و دَعا إلى البيعة. فبايعه النّاسُ من ساعتهم، وأخذ شبيبٌ يبايعهم ويقول:

ـ «إلى ساعة يهربون.»[1]

فلمّا كان فى اللّيل هربوا، واحتوى شبيبٌ على مافى العسكر وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن، فأتاه وأقام شبيب بيت قُرّة يومين وقد دخل سفيان بن الأبرد وحبيب بن عبدالرّحمان من مذحج فى من معها، فشدُّوا ظَهر الحجّاج، و استغنىٰ بهم عن أهل الكوفة. فصعد المنبر فحمدالله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعدُ، يا أهل الكوفة، فلا أعزّ الله من أراد بكم العِزَّ، ولا نَصَرَ من أراد منكم النَّصرَ، أخرجوا عنّا، فلا تشهدوا معنا قتالَ عدوّنا، إلحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنّصارىٰ، ولا يقاتلَن

---

١) إلى ساعة يهربون: كذا فى الأصل. وما فى مط: إلى ساعة تهربون.

معنا إلاّ مَن كان عاملاً لنا ومَن لم يشهد قتالَ عتّاب بن ورقاء.»

ثمّ إنّ شبيبًا خرج يريد الكوفة، فانتهىٰ إلى سورا، فقال لأصحابه:

ـ «أيّكم يأتينى برأس عامل سورا؟»

فانتدب إليه بَطين وقَعنب و سويد و رجلان من أصحابه، وساروا مُغـذّين، حتّى انتهـوا إلى دار الخوارج والعُمّال فى سَمُرجَه[1]، وكادوا النّاسَ بأن قالوا:

ـ «أجيبوا الأميرَ!» فقال النّاس:

ـ «أىّ الأمراء» فقالوا:

ـ «أميرٌ قد خرج [376] من قبل الحجّاج يريد هذا الفاسق شبيبًا.»

فاغترّ بذلك العامل منهم. فلمّا قربوا شهروا السّيوف وحكّموا حين و صلوا إليه، فضربوا عُنُقه، وقبضوا ما وجدوا من مال، ولحقوا بشبيب. فلمّا رأى شبيبُ المالَ، قال:

ـ «أتيتمونا بفتنة المسلمين؟ هلمّ الحربة يا غلام!»

فحزّتْ بهـا البُدور، وأمر أن تُنخس الدّوابُ الّتى كانت عليهـا. فمرّتْ والمال يتناثر من بُدوره حتّى وردت الصّراة، فقال:

ـ «إن كان بقى شىءٌ فاقذفوه فى الماء.»

ذكر دخول شبيبٍ الكوفة دَخلتَهُ الثّانية

وإنّ أبا سفيان بن الأبرد أتى الحجّاج فقال:

ـ «ابعثنى إليه حتّى أستقبله قبل أن يأتيك.» فقال:

ـ «ما أحبُ أن نفترق حتّى ألقاه فى جماعتكم الكوفة فى ظهورنا والحصن فى أيدينا.»

وأقبل شبيبُ حتّى نزل موضع حمّام أعين، ودعا الحجّاجُ الحارث بن معـاوية بن أبى زرعة بن مسعود الثّقفى، فوجّهه فى ناسٍ من الشُرط لم يكونوا شهدوا يوم عتّابٍ، ونحو من مائتى رجـلٍ من أهل الشّام، فخرج فى ألف رجـلٍ، فنزل زرارة[2]. وبلغ ذلك شـبيبًا فتعجّـل إليه. فلمّا انتهـى إليه، حمل عليه فقتله وانهزم أصحابه [377] وجاءُوا حتّى دخلوا المدينة، وأقبل شبيبُ حتّى قطع وذنا من الكوفة، فبعث البُطينَ فى عشرة فـوارس يَرتادُ له منزلاً على شـاطئُ الفـرات فـى دار

---

١) سَمُرجه: كذا فى الأصل. وما فى مط: سمرحه (بتخفيف الميم والحاء المهملة).

٢) زُرارة: كذا فى مط والطبرى ٩٥٧:٨. وما فى الأصل غير واضح تمامًا.

الرُزق. فوجّه الحجّاجُ حَوشَب بن يزيد فى جمعٍ من أهل الكوفة، فأخذوا بأفواه السِّكك، فقاتلهم البُطين، فلم يَقْوَ عليهم. فبعث إلى شبيبٍ، فأمدّهُ بفوارس، فعقروا فرس حَوشبٍ وهزموه، ونجا ومضى البُطين إلى دار الرُزق فى أصحابه وعسكر على شاطئ الفرات، فلم يُوجِّهْ إليه الحجّاجُ أحدًا. فمضىٰ شبيبٌ حتّى نزل السَّبخة وأقام ثلاثًا لايوجّه إليه الحجّاج أحدًا، فابتنى مسجدًا فى أقصى السَّبخة عند الايوان، وكانت امرأتُه غزالَة نذرت أن تُصلّىَ فى مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها البقرة وآلَ عمران. فجاءَ شبيب مع امرأته حتّى وفتْ بنذرها فى المسجد.

وأشير على الحجّاج أن يخرج بنفسه، فقال الحجّاج لقُتيبة بن مسلمٍ:

ـ «أخرجْ، فإنّى خارجٌ، وارتَدْ لى معسكرًا.»

فخرج ثمّ رجع إليه فقال:

ـ «وجدت المدىٰ[١] سهلاً، فسرْ على اسم الله والطّائر الميمون.»

فخرج بأصحابه، فأتى على مكانٍ فيه بعض القَذر والكُناسات [378] فقال:

ـ «القوا لى هاهنا.» فقيل له:

ـ «إنّ الموضع قَذِرٌ.» فقال:

ـ «ما تدعوننى إليه أقذر الأرض، تحته طيّبةٌ والسّماءُ فوقَه طيّبةٌ.»

وأخرج الحجّاج مولىً له يقال له أبوالورد عليه تجفاف[٢]، وأخرج مُجفّفةً كثيرةً وغِلمانًا له وقالوا:

ـ «هذا الحجّاجُ!»

فحمل عليه شبيبٌ فقتله، ثم قال:

ـ «إن كان هذا الحجّاج، فقد أرحتكم منه.»

ثمّ إنّ الحجّاج أخرج إليه طَهمان فى مثل ذلك من العُدّة والعَدَد والهيئَة. فحمل عليه شبيبُ، فقتله، وقال:

ـ «إن كان هذا الحجّاج فقد أرحتكم منه.»[٣]

ثمّ إنّ الحجّاج دلف إليه بنفسه وعلى ميمنته مطر بن ناجية وعلى ميسرته خالد بن عتّاب بن

---

١) المدىٰ: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٩٦٦:٨): الماتىٰ.

٢) التّجفاف (بكسر التّاء وفتحها): آلة للحرب يُتّقىٰ بها كالدّرع، للفرس، والانسان.

٣) سقط من مط من قوله «ثمّ إنّ الحجّاج أخرج إليه طهمان» إلى قوله «فقد أرحتكم منه».

ورقاء وهو فی زُهاءِ أربعة آلافٍ. فقيل له:

- «أيُها الأمير، لاتُعرِّفه موضعَك.»

فتنكَّرَ وأخفى مكانَه وغفَّل له مولًى له، فنظر إليه شبيب وظنَّه الحجّاج، فحمل عليه وضربه بعمودٍ فقتله، فغفَّل له أعين صاحب حمّام أعين بالكوفة، فقتله. فقال الحجّاجُ:

- «عليَّ بالبَغلة!»

فأُتى ببغلٍ محجَّلٍ، فقيل له:

- «أصلح الله الأمير، إنَّ الأعاجم تتطيَّر أن تركب فی مثل هذا اليوم مثلَ هذا البغل.» فقال:

- «أدنوه منّی، فإنَّ اليوم يومٌ أغرُّ محجَّلٌ.» [379] فركبه ودَنا، ثمَّ طُرحت له عباءَةٌ فنزل وجلس، ودعا بكرسیٍّ له، ثمَّ نادیٰ:

- «يا أهل الشّام، يا أهل السّمع والطّاعة، لا يغلبَنَّ باطل هؤلاءِ الأرجاس حقَّكم، غُضُّوا الأبصار، واجثُوا على الرُّكَب، واستقبلوا القوم بأطراف الأسنَّة.»

فجثَوا على الرُّكب وكأنَّهم حَرَّةٌ سوداء. فأقبل إليه، شبيبٌ حتّی إذا دَنا منهم عبّی أصحابَه ثلاثة كراديس: كتيبة معه وكتيبة مع سويد بن سليم وكتيبة مع المحلَّل بن وائل.

فقال لسويدٍ:

- «إحمل عليهم فی خيلك.»

فحمل عليهم فثبتوا له حتّی إذا غشی أطراف الأسنَّة وثبوا فی وجهه و وُجوه[١] أصحابه، فطعنوهم قُدمًا، حتّی انصرف، وصاح الحجّاجُ:

- «يا أهل السّمع والطّاعة، هكذا فافعلوا! قدِّم كرسیَّ يا غلام.»

وأمر شبيبٌ المحلَّل بن وائل، فحمل عليهم، ففعلوا به مثل ما فُعل بسويدٍ. فناداهم الحجّاج:

- «يا أهل السّمع والطاعة، هكذا فافعلوا! قدِّمْ كُرسیَّ.»

ثمَّ إنَّ شبيبًا حمل عليهم فی كتيبته، فثبتوا له حتّی إذا غشی أطراف الأسنَّة وثبوا فی وجهه، فقاتَلهم طويلاً. ثمَّ إنَّ أهل الشّام طاعنوهُ قُدمًا، حتّی ألحقوه بأصحابه. [380] فلمّا رأیٰ صبرهم نادی:

- «يا سويد احملْ فی خيلك على هذه السَّكَّةِ ـ يعنی سكَّةَ لحّام بن حرير[٢] ـ لعلَّك تُزيل أهلها،

١) سقط من مط من قوله «و وجوه أصحابه» إلى قوله «وثبوا فی وجهه.»

٢) حرير: كذا فی الأصل. وفی مط: حرسه! وما فی الطبری: جرير.

فتأتى الحجّاجَ من ورائه ونحمل نحن من أمامه.»

فانفرد سويد بن سليم، فحمل على أهل تلك السُكّة، فرُمى من فوق البيوت وأفواه السُكك. فانصرف وقد كان جعل الحجّاج عُروة بن المغيرة بن شعبة فى نحوٍ من ثلاثمائة رجلٍ من أهل الشّام رِدْءًا له و لأصحابه، لئلاّ يُؤتىٰ من ورائه.

ثمّ إنّ شبيبًا قال لأصحابه:

ـ «يا أهل الإسلام، إنّما شرينا لله، ومَن شرى لله لم يكن عليه ما أصابه من أذًى وألمٍ، الصّبرَ الصّبرَ، شَدّةٌ كشدّاتكم فى مواطنكم الكريمة.»

ثمّ جمع أصحابه وقال:

ـ «الأرضَ الأرضَ، دِبُّوا تحتَ تِراسكم حتّى إذا كانت أسنّتهم فوقها فادلفوها[١] صُعُدًا، ثمّ ادخلوا تحتها لتستقبلوا أقدامَهم وهى الهزيمة بإذن الله.»

فأقبلوا يدبّون إليهم.

رَأىُ جيّدُ رَءَاهُ خالد بن عتّابٍ

فقال خالد بن عتّاب بن ورقاء للحجّاج:

ـ «إئذن لى فى قتالهم، فإنّى موتور و أنا ممّن لايتّهم فى نصيحةٍ.» قال:

ـ «فقد أذنتُ لك.» قال:

ـ «فإنّى آتيهم من ورائهم حتّى أغير على عسكرهم.» [381] فقال له:

ـ «إفعل مابدالك.»

فخرج معه بعصابةٍ من أهل الكوفة مع مواليه وشاكريّته[٢] حتّى دخل عسكرهم من ورائهم، فقتل مصادًا أخاشبيبٍ، وقتلَ غزالةَ امرأته، وحرق فى عسكره. وأتىٰ ذلك الخبر الحجّاجَ وشبيبًا والتفتوا فرأوا النّار فى بيوتهم. فامّا الحجّاجُ وأصحابه فكبّروا، وأمّا شبيبٌ فوثب هو وكلُّ راجلٍ

١) فادلفوها: كذا فى الأصل. وما فى مط: فارلقوها. وفى الطبرى (٩٦٥٥:٨): فأزلقوها.

٢) شاكريّته: كذا فى الأصل والطبرى ٩٦٥٥:٨. وما فى مط: شاكريه. والشاكريةُ: جماعة الشاكريّين. والشاكرىّ = الشاكر: معرّب چاكر (Chakar (ker (تركى؟ ـ فارسى.) بمعنى الخادم والعبد (فم). قال فى متن اللغة: الشكارة (مولّدٌ أو دخيل) معناها: الشئء القليل، وغلّبت على بقعة الأرض الصغيرة تزرع للأجير. وهى عند العامّة ارض تزرع للأجير من أصل أجرته وكأنّها ماخوذة من الشاكرىّ.

معه على خيولهم. وقال الحجّاج لأصحابه:

ـ «شدُّوا عليهم، فقد أتاهم ما أرعبهم قلوبَهم[١].»

فشدُّوا عليهم فهزموهم. وتخلّف شبيبُ فى حامية النّاس حتى خرج من الجسر، وتبعه خيل الحجّاج.

قال: فجعل يخفق[٢] برأسه. قال أصعر الخارجى: كنت معه لمّا انهزم فقلتُ:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إلتفتْ فانظر مَن خلفَك.»

قال: فالتفتَ غير مكترثٍ، وجعل يخفق براسه. قال: فدنَوا منّا فقلتُ:

ـ «يا أميرالمؤمنين، قد دَنَوا منك.»

قال: فالتفت ـ والله ـ غير مكترث وجعل يخفق برأسه. فبينا هو كذلك إذ بعث الحجّاج إلى خيله أن:

ـ «دَعوهُ فى حرق الله.»

قال: فتركوه ورجعوا.

ومضى شبيبُ ومَن معه حتّى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا ديرًا هنالك وخالدُ يقفوهم، فحصرهم فى الدِّير، فخرجوا عليه، فهزموهُ نحوًا [382] من فرسخين فألقى خالدُ نفسَه بفرسه، فمرَّ به و لواؤه فى يده،

قال شبيب:

ـ «قاتله الله فارسًا وفرسَهُ. هذا أشدُّ النّاس، و فرسُهُ أقوى فرسٍ فى الأرض.» فقيل له:

ـ «هذا خالد بن عتّاب.» فقال:

ـ «مُعْرَق[٣] له فى الشجاعة، والله، لو علمتُ لأقحمت خلفه ولو دخل النّار.»

وإن الحجّاج دخل الكوفة حين انهزم شبيبُ، ثمّ صعد المنبر، فقال:

ـ «والله ما قوتل شبيبُ قطُ قبلَها [مثلها][٤]. ولّى هاربًا، وترك امرأتَهُ يُكسَرُ فى إستها القصبُ.»

---

١) قلوبهم: غير موجودة فى مط.

٢) يخفق: وفى الأصل يحفق (بالحاء المهملة فى المواضع الثلاثة) فاثبتناها كما فى مط والطبرى ٨:٩٦١. يخفق براسه: يحرّكه وهو ناعسُ.

٣) مُعْرَق: كذا فى الأصل ومط والطبرى ٨:٩٦٨. وفى حواشيه: معرق،مُعْرف.

٤)مثلها: سقطت من الأصل ومط. فردناها كما فى الطبرى ٨:٩٦٩.

ثمّ دعا حبيب بن عبدالرّحمان الحكمى، فبعثه فى أثره فى ثلاثة آلاف من أهل الشّام. وقال له الحجّاجُ:

- «إحذر بياته، وحيث ما لقيته[1] فنازِله، فإن الله قد فلّ حدّهُ وقصم نابَهُ.»

فخرج حبيبٌ فى أثر شبيبٍ حتّى نزل الأنبار.

وبعث الحجّاج إلى العُمّال أن:

- «دُسّوا إلى أصحاب شبيب: أنّ من جاءَنا منكم فهو آمِنٌ.»

فكان كلُّ من ليست له بصيرة ممّن هَدّهُ القتالُ يجىءُ فيؤمَنُ. وقبل ذلك ماكان الحجّاج نادىٰ فيهم يوم هربوا أنْ:

- «مَن جاءَ منكم فهو آمِنٌ.»

فتفرّق عنه ناس كثير من أصحابه.

وبلغ شبيبًا مُنْزَلُ[2] حبيب بن عبدالرّحمان [383] الأنبارَ، فأقبل بأصحابه حتّى دَنا من عسكرهم ونزل، فصلّى بهم المغرب.

قال أبوزيد السّكسَكى: أنا والله فى أهل الشّام ليلةَ جاءَ شبيبُ، فبيّتَنا. قال: فلمّا أمسينا، جمعنا حبيب بن عبدالله، فجعلنا أرباعًا وعلى كلّ رُبعٍ أميرٌ، وقال لكلّ ربعٍ منّا:

- «ليُجزِئ كلُّ ربعٍ جانبَه، فإن قُتل هذا الرُّبع فلايُغنِهُم[3] هذا الرُّبعُ الآخر. فإنّه بلغنى أنّ الخوارج منّا قريبٌ، فوطّنوا أنفسكم على أنّكم مُبيّتون ومقاتلون.»

فمازلنا على تعبئتنا حتّى جاءَنا شبيبُ، فبيّتنا، فشدّ على ربعٍ منّا، فضاربَهم طويلاً. فمازالت قَدَمُ إنسانٍ منهم، ثمّ تركهم وأقبل إلى الرُّبع الآخر، فقاتلهم طويلاً، فلم يظفر بشىء. قال: ثم أطاف بنا يحمل علينا حتّى ذهب ثلاثة أرباع اللّيل، وألزّ بنا حتّى قُلنا: لايفارقنا. ثمّ نازلنا راجلاً طويلاً، فسقطت والله بيننا وبينهم الأيدى والأرجل، وفُقئت الأعيُن، وكثر القتلى. قتَلْنا منهم نحوًا من ثلاثين، وقتلوا منّا نحوًا من مائة، و والله لوكانوا يزيدون على مائة رجلٍ لأهلكونا، وأيمُ الله على ذلك مافارقونا حتى مللناهم وملّونا، وكرهناهم وكرهونا. ولقد رأيتُ الرّجلَ مايضرب الرّجلَ منهم [384] فما يَضُرُّهُ شيئًا من الاعياءِ والضّعف. ولقد رأيتُ الرّجلَ منّا يُقاتل

---

١) لقيته: كذا فى الأصل والطبرى.وما فى مط: ألفيته. ٢) مُنْزَل: الضبط من الأصل.

٣) فلايُغنِهُم: كذا فى الأصل. وما فى مط: فلايبنهم، وهو خطأ. وفى الطبرى (٨:٩٦٩): فلايُغنهم. وفى تعاليقه: فلايمنهم، فلايُعنهم، فلايُغنيهم.

جالسًا ينفح[1] بسيفه، مايستطيع أن يقوم من الإعياءِ. فلمّا يئسوا ركب شبيبٌ وقال لمن كان نزل معه:

- «إركبوا!»

وتوجّه منصرفًا عنّا.

قال فروة بن لقيط ـ وكان شهد معه مَواطنَه كلَّها ـ قال لنا ليلتئذٍ، وقد رأى بنا كآبةً ظاهرةً، وجراحةً شديدةً:

- «ما أشدَّ هذا الّذى بنا، لوكنّا إنّما نطلب الدُّنيا، وما أيسر هذا فى طاعة الله وثوابه.»

فقال أصحابه:

- «صدقتَ يا أميرالمؤمنين.»

قال: فما أنسى منه إقبالَه على سُويد بن سليم، ولا مقالتَه له:

- «يا سُويد! قتلتُ أمسِ منهم رجلين[2]: أحدهما أشجع النّاس والآخر أجبن النّاس. خرجتُ عشيّةَ أمس طليعةً لكم، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلوا قريةً يشترون منها حوائجهم، فاشترىٰ أحدهم حاجتَه، ثمّ خرج قِبَلَ أصحابه، وخرجتُ معه، فقال لى:

- «كأنّك لم تشترِ علفًا.» فقلتُ:

- «إنّ لى رفقاءَ قد كفَونى ذلك.»

فقلتُ له:

- «أين ترىٰ عدوَّنا هذا؟» فقال:

- «بلغنى أنّه نزل قريبًا منّا، وأيمُ الله، لوددتُ أنّى قد لقيتُ شبيبَهم هذا.» قلتُ:

- «فتُحبُّ ذاك؟» قال:

- «نعم.» قلتُ:

- «فخُذْ حِذْرَك، فأنا والله شبيبٌ.»

وانتضيتُ سيفى، فخرَّ والله ميّتًا. [385] فقلتُ له:

- «إرتفعْ ويحك!»

وذهبتُ أنظرُ، فإذا هو قد ماتَ. فانصرفتُ راجعًا، فاستقبل الآخر راجعًا من القرية، فقال:

- «أينَ تذهب هذه الساعةَ، وإنّما يرجع النّاس إلى عسكرهم.»

١) ينفح: مهملة فى الأصل. فأثبتناها حسب الطبرى ٨: ٩٧٠.

٢) قس بما فى الطبرى ٨: ٩٧١.

فلم أُكلِّمه، ومضيتُ يُقرِّب بى فرسى، واتَّبعنى حتَّى لحقنى، فعطفتُ عليه، وقلتُ له:

ـ «ما لَكَ؟» قال:

ـ «أنتَ والله من عدوِّنا.» فقلتُ:

ـ «أجلْ والله.» فقال:

ـ «إذًا لاتبرح والله حتَّى أقتلكَ أو قتلتَنى.»

وحملتُ عليه، فحمل علىَّ، فاضطربنا بسيفنا ساعةً، فوالله مافَضَلتُه فى شدَّة نفسٍ ولا إقدام، إلاَّ أنَّ سيفى كان أقطعَ من سيفه فقتلتُهُ.

ذكر مكيدة لشبيب

بلغ شبيبًا أنَّ جند الشَّام الَّذين مع حبيبٍ حملوا معهم حجرًا وحلفوا ألاَّ يفرُّون من شبيب حتَّى يفرَّ هذا الحجر. فلمَّا سمع شبيبُ ذلك أراد أن يكيدهم. فدعا بأربعة أفراسٍ وربط فى أذنابها تِرَسَهُ فى ذنب كلِّ فرسٍ تُرسَين، ثمَّ ندب معه ثمانية نفرٍ من أصحابه ومعه غلام له يُقال له: حيَّان، كان بئيسًا شجاعًا، وأمرهُ أن يحمل معه إداوةً من ماءٍ، ثمَّ سار حتَّى يأتى ناحيةً من العسكر، فأمر أصحابه [386] أن يكونوا فى نواحى العسكر، وأن يجعلوا مع كلِّ رجلين فرسًا، ثمَّ يُمسُّوها الحديدَ حتَّى يجد حَرَّه ويخلُّوها فى العسكر، و واعدهم تلعةً قريبةً من العسكر، فقال:

ـ «مَن نَجا منكم فإنَّ موعده هذه التَّلعة.»

وكره أصحابه الإقدام على ما أمرهم به. فنزل حيث رأى ذلك منهم حتَّى صنع بالخيل مثل الَّذى أمرهم به. ثمَّ وغلَتْ فى العسكر، ودخل هو يتلوها محكِّمًا، فضربَ النّاسَ بعضَهم ببعضٍ وماجوا.

فقام حبيب بن عبدالرَّحمان فنادى:

ـ «أيُّها النَّاس إنَّ هذه مكيدةٌ، فالزموا الأرض حتَّى يبينَ لكم الأمرُ.»

ففعلوا، وبقى شبيبُ فى عسكرهم، فلزم الأرض حيث رَءَاهم قد سكنوا، وقد أصابته ضربة عمودٍ أوهنه. فلمَّا هدأ النَّاسُ، ورجعوا إلى أبنيتهم خرج فى غمارهم حتَّى أتى التَّلعة، فإذا هو بحيَّان، فقال:

ـ «أفرغ على رأسى من الماءِ يا حيَّان.»

فلمَّا مدَّ رأسَهُ ليصبَّ عليه من الماءِ، هَمَّ حيَّان بضرب عُنُقه وقال لنفسه:

ـ «لا أجد مكرمةً لى ولا ذكرًا أرفعَ من قتل هذا فى هذه الخلوة، وهو أمانى عند الحجَّاج.»

فأخذتْهُ الرّعدة حيث همّ بما همّ به. فلمّا أبطأ بحلّ الإداوة، قال:
- «ما يُبطئك بحلّها.»
وتناولَ السّكين [387] من مُوزَجِه[1]، فخرقها به، ثمّ ناوله إيّاها، فأفرغ عليه من الماء.
قال حيّان: منعنى والله الجُبنُ وما أخذنى من الرّعدة أن اضرب عُنقَه بعد ماهممتُ به، وما كنتُ أعهد نفسى جبانًا.
ثمّ خلا[2] شبيبُ بأصحابه وعسكره.

ذكر هلاك شبيب فى هذه السّنة باتّفاقٍ سَيءٍ

ثمّ إنّ الحجّاج أخرج النّاس إلى شبيب، وقسم فيهم أموالاً عظيمة، وأعطى الجرحى خاصّةً، وكلّ ذى جزءٍ وبلاءٍ، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسير بهم. فبلغ ذلك حبيب بن عبدالرّحمان، فشقّ عليه، وقال:
- «تبعث سفيان إلى رجل قد فللتُه وقتلتُ فُرسانَه!»
وكان شبيبُ قد أقام بكرمان حتّى حبروا واستراش هو و أصحابُه. ومضى سفيان بعد شهرين واستقبله شبيبُ بجسر دُجيل الأهواز، فعبر شبيب إلى سفيان، فوجد سفيان قد نزل فى الرّجال، وبعث مُصاصَ بن صَيفى على الخيل، وبعث على ميمنته بشر بن حسّان الفهرى، وعلى ميسرته عُمر بن هُبيرة الفزارى. وأقبل شبيبُ فى ثلاثة كراديس: هو فى كتيبةٍ، وسُويدُ فى كتيبةٍ، وقَعنبُ [388] فى كتيبةٍ، وخلّف المحلّلَ فى عسكره. فلمّا حمل سُويدُ وهو فى ميمنته، على ميسرة سفيان، وقعنبُ وهو فى ميسرته، على ميمنة سفيان، وحمل هو على سفيان، اضطربوا مليًّا حتّى رجعت الخوارج إلى المكان الّذى كانوا فيه.
قال يزيد السّكسكىُّ: والله لقد كرَّ علينا هو وأصحابه أكثر من ثلاثين كرّةً كلّ ذلك لانزول من صفّنا.
فقال لنا سفيان:
- «لا تفرّقوا، ولكن لِيزحفِ الرّجالُ إليهم زحفًا.»
ففعلنا ومازلنا نُطاعنهم حتّى اضطررناهم إلى الجسر. فلمّا انتهى شبيبُ إلى الجسر، نزل و نزل معه نحوُ من مائة رجلٍ، فقاتلناهم إلى المساء أشدّ قتالٍ يكون لقومٍ قطُّ. فما هو إلاّ أن

---

١) الموزج: الخُفُّ، معرب موزه.
٢) خلا: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨:٩٧٩): لحق.

نزلوا أوقعوا لنا من الطَّعن والضَّرب شيئًا ما رأينا مثله قطُّ، ولاظنَنَّاهُ يكون. فلمّا رأى سفيان أنّه لايقدر عليهم ولم يأمَنْ ظفرَهم، دعا الرُّماةَ فقال:

ـ «أرشُقوهم بالنَّبل.»

وذلك عند المساءِ. وكان التقاؤهم نصف النَّهار، فرماهم أصحابُ النَّبل، وقد كان صفَّهم سفيان بن الأبرد على حِدَةٍ وعليهم أميرٌ. فلمّا رشقوهم شدُّوا عليهم. فلمّا شدُّوا على رُماتنا شدَدْنا عليهم فشغلناهم عنهم. فلمّا رأوا ذلك ركب شبيبٌ وأصحابه، ثمّ كرُّوا على أصحاب النَّبل كرَّةً صَرعوا [389] منهم أكثر من ثلاثين رجلاً. ثمّ عطف علينا يطاعننا حتّى اختلط الظَّلام. ثمّ انصرف عنّا.

فقال سليمان بن الأبرد لأصحابه:

ـ «أيُّها النَّاس، دعوهم، لاتتبعوهم حتّى نُصبِحهم.»

قال: فكففنا عنهم وليس شىءٌ أحبَّ إلينا من أن ينصرفوا عنّا.

قال فروة بن لقيط: فما هو إلاّ أن انتهينا إلى الجسر، فقال:

ـ «أعبروا معاشر المسلمين، فإذا أصبحوا باكرناهم إن شاءَالله.»

فعبرنا أمامَه وتخلّف فى آخِرنا، فأقبل [على][1] فرسٍ، وكانت بين يديه فرس أنثى ماذيانةٌ، فنزا فرسُه عليها وهو على الجسر، فاضطربت الماذيانةُ، وزلَّ حافر فرس شبيبٍ عن حرف[2] السفينة، فسقط فى الماءِ. فلمّا سقط قال:

ـ «لِيقضىَ اللهُ أمرًا كان مَفعُولاً.»[3]

واغتمس فى الماءِ. ثمّ ارتفع فقال:

ـ «ذلك تَقديرُ العَزيزِ العَليم.»[4]

فهذا حديث أكثر النَّاس. وقد قال غيره من أصحاب شبيب إنّه كان معه رجال كثيرٌ ممَّن أصاب من عشائرهم وساداتهم. فلمّا تخلّف فى أخريات النَّاس من أصحابه، قال بعضهم لبعضٍ:

ـ «هل لكم أن نقطع به الجسر فنُدرك ثأرَنا الساعةَ؟»

---

١) على: كذا فى مط والطبرى (٨:٩٧٤). وما فى الأصل: فى. فصحّحناه.

٢) حرف: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: جوف.

٣) س ٨ الأنفال: ٤٢،٤٤. ٤) س ٦ الأنعام: ٩٦، س ٣٦ يس: ٣٨، س ٤١ فصلت: ١٢.

فقطعوا الجسر، فمالت [390] به السُفُنُ، ففزع الفرس ونفر و وقع فی الماءِ فغرق. والحديث الأوّل أشهر.

فتحدّث جماعةٌ من أصحاب سفيان، قالوا: لمّا سمعنا صوتَ القوم: «غرقَ أمير المؤمنين،» عبرنا إلى عسكرهم، فإذا ليس فيه صافرٌ ولا آثرٌ. فنزلنا فيه فإذا أكثر عسكر خلق الله خيرًا. فطلبنا شبيبًا حتّى استخرجناهُ وعليه الدّرع فسمعت النّاس يزعمون أنّه شُقّ عن بطنه وأُخرج قلبُهُ. فكان مجتمعًا صُلبًا كأنّه صخرةٌ وانّه كان يُضرب به الأرضُ فيثِبُ قامةَ الإنسان.

فيُحكىٰ أنّ أمّ شبيبٍ كانت لا تصدّق أحدًا نعاهُ إليها. وكان قيل مرارًا: «قُتِلَ» فلا تقبل. فلمّا قيل: إنّه غرق، قَبلتْ وبَكتْ. فقيل لها فی ذلك، فقالت:

ـ «إنّی رأيتُ فی المنام حين ولدتُه أنّه خرج من قُبُلی شهابُ نار، فعلمتُ أنّه لا يطفئُه إلاّ الماء.»

ذكر ماكان من المهلّب والأزارقة

كان المهلّب مقيمًا بسابور يقاتل قطريًا فی الأزارقة بعد ما صرف الحجّاجُ عتّابَ بن ورقاءِ عن عسكره نحوًا من سنةٍ. ثمّ إنّه زاحفهم يوم البستان [391] فقاتلهم قتالاً شديدًا، وكانت كرمان فی أيدی الخوارج، وفارسُ فی يد المهلّب. وكان لا يأتيه من فارس مادّةٌ، فضاق الأمر عليه. فحازهم المهلّب حتّى خرجوا إلى كرمان، وتبعهم المهلّب حتّى نزل بجيرُفت و قاتلهم أكثر من سنةٍ قتالاً شديدًا حتى حازهم عن فارسٍ كلّها. فلمّا صارت فارس كلّها فی يد المهلّب، بعث الحجّاجُ عليها عُمّالَهُ وأخذها من المهلّب.

فبلغ ذلك عبدالملك فكتب إلى الحجّاج:

ـ «أمّا بعدُ، فدع بيد المهلّب خراجَ فارسَ وحيالها، فإنّه لابُدّ للجيش من قُوّةٍ، ولا لصاحب الجيش من معونةٍ، ودَعْ له كورةَ فَسًا و داربجرد، و كورةَ إصطخر.»

فتركها للمهلّب. فبعث المهلّب عليهما عُمّاله وكانَتا قُوّةً له، وأقام المهلّب على قتال الأزارقة.

ذكر اختلاف كلمة الخوارج إلى أن هلكوا بأجمعهم

فلم يزالوا يقتتلون إلى أن بعث قطریٌ عاملاً له على ناحية كرمان يقال له المُقَعطَر، فقتل رجلاً كان ذا بأسٍ من الخوارج، فوثبت الخوارج [392] إلى قطریٍ، فذكروا ذلك له وقالوا له:

ـ «أمكِنّا من المقعطَر نقتله بصاحبنا.» فقال لهم:

ـ «ما أرى أن أفعلَ. رجلٌ تأوّل فأخطأ فی التأويل. ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوی الفضل

والسابقة فيكم.» قالوا:

- «بلىٰ!» فقال لهم:

- «لا!»

فوقع الإختلاف بينهم. فولّوا عبدربَ الكبير[١] وخلعوا قطريًا، وبقى مع القطرىَ عصابة نحوُ من رُبعهم. وبلغ ذلك الحجّاجَ فكتب إلى المهلّب:

- «أمّا بعدُ، فقد بلغنى كتابُك تذكر فيه اختلاف الخوارج بينها. فإذا أتاك كتابى فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم، قبل أن يجتمعوا فتكون مؤونتهم عليك أشدّ. والسّلام.»

فكتب إليه:

- «أمّا بعدُ، فقد بلغنى كتاب الأمير وكلُّ ما فيه قد فهمتُ، ولستُ أرىٰ أن أقاتلهم مادام بعضُهم يقتل بعضًا، وينقص بعضُهم عددَ بعضٍ، فإن تمّوا على ذلك فهو الّذى نُريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلاّ وقد رقّق بعضهم بعضًا، فأنا هضهم على بقيّة ذلك وهم أوهى ماكانوا شوكةً إن شاءالله.»

فكفّ عنه الحجّاج وتركهم المهلّبُ، فقاتلوه قتالاً [393] شديدًا. ثمّ إنّه فلّهم وقتلهم، فلم ينجُ منهم إلاّ قليلٌ وسباهم، لأنّهم كانوا يسبون المسلمين.

ذكر سبب هلاكهم

كان سبب ذلك ماذكرنا من تشتّتهم بالإختلاف. ولمّا وهىٰ أمر قطرىٌ توجّهَ مريدًا طبرستان وبلغ أمرُه الحجّاجَ، فوجّهَ سفيان بن الأبرد مع جيشٍ عظيم من أهل الشّام، فأقبل سفيان حتّى أتى الرّىّ، ثمّ اتّبعهم. وكتب الحجّاج إلى إسحاق بن محمّد بن الأشعث، وهو بطبرستان على جيش لأهل الكوفة أن:

- «إسمع وأطعْ لسفيان.»

فأقبل إلى سفيان، وسار معه فى طلب قطرىٌ حتّى لحقوه فى شِعبٍ من شعاب طبرستان. فقاتلوه، فتفرّق عنه أصحابه، و وقع عن دابّته فى أسفل الشّعب، فتدهدأ حتّى خرّ إلى أسفله، وأتاه عِلجٌ من أهل البلد، فقال له قطرىٌ:

- «إسقنى ماءًا.»

١) كذا فى الأصل والطبرى (١٠٠٦:٨):عبدربّ الكبير، وما فى مط: عند ربّ الكبير!

وقد اشتدَّ عطشه. فقال العِلجُ له:

ـ «أعطنى شيئًا حتّى أسقيك.» فقال:

ـ «ويحك! ما معى والله إلاّ ماترىٰ من سلاحى، وأنا مُؤتيكهُ إذا أتيتنى بماء.» قال:

ـ «لا، بل أعطِنيه الآن» قال:

ـ «لا، ولكن ائتنى بماء قبلُ.»

فانطلق العلج حتّى أشرف [394] على قطرىٍّ، ثمّ حدّر عليه حَجرًا عظيمًا من فوقه، دَهدأه عليه، فأصاب إحدى وَرِكيه، فأوهنه، وصاح بالنّاس، فأقبلوا نحوَه، والعِلج حينئذٍ لايعرف قَطريًا، غير أنّه يظنّ[١] أنّه من أشرافهم لحسن هيئته وكمال سلاحه، فدُفع إليه نفرٌ من أهل الكوفة، فقتلوه، وادّعىٰ قتلَه جماعةٌ.

وفى هذه المدّة الّتى جرىٰ فيها ماجرىٰ من أمر الأزارقة
كان قتال أميّةَ بن عبدِالله بُكيرَ بن وساجٍ بخراسان
ذكر السّبب فى ذلك

حقدُ حقَدَهُ عتّابُ اللّقوة[٢]، وكان فى صحبة بُكير. وكنّا ذكرنا أمرَ بُكيرٍ مع أميّة، وأنّ أميّة لمّا ولى خراسان سامحَ بُكيرًا، ولم يقبل فيه سعايةً، ولا حاسبَ له عاملاً، ولكنّه ولاّهُ طخارستان بعد أن عرض عليه شُرطتَهُ فأباها. فتجهّز بُكيرٌ للخروج إليها، وأنفق نفقةً كثيرة. ثمّ وشا به بحير بن ورقاء وقال لأميّة:

ـ «إنّه إن عبر النّهرَ خلع الخليفةَ ودعا إلى نفسه.»

فراسله أميّة:

ـ «أقِمْ، لعلّى أغزو، فتكونَ معى.»

فغضب بكيرٌ وقال:

ـ «كأنّه يُريد أن يضارّنى[٣].» [395]

وكان عتّاب اللّقوة استدان وأنفق نفقةً كثيرةً ليخرج مع بُكير. فلمّا أقام بكيرٌ أخذهُ غرماؤهُ

---

١) يظنّ: كذا فى الأصل. وما فى مط: نظر: وهو تصحيف.

٢) عتّاب اللّقوة: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (١٠٢٢:٨): عتّاب اللّقوة الغُدانى.

٣) يضارّنى: كذا فى الأصل والطبرى ١٠٢٢:٨. وما فى مط: نصارنى!. ضارّه: خالفه.

فحُبس حتّى أدّى عنه بُكيرٌ.

ثمّ إنّ أميّة أجمع بعد مدّة على الغزو ليغزوَ بُخارىٰ، ثمّ يأتى موسى بنَ خازم بالتّرمذ. فتجهّز النّاس معه واستخلف ابنَه زيادًا على خراسان وسار معه بكيرٌ.

فقال له بحيرٌ:

- «إنّى لا آمَنُ إن أستخلفْ أحدًا، أن يتخلّفَ عنّى النّاس، فقُلْ لبكير، فليكن فى السّاقة[١] وليحشر النّاس.»

فأمره به، فكان على السّاقة، حتّى أتى النّهر.

وقال أميّةُ لبكير:

- «اقطعْ يا بكيرُ.»

فقال عتّاب اللّقوة:

- «أصلح الله الأمير، أعبرْ أنت، ثمّ يعبر النّاس بعدك.»

فعبر، ثمّ عبر النّاس. فقال أميّة لبُكير:

- «قد خفتُ ألاّ يضبط ابنى عملَه وهو غلامٌ حدَثٌ. فارجع إلى مَرو، فاكفنيها فقد ولّيتُكَها، فزيّن ابنى وقُمْ بأمره.»

فانتخب بُكيرٌ فرسانًا من فرسان خراسان قد كان عرفهم و وثق بهم، وعبر، ومضى أميّةُ إلى بخارىٰ. فقال عتّاب اللّقوة لبكير لمّا عبر وقد مضى أميّة:

- «إنّا قتلنا أنفسنا وعشائرنا حتّى ضبطنا خراسان [396] ثمّ طلبنا أميرًا من قريش يجمع أمرنا، فجاءَ يلعب بنا، يُحوّلنا من سجنٍ إلى سجن.» قال:

- «فما ترىٰ؟» قال:

- «أحرق هذه السُّفن، وامض إلى مرو، فاخلع أميّة وتُقيم بمرو وتاكُلها إلى يومٍ ما.»

فقال بُكيرٌ:

- «إنّى أخاف أن يهلك هؤلاءِ الفرسان الّذين معى.» فقال:

- «أيُخافُ عَدَمُ الرّجال؟ أنا آتيك من أهل مرو بما شئتَ، إن هلك هؤلاءِ الّذين معك.» قال:

- «يهلك المسلمون.» قال:

- «إنّما يكفيك مُنادٍ ينادى: «مَن أسلم رفعنا عنه الخراج، فيأتيك خمسون ألفًا من المسلمين

---

١) السّاقة: حصنٌ باليمن من حصون أبين (يا).

أسمعُ من هؤلاءِ وأطوعُ منهم.» قال:

- «فيهلك أميَّةُ ومَن معه.» قال:

- «ولِمَ يهلكُ والنّاس معه لهم عُدّةٌ وعَددٌ ونجدةٌ وسلاحٌ كاملٌ ليُقاتلوا عن أنفسهم حتّى يبلغوا الصين.»

فلم يزلْ عتّابُ بهذا وأشباهه حتّى [خَرقَ][1] بُكيرُ السُّفنَ ورجع إلى مرو، فأخذ ابنَ أميَّة فحبسه، ودعا النّاس إلى خلع أميَّة، فأجابوه. وبلغ أميَّةَ فصالحَ أهلَ بخارىٰ على شيءٍ يسير، وبادر بالرُّجوع، وأمر باتّخاذ السُّفن فاتُّخذت، وقال لمن معه من وُجوه تميم:

- «ألا تعجبون من بُكيرٍ؟ [397] إنّى قدمتُ خراسان، فحَذَّرتُه، ورُفع عليه وشُكِيَ منه، وذكروا أموالاً أصابها، فأعرضتُ عن ذلك كلّه ولم أُفتّشهُ عن شىءٍ، ولا أحدًا من عُمّاله، ثمّ عرضتُ عليه شُرطتى، فأبىٰ، فأعفيتُه، ثمّ ولّيتُهُ، فحذّرتُه، وأمرتُه بالمُقام، وماكان ذلك إلاّ نظرًا له، ثمّ رددتُه إلى مرو، و ولّيتُه الأمرَ، فكفرَ ذلك، وكافأنى بما ترونَ.»

فقال له قومٌ:

- «تعرفون أمره أيّها الأمير، لم يكن هذا من شانه. إنّما أشار عليه بإحراق السُّفن عتابُ اللّقوة.»

ثمّ إنّ أميّة لمّا تهيأتْ له السُّفنُ عقد وعبر، وأقبل إلى مرو، وترك موسى بن عبدالله بن خازم.

فقال شمّاس بن دِثار، وكان غزا مع أميّة:

- «أيّها الأمير، قدّمنى فإنّى أكفيكهُ إن شاءَ الله.»

فقدّمه أميّة فى ثمانمائة فارسٍ. وسار إليه بكير فقال:

- «أما كان فى تميم أحدٌ يحاربنى غيرك؟»

ولامهُ. فأرسل إليه شمّاس:

- «أنت ألأم وأسوأ صنيعًا منّى، لم تَفِ لأُميّة ولم تشكر صَنيعهُ بك.»

قال: فبيّته بكيرٌ، ففرّق جمعه وقال:

- «لا تقتلوا منهم أحدًا وخذوا سلاحَهم.»

فكانوا إذا أخذوا رجلاً سلبوه وخلّوا عنه. فتفرّقوا. وقدّم أميّة كُشماهَن ورجع إليه شمّاس بن دثار. ثمّ أقبل [398] أميّةَ فى النّاس، فقاتله بُكيرُ مدّةً، ثمّ انحاز بُكيرُ يومًا، فدخل الحائطَ، فنزل

---

[1] فى الأصل ومط: قطع. وما أثبتناه فمن الطبرى ١٠٢٤:٨.

السُوق. ونزل أميّة باشان[١]، وكانوا يلتقون فى ميدان يزيد. فانكشفوا يومًا، فحماهم بُكيرُ، ثمّ التقوا يومًا آخر فى الميدان، فضرب رجلٌ من تميم على رِجله، فجعل يسحبها وهُرَيمُ يحميه.
فقال الرّجلُ:
- «أللهمّ أيّدنا بالملائكة»
فقال له هُريمُ:
- «أيّها الرّجل، قاتلْ عن نفسك، فإنّ الملائكة فى شُغلٍ عنك.»
فتحامل، ثمّ أعاد قوله مرارًا:
- «أللّهمّ أيدْنا بالملائكة.» فقال له هُريمُ:
- «لتكفّنّ عنّى، أو لأدعنكَ والملائكةَ.»
فسكتَ، وحماه حتى ألحقه بالنّاس. فكانوا كذلك مدةً يتقاتلون، وكان أصحاب بُكير يَغدون متفضّلين، فى ثيابٍ مصبّغة، وملاحفَ وأُزُرٍ صُفرٍ وحُمْرٍ، فيجلسون على نواحى المدينة يتحدّثون ويُنادى مُنادٍ:
- «مَن رَمىٰ بسهمٍ، رمينا إليه برأس رجلٍ من أهله و ولده.»
فلا يرميهم أحدٌ. وأشفق بكيرٌ وخاف، إن طال الحصار، أن يخذله النّاس. فطلب الصُلح، وأحبَّ ذلك أصحاب أميّةَ ذلك، لمكان عيالاتهم بالمدينة، وكان يُحبُّ أميّة العافية، فصالحه على أن يقضى عنه أربعمائة ألف، ويصل إليه أصحابه ويوليه أىَّ كورة خراسان شاءَ، ولا يسمعَ [399] قول بَحيرٍ فيه، وإن راب منه ريبٌ فهو آمنٌ أربعين يومًا حتّى يخرج من مرو.
وقال: وأخذ الأمان لبُكير، وكتب إليه أميّةُ كتابًا، و دخل أميّة المدينة، و وَفىٰ لبُكيرٍ، وعاد إلى ماكان له من الإكرام وحسن الأدب. فأرسل إلى عتّاب اللّقوة فقال:
- «أنت صاحب المشورة؟» قال:
- «نعم، أصلح الله الأميرَ.» قال:
- «ولِمَ؟» قال:
- «خفّ ماكان فى يدى، وكثر دَينى، وأعديتُ على غُرمائى.» قال:
- «ويحك! فضربْتَ بين المسلمين، وأحرقتَ السُفُنَ والمسلمون فى بلاد العدوّ، وما خفتَ

١) باشان: كذا فى الأصل. وفى مط: بانسان وهو خطأ. وفى الطبرى (١٠٢٦:٨): باسان. (بالسين المهملة). باشان (بالشين المعجمة): من قرى هراة (يا).

اللهَ.» قال:

ـ «قد كان ذاك وأستغفرالله.» قال:

ـ «كم كان دَينك؟» قال:

ـ «عشرون ألفًا.» قال:

ـ «تكفُّ عنّى وعن المسلمين غِشّك وأقضى دَينك.» قال:

ـ «نعم، جعلنى الله فداءَك.»

فضحك أميّة وقال:

ـ «ظنّى بك غير ماتقول، وأرجو أن تفىَ.»

فأدّى عنه عشرين ألفًا.

وكان أميّة سهلاً ليّنًا سخيًا لم يُعطِ أحدٌ بخراسان ما أعطاه، وكان مع ذلك ثقيلاً على النّاس لزهو كان فيه شديدٍ. وكان يقول:

ـ «ما أكتفى بخراسان وسجستان لمطبخى!»

وعزل أميّة بَحيرًا عن شرطته، وكتب إلى عبدالملك بما كان من بُكير وصفحه عنه، وعزلِه بَحيرًا طلبَ مرضاته. [400]

عاقبة أمر بُكير

و أخذ أميّةُ النّاس بالخراج واشتدّ عليهم فيه. فجلس يومًا بُكيرُ فى المسجد وعنده ناسٌ من بنى تميم، فذكر شدّةَ أميّة على النّاس، فذمُّوهُ وقالوا:

ـ «سلّط علينا الدّهاقين فى الجباية.»

وكان بُكيرُ وضرار بن حصن وعبدالعزيز بن حارثة فى ناحيةٍ من المسجد. فنقل بحيرٌ ذلك إلى أميّة، فكذّبه، فادّعىٰ شهادة هؤلاءِ وشهادة مزاحم بن المحشر[1]. فدعا أميّةُ مزاحمًا، فسأله، فقال:

ـ «إنّما كان يمزح.»

فأعرض عنه. ثمّ إنّ بحيرًا أتاهُ، فقال:

ـ «أصلحك الله، إنّ بكيرًا دعانى إلى خلعك، وقال: لولا مكانُك لقتلتُ هذا القُرشىّ وأكلتُ

١) المحشر: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٠٢٩:٨): المُجشّر (بالجيم المعجمة وتشديد الشين).

خراسان.»

فقال أميّةُ:

ـ «ما أصدَق بهذا وقد فعلَ وفعلتُ ما فعلتُ.»

فأتاه بضرار بن حصين وعبدالعزيز بن حارثة، فشهدا أنّ بكيرًا قال لهما: لو أطعتمانى قتلتُ هذا القرشىَّ المخنَّث، ودعانا إلى الفتك بك.»

فقال أميّةُ:

ـ «أنتم أعلم وما شهدتم، وما أظنُّ هذا به، وإنّ تَرْكَهُ ـ وقد شهدتم بما شهدتم به ـ عجزٌ.»

فقال له:

ـ «إنّ عتّابًا يحمله على ذلك.»

فقال لحاجبه وصاحب حرسه، وكان يومئذٍ عطاء بن أبى السّائب:

ـ «إذا دخل بُكيرٌ وبَدَلٌ[1] وشمردلٌ ابنا أخيه فنهضتُ [401] فخذوهم.»

وجلس أميّة للنّاس وجاءَ بُكيرٌ وابنا أخيه. فلمّا جلسوا قام أميّة عن سريره، فدخل وخرج النّاس، فلمّا همّ بُكيرٌ بالخروج حبسوه وابنى أخيه. فدعا أميّة ببُكيرٍ وقال:

ـ «أنتَ القائل كذا وكذا؟» فقال:

ـ «تثبّتْ أصلحك الله ولا تسمع قولَ ابن المحلوقة.»

فحبسه وأخذ جاريتَه، وكانت تُسمَّى: العارمة[2]، فحبسها معه، وحبس الأحنفَ بن عبدالله العنبرى. فلمّا كان من الغد، أخرج بُكيرًا، فشهد بحيرٌ وضرارٌ وعبدُالعزيز أنّه دعاهم إلى خلعه والفتك به. فقال:

ـ «أصلحك الله، فإنّ هؤلاءِ أعدائى.»

فقال أميّةُ لبَحير:

ـ «أتقتله؟» قال:

ـ «نعم.»

فقام إليه، ونهض أميّة. فقال بُكيرٌ:

ـ «يا بَحير، إنّك تفرّق أمر بنى سعدٍ إن قتلتنى، فدَعْ هذا القرشىَّ يلى منّى مايُريد.»

١) بَدَل: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: بدا. وهو خطأ.

٢) العارمة: كذا فى الأصل والطبرى ٨:١٠٣٠. وما فى مط: العارضة.

فقال بَحيرٌ:

- «لا والله، يابنَ الاصبهانيّة! لاتصلح بنو سعدٍ ما دُمنا حيَّين.» فقال:

- «فشأنك يابن المحلوقة.»

وقتل أميّةَ ابنَ أخي بُكير، ووهب جاريتَه العارمةَ لبحير.

ثمّ وجّه أميّةُ رجلاً من خزاعة إلى موسى بن عبدالله بن خازم، فقتله عمرو بن خالد بن حصن الكلابى غيلةً، فتفرّق جيشه، واستأمن طائفةٌ منهم إلى موسى ورجع بعضهم إلى أميّة. [402]

وعزل عبدالملك بن مروان أميّةَ عن خراسان و ولاّها المهلّبَ من قبل الحجّاج، وسنذكر سببَه.

وأخذ الابناء تحضّ على قتل بَحير فى الشّعر وفى غير الشّعر، فتعاقد جماعةٌ منهم على الفتك ببحير. فخرج فتًى منهم يقال له الشّمردَل من البادية حتّى قدم خراسان. فنظر إلى بحير واقفًا، فشدّ عليه، فطعنه، فصرعه وظنّ أنّه قتله. فتنادى النّاسُ:

- «خارجيٌ.»

فراكضهم، فعثر فرسُه وندر عنه فقُتل. فكان بحير بعد ذلك يتحرّزُ من الغيلة، إلى أن خرج صعصعةُ بن حربٍ العوفىّ من البادية وقد باع غُنيماتٍ له واشترى حمارًا، ومضى إلى سجستان فجاور قرابةً لبحيرٍ هناك ولاطفه وقال:

- «أنا رجلٌ من بنى حنيفة من أهل اليمامة.»

فلم يزل يأتيهم ويجالسهم حتّى أنسوا به.

ذكر حيلة صعصعة على بحير حتّى اغتاله وقتله

ثمّ إنه قال لهم:

- «إنّ لى بخراسان ميراثًا قد غُلبتُ عليه، وبلغنى أنّ بحيرًا هو عظيم القدر بخراسان، فاكتبوا لى إليه كتابًا يُعيننى على طلب حقّى.»

فكتبوا إليه وخرج حتّى قدم مرو والمهلّبُ غازٍ[1]. فلقى قومًا من بنى عوف، فأفشى إليهم سرّه، فأقبل [403] إليه مولىً لبُكير، فقبّل رأسه، وكان صيقلاً، فقال له صعصعة:

- «إتّخذ لى خنجرًا.»

---

١) والعبارة فى مط: حتّى قدم و وجد المهلّب غازيًا.

ففعل، وأحماه وغمسه فى لبن أتانٍ مرارًا، ثمّ شخص من مرو وقطع النّهر حتّى أتى عسكر المهلّب. فلقى بحيرًا بالكتاب، وقال له:

- «إنّى رجلٌ من بنى حنيفة، كنتُ من أصحاب ابن أبى بكرة، وقد ذهب مالى بسجستان، ولى ميراثٌ بمرو، فقدمتُ لأبيعه وأرجع إلى اليمامة.»

فأمر له بنفقةٍ وأنزله معه. وقال له:

- «استعِنْ بى على ما أحببتَ.» قال:

- «أقيم عندك حتّى يقفل النّاسُ.»

فأقام شهرًا أو نحوًا من شهرٍ يحضر معه باب المهلّب ومجلسَهُ حتّى عُرف به. وكان بحيرٌ مع تحرّزه وخوفه الفتك قد أنس بصعصعة هذا لأجل الكتاب الّذى صحبه من عند أصحابه، وظنّه رجلاً من بكر بن وائلٍ، فأمنه[1]. فجاءَ يومًا وبحيرٌ جالسٌ فى مجلس المهلّب، عليه قميصٌ ورداءٌ فى نعلين. فقعد خلفَه، ثمّ دَنا منه فأكبَّ عليه كأنّه يُكلّمه. فوجأهُ بخنجره فى خاصرته فغيّبَهُ فى جوفه وخَضْخَضَهُ. فقال النّاس:

- «خارجىٌّ!»

وقال صعصعة:

- «يا لَثاراتِ بُكيرٍ! أنا ثائرُ بُكيرٍ.»

فأخذه صاحب شرطة المهلّب فى الطّريق، فأتى به المهلّب، فقال المهلّب:

- «بؤسًا لك. ما أدركت بثارك وقَتلتَ نفسك وما على بحيرٍ بأسٌ.» فقال:

- «والله قد طعنتُه [404] طعنةً لو قُسمت بين النّاس لماتوا. ولقد وجدتُ ريحَ بطنه فى يدى.»

فحبسه. و دخل عليه السجنَ قومٌ من الأبناء فقبّلوا راسَهُ. ومات بَحيرٌ من غدٍ، فقيل لصعصعة:

- «مات بحيرٌ.» فقال:

- «إصنعوا ما بدا لكم الآن. أليس قد حلّت نذور نساءِ بنى عوفٍ وأدركتُ ثارى؟ أما والله لقد أمكننى منه خاليًا غير مرّةٍ، فكرهتُ أن أقتله سرًّا.»

فقال المهلّب:

---

١) ما فى الأصل: امنه. وهو سهوٌ. فأثبتناه كما فى مط، والطبرى (٨: ١٠٥٠): أمنه.

- «ما رأيتُ رجلاً أسخى نفسًا بالموت صبرًا من هذا.»
وقَتَلَه.
وقال المهلَّب:
- «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. غزوةٌ أصيب فيها بحيرٌ فغضبت عَوف بن كعبٍ والأبناء.»
وقال:
- «علامَ قَتل صاحبَنا؟ وإنّما طلب بثاره.»
فنازعتهم مُقاعسُ والبطون حتّى خاف النّاسُ أن يعظم البأسُ، إلى أن تلطّف أهل الحِجى والرّأى وقالوا:
- «احملوا دمَ صعصعة واجعلوا دمَ بحير بَواءًا[١] ببكير.»
فوَدُوا صعصعة.

ذكر خروج عبدالرّحمان بن الأشعث على الحجّاج وسبب خلعه لعبدالملك واجتماع النّاس عليه

ولمّا فرغ الحجّاج من شبيبٍ، قدم عليه المهلّب وقد فرغ من الأزارقة. فأجلسه معه، ودَعا بأصحاب البلاءِ من أصحاب المهلّب، فحباهم و وَصَلهم. وكاتب عبدالملك بن مروان [405] بالفتح، وكتب عبدُالملك إلى الحجّاج بولاية خراسان وسجستان مع العراق، وعزل أميّةَ عن خراسان، فبعث الحجّاجُ المهلّب إلىٰ خراسان من قِبله، وبعث عُبيدالله بن أبى بكرة إلى سجستان، وذلك فى سنة ثمانى وسبعين، فمكث ابن بكرة بقيّةَ سنته، ثمّ غزا رُتْبيلَ، وقد كان مصالحًا، وكانت العربُ قبل ذلك تأخذ منه خراجًا، وربما امتنع. فبعث الحجّاج إلى عُبيدالله بن أبى بكرة أن ناجِزْهُ بمن معك من المسلمين من أهل الكوفة والبصرة، وكان على أهل الكوفة شُريح بن هانئ، وكان من أصحاب علىّ بن أبى طالبٍ عليه السّلام، وكان عُبيدالله على أهل البصرة، وهو أمير الجماعة.

فمضى عُبيدالله حتّى وغل فى بلاد رتبيل، فأصاب من الأموال والغنم ماشاءَ، وهدم قلاعًا وحصونًا، وغلب على أرضٍ من أرضيهم كثيرة. وأصحاب رتبيل من الترك. فلمّا أمعنوا فى

---

١) بواءًا: كذا فى الأصل والطبرى ٨:١٠٥١. وهى غير موجودة فى مط. البَواء: السّواء والكَفَاءُ. يُقال: دم فلان بواءٌ لدم فلان.

بلادهم ودنوا من مدينتهم وصاروا منها على ثمانية عشر فرسخًا أخذوا على المسلمين بالعقاب والشِّعاب، فسُقط فى أيدى المسلمين، وظنُّوا أن قد هلكوا.

فراسلَ ابن أبى بكرة رُتبيلَ على أن يصالحه على سبعمائة ألف. فلقيه [406] شريحٌ فقال له:

ـ «إنّك لا تصالح على شىء إلاّ حبسه السلطان عنكم واحتسبه فى أعطياتكم.» فقال النّاس:

ـ «لو مُنِعْنا العطاءَ ماحيينا، كان أهون علينا من هلاكنا.»

فقال له شريحٌ:

ـ «والله لقد بلغتُ سِنًّا وقد هلكتْ لِداتى[1]، وما يأتى علىّ ساعةٌ فأظنُّها تمضى حتّى أموتَ، ولئن فاتتنى الشّهادة وأنا أطلبها منذ زمانٍ ما اخالنى أدركها. يا أهل الإسلام، تعاونوا على عدوّكم.»

فقال له ابن أبى بكرة

« إنّك شيخٌ وقد خرفتَ.»

فقال له شريحٌ:

ـ «إنّما حَسبُك أن يُقال: بُستان أبى بكرة، وحمّام أبى بكرة. يا أهل الإسلام من أراد الشّهادةَ فإلىّ.»

فاتّبعه ناسٌ من المتطوّعين كثيرٌ وفرسان الباس وأهل الحفاظ، فقاتلوا حتّى أصيبوا. وقتل شريحٌ ونجا ابن بكرة فى من نجا من المسلمين.

وبلغ ذلك الحجّاجَ، فأخذه ماتقدّم وتأخّر وبلغ منه كلّ مبلغٍ، فكتب إلى عبدالملك:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّ جند أمير المؤمنين الّذين كانوا بسجستان أصيبوا، فلم ينجُ إلاّ القليل منهم، وقد اجترأ العدوُ على الإسلام، وأردتُ أن أوجّهَ إليهم جُندًا كثيفًا من أهل المصرين، وأحببتُ أن أستطلع رأىَ أميرالمؤمنين فى ذلك، فإن رأى ذلك أمضيتُهُ، وإن لم يُرِدْ ذلك [407] فأمير المؤمنين أعلى بجُنده عينًا، مع أنّى أتخوّف أنّه إن لم يأتِ رتبيل ومن معه جندٌ كثيفٌ عاجلاً، أن يستولوا على ذلك الفَرجِ كلّه.»

فكتب إليه عبدالملك:

ـ «أمّا بعد، فقد أتانى كتابك تذكر فيه مُصابَ المسلمين بسجستان، وأولئك قومٌ كُتبَ عليهم

---

١) كذا فى الأصل. وما فى مط: لذاتى. و فى الطبرى (١٠٣٧:٨): لَذاتى. لِداتى: أترابى. أى الّذين وُلدوا معى. ولكلا الضّبطين (لَذاتى، لِداتى) وجهٌ من الصّحة.

القتلُ، فبَرزُوا إلى مَضاجعهم[١] وعلى الله ثوابهم. وأمّا رأيى فى توجيه الجنود، فإنّى أرى إمضاءَ عزمك، فرأيك راشدًا موفَّقًا.»

فأخذ الحجّاج فى جهاز عشرين ألفًا من أهل البصرة وعشرين ألفًا من أهل الكوفة، وجدّ فى ذلك وشمّر وأعطى النّاس أعطياتهم، وأخذهم بالخيول الرّوابع والسّلاح الكامل، وأخذ فى عَرض الناس، فلا يرى رجلاً تذكر فيه شجاعةٌ إلاّ أحسنَ معونتَهُ. ولمّا استتمّ له الأمر بعثَ عليهم عبدالرّحمان بن محمّد بن الأشعث، فقدم ابن الأشعث سجستان بمن معه فى سنة ثمانين، وكان عبيدالله[٢] بن أبى بكرة قدماتَ قبل قدوم عبدالرّحمان.

ويُقال: إنّ الحجّاج أنفق على ذلك العسكر، سوى الأعطيات والأرزاق، ألفى ألف [٢،٠٠٠،٠٠٠] درهم. وكان يُدعى ذلك الجيشُ جيش الطّواويس، لحسن هيآتهم. [408]

فندب عبدالرّحمان النّاس وعسكر بهم فى ظاهر سجستان، ونادى مناديه:

- «أىّ رجلٍ تخلّف فقد أحلّ بنفسه العقوبة.»

فخرج النّاسُ كلّهم إلى معسكرهم و وُضعت[٣] لهم [الأسواق][٤] وأخذوا فى الجهاد والتّهيّؤ للحرب.

فبلغ ذلك رُتبيل، فكتب إلى عبدالرّحمان يعتذر إليه مُصابَ المسلمين ويُخبره أنّه كان لذلك كارهًا وأنّهم ألجأوه إلى قتالهم ويساله الصّفحَ ويَعرض عليه الخراج، فلم يُجبهُ ولم يقبل منه. وسار عبدالرّحمان فى الجنود حتّى دخل أوّل بلاده، وأخذ رُتبيل يضمّ إليه جُندَه ويدعُ له الأرضَ رُستاقًا رُستاقًا وحِصنًا حِصنًا. وكان ابن الأشعث كلّما حَوىٰ بلدًا بعث إليه عاملاً وبعث معه أعوانًا و وضع البُرُدَ بين كلّ بلدٍ وبلدٍ، وجعل الأرصادَ على العقاب والشّعاب، و وضع المسالحَ بكلّ مكانٍ مخوفٍ حتّى إذا حاز من أرضه شيئًا عظيمًا وملأ يَدهُ من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس النّاس عن الوغول فى أرض رُتبيل، وقال:

- «نكتفى بما أصبنا العامَ من بلادهم حتّى نجبيَها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها، ثمّ نتعاطى فى العام المقبل ماوراءَها، ثمّ لانزال ننتقصهم حتّى [409] نقاتلهم آخر ذاك على كنوزهم وذراريّهم ومُمتنعِ حصونهم، ثمّ لانُزايل بلاذهم حتّى يهلكهم الله.»

---

١) س ٣ آل عمران: ١٥٤ ٢) عبيدالله: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: عبدالله.

٣) و وُضعت: كذا فى مط والطبرى ٨:١٠٤٥. وما فى الأصل غامضٌ ويشبه أن يكون: ورصِعَت، وليس له معنى.

٤) الأسواق: سقطت من الأصل ومط، فاثبتناها كما فى الطبرى.

ثمّ كتب إلى الحجّاج بما فتح من بلاد العدوّ وبما صنع للمسلمين وبهذا الرّأى الّذى رءاه لهم.

ذكر راى خطإ للحجّاج أفسد به أولئك الجند و عبدالرّحمان حتى ألجأهم إلى مخالفته وخلعه

وكتب الحجّاج جواب كتابه:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّ كتابك أتانى وفهمته وهو كتاب امرئ يحبّ الهُدنةَ ويستريح إلى الموادعة. قد صانع عدوًّا ذليلاً أصابوا من المسلمين جُندًا كان بلاؤهم حسنًا وغَناؤهم عظيمًا، ولَعَمرُك يابن أمّ عبدالرّحمان، إنّك حيث تكفُّ عن ذلك العدوّ بجندى وحدّى، لَسَخىُّ النّفس عمّن أُصيب من المسلمين، وإنّى لم أعذر رأيك الّذى زعمتَ أنّك رأيتَه رأىَ مكيدةٍ، ولكنّى رأيتُك أنّه لم يحملك عليه إلاّ ضعفك والتياث[١] رأيك. فامضِ لما أمرتُك به من الوغول فى أرضهم والهدم لحصونهم، وقتل مقاتليهم، وسبى ذراريّهم.»

ثمّ أردفه كتابًا آخر قال فيه: [410]

ـ «أمّا بعد، فأمُرْ مَن قِبلَك من المسلمين فليحرثوا[٢] وليُقيموا، فإنّها دارُهم، حتّى يفتح الله عليهم.»

ثمّ أردفه كتابًا آخر فيه:

ـ «أمّا بعدُ، فامضِ لما أمرتُك من الوغول فى أرضهم، وإلاّ فإنّ إسحاق بن محمّد أمير النّاس، فخلّه وما ولّيتُه.» ـ يعنى أخاه.

فلمّا قرأ كتابه، قال:

ـ «أنا أحمل ثقَلَ إسحاق.»

ثمّ دعا النّاس وجمعهم فحمدالله وأثنى عليه وقال:

ـ «أيُّها النّاس، قد عرفتُم نصحى لكم ومحبّتى لصلاحكم ولكلّ مايعود عليكم نفعه. وقد كان من رأيى لكم فى مابينكم وبين عدوّكم، رأىٌ استشرتُ فيه ذوى أحلامكم وأولى التّجربة فى الحرب منكم، فرضوهُ لكم رأيًا، ورأوه لكم فى العاجل والآجل صلاحًا، فكتبتُ بذلك إلى أميركم الحجّاج وهذا جوابه، يُعجِّزنى ويُضعِّفنى ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدوّ، وهى

---

١) التياث: كذا فى الأصل والطبرى ١٠٥٣:٨. وما فى مط: السيات. وهو خطأ.
٢) فليحرثوا: فى الأصل غموض وفى مط اهمال كامل وما أثبتناه من الطبرى.

البلاد الّتى هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنّما أنا رجلٌ منكم، أمضى إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم.»
فثار إليه النّاس من كلّ جانب.
- «لا بل نأبىٰ على عدوّ الله ولا نستمع له ولا نُطيع.»
وتكلّم وجوه النّاس، فكان أوّلهم واثلة الكنانى، فقال بعد أن حمدالله وأثنى عليه:
- «إنّ الحجّاج مايرى لكم إلاّ مايقول القائل الأوّل إذ قال[411] لأخيه: ‹ إحمل عبدَك على الفَرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. › إنّ الحجّاج والله مايُبالى أن يُخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللُّهوب واللُّصوب، فإن ظفرتم وغنمتم، أكَل البلادَ وحاز الأموالَ، وكان ذلك زيادةً فى سلطانه، وإن ظفر عدوّكم كنتم الأعداءَ البُغضاءَ الّذين لايبالى عتبَهم[1]، ولايُبقى عليهم. إخلعوا عدوّ الله الحجّاج وبايعوا الأمير عبدالرّحمان، فإنّى أُشهدكم أنّى أوّل خالعٍ له.»
فنادى النّاس من كلّ جانب:
- «فَعلْنا فعلْنا وخلعْنا عدوّ الله.»
وقام عبدالمؤمن بن شبث بن ربعىّ ثانيًا، وكان على شرطته، فقال:
- «عبادَالله، إنّكم إن أطعتم الحجّاج جعل هذه البلادَ بلادَكم مابقيتم، وجمّركم تجمير فرعون، فإنّه بلغنى أنّه أوّل من جمّر البعوث، ولم تُعاينوا والله الأحبّة فى ما أرىٰ، أو يموت أكثركم. فبايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوّ الله فانفوهُ عن بلادكم.»
فوثب النّاس إلى عبدالرحمان ليبايعوه فقال:
- «أتبايعوننى على خلع الحجّاج عدوّ الله وعلى النُّصرة لى والجهاد معى حتى تنفيه من العراق؟»
فبايعه الناس على ذلك، ولم يذكر عبدالملك إذ ذاك بشىء. ثمّ استخلف على بُست عياضَ بن همدان، وعلى زَرَنج عبدَالله [412] بن عامر التّميمى. وبعث إلى رُتبيل، فصالحه على أنّ ابن الأشعث إن ظهر فلاخراج عليه أبدًا مابقى، وإن هزم فأراده، ألجأهُ عندهُ و آواهُ.

[خروج عبدالرّحمان نحو العراق]

وخرج عبدالرّحمان نحو العراق وبعث على مقدّمته عطيّة بن عمرو العنبرى، وبعث الحجّاج إليه الخيل، فجعل لايلقى خيلاً إلاّ هزمها، حتّى دخل فارس واجتمع النّاس بعضهم إلى بعض وقالوا:

---

١) عتبهم: كذا فى الأصل. فى مط: عيشهم. وهو خطأ. وما فى الطبرى (١٠٥٤:٨): عتبهم.

ـ «إنّا إذا خلعنا الحجّاج فقد خلعنا عبدَالملك.»

فاجتمعوا إلى عبدالرّحمان، وكان أوّلُ مَن خلع عبدَالملك تيحان بن أبجر قام فقال:

ـ «أيُّها النّاس إنّى قد خلعتُ أبا ذِبّان كخلعى قميصى.»

فخلعه النّاس و وثبوا إلى عبدالرّحمان فبايعوهُ وكانت بيعتُه:

ـ «تُبايعونى على كتاب الله، وسنّة نبيّه، وخلع أئمّة الضّلالة، وجهاد المحلّين.»

فإذا قالوا: نعم، بايع.

فلمّا بلغ الحجّاج ذلك، كتب إلى عبدالملك يُخبره، ويسأله أن يعجّل بعثة الجنود إليه. وجاء حتّى نزل البصرة، وكان المهلّب بخراسان حين بلغه شقاق عبدالرّحمان، فكتب إليه:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّك يابن محمّد قد وضعتَ رجلك فى غرز[1] طويلِ الغىّ. ألله الله، فى نفسك لاتهلكها، وفى دماءِ المسلمين فلاتسفكها، والجماعةِ فلاتفرّقْها، [413] والبيعة فلاتنكثها. فإن قلتَ: إنّى أخاف النّاس على نفسى، فالله أحقُّ أن تخافه عليها من النّاس. والسّلام.»

رأىٌ سديد رءاه المهلّب للحجّاج فعصاه

وكتب المهلّب إلى الحجّاج:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّ أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السّيل المنحدر من علٍ ليس يردُّه شىءٌ حتّى ينتهى إلى قراره. إنّ لأهل العراق شِرّةً فى أوّل مخرجهم وصبابةً إلى أبنائهم ونسائهم. فليس شىءٌ يردُّهم حتّى يسقطوا إلى أهليهم ويشمّوا أولادَهم، فافرج[2] لهم، ثمّ واقِعْهم فإنّ الله ناصرك عليهم إن شاءالله.»

فلمّا قرأ كتابه قال:

ـ «فعل اللهُ به وصنع. لا والله، مالى نظرٌ، ولكنّ ابنَ عمّه نَصحَ.»

وتجهّز الحجّاج للقاءِ عبدالرّحمان، وترك رأى المهلّب. وكان فرسان أهل الشّام يسقطون إلى الحجّاج مائةً مائةً وخمسين خمسين[3] و عشرةً عشرةً، وأقلَّ على البُرُدِ من قِبلِ عبدالملك وهو فى كلّ يوم يساقط إلى عبدالملك كتبَهُ و رسُلَهُ يُخبرانّ ابن الأشعثَ أىّ كورةٍ نزلَ، ومن أىّ كورةٍ رحلَ، [414] وأىُّ النّاس إليه أسرع. وكان بكرمان أربعة آلاف من فرسان أهل البصرة

---

١) الغرزُ: ركاب الرّحل من جلدٍ. ٢) فافرج لهم: كذا فى الأصل. وفى مط: وما فى الطبرى (١٠٥٩:٨): ثمّ واقِعْهم عندها. ٣) ما فى الأصل ومط خمسون خمسون فصحّحناه.

وأهل الكوفة فلمّا مرّ بهم عبدالرّحمان انجفلوا معه.

وسار الحجّاج بأهل الشّام حتّى نزل قريبًا من تُستَر، وقـدّم بين يديه مطهّـر بن حُيَيّ[١]. وكان لعبدالرّحمان مسلحةٌ عليها عبدالله بن أبان الحارثىّ فى ثلاثمائةِ فارس. فلمّا انتهى إليهم مطهّرُ أقدم عليه فهزمته مسلحةُ عبدِالرّحمان، وأتت الحجّاجَ الهـزيمةُ وهو يخـطب. صـعد إليه رجـلٌ فأخبرهُ بهزيمة النّاس، فقال:

ـ «أيّها النّاس، إرتحلوا إلى البصرة، إلى معسكرٍ ومَعقـلٍ وطعـامٍ ومادّةٍ، فـإنّ هذا المكـان الّذى نحن فيه لايحتمل الجند.»

ثمّ انصرف راجعًا وتبعه خيول أهل العراق. فكـلُّ مَن أدركوهُ قتلوهُ وكلُّ ما أصـابوا من ثَقَـلٍ حَوَوهُ. ومضى الحجّاج لايلوى على شىء حتّى نزل الزّاوية، وبعث إلى طعـام التجـار بالكلاّء[٢]، فأخذهُ وحمله إليه، وخلّى البصرة لأهل العراق، وكان عامله عليها الحكم[٣] بن أيّوب بن الحكم بن عقيل الثّقفى. وجاءَ أهل العراق حتّى دخلوا البصرة. وكان الحجّاج حين صُدم تلك الصّـدمة وأقبل راجعًا، دَعا بكتاب [415] المهلّب وقرأهُ وقال:

ـ «لله أبوه، أىُّ صاحب حربٍ هو! لقد أشار علينا بالرّأى وكلّنا لم نقبلْ.»

وكان مع الحجّاج يوم انهزم من المال مائةٌ وخمسون ألف ألف [١٥٠،٠٠٠،٠٠٠] ففـرّقها فى قُوّاده، وضمّنهم إيّاها. ولمّا بلغ أهلَ البصرة هزيمةُ الحجّـاج أراد عبدالله بن عامر بن مِسمع أن يقطع الجسر فرشاه الحكم بن أيّوب مائـة ألف درهم، فكفَّ عنه. ودخـل الحجّـاج البصـرة، فأرسل إلى ابن عامر، فانتزع المائة الألف منه.

ولمّا دخل البصرة عبدالرّحمان بن محمّد بن الأشعث بايعه أهلها، كلُّهم قُرّاؤها وكهولها، على خلع الحجّاج، وخلعَ عبدَالملك جميع أهلهـا من القُـرّاءِ والشّيوخ. وخندق الحجّـاج عليه وخندق عبدالرّحمان على البصرة، واقتتلوا فى المحرم سنةَ اثنتين وثمانين. فكانت خيل العراق تهزم ابدًا خيل الشّام حتّى إذا كان فى آخر المحرّم هزم أهلُ العـراق على عادتهـم أهلَ الشّـام فنكصـت ميمنتهم وميسرتهم، واضطربت رماحُهم، وتقوّضت صـفوفُهم. فلمّا رأى ذلك الحجّـاج جثا على ركبتيه وانتضىٰ نحوًا من شبرٍ من سيفه وقال:

---

١) حُيَىّ: كذا فى الأصل. وفى مط: حىّ. وما فى الطبرى (١٠٦١:٨): حرّ. وفى تعاليقه: حى، جى.

٢) الكلاّء: اسم محلّة مشهورة وسوق بالبصرة أيضًا سمّيت بذلك (معجم البلدان).

٣) الحكم (فى كلا الموضعين): كذا فى مط والطبرى. وما فى الأصل: الحلم (باللاّم).

ـ «لله درُّ مصعبٍ، ماكان أكرمه حين نُزل به!»

قال: [416] فعلمنا أنّه لايفرُّ.

قال أبوالزُّبير الهَمْدانيّ: فغمزتُ أبى بعينى ليأذنَ لى فأضربَ الحجّاج بسيفى. فغمزنى غمزةً شديدة، فسكتُ[١]، وحانت منّى التفاتةٌ، فإذا سفيان بن الأبرد قد حمل عليهم فهزَمَهم من قبل الميمنة، فقلتُ:

ـ «أبشرْ أيُّها الأمير، فإنَّ الله قد هزم العدوّ.» فقال لى:

ـ «قم فانظر.»

قال: فقمتُ فنظرتُ فقلت له:

ـ «قد هزمهم الله.» فقال:

ـ «قم يازياد فانظرْ.»

فقام فنظر فقال:

ـ «ألحقُّ ـ أصلحك الله ـ يقينًا، قد هُزموا.»

فخرَّ ساجدًا.

قال: فلمّا رجعتُ شتمنى أبى وقال:

ـ «أردتَ أن تُهلكنى وأهل بيتى.»

قال: فانهزم النّاس، وأقبل عبدالرّحمان إلى الكوفة، وتبعه أهل القُوّة من أصحاب الخيل من أهل البصرة.

ولمّا مضى عبدالرّحمان إلى الكوفة وثبت أهل البصرة إلى عبدالرّحمان بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، فبايعوهُ، فقاتل بهم خمسَ ليالٍ أشدَّ قتالٍ رآهُ النّاس. ثمّ انصرف فلحق بابن الأشعث، وقُتل الحَريش بن هلال وجماعةٌ من الأشراف والوجوه.

قال أبوالزُّبير: كنت قد أصابتنى جراحةٌ وخرج أهل الكوفة يستقبلون ابن الأشعث حين أقبل، فاستقبلوهُ عند قنطرة [417] زُبارا[٢]. فقال لى:

ـ «إن رأيتَ أن تعدل عن الطريق فلايرى النّاس جراحتك فإنّى لا أُحبُّ أن يستقبلهم

---

١) فسكتُ: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٠٦٤:٨): فسكتّ. وهو أنسب.

٢) زبارا: كذا فى الأصل. وفى مط: زمارا. قال ياقوت: زبارا موضع أظنّه من نواحى الكوفة، ذكر فى قتال القرامطة أيّام المقتدر.

الجرحى.»

ففعلتُ، ودخل النّاس، فلمّا دخل الكوفة مال إليه النّاس كلُّهم ودخلوا إليه فبايعوه، وسقط إليه أهل البصرة وتقوّضت إليه المسالح والثُغور، وجاءَهُ فى من جاءَهُ من أهل البصرة عبدالرّحمان بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطّلب. وكنّا ذكرنا أنّه قاتل الحجّاجَ بالبصرة بعد خروج ابن الأشعث. فبلغ ذلك عبدالملك بن مروان، فقال:

- «قاتل الله عُدَىَّ[١] الرّحمان، قد فرَّ وقاتل غلامٌ من غلمان قريش بعدهَ ثلاثًا.»

وأقبل الحجّاج من البصرة، فسار فى البرّ حتّى مرّ بالقادسيّة والعُذيب، وبعث إليه عبدالرّحمان بن الأشعث عبدالرّحمان بن العبّاس فى خيلٍ عظيمةٍ من خيل البصرة، فمنعوه من نزول القادسيّة. ثمّ سايَره حتّى ارتفعوا على وادى السّباع، ثمّ تسايرا حتّى نزل الحجّاج دير قُرّة، ونزل عبدالرّحمان دير الجماجم. ثمّ جاءَ ابن الأشعث فنزل دير الجماجم. فكان الحجّاج بعد ذلك يقول:

- «ما[٢]كان عبدالرّحمان يزجر الطّير، حيث رءانى نزلتُ دير قُرّة ونزل دير الجماجم.»

واجتمع القُرّاءُ من أهل [418] المصرين وأهل الثُغور والمسالح وجماعة أهل الكوفة والبصرة على حرب الحجّاج والّذى جمعهم على حربه بُغضهم له وإجماعُهم على عدوانه وظلمه، وهم إذ ذاك مائة ألفٍ مقاتلٍ ممّن يأخذ العطاءَ ومعهم مثلهم مواليهم. وجاءت الحجّاجَ أمدادُه من قبل عبدالملك. فكان الحجّاج مختندقًا فى عسكره والنّاس يخرجون فى كلّ يومٍ فيقتتلون، فلايزال أحدهما يُدنى خندقه نحو صاحبه، فإذا رءاهُ الآخر أدنى خندقه أيضًا من صاحبه واشتدّ القتال.

ذكر وقعة دير الجماجم

لمّا بلغ أهلَ الشّام و رؤوسَ قريشٍ قِبَلَ عبدالملك مخالفةُ أهل العراق الحجّاجَ اجتمعوا إليه، وقالوا[٣]:

- «إن كان إنّما يُرضى أهلَ العراق أن تنزعَ عنهم الحجّاجَ فإنّ نزع الحجّاج أهون من حرب أهل العراق فانزعْهُ عنهم تخلص[٤] لك طاعتهم وتحقن به دماءَنا ودماءَهم.»

---

١) عُدَىّ: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: عبدى.

٢) ماكان: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٠٧٢:٨): أما كان.

٣) فى الأصل: قال. وهو خطأ. وما فى مط والطبرى (١٠٧٣:٨): قالوا. كما أثبتناه.

٤) فى الأصل ومط: وتخلص (بزيادة الواو) فحذفناها كما فى الطبرى.

فبعث عبدالملك ابنَه عبدَالله بن عبدالملك وأخاهُ محمَّد بن مروان فى خيل، إلى أرض العراق، وأمرَهما أن يعرضا على أهلها نَزْعَ الحجّاج عنهم وأن يُجرى عليهم أعطياتهم [419] كما يُجرى على أهل الشام وأن يَنزلَ ابن محمَّد بن الأشعث أىَّ بلدٍ شاءَ من العراق يكون عليه واليًا ماكان حيًّا وكان عبدالملك واليًا. فإن هم قبلوا ذلك فاعزل عنهم الحجّاج ومحمَّد بن مروان أمير العراق، وإن أبَوا أن يقبلوا فالحجّاج أمير جماعة أهل الشام و ولىُّ القتال، ومحمَّدُ بن مروان وعبدالله بن عبدالملك فى طاعته.

فلم يأت الحجّاج قطُّ أمرٌ كان أشدَّ عليه ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر مخافة أن يقبلوا فيُعزلَ عنهم. فكتب إلى عبدالملك:

ـ «يا أمير المؤمنين، والله لئن أعطيتَ أهل العراق نَزْعى عنهم لايلبثون إلاّ قليلاً حتّى يخالفوك ويسيروا إليك، ولايزيدهم ذلك إلاّ جُرأةً عليك. ألم ترَ وتسمعْ بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفّان؟ فلمّا سألهم: ما الّذى تريدون؟ قالوا: نَزْعَ سعيد بن العاص. فلمّا نزعَه، لم تتمَّ لهم السنة حتّى ساروا إليه، فقتلوهُ. إنّ الحديدَ بالحديد يُفرعُ. وخار الله لك فى ما ارتأيت والسلام.»

فأبى عبدالملك إلاّ عرض هذه الخصال على أهل العراق طلبًا للعافية من الحرب. فلمّا اجتمعا مع الحجّاج خرج عبدالله بن عبدالملك [420] فنادى أهلَ العراق وقال:

ـ «أنا عبدالله بن أمير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا.»

وذكر الخصال الّتى ذكرناها.

وقال محمد بن مروان:

ـ «أنا رسول أمير المؤمنين إليكم وهو يعرض عليكم كذا وكذا.»

وذكر هذه الخصال. فقالوا:

ـ «نرجع العشيّة وننظر.»

فرجعوا واجتمعوا عند ابن الأشعث، فلم يبقَ قائدٌ ولا رأسٌ ولا فارسٌ إلاّ أتاهُ.

ذكر رأى رءاة عبدالرّحمان عند هذه الحال

لمّا اجتمع هؤلاءِ كلّهم عند ابن الأشعث حمد اللهَ وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعدُ، أعطيتم اليومَ أمرًا انتهازُكم إيّاهُ اليوم فرصةٌ، ولا آمَن أن يكون على ذى[1] الرّأى

١) ذى الرّأى: كذا فى الأصل ومط والطبرى. وفى بعض الأصول: ذا الرّأى.

غدًا حسرةً. وإنّكم اليوم على النّصف، وإن كانوا اعتدُوا عليكم بالزّاوية فأنتم تعتدُون عليهـم بيوم تُستَر. فاقبلوا ماعُرض عليكم وأنتم أعزّاء أقوياء، والقومُ لكم هائبون وأنتم لهم منتقصـون. فـلا والله لازلتم عليهم جُرَآءَ، وعندهم أعزّاءُ أبدًا، إن قبلتم.»

فوثب إليه النّاس من كلّ جانبٍ، فقالوا:

- «إنّ اللهَ قد أهلكهم، فأصبحوا فى الأَزْل والضّنك والمجاعة والقِلّة والذّلّة، ونحن ذوو العدد [421] الكثير والسِّعر الرّفيع[٢] والمادّة القريبة. لا والله، لانقبل.»

فأعادوا خلعَه ثانيًا. وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم أجمعَ من خلعهم إيّاه بفارس.

فرجع محمّد بن مروان وعبدالله بن عبدالملك إلى الحجّاج، فقالا:

- «شأنك بعسكرك وجندك، فقد أُمرنا أن نسمع لك ونُطيع.»

فقال الحجّاج:

- «قد قلتُ لكما أنّه لايُراد بهذا الخلاف غيركما.»

ثمّ قال:

- «إنّما أقاتل لكما وسلطانى سلطانكما.»

فكانوا إذا لقياهُ سلّما عليه بالإمرة، وكان أيضًا يسلّم عليهما بالإمرة، وخلّياهُ والحربَ، فتولاّها و برزوا للقتال.

فجعـل الحجّـاج على ميمنته عبدالرّحمان بن سـليم الكلبى، وعلى ميســرته عُمارةَ بن تميم اللّخمى، وعلى خيله ســفيانَ بن الأبرد الكلبى، وعلى رجــاله عبدالرّحمان بن حبيب الحكمى. وجعل ابنُ الأشعث على ميمنته الحجّـاج بن جــارية الخثعمى، وعلى ميســرته الأبرد بن قُــرّة التّميمى، وعلى خيله عبدالرّحمان بن العبّاس بن عامر الشّـعبى، وســعيد بن جُبير، وأبو البَخترى الطّائىّ، وعبدالرّحمان بن أبى ليلى. فكانوا يتزاحفون كلّ يوم ويقتتلون. [422] فأمّا أهل الكوفة والبصرة فتاتيهم موادُهم من السّواد فهم فى ماشاءُوا من خصب. وأمّا أهل الشّـام ففـى ضـيق شديدٍ قد غلب عليهم الأسعار وقلّ عندهم الطّعامُ وفقدوا اللّحم وكانوا كأنّهم فى حصارهم[١] وهم على ذلك يغادون أهل العراق ويُراوحون فيقتتلون أشدّ القتال. وكان الحجّـاج يُدنى خندقـه مرّةً

٢) السّعر الرفيع: كذا فى الأصل. وما فى الطبرى (١٠٧٥:٨): السّعر الرفيغ (بالغين المعجمة). وما فـى مط: السّعر الرفيع! والرفيغ: الهنىء. الرّغيد. الواسع. وما فى الأصل انسب. وأمّا ابن الأثير ففيه: السّعر الرخيص (٤٧١:٤).

١) فى حصارهم: كذا فى الأصل والطبرى ١٠٧٦:٨. وما فى مط: فى عصارهم!

وهؤلاءِ أخرىٰ.

فعبّىٰ ذات يومٍ الحجّاج أصحابَه وزحف فيها. وخرج ابن الأشعث فى سبعة صفوفٍ بعضها فى أثر بعض وعبّى الحجّاج لكتيبة القُرّاءِ الّتى فيها جبلة بن زَحر ثلاث كتائب وعليهم الجرّاح بن عبدالله الحكمى، فأقبلوا نحوهم.

فتحدّث أبويزيد السّكسكى قال: أنا والله فى الخيل الّتى عبّئت لجبلة بن زحرٍ كلُّ كتيبة تحمل حملةً، فوالله ما استفضَضْناهم ولا شيئًا منهم[1].

وقالَ أبو الزبير الهَمْدانى: كنتُ فى خيلِ جبلة بن زحر. فلمّا حمل علينا أهل الشّام مرّةً بعد مرّةٍ نادانا عبدالرّحمان بن أبى ليلى الفقيه، فقال:

ـ «يا معشر القُرّاءِ، إنّ الفرار ليس بأحدٍ من النّاس أقبحَ منه بكم. إنّى سمعتُ عليًا ـ رفع الله درجته فى الصّالحين والشّهداءِ [423] والصّدّيقين ـ يقول يومَ لقينا أهل الشّام: أيُّها المؤمنون، إنّه مَن رأىٰ عُدوانًا يُعمل به ومنكرًا يُدعىٰ إليه فأنكرهُ بقلبه فقد سَلِمَ وبَرِئ، ومَن أنكرهُ بلسانه فقد أُجر وهو أفضل من صاحبه، ومَن أنكره بالسّيف لتكون كلمةُ الله العليا[2] وكلمةُ الظّالمين السّفلىٰ فذلك الّذى أصاب سبيل الهُدىٰ ونُوِّر قلبُه باليقين. فقاتلوا المحلّين المبتدعين الّذين قد جهلوا الحقّ فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه.»

وتكلّم أبو البَختَرى بنحوٍ من هذا الكلام وحضّ على قتالهم، وكذلك الشعبىُّ، وسعيدُ بن جُبير.

وقال جبلة:

ـ «إذا حملتم عليهم فاحملوا حملةً صادقةً لاتردّوا فيها وجوهكم حتّى تخالطوا صفَّهم.»

قال: فحملنا حملة بجدٍّ منّا فى قتالهم وقوّةٍ منّا عليهم. فضربنا الكتائب الثّلاث حتّى تكسّرت بعضها فى بعضٍ وتفرّقت. ثمّ مضينا حتّى واقَعنا[3] صفَّهم فضاربناهم حتّى أزلناهم عنه. ثمّ انصرفنا، فمررنا بجبلةَ صريعًا لاندرى كيف قُتل.

قال: فهدّنا ذلك وجئنا فوقفنا مَوقفنا الّذى كنّا به وإنّ قُرّاءَنا لمتوافرون ونحن نتناعى جبلة بن زحر، كأنّما فقدَ [424] كلّ واحدٍ منّا أباهُ أو أخاهُ، بل هو فى ذلك الموطن كان أشدَّ علينا فقدًا.

---

١) منهم: كذا فى الأصل. وما فى مط: منها. والعبارة فى الطبرى (١٠٧٧): وما استنقصنا منهم شيئًا.

٢) اقتباس من: س ٩ التوبة: ٤٠.

٣) واقَعنا: كذا فى الأصل بشىءٍ من الغموض. وما فى مط: ايضًا: واقعنا.

فقال لنا أبوالبخترىّ:

- «لايستبينَنَّ عليكم قتلُ جبلة بن زَحر، فإنّما كان كرجلٍ منكم أتَتْهُ منيّتُه ليومها، وكلّكم ذائقٌ ماذاقَ، ومدعُوٌ فمجيبٌ.»

قال: فنظرتُ فى وجوه القُرّاء، فإذا الكآبةُ على وجوههم بيّنةٌ، وإذا ألسنتُهم منقطعة، وإذا الفشلُ قد ظهر فيهم. فسرَّ أهلَ الشّام ما رأوا فينا، ثمّ نادَونا:

- «يا أعداءَ [الله،][1] قد هلكتم والله، وقتل الله طاغيتكم.»

وقدم علينا، ونحن على تلك الحال، بسطامُ بنُ مَصقلة بن هبيرة الشيبانى، فشجّع النّاس مقدمُه وقالوا:

- «هذا يقوم مقام جَبَلة.»

فسمع هذا الكلامَ من بعضهم أبوالبخترى، فقال:

- «قُبحتم[2]، إن كان كلّما قُتل رجلٌ واحدٌ ظننتم أن قد أحيط بكم، فإن قُتل الآن مَصقلةُ ألقيتم بأيديكم[3] وقلتم: لم يبق أحدٌ نقاتل معه. ما أخلقكم أن يُخلف رجاؤنا فيكم.»

وكان قدمَ بسطام من الرّىّ.

قال أبوالمخارق: قاتلناهم مائة يومٍ أعدُّها عدًّا لايزيد يومًا ولاينقص يومًا و ماكنّا قطُّ [425] أجرأ عليهم ولاهم أهون علينا منهم فى ذلك اليوم. وذلك أنّا قاتلناهم عامّةَ يومنا أحسن قتالٍ قاتلناهم قطُّ ونحن آمنون من الهزيمة عالون القومَ، إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبى فى الخيل من ميمنة أصحابه حتّى دنا من الأبرد بن قرّة التّميمى وعلى ميسرة عبدالرّحمان بن محمّد. فوالله ماقاتله كبير قتالٍ حتّى انهزم. فأنكرها النّاسُ منه، وكان شجاعًا، ولم يكن الفرار له بعادةٍ. فطن[4] النّاس أنّه كان أومِنَ وصُولحَ على أن ينهزم بالنّاس. فلمّا فعلوا تقوّضت الصّفوف من نَحوه، وركب النّاسُ رؤوسَهم وأخذوا فى كلّ وجهٍ.

فصعد عبدالرّحمان بن محمّد المنبر، وأخذ يُنادى النّاس:

---

١) مابين [ ] تكملةٌ من مط.

٢) قُبحتم: الضبط من الأصل كما فى الطبرى ١٠٨٨:٨. قُبحتُم [عن الخير]: أى نُحّيتُم عنه.

٣) ألقيتم بأيديكم. كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى ألقيتم بايديكم إلى التّهلكة. كما جاءَ فى التنزيل: ولاتُلقوا بأيديكم إلى التهلكة (س ٢ البقرة: ١٩٥).

٤) فطن النّاس: كذا فى الأصل ومط. ولم نجدها فى الطبرى ولا ابن الأثير. ويبدو أنّها تصحيف من «فظن» مع أنّ «فطن» أيضًا وجهًا أقوى، لولا وحدة الفاء، لأنّ السّياق يتطلّب أن تتكرّر الفاء: ففطن.

- «إلىّ إلىّ، أنا محمّد.»

فأتاهُ عبدالله بن رزام الحارثى، فوقف تحت منبره فى خيلٍ له، وجاءهُ عبدالله بن ذُؤاب السُلَمى فى خيلٍ له، فوقف قريبًا منه وثبت حتّى دَنا منه أهل الشّام، فأخذت نبالهم تحوزه. فقال:

- «يابنَ رزام، إحمل على هذه الرَّجّالة.»

فحمل عليهم حتّى أمعنوا. ثمّ جاءَت خيلُ أُخرىٰ ورجّالةٌ، فقال:

- «احمل عليهم يابنَ ذؤاب.»

فحمل عليهم [426] حتّى أمعنوا وثبت لايبرح. ودخل أهل الشّام العسكر، فصعد إليه عبدالله بن يزيد بن المغفّل الأزدى، فقال:

- «إنزل، فإنّى أخاف عليك إن لم تنزل أن تؤسَرَ، ولعلّك إن انصرفتَ اليوم أن تجمع لهم جميعًا فى غدٍ يهلكهم الله.»

وكانت بنتُ عبدالله بن يزيد تحت عبدالرّحمان بن محمد. فنزل وخلّى أهلُ العراق العسكر وانهزموا لايلوون. ومضى عبدالرّحمان مع أناسٍ من أهل بيته.

فقال الحجّاج:

- «أتركوهم، فليبتدروا[١] ولاتتبعوهم.»

ونادى المنادى:

- «مَن رجع فهو آمنٌ.»

ورجع محمّد بن مروان وعبدالله بن عبدالملك إلى الشّام بعد الوقعه، وخلّيا العراقَ والحجّاجَ.

[دخول الحجّاج الكوفة وجلوسه للنّاس]

وجاء الحجّاجُ حتّى دخل الكوفة وجلس للنّاس. فكان لايبايعه أحدٌ من أهل العراق إلاّ قال:

- «أ تشهد أنّك قد كفرتَ؟»

فإذا قال: «نعم،» بايعه، و إلاّ قتله.

فجاءَ رجلٌ من خثعم، وكان معتزلاً للنّاس جميعًا من وراءِ الفرات. فسأله عن حاله فقال:

١) فليبتدروا: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٠٩٦:٨): فليتبدّدوا.

- «مازلتُ معتزلاً وراءَ هذه النُطفة منتظرًا أمرَ النّاس حتّى ظهرتَ، فأتيتُ لأُبايعك مع النّاس.» فقال:

- «أمتربِّص؟ [427] أتشهد أنّك كافر؟»

- «بئس الرّجلُ أنا إذًا! إن كنتُ عبدتُ اللهَ ثمانين سنةً ثمّ أشهد على نفسى بالكفر.» قال:

- «إذًا أقتلك.» قال:

- «فإن قتلتنى، والله مابقى من عمرى إلاّ كظمئ حمار[1]، وإنّى لأنتظر الموتَ صباحَ مَساء.» قال:

- «إضربوا عنقه.»

فلمّا ضربوا عنقَه لم يبق أحدٌ حولَه من الحرس إلاّ رحمه ورثىٰ له من القتل.

[قتلُه كُميلَ بن زياد النّخعى ومادار بينهما من كلام]

ودعا بكميل بن زياد النّخعى، وكان ركينًا فى الحرب حليمًا صاحبَ نجدةٍ وحفاظ من أصحاب علىّ بن أبى طالب عليه السّلام، فقال:

- «أنتَ المقتصُ من أميرالمؤمنين عثمان؟ قد كنتُ أُحبُ أن أجد عليك سبيلاً.» فقال:

- «والله ما أدرى على أيّنا أنتَ أشدُ غضبًا: عليه حين أقادَ من نفسه، أم علىَّ حين عفوتُ عنه؟»

فراجعه الحجّاج. فقال:

- «أيّها الرّجل! لاتصرف علىَّ أنيابَك، ولاتتهدّم علىَّ تهدّم الكثيب، ولاتكشر كشرانَ الذّئب. والله مابقى من عُمرى إلاّ مثل ظِمئ الحمار، فإنّه يشرب غدوة، ويموت عشيّةً ويشرب عشيّةً ويموت غدوةً. إقضِ ما أنتَ قاضٍ، فإنّ الموعدَ الله، وغدًا الحسابُ.»

فقال الحجّاج:

- «فإنّ [428] الحجّة عليك.» قال:

- «إن كان القضاءُ إليك.» قال:

- «أُقتلوهُ!»

---

١) قال فى متن اللغة: ظِمءُ الحياة: مابين سقوط الولد إلى حين موته. ويكنى بظمءِ الحمار عن قصر المدّة لأنه اقل الحيوان صبرًا على العطش.

فقُتل رحمهُ اللهُ.

وأُتى برجلٍ آخر من بعده طلبه الحجّاجُ. فقال الحجّاجُ:
- «إنّى أرى وجهَ رجلٍ ماأظنّه يشهد على نفسه بالكفر.» قال:
- «أخادعى أنتَ عن نفسى؟ بلىٰ أنّا أكفَرُ أهل الأرض، وأكفَرُ من فرعون ذى الأوتاد.»
فضحك الحجّاجُ وخلّىٰ سبيلَه.
وتُوُفّىَ فى هذه السّنة المهلّب مُنصرفَه من كِس[1] يُريد مرو وأصابته الشّوصةُ فدعا حبيبًا ومن حضر من وَلده فوصّاهم.

وصيّةُ المهلّب إلى ولده حين حضرتهُ الوفاة

قال:
- «عليكم بتقوى الله، وصِلة الرّحِم. إجمعوا أمرَكم ولاتختلفوا. تباروا لتجتمع أمورُكم. إنّ بنى الأمّ يختلفون وكيف ببنى العلاّت[2]. وعليكم بالطّاعة والجماعة، ولتَكنْ أفعالُكم أفضلَ من أقوالكم، فإنّى أحبُّ الرّجلَ أن يكون لعمله فضلٌ على لسانه. واتّقوا الجواب[3] وزلّةَ اللّسان، فإنّ الرّجُلَ تزلُّ قَدَمُهُ فينتعش من زلّته، ويزلُّ لسانُه فيهلك. وآثِروا الجودَ على البُخل [429] وأحبُّوا العربَ، واصطنعوا العُرف. فإنّ الرّجل تعِدُهُ العِدَةَ فيموتُ دونك، فكيف الصنيعة عنده! عليكم فى الحرب بالأناة والمكيدة، فإنّها أنفع من الشّجاعة، وإذا كان القضاء، ونزل القضاء. فإنْ أخذ رجلٌ بالحزم وظهر على العدوّ، قيل: أتاهُ الأمرُ من وجهه ثمّ ظفر. وإن لم يظفرْ بعد الأناة، قيل: مافرّط ولاضيّع، ولكنّ القضاءَ غالبٌ. وعليكم بقراءَة القرآن وتعلُّم السُّنن وآداب الصّالحين.

١) فى الأصل وحواشى الطبرى (٨: ١٠٧٨-١٠٨٠): كس. من دون ضبط. وفى ياقوت بكسر الكاف وتشديد الشّين. وفى مط: كسر. وهو تصحيف. وفى الطبرى وابن الأثير (٤: ٤٧٣): كَش. اسم لمدينة بماوراءالنّهر يقال لها اليوم: «شهر سبز» أى: المدينة الخضراء (فم، مد). قال البلاذرى: كسّ هى الصُّغد، تُكسر فيه الكاف وتُفتح، و ربّما صحّفه بعضهم فقاله: كشّ. قال ابن ماكولا: لمّا عبرتُ نهر جيحون وحضرتُ بخارىٰ وسمرقند وجدتُ جميعهم يقولون: كسّ. قال المقدسى: «كِسّ تعريب كش» (نقلاً عن معجم البلدان بالتّلخيص).
٢) العَلاّت: (بفتح العين المهملة وهى مكسورة فى الطبرى) جمعُ مفرده: العَلّة: وهى الضَرّة. يُقال: بنوعَلاّت: أى بنو أمّهاتٍ شتّىٰ من رجلٍ واحدٍ. وعكسها: أولاد الأخياف. ويقال: هم إخوةُ أخيافٍ، أى: بنو اخياف. أى أمُّهم واحدة والآباء شتّى.
٣) واتّقوا الجواب: كذا فى الأصل ومط والطبرى ٨: ١٠٨٣.

وإيّاكم والخِفّةَ وكثرةَ الكلام فى مجالسكم. إعرفوا حقّ مَن يغشاكم، فكفى بِغُدُوّ الرّجل ورَواحه إليكم تذكرةً له. وقد استخلفتُ عليكم يزيدَ.»

فقال المفضّلُ:

- «لو لم تقدّمْ يزيد لَقدّمناهُ.»

ومات المهلّبُ وصلّى عليه حبيبُ، ثمّ سار بالجند إلى مَرو. فكتب يزيد إلى عبدالملك بوفاة أبيه واستخلافه إيّاهُ، فأقرّهُ الحجّاج. وذلك فى سنة اثنتين وثمانين.

ذكر وقعة الحجّاج وابن الأشعث بمَسكِن

لمّا انهزم ابن الأشعث من دير الجماجم، وتفرّق أصحابُه حصل خلقٌ منهم بالمدائن [430] مع محمّد بن أبى وقّاص وجماعة مع عُبيدالله بن عبدالرّحمان بن أبى سمرة بن جُندَب. وخرج الحجّاج فى آثارهم، فبدأ بالمدائن. فلمّا بلغ محمّدَ بن سعدٍ عبورُه خرج مع أصحابه حتّى لحق بابن الأشعث. وخرج إليه عُبيدالله بن عبدالرّحمان أيضًا، واجتمع إليه النّاس من كلّ أوبٍ[١] حتّى عسكروا معه على دُجيل بمسكن، وأتاهُ فَلُّ الكوفة، وتلاوم النّاسُ على الفرار، وبايع أكثرهم بسطام بن مصلقة على الموت، وخندق عبدالرّحمان على أصحابه، وبثق[٢] الماءَ من جانبٍ، فوجّه القتال من وجهٍ واحد.

وقدم عليه خالد بن حرير بن عبدالله القسرى من خراسان فى ناسٍ كانوا معه من بعث الكوفة، فاقتتلوا خمس عشرة ليلةً من شعبان أشدَّ قتالٍ حتّى قُتل زياد بن غُنَيم من أصحاب الحجّاج وكان على مسالحه، فهدّه ذلك وهدّ أصحابه. وعبّى أصحابه وحضّهم على القتال، وباكرهم بقتالٍ لم يُرَ مثلُه قطُّ. وجاءَهُ عبدالملك بن المهلّب مجفّفًا[٣] وقد كُشفت خيلُ سفيان بن الأبرد.

فقال له الحجّاجُ:

---

١) أوب: ما فى الأصل: لوب (باللام) والمثبت من مط. الأوب: القصد والعادة والطريق. يقال: «جاؤوا من كلّ أوب» أى: من كلّ جهة.

٢) بثق: كذا فى الأصل والطبرى (١٠٩٩:٨) وما فى مط: نتق. بثق النّهرَ: كسر سدّه ليفيض منه الماء.

٢) مجفّفًا: كذا فى الأصل. وما فى مط مهمل من دون نقط. وفى الطبرى: مخفّفًا (بالحاء المهملة). جفّفه: ألبسه التّجفاف: آلةٌ للحرب يُتّقى بها كالدّرع، للفرس والإنسان. حفّه القوم (بالحاء المهملة): أحدقوا به.

ـ «ضُمَّ إليك يا عبدالملك هذا النَّشَرَ[١] لعلّى أحمل عليهم.»

ففعل، وحمل النَّاسُ [431] من كلِّ جانبٍ، فانهزم أهل العراق أيضًا وقُتل أبوالبخترى الطَّائىّ و عبدالرَّحمان بن أبى ليلى، وكانا قالا قبل أن يُقتلا:

ـ «إنَّ الفرار كلَّ ساعةٍ لَقبيحٌ بنا.»

فصَبَرا وأُصيبا.

ومشى بسطام بن مصقلة فى أربعة آلافٍ ممَّن بايعوهُ على الموت، فهزَم أهل الشَّام مرارًا وكشفهم حالاً بعد حالٍ، ولم يكن الحجَّاج يعرف إليهم طريقًا إلاّ الطريق الّذى يلتقون فيه. فأتى بشيخٍ كان راعيًا، فدلّه على طريق من وراءِ أجمةٍ فى الكرخ طوله ستَّة فراسخ فى ضحضاحٍ من الماءِ. فبات الحجَّاج تلك اللّيلة وانتخب من جَلَدِ أهل الشَّام أربعة آلاف، وقال لقائدهم:

ـ «لِيكُنْ هذا العلجُ أمامَك وهذه خمسة آلاف درهم. فان أقامك على عسكرهم فادفع إليه المالَ، وإن كذَبَنا فاضرب عنقَه. فإن رأيتهم فاحملْ عليهم فى مَن معكَ ولْيكُنْ شعاركم: ياحجَّاج ياحجاج.»

فانطلق القائد صلاةَ العصر، والتقى عسكرُ الحجَّاج وعسكرُ ابن الأشعث حين فصل القائد بمن معه. فاقتتلوا إلى اللّيل، فانكشف الحجَّاج من جهة بسطام بن مصقلة كما حكينا من أمره قبلُ، حتّى عبر السَّيبَ ودخل ابن الأشعث [432] عسكره فانتهبَه.

ذكر تكاسلٍ كان من ابن الأشعث عاد بوبالٍ عليه واتّفاقٍ محمودٍ للحجَّاج

قيل لابن الأشعث:

ـ «الرَّأى أن تتبعَه ولاتُنفّس عنه.» فقال:

ـ «[قد] تعبنا ولحقَنا نَصَبٌ.»

فرجع إلى عسكره، وألقىْ أصحابُه السِّلاحَ وباتوا آمنين، فى أنفسهم لهم الظَّفرُ، وهجم القوم عليهم نصفَ اللّيل يصيحون بشعارهم. فجعل الرَّجل من أصحاب ابن الأشعث لايدرى أين

١) النَّشَر: كذا فى الأصل ومط والطبرى ٨: ١٠٠. النَّشَر: القوم المتفرّقون لايجمعهم رئيسٌ. يُقال: اللّهم اضمُمْ نَشَرى. اى: ماتفرّق من أمرى.

يتوجّه، دُجَيل من يساره ودجلةُ أمامَه ولها جُرفُ مُنكَرٌ. فكان مَن غَرِقَ أكثرَ ممَّن قُتل. وسمع الحجّاج الصَّوت، فعبر السَّيبَ، وكان قد قطعه إلى عسكره، ثمّ وَجَّهَ خيلَه إلى القوم، فالتقى العسكران على ابن الأشعث، فانهزم في ثلاثمائة. فمضىٰ على شاطئ دجلة حتّى أتى دُجيلاً، فعبره في السُّفن وعقروا دوابَّهم، وانحدر في السُّفن إلى البصرة. فدخل الحجّاج عسكرَه وقتل مَن وجد، حتّى قتل أربعةَ آلافٍ، فيهم بسطام بن مصقلة وجماعةٌ من أهل الشَّرف والصَّبر.

وخرج ابن الأشعث بمن معه من الفَلِّ منهزمين نحو سجستان فلمّا [433] دخل كرمان تلقّاهُ عمرو بن لقيط وكان عاملَه عليها. فسأله نُزُلاً، ونزل.

فقال له شيخٌ من عبدالقيس يُقال له مَعقِل:

- «والله، لقد بلغنا عنك يابن الأشعث أنّك جبانٌ في مواطنك.»

فقال عبدالرَّحمان:

- «ماجَبُنتُ، والله لقد دَلَفتُ إلى الرِّجال بالرِّجال، ولففتُ الخيلَ بالخيل، ولقد قاتلتُ وقاتلتُ راجلاً، فما انهزمتُ، ولا تركتُ العرصةَ للقوم في موطنٍ حتّى لا أجد مقاتلاً، ولا أرىٰ معي مقاتلاً، ولكنّي زاولتُ مُلكًا موَجَّلاً.»

ثمّ مضى ابن الأشعث بمن معه حتّى فوَّزَ في مفازة كرمان وخيلُ الشّام تتبعه، ثمّ مضىٰ حتّى خرج إلى زَرَنج[1] مدينة سجستان، وفيها رجلٌ من بني تميمٍ كان استعمله عبدالرَّحمان عليها يُقال له عبدالله بن عامر من بني مجاشع. فلمّا قدم عليه ابن الأشعث منهزمًا أغلق بابَ المدينة دونَه، ومنعه دخولَها. فأقام عبدالرَّحمان أيّامًا رجاءَ افتتاحها ودخولها. فلمّا رأى أنّه لايصل إليها خرج حتّى أتىٰ بُستَ[2]، فكان استعمل عليها رجلاً يُقال له عياض بن هميان السَّدوسي، فاستقبله وقال له:

- «إنزل.» [434]

ذكر طمع عياض في ابن الأشعث

فجاءَ ابن الأشعث حتّى نزل به وانتظر حتّى غفل أصحاب عبدالرَّحمان، وتفرّقوا عنه وثب

١) زَرَنج: مدينة هي قصبة سجستان، وسجستان اسم الكورة كلّها (معجم البلدان). اسم قديم لمدينة كانت مركز سجستان. وقد تبدّل هذا الإسم في ما بعدُ إلى مدينة سجستان (= شهر سيستان) والاسم الأخير كان عليها حتّى الأيّام التي خربت المدينة فيها على يد تيمور. (لسترنج: ٦٠-٣٥٩).

٢) بُست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة وأظنّها من أعمال كابل (معجم البلدان)، وتقع على ملتقى رافدي نهر هيرمند في أفغانستان (قم).

عليه، فأوثقه وأراد أن يأمن بها عند الحجّاج ويتّخذ بهـا عندهُ مكـانًا، وقـد كان رتبيل حين سـمع بمقدم عبدالرّحمان عليه استقبله فى جنوده، وجاءَ حتّى أحاط بِبُسـت، وبعـث إلى البكـرىّ، والله، لئن آذيتَه بمايُقذى عينَه أو ضررته ببعض المضرّة، أو رزأته حبلاً من شَعر، لاأبرح العـرصة حتّى أستنزلك فأقتلك وجميع مَن معك، ثمّ أسـبى ذراريْكـم، واقسّم بين الجند أموالكم، وأقتل مَن عاند[1] منكم.»

فأرسل إليه البكرى أن:

ـ «أعطِنا أمانًا على أنفسنا وأموالنا ونحن ندفعه إليك سالمًا وماكان له من مالٍ موفّرًا.»

فصالحه على ذلك وآمنهم. ففتحوا لابن الأشعث وخلّوا سـبيله، فـأتىٰ رُتبيل فقـال له بعـد ما أنس وتساءَلا:

ـ «هذا الرّجل كان عاملى على هذه المدينة، وركب منّى مارأيتَ، فأذَنْ لى فى قتله؟» قال:

ـ «آمنتُه وأكرهُ الغدر به.» فقال:

ـ «فأذَنْ لى فى لَهزه ودفعه و التّصغير[2] به.» [435] فقال:

ـ «أمّا هذا فنعم.»

ففعل به عبدالرّحمان، ثمّ مضى مع رتبيل حتّى دخل بلاده، فأنزله رُتبيل وأكرمه وعظّمه وكان معه ناسٌ من الفَلّ كثيرٌ.

ذكر ما اغترّ به عبدالرّحمان حتّى فارق رتبيل ثمّ اضطرّ إلى معاودته

كان جماعةٌ من أصحاب عبدالرّحمان وعُظم فُلوله ممّن لم يقبلوا أمان الحجّاج وناصَبوهُ فـى مواطنه لم يكن لهم عنده وجهٌ، فاضطرّوا إلى الخروج فى إثر عبدالرّحمان، فلم يزالوا يتساقطون إلى نواحى سجستان حتّى اجتمع منهم وممّن اتّبعهم من أهل البلد نحـوٌ من سـتّين ألفـا. فنزلوا على عبدالله بن عامر، فحصـروهُ وكتبوا إلى عبدالرّحمان يُخبرونه بعـددهم وجماعتهـم وهو عند رُتبيل، وكان يُصلّى بهم عبدالرّحمان بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطّلب، وكتبوا إليه أن:

---

١) عاند: كذا فى الأصل وهو الصّحيح. وما فى مط: عاد.

٢) التصغير: كذا فى مط والطبرى ١١٠٣:٨. وما فى الأصل: التصعير (بالعين المهملة).

ـ «أقبِلْ، لعلنّا نسير إلى خراسان، فإنّ بها منّا جُندًا عظيمًا، فلعلّهم يبايعونتا[١] على قتال أهل الشّام وهى بلادٌ واسعةٌ عريضةٌ فيها حصونٌ.»

فخرج إليه عبدالرُّحمان بمن معه، فحصروا عبدالله بن عامر حتّى استنزلوه، فأمر به عبدالرُّحمان، فضُرب وعُذّب وحُبس. ثمّ إنّه توجّه [436] إليهم خيلُ الشّام، عليهم عمارة بن تميم اللّحمىّ.

ذكر آراءٍ أشير بها على ابن الأشعث ورأىٍ رَءَاهُ وحده سديدٍ لو ساعدوه عليه

أشار أصحاب عبدالرُّحمان عليه أن يخرج عن سجستان، وقالوا له:

ـ «هَلُمَّ بنا، نأتى خراسان ونَدَع لهم سجستان.»

فقال عبدالرُّحمان:

ـ «على خراسان يزيد بن المهلّب وهو شابٌ شجاعٌ صارمٌ وليس بتاركٍ سلطانَهُ، ولو قد دخلتموها وجدتموهُ سريعًا إليكم، ولن يَدَعَ أهلُ الشام اتّباعَكم، فأكره أن يجتمع عليكم أهل خراسان وأهل الشّام، وأخاف ألاّ تَنالوا ماتظنّون.»

فقالوا:

ـ «إنّما أهل خراسان منّا، ونحن نرجو ان لو دخلناها أن يكون مَن يتّبعنا منهم أكثر ممّن يُقاتلنا، وهى أرض طويلةٌ عريضةٌ نتنحّى[٢] فيها حيث شِئنا ونمكث حتّى يُهلك الله الحجّاج أو عبدَالملك، أو نَرىٰ رأيَنا.»

فقال لهم عبدالرَّحمان:

ـ «سيروا على اسم الله.»

فساروا حتّى بلغوا هراة. فلم يشعروا بشىء حتّى خرج من عسكره عُبيدالله بن عبدالرُّحمان [437] بن سَمُرة بن جُندب القرشىّ فى ألفين، ففارقه وأخذ طريقًا سوى طريقهم.

فلمّا أصبح ابن الأشعث خطبهم، فحمدالله وأثنى عليه، ثم قال:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّى قد شهدتكم فى هذه المواطن، وليس منها مشهد لا أصبر لكم فيه[٣] نفسى

---

١) يُبايعونتا: ما فى الأصل ومط: يبايعونا، والمثبت يوافق الطبرى.

٢) نتنحّى: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١١٠٥:٨): نتنحى.

٣) فيه: كذا فى الطبرى (١١٠٥:٨) ومط. وما فى الأصل: فيها. وهو سهو.

حتّى لايبقىٰ فيه منكم أحدٌ، وقد كنتُ لمّا رأيتكم لاتصبرون ولا تصدُقون القتالَ، أتيتُ مَلجأ ومامنًا فكنتُ فيه. فجاءتنى كُتبكم بأن: أقبِلْ إلينا فإنّا قد اجتمعنا وأمرنا واحدٌ، لعلّنا نقاتل عدوّنا. فأتيتكم، فرأيتم أن أمضى إلى خراسان وزعمتم أنّكم مجتمعون لى، وأنّكم لن تتفرّقوا عنّى، فحسبى منكم يومى هذا.قد صنع عُبيدالله ما قد رأيتم،فاصنعوا أنتم أيضًا مابدا لكم.أمّا أنا فمنصرفٌ إلى صاحبى الّذى أتيتكم من قِبله. فمن أحبَّ منكم أن يتبعنى فليتبعنى، ومَن كرهَ ذلك فليذهب حيث أحبَّ فى كنف الله.»

فتفرّقت منهم طائفةٌ ونزلت معه طائفة وبقى عُظم العسكر. فوثبوا إلى عبدالرّحمان بن عباس الهاشمىّ لمّا انصرف ابن الأشعث، فبايعوهُ ثمّ مضى عبدالرّحمان بن الأشعث إلى رُتبيل ومضَوا هم إلى خراسان حتّى انتهوا إلى هراة، فلقيهم الرُّقاد بن عُبيد العتكىّ، فقتلوهُ [438] وخرج إليهم يزيد بن المهلّب، وأرسل إليهم وإلى الهاشمىّ:

- «قد كان لك فى البلاد متّسعٌ ومَن هو أكلُّ منّى حدًّا وأهون شوكةً، فارتحلْ إلى بلدٍ ليس [لى][1] فيه سلطان، فإنّى أكره قتالك. وإن أحببتَ أن أمدّك بمالٍ لسفرك أعنتُك عليه.»

فأرسل إليه:

- «مانزلنا هذه البلادَ لمحاربةٍ ولا انتقامٍ، ولكنّا أردنا أن نُريح ثمّ نشخص إن شاءَ الله، وليست بنا حاجةٌ إلى ماعرضتَ.»

فانصرف رسول يزيد إليه، وأقبل الهاشمىّ على الجباية وبلغ يزيد، فقال:

- «من أراد أن يُريح ثمّ يجتاز لم يَجبِ الخراج.»

فقدّمَ المفضّلَ فى خمسة آلاف ثم أتبعه فى أربعة آلاف.

و وَزَنَ يزيدُ نفسَه بسلاحه، فكان أربعمائة رطلٍ، فقال:

- «ما أرانى إلاّ قد ثقلتُ عن الحرب. أىُّ فرس يحملنى!»

ثمّ دعا بفرسه الكامل، فركبه حتّى أتىٰ هراةَ، وأرسل إلى الهاشمىّ:

- «قد أرحتَ وأسمنتَ وجبيتَ، فلك ماجبيت، وإن أردتَ زيادةً زدناك. فاخرجْ، فوالله ما أريد أن أقاتلك.»

فأبىٰ إلاّ القتال، ودسَّ الهاشمىُّ إلى جند يزيد يُمنّيهم ويَعِدُهم إلى نفسه. فأخبر بعضهم يزيد، فقال:

---

١) مابين [ ] تكملةٌ من الطبرى ١١٠٦:٨ تطلّبه سياق العبارة، فاضفناه.

ـ «جلّ [439] الأمرُ عن العتاب. أتغدّىٰ بهذا قبل أن يتعشّىٰ بى»

فسار إليه حتّى تدانى العسكران وتأهّبوا للقتال، وألقى ليزيد كرسىٌ، فقعد عليه، و ولّى الحربَ أخاهُ المفضّلَ، وقال له:

ـ «قدّم خيلك.»

فتقدّم بها وتهايجوا، فلم يكن بينهم كبير قتال، حتّى تفرّق النّاس عن عبدالرّحمان الهاشمىّ، وصبر وصبرتْ معه طائفةٌ من أهل الحفاظ، فكثَرَهم النّاسُ، فانكشفوا. فأمر يزيد بالكفّ عن اتّباعهم، وأخذوا ماكان فى عسكرهم، وأسروا منهم أسرىٰ فيهم سعيد بن أبى وقّاص، وموسى بن عمر بن عبيدالله بن مَعمَر، وعيّاش بن الأسود بن عوف الزُّهرى، والهلقام بن نُعيم[1] بن القعقاع بن معبد بن زرارة، ويزيد بن الحصين، وعبدالرّحمان بن طلحة بن عَبيدالله بن خلَف، وعبدالله بن فَضالة الزّهرانى. ولحق الهاشمى بالسِّنْدِ، وابن سَمُرَة قَصَدَ مرو. ثمّ انصرف يزيد إلى مرو، وبعث بالأسرىٰ إلى الحجّاج مع ابن عمٍّ له، وخلّى عن ابن طلحة وعبدالله بن فضالة.

وسعى قوم عبيدالله بن عبدالرّحمان بن سَمرة، فأخذه يزيد، وحبسه. فأمّا محمّد بن سعد بن أبى وقّاص، فيقال: إنّه قال ليزيد:

ـ «أسألك بدعوة أبى لأبيك.»

ولقوله هذا حديثٌ فيه طولٌ. [440]

ذكر ما تقدّم به الأسرىٰ عند الحجّاج

لمّا قدم الأسرىٰ على الحجّاج، قُدّم موسى بن عمر بن عبدالله بن مَعمر، فقال:

ـ «أنتَ صاحب عُدَىِّ الرّحمان.» فقال:

ـ «أصلح الله الأمير، كانت فتنةٌ شملت البَرَّ والفاجرَ، فدخلنا فيها، وقد أمكنك الله منّا، فإن عفوتَ فبحلمك وبفضلك، وإن عاقبت، عاقبتَ ظلمةً[2] مذنبين.»

فقال الحجّاج:

ـ «أمّا قولك: شملت البَرَّ والفاجرَ فكذبتَ، ولكنّها شملت الفُجّارَ وعُوفى منها الأبرارُ، وأمّا اعترافك بذنبك فعسىٰ أن ينفعك.»

---

١) فى مط: «الرهوى والهلف ام نعيم» بدل: «الزهرى والهلقام بن نعيم»، والتحريف غريب!

٢) فى مط: «وإن عاقبت فظلمة» بدل: «إن عاقبت، عاقبت ظلمة».

فعُزل، ورَجا له النّاس العافية. حتّى قدِم الهلقام بن نعيم، فقال له الحجّاج:

ـ «أخبرنى عنك، مارجوتَ من اتّباع عبدالرّحمان بن محمّد، أرجوتَ أن يكون خليفةً؟» قال:

ـ «نعم، رجوتُ ذلك وطمعتُ أن يُنزلنى منزلتك من عبدالملك.»

فغضب الحجّاج، وقال:

ـ «إضربوا عنقه!»

ونظر إلى موسى بن عمر بن عبدالله بن معمر وقد كان نُحّىَ[1] عنه، فقال:

ـ «إضربوا عنقه!»

وقُتلَ، وقُتل بقيّتُهم.

كلامٌ للشّعبىّ لمّا حُمل إلى الحجّاج

كان الحجّاج لمّا هزم النّاس نادى مناديه:

ـ «من لحق بقتيبة بن مسلم بالرّىّ فهو أمانهُ.»

فلحق ناسٌ كثيرٌ بقتيبة وفيهم عامر الشعبىُّ. فذكره الحجّاج يومًا وقال:

ـ «أينَ هو، [441] وما فعل؟»

قال له يزيد بن أبى مسلم، وهو كاتب الحجّاج:

ـ «بلغنى أيُّها الأمير أنّه لحق بقتيبة.»

فكتب الحجّاج إلى قتيبة أن يبعث إليه بالشّعبى حين ينظر فى كتابه. فسرّحه إليه.

قال الشعبى: كنتُ لابن أبى مسلم صديقًا. فلمّا قُدم بى على الحجّاج لقيتُه وقلتُ له:

ـ «أشِرْ علىّ.» قال:

ـ «ما أدرى ما أشير به عليك، غير أن: اعتذِرْ ما استطعتَ من عُذر.»

فلمّا دخلتُ سلّمتُ بالإمرة ثمّ قلتُ:

ـ «أيُّها الأمير إنّ النّاس قد أمرونى أن أعتذِر إليك بغير ما يعلم الله أنّه الحقّ. وأيم الله لا أقول فى هذا المقام إلاّ حقًّا. قد والله سوّدنا عليك، وخرجنا واجتهدنا عليك كلَّ الجُهد فما ألونا[2].

---

١) نُحّى: كذا فى الأصل وهو الصّحيح. وما فى مط: يحى. وهو خطأ.

٢) ألونا: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١١١٢:٨): آلونا. وهو خطأ. وقوله: فما ألونا اى: فما قصرنا، وما أبطأنا. ومنه قولهم: لم نألُ جُهدًا.

فماكنّا بالفجرة الأقوياء، ولا بالبررة الأتقياء. و لقد نصرك الله علينا، و أظفرك بنا، فإن سطوتَ فبذنوبنا وماجرّت إلينا أيدينا، وإن عفوتَ عنّا فبحلمك. وبعدُ فالحجّة[١] لك علينا.»

فقال له الحجّاج:

- «أنتَ والله أحبُّ إليَّ ممّن يدخل عليَّ يقطر سيفُه من دمائنا ثمّ يقول: مافعلتُ وما شهدتُ. قد أمنتَ عندنا يا شعبيُّ.»

قال: فانصرفت. فلمّا مشيتُ قليلاً، قال:

- «هلُمّ يا شعبيُّ!» [442]

قال: فوجلَ لذلك قلبي، ثمّ ذكرتُ قولَه: «قد أمنتَ». فاطمأنّت نفسي. قال:

- «كيف وجدتَ النّاس بعدنا ياشعبيُّ؟»

وكان لي مُكرمًا. فقلتُ:

- «أصلح الله الأمير، إكتحلتُ والله بعدَك السّهرَ، واستوعرتُ الجناب واستحلستُ الخوفَ وفقدتُ صالح الاخوان، ولم أجد من الأمير خلفًا.» قال:

- «إنصرف يا شعبيُّ.»

فانصرفتُ.

[فيروز يمنع الحجّاجَ أن ينال مالَهُ]

وقيل: إنّ الحجّاج لمّا أُتي بالأسرىٰ من عند يزيد بن المهلّب، قال لحاجبه:

- «إذا دعوتُ بسيّدهم فأتني بفيروز فأبرزوا سريرَه.»

وهو حينئذٍ بواسط القَصب، قبلَ أن تُبنىٰ مدينة واسط. ثمّ قال لحاجبه:

- «جِئني بسيّدهم.»

فقال لفيروز:

- «قُمْ!»

فقال له الحجّاج:

- «أبا عثمان ما أخرجك[٢] مع هؤلاءِ؟ فوالله ما لحمك من لحومهم، ولا دمك من دمائهم.»

---

١) فالحجّة: ما في الأصل: الحجة. بدون الفاء. والفاء أضفناها من مط.

٢) ما أخرجك مع هؤلاء: كذا في الأصل. وما في مط: ما أحوجك مع هؤلاء. وهو خطأ.

فقال:

ـ «فتنةٌ عمَّت النَّاسَ فكنّا فيها.» فقال:

ـ «أكتب لى أموالك.» قال:

ـ «ثمَّ ماذا؟» قال:

ـ «أُكتُبها أوّلُ.» قال:

ـ «ثمَّ أنا آمِنٌ على دمى؟» قال:

ـ «أُكتُبها، ثمَّ أنظرُ.» قال:

ـ «أكتبْ يا غلامُ: ألف ألفٍ [١،٠٠٠،٠٠٠]، ألفى ألفٍ [٢،٠٠٠،٠٠٠].»

حتّى ذكر مالاً عظيمًا. فقال الحجّاج:

ـ «أين هى، وعند مَن هذه الأموال؟» قال:

ـ «[عندى.» قال:

ـ «فأدّها.» قال:

ـ «وأنا آمِنٌ على دمى؟» قال:

ـ «والله، لَتُؤدِّيَنَّها، ثمَّ لأَقتلنَّك.» قال:][1]

ـ «لا والله، لاجمعتَ[2] مالى ودمى.»

فقال الحجّاج للحاجب:

ـ «نَحِّه!»

فنحّاهُ ثمَّ أمر به فعُذِّب. وكان فى ما عُذِّب به أن كان يُشدُّ عليه [443] القصبُ الفارسىُّ المشقَّقُ، ثمَّ يُجَرُّ حتّى تَحزّز[3] جسدُهُ، ثمَّ يُنضَح عليه الخَلُّ والملح. فلمّا أحسَّ بالموت، قال لصاحب العذاب:

ـ «إنَّ النّاس لايشكّون أنّى قُتلتُ. ولى ودائع أموالٍ عند النّاس لاتؤدَّى إليكم أبدًا. فأظهرونى للنّاس ليعلموا أنّى حىٌ فيؤدّوا المالَ.»

---

١) مابين [ ] تكملة من الطبرى ٨: ١١٢٠. والعبارة سقطت من الأصل ومط. وهى موجودة فى ابن الأثير (٤: ٤٨٧)، أيضًا. ٢) لاجمعتَ: كذا فى الأصل. وفى مط: لاجتمعت. وهو خطأ. وما فى الطبرى: لاتجمع.

٣) حتى تحزّز: كذا فى الأصل. وفى مط: ثم يحرز. وفى الطبرى (٨: ١١٢٢): حتى يخرّق. وفى تعاليقه: يحرز. وفى ابن الاثير (٤: ٤٨٩): حتى يجرح.

فأعلم الحجّاجُ فقال:

- «أظهروهُ.»

فأُخرج، فصاح فى النّاس:

- «مَن عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا فيروز الحصين[١]. إنّ لى عند أقوام مالاً. فمن كان لى عنده شىءٌ فهو له وهو فى حِلّ فلا يؤدّينّ أحدٌ منه درهمًا. ليُبلغ الشّاهدُ الغائب.»

فأمر به الحجّاج فقُتل.

ذكر خديعة للحجّاج
ظنّ النّاسُ بها أنّه آمنهم حتّى قتلهم

كان الحجّاج أمر مناديًا فنادىٰ عند الهزيمة يوم الزّاوية:

- «ألا لا أمانَ لفلان، ولا لفلان.»

سمّى رجالاً من الأشراف ولم يقل: النّاسُ آمنون. فقال النّاس:

- «قد آمن من النّاس كلّهم إلاّ هؤلاء النّفر.»

فأقبلوا إلى حجرته. فلمّا اجتمعوا أمرهم بوضع أسلحتهم، ثمّ قال:

- «لآمُرَنّ بكم اليوم رجلاً ليس بينه وبينكم قرابةٌ.»

فأمر بهم عمارة بن تميم اللخمىّ، ففرّقهم وقتلهم.

فروى النّضر بن شُميل عن هشام بن حسّان أنّه قال يومًا: قتل [444] الحجّاج صبرًا مائة ألفٍ وعشرين ألفًا، أو مائة ألفٍ وثلاثين ألفًا، منهم يومَ الزّاوية أحد عشر ألفًا، ما استبقى منهم إلاّ رجلاً واحدًا كان ابنُه فى الكُتّاب[٢] مع ابن الحجّاج، فدعا الصّبىّ وقال:

- «أهبه لك»، قال:

- «نعم.»

فخلّى سبيله.

---

١) فى الأصل ومط: فيروز بن حصين. كُتب فى هامش الأصل: «فيروز ليس ابنَ الحصين. و إنّما هو من أولاد أكابر العجم، أسلمَ طوعًا على يدى الحصين العنبرى، فولاؤهُ له، وهو يُسمى: فيروز حُصين، يُعرف به.» وفى الطبرى ١١٢٢:٨؛ وابن الأثير ٤٨٩:٤: «فيروز حصين» بدل «فيروز بن حصين»، ولذلك حذفنا «بن».

٢) الكُتّاب: سقطت من مط، وهى موجودة فى الأصل.

ذكر هلاك عبدالرّحمان بن الأشعث ورأى لبعض أصحابه صحيح

كان مع عبدالرّحمان بن الأشعث لمّا انصرف من هراة راجعًا إلى رُتبيل، رجلٌ من أودٍ يُقال له: علقمة بن عمرو. فقال له:

ـ «إنّى ما أُريد أن أدخل معك.»

قال له عبدالرّحمان:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «لأنّى أتخوف عليك وعلى مَن معك.» قال:

ـ «وكيف؟» قال:

ـ «والله لكأنّى بكتابٍ من الحجّاج قد جاءَ فوقع إلى رتبيل يُرغبه ويُرهبه، فإذا هو قد بعث بك سلمًا[1] أو قتلك ومَن معك. ولكن هاهنا خمسمائة رجلٍ قد تبايعنا على أن ندخل مدينةً فنتحصّن[2] فيها ونقاتل حتّى نُعطَىٰ أمانًا، او نموت كرامًا.»

فقال عبدالرّحمان:

ـ «كلاّ، فادخُلْ معى، فإنّى أواسيك وأكرمك.»

فأبى عليه. ودخل عبدالرّحمان إلى رتبيل وخرج هؤلاءِ الخمسمائة. فبعثوا عليهم مودودًا[3] البصريَّ. فأقاموا [445] حتّى قدم عليهم عمارة بن تميم اللخميّ، فحاصرهم، فقاتلوهُ، وامتنعوا منه حتّى آمنهم. فخرجوا إليه، فوفىٰ لهم.

وتتابعت كُتب الحجّاج إلى رتبيل فى عبدالرّحمان أن:

ـ «إبعث به إلىّ، فوالله لأُوطِئنّ أرضك ألف ألف مقاتل.»

وكان عمارة قد انتهى إلى سجستان فى ثلاثين ألفًا، وكان عند رُتبيل رجلٌ من تميم من بنى يربوع يُقال له: عُبيد بن أبى سُبيع، وكان مع ابن الأشعث، فخصّ برتبيل، وكان قديمًا رسولَ ابن الأشعث فخفّ عليه. فلمّا رأى رُتبيل لايُسلِمُ ابن الأشعث خلابه وخوّفه الحجّاج، وقال:

ـ «أنا آخذ لك من الحجّاجِ عقدًا ليكفّنّ الحجّاج عن أرضك سبع سنين على أن تدفع إليه ابن الأشعث.» فقال رتبيل:

---

١) ضبط الأصل: سلمًا (بكسر السين) وامّا عند ابن الأثير (٥٠١:٤) سلمًا (بالفتح).

٢) فتتحصّن فيها: كذا فى الأصل والطبرى (١١٣٣:٨) وهو الصحيح. وما فى مط: فشخص فيها.

٣) مودودًا البصرى: كذا فى الأصل ومط وابن الأثير (٥٠١:٤) وما فى الطبرى (١١٣٣:٨) مودودا النضرى).

- «فإنّى أفعل.»

فكاتب الحجّاجَ وأعلمه أنْ رُتبيل لايعصيه وأنّه يتوصّل له إلى أخذ ابن الأشعث، وأخذ من الحجّاج مالاً، وخرج إلى عمارة بن تميم، فاستعجل منه ألف ألف [١،٠٠٠،٠٠٠] درهم، وأخذ من رتبيل[١] أيضًا مالاً، واشترط لرتبيل ألاّ يُغزى بلاده عشرسنين، وأن يؤدّى بعد العشرسنين فى كلّ سنةٍ تسعمائة [446] ألف درهم. فأعطى هو وابن أبى سبيع، وأرسل رُتبيل إلى ابن الأشعث، فأحضرهُ وثلاثين من أهل بيته وقد أعدّ لهم الجوامع والقيود، فألقى فى عنقه جامعةً، وفى عنق أخيه القاسم بن محمّد بن الأشعث جامعةً، وأرسل بهم إلى أدنى مسلحةٍ عُمارةَ منه. وقال لجماعة مَن كان مع ابن الأشعث:

- «تفرّقوا إلى حيث شئتم.»

ولمّا قرب ابن الأشعث من عمارة، ألقى نفسه من فوق قصر، فمات واحتُزّ رأسه، فأتى به وبالأسرى عُمارةُ فضرب أعناقهم، وأرسل برأس ابن الأشعث وبرؤوس أهله إلى الحجّاج، فأرسل به الحجّاج إلى عبدالملك، فأرسل به عبدُالملك إلى أخيه عبدالعزيز وهو يومئذٍ على مصر.

فحكى ابن عايشة: انّه لمّا أتى عبدُالملك برأس ابن الأشعث، أرسل به مع خصىٍّ له إلى امراةٍ من بنات عمر بن الأشعث كانت تحت رجلٍ من قريش. فلمّا وضع بين يديها نهضت إليها وقالت:

- « مرحبًا برأسٍ[٢] لايتكلّم، ملك من الملوك[٣]، طلب ماهو أهله، فأبت المقاديرُ.»

فذهب الخصىُّ ليأخذ الرّأسَ واجتذبته من يده وقالت:

- «لا والله حتّى أبلغ حاجتى منه.»

ثمّ دعتْ بخطمىٍّ [447] فغسلته وغلّفته، ثمّ قالت:

- «شأنك به الآن.»

فأخذه. ثمّ أخبر عبدَالملك. فلمّا دخل عليه زوجُها قال له:

- «إن استطعت أن تُصيب منها سحلةً[٤].»

---

١) رتبيل: كذا فى الأصل والطبرى وابن الأثير فى جميع المواطن. وما فى مط: «زنبيل» فى المواطن كلّها. وهو تصحيف.

٢) برأسٍ لايتكلّم: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١١٦٨): بزائر لايتكلّم.

٣) فى الأصل ومط: ملك ابن ملوك. وهو تحريف، فأثبتنا العبارة كما فى الطبرى: ملك من الملوك.

٤) سَحلة: كذا فى الأصل ومط. السَّحل: الثوب الأبيض الرّقيق. او: ثوبٌ لايُبرم غزلُه. وفى الطبرى: سخلةً (بالخاء المعجمة). والسخلة: الذّكر والأنثى من ولد الضّأن والمعز ساعة يُولَدُ.

ذكر سبب عزل يزيد بن المهلّب عن خراسان

كان الحجّاج يهاب ناحية يزيد بن المهلّب بعد فراغه من عبدالرّحمان بن محمّد ويعرف منزلته من عبدالملك فيخشاه على موضعه وقد كان أذلّ أهل العراق كلّهم، إلاّ آلَ المهلّب. فأكثر على عبدالملك فى شأن يزيد بن المهلّب، وخوّفه غدرَه وغيْرَه، فإنّه وأهل بيته زبيريّون.

فكتب إليه عبدالملك:

ـ «قد أكثرتَ فى معنى يزيد، وإنّ الّذى دعا آل المهلّب إلى الوفاء لابن الزّبير هو الّذى يدعوهم إلى الوفاءِ لى.»

وبلغ يزيد بن المهلّب مايريد الحجّاج. فكان يُكثر الغزوات ويعتلّ على الحجّاج إذا استقدمه أنّه بإزاءِ عدوٍّ وحروبٍ. إلى أن أذن عبدالملك فى عزل يزيد وتقليد قتيبة بن مسلم خراسانَ.

فكتب الحجّاج إلى يزيد بن المهلّب أن:

ـ «استخلف أخاك المفضّل.»

وكتب إلى المفضّل بولاية خراسان. فجعل المفضّل [448] يستحثُّ يزيد. فقال له يومًا يزيدُ:

ـ «يا أخى، إنّ الحجّاج لايُقرُّك بعدى، وإنّما دعاه [إلى][1] ماصنعَ مخافةُ أن أمتَنعَ عليه.» قال:

ـ «بل حسدتَنى.»

قال يزيد:

ـ «أنا أحسدُك يابن بَهلَة[2]؟ ستعلم.»

وقد كان يزيد قال لنُصحائه:

ـ «مَن ترون الحجاج يولّى خراسان؟» قالوا:

ـ «رجلاً من ثقيفٍ.» قال؛

ـ «كلاّ، ولكنّه يكتب إلى رجل منكم بعهده. فإذا قدمتُ عليه عَزَله، فولّى رجلاً من قيس، وأخلِقْ بقتيبةَ.»

قال: فلمّا قال له أخوه ماقال و ولاّهُ الحجّاج بعد يزيد تيقّن يزيد ماكان يظنّه قبل ذلك. فاستشار الحصين[3] بن المنذر، فقال له:

---

١) إلى: سقطت من الأصل ومط. فأخذناها عن الطبرى ٨:١١٤١.

٢) بَهلة: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى بصورتين: بَهلَة (فى النثر) وبهلَة (فى النظم) وفى بعض الأصول: بُهلَة.

٣) الحصين (بالصاد المهملة) كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى وابن الأثير: الحضين (بالضّاد المعجمة).

ـ «أقم واعتلّ، فإنّ أمير المؤمنين حسن الرّأى فيك، وإنّما أُتيتَ من قِبل الحجّاج، فإن أقمتَ رجوتَ أن يكتب إليه بإقرارك.»

قال يزيد:

ـ «إنّا أهل بيتٍ بورك لنا[1] فى الطاعة، وأنا أكره المعصية والخِلاف.»

فقال الحصين بن المنذر:

أمرتُك أمرًا حازمًا فعصيتَنى   فأصبحتَ مسلوبَ الإمارة نادِمًا
فما أنا بالباكى عليك صبابةً   وما أنا بالدّاعى لِترجعَ سالمًا

فلمّا قدم قتيبة خراسان، قال لحصين:

ـ «كيف قُلتَ ليزيد؟»

قال: قلتُ له: [449]

أمرتُك أمرًا حازما فعصيتَنى   فنفسَك وَلِّ اللّومَ إن كنتَ لائمًا
فإن يَبلغِ الحجّاجَ أن قد عصَيتَهُ   فإنّك تَلقىٰ أمرَهُ متفاقِمًا

قال:

ـ «فماذا أمرتَه فعصاك؟» قال:

ـ «أمرتُه ألاّ يَدعَ صفراءَ ولا بيضاءَ إلاّ حملَها إلى الأمير.»

فقال رجل لعباط[2] بن الحصين:

ـ «أمّا أبوك فوجدهُ قُتيبةُ حين فرّه[3] قارحًا بقوله: أمرته ألاّ يَدَعَ صفراءَ ولابيضاءَ إلاّ حملها إلى الأمير.»

فكان عزل يزيد عن خراسان وخروج قتيبة إليها فى سنة خمسٍ وثمانين، وذلك أنّه لمّا حصل يزيد عند الحجّاج عزلَ المفضّل و ولّى قُتيبةَ.

وفى هذه السّنة قُتل موسى بن عبدالله بن خازم بالتّرمذ

ذكر السّبب فى ذلك

كنّا ذكرنا ماكان من عبدالله بن خازم من قبلُ مع بنى تميم. فتفرّقَ عنه عُظم مَن كان معه

١) بورك لنا: العبارة سقطت من مط. وتجدها عند الطبرى (٨:١١٤١) أيضًا.

٢) لعباط: ما فى الأصل بدون نقط ونقطة الباء من مط. وفى الطبرى (٨:١١٤٢): عياض، بدل: عباط.

٣) فرّه قارحًا: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: فره وارجا.

منهم، فخرج إلى نيسابور، وخاف بنى تميم على ثَقَله بمرو، فقال لابنه موسى:

- «حوِّل ثَقَلى من مرو، واقطع نهر بلخ حتّى تلجأ إلى حصن تثق به فتقيم فيه.»

فشخص موسى فى مائتين و عشرين فارسًا من الصعاليك، فصار فى أربعمائة [450] وانضمّ إليه رجالٌ من بنى سليم، فقطع النّهر وأتى بخارى[1] فسأل صاحبها أن تلجأ إليه فأبىٰ وخافه وقال:

- «رجلٌ فاتكٌ وأصحابه مثله طالبو[2] حرب وشرٍّ، ولا آمنهم.»

فبعث إليهم بصلةٍ من عين ودوابّ وكسوة، فنزل على عظيم من عظماءِ بخارى فى نوقان[3]، فقال له الرّجل:

- «إنّه لاخير لك فى المُقام وهم لايأمنونك.»

فخرج يلتمس ملكًا يلجأ إليه أو حِصنًا. فلم يأتِ بلدًا إلاّ كرهوا مُقامَهُ فيهم، وسألوهُ أن يخرج عنهم حتّى أتىٰ سمرقند وصاحبها طَرخون. فأنزله وأكرمه. فجرى بينهما مااستوحش منه طرخون، فقال له:

- « لولا أنّى أعطيتكم الأمان لقتلتكم، فاخرجوا عن بلدى.»

و وصله وأخرجه. فخرج موسى وأتىٰ كِسّ. فكتب صاحب كِسّ إلى طرخون يستنصره. فأتاهُ فخرج إليه موسى فى سبعمائة، فقاتلهم حتّى أمسَوا وتحاجزوا وبأصحاب موسى جراحٌ كثيرٌ.

فلمّا أصبحوا أمرهم موسى فحلقوا رؤوسهم كما تصنع الخوارج، وقطعوا صَفَنات[4] أقبيتهم كما تصنع العجم إذا استماتوا، ودسّ إلى طرخون زرعةَ بن علقمة، فقال:

- «إنّ القوم مستقبلون، فما حاجتك إلى أن تقتل مَن لاتصل إليه حتّى يُقتلَ من أصحابك

---

١) بخارى: فى الأصل: بخارا. خلافًا للمواطن الأُخرى فى الأصل. فوحّدنا الضّبط وكتبناها بالياء كما هو فى كلّ المواطن فى هذا النّص.

٢) طالبو حرب: كذا فى مط وهو اصحّ. وفى الأصل: طالبى حرب (بتقدير «يكونون»؟) وما فى الطبرى (١١٤٦): اصحاب حرب.

٣) نوقان: لانقطة على النون الأولىٰ فى الأصل ومط. وهى من الطبرى ١١٤٦:٨. وفى حواشيه عن بعض الأصول: بوقان، موقان.

٤) صفنات أقبيتهم: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (١١٤٧:٨): صفنات أخبيتهم. الصُّفنة والصُّفن: السُّفرة تجمع بالخيط كالعيبة يكون فيها متاع الرّجل وأداته. خريطةٌ للرّاعى يكون فيها زاده وزناده ومايحتاج إليه كالسُّفرة من ادَم لأهل البادية يجعلون فيها زادهم، وربما استقوا بها الماءَ كالدّلو. والأخبية: جمع مفرده الخباء: مايُعمل من وبر او صوف او شعر للسّكن.

عدّتُهم، ولو قتلتَه وإيّاهم جميعًا [451] ما نلتَ حظًّا، لأنّ له قدرًا في العرب، فلايلى أحدٌ خراسانَ إلاّ طالبك بِدَمِه، فإن سلمتَ من واحدٍ لاتسلم من آخر.» قال:

- «ليس إلى ترك كسّ عليه سبيلٌ.» قال:

- «فكُفَّ عنه حتّى يرتحل.»

فكفَّ عنه. وأتىٰ موسى التِّرمِذ وبها حصنٌ يشرف على النّهر. فنزل موسى على بعض الدّهاقين خارجًا من الحصن، والدّهقان مُجانبٌ لِترمِذ شاه. فقال لموسى:

- «إنّ صاحبَالتِّرمِذمتكرّمٌ شديد الحياء، فإن ألطفتَه وهاديتَه أدخلك حِصنَه.»

فأهدىٰ له وألطفه موسى حتّى لطُف الّذى بينهما. وخرج فتصيّد معه وكثُرَ ألطاف موسى له. فصنع يومًا صاحب التِّرمِذ طعامًا، وأرسل إليه:

- «إنّى أحبُ أن أكرمك، فتَغَدَّ عندى، وائتنى فى مائةٍ من أصحابك.»

فانتخب موسى مائةً من أصحابه، فدخلوا على خيولهم، فقيل لهم:

- «إنزلوا.»

فنزلوا، وأُدخلوا بيتًا خمسين فى خمسين، وغَدّوهُم. فلمّا فرغوا من الغَداءِ اضطجع موسى. فقالوا له:

- «أخرج.» قال:

- «لا أصيبُ منزلاً مثلَ هذا. فلستُ بخارجٍ منه حتّى يكون بيتى أو قبرى.»

وقاتلوهم فى المدينة. فقُتل خَلقٌ من أهلها وهرب الآخرون. فدخلوا منازلهم وغلب موسى على المدينة [452] وقال لِترمِذشاه:

- «أخرج، فإنّى لستُ أعرض لك ولا لأحدٍ من أصحابك.»

فخرج الملك وأهل المدينة، فأمّوا التُركَ يستنصرونهم. فقالوا:

- «دَخل عليكم مائةُ رجلٍ فأخرجوكم عن بلادكم، وقد قاتلناهم بِكسٍّ، فعرفناهم، فنحن لانقاتل هؤلاءِ.»

وأقام ابن خازم بالتِّرمِذ، ودخل إليه أصحابه، وكانوا سبعمائة. فلمّا قُتل أبوهُ انضمَّ إليه من أصحاب أبيه اربعمائة فارسٍ، فقوىَ، فكان يخرج ويُغير على مَن حوله. فراسله التُركُ بقومٍ ليعلموا ما الّذى يريد، ويتقرّرَ أمورُهم على صلحٍ، ويكفُّوا[1] عن الغارة.

١) يتقرّرَ... ويكفُّوا...: عطفٌ على مجرور اللام فى «ليعلموا» بتقدير «أن» أى: ليتقرّر، وليكفُّوا.

فلمّا قدموا قال موسى لأصحابه:

ـ «إنّ هؤلاءِ يُسمُّونكم جنًّا[١] وأريد أن اكيدهم بمكيدة، وذلك فى أشدّ مايكون من زمان الحرّ.

ذكر مكيدةٍ ضعيفةٍ تمّت على قومٍ أغتامٍ

ثمّ أمر موسى بنارٍ، فأُجِجت، وألبس أصحابَه ثيابَ الشّتاءِ، ولبسوا فوقها لُبودًا، ومدُّوا أيديهم إلى النّار كأنّهم يصطلون، وأذّن موسى للتُرك، فدخلوا فلمّا رأوهم على تلك الحال فزعوا وقالوا:

ـ «ما هذا، ولِمَ صنعتم ماترى؟» قالوا:

ـ «إنّا نجد البردَ فى هذا الوقت [453] ونجد الحرّ فى الشّتاءِ.»

فلمّا رجعوا أخبروا أصحابهم، فقالوا:

ـ «هذا صنيع الجنّ، ولا خير فى قتال هؤلاءِ، والرّأىُ مقاربتهم.»

ولمّا ولى بكير بن وساج خراسان لم يعرض له ولم يوجّه إليه أحدًا.

ثمّ قدم أميّة، فسار بنفسه يُريده. فخالفه بُكيرُ وخلع ورجع إلى مَرْوَ، كما حكينا فى ما تقدّم. فلمّا صالح أميّةُ بُكيرًا وحالَ الحَولُ، وجّهَ إلى موسى رجلاً من خزاعة فى جمعٍ كثير. فعاد أهل التِّرمِذ[٢] إلى التُرك، فاستنصرهم، وقالوا:

ـ «نجتمع عليهم مع مَن غزاهم منهم فنظر بهم.»

فسارت التُرك مع أهل التِرمذ فى جمعٍ كثير، فأطاف بموسى التُركُ والخزاعىّ. فكان يقاتل الخزاعىُّ أوّل النّهار والتُرك آخِرَهُ. فقاتلهم ثلاثة أشهر على ذلك.

ثمّ قال موسى لعمرو بن خالدِ بن حصن الكلبى، وكان فارسًا:

ـ «قد طال أمرنا وأمر هؤلاءِ، وقد أجمعتُ أن أبيِّت عسكر الخزاعىّ، فإنّهم للبيات آمنون، فماترى؟» قال:

ـ «البياتُ نعمًا هو، فليكن ذلك بالعجم، فإنّ العرب أشدُّ حذرًا وأسرعُ فزعًا وأجرأ[٣] على اللّيل من العجم.»

فعمل موسى على بيات التُرك. فلمّا ذهب من اللّيل ثُلثه خرج فى أربعمائة، وقال لعمرو بن

---

١) جنًا: كذا فى الأصل وما فى مط «حيا» وهو خطأ.

٢) التِرمذ (بالذال المعجمة): كذا فى الأصل فى جميع المواطن، وما فى مط: التِرمد (بالدال المهملة).

٣) أجرا: كذا فى الأصل. وما فى مط: اجراء. وهو خطأ.

خالد:

- «أخرجوا بعدنا وكونوا قريبًا، فإذا سمعتم التّكبير [454] فكبّروا.»

وأخذ على شاطئ النّهر حتّى ارتفع فوق العسكر. ثمّ أخذ من ناحية كفنان[1]. فلمّا قرب من عسكرهم جعل أصحابه أرباعًا. ثمّ قال:

- «أطيفوا بعسكرهم، فإذا سمعتم تكبيرنا فكبّروا.»

وأقبل وقدّم حُمُرًا بين يديه ومشَوا خلفه. فلمّا رءاهم أصحاب الأرصاد قالوا:

- «مَن أنتم؟» قالوا:

- «عابِروا سبيلٍ.»

فقال لهم صاحب الرَّصَد:

- «جوزوا.»

فلمّا جازوا الرَّصدَ تفرّقوا وأطافوا بالعسكر وكبّروا، فلم يشعر التُّركُ إلاّ بوقع السُّيوف. فثاروا، وأقبل بعضهم يقتل بعضًا. ثمّ ولّوا وحوَوا عسكرهم وأصابوا سلاحًا ومالاً، وأصبح الخزاعى[2] وأصحابُه وقد كسرهم ذلك وخافوا مثلها من البيات، فتحرّزوا.

ذكر مكيدةٍ لعمرو بن خالد

فقال عمرو بن خالدٍ لموسى:

- «إنّك لاتظفر إلاّ بمكيدةٍ، وأرى لهم أمدادًا فهم يكثرون. فتناولنى بضربٍ فلعلّى أصيبُ من صاحبهم فرصةً فأقتله ويتفرّق عنك هؤلاءِ الجمع.»

فقال له:

- «تتعجّل الضّرب، ثمّ تتعرّض للقتل.» قال:

- «أمّا القتل فأنا متعرّضٌ له فى كلّ يوم، وأمّا الضّرب فما أيسرَهُ فى جنب ما أريد.»

فتناوله بالضّرب، ضربه [455] خمسين سوطًا، فخرج من عسكره موسى، فأتىٰ عسكر الخزاعىّ مستأمنًا، وقال:

---

١) كفنان: كذا فى الأصل. فى مط: كنعان! وما فى الطبرى (٨: ١١٥٠): كفتان، وفى حواشيه عن الأصول: كفنان، كفتان، كفيان.

٢) الخزاعى: كذا فى الأصل وما فى مط: الحراحى. وهو خطأ.

ـ «أنا رجل من أهل اليمن، كنتُ مع عبدالله بن خازم. فلمّا قُتل أتيتُ ابنَه، فلم أزل معه. فلمّا قدمتُ اتّهمنى وتنكّرَ لى، ثمّ تغضّب علىّ وقال: أنتَ عين له، فضربنى ولم آمَن القتلَ وقلتُ: ليس بعد الضرب إلاّ القتل، فهربتُ منه.»

فآمنه الخزاعىُّ، وأقام معه إلى أن دخل يومًا وهو خالٍ، ولم يرَ عنده سلاحًا، فقال له كأنّه يتنصّح له:

ـ «إنّ مثلك فى مثل حالك لاينبغى أن يكون فى حالٍ من أحواله بغير سلاحٍ.» فقال:

ـ «إنّ معى سلاحًا.»

ورفع صدر فراشه، وإذا سيفٌ منتضًى. فتناوله عمرٌو فضربه به حتّى قتله. وخرج فركب فرسَه ونذر به النّاسُ وقد أمعن. فطلبوه، ففاتَهم ورجع إلى موسى، و تفرّق ذلك الجيش وأتىٰ بعضهم موسى مستأمنًا، فآمنه.

ولم يوجّه إليه أميّة أحدًا إلى أن قدم المهلّب، فلم يعرض له و وصّى بنيه، فقال:

ـ «إيّاكم وموسى، فإنّكم لاتزالون وُلاةَ هذا الثّغر ما أقام هذا الرّجل بمكانه، فإنْ قُتل كان أوّل طالع عليكم أميرًا على خراسان رجلٌ من قيسٍ.»

فمات المهلّب، وولّى [456] يزيد فلم يعرض له.

وكان المهلّب ضرب حُريث بن قُطبَةَ الخزاعىَ، فخرج هو وأخوه ثابتُ إلى موسى. فلمّا وَلىَ يزيد بن المهلّب أخذَ أموالَهما وحُرمَهما، وقتل أخًا لأمُهما يُقال له الحارث بن مُنقذٍ. فبلغهما صنيع يزيد، وكان ثابتُ محبّبًا فى العجم بعيدَ الصّوت فيهم يُعظّمونه ويثقون به، حتّى إنّهم كانوا يحلفون بحياته فلايكذبون. فخرج ثابتُ إلى طرخون، فشكا إليه ماصُنع به، فغضب له طرخون، وجمع له نيزك[١] والسّيل[٢] وأهل بخارىٰ والصُّغانيان، فقدموا مع ثابتٍ إلى موسى بن عبدالله وقد سقط إلى موسى فلٌ عبدالرّحمان بن عبّاس القرشى من هراة وفلٌ ابن الأشعث من العراق وغيرهم.

فاجتمع إلى موسى ثمانية آلافٍ من تميم وقيس وربيعة واليمن. فقال له ثابتُ:

ـ «سرْ حتّى تقطع النّهر، فتخرج يزيد بن المهلّب من خراسان ونُولّيك، فإنّ طرخون و نيزك

---

١) نيزك: كذا فى الأصل والطبرى: ١١٥٢:٨. وما فى مط: نيزل (بدون نقطتى الياء).

٢) والسّيل: كذا فى الأصل. وما فى مط: السُّبيل. وفى الطّبرى: السّبَل. والسّبل: موضع فى بلاد الرّباب قرب اليمامة (ياقوت).

والسُّبل وأهل بخارىٰ معنا.»

فهَمَّ أن يفعل، فقال له نصحاؤه:

- «إنّ ثابتًا وأخاه خائفان من يزيد، وإن أخرجتَ يزيد عن خراسان توليا الأمرَ وغلباك على خراسان، فأقم بمكانك.»

فقبِلَ رأيَهم، وأقام بالتِّرمذ وقال لثابتٍ:

- «إن أخرجنا يزيدَ قدِمَ عاملُ عبدالملك [457] ولكنّا نُخرج عُمّال يزيد من وراءِ النّهر مايلينا، ونُحصِّل لنا ماوراءَالنّهر[1] فنأكلها.»

ورضى ثابتٌ، وأخرج عُمّال يزيد من وراءِالنهر، وحُملت إليهم الأموال، فقوى أمرهم.

وانصرف طرخون ونيزك والسُّبل وأهل بخارىٰ إلى بلادهم وتدبير الأمر كلّه لثابتٍ وحُريثٍ، والأميرُ موسى ليس له غير الاسم. فألحَّ أصحاب موسى عليه فى الفتك بثابتٍ وحُريثٍ، فأبى وقال:

- «ماكنتُ لأغدر بهم.»

فبينا هم على ذلك إذ أخرجت عليهم الهياطلة والتُّبَّتُ والتُّرك فى سبعين ألفًا لايعدُّون الحاسرَ ولاصاحبَ بَيضةٍ جمّاء إلاّ أن تكون البيضة ذاتَ قَونَسٍ[2]. فخرج موسى لقتالهم إلى ربض المدينة، و وقف ملك التُّرك على تلٍّ فى مائة ألف.

فقال موسى لأصحابه:

- «إن أزلتم هؤلاءِ، فليس الباقون بشىءٍ.»

فقصد لهم حُريثٌ، وألحَّ عليهم حتّى أزالهم عن التّلّ، ورُمى حُريثٌ فى جبهته بنُشّابةٍ. ثمّ بيّتهم موسى، وحمل أخوهُ خازم بن عبدالله بن خازم حتّى وصل إلى شمعة[3] ملكهم، فقتله وقتلَ العجمَ قتلاً ذريعًا، ونجامَن نجا منهم بشرٍّ. ومات حُريث بعد يومين، وحملوا الرؤوس إلى التِّرمذ، فبنَوا من تلك [458] الرؤوس جَوسقين.[4]

فقال أصحاب موسى:

---

١) وزاد فى مط: «وحملت إليهم» فأصبحت العبارة: ونحصّل لنا ماوراءالنّهر وحملت إليهم فناكلها.

٢) القَونَس والقَونوس: اعلى بيضة الحديد. أعلى الرّأس.

٣) شمعة: كذا فى الأصل ومط والطبرى ٨:١١٥٤.وفى حواشى الطبرى عن بعض الأصول: سمعة (بالسين المهملة).

٤) جوسق: معرّب اصله الفارسى: كوشك kushk: البناء العالى. القصر.

ـ «قد كُفيتَ أمر حُريثٍ، فأرحنا من أمر ثابتٍ.»

فأتى وبلغ ثابتًا بعض ما يخوضون فيه، فدسَّ غلامًا كان فى خدمة موسى وأعطاهُ مالاً وقال له:

ـ «إيّاك أن تتكلّم بالعربيّة، وإن سألوك: مَن أنت؟ فقل: من سَبى باميان[١].»

فكان الغلام ينقل إلى ثابتٍ خبرهم إلى أن واقفوا[٢] يومًا موسى على الفتك بثابتٍ. فقال موسى:

ـ « قد أكثرتم، وفيه هلاككم، فعلى أىّ وجهٍ تفتكون به وأنا لاأغدر به؟»

فقال نوح بن عبدالله بن خازم:

ـ «إذا غدا إليك غدوةً عدَلنا به إلى بعض الدُور فضربنا عنقه فيها قبلَ أن يصل إليك.» فقال:

ـ «أما والله، إنّه لَهلاككم.»

فخرج الغلام، فأعلمه، فخرج من تحت ليلته، وأصبحوا وقد ذهب وفُقد الغُلام. فعلموا أنّه كان عينًا له عليهم، وخرج إلى ثابتٍ قومٌ، فقصد خشوان[٣]. فقال موسى:

ـ «قد فتحتم على أنفسكم بابًا فسُدُّوهُ.»

وسار إليه موسى، وراسل ثابتٌ طرخونَ، فأقبل مُعينًا له، وبلغ موسى مجىءُ طرخونَ، فرجع إلى التِرمذ، وصار ثابت فى ثمانين ألفًا، فحصَروا موسى وقطعوا عنه المادّة [459] حتّى جُهدوا. فلمّا اشتدَّ عليهم الحصار، قال يزيد بن هذيلٍ:

ـ «إنّما مقام هؤلاء مع ثابتٍ، والله أفتكنّ بثابتٍ، أو لأموتنّ، فالقتل أحسن من الموت جوعًا.»

فخرج إلى ثابتٍ مستأمنًا، فقال ظُهير لثابتٍ:

ـ «أنا أعرف بهذا منك، والله ما أتاك رغبةً فيك، ولا جزعًا منك، ولقد جاءك بغَدرة، فخلّنى وإيّاه.» فقال:

ـ «ما كنتُ لأُقدم على رجلٍ أتانى لا أدرى أكذلك هو أم لا.» قال:

ـ «فدعْنى أرتهن منه رهنًا.» قال:

---

١) باميان: كذا فى الأصل والطبرى (١١٥٥:٨) وما فى مط: باسيان.

٢) واقفوا: كذا فى الأصل. وما فى مط: واقفوا. واقفه على كذا: سأله الوقوف والثبات عليه.

٣) خشوان: كذا فى الأصل. وما فى مط: خوان. والعبارة فى الطبرى: ولحق ثابت إلى بخشورا فنزل المدينة وخرج إليه قوم كثير من العرب والعجم. فقال موسى لأصحابه: قد فتحتم على أنفسكم.

- «أمّا هذا فنعَمْ.»

فقال ثابت ليزيد بن هذيل:

- «أمّا أنا فواثق بك وابن عمّك أعلم بك منّى، فانظر مايقول لك.»

فقال يزيد لظُهير:

- «أبيتَ ياأبا سعيدٍ إلاّ حسدًا. ما يكفيك ماترىٰ من الذُلّ، تشرّدتُ عن العراق عن أهلى، وصرتُ بخراسان على ماترىٰ، أما يعطفك الرُحم؟»

فقال له ظُهير:

- «أما والله، لو تُركتُ ورأيى فيك لَما كان هذا، ولكن أرهِنّا[1] ابنَيك قدامةَ والضحّاكَ.»

فدفعهما، فكانا فى يدى ظهير. فأقام يزيد يلتمس غرّة ثابتٍ، فلايجدها حتّى مات ابنُ لزيادٍ القصير الخُزاعى، أتاهُ نعيه من مَرو. فخرج ثابتُ متفضلاً إلى زيادٍ ليُعزّيَهُ ومعه ظُهيرُ وطائفةُ من أصحابه [460] وفيهم يزيد بن هذيل وقد تقدّم ظُهيرُ فى أصحابه، فدنا من ثابتٍ وضربه، فعضّ السّيف برأسه، فوصل إلى الدّماغ، ورمىٰ يزيد بنفسه فى نهر الصُّغانيان، فنجا سباحةً، وحُمل ثابتُ إلى منزله.

فلمّا أصبح طرخون أرسل إلى ظُهير:

- «إئتنى بابنَى يزيد.»

فأتاه بهما فقتلهما. وكان يزيد بن هُذيل سخيًا شجاعًا شاعرًا، وعاش ثابت سبعة أيّام، ثمّ مات، وقام بأمر العجم طرخون، وقام ظُهير بأمر أصحاب ثابتٍ قيامًا ضعيفًا و انتشر أمرُهم، وأجمع موسى على بياتهم. فجاءَ رجل فأخبرَ طرخونَ، فضحك وقال:

- «موسى يعجز أن يدخل متوضّأهُ، فكيف يبيّتنا، لقد طار قلبك، لايحرسنّ الّليلةَ أحدُ العسكرَ.»

فلمّا ذهب من الّليل ثُلثه خرج موسى فى ثلاثمائةٍ، وأخوه فى ثلاثمائةٍ، ويزيد بن هذيل فى ثلاثمائةٍ، ورقبة بن الحُرّ فى ثلاثمائة، وقال لهم:

- «تفرّقوا أرباعًا حتّى تدخلوا عسكرهم من أربع نواحىَ، ولايمرُّ أحدُ منكم بشىء إلاّ ضربه.»

فدخلوا عسكرهم من النّواحى لايمرُّون بدابّةٍ ولا رجلٍ ولا خباء، ولاجُوالق إلاّ ضربوه، وهجم نوح بن عبدالله بن [461] خازمٍ على سرادق طرخون. فبرز إليه فتجاولا، وطعن طرخون

---

١) أرهِنّا: كذا فى الأصل والطبرى ٨:١١٥٨. وما فى مط: ارهن.

فرس نوح فى خاصرته فشبَّ ودلّى بنوح حتّى سقط فى نهر الصّغانيان، وراسل طرخون موسى:

ـ «كُفَّ أصحابَك، فإنّا نرتحل إذا أصبحنا.»

فرجع موسى إلى عسكرِه، وارتحل طرخون وجميع من معه، فأتى كلُّ قوم بلادَهم.

فكان أهل خراسان يقولون:

ـ «مارأينا قطُّ مثل موسى بن عبدالله بن خازم، ولاسمعنا به، قاتلَ مع أبيه سنتين، ثمّ خرج يسير فى بلاد خراسان، حتّى أتى مَلِكًا، فغلبه على مدينته، ثمّ سار إليه الجنود من العرب والعجم والتُرك.»

فكان يقاتل العرب[1] فى أوّل النّهار والعجم آخر النّهار، وأقام فى حصنه خمس عشرة سنة، وصار ماوراءالنّهر لموسى لايُعازُّهُ فيه أحدٌ.

فلمّا ولى المفضّل خراسانَ أخرج عثمان بن مسعود من الحبس، وقال:

ـ «إنّى أريد أن أوجّهك إلى موسى بن عبدالله.» قال:

ـ «والله، لقد وترنى[2]، وإنّى لثائرٌ بابن عمّى ثابتٍ وما يد أبيك وأخيك عندى وعند أهل بيتى بالحسنة، لقد حبستمونى، وشرّدتم بنى عمّى، واصطفيتم أموالَهم.»

فقال له المفضّل:

ـ «دَعْ عنك هذا، وسِرْ، فأدركْ بثارك.»

فوجّهه [462] فى ثلاثة آلاف، وقال له:

ـ «مُرْ مناديًا فَلْيُنادِ: مَن لحقَ بنا فلَهُ ديوانٌ.»

فنادى بذلك فى السّوق، فتسارع النّاس، وكتب المفضّل إلى أخيه مُدركٍ وهو ببلخ أن يسير معه. فنزل عثمان جزيرةً بالتّرمذ يُعرف اليوم بجزيرة عثمان، فى خمسة عشر ألفًا، وكتب إلى السّبل وطرخون، فقدموا عليه، وحصروا موسى، فضيّقوا عليه وعلى أصحابه، وخندق عثمان وحذِر البياتَ، فلم يقدر موسى منه على غِرّة، فقال يومًا لأصحابه:

ـ «حتّى متَى؟ أخرجوا بنا، فاجعلوهُ يومَكم، إمّا ظفرتم وإمّا قُتلتم.»

وقال لهم:

ـ «أقصدوا لِلصُّغد والتُرك.»

---

١) العرب: كذا فى الأصل. وما فى مط: العراب. و العراب من الخيل والإبل: كرائم سالمة من الهُجنة.

٢) لقد وترَنى: كذا فى الأصل والطبرى ١١٦١:٨. وما فى مط: لقد ترى. وهو خطأ.

وخلّف النُضر بن سليمان بن عبدالله بن خازم فى المدينة وقال له:

- «إن قُتلتُ فلاتُسلمَنَّ المدينة إلى عثمان، بل ادفعها إلى مُدرك بن المهلّب.»

وخرج، وصيّر بإزاءِ عثمان قومًا من أصحابه وقال:

- «لاتُهايجوه حتّى يُقاتلكم.»

وقصد لطرخون، فصدقه، فانهزم طرخون والتُركُ، وأخذوا عسكـرَهم، فجعلوا ينقلونه، وكرّت الصُغد[1] والتُرك راجعة، فحالوا بين موسى وبين الحصن، فقاتلهم، فعُقر به، فسقط، فنادى مولًى له:

- «إحملنى ويحك.»

فقال:

- «الموت كريهُ، ولكن ارتدف [463] فإن نجونا نجونا معًا، وإن هلكنا هلكنا معًا.»

فارتدف ونظر إليه عثمان حين وثب، فقال:

- «وثبة موسى وربُّ الكعبة.»

فخرج من الخندق، وحمل وكشف أصحابَ موسى، وقصد لموسى، فعثرت دابّة موسى، فسقط هو ومولاهُ، فابتدروهُ فقتلوهُ وبقيت المدينة فى يد النُضر، فدفعها إلى مُدركٍ وآمنه، وكتب المفضّل بالفتح إلى الحجّاج، وذلك فى سنة خمسٍ وثمانين.

ثمّ دخلت سنة ستٍّ وثمانين

وفيها مات عبدالملك بن مروان. فكانت خلافته ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر.

أسماء وزراءِ عبدالملك بن مروان
وما نقل إلينا من آرائهم وتدابيرهم الّتى يليق ذكرها بهذا الكتاب[2]

[قبيصة بن ذُؤيب]

كان يكتب لعبدالملك قبيصة بن ذُؤيب الخـزاعىّ، ويكنّى أبا إسحق، وكان خـاصًا به، وكان

---

١) الصُغد: فى الأصل: السُغد (بالسين بدل الصاد) فبدّلنا السّين بالصّاد توحيدًا للضبط. وفى مط: السـند. وما فى الطبرى يوافق ما أثبتناه (١١٦٢:٨).

٢) لم نجد فى الطبرى أسماء الوزراء والكتاب الآتية أسماؤهم، والروايات هذه أخذها مسكويه من مصدر آخر.

يتولّى ديوان الخاتم. وبلغ من لطافة محلّه منه أنّ الكتب الواردة على عبدالملك كان يقرأها قبيصة قبل أن تصل إلى عبدالملك، ثمّ يدخل بها إليه مفضوضة الختم فيقرأها.

وكان مروان عهد إلى أخيه عبدالعزيز [464] بعد عبدالملك، فهمّ عبدالملك، لمّا تمكّن واستقام أمره، بخلعه والعقدِ لابنيه الوليد وسليمان، فنهاهُ قبيصة بن ذُؤيب كاتبُه، وقال:

ـ «إنتظِرْ، فلعلّ الموت يأتى عليه فيكفيكه.»

وكان قلّده مصر، فورد الكتاب بوفاته سنة خمسٍ وثمانين، فقرأه قبيصة على عادته، ثمّ دخل على عبدالملك فعزّاهُ بأخيه، وعقد لابنيه الوليد وسليمان العهدَ بعده، وكتب إلى البلدان بذلك فبايعوه.

[أبو الزُّعيزعة]

وكان يكتب له أبو الزُّعيزعة مولاه. فيُحكى أنّه حضر زُفر بن الحارث يومًا عند عبدالملك وبحضرته أبو الزُّعيزعة بعد أن اجتمع إليه، فقال لزفر بن الحارث:

ـ «كيف ترى ما ساقه الله إلينا؟»

فقال زُفَرُ:

ـ «الحمدلله الّذى نصرك على كُرْهِ مَن كَرِهَ.»

فقال أبو الزُّعيزعة:

ـ «ماكره ذلك إلاّ كافر.»

فقال له زُفَر:

ـ «كذبتَ! قال الله عزّوجلّ لنبيّه: كما أخرجك من بَيتِكَ بالحقّ، وإنّ فريقًا مِنَ المؤمنين لكارهون[١]، أ مؤمنين سمّاهم أم كفّارًا؟»

فغضب عبدالملك، فقال زُفَرُ:

ـ «يا أميرالمؤمنين، أ رأيتَ لوقُلتُ: الحمد لله الّذى نصرك، فقد كنتَ مسرورًا بذلك، أما كنتَ تمقتنى [465] ويمقتنى اللهُ وأنا أقاتلك تسع سنين؟» فقال له:

ـ «صدقتَ.»

---

١) س ٨، الأنفال: ٥.

[روح بن زنباع]

وكان يكتب له رَوحُ بن زنباعٍ. ورَوحُ هذا هو الّذى همّ به معاوية، فقال له:

- «يا أميرالمؤمنين، لاتُشمتَنّ بى عدوًا أنتَ وَقَمتَه[١]، ولاتسوءَنّ فىّ صديقًا أنت سررتَه، ولاتهدمَنّ رُكنًا أنتَ بنيتَه. هلاّ أتى حلمُك وإحسانُك على جهلى وإساءَتى!»

فأمسك عنه.

[ربيعة الغار الحرشىّ]

وكان يكتب له ربيعة الغار الحرشى. وكان استشاره عبدُالملك فى تقليد الوليدِ ابنِه العهدَ، فقال:

- «أمهلنى سنةً.»

فأمهله. فلمّا انقضت عاوَدَهُ وقال:

- «إنّى عزمتُ أن أوليه شيئًا من النّواحى، فإذا مضتْ له مدّةٌ قلّدتُه العهدَ.» فقال:

- «يا أميرالمؤمنين، إنّك بعثت الوليدَ يقسم الأموال بين النّاس ما رضوا عنه، فكيف تبعثه جابيًا؟ إن احتاط ذُمّ، وإن رفق عجزَ، وأنت تريد أن تُجبيه، فولّه المَعاونَ والصّوائفَ[٢]، فيكون ذلك شرفًا وذكرًا.»

[صالح بن عبدالرّحمان]

[و هو الّذى نَقلَ الدّواوين من الفارسيّة إلى العربيّة]

وكتب له صالح بن عبدالرّحمان مولى بنى مُرّة بن عُبيد بن تميم من سبى سجستان، ويُكنّى صالحُ أبا الوليد، وهو الّذى نقلَ الدّواوينَ من الفارسيّة إلى العربيّة. وكان ذلك أنّ الدّواوين [466] كانت تجرى فيها وجوهُ الأموال بالفارسية.

وكان بالبصرة والكوفة ديوانٌ بالعربيّة لإحصاءِ النّاس وأرزاقهم وأعطياتهم، وهو الّذى كان عُمرُ رسمه. وكان بالشّام أيضًا ديوانان: أحدهما بالرُّوميّة، والآخر بالعربيّة، فجرى الأمرُ عليه إلى أيّام عبدالملك، وكان إذ ذاك يتقلّد ديوان الفارسيّة زادانفرُّوخ، فخلفه عليه صالح بن عبدالرّحمان،

---

١) وَقَم الدابّة: جذب عنانها لتقف. وقَم الرجل: قهره وردّه عن حاجته أقبح الردّ.

٢) المَعاون والصّوائف: المَعاون جمعُ مفرده المعونة: العون. والصّوائف جمع مفرده الصّائفة: الغَزوة فى الصيف. صائفة القوم: ميرتهم فى الصّيف.

فخف[١] على قلب الحجّاج وحضّ به. فقال لزادانفرّوخ:

ـ «إنّى قد خففتُ على قلب الحجّاج، ولستُ آمَن أن أزيلك عن محلّك[٢] لتقديمه إيّاى[٣]، وأنت ربيبى.»

فقال له زادانفرّوخ:

ـ «لاتفعلْ، فإنّه إلىّ أحوج منّى إليه.» فقال له:

ـ «وكيف ذلك؟» قال:

ـ «لايجد مَن يكفيه الحسابَ.»

فقال له صالحٌ:

ـ «لو شئتُ حوّلتُه إلى العربيّة.» فقال له:

ـ «فحوّلْ منه سطرًا.»

فحوّلَ منه شيئًا كثيرًا.

فقال زادانفرّوخ لأصحابه:

ـ «إلتمسوا كسبًا غير هذا.»

فلمّا بلغ الحجّاج ذلك أمرَ صالحًا بنقل الدّواوين، فنقلها إلى العربيّة فى سنة ثمانٍ وسبعين. وكان عامّةُ كُتّاب العراق تلامذه صالح.

ولمّا هم صالح بنقل [467] الدّواوين، قال له بعض كُتّاب الفُرس:

ـ «كيف تصنع بواذ[٤].» قال:

ـ «أكتب: وأيضًا.» فقال:

ـ «كيف تصنع بدهيازده[٥]؟» قال:

ـ «أكتبُ عُشرًا.» فقال:

---

١) خفَ. فى الأصل ومط: حفَ (بالحاء المهملة) فأعجمناها بقرينة تكرار الكلمة بشكل «خففت» أدناه. خفَّ على الأمير: قبِله وأنس به.

٢) محلّك: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وفى مط: محلّه.

٣) سقط من مط قوله: «إيّاى» إلى قوله «لايجد مَن»، اى اكثر من عشرين كلمة.

٤) واذ: كذا فى الأصل وما فى مط: واد (بالدال المهملة). ولعله مصحّف من: «واز» وهو لغة فى «باز» ومن معانى «باز» فى الفارسية: الاعادة والتكرار و «أيضًا».

٥) دهيازده: كذا فى الأصل. وفى مط: دهيارده (بالراء المهملة).

- «كيف تصنع بدهبوذه[١]، وبنجيوذه[٢]؟» قال:
- «أكتب عَشيرًا[٣] ونصفَ عَشير.» قال له:
- «قطع الله أُصلك من الدُنيا، كما قطعتَ الفارسيّة.»

وقال الحجّاج يومًا لصالحٍ، وكان متّهمًا برأى الخوارج:
- «إنّى فكرتُ فيك فوجدتُ مالك ودمك حلالين لى وأنّنى غير آثم إن تناولتُهما.»
فقال صالح:
- «إنّ أغلط ما فى الأمر - أعزّ الله الأمير - أنّ هذا القول بعد الفكر.»
فضحك منه ولم يقل له شيئًا.

[عُبيد بن المخارق]

ومن كُتّاب الحجّاج عُبيد بن المخارق، قلّده الحجّاج الفوجتين، فوردها وقال:
- «هل هاهنا دهقان يعاش برأيه؟» فقيل له:
- «هذا جميل بن بَصبَهرى.»
فأحضره وشاوره، فقال له جميلٌ:
- «خبّرنى أ قدمتَ لِرضىٰ ربّك، أم رضىٰ نفسك، أم رِضىٰ مَن قلّدك؟» فقال:
- «ما استشرتُك إلاّ برضى الجميع.» قال:
- «فاحفظ عنّى خِلالاً: لايختلفْ حُكمُك على الرَّعيّة، لِيكنْ حُكمُك على الشريف والوضيع[٤] سواءًا، ولاتتخذَنّ حاجبًا ليردّ عنك الوارد [468] من أهل عملك، وليكنْ على ثقة من الوصول إليك، وأطِل الجلوس لأهل عملك يتهيّبك عُمّالك، ولاتقبل هديّةً، فإنّ صاحبها لايرضى بثلاثين ضعفًا[٥] لها، فإذا فعلتَ ذلك فاسلخْ جلودَهم من فروعهم إلى أقدامهم.»
قال: فعملتُ بوصيّته، فجبيتُها خمسة عشر ألف ألف [١٥،٠٠٠،٠٠٠] درهم.

---

١) دهبوذه: الحرفان الثالث والخامس مهملان فى الأصل اعجمناهما كما فى مط.
٢) بنجبوذه: كذا فى مط. وما فى الأصل: بنجيوذه (بالياء).
٣) العشير: العُشر، أو عُشر العُشر.
٤) الوضيع: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: الرّضيع!
٥) ضعفًا لها: فى الأصل ومط: ضعفها لها. وهو سهوٌ نشأ من الخلط بين «ضعفًا» و «لها» عند النسخ.

[يزيد بن أبى مسلم]

وكان يزيد بن أبى مسلم ـ واسم أبى مسلم دينارٌ من موالى ثقيف ـ كاتبًا للحجّاج، وكان أخاه من الرَّضاعة. فتقلّد له ديوان الرَّسائل، وكُنيتُه أبوالعلاءِ. وكان الحجّاج يُجرى له فى كلّ شهر ثلاثمائة درهم، فكان يُعطى امرأتَه خمسين درهمًا، ويُنفق فى ثمن اللّحم ومايتصّل به خمسةً وأربعين درهمًا، ويُنفق باقيها فى ثمن الدَّقيق وسائر عوارض نفقته، وإن فضلَ منها شىءٌ ابتاعَ به ماءًا وسقاه المساكين، وربما ابتاع قُطفًا وفرَّقها فيهم وهو مع ذلك يقتل الخلق للحجّاج.

وحُكى أنّ الحجّاج عادهُ من علّةٍ اعتلّها، فوجد بين يديه كانونًا من طين ومنارة خشب، فقال:

ـ «يا أبا العلاءِ، ما أرى[1] أرزاقَك تكفيك.» فقال:

ـ «إن كانت ثلاثمائة لاتكفينى، فثلاثون ألفًا لاتكفينى.»

ويزيد بن أبى مسلم [469] هو الّذى نبّه الحسن البصرى على الاستتار حتّى سلم من الحجّاج، وذلك أنّه لقيه خارجًا من عنده فقال له:

ـ «تَوارَ يابا سعيد، فإنّى لست آمَن أن تتبعك[2] نفسُه.»

فتوارىٰ عنه، وسلم منه. وقيل: إنّه استتر تسع سنين.

[عبدالملك وكاتبٌ له قبل هديّةً]

وبلغ عبدالملك أنّ بعض كُتّابه قبل هديّةً، فقال له:

ـ «أقبلت هديّةً منذ ولّيتكَ؟» فقال:

ـ «أمورك، يا اميرالمؤمنين، مستقيمةٌ، والأموال دارّةٌ، والعُمّال محمودون، وخراجك موفَّرٌ.» فقال:

ـ «أخبرنى عمّا سألتُك.» قال:

ـ «نعم، قد قبلتُ.» قال:

ـ «فوالله لئن كنتَ قبلتَ هديّةً لاتنوى مكافأة للمُهدى لها، إنّك لَدَنِىٌّ ولئيمٌ، وإن كنتَ قبلتها لتستكفى رجلاً لم تكن لتستكفيه لولاها، إنّك لخائنٌ، ولئن كنتَ نويتَ تعويض المُهدى عن هديّته ولاتخون له أمانةً ولا تثلم له[3] دينًا، فلقد قبلتَ مابسط عليك لسان معامليك، وأطمعَ فيك

---

١) وفى مط: لا ارزاقك، بدل: ما أرى ارزاقك. وهو خطأ.

٢) تتبعك: مهملة فى الأصل، وما أثبتناه يوافق مط.

٣) له: سقطت من مط.

سایر مجاوريك، وسَلَبَكَ هيبة السُلطان، وما فـى مَن أتىٰ أمرًا لم يخـلُ فيه، من لؤمٍ أو دناءَة أو خيانةٍ أو جهلٍ مصنع[١]»

وخلعه عن عمله. [470]

١) مصنع: كذا فی الأُصل. مع شيءٍ من الغموض. وما فی مط: مضيع.

خلافة الوليد بن عبدالملك

و بويع للوليد بن عبدالملك بالخلافة. فخطب النّاس لمّا انصرف من دفن أبيه، وقال في آخر خطبته:

- «أيُها النّاس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإنّ الشيطان مع الفرد. أيُها النّاس، من أبدى ذات نفسه ضربنا الّذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه.»

ثمّ نزل وحاز أدوات الخلافة وأثاثها، وكان جبّارًا عنيدًا.

وفى هذه السّنة وهى سنة ستّ وثمانين، ورد قُتيبة بن مسلم إلى خراسان فقدمها والمفضّل يعرض الجند وهو يريد أن يغزو الموضع الّذى يُقال له: أخرون وشُومان. فخطب الناس قتيبةُ، وحثّهم على الجهاد، وسار، فلمّا كان بالطّالقان تلقّاهُ دهاقين بلخ وعظماؤهم، فساروا معه. فلمّا قطع النّهر تلقّاه تيش[1] الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاحٍ من ذهب. فدعاه إلى بلاده. فمضى مع تيش إلى الصّغانيان، فسلّم إليه بلاده. وسار قتيبة إلى أخرون[2] وشومان وهما من طخارستان [471] فجاءه صاحبها، فصالحه على فديةٍ أدّاها، فقبلها قُتيبة ورضىَ، وانصرف إلى مرو، واستخلف أخاه صالحًا، وفتح صالحُ بعد رجوع قتيبة باسان انبجغر[3]، وكان معه نصر بن سيّار، فأبلى يومئذٍ، فوهب له قريةً تدعى سحابه[4]. ثمّ قدم صالحُ على قُتيبة بعد ذلك فاستعمله على

---

1) تيش الأعور: كذا فى الأصل. وما فى مط: تبش الأعور، وأما فى الطبرى (٨: ١١٨٠) بيش الأعور. وفى حواشيه عن الأصول: تيش. 2) أخرون وشومان: كذا فى الأصل ومط. والطبرى. وما فى ابن الأثير: اخرون وشومان.

3) باسان انبجغر: كذا فى الأصل (باهمال الحرف الذى يلى النون الثانية). وفى مط: باسان اتجمر. وما فى ابن الأثير (٤: ٥٢٤): كاشان وأورشت (أورشيت). 4) سحابه: مهملة فى الأصل إلاّ فى الباء. وفى مط: سحابه! وما فى الطبرى: تنجانة (بتخانه؟) وفى حواشيه. بتخايه (باهمال الحرف الأول).

الترمذ، وغزا قتيبة بعد ذلك بيكند، وهى أدنى مدائن بخارى، فلمّا نزل بعقوتهم استنصروا السُغد، واستمدّوا مَن حولَهم، فأتوهم فى جمع كثير، وأخذوا بالطُرُق، فلم ينفُذ لقتيبة رسولٌ ولم يصل إليه خبرٌ نحو شهرين، وأبطأ خبرهُ على الحجّاج، فأشفق على الجند، وأمر النّاس بالدُعاءِ لهم فى المساجد وهم يقتتلون فى كلّ يوم. وكان لقتيبة عينٌ يُقال له تُندَر[١] من العجم، فأعطاهُ أهل بخارى مالاً على أن يَفتأ[٢] عنهم قتيبةَ.

ذكر حيلة لِتُنْدَر مانفذت له وقُتل لأجلها

أقبل تُندَرُ إلى قتيبة، فقال:

- «أخلِنى!»

فنهض النّاس واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضبّى، فقال تُندَرُ:

- «هذا عامل يقدم عليك وقد عُزل الحجّاج، فلو انصرفت بالنّاس [472] إلى مَرو.»

فدعا قتيبةُ مولاه سيا، فقال له:

- «إضربْ عُنقَ تُندَر!»

فقتله.

ثمّ قال لِضرار:

- «لم يعلم هذا الخبر غيرى وغيرك، وإنّى أعطى الله عهدًا، إن ظهر هذا الحديث من أحد حتّى تنقضى حربنا، لأُلحقنّك بتندر، فاملك لسانك، فإنّ انتشار هذا الحديث يفتُّ فى أعضاد النّاس.»

ثمّ أذن للنّاس، فدخلوا، فراعهم قتلُ تُندر، فوجموا وأطرقوا، فقال قتيبة:

- «ما يردعكم من قتل عبدٍ أحانه[٣] الله.» قالوا:

- «كنّا نظنّه ناصحًا للمسلمين.» قال:

- «بل كان غاشًا، قد مضى لسبيله بذنبه، فاغدوا على قتال عدوّكم والقوهم بغير ماكنتم

---

١) تُندر: فى الأصل: تنذر بفتح الأوّل والصّحيح كما ضبطناه، لأنّه اسمٌ فارسى بمعنى الرّعد وضبطه فى القواميس الفارسية: Tondar. وما فى الطبرى (١١٨٦:٨): تندر، ومصحفات فى الحواشى.

٢) يفتأ: من قولهم: فتأه عن الأمر، أى: سكّنه عنه، كفّهُ عنه.

٣) أحانه الله: أهلكه الله. لأنّ الحَين بمعنى الهلاك والمحنة.

تلقونهم به.»

فغدا النّاس متاهبين، فأخذوا مصافَّهم، ومشى قتيبةُ فحضّ أهل الرّايات. فكانت بين النّاس مشاولةٌ. ثمّ إنّهم تزاحفوا والتقوا، وأخذت السيوف مآخذها، فقاتلوهم حتّى زالت الشمس، ثمّ منح الله المسلمين أكتافهم، فانهزم المشركون يريدون المدينة، فاتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدُّخول، فتفرّقوا، وركبهم المسلمون قتلاً وأسرًا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل. فوضع قتيبة [473] الفعلة فى أصلها ليهدمها، فسألوهُ الصُّلحَ فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من قيس، وارتحل عنهم يريد الرُّجوع. فلمّا سار مرحلتين نقضوا، وكفروا، وقتلوا العامل وأصحابه وجدَعوا أنُفَهم[١] وآذانهم، وبلغ ذلك قتيبة، رجع إليهم وقد تحصّنوا، فقاتلهم شهرًا، ثمّ وضع الفعلة فى أصل المدينة، فعلّقوها بالخشب و هو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فينهدم. فسقط الحائط وهم يعلّقونه، فقتل أربعين رجلاً من الفعلة، فطلبوا الصلح، فأبى، وقاتلهم، فظفر بها عَنوةً، فقتل من كان فيها من المقاتلة، وكان فى من أخذوا فى المدينة رجل أعور كان هو الذى استجاش[٢] التُّركَ على المسلمين. فقال لقتيبة:

- «أنا أفدى نفسى.»

فقال له سُليم النّاصح:

- «ماتبدل؟» قال:

- «خمسة آلاف حريرة صينيّة قيمتها ألف ألف [١،٠٠٠،٠٠٠].»

قال قتيبة:

- «ماترون؟» قالوا:

- «نرى أنّ فداءَه زيادة فى غنائم المسلمين وما عسى أن يبلغ من كيد هذا؟»

قال:

- «لا والله، لايروّع بك مسلم أبدًا.»

وأمر به فقُتل. وأصاب فى بَيكَند من آنية الذّهب والفضّة مالايُحصى. فولّى الغنائم والقَسمَ [474] عبدالله بن وَألان، وكان قتيبة يسمّيه الأمينَ بن الأمين،وإياس بن بَيهس، فأذابا الآنيةَ والأصنامَ ورفعاه إلى قتيبة، ورفعا إليه خَبَث[٣] ما أذابا، فوهبه لهما، فأُعطيا به أربعين ألفًا، فأعلماه

---

١) أنُفَهم: كذا فى الأصل. وفى مط: آنافهم. كلاهما صحيح وجمع مفرده الأنف.

٢) استجاش (بالجيم المعجمة): كذا فى الأصل. وما فى مط: استحاش (بالحاء المهملة) وما فى الأصل هو الصحيح.

٣) الخَبَث: ماكان فى الذّهب والحديد ونحوهما من الغش.

فرجع فيه، فأمرهما أن يذيباهُ، فأذاباه، فخرج منه خمسون ألف مثقال. وأصابوا فى بيكند شيئًا كثيرًا، فصار فى أيدى المسلمين من بيكند شىءٌ لم يصيبوا مثله بخراسان.

ذكر اتّفاق عجيب مع إضاعة حزم

وهو السّبب الّذى سمى به قتيبةُ عبدَالله بن وألان الأمين بن الأمين

كان السّبب الّذى سَمّى قتيبة له عبدَالله بن والان الأمين بن الأمين أنّ مسلمًا الباهلىّ قال لوألان:

- «إنّ عندى مالاً أحبُّ أن استودعكه.» فقال:

- «أ تريد أن يكون مكتومًا أولا؟»

فكره أن يعلمه النّاس. قال:

- «لا، بل أحبُّ أن تكتمه.» قال:

- «إبعثْ به مع رجل، تثق به إلى موضع كذا.»

وأمره إذا رأى رجلاً جالسًا فى ذلك الموضع أن يَضعَ ما معه وينصرف. قال:

- «نعم.»

فجعل المسلم المال فى خُرجٍ وحمله على بغلٍ، [475] وقال لمولًى له:

- «إنطلق بهذا البغل إلى موضع كذا، فإذا رأيتَ رجلاً جالسًا، فخَلّ عن البغل وانصرف.»

فانطلق الرّجل بالبغل، وقد كان وألان أتى الموضع لميعاده، فأبطأ عليه رسول مسلم، ومضى الوقت الّذى وعده، فظنّ أنّه قد بدا له، فانصرف، وجاء رجلٌ من بنى تغلب، فجلس فى ذلك الموضع، وحضر الرّسول مع البغل والمال، فرأى الرّجلَ جالسًا، فخلّى عن البغل ورجع. فقام التّغلبىُّ، فلمّا رأى البغل والمال ولم يَرَ معه أحدًا قاد البغلَ إلى منزله وقبض المال إليه.

وكان ظنّ مسلمٌ أنّ المال صار إلى وألان، فلم يسألْ عنه حتّى احتاج إليه، فلقيه وقال:

- «مالى.» قال:

- «ماقبضتُ شيئًا ولا لك عندى مال.»

فكان مسلم يشكوه ويتنقّصه. فأتى يومًا مجلس بنى ضُبيعة، فشكاه، والتّغلبىُّ جالسٌ. فقام إليه وخلا به وسأله عن المال، فأخبرهُ، فانطلق به إلى منزله، وأخرج الخُرج إليه، وقال:

- «أ تعرفه؟» قال:

- «نعم،» قال:

- «والخاتم؟» قال:
- «نعم.» قال:
- «فاقبض مالك.»

وأخبره الخبر. فكان مسلمٌ بعد ذلك يأتى القبائل وجميع مَن شكا وألان عندهم وخوّنه فيعذرهُ ويخبرهم الخبر. [476]

ذكر رأى للحجّاج
أشار به وهو بواسط على قُتيبة وهو بخراسان حتّى فتح بخارىٰ
وموقفٍ لأصحاب قتيبة مستحسن

غزا قتيبة وردان خذاه ملك بخارىٰ سنة تسع وثمانين، فلم يظفر من البلد بشىء. فرجع إلى مرو، فكتب إليه الحجّاج:

- «صوِّرها لى والطُّرقَ إليها.»

فبعث إليه بصورتها. فكتب إليه الحجّاج أن:

- «إرجع إلى مراغتك فتُبْ إلى الله عزّوجلّ ممّا كان منك وائتها من مكان كذا وكذا.»[1]

فخرج قتيبة إلى بخارىٰ وذلك فى سنة تسعين، من حيث أشار به الحجّاج، فأرسل وردان خذاه إلى السُغد والتُرك ومَن حولهم يستنصرهم. فأتوهم وقد سبق إليها قُتيبة، فحصرهم. فلمّا جاءتهم أمدادهم خرجوا إليهم يقاتلونهم، فقالت الأزد:

- «إجعلونا على جدة وخلّوا بيننا وبين قتالهم.»

فقال لهم قتيبة:

- «شأنكم، تقدّموا.»

فتقدّموا، فقاتلوهم وقتيبة جالسٌ عليه رداءٌ أصفر فوق سلاحه، فصبروا جميعًا، ثمّ جال المسلمون وركبهم المشركون، فحطّموهم حتّى دخلوا عسكر قُتيبة وجازوهُ حتّى ضرب النّساءُ وُجوهَ الخيل [477] وبكين، وقاتلوهم حتّى ردّوهم. فوقف التُرك على نَشَزٍ[2]، فقال قتيبة:

---

١) وزاد فى الطبرى (٨:١١٩٩، ١٢٢٩): «وقيل: كتب إليه الحجّاج أن: كِس بِكِسْ، وانسفْ نَسفًا، وردْ وردان، وإيّاك والتحويطَ، ودعْنى من بُنيّات الطريق.»

٢) النَّشز: المكان المرتفع. وفى الطبرى أيضًا: نَشز (بالزاء المعجمة).

ـ «مَن يُزيلهم لنا عن هذا الموقف؟»

فلم يُقدم عليهم أحدٌ والاحياء[١] كلُّهم وقوفٌ. فمشى قتيبة إلى بنى تميم فقال:

ـ «يا بنى تميم، أنتم بمنزلة الحُطَمة[٢]، فيومًا كأيّامكم، فداؤكم أبى.»

فأخذ اللّواءَ وكيعٌ بيده وقال:

ـ «يا بنى تميم، أتُسلمونى اليوم؟» فقالوا:

ـ «لا يا باالمُطرف.»

وهُريم بن طحفة المجاشعىّ على خيل بنى تميم و وكيعٌ راسُهم. فأحجموا جميعًا، فقال وكيع:

ـ «ياهُريم، قدِّم!»

ودفع إليه الرّايةَ، وقال:

ـ «قدِّم خيلك.»

فتقدّم هُريم ودبّ وكيعٌ فى الرّجال، فانتهى هُريم إلى نهر بينه وبين العدوّ، فوقف وقال له وكيعٌ:

ـ «أقحِمْ ياهُريم.»

فنظر هُريم إلى وكيع نظرَ الجمل الصَّؤول[٣] وقال:

ـ «أنا أورد وأقحم خيلى هذا النّهر، فإن انكشفت كان هلاكها. والله إنّك لأحمق.» قال:

ـ «يابن اللّخناء لا أراك تردُّ أمرى.»

وحذفه[٤] بعمودٍ كان معه. فضرب هُريم فرسَه فأقحمه، وقال:

ـ «ما بعد هذا أشدُّ من هذا.»

وعبر هُريم فى الخيل، وانتهى وكيع إلى النّهر، فدعا بخشب فقنطر على النّهر وقال لأصحابه:

---

١) الأحياء: أى احياء العرب (انظر الطبرى ٨:١٢٠٢).

٢) الحُطَمة: كذا فى الأصل. وفى الطبرى الحُطميّة. وفى حواشيه: الحطمة الحُطيَة.

٣) الجمل الصَّؤول: الجمل الّذى يهجم على النّاس ويقتلهم. من قولهم: صَؤُلَ (يصؤُلُ صَالةً) البعير: أخذ يهجم على النّاس ويقتلهم.

٤) حذفه (بالدال المهملة): لغة فى حذفه: أى ضربه. الحذف بالعصا كالقذف بالحصى. وما فى الطبرى (٨:١٢٠٢): حذفه (بالذال المعجمة).

- «من وطّن منكم نفسَه على الموت فليعبر، ومَن لا فَلْيثبتْ مكانَه.»

فما عبر معه إلاّ [478] ثمانمائة رجل، فدبّ حتّى إذا أعيَوا [أقعدهم][1] فأراحوا حتّى إذا دنَوا من العدوّ جعل الخيل مُجنَّبتين، وقال لهُريم:

- «إنّى مطاعنٌ القومَ فاشغلهم عنّا بالخيل وقل للنّاس: شدُّوا.»

فحملوا، فوالله ما انثنَوا حتّى خالطوهم، وحمل هريم [فى] خيله[2] عليهم، فطاعنوهم بالرّماح، فماكفُّوا عنهم حتّى حدَروهم عن موقفهم، ونادى قتيبةُ:

- «من جاءَ برأسٍ فله مائةٌ.»

فزعم موسى بن المتوكّل القُريعىّ، قال: جاءَ يومئذٍ أحد عشر رجلاً من بنى قريعٍ كلُّ رجل يجىءُ برأسٍ، فيقال:

- «ممَّن أنت؟» فيقول:

- «قُريعىٌّ.»

فجاءَ رجل من الأزد برأس، فقالوا له:

- «مَن أنتَ؟» فقال:

- «قريعىٌّ.»

قال: وجهمُ بن زَحرٍ قاعدٌ، فقال:

- «كذبَ والله، أصلح الله الأمير، والله لَابنُ عمّى.»

فقال له قتيبة:

- «ويحك! ما الّذى دعاك إلى هذا؟» قال:

- «رأيتُ كلَّ من جاءَ برأسٍ قال: قريعىٌّ. فظننتُ أنّه ينبغى لكلّ من جاءَ برأس أن يقول ذلك.»

فضحك قتيبة حتّى استغرب[3].

وفتح الله على يديه بُخارى، وفضَّ أولئك الجمع. فلمّا تمّ له ذلك هابه أهل الصُغد، فرجع طرخون ملك الصُغد ومعه فارسان حتّى وقف قريبًا من عسكر قتيبة [479] وبينهما نهر بخارى،

---

١) ما فى الأصل غير واضح ويشبه أن يكون: «لم تقدهم؟». وما أثبتناه ماخوذ من الطبرى ١٢٠٢:٨.

٢) وحمل هريم خيله عليهم: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى ابن الأثير (٥٤٣:٤): وحمل هريم فى الخيل. فزدنا «فى» بامارة ما فى ابن الأثير.

٣) إستَغرب، واستُغرب، وأغرب فى الضّحك: بالغ فيه.

فسأل أن يبعث إليه رجلاً يكلّمه، فأمر قتيبة رجلاً، فدنا منه فسأل الصُلحَ على فدية يُؤدّيها إليهم، فأجابه قتيبة إلى ماطلب، وصالحه وأخذ منه رُهنًا حتّى بعث إليه بما صالحه عليه. وانصرف طرخون إلى بلاده، ورجع قتيبة ومعه نيزك.

ذكر غدر نَيزك
ونقضه عهد قتيبة، وظفر قتيبة به بعد ذلك
وقتله إيّاهُ

أمّا طرخون فقد ذكرنا أنّه هاب قتيبة فصالحه، وأمّا نيزك فإنّه هابه ونقض الصُلح. وكان سبب غدره أنّه لمّا فصل من بخارى مع قتيبة رأى ماصنع طرخون فقال لأصحابه وخاصّته:

ـ «إنّى قد هبتُ هذا العربىَّ لما يتمُّ على يده من الفتوح وأنا معه ولستُ آمَنُه، وذلك أنّ العربىَّ بمنزلة الكلب إذا ضربتَه نبح، وإذا أرضيتَه بَصبصَ[١]، وإن أنَا غزوتُه ثمّ أرضيتُه شيئًا نَسِىَ ماصنعتُ به، وقد قاتله طرخون مرارًا، فلمّا أعطاه فديةً قبلها، وهو مع ذلك شديد السَّطوة فلو استأذنتُه ورجعتُ، كان الرّأى.» قالوا:

ـ «فافعلْ.»

فاستأذنه فى الرُّجوع إلى [480] طخارستان فأذن له، فقال لأصحابه:

ـ «أجِدُّوا السَّيرَ.»

فساروا سيرًا شديدًا حتّى أتَو النُّوبهار[٢]. فنزل يصلّى فيه ويتبرّك به، وقال لأصحابه:

ـ «إنّى لا أشكُّ أنّ قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لى، وسيقدم الساعةَ رسولُه على المغيرة بن عبدالله يأمره بحبسى فأقيموا ربيئةً[٣] ينظر، فإذا رأيتم الرّسول قد جاوز المدينة وخرج من الباب فإنّه لايبلغ البروقان حتّى يبلغ طخارستان.»

فبعث المغيرة رجلاً فلايدركنا حتّى نبلغ شعب خَلم[٤]، ففعلوا، وكان كما قال: وأقبل رسول قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبس نَيزك. فلمّا مرَّ الرسول إلى المغيرة وهو بالبَروقان ـ ومدينةُ بلخ

١) بصبص الكلب: حرّك ذَنَبه.

٢) النُوبهار: معبد بوذىّ كانت البرامكة يلون سدانته قبل إسلامهم ثمّ وزارتهم للعبّاسيين. ويقال: إنّه كان بيت نار فى بلخ، وكانت له مكانة عند المجوس مثل ما للكعبة عند المسلمين (فه). أنظر أيضًا الطبرى ٨:١١٨١، ١٢٠٥.

٣) الرَّبيئة: الطليعة الّذى يرقب العدوّ من مكان عالٍ لئلاّ يدهم قومه. وما فى الطبرى: ربئة.

٤) خَلم: كذا ضُبط فى الأصل (بفتح الخاء المعجمة) وضُبط فى الطبرى: خُلم (بضم الخاء).

يومئذٍ خراب ـ ركب نيزك فى أصحابه فمضوا، وقدم الرَّسول على المغيرة وهو بالبَروقان فى طلبه، فوجده قد دخل فى شعب خَلم، فانصرف المغيرة، وأظهر نيزك الخلع، وكتب إلى إصبهبد بلخ، وإلى باذان ملك مروروذ، وإلى سهرك ملك الطالقان، وإلى شهرك ملك الفارياب، وإلى ملك الجوزجان يدعوهم إلى خلع قتيبة، فأجابوه وواعدهم [481] الرَّبيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة، وكتب إلى كابُلشاه يستظهر به، وبعث إليه بثَقَله، وسأله أن يأذن له، إن اضطرَّ إليه، أن يأتيه ويؤمنه فى بلاده. فأجابه إلى ذلك، وضمَّ ثَقَلَهُ. وكان جبغويه[1] ملك طخارستان ونيزك من عبيده، إلاَّ أنَّه كان ضعيفًا واسمه الشَنْذُ[2]. فأخذه نيزك وقيَّده بقيد من ذهب مخافة أن يشغب عليه ويمنعه. فلمَّا استوثق منه أخرج عامل قتيبة من بلاد جبغوية وكان العامل محمَّد بن سليم النَّاصح، وكان محبَّبًا مُصدَّقًا عند النَّاس، وبلغ قتيبة خلع نيزك فى قبل الشّتاء، وقد تفرَّق عنه الجند، فلم يبق معه إلاَّ أهل مرو، فبعث أخاه عبدالرَّحمان إلى بلخ فى اثنى عشر ألفًا إلى البروقان وقال:

ـ «أقمْ ولاتُحدث شيئًا، فإذا حسر الشّتاء فعسكرْ وسرْ نحو طخارستان واعلم أنّى قريبٌ منك.»

فسار عبدالرَّحمان، فنزل البروقان، وأمهل قتيبة، حتَّى إذا كان فى آخر الشّتاء كتب إلى أهل أبرشهر وأبيورد وسرخس، فقدموا عليه مع أهل هراة، فأوقع بالطالقان لأنَّ ملكها [482] طابق نيزك على حرب قتيبة و واعده مع من استجاب للنُهوض معه من الملوك لحرب قتيبة، فسار قتيبة إلى الطَّالقان، فأوقع بأهلها وقتل منهم مقتلة عظيمة وطلب منهم سماطين أربعة فراسخ فى نظام واحدٍ، وبلغ مرزبانَ مرو الرُّوذ إقبالُه إلى بلاده، فهرب إلى بلاد الفرس. فقدم قتيبة مرو الرُّوذ، فوجد ابنين له فقتلهما وصلبهما، ومضى إلى ملك الفارياب، فتلقَّاه ملكها بالطاعة، فرضى عنه ولم يقتل بها أحدًا، واستعمل عليها رجلاً، وخرج صاحب الجوزجان هاربًا، فترك أرضه ولحق بالجبال، ثمَّ مضى يتبع أخاه عبدالرَّحمان وكان خلَّف نيزك على فم الشّعب مقاتِلةً، وترك أيضًا فى قلعة من وراء الشّعب مقاتلةً، فأقام قتيبة أيَّامًا يقاتلهم على مضيق الشعب لايَقدم منهم على شىء ولايقدر على دخوله ولايعرف طريقًا يُفضى إلى نيزك إلاَّ الشّعب أو مفازة لاتحمل العساكر.

---

١) جبغويه: الحرف الثانى مهمل من النقط فى الأصل، فأعجمناه كما تكرّر فى المواضع التالية. فى مط: جبغويه، وفى متن الطبرى (١٢٢١:٨): جيغويه. وفى حواشيه عن الأصول: جبعونة وجيغويه.

٢) الشَنْذُ: كذا فى الأصل بالضّبط. وما فى الطبرى (١٢٠٦:٨) بالضّبط: الشذ.

فهو فى ذاك متحيّرٌ إذ قدم عليه [الرُّوب خان][١] ملك الرُّوب[٢]، فاستأمنه على أن يدلّه [483] على مدخل القلعة الّتى من وراء الشّعب. فآمنه قتيبة وأعطاه ماسأله، وبعث معه رجالاً ليلاً، فانتهى بهم إلى القلعة الّتى من وراءِ شعب خلم، فطرقوهم وهم آمنون وفلّوهم وهربَ من كان فى الشّعب، ودخل قتيبةُ، والنّاس معه، الشّعبَ، وسار إلى نيزك، وقدّم أخاه عبدالرّحمان، وبلغ خبرُه نيزك[٣]، فارتحل من منزله وقطع وادى فرغانه، ووجّه بثَقَله وأمواله إلى كابلشاه، ومضى حتّى نزل الكُرُزَ وعبدالرّحمان بن مسلم يتبعه، وأخذ عليه مضائق الكرُز، فتحرّز نيزك فى الكُرُز وليس إليه مسلك إلاّ من وجهٍ واحد وذلك الوجه صعبٌ لاتُطيقه الدّوابُّ. فحصره قتيبة شهرين حتّى قلّ ما فى يد نيزك من الطّعام، وأصابهم الجُدرىُّ وجُدِّر جبغويه، وخاف قتيبة الشّتاءَ، فدعا سليمًا النّاصحَ فقال له:

- «إنطلق إلى نيزك، فاحتَلْ أن تأتينى به بغير أمان، فإن أعياك وأبىٰ فآمِنْه واعلم أنّى إن عاينتُك وليس هو معك صلبتُك، فاعمل[٤] لنفسك.»

قال:

- «فإن كنتَ فاعلاً فاكتبْ إلى عبدالرّحمان لايخالفنى.» [484] وكان بينهما فرسخان. قال:

- «نعم.»

فكتب له.

فلمّا قدم على عبدالرّحمان، قال له:

- «إبعثْ رجالاً، فليكونوا على فم الشّعب، فإذا خرجتُ أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا، فليحولوا بيننا وبين الشّعب.»

قال: فبعث عبدالرّحمان خيلاً، فكانت حيث أمرهم سُليم، وحمل معه من الأطعمة والأُخبصة[٥] الّتى تبقى أيّامًا أوقارًا حتّى أتى نيزك، فقال له نيزك:

---

١) الرُّوب خان: ما فى الأصل ومط: الرومجار. إلاّ أنّ الحرف الأخير غير واضح فى الأصل.

٢) كذا فى الأصل والطبرى ١٢١٩:٨. وما فى مط: الروم. وما أثبتناه فى الكلمتين، ترجيح لما فى الطبرى. وفى حواشى الطبرى: الزوب جار.

٣) نَيزك: كذا فى الأصل والطبرى فى جميع المواطن. وما فى مط: بترك.

٤) فاعمل: كذا فى الأصل وهى ساقطة من مط.

٥) الأخبصة: كذا فى الأصل. وما فى مط: الاحبصة (بالحاء المهملة). والخبيصة الحلواء المخبوصة وهى أخصّ من الخبيص الذى هو حلواء معمولةبالتّمر والسّمن.

- «خذلتنى ياسُليم!» قال:
- «ماخذلتُك، ولكن عصيتَنى وأسأتَ إلى نفسك، خلعتَ وغدرتَ.» قال:
- «دَعنى من العتاب، مالرّأى؟» قال:
- «الرّأى أن تأتيه، فقد أمحكتَه[١] وليس ببارحٍ[٢] موضعَه هذا وقد اعتزم على أن يشتُوَ بمكانه، هلكَ أو سلمَ.» قال:
- «يا سُليم آتيه من غير أمان.» قال:
- «ما أظنُّه يؤمنك، فقد ملأتَ قلبه غضبًا، ولكنّى أرى ألاّ يعلم بك حتّى تضعَ يدك فى يده، فإنّى أرجو إن فعلتَ ذلكَ أن يستحى منك ويعفو عنك.» قال:
- «أ ترى ذاك؟» قال:
- «نعم.» قال:
- «إنّ نفسى لتأبى هذا وهو إن رءَانى قتلنى.»

قال سليم:

- «ما أتيتك إلاّ لأشيرَ عليك بهذا، ولو فعلتَ لرجوتُ [485] أن تسلم وتعود حالُك عنده إلى ماكانت. فأمّا إذا أبيتَ فأنا منصرف.» قال:
- «فتغدَّ الآن.» قال.
- «لأظنُّكم فى شغل عن تهيئة الطّعام ومعنا طعام كثير.»

ودعا سليم بالغداء، فجاؤوا بطعام كثير لاعهد لهم بمثله منذ حُصروا، فانتهبه الأتراك، فغمَّ ذلك نيزكَ وتبيّن ذاك فى وجهه. فقال له سليم:

- «ياأبا الهيّاج، إنّى لك من النّاصحين، إنّى أرى أصحابك قد جهدوا، وإن طال بهم الحصار لم آمنهم أن يستأمنوا بك، فانطلقْ معى حتّى تأتى قتيبة.» قال:
- «ماكنتُ لآتيَه على غير أمان وإنّ ظنّى به أنّه قاتلى وإن آمننى، ولكنّ [الأمان][٣] أعذر لى وأرجىْ أن يؤمننى.» قال:
- «فقد آمنك، أفتتّهمنى؟ قال:

---

١) أمحكه: ماحكه: محكه: خاصمه ولاجّهُ وتمادى فى اللّجاجة. أمحكه: أغضبه.

٢) ببارح: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: تبارح وهو خطأ.

٣) مابين [ ] أخذناه من الطبرى ١٢٢١:٨. وهو ساقط من الأصل ومط كليهما.

- «لا.» قال:
- «فانطلق معى.»

فقال له أصحابه:

- «إقبلْ قولَ سُليم، فلم يكن ليقول إلاّ حقًا.»

فدعا بدوابّه وخرج مع سليم فلمّا انتهى إلى الدّرجة الّتى يهبط منها إلى قرار الأرض، قال:

- «يا سُليم، من كان لايعلم متى يموت فإنّى أعلم متى أموت. أموتُ ساعة أعاين قتيبة.»

قال:

- «كلاًّ!»

فركب ومضى معه جبغويه، وقد كان برا من الجُدرىّ. فلمّا خرجوا من الشّعب عطفت الخيل الّتى خلّفها [486] سليم على فوهة الشّعب، فحالوا بين الأتراك وبين الخروج، فقال نيزك لسليم:

- «هذا أوّل الشرّ.» قال:
- «لا تفعل، تخلّفُ[١] هؤلاءِ عنك خيرٌ لك.»

وأقبل سليم ونيزك ومن خرج معه حتّى دخلوا على عبدالرّحمان بن مسلم. فأرسل رسولاً إلى قتيبة يُعلمه، فأرسل قتيبة عمرَو بن مهزوم إلى عبد الرّحمان أن اقدَمْ بهم. فحبس أصحابَ نيزك، ودفع نيزكَ إلى ابن بسّام اللّيثى وكتب إلى الحجّاج يستأذنه فى قتل نيزك. فجعل ابن بسّام نيزك فى قبّته وحفر حول القُبّة خندقًا، فوضع عليه حرسًا، ووجّه قتيبةُ معاويةَ بن عامر بن علقمة العُليمى، فاستخرج ماكان فى الكُرز من المتاع ومَن كان فيه فقدم بهم على قتيبة فحبسهم ينتظر كتاب الحجّاج بعد اربعين يومًا يأمره بقتل نيزك، فدعا به وقال له:

- «هل لك عندى عقد أو عند عبدالرّحمان أو عند سليم؟» قال:
- «لى عند سليم.» قال:
- «كذبتَ.»

وقام ودخل وردّ نيزك إلى حبسه، فمكث ثلاثة أيّام ولايظهر للنّاس. وتكلّم النّاس فى أمر نيزك، فقال بعضهم:

- «لايحلُّ قتلُه.»

---

١) تخلُّفُ: كذا فى الأصل بالضّبط. وضُبطت الكلمة فى الطبرى: تُخلِّفُ. ولكلا الضّبطين وجه من الصّحة.

وقال بعضهم:

ـ «لايحلُّ له [487] تركُه.»

وخرج قتيبة فى اليوم الرَّابع، فجلس وأذن للنَّاس، فقال:

ـ «ماتَرون فى قتل نيزك؟»

فاختلفوا: فقال قائلٌ:

ـ «أقتُله.» وقال قائل:

ـ «قد أعطيتَه[1] عهدًا، فلاتقتله.» وقال قائل:

ـ «لا تأمنه على المسلمين.»

فدخل ضرار بن الحصين الضبِّى. فقال:

ـ «ماتقول يا ضرار؟» قال:

ـ «أقول: إنِّى سمعتك تقول: أعطيتُ الله لئن مكَّنتى منه لأُقتلنَّه! فإن لم تفعل لم ينصرك عليه.»

فأطرق قتيبةُ طويلاً ثم قال:

ـ «والله، لئن لم يبقَ من أجَلى إلاَّ ثلاث كلمات لقلتُ: أقتلوه، أقتلوهُ، أقتلوه.»

وارسل إلى نيزك، فأمر بقتله وقتلِ أصحابه. فقُتلوا وهم سبعمائة.

وفى رواية أُخرى: إنَّ قتيبة قال لبكر بن حبيب السهمى من باهلة:

ـ «هل بك قوَّةٌ؟» قال:

ـ «نعم، وأزيد[2].»

وكانت فى بكر أعرابيَّةٌ، قال:

ـ «دونك هؤلاءِ الدَّهاقين.»

فقتل يومئذٍ اثنى عشر ألفًا، وصلب نيزك وابنى أخيه فى اصل عين تُدعى: وَخْش خاشان.

ثمَّ أذن قتيبة للسُّبل والشَّذ، فانصرفا إلى بلادهما، وأطلق جبغوية ومنَّ عليه، وبعث به إلى الوليد، فلم يزل بالشَّام حتَّى مات الوليد.

وكان الحجَّاج يقول:

---

١) قد أعطيته: كذا فى الأصل. وما فى مط: أعطيتم.

٢) أزيد: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٢٢٣:٨): أريد.

ـ «بعثت قتيبةَ [488] فتًى غِرًّا. فما زدتُه ذراعًا إلاّ زادنى كراعًا.»

[فتح شومان وكِسّ ونَسَف]

ثمّ غزا قتيبة شُومانَ وكِسَّ ونَسَف، ففتحهـا عنوةً، وسـرّح أخـاه عبدالرّحمان بن مسـلم إلى السُغد، فسار حتّى نزل بمرجٍ قريبٍ منهم، فراسله ملكُها بشىء صـالحه عليهـا، ودفـع إليه رُهنًا كانوا معه، وانصرف عبدالرّحمان إلى قتيبة وهو ببخـارى، فـرجعوا إلى مرو، فقـالت السُـغد لطرخون:

ـ «إنّك قد رضيتَ بالذُلّ، وأعطيتَ الجزية وأنت شيخ!» فقال:

ـ «إنّ عدوّنا قوىّ، وأرىٰ مداراته أدوم لنا وأجمع لشملنا.» فقالوا:

ـ «لاحاجة لنا فيك.» قال:

ـ «فولّوا مَن أحببتم.»

فولّوا غورَك[1] وحبسوا طرخون. فقال طرخون:

ـ «ليس بعد سـلب المُلك والحبس إلاّ القتل، فيكـون ذلك بيدى أحـبُّ إلىّ من أن يليه منّى غيرى.»

واتكأ على سيفه حتّى خرج من ظهره.

[فتح خوارزم]

وغزا قتيبةُ خوارزم، فصالحه صاحبها، ومضى منها إلى السُغد، وذلك فى سنة ثلاث وتسـعين. وكان سبب ذلك أن ملك خوارزم كان ضعيفًا، فغلبه أخوه خُرَّزاذ على أمره،وكان خُرَّزاذ أصغرمنه، فكان إذا بلغه أنّ عند [489] أحدٍ ممّن هو منقطع إلى الملك، جاريةً أو دابّةً أو متاعًا فاخرًا، أرسل فأخذه، وإذا بلغه أنّ عند أحدٍ منهم بنتًا[2] أو أختًا جميلةً أرسل فغصبه إيّاها، فإذا شكـى إلى الملك. قال:

ـ «لا أقوى عليه.»

وقد ملأه مع هذا غيظًا. فكتب إلى قتيبة يدعوه[3] إلى أرضه، واشترط عليه أن يدفـع إليه أخـاه

١) غورك: كذا فى الأصل. وما فى مط: عورك (مهملة). وفى الطبرى (١٢٢٩:٨): بالضبط: غوزك.

٢) بنتًا: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: بنيا!

٣) سقط من مط من قوله «يدعوه إلى أرضه» ←

وكلُّ من كان يُضادُّه ليحكم فيه مايرىٰ. وبعث فـى ذلك رسـلاً ولم يُطلع أحـدًا من مزاربته على ماكتب به. فقدم رُسله على قتيبة فى آخر الشتاءِ وقت الغزو وقد تهيَّأ للغزو، فـأظهر قتيبةُ أنَّه يريد السُّغدَ، ورجع رسل خوارزم شـاه إليه بما أحـبَّ من قِبل قتيبة، وجمع خـوارزم شـاه دهاقنته وأمناءَه، فقال لهم:

- «إنَّ قتيبة يريد السُّغد وليس بغازيكم، فهلمُّوا نتنعَّم فى ربيعنا.»

فأقبلوا على الشُّرب والتنعُّم وأمنوا عند أنفسهم الغـزوَ، فلم يشـعروا حتَّى نزل قتيبة فـى هَزار دَشت[1]، فقال خوارزم شاه لأصحابه:

- «ماترون؟» فقالوا:

- «نَرى أن نقاتله.» قال:

- «لكنِّى لا أرى ذلك، لأنَّه عجز عنه من هو أقـوى منَّا وأشـدُّ شـوكةً، ولكنَّا نُؤدِّى إليه شـيئًا نصرفه به عامَنا [490] ونرى رأيَنا.» قالوا:

- «فرأينا رأيك.»

فأقبل خوارزم شاه حتَّى نزل فى مدينة الفيل من وراءِ النَّهر ومدائن خـوارزم ثلاثٌ يطيف بهـا فارقين واحد[2]، فمدينة الفيل أحصنهنَّ، وقتيبة فى هزاردشت بينهما نهر بلخ، فلم يعبر، فصـالحه على عشرة آلاف رأسٍ وعين ومتاعٍ على أن يُعينه على ملك خامجرد[3] وأن يفى له بما كتب إليه. فقبل منه قتيبة ووفى له، وبعث أخاه إلى ملك خامجرد، وكان يُعادى خـوارزم شـاه، فقـاتله فقتله عبدالرَّحمان وغلبه على أرضه، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير. فلمَّا جاءَبهم عبدُالرَّحمان أمر قتيبة بسريره، فأخرج فقتل الأسرى بين يديه.

فحكى المهلَّب بن إياسٍ أنَّه أُخذت سيوف الأشراف يُضرب بها الأعناق فكان فيها مالايقطع ولايجرح. فأُخذ سيفى فلم يُضرب به شىءٌ إلاَّ أبانه. فحسدنى بعض آل قتيبة، فغمز الَّذى يضرب به أن اصفح بالسَّيف، فصفح به قليلاً، فوقع فى ضِرس المقتول فثلَّمه.

قال: فرأيتُ السَّيف وكان أبو الذَّيَّال يقول: هو [491] عندى بعينه.

← إلى قوله: «وبعث فى». فـأصبح النصّ فـى مط: «فكتب إلى قتيبة ذلك رسلاً»!

١) هزاردشت: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٢٣٨:٨): هزارَسْپ. وفى حـواشيه عن الأصـول: هزاسـت. وفى ابن الاثير (٥٧٠:٤): هزار اسب.

٢) كذا فى الأصل والطبرى (١٢٣٨:٨) أيضًا. والعبارة: «ومدائن خوارزم»، «فارقين واحد» فى ابن الأثير ٥٧٠:٤.

٣) خامجرد: فى الأصل: حام حرد (بالإهمال). والمثبت من الطبرى، ويؤيِّده ابن الأثير.

[فتح السُغد]

ولمّا أخذ قتيبة صلحَ صاحب خوارزم قام إليه المُجسّر[1] بن مزاحم السُّلَمى فقال:

ـ «إنّ لى حاجةً فأخلنى.»

فأخلاه، فقال:

ـ «إن أردتَ السُغد يومًا من الدّهر فالآن. فإنّهم آمنون من أن تأتيهـم عامك هذا، و إنّما بينك وبينهم عشرة أيّام.»

فقال له قتيبة:

ـ «أشار عليك أحدٌ بهذا؟» قال:

ـ «لا.» قال:

ـ «فأعلمتَه أحدًا؟» قال:

ـ «لا.» قال:

ـ «فوالله، لئن تكلّم به أحدٌ لأضربن عُنقَك.»

فأقام يومه ذلك. فلمّا أصبح من الغد دعا عبدالرّحمان فقال:

ـ «سِرْ فى الفرسان والمرامية وقدِّم الأثقال إلى مرو.»

فوُجِّهت الأثقال إلى مرو، ومضـى عبدالرّحمان يتبع الأثقـال يريد مرو يومه كلّه. فلمّا أمسـى كتب إليه:

ـ «إذا أصبحتَ فوجِّه الأثقال إلى مرو، وسِرْ فى الفرسان والمرامية نحو السُـغد واكتم الأخبار فإنّى بالأثر.»

فلمّا أتى عبدالرّحمان الخبرُ أمضى الأثقـالَ إلى مرو، وسـار حيث أمَره. وخـطب قتيبة النّاس فقال:

ـ «إنّ الله، عزّوجلّ، قد فتح لكم هذه البلدة فى وقتِ الغـزوُ فيه ممكـنٌ وهذه السُـغد [492] شاغرةٌ برجلها قد نقضوا العهـد الّذى كان بيننا، ومنعـونا من مال الصُـلح الّذى صـالحَنا عليه صاحبُهم، وصنعوا به مابلغكم. وقال الله، عزّوجلّ: ومَن نَكَثَ فإنّما يَنكُـثُ على نَفسه[2] . فسـيروا على بركة الله فإنّى أرجو أن تكون خوارزم والسُغد كالنَّضير وقُريظه.»

---

١) المجسّر: كذا فى الأصل (بالسين المهملة). وفى الطبرى (١٢٤١:٨) أيضًا: المجسّر وفى حواشيه عن الأصـول: المحسّن. المجشّر.. وفى ابن الأثير (٥٧١:٤): المجشّر.

٢) س ٤٨ الفتح: ١٠

فأتى السُغد وقد سبقه عبدالرّحمان بن مسلم فى عشرين ألفًا، وقدم عليه قتيبة فى أهل خوارزم بعد ثالثة ورابعة، فقال:

- «إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساءَ صَباحُ المنذَرين[١].»

فحصرهم شهرًا، فقاتلوه فى حصارهم من وجهٍ واحدٍ، وخاف أهل السُغد طولَ الحصار، فكتبوا إلى أهل الشاش وأخشيذ[٢] فرغانة:

- «إنّ العرب إن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به، فانظروا لأنفسكم فاجتمعوا على أن تأتوهم.»

فأرسلوا إليهم أن:

- «أرسلوا إليهم مَن يشغلهم حتّى نبيّت عسكرهم.»

وانتخبوا فرسانًا من أبناءِ المرازبة والأساورة والأشدّاءِ الأبطال، فوجّهوهم وأمروهم أن يُبيّتوا عسكرَهم. وجاءَت عيون المسلمين، فأخبروهم، فانتخب قتيبة [493]ثلاثمائة أو ستّمائة من أهل النّجدة واستعمل عليهم صالح بن مسلم.

وكان ملك الشّاش وإخشيذ فرغانة وخاقان لمّا أتاهم كتاب غورك قالوا:

- «إنّ صاحب السُغد بيننا وبين العرب، فإن وصلوا إليهم كنّا أضعف و أذلّ، فإنّا والله مانؤتىٰ إلاّ من سفلتنا وإنّهم لايجدون كوجدنا، ونحن معشرَ الملوك المعنيُّون بهذا الأمر.»

فانتخبوا أبناءَ الملوك و فتيانَهم وقالوا لهم:

- «أخرجوا حتّى تأتوا على عسكر قتيبة، فإنّه مشغولٌ بحصار السُغد.»

وولّوا عليهم ابنًا لخاقان. وبلغ قتيبة الخبر كما حكينا من أمره، فانتخب من أهل النّجدة والبأس، فكان منهم: شعبة بن ظُهير، و زُهير بن حيّان، وعدّة من أمثالهم، فقال لهم:

- «إنّ عدوّكم قد رأوا بلاءَ الله عندكم وتأييده إيّاكم، فأجمعوا على أن يحتالوا ويطلبوا غِرّتكم وبياتكم، واختاروا دهاقينَهم وملوكَهم، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم وقد فضّلكم [الله][٣] بدينه، فأبلوا الله بلاءًا حسنًا تستوجبون به الثواب مع الذّبّ عن أحسابكم.»

و وضع قتيبة [494] عيونًا على العدوّ، حتّى إذا قربوا منه قدر مايصلون إلى عسكرهم من اللّيل، أخرج الّذين انتخبهم، واستعمل عليهم صالح بن مسلم. فخرجوا من العسكر عند المغرب،

١) والآية: فإذا نَزَلَ بساحتِهم فساءَ صَباحُ المنذَرين (س ٣٧ الصّافّات: ١٧٧).

٢) كذا فى الأصل: إخشيذ. وما فى الطبرى (١٢٤٢:٨) وابن الأثير (٥٧٢:٤): إخشاد، وفى حواشى الطبرى اخشيد (بالدال المهملة).

٣) مابين [ ] تكملة من الطبرى (١٢٤٧:٨).

فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم الّذين وُصف لهم.

وفرّق صالحُ خيلَه، وأكمن كمينًا عن يساره ويمينه، حتّى إذا مضى نصف الليل أو ثُلثاهُ جاءَ العدوُ باجتماعٍ وإسراعٍ وصَمتٍ، وصالحُ واقفُ فى خيله. فلمّا رأوهُ شدُّوا عليه حتّى إذا اختلفت الرّماح شدَّ الكمينان عن يمينٍ وشمالٍ. فلم يُرَ قومُ كانوا أشدَّ منهم.

فتحدّث شعبة قال: إنّا لنختلف عليهم بالضّرب والطّعن إذ تبيّنتُ قتيبةَ، فضربت ضربة أعجبتنى وأنا أنظر إلى قتيبة فقلت:

ـ «كيف ترى بأبى أنتَ وأمّى؟» فقال:

ـ «أسكتْ دقَّ اللهُ فاكَ.»

فقتلناهم، فلم يُفلت منهم إلاّ الشّريد، وأقمنا نحوى الأسلابَ، ونحتزُّ الرّؤوس حتّى أصبحنا، ثمّ أقبلنا إلى العسكر. فلم أرَ قطُّ جماعةً جاؤوا بمثل ماجئنا به، مامنّا رجلُ إلاّ معلّقًا رأسًا معروفًا باسمه، وسَلَبًا من جيِّد السّلاحِ [495] وكريم المتاع ومناطق الذّهب ودوابُّ فُرهٍ، وجئنا بالرّؤوس إلى قتيبة، فقال:

ـ «جزاكم الله خيرًا عن الدّين والأحساب.»

ثمّ أكرمنى من غير أن يكون باح لى بشىءٍ، وقرن بى فى الصّلة والإكرام حيّانَ العَدوى وحُليسًا الشّيبانى. فظننتُ أنّه رأى منهما مثل الّذى رأى منّى. وكسر ذلك أهل السُّغد وطلبوا الصلح وعرضوا الفدية، فأبى قتيبة وقال:

ـ «أنا ثائرٌ بدم طرخون ـ يعنى صاحبَهم ـ كان مولاى، وفى ذمّتى.»

ووضع قتيبة عليهم المجانيق فرماهم وهو فى ذلك لايُقلع عنهم، وناصَحه من كان معه من أهل بخارىٰ وأهل خوارزم، وبذلوا أنفسهم.

فأرسل إليهم غورك:

ـ «إنّك إنّما تقاتلنى بإخوتى وأهلِ بيتى من العجم فاخرج إلى العرب.»

فغضب قتيبة ودعا الجَدَلىَّ وقال:

ـ «اعرض النّاس وميِّز أهل البأس.»

فجمعهم، ثمّ جلس قتيبة يعرضهم بنفسه، ودعا العُرفاءَ، فجعل يدعو برجلٍ رجلٍ فيقول:

ـ «ماعندكَ؟» فيقول العريف:

ـ «شجاعٌ.» ويقول:

ـ «ماهذا؟» فيقول:

- «محتضر[١].» ويقول:
- «ماهذا؟» فيقول:
- «جبان.»

فسمّى قتيبةُ الجُبناءَ الأُنتان[٢]، وأخذ خيلَهم وجيِّدَ سلاحهم [496] فاعطاه الشُّجعاءَ والمحتضرين[٣]، فترك لهم رثَّ السِّلاح، ثمّ زحف بهم فقاتل بهم فرسانًا ورجالاً، ورمى المدينة بالمجانيق، فثلم فيها ثلمة فسدُّوها بغرائر الدُّخْن[٤] وجاءَ رجلٌ حتّى قام على الثّلمة، فشتم قتيبة شتمًا قبيحًا فضيحًا[٥] بالعربيّة. وكان مع قتيبة قوم رُماةٌ، فقال لهم:

- «إختاروا منكم رجلين.»

فاختاروا. فقال:

- «أيُّكما يرى هذا الرَّجل، فإن أصابه فله عشرة آلاف وإن أخطأ قطعتُ يدَه.»

فتلكّأ أحدهما وتقدّم الآخر، فلم يُخطئ عينَه. فأمر له بعشرة آلاف.

فتحدّث يحيى بن خالدٍ بن ثابت مولى مسلم بن عَمرو قال: كنتُ في رُماة قتيبة، فلمّا فتحنا المدينة صعدتُ السُّور، فأتيتُ مقام ذلك الرَّجل الّذى كان فيه، فوجدتُه ميّتًا على الحائط ما أخطأت النُّشّابةُ عينَه حتّى خرجت من قفاه.

ثمّ أصبحوا من غدٍ فرمَوا المدينة حتّى ثلموا فيها. وقال قتيبة:

- «ألحوُّا عليها حتّى تعبروا الثّلمة.»

فقاتلوهم، ورماهم السُّغد بالنُّشّاب، فوضعوا تِرَسَتَهم على أعينهم، ثمّ حملوا حتّى صاروا على الثّلمة، وكانوا طلبوا الصُّلح، فقال قتيبة:

- «لا والله! [497] ماأُصالحكم إلاّ ورجالنا على الثّلمة ومجانيقنا تخطر على مدينتكم.»

فصالحهم من غدٍ على ألفى ألفٍ ومائتى ألفٍ[٦] [٢،٢٠٠،٠٠٠] فى كلّ عام، على أن يُعطوه تلك السَّنة ثلاثين ألف رأس[٧] ليس فيه صبيٌ ولاشيخٌ ولا ذوعيبٍ، وعلى أن يُخلوا المدينة

---

١) محتضر: كذا فى الأصل. وما فى الطبرى (١٢٤٤:٨): مختصر. ٢) الأُنتان: ما فى الأصل غير واضح والمثبت من الطبرى. ٣) المحتضرين: كذا فى الأصل. وما فى الطبرى المختصرين.

٤) الدُّخْن: نبات عُشبيٌ من النجيليّات، حبُه صغيرٌ أملس كحبِّ السّمسم ينبتُ بريًّا ومزروعًا.

٥) وعند الطبرى (١٢٤٩:٨) فى نقل رواية: «قال: فنادى منادٍ فصيح بالعربية، يشتم قتيبة.»

٦) كذا فى الأصل والطبرى ١٢٤٥:٨. وفى ابن الأثير: «... ومائتى ألف مثقال..»

٧) رأس: كذا فى الأصل والطبرى. وفى ابن الأثير: فارس.

لقتيبة، فلايكون لهم فيها مقاتل، فيبنى فيها مسجدٌ فيدخل ويصلّى، ويوضع له فيها منبر، ويتغدّى ويخرج.

فلمّا تمّ الصُلح بعث قتيبة بعشرة من كلّ خُمس[١] برجلين، فقبضوا ماصالحهم عليه، فقال قتيبة:

ـ «الآن ذلّوا حين صار أزواجهم وأولادهم فى أيديكم.»

ثمّ أخلَوا المدينة وبنَوا مسجدًا و وضعوا منبرًا، فدخلها قتيبة فى أربعة آلاف انتخبهم. فلمّا دخلها أتى المسجد، فصلّى وخطب، ثمّ تغدّى. وأرسل إلى أهل السُغد:

ـ «مَن أراد منكم أن يأخذ متاعَه فليأخُذ، فإنّى لستُ خارجًا منها، وإنّما صنعتُ هذا لكم، ولستُ آخذ منكم أكثر ممّا صالحتكم عليه غير أنّ الجند يُقيمون فيها.

والباهليّون يقولون: صالحَهم قتيبة على مائة ألف راس[٢] وبيوت النّيران وحِلية الأُصنام. فقبض [498] ماصالحهم عليه، وأُتى بالأصنام فسُلبتْ و وُضعت بين يديه وكانت كالقصر العظيم حين جُمعت، فأمر بتحريقها.

فقالت الأعاجم:

ـ «إنّ فيها أصنامًا مَن حرقها هلك.»

فقال قتيبة:

ـ «أنا أحرقُها بيدى.»

فجاءَ غورك[٣]، فجثا بين يديه وقال:

ـ «إنّ شكرك علىّ واجب، لاتَعرّضْ لهذه الأُصنام.»

فدعا قتيبة بالنّار، فأخذ شعلة بيده، وخرج فكبّر، ثمّ أشعلها وأشعل الباب، فاضطرمت، فوجدوا من بقايا ماكان فيها من مسامير الذهب والفضّة خمسين ألف مثقال.

[جارية رابعة ليزدجرد أصابها قتيبة]

ومن مُلح الحديث وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب، أنّ قتيبة أصاب بالسُغد جاريةً رابعة من

---

١) من كلّ خُمس: كذا فى الأصل (بالضبط) وفى الطبرى (١٢٤٥:٨) أيضًا.

٢) راس: كذا فى الأصل والطبرى (١٢٤٦:٨) وفى مط، وابن الأثير (٥٧٣:٤): فارس.

٣) غُورك: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٧:٨-١٢٤٦): غوزك. وفى ابن الأثير (٥٧٣:٤) غورك.

وَلد يزدجرد[١]، فقال:

- «أ تَرون ابن هذه يكون هجينًا؟» فقالوا:

- «نعم، يكون هجينًا من قبل أبيه.»

فبعث بها إلى الحجّاج، فبعث بها الحجّاج إلى الوليد، فولدتْ له يزيد بن الوليد.

[ما أوصى به قتيبةُ عبدَالله بن مسلم]

ولمّا فتح قتيبة سمرقند استخلف عليها عبدالله بن مسلم وخلّف عنده جندًا كثيفًا وآلةً من آلات الحرب كثيرة، وقال:

- «لا تدعَنّ مشركًا يدخل بابًا من أبواب سمرقند إلاّ [499] مختوم اليد، فإن جفّت الطينةُ قبل أن يخرج فاقتُله، وإن وجدتَ معه حديدةً أو سكّينا فماسواه فاقتُله، وإن أغلقتَ البابَ ليلاً فوجدتَ فيها منهم فاقتُله.

وقال قتيبة لمّا جمع بين فتح خوارزم وسمرقند:

- «هذا العِداءُ لاعِداءُ العَيرين.»

لأنّه افتتح خوارزم وسمرقند فى عامٍ واحدٍ، وذلك أنّ الفارس إذا صَرَعَ فى طَلَقٍ واحدٍ عَيرين، قيل: عادَى بين عَيرين.

[فتوحٌ أخرىٰ تمّت فى هذه المدّة]

وفى هذه المدة الّتى ذكرنا فيها أمور الحجّاج بالعراق وأخباره مع الخوارج وعبدالرّحمان بن الأشعث وغزوات قتيبة والمهلّب قبلَه كانت غزوات لعبدالله بن عبدالملك أرض الرُوم، ففتح فيها المصيصة وغيرها، و غزوات لمسلمة بن عبدالملك، ففتح فيها طُوانة، وغيرها، وقسطنطنين، وغزالة، وحصن سورية، وعمّورية وهرَقْلة، وقمولية. وغزا أيضًا مسلمة بن عبدالملك فى هذه المدّة التُرك حين بلغ الباب من ناحية آذربيجان.

وأغزى موسى بن نُصير الأندلس، ففتحها، وفتح موسى بن نُصير من بلاد الأندلس عدّة مدن، وقتل ملكها، وكان [500] رجلاً من أهل إصبهان، وكان ملوك الأندلس يلقّبون كما تُلقّب الأكاسرة والقياصرة، فيقال لملكها: الأذرينوق[٢]، فقتله موسى بعد قتال شديد لم تكن فيها

١) تجد الرواية عند الطبرى أيضًا (٨:٧-١٢٤٦).

٢) انظر ابن الأثير ٤:٥٥٦.

مكيدةً، وكانت فيها غزوات العبّاس بن الوليد أرضَ الرُوم،
وغزوات لمروان بن الوليد الرُوم، فتحوا لهم مُدنًا وحصونًا.
ولم يذكر فى جميع ذلك مايُستفاد منه تجربةٌ.
وقتل الحجّاج سعيد بن جبير فى سنة خمسٍ وسبعين.

ذكر كلام لسعيد بن جُبير كان سببَ قتله

قال: لمّا أتى الحجّاجُ بسعيد بن جُبير، قال:
ـ «لعن الله ابن النّصرانيّة..»
يعنى خالدًا القسرىَّ وهو الّذى كان أرسل به من مكّة.
ـ «.. أ تُرانى ماكنتُ أعرف مكانَه؟ بلى والله والبيت الّذى هو فيه بمكة.»
ثمّ أقبل على سعيد، فقال:
ـ «يا سعيد، ما أخرجك علىّ مع عَدُوّ الرّحمان[١]؟» قال:
ـ «أصلح الله الأمير، إنّما أنا رجل من المسلمين يُخطئُ مرّةً ويُصيب مرّةً.»
قال: فطابت نفس الحجّاج وتطلّق حتّى رجونا [501] أن يتخلّص منه. ثمّ عاوده فى شىء، فقال:
ـ «إنّما كانت له بيعةٌ فى عنقى.»
قال: فغضب الحجّاج وانتفخ حتّى سقط أحدُ طرفى ردائه عن منكبه، وقال:
ـ «يا سعيد، ألم أقدم مكّة فقتلتُ ابن الزُبير، ثمّ أخذتُ بيعةَ أهلها وأخذتُ بيعتك لأمير المؤمنين عبدالملك؟» قال:
ـ «بلىٰ.» قال:
ـ «ثمّ قدمتُ الكوفة واليًا على العراق، فجدّدتُ لأمير المؤمنين البيعة فأخذتُ بيعتك له ثانيةً؟» قال:
ـ «بلىٰ.» قال:
ـ «فنكثتَ لأميرالمؤمنين بيعتين، ووفيتَ بواحدةٍ لابن الحائك! يا حرسىُّ اضرب[٢] عنقَه.»

---

١) عدو الرّحمان: كذا فى الأصل. وما فى مط: عبدى الرّحمان.
٢) اضرب عنقه: كذا فى الأصل. وما فى مط: اضربا عنقه.

ثمّ قام ليركب، فوضع رجله فى الرّكاب، وقال:

ـ «لا والله، لا أركب حتّى تبوأ مقعدك من النّار.»

فضُربت عنقه، فالتبس عقلُه مكانَه، فجعل يقول:

ـ «قُيودَنا قُيودَنا!»

فظُنَّ أنّه يريد القيود الّتى فى رجل سعيد بن جُبير، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود. فكان إذا نام يَراهُ فى منامه كأنّه يأخذ بمجامع ثوبه، فيقول:

ـ «مالى ولابن جُبير؟»

[موت الحجّاج بن يوسف]

وفى هذه السنة مات الحجّاج بن يوسف، وكان استخلف فى مرضه [502] على حرب العراقين والصّلاة بأهلها يزيد بن كبشة، وعلى خراجها يزيد بن أبى مُسلم، فأقرّهما الوليد بعد موت الحجّاج، وكذلك فعل بعُمّال الحجّاج، أقرّهم على أعمالهم الّتى كانوا عليها فى حياته.

و دخلت سنة ستٍّ وتسعين

[من سيرة الوليد بن عبدالملك]

وفيها مات الوليد بن عبدالملك فى النّصف من جُمادى الآخرة منها، وكان عند أهل الشّام أفضل خلائفهم[1]، وذلك أنّه بنى مساجدَ منها مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنار وأعطى المجذَمين وأفرَدهم، وقال:

ـ «لا تسألوا النّاس!»،

وأعطى كلّ مُقعَدٍ خادمًا وكلّ ضرير قائدًا.

وفتحت فى ولايته فتوحٌ عظام. أمّا موسى بن نُصير ففتح الأندلس، وبلغ قتيبة كاشغر، وهى أوّل مدائن الصّين، وفتح محمّد بن القاسم الهندَ.

وكان الوليد صاحب بناءٍ واتّخاذ المصانع والضّياع. فكان النّاس فى أيّامه إذا التقوا فإنّما يسأل بعضهم بعضًا عن البناءِ والضّياع.

ثمّ ولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، وكان النّاس [503] يسأل بعضهم بعضًا عن

١) خلائفهم: فى الأصل ومط: خلائقهم وهو تصحيف. والمثبت من الطبرى ٨:١٢٧١.

التزويج والجوارى،

فلمّا ولى عمر بن العزيز، كانوا يلتقون فيقولون:

ـ «ما وردُك؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ وكم تصوم من الشهر؟»

وكان الوليد وسليمان وليّى عهد عبدالملك. فلمّا أفضى الأمر إلى الوليد أراد أن يُبايع لابنه عبدالعزيز ويخلع سليمان. فأبى سليمان، فأراده[1] على أن يخلعه من بعده، فامتنع أيضًا، فعرض عليه أموالاً كثيرةً، فأبى. فكتب إلى عمّاله بأن يبايعوا لعبد العزيز، ودعا النّاس إلى ذلك فلم يُجبْه أحدٌ إلاّ الحجّاج وقتيبة.

ذكر راى لعبّاد بن زياد

فقال عبّاد بن زياد:

ـ «يا أمير المؤمنين، إنّ النّاس لايجيبونك إلى هذا، ولو أجابوك لم آمنهم على الغدر بابنك، فاكتب إلى سليمان فليَقدَمْ عليك، فإن لك عليه طاعة، فأرده على البيعة لابنك عبدالعزيز من بعده، فإنّه لايقدر على الامتناع وهو عندك، فإن أبىٰ كان النّاس عليه.» [504]

فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالمسير إليه، فأبطأ، واعتزم الوليد على المسير إليه وعلى أن يخلعه. فأمر النّاس بالتأهّب وأخرجت مضاربه ومات قبل أن يسير.

[فتح كاشغر ومادار بين مبعوثى قتيبة وملك الصين]

وكان قتيبة قد غزا فى هذه السّنة مدينة كاشغر وهى أدنى مدائن الصّين. فلمّا بلغ فرغانة أتاه موتُ الوليد، فوغل قتيبة حتّى قرب من الصّين، فكتب إليه ملك الصّين أن:

ـ «إبعث إلىّ رجلاً من أشراف مَن معكم يخبرنا عنكم ونسأله عن دينكم.»

فانتخب قتيبة من عسكره اثنى عشر رجلاً من أفناءِ[2] القبائل لهم جمالٌ وأجسامٌ وألسنٌ وبأسٌ. وبعد أن سأل عنهم، فوجدهم بحيث أحبّ، فكلّمهم قتيبة وفاطنهم، فرأى عقولاً وجمالاً، فأمر لهم بُعدّة حسنة من السّلاح والمتاع والجيّد من الخزّ والوشى واللّيّن من الثّياب والرّقيق والبغال والعطر، وحملهم على خيول مطهّمة تقاد معهم، ودوابّ يركبونها، وقال لهم:

---

١) فأراده: كذا فى الأصل ومط والطبرى ١٢٧٤:٨.

٢) الأفناء: جمع مفرده الفَنْء: الجماعة من الناس. تقول: جاء فَنْءٌ من الناس. والفنأ: الكثرة. تقول: مالٌ فنأً.

- «سيروا على بركة الله، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أنّى قدحلفتُ أن لا [505] أنصرف حتّى أطأ بلادهم و [أختم][1] ملوكهم وأجبى خراجهم.»

فساروا و عليهم هبيرة بن المُشَمْرَج[2]، فلمّا قدموا أرسل إليهم ملك الصّين يدعوهم. فدخلوا الحمّام، ثمّ خرجوا، فلبسوا ثيابًا بياضًا تحتها الغلائل، ثمّ مسُّوا الغالية، وتدخّنوا، ولبسوا النّعال والأردية ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا، فلم يكلّمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه، فنهضوا فقال الملك لمن حضره:

- «كيف رأيتم هؤلاء؟» قالوا:

- «رأينا قومًا هم نساءٌ، مابقى منّا أحدٌ حين رءاهم ورأى شعورَهم ووجد رائحتهم إلاّ انتشر ماعنده.»

قال: فلمّا كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشىَ وعمائم الخزّ والمطارف وغدَو عليه. فلمّا دخلوا إليه قيل لهم:

- «إرجعوا!»

ثمّ قال لأصحابه:

- «كيف رأيتم؟» قالوا:

- «هذه الهيئة أشبه بهيئة الرّجال من تلك [الهيئة][3] الأُولى وهم أولئك.»

فلمّا كان اليوم الثّالث أرسل إليهم فشدُّوا عليهم سلاحهم ونبسوا البَيض والمغافر، وتقلّدوا السّيوف، وأخذوا الرّماح، وتنكّبوا القسىّ [506] وركبوا خيولَهم. فنظر إليهم صاحب الصّين من منظرةٍ له، فرأى أمثال الجبال مُقبلةً. فلمّا دنَوا ركَزوا رماحَهم، ثمّ أقبلوا مشمّرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا:

- «إرجعوا!»

فانصرفوا. فلمّا ركبوا خيولهم اختلجوا رماحهم ثمّ رفعوا خيولَهم كأنّهم يتطاردون بها. فقال الملك لأصحابه:

- «كيف ترونهم؟» قالوا:

---

١) واختم: كذا فى مط والطبرى ١٢٧٧:٨. وما فى الأصل غير واضح.

٢) المُشَمْرَج: ضبطناه كما فى الطبرى. وهو غير مضبوط فى الأصل ومط.

٣) سقط مابين [ ] من الأصل. فاخذناه عن مط. كما أنّ الكلمة ليست فى الطبرى ايضًا (أنظر ١٢٧٨:٨).

ـ «ما رأينا مثل هؤلاءِ قطُّ.»

فلمّا أمسى أرسل إليهم أن ابعثوا إلىّ زعيمكم وأفضلكم رجلاً.

فبعثوا إليه هُبيرة، فقال له حين دخل عليه:

ـ «قد رأيتم عظيم مُلكى وأنّه ليس أحدٌ يمنعكم منّى وأنتم فى بلادى بمنزلة الخاتم فى كفّى، وأنا سائلكم عن أمر، فإن لم تصدقونى[1] قتلتكم.» قال:

ـ «سَلْ.» قال:

ـ «لِمَ صنعتم ماصنعتم من الزّى[2] فى اليوم الأوّل والثّانى والثّالث؟» قال:

ـ «أمّا زيُّنا فى اليوم الأوّل فلباسنا فى أهالينا، وأمّا يومنا الثانى، فإذا أتينا أُمراءَنا، وأمّا يومنا الثّالث فزيُّنا لعدوّنا، فإذا هاج هيج كُنّا هكذا.» قال:

ـ «ما أحسن مادبّرتم دهركم! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف [507] فإنّى قد عرفتُ حرصه وقلّة أصحابه وإلاّ بعثت إليه مَن يُهلكه ويهلككم معه.

ذكر كلام لهُبيرة
فى جواب الملك صار سببًا لحمله الخراج وتهيئه الحرب

فأجابه هبيرةُ وقال:

ـ «كيف يكون قليل الأصحاب مَن أوّل خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون، وكيف يكون حريصًا من خلّف الدُنيا وراءَه قادرًا عليها وغزاك؟ وأمّا تخويفك إيّانا بالقتل فإنّ لنا آجالاً إذا حضرت فلسنا نكرهها ولانخافها.»

فقال بعد أن أطرق:

ـ «فما الّذى يُرضى صاحبَك؟» قال:

ـ «إنّه قد حلف ألاّ ينصرف حتّى يطأ أرضَكم ويختم ملوككم ويُعطَى الجزيةَ.»

قال:

ـ «فإنّا نُخرجه من يمينه: نبعث إليه بتراب أرضنا فيطأه، ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزيةٍ يرضاها.»

١) فى الأصل ومط والطبرى: لم تصدقنى (بصيغة المفرد) وفى بعض الأصول عن حواشى الطبرى: لم تصدقونى. وهو أنسب.

٢) الزى: كذا فى الأصل والطبرى، وهو الصحيح. وما فى مط: الذى!

قال: فدعا بصحافٍ من ذهب فيها تراب، وبعث بحريرٍ وذهب وأربعة غلمانٍ من أبناءِ ملوكهم. ثمّ أجازهم فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعثوا به.»

فقبل الجزية وختم الغلمة وردُهم و وطئَ التّراب. فقال في ذلك سوادة بن عبدالله السّلولي:

لاعيبَ في الوفد الّذين بعثتهم للصّين لوسلكوا طريق المنهجِ [508]
كسروا الجفون على العِذَى[1] خوف الرّدىٰ حاشا الكريم هبيرة بن مُشمْرَجِ
لم يرضَ غيرَ الختمِ في أعناقهم و رهائنٍ دُفعت لحمل سَمَرّجِ
أدّى رسالتكَ الّتي استرعيتَهُ وأتاكَ من جِنْثِ اليمينِ بمَخْرَجِ

قال: فأوفد قتيبةُ هبيرة إلى الوليد، فمات بقرية من فارس.

[من سيرة قتيبة]

وكان من سيرة قتيبة إذا بعث طلائع الفرسان أو غيرهم أن يامر بلوحٍ منقوش فيشقّ شقّتين، فيعطيهم شقّةً ويحتبس شقّةً ويامرهم أن يدفنوها في موضع يصفه من مخاضة معروفةٍ، أو تحت شجرة معلومة، ثمّ يبعث بعده من يستخرجها ليعلم أ صادقٌ طليعته أم لا.

---

١) العدى: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (١٢٧٩:٨): القَذَىٰ. وفي حواشيه عن بعض الأصول: العِذَى.

خلافة سليمان بن عبدالملك بن مروان

وفى هذه السّنة بويع سليمان بن عبدالملك و خالف قتيبة بخراسان و تادّى أمرُه إلى أن قُتل.

ذكر السّبب فى ذلك

كان سبب ذلك ما حكيناه من إجابة قتيبة الوليدَ إلى خلع سليمان.

فلمّا مات الوليد وبويع سليمان خافه قتيبة، وأشفق أن يولّى سليمان يزيد بن المهلّب خراسانَ [509] لمودّة كانت بين يزيد بن المهلّب وبين سليمان.

فكتب قتيبة كتابًا إلى سليمان يُهنّئه بالخلافة ويعزّيه عن الوليد ويُعلمه بلاءه[1] وطاعته لعبد الملك والوليد وأنّه على مثل ذلك له من الطّاعة والنّصيحة إن لم يعزله عن خراسان. ثمّ كتب كتابًا آخر يُعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته فى صدورهم وبعد صوته فيهم، ويذمّ المهلّبَ وآل المهلّب، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنّه.

ثمّ كتب كتابًا ثالثًا فيه خلعُه.

وبعث بالكتب الثّلاثه مع رجل من باهلة وقال:

ـ «إدفع هذا الكتاب، فإن كان يزيد بن المهلّب حاضرًا فقرأهُ ثمّ ألقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأهُ وألقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب الثّالث. وإن قرأ الأوّل ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين.»

فقدم رسول قتيبة ودخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلّب، فدفع الكتاب الأوّل، فقرأه، ثمّ

---

١) بلاءه: كذا فى الأصل والطبرى ٨:١٢٨٤. وما فى مط: بلاده. وهو خطأ.

ألقاه إلى يزيد، ثمّ دفع إليه الكتاب الثّانى [510] فقرأه ثمّ رمىٰ به إلى يزيد، ثمّ أعطاه الكتاب الثّالث فتمعّر[١] لونُه ثمّ دعا بطين فختمه. ثمّ أمسكه [بيده][٢]. ثمّ أمر رسولَ قتيبة أن ينزل. فحُوِّلَ إلى دار الضّيافة. فلمّا أمسى دَعا به سليمان، فأعطاه صُرّةً فيها دنانير، فقال:

ـ «هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك على خراسان، فسِرْ، وهذا رسولى معك بعهده.»

فخرج الباهلىُّ و [معه][٣] رسول سليمان. فلمّا كانا بحلوان تلقّاهما النّاس بخلع قتيبة واضطراب الأمر. فدفع الرّسول العهدَ إلى رسول قتيبة وانصرف هو.

ذكر عجلة قتيبة بالخلع ومادبّره من أمره

فأمّا قتيبة فإنّه لمّا همّ بالخلع استشار إخوته، فقال عبدالرّحمان:

ـ «إقطع بعثًا، فوجّه فيه كلَّ مَن تخافه، ووجّه قومًا إلى مرو وسِرْ[٤] حتّى تنزل سمرقند، ثمّ قُلْ لمن معك: مَن أحبَّ المقام فله المواساة، ومَن أراد الانصراف فغير مستكرهٍ ولامتبوعٍ بسوءٍ، فإنّه لايُقيم معك إلاّ ناصحٌ.»

وقال أخوه عبدالله:

ـ «اِخلَعه مكانَك، وادعُ النّاسَ إلى خلعه، فليس يختلف عليك رجلان.»

فأخذ برأى عبدالله [511] فخلع سليمان ودعا النّاس إلى خلعه، وخطب:

ـ«أيُّها النّاس، إنّى قد جمعتكم من عين التّمر وفيض البحر، فضممت الأخ إلى أخيه والولدَ إلى أبيه، وقسمتُ بينكم فيئكم، وأجريتُ عليكم أعطياتكم غير مكدَّرة ولامؤخَّرة، وقد جرّبتم الولاةَ [قبلى،][٥] أتاكم أميّة، فكتب إلى أميرالمؤمنين أنّ خراج خراسان لايُقيم مطبخى، ثمّ جاءكم أبوسعيد[٦]،فدوّم[٧] ثلاث سنين ولاتدرون: أفى طاعة أنتم أم فى

١) فتمعّر: كذا فى الأصل والطبرى ٨:١٢٨٥. وفى حواشى الطبرى عن الأصول: تمعّر. وفى مط: تغيّر. تمعّرلونه أو وجهُه: تغيّر وعلته صفرةٌ. تمغّر: اصبح مَغرةً. والمغرة: الطّين الأحمر يصبغ به. ٢) مابين [ ] غير مقروء فى الأصل، فأخذناه من مط. ٣) مابين [ ] غير مقروء فى الأصل ومأخوذ من مط.

٤) فى الأصل ومط: «إلى مرو و سرخس حتّى تنزل» من دون«سِرْ».وفى الطبرى:«إلى مرو و سِرْ حتى تنزل» فرأينا الصواب ما فى الطبرى لسياق العبارة، وخلط النسّاخ بين «خس» و «حتى».

٥) مابين [ ] غير مقروء فى الأصل، فزدناه من مط، كما يوافق الطبرى.

٦) كتب فى هامش الأصل: «يعنى المهلّب.»

٧) فدوّم ثلاث سنين: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨:١٢٨٧): فدوّم بكم ثلاث سنين (بزيادة «بكم»)

معصية، لم يُجْبِ فيئًا، ولانَكا عدوًا. ثمَّ جاءَكم بنوه بعدَهْ. فحلُّ تتازى[١] إليه النِّســاء، وانَّما خليفتكم يزيد بن ثروان هَبَنَّقةُ القيسى، فلم يُجبْهُ أحدٌ..»

فغضب وقال:

ـ «.. لا أعزَّ الله من نصرتم. والله لو اجتمعتم على غير ما كسرتم قَرنه يا أهل السَّافلة ـ ولا أقول العالية ـ يا أوباش الصَّدقة، جمعتكُم كما تُجمع إبل الصَّدقة من كلِّ أوبٍ، يا معشر بكرين وائل، يا أهل النَّفح والكذب والبخل! بأىِّ يوميكم تفخرون: بيوم حربكم، أم يوم سلمكم؟يا أصحاب مسـيلمة،يابنى ذميم ـ ولا أقـول:تميم ـيا أهل الخَـوَر والقصـف والغدر، كنتم تُسمُّون الغَدر[512]فى الجاهليَّة كَيْسًا[٢]، يا معشر عبدالقيس القُساة، تبدَّلتم من أبر النَّخـل أعنَّة الخيل، يا معشـر الأزد تبدَّلتم من [قلوس][٣] السُّـفن أعنَّة الحُصُـن. الأعراب، وما الأعراب! يا كُناسةَ المصرين، جمعتكُم من منابت الشِّيح[٤] والقيصوم ومنابت الفِلفِل، تركبون البقر والحُمُر فـى جـزيرة بنى كاوان[٥]، حتَّى إذا جمعتكـم كما يُجمع قـزع[٦] الخريف، قُلتم كيتَ وكيتَ. أما والله، لأعصبنَّكم عَصبَ السَّلمة[٧]. يا أهل خـراسان! هل تدرون مَن واليكم؟ يزيد بن ثروان. كأنِّى بأمير قد جـاءَكم، مَن جـاءَ وحكـمَ فغلبكـم على فيئكم وظِلالكم. إنَّ هاهنا نارًا ارمُوها أرم معكم، إرموا غرضكم الأقصى. قـد اسـتُخلف عليكم أبونافع ذو الودعات. الشَّام أبٌ مبرور، والعـراق أبٌ مكفـور، حتَّى متى ينتطح أهل الشَّام بأفنيتكم وظلال دياركم. يا أهل خراسان! إنسبونى تجدونى عراقـىَّ الأب، عراقـىَّ الأُمّ، عراقىَّ المولد، عراقىَّ الهوىٰ والرَّأى والدِّين، وقـد أصـبحتم اليوم فـى ماترون من الأمن والعافية وقد فتحالله لكم البلاد، وآمن سُبلكم، فالظَّعينة تخرج [513] من مَرو إلى بلخ بغير جَواز، فاحمدوا الله على النِّعمة، وسلُوه المزيدَ.»

---

١) تتازى إليه النساء: كذا فى الأصل. وفى مط: ينادى إليه الثناء. وما فى الطبرى: تبارى إليه النساء.

٢) فى الأصل والطبرى: كيسان. وما فى مط: كيس.

٣) أخذنا مابين [ ] من الطبرى وهو ساقط من الأصل ومط.

٤) الشيح والقصوم والفلفل: الشيح. نبت سهلى رائحته طيبة قـويّة ترعاه الماشـية. والقيصـوم: نبات طيّب الرّائحـة يُتداوىٰ به. والفلفل: معروف. ولكن فى الأصل ومط: القلقل ولم ننته إلى معنى له. وفى الطبرى: الفلفل كما أثبتناه.

٥) جزيرة بنى كاوان ويقال: جزيرة كادان: جزيرة عظيمة يقال لها جزيرة «لافـت» وهى فـى بحـر فـارس بين عمان والبحرين، كان بها قرى ومزارع وهى الآن خراب (مراصد الاطلاع).

٦) قَزَع: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: قرع. القَزَع: والواحدة القزعة قِطعٌ من السحاب صغار. والقرع معروف.

٧) السَّلمة: واحدة السَّلم، والسَّلَمُ: جنس شجر أو نبات شائك من فصيلة القطانيات ينمو فى البلدان الحارّة.

ثمّ نزل.

فأتاه أهل بيته، فقالوا:

ـ «ما رأينا كاليوم قطُّ، والله، ما اقتصرتَ على العالية وهم شِعارك ودِثارك، حتّى تناولتَ بكرًا وهم أعضادك وأنصارك، ثمّ لم ترض بذلك حتّى تناولتَ تميمًا وهم إخوتك، ثمّ لم ترضَ حتّى تناولتَ الأزدَ وهم يَدُك.»

فقال:

ـ «ويحكم! إنّى لمّا تكلّمتُ فلم يُجيبوا غضبتُ، فلم أدر ماقلتُ. أمّا أهل العالية فكَابِلِ الصّدقة وقد جُمعتْ من كلّ أوبٍ، وأمّا بكرٌ فإنّها أمةٌ لاتمنعُ يَدَ لامسٍ، وأمّا تميمُ فجملٌ أجرب، وأمّا عبدالقيس فما تضرب[١] العَيرَ بذَنَبه، وأمّا الأزد فأعلاجُ أشرار لو وسمتُهم لما أثمتُ.»

فغضب النّاس من شتم قتيبة، فأجمعوا على خِلافه، وكرهوا أيضًا خلع سليمان. فكان أوّل من تكلّم فى ذلك الأزد. فأتَوا حُصينَ بن المنذر، فأبى أن يقبل رئاستهم فأرادوا أن يُولُوا عبدالله بن ذودان الجهضمى، فأبى وتدافعوها، فرجعوا إلى حُصين وقالوا:

ـ «قد تدافعنا الرئاسة، فنحن نُولّيك أمرَنا وربيعةُ لا [514] تُخالفك.» قال:

ـ «لا ناقة لى فى هذا ولاجمل.» قالوا:

ـ «فما ترى؟» قال:

ـ «إن جعلتم هذه الرئاسة فى تميم تمّ أمركم.» قالوا:

ـ «فمَن ترى من تميمٍ؟» قال:

ـ «ما أرى أحدًا غير وكيع.»

فقال حيّان النّبطىّ وكان حاضرًا:

ـ «إنّ أحدًا لايتقلّد هذا الأمر ثمّ يصلىٰ بحرّه ويبذل دمَه ويتعرّض للقتل، فإن قدم أميرٌ أخذه بماجنى وكان المهنأ لغيره إلاّ هذا الأعرابى ـ يعنى وكيعًا ـ فإنّه مقدام لايبالى ماركب ولاينظر فى عاقبة، وله عشيرة كثيرة تطيعُه[٢]، وهو موتور يطلب قتيبة برئاسته الّتى صرفها عنه وصيّرها لضرار بن حصين بن زيد الفوارس الضّبىّ.»

فمشى النّاس بعضهم إلى بعض سرًا، وقيل لقتيبة:

---

١) فما تضرب: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٢٨٩:٨): فما يضرب.

٢) تطيعه: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: قطيعة. وهو خطأ.

- «ليس يُفسر أمر النّاس إلاّ حيّان.»

فأراد أن يغتاله. وكان حيّان كثير الملاطفة لحشم الوُلاة، فلايُخفون عنه شيئًا. فدعا قتيبة رجلاً وأمره بقتل حيّان وسمعه بعض الخدم. فأتى حيّانَ فأخبره. فأرسل إليه يدعوه، فحذر وتمارض. وأتى النّاس وكيعًا فسألوه أن يقوم بأمرهم، فقال:

- «نعم.» وتمثّل:

سأجنى ما جَنيتُ وإنّ أمرى   لَمُعتَمِدٌ على نَضَدٍ ركينِ [515]

وبخراسان يومئذٍ من المقاتلة من جميع القبائل نحو من خمسين ألفًا ومن الموالى سبعة آلافٍ، وكان الّذى يلى أمر الموالى حيّان. ويُقال: إنه ديلمىٌ، وقيل: بل هو من خراسان، وإنّما قيل له نبطىّ لِلُكنته[1].

فأرسل حيّان إلى وكيع:

- «أرأيتَ إن كففتُ عنك وأعنتُكَ، أتجعل لى جانب نهر بلخ خراجه مادُمتَ واليًا؟» قال:

- «نعم.» فقال للعجم:

- «هؤلاءِ يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضًا.» قالوا:

- «نعم.»

فبايعوا وكيعًا سرًا. فأتى ضرار بن حُصين قتيبةَ، فقال له:

- «إنّ النّاس يختلفون إلى وكيع ويُبايعونه.»

فكان وكيع يأتى منزل عبدالله بن مسلم الفقير أخى قتيبة فيشرب عنده، فقال عبدالله:

- «هذا يحسر وكيعًا والحديث باطلٌ. وكيعٌ فى بيتى يشرب ويسكر ويسلح[2] فى ثيابه وهذا يزعم أنّهم يبايعونه.»

وجاءَ وكيع إلى قتيبة، فقال:

- «إحذر ضرارًا، فإنّى لاآمَنُه عليك.»

فأنزل قتيبةُ ذاك على الحسد الّذى بينهما. وتمارض وكيعٌ، فدسّ قتيبة ضرار بن سنان الضّبّى

---

١) لِلُكنته: كذا فى الطّبرى ٨:١٢٩١. وما فى الأصل ومط: للكتبه. وليس له معنى.

٢) يسلح (بالحاء المهملة): كذا فى الأصل والطبرى. سلح (يسلحُ سَلْحًا): تغوّط. وهو خاصّ بالطير والبهائم، واستعماله للانسان من باب التساهل على التشبيه. وفى مط: يسلج (بالجيم المعجمة). سلج (يسلج سلوجًا) الإبل: استطلقت بطونها من أكل السُّلج وهو نبات ترعاه الإبل. سلج اللُّقمة: بلعها.

إلى وكيع، فبايعه سرًا، فتبيّن لقتيبة أمرُه، فدعا ضرارًا وقال له:

ـ «كنتَ صدقتنى.» قال:

ـ «لم أخبرك إلاّ بعلمٍ، فأنزلتَ [516] ذلك منّى على الحسَد.» قال:

ـ «صدقتَ.»

فأرسل قتيبة إلى وكيع يدعوه. فوجده الرسول قد طلَى على رجليه مَغْرةً[١] وعلّق عليها خرزًا وعنده من يرقيه[٢]. فقال له:

ـ «أجِب الأمير.» قال:

ـ «قد ترى ما برجلى.»

فرجع الرسول إلى قتيبة، فأعاده إليه وقال:

ـ «إيتنى به محمولاً على سريرٍ.» قال:

ـ «لا أستطيع.»

فقال قتيبة لشريك بن الصامت، وكان على شرطته، ولرجلٍ آخر من غنى[٣]:

ـ «إنطلقا إلى وكيع فأتيابه، فإن أبى فاضربا عُنقَه.»

و وجّه معهما خيلاً فقال هُريم بن طخفة[٤]:

ـ «أنا آتيك به أصلحك الله.» قال:

ـ «فانطلِقْ.»

قال هُريمُ: فركبتُ برذونى وركضتُ مخافة أن يردّنى، فأتيتُ وكيعًا وقد سبق إليه الخبر والخيل تأتيه.

فخرج وخرج معه هريم وهو على يمينه. ونادى وكيع فى النّاس، فأقبلوا أرسالاً من كلّ وجه، وأقبل فى النّاس وهو يقول:

قَرمٌ إذا حُمّل مكروهةً   شدَّ الشّراسيفَ لها والحزيم

وأمر قتيبة رجلاً فقال:

---

١) المَغْرة والمَغَرة: طين أحمر يُصبغ به. وحُمرته ليست ناصعة. أو شُقرةٌ بكدرة.

٢) يرقيه: من قولهم: رقَى المريضَ: عوّذه. ويُقال: باسم الله أرقيك، والله يشفيك.

٣) آخر من غنىّ: كذا فى الأصل والطبرى ٨:١٢٩٢ و ما فى مط: ولعلّه «مرغنىّ».

٤) هريم بن أبى طخفة: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى: هريم بن أبى طحمة.

- «نادِ فى النّاس: أين بنو عامر؟» فنادى:
- «أين بنوعامر؟» [517] فقال له مجفر[١] بن جزء الكلابىّ:
- «وقد كان جفاؤهم حيث وضعتهم.» قال:
- «ناد: «أذكّركم الله والرحم.»
قال مُجفَر:
- «أنتَ قطعتَها.» قال:
- «نادِ لكم العُتبى.»
فناداه مُجفَر وغيره:
- «لا أقالنا الله إذًا.»

فدعا قتيبة ببرذَون له مترب كان يلجأ إليه فى الزُّحوف[٢]، فقَرُب إليه، فجعل يقمص حتّى أعياه. فلمّا رأى ذلك عاد إلى سريره وقال:
- «دَعوه، هذا أمر يُراد.»

وجاءَ حيّان النّبطى فى العجم، فوقف وقتيبة واجدٌ عليه، فوقف معه عبدالله مسلم، وقال لِحيّانَ:
- «إحمل على أحد هذين الطرفين.» قال:
- «لم يأنِ لى ذلك.»
فغضب عبدالله وقال:
- «ناولْنى قوسى.» فقال:
- «ليس هذا يومَ قوس.»
وأرسل وكيع إلى حيّان:
- «أين ما وعدتنى؟»
فقال حيّان لابنه:
- «إذا رأيتنى قد حوّلتُ قلنسوتى ومضيتُ، فمل بمن معك من العجم إلىّ.»

---

١) مجفر بن جزء: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (١٢٩٤:٨): محفن بن جزء.

٢) الزّحوف: كذا فى الأصل والطبرى ١٢٩٤:٨. وفى مط: الرحوب! والعبارة فى الطبرى: «وكان يتطيّر إليه فى الزّحوف.» بدل: «وكان يلجا إليه فى الزحوف.»

ففعل، ومالت[١] الأُعاجم إلى عسكر وكيع، فكبّر أصحابه. وبعث قتيبة أخاه صالحًا إلى النّاس، فرمى بسهمٍ فأصاب هامته، فحُمل إلى قتيبة مائل الرّأس، وتهايج النّاس، وأقبل عبدالرّحمان بن مسلم نحوهم، فرماه أهل السُّوق [518] والغوغاءِ فقتلوه، ودنَوا من قتيبة، فدعا بدابّةٍ فأُتى به، فلم يقرّ ليركبه، فقال:

ـ «إنّ له لشأنًا.»

ورجع فجلس، وجاءَ النّاس حتّى بلغوا فسطاطة، فخرج عنه من كان حولَه فقُتل وقُتل معه من بنى مسلم[٢] أحدَ عشر رجلاً سبعةٌ منهم لصلب مسلم، وأربعةٌ من بنى أبنائهم، فصلبهم وكيع، وهم: قتيبة، وعبدالرّحمان وعبيدالله، وعبدالله الفقير، وصالح، ويَسار[٣]، ومحمّد بنومسلم، وكثير بن قتيبة، ومفلّس بن عبدالرّحمان، ورجلان آخران، ولم ينجُ من صلب مسلم غير عمرو، وكان عاملَ الجوزجان، وضرار أخوه استنقذ أخواله، وكانت أُمُه الغرّاء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة. وسقطت علىقتيبة يوم قُتل جاريةٌ له خوارزميّة، فوضعت بعد ليزيد بن المهلّب، فأخذها، فهى أمُ خُليدة.

ولمّا قُتل قتيبةُ صعد وكيع المنابر، فعلم منه أنّه يأتى بآبدة[٤] وهَوَجة[٥].

فصعد معه عمارة بن خثيّه[٦]، فتكلّم فأكثر، فقال وكيعُ:

ـ «دعنا من هَذَرك وقذَرك.»

وتكلّم وكيع فقال:

ـ «مَثلى ومَثل قتيبة، ماقال الأوّل :

مَن يَنكِ العَيرَ يَنِكْ نيّاكًا [519]

من أىّ يوميك من الموت تفرّ أيومَ لم يُقدَرْ، أم يومَ قُدر

«.. أراد قتيبة أن يقتلنى وأنا قتّال، والله لأقتلنّ ثمّ لأقتلنّ، ثمّ لأصلبنّ. إنّى لوالغٌ دِماءًا، إلاّ أنّ مرزبانكم هذا ابن الزّانية قد أغلى أسعاركم، والله ليصيرنّ القفيزُ فى السُّوق غدًا بأربعة، أو

١) ومالت الأُعاجم: كذا فى الأصل والطبرى ١٢٩٥:٨. وما فى مط: سالت الأعاجم.
٢) مسلم: كذا فى الأصل والطبرى ١٢٩٦:٨. وما فى مط: سليم. وهو خطأ.
٣) يسَار: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: بشّار.
٤) الآبدة: الأمر العجيب يُستغرب له. أوابد الكلام: غرائبه وعجائبه.
٥) الهَوَج: الحُمق والطّيش والشجاعة.
٦) خثيّة: كذا فى الأصل. وفى مط: حبيبة. وما فى الطبرى (١٢٩٨:٨): جنيّة.

لأصلبنّهُ. صلُوا على نبيّكم صلّى الله عليه.»

ثمّ نزل.

وطلب وكيع رأس قتيبة وخاتمه، فقيل له:

- «إنّ الأزد أخذته.»

فخرج وكيع وهو يقول:

- «دُهدُرّين سَعدُ القَين![1] والله الّذى لا إله غيره لا أبرح حتّى أوتىٰ بالرّأس، أو يُذهبَ براسى معه.»

ودعا بخشب، فقال:

- «إنّ هذه الخيل لابُدّ لها من فرسان يتهدّد بالصّلب.»

فقال له حُصين:

- «يا أبا مطرّف، توتىٰ به فاسكُنْ.»

وذهب حُصين إلى الأزد، وهو سيّدهم، فقال:

- «أ حَمقىٰ أنتم؟ بايعناه وأعطيناه المقادة وعرّض نفسَه، ثمّ تأخذون الرّأس! أخرجوهُ، لعنه الله من رأس!»

فجاؤوه به، فوهب لمن جاءَ به ثلاثة آلاف درهم. وبعث بالرأس مع رجال من القبائل وعليهم [520] سليط، ولم يبعث من بنى تميم أحدًا.

و وفّى لحيّان النّبطى بماكان وعَده به.

فقال رجل من عجم خراسان:

- «يا معشرَ العرب! قتلتم قتيبة، والله لوكان منّا ثمّ مات فينا لجعلناه شهيدًا و حفظنا تابوتَه إلى الحشر نستفتح به إذا غزونا.»

وقال الإصبهذ يومًا لرجل:

- «يا معشر العرب! قتلتم قتيبة ويزيد وهما سيّدا العرب.» قال:

- «نعم، فأيُّهما كان أهيب فى صدوركم وأعظم قدرًا عندكم؟»

---

١) دُهدرّين سَعدُ القَين: كذا فى الأصل. والضبط فى الطبرى: «دُهْ دُرّين سعد القين». قال فى متن اللغة: دُهدرّين (= دُهدرّية): الرجل الكذوب. وقولهم دُهدرّين سعد القين: مثلٌ ومعناه: بَطَلَ سَعد القين. لأنّ دُهدرّين اسم فعل لبَطَلَ. والقين: الحدّاد والصانع. أى بطل الحدّاد لتشاغل الناس عنه بماهم فيه من الشدّة والقحط. (نقل بالتلخيص).

فقال له الإصبهذ:

ـ «لوكان قتيبة بالمغرب بأقصى جُحر به مكبّلاً بالحديد ويزيد معنا فى بلادنا والٍ علينا، لَكان قتيبةُ أهيبَ فى صدورنا وأعظمَ من يزيد.»

ورثى الشُعراءُ قتيبةَ، فأكثروا.

وولّى سليمانُ يزيد بن المهلّبَ العراقَ مكان الحجّاج حربَها وخراجَها وصَلاتَها.

ذكر راى رءاه يزيد لنفسه عاد مكروها عليه

فكّر يزيد فى نفسه فقال:

ـ «إنّ العراق قد أخربها الحجّاج، وأنا اليوم رجاءُ أهل العراق، ومتى قدمتُها وأخذتُ النّاس بالخراج وعذّبتُهم عليه صرتُ [520][1] مثل الحجّاج وأعيد عليهم مثل تلك السُجون الّتى قد عافاهم الله منه أو متى لم آتِ سليمان بمثل ماجاءَ به الحجّاج لم يقبل منّى.»

فأتى يزيد سليمان وقال له:

ـ «أدلّك على رجلٍ بصير بالخراج تولّيه إيّاه فتكون أنت الّذى تأخذه به؟» قال:

ـ «نعم.»

قال صالح بن عبدالرّحمان: قال:

ـ «قد قبلنا رأيك.»

و ولّاه. فأقبل يزيد إلى العراق وتقدّم صالح فنزل واسطًا. فلمّا قدم يزيد خرج النّاس يتلقّونه. وقيل لصالح:

ـ «هذا يزيد وقد خرج النّاس يتلقّونه.»

فلم يخرج حتّى قرب يزيد من المدينة، فخرج صالح عليه دُرّاعةٌ وبين يديه أربعمائة من أهل الشّام، فلقى يزيدَ فسايره، فلمّا دخل المدينة، قال له صالحُ:

ـ «قد فرّغتُ لك هذه الدّار.»

وأشار إلى دارٍ. فنزلها يزيد واحتمل ذلك، ثمّ ضيّق صالح على يزيد فلم يُملكه شيئًا. واتّخذ يزيد ألفَ خِوانٍ يُطعم النّاس عليها، فأخذها صالح. فقال له يزيد:

ـ «أكتبْ علىّ ثمنَها.»

---

١) رقم الصفحة مكرّر فى مصوّرة الأصل، فكرّرناه نحن أيضًا، حرصًا على بقاء الأرقام فى الصفحات الآتية كماهى، لتفادى الخلط عند المراجعة.

واشترى متاعًا كثيرًا وصَكَّ صكاكًا إلى صالح لباعتها فلم يُنفذ. فرجعوا إلى يزيد، فغضب وقال:

ـ «هذا عملى بنفسى.»

فلم يلبث [أن جاءَ][١] صالحُ، فأوسع له يزيد، فجلس وقال ليزيد:

ـ «ماهذه [521] الصِّكاك الّتى لايقوم لها الخراج. قد أنفذت لك منذ أيّام صكًا بمائة الف [١٠٠،٠٠٠] درهم وعجّلتُ لك أرزاقك، ثمّ سألتَ مالاً للجند، فأعطيتك، فهذا لايقوم له شىءٌ ولايرضى به أميرالمؤمنين وتؤخذ به.»

فقال له يزيد:

ـ «يا باالوليد، أجِز هذه الصِّكاك هذه المرّة.» قال:

ـ «فإنّى أجيزها، فلا تُكثرنّ علىّ.» قال:

ـ «لا.»

وضُجر يزيد بصالحٍ[٢]، فكان لايصل معه إلى شىء. فدعا عبدالله بن الأهتم، فقال له:

ـ «إنّى أريدك لأمر قد أهمّنى فأحبُّ أن تكفينيه ولك مائة ألف.» قال:

ـ «مُرنى بما شئت.» قال:

ـ «أنا فى ما ترى من الضّيق، قد أضجرنى ذلك، وبلغنى أنّ أمير المؤمنين ذكر خراسان لعبدالملك أخى، فاخرج واحتَلْ حتّى يسمّيها لى.» قال:

ـ «أفعل، سرّحنى إلى أميرالمؤمنين فى بعض الأمور فإنّى أرجو ان آتيك بعهدك عليها.»

ما احتال به الأهتم حتّى قُلّد يزيدُ خراسان

فكتب معه يزيد كتابين إلى سليمان وذكر فى أحدهما أمر العراق وأثنى فيه على ابن الأهتم وعلمه بها. ثمّ وجّهه على البريد وأعطاه ثلاثين ألفًا، فسار سبعًا. [522] ثمّ قدم على سليمان فباسطه سليمان وحادثه وقال له:

ـ «إنّ يزيد بن المهلّب كتب إلىّ يذكُر علمك بالعراق وبخراسان، فكيف علمك بها[٣]؟» قال:

---

١) فلم يلبث [أن جاءَ] صالح: سقط ما بين [ ] من الأصل، فنقلناه من مط.

٢) والعبارة فى الطبرى (١٣٠٨:٩): «.. فبلغ الخبر يزيد بن المهلّب وقد ضجر بالعراق وقد ضيّق عليه صالح بن عبدالرحمان، فليس يصل معه إلى شىء..»

١) فكيف علمك بها: كذا فى الأصل. وما فى مط: وكيف علمك. (من دون «بها»).

ـ «يا أميرالمؤمنين، بها ولدتُ وبها نشأتُ، فلى بها خبرٌ وعلمٌ.» قال:
ـ «ما أحوج أميرالمؤمنين إلى مثلك، فاخبرنى عن خراسان.» قال:
ـ «أميرالمؤمنين أعلم بمن يريد أن يولّى، فإن ذكر أحدًا أخبرته برايى فيه: هل يصلح أم لا.»
فسمّى سليمان رجلاً من قريش. فقال:
ـ «يا أميرالمؤمنين، ليس من رجال خراسان.» قال:
ـ «فعبدالملك بن المهلّب.» قال:
ـ «ولا هو.»
حتّى عدّد رجالاً كان فى آخرهم وكيع بن أبى سود. فقال:
ـ «يا أميرالمؤمنين، ما أحدٌ أوجب شكرًا ولا أعظم عندى يدًا من وكيع. لقد أدرك بثارى وشفانى من عدوّى، ولكنّ أميرالمؤمنين أعظم حقًّا علىّ وإنّ النصيحة تلزمنى له. إنّ وكيعًا لم يجتمع له قطّ ثلاثمائة عنان، إلاّ حدّث نفسه بغدرة. خامل[١] فى الجماعة نابه[٢] فى الفتنة.» قال:
ـ «صدقتَ. ويحك! فمَن لها؟» قال:
ـ «رجل أعلمه لم يُسمّه أميرُالمؤمنين.» قال:
ـ «فمَن هو؟» قال:
ـ «لا أبوح به إلى أن يضمن أميرالمؤمنين سترَ ذلك علىّ وأن يجيرنى[٣] منه إن علِمَ.» قال:
ـ «نعم، سمّه لى من هو؟» قال:
ـ «يزيد بن المهلّب.» [523] قال:
ـ «ويحك! ذاك بالعراق، والمُقام بها أحبُّ إليه من المُقام بخراسان.» قال:
ـ «قد علمتُ يا أميرالمؤمنين، ولذلك استجرتُ[٤] بك، ولكن تُكرهه على ذلك، فتستخلف على العراق، ويسيرُ هو.» قال:
ـ «أصبتَ.»
فكتب عهدَه على خراسان، وأنفذه إليه على يد ابن الأهتم. فقدم به على يزيد، فدعا يزيد ابنَه

١) خامل: كذا فى الأصل والطبرى ٩:١٣١١. وما فى مط: خابل.
٢) نابهٌ: الكلمة مطموسة فى الأصل، فأثبتناها كما فى مط والطبرى.
٣) أن يجيرنى: ما فى الأصل مطموس. وما فى مط والطبرى (٩:١٣١٠): يوافق ما أثبتناه. كما يؤيده مافى الأسطر الآتية فى الأصل: «استجرتُ».
٤) استجرتُ: كذا فى الأصل. وما فى مط: استحرت (بالحاء المهملة) وهو خطأ(أنظر التعليقة السابقة).

مَخلدًا، فقدّمه إلى خراسان، فسار من يومه، ثمّ سار يزيدُ، واستخلف على واسط الجرّاح بن عبدالله الحكمى، وعلى البصرة عبدالله بن هلال الكوفى، وصيّر مروان بن المهلّب على أمواله وأموره بالبصرة، وكان أوثقَ إخوته عنده، وعلى الكوفة بشير بن حسّان النّهدى. ولمّا قرب مَخلدُ من مرو تلقّاه النّاس، فتثاقل وكيع، وكان مَخلدُ قدّم عمرَو بن عبدالله بن سنان العَتكى حين دَنا من مرو. فأرسل عمرُو بن عبدالله إلى وكيع:

ـ «انطلقْ إلى أميرك فتلقَّهُ[١] ولاتكنْ أعرابيًا أحمقَ جافيًا.»

وأخرجه على كُرهٍ. فلمّا بلغ النّاس إلى مَخلدٍ ترجّلوا له غيرَ وكيعٍ ومحمد بن حُمران وعبّاد بن لقيط. فجاءَهم قوم، فأنزلوهم.

ولمّا قدم مَخلدُ مرو حبس وكيعًا، فعذّبه وأصحابَه قبل [524] قدوم أبيه.

فتحدّث إدريس بن حنظلة قال: لمّا قدم مَخلَدُ مروَ حبسنى، فجاءَنى ابن الأهتم، فقال لى:

ـ «أ تريد أن تنجوَ؟» قلتُ:

ـ «نعم.» قال:

ـ «أخرج الكتبَ التى كتبها القعقاع بن خليد العبسى و خُريم[٢] بن عمرو المُرّى إلى قتيبة فى خلع سليمان.» فقلتُ له:

ـ «يا بن الأهتم إيّاى تخدع عن دينى؟»

قال: فدعا بطومارٍ وقال:

ـ «إنّك أحمق.»

وكتبَ كتبًا عن لِسان القعقاع ورجالٍ من قريش إلى قتيبة:

ـ «إنّ الوليد قدمات وإنّ سليمان باعثُ هذا المَزُونى[٣] على خراسان، فاخلعه.» فقلتُ:

ـ «يابن الأهتم تُهلك والله نفسَك. لئن دخلتَ عليه لأُعلمنّه أنّك كتبتَها.»

فلم يحفِل وقال:

ـ «قد قلتُ: إنّك أحمق.»

---

١) فتلقّه ولاتكن: كذا فى الأصل. وما فى مط: فيلقه ولايكن. تجد الرواية عند الطبرى أيضًا ولكن بسياق مختلف (انظر ١٣١٢:٩).

٢) خريم: كذا فى الأصل والطبرى ١٣١٢:٩. وما فى مط وحواشى الطبرى عن الأصول: خزيم.

٣) المَزونى: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: المروانى.

ذكر حيلة تمّت على مَسلمة بن عبدالملك فى هذه السنة بأرض الرُوم حتّى كاد يهلك هو والمسلمون

كان سليمان وجّه أخاه مسلمة إلى قسطنطينية وأمره أن يُقيم عليها حتّى يفتحها أو يأتيه أمره. فشتَا[١] بها وصافَ، وذلك أنّه لمّا دَنىٰ من قسطنطينية أمر كلَّ فارس أن يحمل على عَجُز فرسه مُدَّين من طعام حتّى يأتى به قسطنطينية. [525] فأمر بالطَّعام فألقى ناحيةً مثل الجبال. ثمّ قال للمسلمين:

ـ «لا تأكلوا منه شيئًا.»

فغَبَروا[٢] فى أرضهم و ازدرعوا، وعَملَ بيوتًا من خشب، فشتَا فيها، و زرع النّاس. ومكث ذلك الطَّعام فى الصحراءِ لا يُكنُّه شىءٌ طول الصَّيف، والنّاسُ يأكلون ممّا أصابوا من الغارات، ثمّ أكلوا من الزّرع.

فاقام مَسلمة على قسطنطينية قاهرًا لأهلها ومعه وجوه أهل الشّام. واتفّق موتُ ملك الرُوم، فراسلوا إليُونَ صاحبَ إرمينية، فشخص إليُون من إرمينية ومكر فى طريقه بمسلمة، ووعده أن يسلّم إليه قسطنطينية، وكانت قد راسلت الرومُ إليُونَ:

ـ «إن صرَفتَ عنّا مَسلمةَ ملَكناك.»

و وثّقوا له. فلمّا أتى إليُونُ مسلمةَ، قال له:

ـ «إنّك لا تصدُقُهم القتالَ ولاتزال تُطاولهم مادام هذا الطَّعام عندك، وقد أحسّوا بذلك، فلو أحرقتَ الطَّعامَ أعطَوا بأيديهم.»

فأحرقه، ووجّه مسلمةُ معه من شيْعة حتّى نزل بقسطنطينية، وملَكه الرُومُ.

فكتب إلى مسلمة يُخبره بماجرى من أمره ويسأله أن يأذن له حتّى يُدخل من الطَّعام من النّواحى، [526] [وما][٣] يعيش به القوم ويُصدّقونه بأنْ أمرَه وأمرَ مَسلمة واحدٌ وأنّهم فى أمان من [السّباءِ] والخروج من بلادهم، وأن يأذن لهم ليلةً واحدةً فى حمل الطَّعام وقد [هيّأ] إليُونُ السُفنَ والرِّجال. فأُذن له، فمابقى فى تلك الحظائر إلاّ ما لايُذكر، حُمل [فى] ليلة واحدة،

---

١) فشتابها وصاف: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: «فشابها وصاق»! وهو خطأ. شتابها وصاف: أقام شتاءً وصيفًا.
٢) فغبروا: مافى الأصل: فغبّروا (بتشديد الباء) وماضبطناه يوافق مط. و فى الطبرى: أغيروا. وفى تعاليقه: اعبروا. فغبروا: مكثوا. بقوا. أغيروا: شنّوا الغارات. ولكلا الضّبطين وجهٌ.
٣) كل كلمة وضعناها بين [ ] والتى وقعت على صفحة [526] من الأصل فهى كلمات وقعت فى ابتداء سطور تلك الصفحة وغير ظاهرة بكاملها فى التصوير. فأثبتناها كما هى فى مط والطبرى ١٣١٦:٩.

وأصبح إليونُ محاربًا وقد خَدعه خديعةً لو كان امرأةً لعيب [بها][١]. فلقى الجند مالم يلقَ جندٌ قط، حتى إن كان الرَّجل ليَخافُ أن يخرج من عسكره وحدَه. وأكلوا الدَّوابَّ والجُلود وأصولَ الشَّجر والعروق [و] الورق، وكلَّ شيء حتّى الرَّوث، وسليمان مقيمٌ بدابق ونزل الشّتاء، فلم يقدر [على] أن يُمدَّهم حتّى هلك سليمان.

[سليمان يُحرِّض يزيدَ بذكر فتوح قتيبة]

فأمّا يزيد بن المهلَّب فإنّه أقام ثلاثة أشهر، وكان سليمان بن عبدالملك كلّما افتتح قتيبة فتحًا قال ليزيد بن المهلَّب:

ـ «أما ترى ما صنع الله على يدى قتيبة؟»

فيقول له يزيد بن المهلب:

ـ «ما فعلتْ جرجانُ [الّتى] حالت بين الناس والطريق الأعظم وأفسدتْ قومس وأبرشهر.»

ويقول:

ـ «هذه الفتوح ليست بشىء فى جُرجان.»

وكذلك كانت حال جُرجان، لأنَّ سعيدَ بن العاص [527] كان صالح أهل جرجان. ثمّ إنّهم امتنعوا وكفروا، ولم يأتهم أحدٌ بعد سعيدٍ، ومنعوا ذلك الطريق، فلم يكن يُسلك طريق خراسان من ناحيته إلاّ بوَجَلٍ وخوف. كان الطريق من فارس إلى كرمان، فأوّل مَن صيَّر الطريق من قومس قتيبة بن مسلم. ثمّ غزا مصقلةُ خراسان فى أيّام معاوية فى عشرة آلاف، فأصيب هو وجُنده بالرُّويان، فهلكوا فى وادٍ من أوديتها، أخذ العدوُّ عليهم بمضائقه، فقُتلوا جميعًا، فهو يُسمَّى: وادى مصقلة، وكان يُضرب به المثل: «حتّى يرجع مصقلة من خراسان».

[اهتمام يزيد بن المهلَّب بجرجان]

فلمّا ولى يزيد بن المهلَّب لم تكن له همّةٌ غير جرجان. فخرج إلى دهستان[٢]، وبها صول التُّركىُّ مع الأتراك، وهناك جزيرةٌ فى البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ، وهى من جرجان ممّا

---

١) لعيب بها: كذا فى الطبرى ١٣١٦:٩. وما فى الاصل: لعبت بها. وفى مط: لما تمّ عليها، بدل: لعيب بها. وفى حواشى الطبرى عن الأصول: لعبى بها.

٢) دهستان: كذا فى الأصل ومط والطبرى ١٣١٨:٩. وفى تعاليق الطبرى عن الأصول: قهستان.

يلى خوارزم. فكان صول يُغير على فيروز مرزبان جرجان، وبينهما خمسة وعشرون فرسخًا، فيصيبُ من أطرافهم، ثمّ يرجع إلى البحيرة ودهستان.

فوقع بين فيروز وبين ابن عمٍّ له يقال له: المرزبان، منازعةٌ، فاعتزله المرزبان، فنزل المياسان[١]، فخاف فيروز أن يُغير عليه التُّركُ، فخرج إلى يزيد بن المهلّب [528] وأخذ صولٌ جرجانَ. فلمّا قدم على يزيد بن المهلّب قال له:

ـ «ما أقدمك؟» قال:

ـ «خِفتُ صولاً فهربتُ منه.»

فقال له يزيد:

ـ «هل من حيلةٍ لقتاله؟» قال:

ـ «نعم، وشيءٌ واحد إن ظفرتَ به قتلتَه، أو أعطى بيده.» قال:

ـ «ماهُوَ؟» قال:

ـ «أن يخرج من جرجان حتّى ينزل البحيرة، فإن أتيته هناك وحاصرتَه ظفرتُ به، فاكتبْ إلى الإصبهبذ كتابًا تسأله فيه أن يحتال لصول حتّى يُقيم بجرجان، واجعل على ذلك جُعلاً[٢] ومَنّه، فإنّه يبعث بكتابك إلى صول يتقرّب به إليه، لأنّه يعظّمه، فيتحوّل على جرجان فينزل البحيرة.»

ذكر هذه الحيلة

الّتى احتال بها يزيد بمشورة فيروز حتّى ظفر به

فكتب يزيد بن المهلّب إلى صاحب طبرستان:

ـ «إنّى أريد أن أغزو صولاً وهو بجرجان، فخفتُ، إن بلغه أنّى أريد ذلك أن يتحوّل إلى البحيرة فينزلها، وإن يتحوّلْ إليها لم يُقدر عليه، وهو يسمع منك ويستنصحك، فإن حبستَه العامَ بجرجان، فلم يأتِ البحيرة، حملتُ إليك خمسين ألف مثقال، فاحتلْ له بكلّ حيلةٍ حتّى تحبسه بجرجان، فإن أقام ظفرتُ به.»

فلمّا أتى الإصبهبذ الكتابُ تقرّب به إلى صول. فلمّا أتى [529] صولاً الكتابُ أمر النّاسَ بالرّحيل إلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصّن بها وبلغ يزيد مسيرُه من جرجان إلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصّن بها. فخرج إلى جرجان فى ثلاثين ألفًا ومعه فيروز، واستخلف على

---

١) المياسان: كذا فى الأصل. وفى مط: الماسياب. وما فى الطبرى: البياسان.

٢) الجَعل والجعالة بتثليث الجيم : أجر العامل. مايُعطى للمحارب إذا حارب.

خراسان مَخلَد بن يزيد، وعلى سمرقند وكِسّ ونَسَف وبخارىٰ ابنَه معاوية، وعلى طخارستان حاتم بن قبيصة بن المهلّب.

[دخول يزيد بن المهلّب جرجان]

وأقبل حتّى أتى جرجان ولم تكن يومئذ مدينة، انّما هى جبال محيطة بها أبواب ومخارم يقوم عليها الرّجل فلا يقدَم عليه أحدٌ. فدخلها يزيد لم يعازّهُ أحدٌ، وأصابَ أموالاً، وهرب المرزبان عمُّ فيروز، وخرج يزيد بالنّاس إلى البحيرة، وأناخ على صولٍ، فحاصرهم، وكان صول يخرج إليه فى الأيّام فيقاتله ثمّ يرجع إلى حصنه، حتّى عجزوا وانقطعت عنهم الموادُّ.

فأرسل إليه صول يطلب الصُّلح، فقال يزيد:

ـ «لا إلاّ على حُكمى.»

فأبى. فأرسل إليه:

ـ «إنّى أصالحك على نفسى ومالى وثلاثمائة من أهل بيتى وخاصّتى على أن تؤمننا فننزل[1] البحيرة.»

فأجابه إلى ذلك. فخرج بماله وغلمانه ممّن أحبّ، وصار مع يزيد. فقتل يزيد من الأتراك جماعةً صبرًا ومَنّ على آخرين، وقال الجند ليزيد:

ـ «أعطِنا أرزاقَنا.»

فدعا [530] إدريس بن حنظلة العَمّى، فقال له:

ـ «يابن حنظلة، أحصِ لنا ما فى البحيرة حتّى نُعطى الجند.»

فدخلها إدريس فلم يقدر على إحصاءِ مافيها. فقال ليزيد:

ـ «فيها مالايُستطاع إحصاؤه فى هذه السُّرعة. وهناك ظروف. فتُحصى الجوالیق وتعلم مافيها، ثمّ تقول للجند: أدخلوا فخُذوها. فمن أخذ شيئًا عرفنا ما أخذ من حنطةٍ، أو شعيرٍ، أو أرُزٍ، أو سِمسمٍ، أو عسلٍ، فأثبتناه عليه.» قال:

ـ «نِعمَ مارأيتَ.»

ففعلوا ذلك، وقال للجند:

---

١) فننزل: كذا فى الأصل. والعبارة فى الطبرى (١٣٢٥:٩): على أن تؤمّنى فتنزل البحيرة.. فقتل يزيد من الأتراك اربعة عشر ألفًا.

ـ «خُذوا.»

فكان الرُّجل يخرج وقد أخذ ثيابًا أو طعامًا، أو حمل من شىء فيُكتب على كلّ رجلٍ ما أخذ، فأخذوا شيئًا كثيرًا.

[طمع يزيد بن المهلّب فى طبرستان]

ولمّا فرغ يزيدُ من صولٍ طمع فى طبرستان أن يفتتحها، وهمَّ بالمسير إليها. فاستعمل عبدالله المُعمر اليشكرى على دهستان البياسان، وضمَّ إليه أربعة آلاف رجل، وسار إلى آخر حدود جرجان مما يلى طبرستان، فاستعمل اندرشان[١] أسد بن عمرو، ويقال: بل إبنًا لعبدالله بن المعُمرّ وضمَّ إليهأربعةآلاف،ودخل يزيد بلاذ الإصبهبذ، فراسله الإصبهبذ يساله الصُلح، وأن يخرج من طبرستان ولا يتوغَّلها. فأبى يزيد، ورجا أن يفتتحها. فوجّه أخاه [531] أبا عُيينة من وجهٍ وخالد بن يزيد من وجهٍ وأبا الجهم الكلبى من وجهٍ. وقال:

ـ «إذا اجتمعتم فأبو عُيينه على النّاس.»

فسار أبو عُيينة فى أهل المصرين ومعه هُريم بن أبى طحمة، ووصّى يزيد أبا عيينة بأن يُشاور هُريمًا وقال:

ـ «هو ناصحُ وذورأىٍ.»

وأقام يزيد معسكرًا واستجاش الإصبهبذُ بأهل جيلان والدَّيلم، فأتَوهُ والتقوا فى سفح جبلٍ، فانهزم المشركون، واتَّبعهم المسلمون حتّى انتهوا إلى فم الشّعب، فدخله المسلمون وصعد المشركون واتَّبعهم المسلمون، فرماهم وهم فوقهم بالحجارة والنُشّاب، فانهزم أبو عُيينة والمسلمون، فركب بعضهم بعضًا يتساقطون من الجبل، فلم يثبتوا حتّى انتهوا إلى عسكر يزيد، وكفَّ العدوُ عن اتِّباعهم.

وكتب الإصبهبذ إلى المرزبان ابن عمّ فيروز وهو بأقصى جرجان ممّا يلى البياسان:

ـ «إنّا قد قتلنا يزيد وأصحابه، فاقتل[٢] أنت مَن فى البياسان من العرب.»

فخرج إلى البياسان والمسلمون غارُّون فى منازلهم فقُتلوا جميعًا فى ليلة.

---

١) اندرشان: كذا فى الأصل ومط. ولعلّه تصحيف «اندرستان» كما فى الطبرى ١٣٢٧:٩. وهناك تصحيفان أُخران أوردا فى حواشى الطّبرى عن الأُصول وهما: اندرسان، اندر سار.

٢) والعبارة فى مط: فاقبل انت فى الساسان. فخرج إلى البياسان. فسقطت منه عدة كلمات.

وأصبح عبدالله بن المعمر مقتولاً فى أربعة آلاف من المسلمين لم ينجُ منهم أحدٌ [532] وقُتل من بنى عمِّ يزيد خمسون رجلاً، وكتب المرزبان إلى الإصبهبذ:

ـ «إنّى قد قتلتُ مَن عندى من العرب، فخُذْ أنت المضائق والطُرق على مَن بقى منهم قِبلك.»

وبلغ يزيدَ والمسلمين مقتلُ عبدالله بن المعمَّر و أصحابه، فأعظموا ذلك وهالَهم.

ففرغ يزيد إلى حيَّان النَبطىّ وقال:

ـ «لايمنعنَّك ماكان منّى إليك من نصيحة المسلمين.» وكان يزيد قد غرَّم حيَّان مائتى ألف درهم ـ وسنذكر ذلك ـ وشكا يزيد إليه مايرى بالمسلمين من الوهن بما بلغهم عن جرجان ثمَّ بما أ.خذ عليهم الإصبهبذ من الطُرق، وقال له:

ـ «إعملْ فى الصُلح.» قال:

ـ «أفعل.»

فأتى حيَّانُ الإصبهبذَ وقال له:

ـ «أنا رجلٌ منكم وإن كان الدين فرّق بينى وبينكم، وأنا لك ناصحٌ، فإنك أحبُّ إلىَّ على كلّ حال من يزيد، وقد بعث يستمدُّ وأمدادُه منه قريبةٌ، وإنّما أصابوا منه طرفاً، ولستُ آمَن أن يأتيك ما لا تقوم له. فأرِحْ نفسَك منه وصالِحْهُ، فإنك إن صالحتَه صيَّر حدَّه على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم مَن قتلوا.»

فقبل الإصبهبذ منه وصالَحه على سبعمائة ألف [٧٠٠،٠٠٠]، ويُروىٰ خمسمائة ألفِ [533] وأربعمائة وقر زعفران أو قيمته من العين وأربعمائة رجلٍ على يد كُلِّ رجلٍ جام فضّةٍ وسَرَقة حرير[١] وكسوةٍ. ثمَّ رجع إلى يزيد وقال:

ـ «إبعث مَن يحمل صُلحَهم الّذى صالحتهم عليه.» قال:

ـ «مِن عندهم، أو من عندنا؟» قال:

ـ «من عندهم.»

وكان يزيد قد طابت نفسُه أن يُعطيَهم ماسألوا و يرجعَ إلى جرجان. فبعث مَن يحمل ما صالحهم عليه حيَّان، وانصرف إلى جرجان.

فأمَّا سبب تغريم يزيد حيَّانَ مائتى ألف درهم وخوفه أنّه لايناصحه، فهو أنَّ مَخلد بن يزيد كان

---

١) سَرَقة حرير: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٣٢٩:٩): سَرَقه خزٍّ. السَرَقة، (و جمعها: السَرَق): الشُقّة من الحرير.

ببلخ ويزيد يومئذٍ بمرو، وعرض لحيّان ما احتاج فيه إلى مكاتبة مَخلد. فأحضر كاتبه وأملى عليه:

- «من حيّان مولى مَصقلة إلى مَخلد بن يزيد.»

فقال له ابنه مقاتل بن حيّان:

- «يا أبَهْ[١] تكتب إلى مَخلَدٍ وتبدأ بنفسك.» فقال:

- «نعم يابُنَىّ. فإن لم يرضَ لقىَ مالقى قتيبة.»

وتمّم كتابه وأنفذه إلى مَخلد. فبعث مخلدٌ بالكتاب إلى أبيه يزيد فأغرمه يزيد مائتى ألف درهم.

[يزيد بن المهلّب يفتح جرجان الفتح الآخر]

ثمّ إنّ يزيد بعد انصرافه من طبرستان ومصالحة الاصبهبذ قصد جرجان وأعطى الله عهدًا لئن ظفر بهم ألاّ يُقلع عنهم ولايرفع السيف [534] حتّى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطّحين ويأكل منه لغدرهم بجنده ونقضهم لعهده.

فلمّا بلغ المرزبانَ أنّه قد صالح الاصبهبذ وتوجّه إلى جرجان ضاقت به الأرض، فجمع أصحابه وأتى وجاةَ[٢] وتحصّن فيها وصاحبها لايحتاج إلى عُدّة من طعام وشراب، وأقبل حتّى نزل عليها وهم متحصّنون فيها وحولها غياض عظيمة، فليس يُعرف لها إلاّ طريق واحد. فأقام على ذلك سبعة أشهر لايقدر منهم على شيء ولايعرف لهم ما يأتى إلاّ من وجه واحدٍ، فكانوا يخرجون إليه فى الأيّام ويُقاتلونه ثمّ يرجعون إلى حصنهم.

فبيناهم على ذلك إذ خرج رجل من عسكر يزيد بن المهلّب إلى الصّيد ومعه شاكريّةٌ له، فأبصر وَعِلاً فى الطّريق يرقى[٣] فى الجبل فاتّبعه وقال لمن معه:

- «قفوا مكانكم.»

ووقّل فى الجبل يتبع الوَعِلَ، فما شعر بشيء حتّى اطّلع على عسكر العدوّ، فرجع يُريد أصحابه وخاف ألاّ يهتدىَ إن عاد، فجعل يحرق قباءه وعمامته، ويعقد على الشّجر علاماتٍ حتّى ظفر بأصحابه ينتظرون. [535] ثمّ رجع إلى العسكر وأتى مَن أوصله إلى يزيد.

---

١) يا أبَهْ: كذا ضبط فى الأصل. وأمّا فى مط فضبط: يا أبتِ. كما فى الطبرى ٩: ١٣٣٠.

٢) وجاة (بالتاء المنقوطة): كذا فى الأصل. وما فى مط: وجا. وفى الطبرى: وجاه (بالهاء) وفى تعاليقه عن الأصول وجّاه: (بتشديد الجيم).

٣) يرقى: كذا فى الأصل والطبرى ٩: ١٣٣١. وما فى مط. يرمى وهو خطأ.

فلمّا رءَاهُ يزيد قال:

- «ماعندك؟» فقال:

- «أتريد أن تدخل وَجاةَ[١] بغير قتال؟» قال:

- «نعم.» قال:

- «جُعالتى؟» قال:

- «إحتكمْ.» قال:

- «أربعة آلاف.» قال:

- «بل أضعافها.» قال:

- «عجِّلوا إلى أربعة آلاف، ثمّ أنتم بعدُ من وراءِ الأحساب.»

فأمر له بأربعة آلاف، وندب النّاس، فانتدب ألفٌ و أربعمائة، فقال:

- «الطّريق لايحتمل هذه الجماعة، لالتفات الغياض[٢].»

فاختار منهم ثلاثمائة رجل، واستعمل عليهم ابنَه خالد بن يزيد، وضمّ إليه جهم بن زحر، وقال لابنه:

- «إن غُلبتَ على الحياة، فلا تُغلَبَنّ على الموت، وإيّاك أن أراك عندى منهزمًا.»

وقال للنّاس:

- «إذا وصلتم إلى المدينة فانتظروا حتّى إذا كان فى السّحر فكبِّروا، ثمّ توجّهوا نحو باب المدينة فإنّكم تجدونى قد نهضتُ بجميع النّاس إلى بابها.»

فلمّا أشرف ابن زَحْرٍ على المدينة أمهل حتّى إذا كانت السّاعة الّتى أمره يزيد أن ينهض فيها، مشى بأصحابه، فأخذ لايستقبل من أحراسهم أحدًا[٣] إلاّ قتله. وكبّر ففزع أهل المدينة فزعًا لم يدخلهم مثله قطُّ، لم يَرُعْهم [536] إلاّ والمسلمون معهم فى مدينتهم يكبّرون. فدُهشوا وأقبلوا لايدرون أين يتوجّهون. غير أنّ عصابةً منهم أقبلوا نحو جهم بن زَحر، فقاتلوا ساعةً فدُقّت يَدُ جهم وصبرلهم هو وأصحابه، فلم يلبثوهم إلاّ قليلاً حتّى قتلوهم.

---

١) وجاة كذا فى الأصل. وما فى الطبرى: وجاه (أيضًا) وفى مط: فجاة (فجاة؟).

٢) الغياض: جمع مفرده: الغَيضة: مجتمع الشّجر فى مغيض الماء. الأجمة. والمغيض مجتمع الماء ومدخله فى الأرض. غاض الماءُ: نقص. غار. نضب.

٣) أحدا: تكرّرت الكلمة فى الأصل، فحذفنا احداهما.

[يزيد بن المهلّب يدخل باب جرجان ويُبرُ يمينَه فى أهلها]

وسمع يزيد بن المهلّب التكبير، فوثب فى النّاس إلى الباب، فوجدهم قد شغلهم جهم بن زَحر عن الباب، فلم يجد من يمنعه ولايدفع عنه كبيرَ دفعٍ. ففتح الباب ودخلها من ساعته، فأخرج مَن كان فيها من المقاتلة، فنصب لهم الجُذوعَ فرسخين عن يمين الطّريق وعن يساره، فصلبهم أربعة فراسخ وسَبىَ وأصاب ماكان فيها وقاد أربعين ألفًا [٤٠،٠٠٠] إلى اندرهرز وادى جُرجان وقال:

ـ «من طلبهم بثأر فليقتلْ.»

فكان الرُّجل من المسلمين يقتل الجماعة فى الوادى، وأُجرىَ الماءُ على الدّم وعليه أرحاء، ليطحن بدمائهم ولتَبَرَّ يمينُه، فطحنَ واختبز وأكَلَ. وهى مدينة جرجان، ولم يكن جرجان يومئذٍ مدينةً.

وكتب بذلك إلى سليمان بن عبدالعزيز بالفتح، وعظَّم [537] ذلك قال:

ـ «إنّ الله فتح لأُمير المؤمنين من جرجان وطبرستان ما أعيا سابورَ ذا الأكتاف، وكسرى بن قباذ، وكسرى بن هرمز، وأعيا الفاروق عُمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان، ومَن بعدهما من خلفاءالله.»

وكتب فى الكتاب[1] أنّ:

ـ «قد صار عندى من خُمس ما أفاءالله على المسلمين بعد أن صار إلى كلّ ذى حقٍّ حقُّه من الفَىءِ والغنيمة ستَّة آلاف ألفٍ [٦،٠٠٠،٠٠٠] وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاءَ الله.»

ذكر راى أشير به على يزيد بن المهلّب
فلم يقبلْه فعاد وبالاً عليه

فقال له كاتبه المغيرة بن أبى قُرَّة:

ـ «لاتكتب بتسمية مال، فإنّك من ذلك بين أمرين: إمّا استكثره فأمرك بحمله، وإمّا سخَتْ نفسُه بذلك به فسوَّغكه فتتكلّف له الهديّة ولايأتيه من قبلكَ شىءٌ إلاّ استقلّه، ويُحصّل الكُتّابُ ما سمَّيْتَه فى دواوينهم فيبقى مخلدًا عليك، فإن وَلىَ والٍ بعدَه أخذك به، وإن وَلىَ مَن يتحامل عليك لم يرضَ منك بأضعافه، فلاتُمض كتابَك، ولكن اكتُبْ بالفتح وسَلْهُ القُدومَ عليه، ثمّ

---

١) فى الكتاب: كذا فى الأصل وهو صحيح. ولكن فى مط: اكتساب. وهو خطأ.

تُشافهه بما أُحببتَ وتُقصِرُ في الكتاب. [538] فإنكَ إن تُقصِرْ عمَّا أصبتَ أحرىٰ من أن تُكثِرَ.»
فأبى يزيد وأمضى الكتاب.

ودخلت سنة تسعٍ وتسعين

وفيها تُوفِّي سليمان بن عبدالملك يوم الجمعة لعشر ليالٍ مضين من صفر. فكانت خلافته سنتين وسبعة أشهر. وكانوا يتبرّكون به و يسمونه مفتاح الخير، وذاك أنّه ذهب عنهم الحجّاج، فأطلق الأُسرىٰ وخلّىَ أهل السُجون وأحسن إلى النّاس.

خلافة عُمر بن عبدالعزيز

واستخلف سليمانُ بن عبدالملك عمرَ بن عبدالعزيز على ماسنحكيه. وهو أنّه لمّا مرض مرضتَه الّتى مات فيها، عَهِدَ فى كتابٍ كتبه لبعض بنيه وهو غلامٌ لم يبلغ.

قال رجاء بن حبوّة[1]: فقلتُ:

ـ «ماتصنع يا أمير المؤمنين، إنّه ممّا يحفظ به الخليفة فى قبره أن يستخلف على المسلمين الرّجل الصّالح.»

فقال سليمان:

ـ «أنا أستخير الله وأنظر فيه، ولم أعزم عليه.»

قال: فمكث يومًا أو يومين، ثمّ خرّقه ودعانى، فقال:

ـ «ماترى فى داود بن سليمان؟»

يعنى ابنه. قُلت:

ـ «هو غائب عنك بقسطنطينية وأنت لاتدرى أحىٌّ [539] هو أم ميّتٌ.» فقال لى:

ـ «فمَن ترى؟» قلتُ:

ـ «رأيك يا أمير المؤمنين.»

ـ «وأنا أريد أن أنظرَ من يذكر[2]. قال:

ـ «كيف ترى فى عمر بن عبدالعزيز؟» فقلت:

---

١) حبوّة: كذا فى الأصل. والكلمة مهملة فى مط. وما فى الطبرى (١٣٤١:٩): حَيوَة.

٢) مَن يذكر: كذا فى الأصل والطبرى ١٣٤١:٩. مما فى مط: تذكر (بصيغة الخطاب).

- «أعلمه والله خيّرًا فاضلاً مسلمًا.» فقال:

- «هو والله على ذلك.»

ثمّ قال:

- «والله، لئن ولّيته لم أولّ أحدًا سواه لتكوننّ فتنةٌ، ولايتركونه يلى أبدًا عليهم إلاّ أن يجعل أحدَهم بعدَه.»

ويزيد بن عبدالملك يومئذٍ غائب على الموسم. قال:

- «فأجعل يزيد بن عبدالملك بعده، فإنّ ذلك ممّا يُسكّنهم ويرضون به.» قلتُ:

- «رأيك.»

فكتب:

- «بسم الله الرّحمن الرّحيم. هذا كتاب من عبدالله سليمان أميرالمؤمنين لعمر بن عبدالعزيز. إنّى ولّيتُك الخلافة من بعدى. ومن بعدِك يزيدَ بن عبدالملك. فليسمع المؤمنون له وليُطيعوا، وليتّقوا الله ولايختلفوا، فيُطمعَ فيهم.»

وختم الكتاب، وبعث به إلى صاحب شرطته يأمره أن يجمع أهل بيته ولمّا اجتمعوا قال سليمان لِرَجاء:

- «إذهب بكتابى إليهم، فأخبرهم أنّه كتابى، ومُرْهم فليبايعوا مَن ولّيتُ فيه.»

ففعل رجاءُ. فلمّا قال رجاءُ ذلك لهم قالوا: [540]

- «ندخل ونسلّم على أميرالمؤمنين.» قال:

- «نعم.»

فدخلوا. فقال لهم سليمان:

- «فى هذا الكتاب - وهو يشير لهم إليه وهم ينظرون إلى يد رجاء بن حَيْوَة - عهدى. فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سمّيتُ فى هذا الكتاب.»

فبايعوه رجلا رجلاً.

قال: ثمّ خرج بالكتاب مختومًا.

قال رجاءُ: فلمّا تفرّقوا جاءَ نى عُمر بن عبدالعزيز، فقال[1]:

- «إنّى أخشى أن يكون هذا قد أسند إلىّ شيئًا من الأمر. فانشدك الله وحُرمتى و مودّتى إلاّ

---

١) فقال: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: «فقد» بدل «فقال» وهو تصحيف عجيب.

أعلمتنى إن كان ذلك حتّى استعفيه الآن قبل أن تاتى حالٌ لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة.»

قال رجاءُ:

- «لا والله، ما أنا بمُخبرك حرفًا.»

فذهب عُمر غضبان.

قال رجاءُ: ولقينى هشام بن عبدالملك، فقال:

- «يا رجاء، إنّ لى بك حرمةً ومودّة قديمةً وعندى شُكر، فأعلمنى فإن كان إلىّ علمتُ، وإن كان إلى غيرى تكلّمتُ، فليس مثلى قُصّر به ذلك، ولك اللهُ علىّ ألاّ اذكر من ذلك شيئًا أبدًا.»

قال رجاءُ: فأبيتُ وقلتُ:

- «لا والله، لا أُخبرك حرفًا واحدًا ممّا أسرّ إلىّ.»

قال: فانصرف هشام وقديئس وضرب بإحدى يديه على الأُخرى [541] وهو يقول:

- «فإلى مَن إذا نُحّيتُ[١] عنّى! أتخرج من بنى عبدالملك؟»

قال رجاءُ: ودخلتُ على سليمان وهو يجود بنفسه، فلقّنته الشهادة، وحرّفته إلى القبلة، وسجّيته، وأجلستُ على الباب مَن أثق به، ووصّيته ألاّ يبرح حتّى آتيه، ولا يدخل على الخليفة أحدٌ. ثمّ خرجتُ وأرسلت إلى صاحب الشُرطة حتّى جمع أهل بيت أميرالمؤمنين فى مسجد دابق[٢]، وتوسّطتهم إلى المنبر، وقلت:

- «بايعوا!» فقالوا:

- «قد بايعنا مرّةً ونبايع أُخرى.» قلتُ:

- «هذا عهد أمير المؤمنين. فبايعوا مَن سمّى فى هذا الكتاب المختوم.»

فبايَعوا الثانيةَ رجلاً رجلاً. فلمّا بايعوا بعد موت سليمان رأيتُ أنّى قد أحكمتُ الأمر. قلتُ:

- «قوموا إلى صاحبكم فقد مات.» قالوا:

- «إنّا لله وإنّا إليه راجعون.»

وقرأتُ الكتاب عليهم. فلمّا انتهيتُ إلى ذكر عمر بن عبدالعزيز، نادى هشام بن عبدالماك:

- «لا نبايعه أبدًا.» قلتُ:

---

١) إذا نُحّيت: كذا فى الأصل. والضبط فى الطبرى (١٣٤٣:٩): إذًا نُحّيت. وفى مط: تجنّب.

٢) دابق: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: داتو. وهو خطأ.

ـ «أضربُ والله عنقك. قُم فبايع من[١] قد بايعتَه مرّتين.»

فقام يجرُ رِجلَيه.

قال رجاء: وأخذت بضبعَى[٢] عمر بن عبدالعزيز، فأجلسته على المنبر وهو يسترجع [542] لِما وقع فيه وهشام يسترجع لما أخطأه.

ولمّا كفّن سليمان وصلّى عليه عُمر ودفنه وأتى بمراكب الخلافة من البراذين والخيل والبِغال، ولكلّ دابّة سائسٌ مفرد، فقال:

ـ «ما هذا؟» قالوا:

ـ «مراكب الخلافة.» قال:

ـ «دابّتى أوفق لى.»

وركب دابّته وصُرفت تلك الدّوابُ. ثمّ اقبل سائرًا. فقيل له:

ـ «منزلُ الخلافة.» فقال:

ـ «فيه عيال أبى أيُوب ـ يعنى سليمان ـ وفى فسطاطى كفايةٌ حتّى يتحوّلوا.»

فأقام فى منزله حتّى فرّغوه من بعدُ.

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى العُمّال بكلّ بلدٍ بماصار إليه، فأوجز وأحسن.

ثمّ وجّه إلى مَسلمة وهو بأرض الرُوم يأمره بالقفول منها بمن معه بخيلٍ عِتاقٍ وأموال عظيمة.

وعزل يزيد بن المهلّب عن العراق، ووجّه على البصرة عدىّ بن أرطاة الفزارىّ، وبعث على الكوفة عبدالحميد بن عبدالرّحمان بن زيد بن الخطّاب من بنى عدىّ بن كعب. فضمّ إليه أبا الزّياد[٣]، فكان أبو الزّياد كاتب عبدالحميد بن عبدالرّحمان. وبعث عدىُ فى إثر يزيد بن المهلّب موسَى بنَ الوجيه [543] الحميرى.

ودخلت سنة مائة

وفيها خرجت الخارجة على عمر بن عبدالعزيز بالعراق

فكتب عمرُ إلى عبدالحميد بن عبدالرّحمان بن زيد بن الخطّاب عامله على العراق، يأمره أن

---

١) مَن: سقطت من مط.

٢) بضبعَىْ عمر: الضّبع: وسط العَضُد. العَضدُ كلّها. الابط. يُقال: أخذ بضَبعه. اى أعانه.

٣) أبا الزّياد: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطّبرى ٩١:١٣٤٧: أبا الزّناد. ولعلّ هذا هو الصّحيح.

يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه، صلّى الله عليه، ففعل. ولمّا أعذر فى دُعائهم، بعث إليهم عبدالحميد جيشًا فهزمتهم الحروريّة، فبلغ عُمرَ، فبعث إليهم مسلمة بن عبدالملك فى جيش من أهل الشّام جهّزهم من الرَّقّة.

وكتب إلى عبدالحميد:

ـ «قد بلغنى مافعل جيشك جيش السّوء، وقد بعثتُ مَسلمة بن عبدالملك، فخَلِّ بينه وبينهم.»

فلقيهم مسلمة فى أهل الشّام، فلم ينشَبْ أن أظهرهُ اللهُ عليهم.

وكان هذا الخارجىُّ بسطام من بنى يشكر ويُلقّب شوذَب، وكان خروجه فى ثمانين فارسًا أكثرهم من ربيعة. وكان عمر كتب إلى بسطام يدعوه[1] ويسأله عن مخرجه ويقول فى كتابه:

ـ «بلغنى أنّك خرجتَ غضبًا لله ولنبيّه، صلّى الله عليه، ولستَ بأولى بذلك منّى. فهلُمَّ [544] أناظرك، فإن كان الحقُّ بأيدينا دخلتَ فى ما دخل فيه النّاسُ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرك.»

فأمسك بسطام عن الحرب ولم يُحرِّك ساكنًا، وكتب إلى عُمر:

ـ «قد أنصفتَ. وقد بعثتُ إليك رجلين يُدارسانِك ويُناظرانِك.»

فلمّا وصل الرّجلان إلى عمر، أطالا معه حتّى قالا له:

ـ «أخبرنا عن يزيد، لِمَ تُقرُّه خليفةً بعدك.» قال:

ـ «صيّره غيرى[2].» قالا:

ـ «أفرأيتَ لو وَلِيتَ مالاً لغيرك، ثمّ وكلتَه[3] إلى غير مأمون عليه، أتُراك كنتَ أدّيتَ الأمانة إلى مَن ائتمنك عليها[4]؟» فقال:

ـ «أنظرنى ثلاثًا.»

فخرجا من عنده. وبلغ ذلك مروان، فخافوا أن يُخرج ما فى أيديهم من الأموال وأن يَخلعَ يزيدَ. فدسُّوا إليه مَن سقاه سمًّا. فلم يلبث بعد خروجهما من عنده إلاّ ثلاثًا حتّى مات.

---

١) فى الأصل: يدعوهم. والمثبت يوافق مط والطبرى، وهو أنسب.

٢) صيّره غيرى: كذا فى الأصل. وما فى مط: صيّر غيرى (بدون الهاء).

٣) وكلته: كذا ضبط ما فى الأصل ومط. وضبط فى الطبرى (١٣٤٩:٩): وكلْته (بتشديد الكاف) وَكَلَ إليه الأمرَ: سلّه وفوّضه إليه واكتفى به.

٤) عليها: فى الأصل ومط: إئتمنك عليه. فأنّثنا الضمير.

[عُمر بن عبدالعزيز يحبس يزيد بن المهلّب]

ثمّ عُدنا إلى حديث يزيد بن المهلّب. لمّا أقبل يزيد بن المهلّب فنزل واسطًا، ركب منها السُفنَ يُريد البصرة. فبعث عدىٌ مَن منعه وأوثقه، ثمّ بعث به إلى عمر بن عبدالعزيز، وكان عمر يُبغض يزيد وأهل بيته ويقول:

ـ «هم جبابرة، ولا أحبُّ أمثالَهم.»

وكان يزيد يُبغض عُمَرَ ويقول: [545]

ـ «إنّى لأظنُّه مرائيًا.»

فلمّا ولى عمر عرف يزيدُ أنّ عُمر كان من الرِّئاءِ بعيدًا.

ولمّا وصل يزيد إلى عمر سأله عن الأموال الّتى كتب بها إلى سليمان. فقال:

ـ «كنتُ من سليمان بالمكان الّذى قد علمتَ، وإنّما كتبتُ إلى سليمان لأُسمع النّاسَ به، وكنتُ علمتُ أنّ سليمان لم يكن ليأخذنى بشىءٍ سمعْتُ به، ولا بأمر أكرهه.» فقال له:

ـ «لا أجدُ فى أمرك إلاّ حبسك[١]، فاتّق اللهَ وأدّ ماقِبَلك، فإنّها حقوق المسلمين ولا يَسَعُنى تركها.»

وردّه إلى محبسه.

وبعث الجرّاحَ بن عبدالله الحكمى، فسرّحه إلى خراسان.

وأقبل مخلد بن يزيد من خراسان يُعطى النّاس، لايَمرُّ بكورةٍ إلاّ أعطاهم فيها أموالاً عظامًا، حتّى قدم على عمر بن عبدالعزيز. فدخل عليه، فحمدالله وأثنى عليه ثمّ قال:

ـ «إنّ الله، يا أميرالمؤمنين، صنع لهذه الأُمّة بولاتيك عليها، وقد ابتلينا بك، فلاتكُنْ أشقى النّاس بولايتك، علامَ تحبس هذا الشّيخ؟ أنا أتحمّل ما عليه، فصالِحنى على ما[٢] إيّاهُ تسأل.»

فقال عُمر:

ـ «لا، إلاّ أن[٣] تحمل جميع ما إيّاه نسأل.» فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إن كانت لك بيِّنةٌ [546] فخذه بها، وإن لم تكن بيِّنةٌ فصدِّق مقالة يزيد، وإلاّ فاستحلفهُ[٤]، فإن لم يفعل فصالِحْهُ.»

---

١) لا أجد... إلاّ حبسك: كذا فى الأصل وهو صحيح. وما فى مط: ما أجدك إلاّ حسك!

٢) على ما إيّاه تسأل: كذا فى الأصل. وفى مط: على اِيّاه تسأل. فسقطت «ما».

٣) إلاّ أن تحمل: كذا فى الأصل. وما فى مط: إلاّ صحان تحمل! وهو خطأ غريب.

٤) استحلفه (بالحاء المهملة): كذا فى الأصل. وما فى مط: استخلفه (بالخاءِ المعجمة) وهو خطأ.

فقال عُمر:

ـ «ما أجدُ إلاّ أخذه بجميع المال.»

فلمّا خرج مَخلد من عند عمر، قال:

ـ «هذا خيرٌ عندى من أبيه.»

ولمّا أبى يزيد أن يؤدّى إلى عمر شيئًا، ألبسه جُبّة صوف وحمله على جملٍ وقال:

ـ «سيروا به إلى الدَّهلَك[١].»

فلمّا أُخرج، فمُرّ به على النّاس أخذ يقول:

ـ « أما لى عشـيرةٌ؟ مالى يُذهب بى إلى دَهلَك! وانّما يُذهب إلى دَهلَك بالفـاسق المريب الحارب[٢]. سبحان الله! أما لى عشيرةٌ.»

فدخل على عمر سلامة بن نُعيم الحولانى، فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، اردُدْ يزيد إلى محبسه، فإنّى أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومُه. فإنّى قد رأيتُ قومَه غضبوا له.»

فردّه إلى محبسه. فلم يزل فى محبسه ذلك حتّى بلغه مرض عُمر. فأخذ يعمل فى الهَـرب من محبسه مخافة يزيد بن عبدالملك، لأنّه قد كان عذّبَ أصهارَه، وكان يزيد بن عبدالملك قـد عاهد الله: لئن أمكنه الله من يزيد ليقطعنّ منه طابقًا. فكـان يخشـى ذلك. فبعـث [547] يزيد بن المهلّب إلى مواليه، فأعدّوا له إبلاً، وخرج حتّى حاز مراصد عمر. وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز:

ـ «إنّى والله لو علمتُ أنّك تبقىٰ ماخرجتُ من محبسى، ولكنّى لم آمَنْ يزيد بن عبدالملك.»

وقد قيل: إنّ يزيد بن المهلّب إنّما هرب من سجن عُمر بعد موت عُمر.

وكانت خلافة عمر سنتين وخمسة أشهر. ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة.

ذكر بعض سيرة عمر بن عبدالعزيز

كان الجرّاح بن عبدالله لمّا ولى خراسان استخرج الجزية من كلّ من اتّهـم إسـلامه. فكتب

---

١) دَهلَك، ويُقال: دَهلَك: جزيرة فى بحر اليمن وهو مُرسًى بين بلاد اليمن والحبشة: بلدة ضيّقة حـرجة حـارّة كان بنو أميّة إذا سخطوا على أحدٍ نَفَوه إليها (مراصد الإطلاع).

٢) الحارب (بالحاءِ المهملة): كذا فى الأصـل. والكلمة سـاقطة من مط. وما فـى الطبرى (١٣٥١:٩): الخـارب (بالمعجمة). والحارب (بالمهملة): حَرَبه حَرْبًا: سلبه جميع مايملك.

عُمر إليه:

- «أنظر من صلّى إلى القبلة قِبَلَك، فضع عنه الجزية.»

فسارع النّاس إلى الاسلام. فقيل للجرّاح:

- «إنّ النّاس قد سارعوا إلى الاسلام. وإنّما ذلك تعوُّذًا[١] من الجزية، فامتحنهم بالختان.»

فكتب الجرّاح بذلك إلى عمر. فكتب عُمرُ إليه:

- «إنّ الله بعث محمّدًا صلّى الله عليه داعيًا ولم يبعثه خاتنًا[٢].»

وقال عُمر:

- «أبغونى رجلاً صدوقًا أساله عن [548] خراسان.»

فقيل له:

- «قد أصبتَه، عليك بأبى مُجلز.»

وكان الجرّاح لمّا قدم خراسان، كتب إلى عمر: «إنّى قدمتُ خراسان، فوجدتُ قومًا قد أبطرتهم الفتنة، فهم ينزون فيها نزوًا. أحبُّ الأُمور إليهم أن تعودَ ليمتعوا حقَّ الله عليهم، فليس يكفُهم إلاّ السّيف والسّوط، وكرهت الاقدام على ذلك إلاّ باذنك.»

فكتب إليه عُمر:

- «يابن أمّ الجرّاح! أنتَ أحرص على الفتنة منهم، لاتضربنّ مؤمنًا ولامُعاهدًا سَوطًا إلاّ فى حقٍّ، واحذر القصاص، فإنّك صائرٌ إلى من يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور[٣]، وتقرأ كتابًا لايُغادر صغيرةً ولاكبيرةً إلاّ احصاها[٤].»

وكتب إليه أن.

- «إحمل معك أبا مُجلز[٥]، وخلّف على خراسان عبدالرّحمان بن نُعيم الغامدى، وعلى جزيتها عبدالله بن حبيب.»

ولمّا قدم أبومُجلز لاحق ابن حميد على عمر، وكان رجلاً لاتاخذه العَين، دخل على عمر فى غمار النّاس. فلم يثبته عُمر، وخرج مع النّاس. فقيل لِعُمر وقد سال عنه بأنّه:

- «دخل مع النّاس، ثمّ خرج.»

---

١) تعوُّذًا: كذا فى الأصل. وفى مط: تعود. وما فى الطبرى: نفورًا. وما فى مط خطأ.

٢) خاتنًا: كذا فى مط والطبرى. وما فى الأصل غامض و: جابيًا؟ خابيًا؟.

٣) س ٤٠ الغافر: ١٩.

٤) س ١٨ الكهف: ٤٩.

٥) أبا مُجلز: كذا فى الأصل. والضبط فى الطبرى: أبا مجلز.

فدعا به عمر، فقال: [549]

ـ «يابا مُجلز، إنّى لم أعرفك.» قال:

ـ «فهلاّ ـ يا أميرالمؤمنين ـ أنكرتنى إذ لم تعرفنى.» قال:

ـ «أخبرنى عن عبدالرّحمان بن عبدالله.» قال:

ـ «يكافئُ الأكفاءَ، ويعادى الأعداءَ، وهو أمير يفعل مايشاءُ، ويُقدم، إن وَجَد مَن يُساعده.» قال:

ـ «فعبد الرّحمان بن نُعيم؟» قال:

ـ «ضعيفُ ليّنٌ يُحبُ العافية، وتأتّى[1] له.» قال:

ـ «الّذى يُحبُ العافية وتأتّى له أحبُ إلىّ.»

فوَلاّهُ الحَربَ والصّلاة، وولى عبدالرّحمان القشيرى الخراجَ.

وكتب إلى أهل خراسان:

ـ «إنّى استعملتُ على حربكم عبدالرّحمان بن نُعيم، وعبدُالرّحمان بن عبدالله على خراجكم من غير معرفةٍ منّى بهما ولا اختيار إلاّ ما أخبرتُ عنهما، فإن كانا على ماتُحبّون فاحمدوا[2] الله، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.»

[إبتداء دعوة بنى هاشم][3]

وفى هذه السَّنة، وهى سنة مائة، وجّهَ محمّد بن علىّ بن عبدالله بن العبّاس من أرض السّراة ميسرة إلى العراق، ووجّه محمّد بن خُنيس وأبا عكرمة السّرّاج وحيّان العطّار رجال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان دُعاةً، وعلى خراسان [550] يومئذٍ الجرّاح بن عبدالله الحَكمى، فدعَوا إليه وكتبوا بأسماءِ مَن استجاب، وبعثوا بالكتاب إلى ميسرة، وبعث به ميسرة إلى محمّد بن علىٍّ. فكان ذلك ابتداء دعوة بنى هاشم.

فاختار أبومحمّد الصّادق وهو أبوعكرمة السّرّاج لمحمّد بن علىٍّ، إثنَى عشر نقيبًا منهم:

---

١) وتأتّى له: كذا فى الأصل والطبرى ١٣٥٦:٨. وما فى تعاليق الطبرى: تأتّى (بالنون).

٢) فاحمدوا الله (بصيغة الجمع): كذا فى الأصل. وما فى مط: فاحمد الله (بصيغة المفرد).

٣) العنوان مستخرج من النّص فى الأسطر الآتية من دون أىّ تغيير. والعنوان فى الطبرى (١٣٥٨:٩): «أوّل الدّعوة». وفى ابن الأثير (٥٣:٥): «ذكر ابتداء الدّعوة العبّاسيّة».

سليمان بن كثير الخُزاعىّ، ولاهزبن قريط التّميمى، وقحطبة بن شبيب الطّائىّ، وموسى بن كعب التميمىّ، وخالد بن إبراهيم، والقاسم بن مجاشع، وعمران بن إسماعيل، ومالك بن هيثم الخُزاعىّ، وطلحة بن زُريق، وأبو حمزة عمرو بن أبى أعيَن، وشبل بن طَهمان وهو أبو على الهروىّ، و عيسى بن أعيَن.

ثمّ اختار سبعين رجلاً كتب إليهم محمّد بن علىّ كتابًا كالسيرة والمثال يسيرون بها.

خلافة يزيد بن عبدالملك

ودخلت سنة إحدى ومائة

وفيها ولى يزيد بن عبدالملك الخلافة، وكنيتُه أبوخالد، وهو ابن تسعٍ وعشرين سنة فى قول هشام بن محمَّد.

وفيها قُتل شَوذَب الخارجى[1]. [551]

ذكر ذلك

قد كنّا ذكرنا خروج من خرج من قِبل شَوذَب لمناظرة عمر. فلمّا مات عمر أحبَّ عبدالحميد بن عبدالرّحمان أن يتحظّى عند يزيد بن عبدالملك. فبعث بمحمَّد بن جرير فى ألفين إلى محاربة شَوذَب، ولم يرجع رسولا شَوذَبٍ، ولم يعلم بموت عُمر. فلمّا طلع عليهم محمد بن جرير مستعدًا للحرب، قالوا:

- «ما أعجلكم قبل انقضاءِ المدّة بيننا وبينكم، أ ليس قد تواذَعنا إلى أن يرجع الرّسولان؟»

فأرسل إليه محمَّدُ:

- «إنّه لايسعنا ترككم.»

فقالت الخوارج:

- «ما فعل هؤلاءِ هذا إلاّ وقد مات الرّجل الصّالح.»

فبرز لهم شَوذَب، فأكثروا القتل فى أهل الكوفة وولّوا منهزمين والخوارج فى أكتافهم[2] تقتل حتّى بلغوا أخصاص الكوفة وجُرح محمَّد بن جرير فى إسته.

---

١) الخارجى: كذا فى الأصل. والكلمة ساقطة من مط.

٢) أكتافهم: ما فى الأصل مطموس. وفى الطبرى (١٣٧٦:٩): أعقابهم. والمثبت من مط.

ورجع شَوذَب إلى موضعه ينتظر صاحبيه. فجاءَا فأخبراه بماجرى وبموت عُمر. فأقرّ يزيد بن عبدالملك عبدَالحميد على الكوفة، ووجّه من قبله تميم بن الحباب[1] فى [552] ألفين، فراسلهم وأخبرهم أنّ يزيد لايُقارُهم على ما فارقهم عليه عُمر. فلعنوه، ولعنوا يزيد. ثم حاربوه وقتلوه وهزموا أصحابَه. فلجأ بعضهم إلى الكوفة ورجع الآخرون إلى يزيد. ووجّه إليهم نجدة بن الحَكَم الأزدى فى خلق كثير، فقتلوه وهزموا أصحابه. ووجّه إليهم الشّحاج[2] بن وَداع فى ألفين من أهل البأس والنّجدة، فقتلوه وقتل منهم نفرًا منهم هُدبة اليشكرى ابنُ عمّ شوذَب وكان عابدًا، وفيهم أبو شُبيل مقاتل بن شيبان، وكان فاضلاً فيهم سيّدًا.

[دخول مَسلمة الكوفة ومقتل شوذب الخارجى]

فلمّا دخل مَسلمةُ الكوفة فى ما روى هشام شكا إليه أهلها مكان شَوذَب وخوفَهم منه، وما قد قتل منهم. فدعا مسلمة سعيد بن عَمرو الحَرَشى وكان فارسًا شجاعًا، فعقد له على عشرة آلاف، ووجّهه إليه وهو مقيم بموضعه، فأتاه مالا طاقة له به. فقال شَوذَب لأصحابه:

- «من كان يريد الله فقد جاءته الشّهادة، ومَن كان إنّما خرج للدُّنيا فقد ذهبت الدُّنيا، وإنّما البقاءُ فى الدّار الآخرة.» [553]

فكسروا أغمادَ سيوفهم وحملوا، فكشفوا[3] سعيدًا وأصحابَه مرارًا حتّى خاف الفضيحة، فذمر أصحابَه وقال:

- «أمِن هذه الشّرذمة - لا أبًا لكم - تفرُّون؟ يا أهل الشّام يومًا كأيّامكم!»

فحملوا عليهم، فطحنوهم طحنًا ولم يُبقُوا منهم أحدًا وقتلوا شوذبًا - وهو بسطام - وفرسانَه، والرَّيّان بن عبدالله اليشكرى. فرثاهم الشُّعراءُ وأكثروا، إلاّ أنّا لانكتب فى هذا الكتاب مايجرى هذا المجرى، وقد ذكرنا كثيرًا منه فى اختيارنا من أشعار العرب.

[دخول يزيد بن المهلّب البصرةَ وخلعُه يزيدَ بن عبدالملك]

وفى هذه السّنة لحق يزيد بن المهلّب بالبصرة، فغلب عليها وقد كنّا حكينا هرَبَهُ من محبس عُمر.

---

١) الحُباب: ما فى الأصل مهمل. وما فى مط مهمل أيضًا إلاّ فى الباء الأخيرة. وما ضبطناهُ يوافق الطبرى.

٢) الشّحّاج: كذا فى الأصل والطّبرى. وما فى مط وابن الأثير: السخاج (بالسين المهملة).

٣) فكشفوا: كذا فى الأصل والطبرى ٩:١٣٧٨. وما فى مط: فكسروا!

ولمّا مات عمر وبويع ليزيد بن عبدالملك بلغه هرب يزيد بن المهلّب. فكتب إلى عبدالحميد بن عبدالرّحمان يأمره أن يطلبه ويستقبله. وكتب إلى عدىّ بن أرطاة يُعلمه هَرَبَهُ ويأمره أن يطلبه ويستقبله.

فأمّا عدىُّ بن أرطاة فإنّه أخذ من أولاد المهلّب وعشيرته مَن وجدهم، فحبسهم. وفيهم: المفضّل، [554] وحبيب ومروان بنو المهلّب، وأفلتَ محمّد بن المهلّب فلم يُقدر عليه.

وأقبل يزيد حتّى ارتفع فوق القطقطانة، وبعث عبدُالحميد بن عبدالرّحمان هشامَ بن مساحق القُرشىَّ فى ناسٍ من أهل الكوفة ذوى[1] بأسٍ، ووجوه الناس وأهل القوّة. فقال:

- «إنطلقْ حتّى نستقبله، فإنّه اليوم يمرُّ بجانب العُذَيب.»

فمشى هشام قليلاً، ثمّ رجع إلى عبدالحميد، فقال:

- «أجيئك به أسيرًا، أم آتيك براسه؟» فقال:

- «أىَّ ذلك شئت.»

فكان مَن سمع ذلك منه تعجّب له.

فلمّا خرج هشام مضى إلى العُذيب حتّى نزله. ومرّ به يزيد بن المهلّب غير بعيد، فلم يتجاسر أحدٌ منهما على الإقدام عليه حتّى عبروا. ومضى نحو البصرة، وانصرف هشام بن مساحق إلى عبدالحميد.

فجمع عدىّ بن أرطاة أهل البصرة، وخندق عليها،

فقال عبدالملك بن المهلّب لعدىّ بن ارطاة:

- «خذ ابنى رهينة، واحبسه مكانى وأنا أضمن لك أن أردّ يزيد أخى عن البصرة حتّى ياتى فارس وكرمان ويطلب لنفسه الأمان [555] ولا يقربك.»

فأبى عليه.

وجاءَ يزيد مع أصحابه الّذين أقبل فيهم، والبصرةُ محفوفةٌ بالرّجال، وقد جمع محمّد بن المهلّب - ولم يكن ممّن حبس - رجالاً من قومه وأهل بيته وناسٍ من مواليه. فخرج حتّى استقبله فى كتيبة تهول مَن رَءَاها، وكان عدىٌّ قد بعث على كلّ خُمسٍ من أخماس البصرة رجلاً مَرضيًا، وأقبل يزيد بن المهلّب لايمرُّ بخيلٍ من خيولهم ولا قبيلةٌ من قبائلهم إلاّ تنحّوا له عن السّبيل تهيّبًا وإعظامًا. حتّى انتهى إلى المغيرة بن عبدالله الثّقفىّ وهو على الخيل فاستقبله

١) ذوى بأس: كذا فى الأصل. وما فى مط ذووباس (بالرّفع).

ليردّه. فحمل عليه محمّد بن المهلّب، فـأفرج له عن الطّريق هو وأصـحابه وأقبل يزيد حتّى نزل داره، واختلف النّاس إليه. وأخذ يبعث إلى عدىّ بن أرطاة أن:

ـ «ادفعْ إلىّ إخوتى وأنا أصالحك على البصـرة وأخلّيك وإيّاها حتّى آخُـذَ لنفسـى ما أحبُّ من يزيد بن عبدالملك.»

فلم يُجبْه إلى ذلك.

وكان خـرج إلى يزيد بن عبدالملك حميد بن عبدالملك بن المهلّب يُصـلح [556] أمر عمّه يزيد. فبعث معه يزيدُ بن عبدالملك خالدَ بن عبدالله القَسـرى[١] وعمر بن يزيد الحَكمى بأمان يزيد بن المهلّب وأهل بيته. وأخذ يزيد بن المهلّب، قبل أن يوافيه حُميد، يُعـطى كلّ مَن أتاه العـطايا العظيمة ويقطع لهم قِطع الذّهب والفضّة. فمال النّاس إليه، ولحق به عمران بن مسـمع سـاخطًا على عدىٍّ. وذلك أنّه نزع منه رايةَ بكر بن وائـل وأعطاها ابنَ عمّه. ومالت إلى يزيد ربيعـةُ كلّهـا وبقيّة تميمٍ وقيسٍ، وناس بعدَ ناس فيهم عبدالملك ومالك ابنا مِسمعٍ وناسٌ من أهل الشّام.

وكان عدىٌّ لايُعطى إلاّ درهمين درهمين ويقول:

ـ «لايحلّ لى أن أعطيكم من بيت المال درهمًا إلاّ بأمر يزيد بن عبدالملك، ولكن تبلّغوا بهذا حتّى يأتى الأمر فى ذلك.» وله يقول الفرزدق:

أظنُّ رجالَ[٢] الدّرهمين يقودهم[٣] ... إلى الموت آجالٌ لهم ومَصارعُ

فأحزمهم مَن كان فى قعر بيته ... وأيقن أنّ الأمر لابُدّ واقعُ

وخـرجت بنوعمرو بن تميم من أصـحاب عدىٍّ، فنزلوا المربدَ. فبعـث إليهـم يزيد بن المهلّب [557] مولًى له يقال له دارسٌ. فحمل عليهم فهزمتهم. فقال الفرزدق:

تفرّقتِ الجَعراءُ[٤] أن صاح دارسٌ ... ولم يصبروا تحتَ السّيوف الصّوارم

جزى الله قيسًا عن عدىٍّ ملامةً ... ألا صبروا حتّى تكون تلاحم

وخرج يزيد بن المهلّب حتّى اجتمع له النّاس، حتّى نزل جُبّانة بنى يشكر وهو المَنصَف فـى ما بينه وبين القصر. وجاءَته تميم وأهل الشّام، فـاقتتلوا هنيهـةً، فحمل عليهـم محمّد بن المهلّب،

١) القسرى: كذا فى الأصل وهو صحيح. وما فى مط: القرى. وهو خطأ.

٢) رجال الدرهمين: كذا فى الأصل وهو الصّحيح. وما فى مط: الرّجال الدرهمين. وهو خطأ.

٣) يقودهم: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٣٨٣:٩): يسوقهم. وكلاهما صحيح.

٤) الجعراء: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٣٨٣:٩): «الحمراء إذ» بدل: «الجعراء أن». وفى حواشيه عن الأصول: الجفراء.

فضرب مسور بن عباد الحَبَطىَ بالسُّيوف، فقطع أنف البيضة، وأسرع السَّيفُ فى وجهه، وحمل على هُريم بن أبى طَحمة، فأخذ بمنطقته فجذبه عن فرسه وتماسك فى السَّرج حتّى انقطعت المنطقة، وقال:

- «هيهات! عمُّك أرزن من هذا.»

فانهزم القوم وأقبل يزيد فى أثر القوم يتلوهم حتّى دَنا من القصر. وخرج إليه عدىٌ بنفسه فى أصحابه، فقاتلوا ساعةً وقُتل من أصحابه خلقٌ فيهم: الحارث بن مصرِّف الأودى، وكان من أشراف أهل الشّام وفرسان الحجّاج، وقُتل موسى بن الوجيه الحميرى [558] وقُتلَ جماعةٌ أمثالهم.

ثمّ انهزم أصحاب عدىٍ، وسمع أخوه يزيد - وهم فى محبس عدىَ - الأصوات تدنو والنُشّاب تقعُ فى القصر والصَّحن، فقال لهم عبدالملك:

- «إنّى لا أرى يزيد إلاّ قد ظَهَر، ولستُ آمَن مَن مع عدىٍ من مُضَر ومن أهل الشّام أن يأتوا فيقتلونا قبل أن يصل يزيد إلى الدّار، فأغلقوا البابَ ثمّ أسندوه بالثّياب والرّحل.»

ففعلوا، فلم يلبثوا ساعةً حتّى جاءَهم عبدالله بن دينار مولى بنى عامر وكان على حرس بنى عدىٍ. فجاءَ يشتدُّ إلى الباب هو وأصحابٌ له وقد صنع بنو المهلّب ماقال لهم عبدالملك، ووضعوا متاعًا كثيرًا على الباب، ثمّ اتّكأوا عليه. وأخذ القوم يعالجون الباب فلايستطيعون الدُّخول، وأعجلهم النّاس فخلّوا عنهم، وجاءَ يزيد بن المهلّب حتّى نزل دار سليم بن زياد بن أبى سفيان إلى جانب القصر، وأُتى بالسَّلاليم، فلم يلبث سفيان أن فتح القصرَ. وأُتى بعدىٍ بن أرطاة، فجىءَ به، وخاطبه بمايجرى مجرى التَّبكيت. ثمّ أمر بحبسه وقال له:

- «أما إنَّ حبسى إيّاك [559] ليس إلاّ لحبسك بنى المهلّب وتضييقك علينا فى ماكنّا نسألك التّسهيل عليهم.»

ذكر اتّفاق سىءٍ اتّفق على يزيد بن المهلّب

خرج الحوارىُ بن زياد بن عمرو العَتكى يُريد يزيد بن عبدالملك هاربين من يزيد بن المهلّب فلقى فى طريقه خالد بن عبدالله القسرى وعُمر بن يزيد الحَكمى ومعهما حُميد بن عبدالملك بن المهلّب قد أقبلوا من عند يزيد بن عبدالملك بأمان يزيد المهلّب وكلّ شىءٍ أراده. فاستقبلهما فسألاهُ عن الخبر. فلمّا رأى حُميدَ بن عبدالملك معهما خلا بهما وقال:

- «أين تُريدان؟» قالا:

ـ «نريد يزيد بن المهلّب، قد جئناه بكلّ شىء يريد ويقترح.» فقال:

ـ «هيهات، قد تجاوز الأمر ذلك وما تقدران أن تصنعا بيزيد أو يصنع هو بكما. قد ظهر على عدوّه عدىّ بن أرطاة وقد قتل سَراة النّاس ووجوهَ الفرسان، وحبس[١] عديًّا، فارجعا ولا تُهديا نفوسكما إلى يزيد.»

فعادىٰ مع الحوارىّ بن زياد وأقبلا بحُميد معهما إلى يزيد بن عبدالملك.

فقال لهما حُميد:

ـ «أنشدكم الله أن تخالفا فى أمر يزيد وما بعثتما به، فإنّ يزيد قابلٌ منكما وإنّ هذا [560] وأهل بيته لم يزالوا لنا أعداء. فناشدتكما الله أن تسمعا مقالة هذا فينا.»

فلم يقبلا قولَه وأقبلا به حتّى دفعاه إلى عبدالرّحمان بن مسلم الكلبى، وكان يزيد بن عبدالملك بعثه إلى خراسان عاملاً عليها. فلمّا بلغه خلع يزيد بن المهلّب، كتب إلى يزيد بن عبدالملك:

ـ «إنّ جهاد مَن خالفك[٢] أحبُّ إلىّ من ولايتى خراسان، فلا حاجة لى فيها، واجعلنى ممّن توجّه إلى يزيد بن المهلّب.»

وبعث بحُميد بن عبدالملك إلى يزيد، ووثب عبدالحميد بن عبدالرّحمان بن زيد بن الخطّاب على خالد بن يزيد بن المهلّب وهو بالكوفة، وعلى حمّال[٣] بن زحر وليسا ممّن ينطف[٤] بشىء، إلاّ أنّه أوثقهما لما عرف بين حمّال وبين بنى المهلّب، وسرّح بهما إلى يزيد بن عبدالملك، فحبسهما جميعًا ولم يفارقا السّجن حتّى هلكا فيه.

وبعث يزيد بن عبدالملك رجالاً من أهل الشّام إلى الكوفة يُسكّنونهم ويُثنون عليهم بطاعتهم ويُمنّونهم الزّيادات.

ثمّ إنّ يزيد بن عبدالملك بعث العبّاس بن الوليد بن عبدالملك فى أربعة آلاف فارس جريدة[٥] خيل، حتّى وافَوا الحيرة [561] يُبادر إليها يزيد بن المهلّب. ثمّ أقبل بعد ذلك مسلمة بن

---

١) حبس: كذا فى الأصل وهو صحيح. وما فى مط: جلس! وهو خطأ.

٢) خالفك: كذا فى الأصل وفى مط: خلفك. وهو خطأ.

٣) حمّال بن زحر: كذا فى الأصل والطبرى ٩:١٣٨٩. وفى حواشيه عن الأصول: جمال بن زجر.

٤) ينطف: كذا فى مط والطبرى. وما فى الأصل: تنطف.

٥) الجريدة: جماعة الخيل لا رجّالة فيها وقد جُرّدت عن سواها بوجه. قس العبارة بما فى الطبرى ٩:١٣٦٠.

عبدالملك فى جنود أهل الشّام، فأخذ على الجزيرة على شاطئ الفرات، واستوسق أهل البصرة ليزيد بن المهلّب، وبعث عمّاله إلى الأهواز وفارس. وبعث عبدالرّحمان إلى بنى تميم:

- «إنّ هذا مدرك بن المهلّب يريد أن يُلقى بينكم الحرب وأنتم فى بلاد عافية فى طاعة وعلى جماعة.»

فخرجوا ليلاً يستقبلونه ويكيدونه. وبلغ ذلك الأزد، فخرج منهم نحو ألفى فارس حتّى لحقوهم قبل أن ينتهوا إلى راس المفازة. فقالوا لهم:

- «ما جاء بكم وما أخرجكم إلى هذا المكان؟»

فاعتلّوا عليهم بأشياء ولم يقرّوا أنّهم خرجوا ليكيدوا مدرك بن المهلّب.

فقال لهم الأزد:

- «بل قد علمنا أنّكم لم تخرجوا إلاّ لتلقّى صاحبنا وها هو ذا منكم قريبٌ، فما شئتم.»

ثمّ أسرعت الأزد حتّى لقوا مدركًا على راس المفازة، فنصحوا له وأعلموهُ أنّه يقع فى بلاء لا يدرون ما عاقبته ويشيرون عليه بالانصراف إلى أن يتمّ أمر يزيد.»

فقبلَ ورجع من مكانه.

ثمّ إنّ يزيد بن المهلّب لمّا استجمع له أهل البصرة، صعد المنبر وخطبهم وأخبرهم أنّه[1] يدعوهم [562] إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ويحثّ على الجهاد ويزعم أنّ جهاد أهل الشّام أعظم ثوابًا من جهاد التُرك والدّيلم.

فكان الحسن البصرى حاضرًا. فرفع صوتَه وقال:

- «والله لقد رأيناك واليًا ومُوليًا[2] عليك، فما ينبغى لك.»

فوثب عليه مَن كان بجنبه، فأخذوا بيده وفَمه وأجلسوهُ، وماشكّ النّاس أنّه سمعه ولكنّه لم يلتفت إليه ومضى فى خطبته.

ثمّ إنّ الحسنَ خرج يُخذّل النّاس عنه ويقول:

- «كان بالأمس يضرب أعناق هؤلاءِ الذين ترون[3] يُسرّح بها إلى بنى مروان، يُريد بهلاك هؤلاءِ رضاهم.»

---

١) مافى الأصل: أنّهم. وهو سهو. فصحّحناه كما فى مط والطبرى ٩:١٣٩١.

٢) مولّيا: كذا فى الأصل ومط والطبرى. وما فى بعض الأصول: مواليًا.

٣) ترون: كذا فى الأصل والطبرى ٩:١٣٩٢. وفى مط: يرون.

فلمّا غضب نصب قَصبًا و وضع عليه خِرقًا وقال:

ـ «قد خالفتُ هؤلاء، فخالِفوهم.»

وقال:

ـ «إنّى أدعوكم إلى سنّة العُمَرين، ألا إن سُنَّةَ العُمَرين[١] أن يوضعَ قيدٌ فـى رجليه، ثمّ يُردّ إلى محبس عُمر الّذى حبسه فيه.»

فقال ناس من أصحابه ممّن سمعوا قوله:

ـ «والله، لكأنّك يابا سعيد راضٍ عن أهل الشّام.» فقال:

ـ «أنا راضٍ عن أهل الشّام[٢]؟ قبّحَهم الله وتَرَحهـم! أليسـوا الّذين أحلّوا حُـرَم رسـول الله، صلّى الله عليه، يقتلون أهلَه ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ وقد أباحـوها لأنباطهـم وأقباطهـم يحملون الحرائر [563] وذوات الدّين لايتناهون عن انتهـاك حُـرمة، ثمّ خـرجوا إلى بيت الله الحـرام، فهدموا الكعبة وأوقدوا النّيران بين أحجارها وأستارها، عليهم لعنة الله وسوءُ الدّار.»

ثمّ إنّ يزيد خرج من البصرة، واستخلف عليهـا مروان بن المهلّب، وقـدّم بين يديه عبدالملك بن المهلّب، وخرج معـه بالسّلاح وبيت المال، وأقبل حتّى نزل واسـطًا. وكان قبل أن يبلغهـا استشار أصحابَه وقال لهم:

ـ «إنّ أهل الشّام قد نهضوا إليكم.»

ذكر آراءٍ أشير بها على يزيد بن المهلّب فما عمل بها

فقال له حبيبٌ وغيره:

ـ «نرى أن تخرج حتّى تنزل فارس وتأخـذ بالشّعاب والعِقـاب وتدنو من خـراسان وتطاول القوم، فإنّ أهل الجبال ينقضّون إليك وفى يدك القلاع والحصون.» فقال:

ـ «ليس هذا برأيٍ وليس يوافقنى. إنّما تريدون أن تجعلونى طائرًا على رأس جبلٍ.»

فقال له حبيبٌ:

ـ «فإنّ الرّأى الّذى كان ينبغى أن يكون فى أوّل الأمر قدفات. كنتُ أمرتك حين ظهرت على البصرة أن توجّـه خيلاً [564] عليهـا بعض أهل بيتك حتى يرد الكـوفة، فـإنّما هو عبدالحميد،

١) الا إنّ سنة العُمَرين: العبارة سقطت من مط. وفى الطبرى: وإنّ من سنّة العمرين..

٢) أنا راضٍ عن أهل الشام! هذه العبارة أيضًا سقطت من مط.

مررت به فى سبعين رجلاً. فعجز عنك، فهو عن خيلك أعجز فى العُدّة، وتسبق إليها أهلَ الشّام وعُظمُ أهلها يرى رأيك ويحبُ أن لايلىَ عليهم أهل الشّام، فلم تُطعنى. وأنا اليوم أشير عليك برأى: سرّح مع بعض أهل بيتك خيلاً عظيمةً، فتأتى الجزيرة وتبادر إليها حتّى تنزل حصنًا من حصونها، وتسير فى إثرهم. فإذا أقبل أهل الشّام يُريدونك لم يَدَعوا جُندًا من جُندك بالجزيرة ويُقبلوا إليك. فيقيمون عليهم، فكانوا حابسيهم عنك حتّى تأتيهم ويأتيك [مَن][1] بالموصل من قومك وتبذل المال، ويأتيك أهل الجزيرة، وينقضُ إليك أهل العراق وأهل الثّغور وتقاتلهم فى أرضٍ رفيغة[2] السّعر، وقد جعلتَ العراق كلّه وراءَ ظهرك.» فقال:

- «إنّى أقطع جُندى.»

فلمّا نزل واسطًا أقام بها أيّامًا يسيرة.

ودخلت سنة اثنتين ومائة

قد حكينا ماكان من توجيه يزيد بن عبدالملك، العبّاسَ بن الوليد بن عبدالملك [565] ومسلمة بن عبدالملك إلى يزيد بن المهلّب لمحاربته. واستعدّ يزيد للقائهما واستخلف على واسط ابنه معاوية، وجعل عنده بيتَ المال والخزائن والأسراء، وقدّم بين يديه أخاه عبدالملك، ثمّ سار حتّى مرّ بفم النّيل، ثمّ سار حتّى نزل العَقر. وأقبل مَسلمةُ يسير على شاطئ الفرات حتّى نزل الأنبار. ثمّ عقد عليها الجسر، فعبر من قبلِ قريةٍ يُقال لها: فارط. ثمّ أقبل حتّى نزل على يزيد بن المهلّب وقد قدّم يزيد عبدالملك نحو الكوفة فاستقبله العبّاس بن الوليد بسُورا[3]، فاصطفّوا. ثمّ اقتتل القوم فشدّ عليهم أهل البصرة شدّةً كشفوهم فيها، وقد كان معهم ناسٌ من بنى تميم وقيسٍ ممّن انهزم من يزيد من البصرة، فكانت لهم جماعةٌ حسنةٌ مع العبّاس بن الوليد فيهم هريم بن أبى طحمة المجاشعىّ. فلمّا انكشف أهل الشّام تلك الإنكشافة نادى هريم بن أبى طحمة:

- «يا أهل الشام، الله الله! إلى أين؟ أتسلمونا وقد اضطرّهم أصحاب عبدالملك إلى نهر؟»

---

١) مَن: سقطت من الأصل ومط. وهى موجودة فى الطبرى ٩:١٣٩٤.

٢) رفيغة: كذا فى الأصل. وما فى مط والطبرى: رفيعة (بالعين المهملة)، وفى ابن الأثير: رخيصة. والرَّفيغة من الرَّفاغية وهى: سعة العيش وخصبه.

٣) سورا (بالألف المقصورة): موضع بالعراق من أرض بابل وهى مدينةُ السريانيين وقد نسبوا إليها الخمر (معجم البلدان).

فأخذوا ينادونه:

ـ «لابأس عليك، إنّ لأهل الشام جولةً فى أوّل القتال [566] أتاك الغوث[١].

ثمّ إنّ أهل الشّام كرّوا عليهم، فكُشِف أصحاب عبدالملك وهزموا. وجاءهم عبدالملك حتّى انتهى إلى أخيه بالعَقر وسقط إلى يزيد ناسٌ كثيرٌ من أهل الكوفة ومن أهل الجبال. فبعث على الأرباع رؤساءهم عبدالله بن المفضّل الأزدىّ، والنُعمان بن إبراهيم بن الأشتر، ومحمّد بن إسحاق بن محمّد بن الأشعث، وحنظلة بن عتّاب بن ورقاء التميمىّ. وجمعهم جميعًا مع المفضّل بن المهلّب.

فتحدّث علاءبن زهير قال: والله إنّا لجلوس عند يزيد ذات يوم إذ قال:

ـ «أترون أنّ فى العسكر ألفَ سيفٍ يُضرب به؟»

قال: فيقول له: حنظلة بن العتّاب:

ـ «إنّهم والله ماضربوا بألف سيفٍ قطُّ، والله لقد أحصى ديوانى مائة وعشرين ألف. والله، لودِدتُ أنّ مكانهم الساعةَ معى مَن بخراسان من قومى.»

ثمّ إنّه خطب النّاس وحرّضهم، وقال فى كلامه:

ـ «إنّه ذُكر لى أنّ هذه الجرادةَ الصّفراءَ (يعنى مسلمة بن عبدالملك) وعاقر ناقة ثمود (يعنى العبّاس بن الوليد وكان العباس أزرقَ أحمَر، كانت أمّه [567] روميّةً) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتّى كلّمتُه فيه فأقرّه على نسبه؛ فبلغنى أنّه ليس يُهمُّهما إلاّ التماسى فى الأرض. والله، لوجاؤوا بأهل الأرض جميعًا، وليس إلاّ أنا، مابرحتُ العرصة حتّى تكون لى أو لهم.»

قالوا:

ـ «إنّا نخاف أن تُعنّينَا كما عنّانا عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث.» قال:

ـ «إنّ عبدالرّحمان فضح الذّمارَ[٢] وفضح حَسَبَهُ، وهل كان يَعدُو أجلَه؟» ثمّ نزل.

قال: ودخل عامر العَمَيثل، وهو من الأزد وقد جمع جُموعًا، فأتاه فبايعه. وكانت بيعة يزيد:

ـ «تبايعونى على كتاب الله وسنّة نبيّه وعلى ألاّ يطأ الجنودُ بلادَنا ولا بيضتَنا، ولاتُعادُ علينا سيرة الفاسق الحجّاج. ومَن بايعَنا على ذلك قبِلنا منه، ومَن أبى جاهدناه، وجعلنَا اللهُ بيننا وبينه.»

---

١) أتاك الغوث: تكررت العبارة فى الأصل، وهى غير مكرّرة لا فى مط ولا فى الطبرى ٩:١٣٩٦.

٢) فضح الذّمار: والذّمار كلّ مايلزمك حمايته والدفاع عنه، وإن ضيّعته لزمك اللّوم. ومن معانيه: الحَرم والأهل. وفى مط: فصح الذمار وفصح حسبه (بالصاد المهملة) وهو خطأ.

ثمّ يقول:

ـ «تبايعون؟»

فإذا قالوا: «نَعمْ.» بايَعَهم.

ذكر رأى صواب رَءَاهُ يزيد فخالفه فيه أصحابه

دعا يزيد بن المهلّب رؤساءَ أصحابه، فقال لهم:

ـ «إنّى قد رأيتُ أن أجمع اثنى عشر ألف رجل، فأبعثهم مع محمّد بن عبدالملك، حتّى يبيّتوا مسلمة ويحملوا معهم البراذعَ[1] [568] والأُكُفَ والزُّبُلَ من الخندق الّذى حفروه، فيقاتلهم على خندقهم وعسكرهم بقيّة ليلته. وأُمِدُّهُ بالرّجال حتى أُصبحَ، فإذا أصبحتُ نهضتُ إليهم أنا بالنّاس فناجَزتُهم. فإنّى أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم.»

فقال السَّميدَع (وكان كندياً[2] يرى رأىَ الخوارج، قد اعتزل مع طائفة من القُرّاءِ أيّام قتال يزيد مع عدىّ بن أرطاة إلى أن قالت طائفة من أصحاب يزيد وطائفةٌ من أصحاب عدىّ: قد رضينا بحكم السَّميدَع. ثمّ دعاه يزيد إلى نفسه وشرط له العمل بالكتاب والسُّنّة، فأجابه، واستعمله على الأُبلّة فى تلك الأيّام):

ـ «إنّا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، وقد زعموا أنّهم قابلون منّا هذا، فليس لنا أن نمكرَ ولا أن نَغدِرَ. ولا أن نُريدهم بسوء حتّى يردُّوا علينا مازعموا أنّهم قابلوه منّا.»

فقال جماعةٌ من أهل الدِّيانة:

ـ «هكذا ينبغى.»

قال يزيد:

ـ «ويحكم! أتصدّقون بنى أميّة أن يعملوا بالكتاب والسُّنّة وقد ضيّعوا[3] ذلك مُذْ كانوا! إنّهم لم يقولوا لكم إنّا نقبل منكم، وهم يريدون ألاّ يعملوا فى سلطانهم [569] انّما[4] تامرونهم

١) البراذع والأُلُف والزُّبل: أمّا البراذع جمع مفرده: البرذَعة (والدال لغة): الحِلس: البساط من مِسح وغيره يُلقى تحت الرَّحل. والأُكُف: جمع مفرده الإكاف والأُكاف والوكاف: البرذعة. والزُّبل: جمع مفرده الزَّبيل، الزِّنبيل: القفّة. الجراب الوعاء الذى يُحمل فيه.

٢) كنديًا. الكلمة غير واضحةٌ فى الأصل، والمثبت من مط.

٣) ضيّعوا: كذا فى الأصل والطبرى ٩: ١٤٠٠. وما فى مط: صنعوا. وهو خطأ.

٤) انّما تامرونهم وتدعونهم: كذا فى الأصل. وفى مط: انّما يامرونهم ويدعونهم. وما فى الطبرى: إلاّ ماتامرونهم وتدعونهم.

وتدعونهم إليه، ولكنّهم أرادوا أن يكفّوكم عنهم حتّى يعملوا فى المكر، فلا يسبقوكم إلى تلك، ابدأوهم بها! إنّى لقيتُ بنى مروان، فوالله مالقيتُ منهم رجلاً هو أشدُّ تمرّدًا ولا أبعد غورًا من هذه الجرادة الصّفراء.» يعنى: مسلمة. قالوا:

- «لانرى أن نفعل ذلك حتّى يردُّوا علينا مازعموا أنّهم قابلوهُ منّا.»

وكان مروان بن المهلّب وهو بالبصرة يحثُّ الناس على حرب أهل الشّام ويُسرّح النّاسَ إلى يزيد.

وكان الحسن البصرى يُثبط النّاس عن يزيد بن المهلّب ويخطب أصحابه بما يَعِدُهم[١]. فلمّا بلغ ذلك مروان بن المهلّب، قام خطيبًا كماكان يقوم، فأمر النّاس بالجدّ والإجتهاد والإحتشاد، وقال:

- «لقد بلغنى أنّ هذا الشّيخ الضّالّ المُرائى - ولم يُسمّه - يُثبّط عنّا النّاس. والله، لوأنّ جارَهُ نزع من خُصّ[٢] داره قصبةً لظلّ يرعف أنفه، ويُنكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب حقّنا وأن نُنكر مظلمتنا! أما والله، ليَكُفّنّ عن ذكرنا، أو عن جمعه سُقّاطَ الأُبلّة وعُلوج فرات البصرة، [570] أو لأنحين[٣] عليه مبردًا خشنًا.

فلمّا بلغ ذلك الحسن قال:

- «والله ما أكره أن يُكرمنى الله بهوانه.»

فقال ناسٌ من أصحابه:

- «والله لو أرادك ثمّ شئتَ لمنعناك.»

فقال لهم:

- «قد خالفتُكم إذًا إلى مانهيتُكم عنه، آمُرُكم أن لايقتلَ بعضُكم بعضًا مع غيرى وأدعوكم أن يقتلَ بعضُكم بعضًا دونى!.»

فبلغ ذلك مروان، فاشتدَّ عليهم وأخافهم، وطُلبوا حتّى تفرّقوا، ولم يَدَعِ الحسنُ كلامَه ذلك، وكفَّ عنه مروان بن المهلّب.

---

١) أنظر كلام الحسن البصرى فى الطبرى ١٤٠٠:٩. وفى هذا الكتاب وهذا الجزء ص 562-563.

٢) الخُصّ: البيت من قصب أو شجر. البيت يسقف عليه بخشبة كالأزج. والأزج: البيت يُبنى طولاً.

٣) لأنحين: غير معجم فى الأصل. والاعجام من الطبرى. وما فى مط: لانحير! وهو خطأ.

وكانت مدة إقامة يزيد بن المهلّب منذ اجتمع هو ومسلمة ثمانية أيّام. حتّى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلتْ من صفر، بعث إلى الوضّاح أن يخرج بالوضّاحيّة فى السّفن حتّى يُحرق السُفُن الّتى فى الجسر، ففعل.

وخرج مسلمة فعبيَ جنود أهل الشّام ميمنةً وميسرة، وازدلف بهم نحو يزيد، وخرج إليه يزيد فى مثل تعبئته.

فحدّث العلاءُ بن منهال، أنّ رجلاً من أهل الشّام خرج، فدعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحدٌ. فبرز إليه محمّد بن عبدالملك، فحمل عليه، فاتّقاه الرّجل بيده وعلى كفّه[1] كفٌ [571] وساعدٌ من حديدٍ. فضربه محمّدٌ، فقطع كفّ الحديد وأسرع السّيف فى كفّه، واعتنق فرسَه. وأقبل محمّد يضربه ويقول:

ـ «المنجل أعود عليك من مبارزة الفرسان. عليك بالمنجل!»

قال: وذُكر أنّه كان حيّان النبطيّ. قال: ولمّا أحرق الوضّاحُ الجسر وسطع دُخانُه وقد نشبت الحربُ ولم يشتدّ القتالُ نظر الناسُ إلى الدُّخان وقيل لهم:

ـ «أحرق الجِسر.»

فانهزموا. وقيل ليزيد:

ـ «قد انهزم النّاس.» قال:

ـ «وممّ انهزموا؟ وهل كان قتال يُنهزَمُ من مثله؟»

فقيل له:

ـ «أحرق الجسرُ فلم يثبت أحدٌ.» قال:

ـ «قبّحهم الله.»

قال:

ـ «بقّ دُخّن عليه فطار.»

فخرج وخرج معه أصحابُه ومواليه وناس من قومه. فقال [رجلٌ من أهل بيته:

ـ «ينهزمون وهم كالجبال.» فقال:][2]

---

١) سقط من مط قوله: «كفّ وساعد» إلى قوله: «وأسرع السيف».

٢) ماوُضع بين المعقوفتين ساقط من الأصل ولم نجده لا فى الطبرى (١٤٠٣:٩) ولا فى ابن الأثير (٨٢:٥) بل زيادة خاصّة بمط، فأضفناها.

ـ «إضربوا وجوهَ المنهزمين.»

ففعلوا ذلك حتّى كثروا عليهم، واستقبلهم[١] منهم مثل الجبال.» فقال:

ـ «دَعُوهم، فوالله إنّى لأرجو أن لايجمعنى الله وإيّاهم فى مكان واحدٍ أبدًا، دعُوهم يرحمهم الله. غَنَمٌ عدا فى نواحيها الذّئبُ.»

وكان يزيد لايُحدّث نفسَه بالفرار.

ولمّا انهزم النّاس قال يزيد لِلسَّميدَع:

ـ «يا سَميدَع! أصحُ أمرِ رايك، ألم أُعلمك مايُريد القومُ؟» قال:

ـ «بلىٰ، والرّأى والله كان رايك [572] وأنا ذا معك لاأزايلُك فمُرْنى بأمرك.» قال:

ـ «إمّا لافانزِلْ.»

فنزل فى أصحابه. وجاء يزيدَ جاءٍ وقال:

ـ «إنّ حبيبًا قد قتل.» فقال:

ـ «لاخير فى العيش بعدَه امضوا بنا قُدُمًا.»

فعلمنا أنّه مستقتلٌ[٢]،فأخذ مَن يكرهُ القتال ينكص، وأخـذوا يتسلّلون، وبقيت مع يزيد بقيّةٌ: جماعةٌ حسنةٌ وهو يزدلف بهم. فكلّما مرّ بخيلٍ أو جماعةٍ من أهل الشّام كشفها وعدلوا عَن سَنَنِه وسَنَنِ أصحابه. وأتاهُ اتٍ وقال له:

ـ «ذهب النّاس.»

وهو يُسرُّ إليه وأنا أسمعه. وقال له:

ـ «هل لك أن تنصرف إلى واسـط، فـإنّها حصـنٌ حتّى تاتيك الأمداد من البصـرة وعُمان والبحرين فى السُّفن وتضرب خندقًا.» فقال:

ـ «قبح الله رايَك! أ لى تقول ذا؟ ألموتُ أيسر علىّ من ذلك.» فقال:

ـ «ألا ترى مَن حولك من جبال الحديد؟.»

وهو يُسرُّ إليه. قال:

ـ «[أمّا] أنا [فما] أباليها[٣]، جبالَ حـديدٍ كانت أم جبالَ نار. إذهب عنّا إن كنتَ لاتريد القتال

١) واستقبلهم منهم مثل الجبال: كذا فى الأصل والطبرى. وفى ابن الأثير: واستقبله امثال الجبال. اما فى مط فسقطت العبارة ضمن سقوط عبارة أطول تبدأ بقوله: «اضربوا وجوه» وتنتهى بقوله: «فقال».

٢) مستقتل: كذا فى الأصل. وما فى مط: مستقبل. وهو تصحيف. والعبارة فى الطبرى (٩:١٤٠٤): فعلمنا أنّه قد استقتل.

٣) فى الأصل ومط: «فأنا أباليها». والتّصحيح من الطبرى.

معَنا.» وتمثّل:

أ بالموت خَشَّنَتنى عُبادٌ[١] وإنّما رأيتُ مَنايا النّاس يسعىٰ دليلُها
فما ميتةٌ إن متُّها[٢] غيرَ عاجز بعار، إذا ماغالتِ النّفسَ غُولُها [573]

وكان يزيد بن المهلّب على برذون له أشهب. فاقبل نحو مسلمةَ لايُريد غيره حتّى إذا دَنا منه، دعا مسلمةُ بفرسه ليركب. فعطفت عليه خُيول الشّام فقُتل يزيد بن المهلّب والسّميذَع، وقُتل أخوه محمّد بن المهلّب.

فحُكى: أنّ رجلاً من كلبٍ يُقال له: الفحل بن عيّاش[٣] لمّا نظر إلى يزيد قال:

[يزيد بن المهلّب والفحل بن عيّاش كلٌ قتل صاحبَه!]

ـ «يا أهل الشّام، هذا يزيد والله لأقتلنّه، أو يقتلنى. إنّ معه ناسًا، فمَن يحمل معى يكفينى أصحابه حتّى أصل إليه؟»

فقال ناس من أصحابه:

ـ «نحن نحمل معك.»

ففعلوا، وحملوا بأجمعهم، فاضطربوا ساعةً وسطع الغبار وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن الفحل بن عيّاش بآخر رمق. فأومأ إلى أصحابه يُريهم مكان يزيد، يقول لهم:

ـ «أنا قتلتُه.»

ويُومى إلى نفسه أنّه:

ـ «هو قتلنى»!

وكان مسلمة لاتصدّق أنّه هو قتلَه. فبعث برأسه إلى يزيد بن عبدالملك مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط.

وأبلىٰ يومئذٍ المفضّل بن المهلّب بعد قتل يزيد وإخوته حتّى ظُنّ أنّه يتلافى الأمرَ وحدَه مع نفر معه يذمر بهم ويقول لهم:

ـ «غُضّوا أبصارَكم [574] ولا تلتفتوا، فداءُكم أبى وأمىّ.»

---

١) عُباد: كذا فى الأصل بالضبط (اى بضمّ العين) وضبط فى الطبرى: «عباد» (بكسرها).

٢) متُّها: كذا فى الأصل والطبرى وهو صحيح. وما فى مط: منها!

٣) الفحل بن عيّاش: كذا فى الأصل. وفى مط: الفحل بن عبّاس. وفى الطبرى (٩:١٤٠٥): القحل بن عيّاش (بالقاف).

ويحمل الحملات الصّادقة حتّى تفرّقت عنه تلك العصابة وبقى وحده. فأخذ الطّريق إلى واسط. فقال النّاس:

- «ما رأينا من العرب رجلاً فى مثل منزلته كان أغشى للبأس[1] بنفسه ولا أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئةً لأصحابه منه.»

وأسر أهل الشّام خلقًا من أصحاب يزيد، فسرّح بهم إلى محمّد بن عمرو بن الوليد، فحبسهم إلى أن جاءَ كتابٌ من يزيد بن عبدالملك إلى محمّد بن عَمرو أن:

- «اضرب أعناق الأُسرىٰ.»

فقال للعريان بن الهيثم وكان على شرطته:

- «أخرجهم عشرين عشرين، وثلاثين ثلاثين.»

فقام قوم من بنى تميم وهم لايدرون ماذا يُراد بهم، فقالوا:

- «إتّقوا الله وابدأوا بنا، أخرجونا قبل النّاس، فإنّا نحن انهزمنا بالنّاس.»

فقال لهم العُريان:

- «أخرجوا على اسم الله!»

فأخرجهم إلى المصطبّة، ثمّ أرسل إلى محمّد بن عَمرو، ويُخبره بإخراجهم وبمقالتهم. فبعث إليه أن:

- «إضرب أعناقهم.»

فتحدّث نجيح[2] مولى زُهير قال: والله إنى أنظر إليهم وهم يُقتلون وإنّهم لَيقولون:

- «إنّا لله، انهزمنا بالنّاس وهذا جزاؤُنا.»

فماهو إلاّ أن فُرغ منهم جاءَ رسولُ [575] مَسلمة بكتابه فيه النّهى عن قتل الأُسرىٰ وإطلاقهم. وكان مَسلمة ضمن لهم ضمانات وواطأهم إذا رأوا دخان الحريق من الجِسر أن ينهزموا بالنّاس. ففعلوا، ثمّ قُتلوا.

ولمّا جاءَ فلُّ يزيد إلى واسط أخرج معاويةُ بن يزيد بن المهلّب اثنين وثلاثين أسيرًا كانوا فى يديه، فضرب أعناقهم. منهم: عدىّ بن أرطاة، وابنه محمّد بن عدىّ ومالك وعبدالملك ابنا مِسمع وغيرهم من الأشراف. وكانوا قالوا له:

---

١) للبأس: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٤٠٧:٩): للنّاس.

٢) نجيح: كذا فى الأصل والطبرى (بالجيم ثم الحاء) وما فى مط: نحيح (بالحائين).

ـ «ويحك! إنّا لانُراكَ[١] تقتلنا إلاَّ أنَّ أباك قد قُتل، وأنَّ قتْلنا ليس بنافعك فـى الدُّنيا وهو والله ضارُّك فى الآخرة.»

فقتلَـهم كلَّهم إلاَّ ربيع بن زياد بن ربيع بن أنس. فقال له قوم:

ـ «نسيتَهُ.» فقال:

ـ «ما نسيتُه ولكن لم أكن لأقتله وهو شيخٌ من قومى له شرف ومعـروف، ولسـتُ أتّهمه فـى وُدّ، ولا أخاف بَغْيَه.»

ورثى الشُّعراءُ يزيدَ وإخوته المقتولين فأكثروا.

وأقبل معاوية بن يزيد حتّى أتى البصرة معه المال والخـزائن. وجـاءَ المفضّـل، فـاجتمع إليه جميع آل المهلّب بالبصرة، وقد كانوا أعدُّوا السُّفن البحريّة وتجهّزوا بكـلّ الجهـاز، لأنّهـم كانوا يتخـوّفون [576] ماكان، وقـد كان يزيد بن المهلّب بعـث وداع بن حُميد الأزدىّ على قَندابيل[٢] أميرًا، فقال له:

ـ «إنّى قد اخترتُك من بين قومى لأهل بيتى، فكُنْ عند حسن ظنّى بك.»

وأخذ عليه أيمانًا غلاظًا، وقال:

ـ «إنّى سائرٌ إلى هذا العدوّ ولو قد لقيتهـم لم أبرح العـرصة حتّى يكــون لى، أو لَهُــم، وإن ظفرتُ أكرمتُك، وإن تكن الأخرى ولجأ إليك أهل بيتى كنت فـى حصـن معهـم وآويتهـم حتى يأخذوا لأنفسهم أمانًا.»

ولمّا اجتمعوا بالبصرة حملوا عيالاتهم وأموالَهم فى السُّفن البحرية، ثمّ لجَّجوا فى البحر حتى مرُّوا بمُهزَم بن الفزر[٣]، وكان يزيد استعمله على البحرين. فقال لهم:

ـ «أشير عليكم أن لاتفارقوا سُفنكم فإنّ ذلك بقـاؤكم، وإن خـرجتم منهـا يخـطفكم النّاس وتقرّبوا بكم إلى بنى مروان.»

فخالفوهُ ومضَوا حتّى إذا كانوا بجبال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالَهم وأموالَهـم على الدّوابّ. وكان معـاوية بن يزيد بن المهلّب حين قـدم البصـرة بالخـزائن والأموال أراد أن يتأمّر

---

١) نُراك: كذا ضُبط فى الأصل. وهذا صحيح، لأنّه لم يَسمع مضارع «رأى» بمعنى الظّن إلاّ مجهولا.

٢) قَندابيل: كذا فى الأصل والطبرى ٩: ١٤١٠. فى مط: فرزابيل. وقَندابيل مدينةٌ بالسّند. قصـبة لولاية يُقـال لهـا الندهة، من قُصدار إليها خمسة فراسخ (مراصد الإطلاع).

٣) بمهزَم بن الفزر: كذا فى الأصل. وما فى مط: بمهزم بن الفرد. وفى الطبرى (٩: ١٤١٠): بهَرم بن القرار.

عليهم. فاجتمع آل المهلّب، فأمّروا عليهم المفضّل بن المهلّب، وقالوا:
ـ «المفضّل أكبرنا وسيّدنا وإنّما [577] أنت غلامٌ حدث السّن كبعض فتيان أهلك.»

فلم يزل المفضّل عليهم حتّى خرجوا إلى كرمان وبكرمان فلولٌ كثيرة. فاجتمعوا إلى المفضّل.

وبعث مسلمة بن عبدالملك مُدرك بن ضبٍّ الكلبىّ فى طلب آل المهلّب وفى أثر الفلّ. فأدرك مدركٌ المفضّلَ بن المهلّب وقد اجتمعت إليه الفُلول بفارس. فاتّبعهم فأدركهم فى عَقَبَةٍ، فعطفوا عليه، فقاتلوه واشتدّ قتالهم. فقُتل ممن كان مع المفضّل: النّعمان بن ابراهيم بن الأشتر، ومحمّد بن إسحاق بن الأشعث، وأُخذ ابن صول، ملك دهستان أسيرًا، وجُرح عثمان بن إسحاق، ومحمّد بن الأشعث جراحةً شديدة وهرب حتّى بلغ حُلوان. فدُلّ عليه هناك فقُتل وحُمل رأسُه إلى مسلمة.

ورجع ناسٌ من أصحاب يزيد بن المهلّب فطلبوا الأمان، فأُومِنوا، منهم: مالك بن إبراهيم بن الأشتر والزُرد[1] بن عبدالله بن حبيب السّعدى من تميم، وكان قد شهد مع عبدالرّحمان بن محمّد مَواطنَه كلَّها.

ومضى آل المهلّب ومن سقط إليهم إلى قَندابيل، وكان مسلمةُ ردَّ مُدركًا الضّبىّ وسرّح فى أثرهم هلال بن أحوز التّميمىّ [578] من بنى مازن بن عَمرو بن تميم، فلحقهم بقَندابيل. فأراد آل المهلّب دخول قَندابيل، فمنعهم وداع بن حُميد، وكاتب هلال بن أحوز[2] ولم يُباين آل المهلّب فيحذروه. فلمّا التقوا للحرب وصفّوا كان وداع بن حُميد على الميمنة وعبدالملك بن هلال على الميسرة و كلاهما أزدىٌ. فرفع لهم هلال بن أحوز المازنى رايةَ الأمان، فمال إليها وداع بن حُميد وغدر بآل المهلّب، وتبعه عبدالملك بن هلال، وارفضّ عنهم النّاس فخلّوهم.

فلمّا رأى ذلك مروان بن المهلّب ذهب يريد الانصراف إلى النّساء، فقال له المفضّل:
ـ «أين تريدُ؟» قال:
ـ «أدخل إلى النّساءِ من أهلى فأقتلهنّ لِئلاّ يصل إليهنّ هؤلاءِ الفُسّاق.» فقال:
ـ «ويحك! أتقتل أخواتك وبنات أخواتك ونساءِ أهلك؟ إنّا والله مانخاف عليهنّ منهم.» فردّهُ عن ذلك.

---

١) الزُرد: كذا فى الأصل ومط وما فى الطبرى (١٤١١:٩): الورد.
٢) أحوز: كذا فى الأصل والطبرى (١٤١٢:٩) وما فى مط: أحور (بالحاء المهملة).

ثمّ مشَوا بالسّيوف وقاتلوا حتّى قُتلوا من عند آخرهم إلاّ عُيينة بن المهلّب وعثمان بن المفضّل بن المهلّب، فإنّهما نَجَوَا، فلحقا بخاقان ورتبيل، وبُعث برؤوسهم ونسائهم وأولادهم إلى مسلمة بن عبدالملك.

[منع الجرّاح من بيع ذرّيّة آل المهلّب]

وقال مسلمة:

- «والله لأبيعنّ [579] ذرّيّتهم.»

وكانوا فى دار الرِّزق. فقال الجرّاح بن عبدالله:

- «فإنّى أشتريهم منك لأبرّ قسمَك.»

فاشتراهم منه بمائة ألف درهم. قال:

- «هاتِها.» قال:

- «إذا شئتَ [فخذها][1].»

ثمّ تركها عليه ولم يُطالبه بها، وخلّى سبيلَهم إلاّ تسعةَ فتيةٍ منهم أحداثًا بعث بهم إلى يزيد بن عبدالملك، فقُدم بهم عليه، فضرب أعناقَهم. ورثاهم الشعراء

[يزيد بن عبدالملك يولّى مسلمةَ على الكوفة والبصرة وخراسان]
[بعد قتل يزيد بن المهلّب]

ولمّا فرغ مسلمة بن عبدالملك من حرب يزيد بن المهلّب، جمع له يزيد بن عبدالملك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان فى هذه السّنة.

وفى هذه السّنة وجّه مسلمة بن عبدالملك سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص إلى خراسان، وهو الّذى يُلقّب بسعيد خُذَينة[2]. وإنّما استعمله مسلمة لأنّه كان ختَنه على ابنته، وقدّم سعيد خُذَينة قبل شخوصه سَورة بنَ أبجر من بنى دارم، فقدّمها قبله بشهر أو نحوه، واستعمل شعبة بن ظُهير النّهشليّ على سمرقند، فخرج إليها فى خمسة وعشرين رجلاً من أهل بيته. فأخذ على آمل اموية، وأتى بخارىٰ، فصبحَه[3] وصحبه منها مائتا رجل، فقدِمَ السُغدَ وقد

---

١) فخذها: ليست لا فى الأصل ولا فى مط وانما أضفناها من الطبرى (٩:١٤١٤).

٢) خُذَينة: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٩:١٤١٧): خُذَينة (بالذّال المعجمة).

٣) فصبّحه: كذا فى الأصل. والكلمة ليست لا فى مط ولا فى الطبرى (٩:١٤١٨).

[580] كان أهلها ارتدّوا فى ولاية عبدالرّحمان بن نعيم، ثمّ عادوا إلى الصُلح.

فخطب شعبة أهل السُغد و وبخ سُكّانها من العرب وغيرهم بالجبن، وقال:

- «ما أرى فيكم جريحًا ولا أسمع فيكم أنّةً.»

فاعتذروا بأن جبّنوا عاملهم علباء بن حبيب العبدىّ وكان على الحرب. ثمّ قدم سعيد. فأخذ عُمّال عبدالرّحمان بن عبدالله الّذين وَلُوا أيّام عمر بن عبدالعزيز فحبسهم. فكلّمه فيهم قومٌ فضمّنهم وأطلق عنهم، ثمّ رُفع إليه على عُمّال يزيد بن المهلّب وهم ثمانيةٌ. فأرسل إليهم وحبسهم فى القُهَنْدِزْ بمرو، فقيل له:

- «إنّ هؤلاءِ لايؤدّون إلاّ أن يبسط عليهم.»

وكان فيهم جهم بن زهر. فأرسل إليه ثمّ ضربه فى مابعد. وعزل شعبةَ بن ظهير عن سمرقند، وولّى حربَها عثمان بن عبدالله بن مطرّف، وكان النّاس يُضعّفون سعيدًا ولقّبوه خُذَينة[1]. فطمع فيه التُرك، فجمع له خاقان التُرك ووجّههم إلى السُغد وكان عليهم كورصول، وأقبلوا حتّى نزلوا بقصر الباهلىّ.

[سبب طمع التّرك فى سعيد خدينة]

وقيل: إنّ سبب طمع التُرك أنّ بعض [581] عظماءِ الدّهاقين رأى فى ذلك القصر امرأةً من باهلة فهَوِيَها، فأرسل إليها فخطبها، فأبَتْ فاستجاش ورجا أن يُسبَوا فيأخُذَ المرأةَ قهرًا. فأقبل كورصول فى مَن معه من التُرك حتّى حضر بالقصر، وفيه مائة أهل بيتٍ بذراريّهم، وعلى سمرقند عثمان بن عبدالله، وخافوا من التُرك، وأشفقوا أن يُبطئَ عنهم المَدَدُ. فصالحوا التّرك على أربعين ألفًا وأعطوهم من الرّجال سبعة عشر نفسًا هينة، وندب عثمان بن عبدالله بن مطرّف الشّخّير النّاسَ، فانتدب المسيّب بن بشر الرّياحىّ و انتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل، فقال شعبة بن ظُهير:

- «لوكان هاهنا خيول خراسان بأميرهم ماوصلوا إلى إغاثتهم[2].»

---

١) وفى الطبرى (١٤١٨:٩): «.. فلُقّب خذينة. وخذينة هى الدهقانة ربّة البيت.» وفيه (١٤١٧:٩) ايضًا: وانّما لقّب بذلك فى ماذُكر لأنّه كان رجلاً ليّنًا سهلاً متنعّمًا. وانّما استعمل مسلمةُ سعيد خذينة على خراسان لأنّه كان ختنه على ابنته. كان سعيدٌ متزوّجًا بابنة مسلمة.

٢) إغاثتهم: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٤٢٢:٩): غايتهم. وفى حواشيه عن الأُصول: غاتتهم.

وكان فى مَن انتدب شعبة بن ظُهير وجماعة من الرُؤساء، فقال لهم المسيَّب بن بشر لمّا عسكروا:

ـ «إنّكم تقدمون على حلبة التُرك وهى حلبة خاقان، والعِوض إن صبرتم الجنّة، والعقاب إن فررتم النّار، فمن أراد الصَّبر فليُقدم.»

فانصرف عنه ألفٌ وثلاثمائة، وسار فى الباقين. فلمّا سار قليلاً أقبل على النّاس وقال مثلَ [582] مقالته الأُولى، فاعتزل ألفٌ. ثم قال بعد ماسار فرسخًا مثل ذلك فاعتزل ألفٌ آخر، وسار فى سبعمائة، حتّى إذا كان على فرسخين من القوم نزل.

فأتاهم من[١] تركِ خاقان ملك قِي[٢]، فقال:

ـ «إنّه لم يبق هاهنا دهقان إلاّ وقد تابع[٣] التُركَ غيرى وأنا فى ثلاثمائة مقاتل، فهم معك. وعندى الخبر أنّ القوم قد كانوا صالحوا على أربعين ألفًا وأعطوهم سبعة عشر رجلاً يكونون فى أيديهم رُهنا. فلمّا بلغهم مسيركم إليهم قتل التُرك مَن كان أيديهم من الرُهائن.»

قال: وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهلى فنجا، والأشهب بن عبدالله الحنظلى، وميعادهم أن يقاتلوهم غدًا أو يفتحوا القصر.

فبعث المسيَّب رجلين من العرب ورجلاً من العجم من ساعته ـ وكان ليلاً ـ على خيولهم، وقال:

ـ «إذا قربتم فشُدُّوا دوابّكم بالشَّجر واعلموا علم القوم.»

فأقبلوا فى ليلة مظلمة وقد أجرتِ التُرك الماءَ فى نواحى القصر. فليس يصل إليه أحدٌ ودنَوا من القصر فصاح بهم[٤] الرَّبيئة، فقال:

ـ «لا [583]تَصحْ وادع لنا عبدالملك بن دثار.»

فدعَوه[٥] فقالا له:

ـ «أرسلنا المسيَّب وقد أتاكم الغوث.» قال:

ـ «أين هو؟» قالا:

---

١) من: موجودة فى الأصل ومط. وليست فى الطبرى.

٢) قِي: كذا فى الأصل ومط والطبرى. وفى بعض الأصول: فِيَ.

٣) تابع: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: بايع.

٤) بهم: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: بهما (١٤٢٣:٩).

٥) فدعوه: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: فدعاه.

ـ «على فرسخين، فهل عندكم امتناعٌ إلى أن يلحق؟» قال:
قد أجمعنا على تسليح[١] نسائنا وتقديمهم للموت أمامَنا حتّى نموتَ جميعًا غدًا.»
فرجعا إلى المسيَّب، فأخبراهُ. فقال المسيَّب للّذين معه:
ـ «إنّى سائرٌ إلى هذا العدوّ. فمن بايعنى على الموت، وإلاّ فليذهبْ.»
فلم يفارقه أحد وبايعوه على الموت. فلمّا أصبح سار وقد زاد الماء الّذى أجروه إلى المدينة تحصينًا. فلمّا كان بينه وبينهم نصف فرسخ رأى أن ينزل ويبيّتهم. فلمّا أمسى أمرَ النّاس، فشدُّوا على خيولهم وركب فحثّهم على الصّبر ورغّبهم فى مايصير إليه أهل الجهاد والاحتساب والصّبر ومالهم فى الدُّنيا من الغنيمة والشّرف إن ظفروا، وما لهم فى الآخرة من الثّواب والنعيم الأبدىَ إن قُتلوا.
ثمّ قال لهم:
ـ «إكعموا[٢] دوابّكم وقُودوها، فإذا دنوتم من القوم فاركبوا وشُدُّوا شَدّةً صادقةً وكبِّروا. ولْيكُنْ شعاركم: «يا محمّد»، ولا تتْبعوا مولّيًا [584] فتتفرّقوا، وعليكم بالدّوابِّ فاعقروها، فإنّ دوابَّ القوم إذا عُقرت أشدُّ عليهم منكم. واعلموا أنّ القليل الصّابر خيرٌ من الكثير الفَشِلَ، وليست لكم قلّةٌ. إنّ سبعمائة سيف لاتُضرب بها فى عسكر إلاّ أوهنوهُ وإن كثُرَ أهلُه.»
وعبّأهم ميمنةً وميسرةً، وساروا حتّى إذا كانوا على غَلوتين[٣] كبّروا، وذلك فى السحر، وثار التُّرك وخالطهم المسلمون وانهزموا، فعقر المسلمون الدّوابّ. ثمّ عاد التُّرك وصابروا، فجال المسلمون وانهزموا، حتّى إذا صاروا إلى المسيَّب وتبعهم التُّرك فضربوا عَجُزَ دابّة المسيَّب. فترجّل قومٌ من المسلمين منهم البخترىّ، ومحمد بن قيس الغنوى وزياد الإصبهانىّ، ومعاوية بن الحجّاج وثابت قطنة، وكان على ميسرة المسيّب. فأمّا البخترىُّ فقاتَل حتّى قُطعت يمينُه فأخذ السَّيفَ بشماله فقطعت، فجعل يذبُّ ببدنه حتّى استُشهد. واستُشهد أيضًا محمّد بن قيس، وشلّت يَدُ الحجّاج الطّائىّ. ثمّ لم يصبر التُّرك وانهزموا. وضرب ثابت قُطنة عظيمًا من عظمائهم، فقتله [585] ونادى منادى المسيّب:

---

١) تسليح نسائنا: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى: تسليم نسائنا. ولكليهما وجه من الصّحة.
٢) كعَمَ الدابّة: شدّ فمه لئلاّ يعضّ أو يأكل، أو لأغراض اخرى.
٣) غلوتين: كذا فى الأصل والطبرى (١٤٢٤:٩). وما فى مط علوتين (بالعين المهملة) وهو تصحيف. والغلوة: الغاية وهى رمية سهم أبعدما تقدر عليه.

ـ «لاتتبعوهم، فإنهم لايدرون من الرُعب أتبعتموهم أم لا، واقصدوا القصر، ولاتحملوا للقوم شيئًا من المتاع إلاّ المال، واقصدوا مَن ضعف عن المشى فاحملوه ولا تحملوا مَن أطاق على المشى.»

وقال المسيّب:

ـ «مَن حمل امرأةً أو صبيًا أو ضعيفًا حِسبةً[1] فأجرُه على الله. ومَن أبى فله أربعون درهمًا. وإن كان فى القصر أحدٌ من أهل عهدكم فاحملوه.»

قال: فقصدوا جميعًا القصرَ، فحملوا مَن كان فيه. وانتهى رجلٌ من بنى فُقيم إلى امرأة، فقالت:

ـ «أغثنى[2] أغاثك الله.»

فوقف وقال:

ـ «دونكِ عجزَ الفرس!»

فوثبتْ، فإذا هى على عجز الفرس، وإذا هى أفرسُ من رجلٍ يعجب لها من رءاها. وتناول الفُقيمىُ بيد ابنها غلامًا صغيرًا، فوضعه بين يديه وأتَوا ملك قى[3] تُرك خاقان. فأنزلهم قصره، وأتاهم بطعام وقال:

ـ «إلحقوا بسمرقند.»

ثمّ قال:

ـ «هل بقى أحدٌ؟» قالوا:

ـ «نعم، هلال الجُديدىُ.» فقال:

ـ «لا أسلمه.»

فأتاه به، وبه بِضعٌ وثمانون ضربةً. فاحتمله فبرأ، إلى أن أصيب يوم الشّعب مع الجُند؛ ورجع التُرك من الغد، فلم يرَوا فى القصر أحدًا ورأوا قتلاهم. فقالوا:

ـ «لم يكن الّذين جاوُوا [586] بالأمس من الإنس.»

فقال بعض من شهد ليلة قصر الباهلى: كُنّا فى القصر. فلمّا التَقوا ظننّا أنّ القيامة قامت

١) الحسبة: الأجر والثواب.

٢) أغثنى: كذا فى مط والطبرى (١٤٢٥:٩) وما فى الأصل: أغثتنى. فرجّحنا ما فى مط والطبرى.

٣) ملك قى: كذا فى الأصل وهو صحيح. وما فى مط: ملك فى. وهو تصحيف.

لهول ماسمعنا من هَماهِم القوم ووَقعِ الحديد.

[غزو سعيدٍ التُركَ]

وفى هذه السَّنة قطع سعيد خدينة نهر بلخ، وغزا التُرك، وكانوا قد نقضوا العهد وأعانوا التُرك. وذلك بعد ما كلّم النّاس سعيدًا مرارًا وقالوا له:

ـ «تركتَ الغزوَ. فقد كثُرَ التُرك، وكفر أهلُ السُغد.»

فلمّا عبر سعيد وقصدالسُغدَ لقيه التُرك وطائفة من السُغد. فهزمهم المسلمون. وقال سعيدُ:

ـ «لا تتبعوهم، فإنّ السُغد بُستان أمير المؤمنين.»

فلمّا كان الغد خرجت مسلحة المسلمين ـ والمسلحة يومئذٍ من تميم ـ فما شعروا إلاّ بالتُرك معهم خرجوا عليهـم من غيضةٍ، وعلى خيل بنى تميم شـعبة بن ظُهير، فقُتل شـعبة. وذاك أنّه أعجل عن الرُكوب، فقاتلـهم راجلاً إلى أن قُتل، وقُتل نحوُ من خمسين رجلاً، وانهزم المسلحة وأتى النّاسَ الصُّريخ[١].

فقال عبدالرّحمان بن المهلّب العَدوىّ: كنتُ أوّل مَن أتاهم لمّا أتانا الخبر وتحتى فرس جَوادُ، فإذا عبدالله بن زُهير إلى جنب شجرة [587] كأنّه قُنفَذُ من النُشّـاب وقـد قُتل. ثمّ لحـق النّاس وحملوا على العدوّ حتّى كفّوهم. وجاءَ الأمير والجماعة، فانهزم العدوُ.

ذكر كلمةٍ صارت سبب حتفٍ

كان سعيد عبر النّهـر مرّتين، فلم يجـاوز سـمرقند. وكنّا حكينا أنّه لمّا هزم المسـلمون التُرك وأهلَ السُغد ألحُوا[٢] فى طلبهم. فنادى منادى سعيد:

ـ «لاتطلبوهم، فإنّ السُغد بستان أمير المؤمنين.»

وقال سعيد:

ـ «قد هزمتموهم. أفتريدون بَوارَهم وأنتم يا أهل العراق قد قـاتلتم أميرَالمؤمنين غير مرّة، فعفا عنكم ولم يستأصلكم ورجع.»

وكان سعيد إذا بعث سريّةً فأصابوا وغنموا وسَبَوا ردّ السَّبىَ ووبخ السَـريّة. فقـال له يومًا حيّان

١) الصُّريخ: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (١٤٢٩:٩): الصريح (بالحاء المهملة).
٢) ألحُوا: كذا فى الأصل وهو صحيح. وما فى مط: ألحقوا. وهو تصحيف وخطأ.

النبطىُ وهو بإزاءِ العدوّ من أهل السُغد:
ـ «أيُّها الأمير، ناجز العدوَّ.» فقال:
ـ «لا، هذه بلاد أميرالمؤمنين.»
فلمّا انهزم أهل السُغد تبعهم حيّان، فقال له سَورة بن أبجر:
ـ «إنصرف كما أمر الأمير.» فقال:
ـ «أدَعُ عقيرةَ الله وأنصرفُ!»[١] فقال له:
ـ «يا نبطىُّ!» قال:
ـ «أنبط الله وجهَك.» [588]
وكان حيّان يُكنَّى فى الحرب: أبا الهيّاج، وإيّاهُ عنَى الشاعرُ:

إنّ أبا الهيّاج أريَحىُّ   للرِّيح فى أثوابه دَوىُّ

فحقد عليه سورة [وقال:][٢]
ـ «أنبط الله وجهك.»
ثمّ خلا بسعيدٍ فقال:
ـ «إنّ هذا العبد أعدى النّاس للعرب. قد عصى أمرَك، وهو الّذى أفسدَ خراسان على قُتيبة وهو واثبٌ بل مفسدٌ عليك خراسانَ، ثمّ يتحصّن فى بعض هذه القلاع.» قال:
ـ «يا سورة! لاتَسمعنّ.»

[سعيد يقتلَ حيّان بإطعامه ذَهبًا]

ثمّ مكث أيّامًا وقد ثقلَ سعيدُ على النّاس وضعّفوهُ، فلم يامَن حيّان. فأمر سعيد بذهبٍ فسُحِلَ[٣] وأُلقِىَ فى طعام وناوله حيّان. فلمّا علم أنّه قد حصل فى جوفه ركب وركب معه النّاس وفيهم حيّان. فركض أربعة فراسخ فنزل حيّان وعاش أربعة أيّام ومات فى الرّابع.
وفى هذه السَّنة عُزل مسلمة بن عبدالملك عن العراق وخراسان وانصرف إلى الشّام.

---

١) فى الطبرى (٩:١٤٣٠): عقيرة الله أدعُها وأنصرف؟ وفى ابن الأثير (٥:٩٥): عقيرة الله لا أدعها.
٢) وقال: سقطت من الأصل واخذناها عن مط.
٣) سحل الذهب أو الفضّة: سحقهما. بردهما. والسُحالة: البُرادة.

ذكر سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان [589]

كان سبب ذلك أنّ مسلمة لمّا ولىَ أرضَ العراق وخراسان لم يرفع من الخراج شيئًا، وكان يزيد بن عبدالملك يُريد عزلَه فيستحييه، فيكتب بتشوُّقه. فشاور مسلمة عبدَالعزيز بن حاتم بن النّعمان فى الشّخوص إلى يزيد ليزوره[١] فقال له:

ـ «أمن تشوُّقه بك إليه؟ إنّك لطَروبٌ.» قال:

ـ «إنّه لابُدّ من ذاك.» قال:

ـ «إذًا لاتخرج من عملك حتّى تلقى الوالى عليه.»

فشخص. فلمّا بلغ دُورين لقيه عُمر بن هُبيرة الفزاريّ على خمس من دوابّ البريد. فدخل عليه ابن هبيرة مسلّمًا، فقال:

ـ «إلى أين يابن هُبيرة؟» قال:

ـ «وجّهنى أميرالمؤمنين فى حيازة أموال بنى المهلّب.»

فلمّا خرج من عنده أرسل إلى عبدالعزيز، فجاءه. فقال:

ـ «هذا ابن هبيره قد لقينا كماترى.» قال:

ـ «قد كنتُ أنبأتُك.» قال:

ـ «فإنّه إنّما وُجّه لحيازة أموال بنى المهلّب.» قال:

ـ «هذا أعجب من الأوّل: يُصرف عن الجزيرة ويُوجّه فى حيازة أموال بنى المهلّب.»

قال: فلم يلبث أن جاءَهُ عزلُ ابن هبيرة عُمّالَه والغِلظةُ عليهم. فقال الفرزدق: [590]

راحتْ بمسلمة الرّكابُ مودَّعًا … فارعَىْ فزارةُ لاهَناكِ المرتعُ
ولقد علمتُ لئن فزارةُ أمّرتْ … أن سوف تَطمع فى الإمارة أشجعُ

[ظهور أمر الدُّعاة فى خراسان]

وفى هذه السّنة غزا عمر بن هبيرة الرُّوم. فسبىٰ سبعمائة أسير وفيها[٢] أيضًا وجّه ميسرةُ رُسلَهُ من العراق إلى خراسان، فظهر أمر الدُّعاة فيها.

وكان سعيد خذينة يومئذٍ بخراسان، فأتاه آتٍ فقال:

---

١) ليزوره: كذا فى الأصل وهو صحيح. وما فى مط: لبروزه. وهو تصحيف.
٢) أى سنة اثنتين و مائة. تجد الرّواية فى الطبرى أيضًا (١٤٣٤:٩).

ـ «إنّ هاهنا قومًا يدعون إلى إمامٍ لهم وقد ظهر منهم كلام قبيح.» فبعث سعيد إليهم فقال:
ـ «مَن أنتم؟» قالوا:
ـ «ناسٌ من التُّجار.» قال:
ـ «فما الّذى يُحكىٰ عنكم؟» قالوا:
ـ «لاندرى.» قال:
ـ «جئتم دُعاةً؟» فقالوا:
ـ «إنّ لنا فى أنفسنا شغلاً عن هذا.»
فقال:
ـ «مَن يعرف هؤلاء؟»
فجاءَ قوم من خراسان جلُّهم من ربيعة واليمن. فقالوا:
ـ «نحن نعرفهم، وهم علينا إن أتاك منهم شىءٌ تكرهه.»
فخلّى سبيلَهم.

ثمّ دخلت سنة ثلاثٍ ومائة

[سبب عزل سعيد خدينة عن خراسان]

وفيها عزَلَ عمرُ بن هبيرة سعيدَ خدينه عن خراسان. وذاك أنّ النّاس شكوا [591] سعيدَ خُدينة. فكتب عمر بن هبيرة بذلك إلى يزيد، وكتب بأسماءِ مَن أبلىٰ يوم العقر، ولم يذكر سعيد بن عمرو الحَرشىَّ. فكتب إليه يزيد بن عبدالملك:
ـ «لِمَ لَمْ تذكر الحَرشىَّ؟ وَلِّه خراسان!»
فولاّهُ، وخرج سعيدُ الحرشىَّ وقدِمَ خراسانَ فى سنة ثلاثٍ ومائةٍ والنّاس بإزاءِ العدوّ، وقد كانوا نُكبوا. فخطبهم وحثّهم على الجهاد وقال:
ـ «إنّكم لاتُقاتلون عدوّ الاسلام بكثرة ولا بِعُدّةٍ، ولكن بنصر الله وعِزّ الإسلام.»
وكان شاعرًا، فقال:

فلستُ[1] لِعامر إن لم تَرَونى أمامَ الخيل أطعنُ بالعوالى
وأضرب هامةَ الجبّار منهم بعضب الحدِّ حُودِثَ بالصِّقالِ

---

١) فلستُ: فى الأصل ومط: لستُ. بدون الفاء. والفاء زدناها من الطبرى ١٤٣٩:٩.

فما أنا فى الحروب بمستكينِ ولا أخشى مصاولةَ الرِّجالِ
أبِىْ لى والدى من كلِّ ذَمٍّ وخالى فى الحوادث غير خالِ
إذا خطَرَتْ أمامى حَىُّ كعبٍ وزافت كالجبال بنو هلالِ

وكانت السُّغد قد أعانت التُّرك أيَّام خذينة. فلمَّا وليهم الحرشىُّ خافوا [592] على أنفسهم. فأجمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم، فقال لهم ملكُهم:

ـ «لاتفعلوا، أقيموا واحملوا إليه خراجَ مامضى، واضمنوا له خراج ماتستقبلون، واضمنوا له عمارةَ أرضكم، والغزوَ معه، إن أراد ذلك، واعتذِروا إليه ممَّا كان منكم، وأعطُوهُ رهائنَ تكون فى يديه.» قالوا:

ـ «لانفعل، فإنَّه لايرضى ولايقبل ذلك منَّا. ولكنَّا نأتى خُجندة فنستجير بملكِها ونُرسل إلى الأمير فنساله الصَّفح عمَّا كان منه ونوثق له الاَّ يرى منَّا أمرًا يكرهه.» فقال:

ـ «أنَا رجل منكم، وما أشرتُ به فهو خيرٌ لكم.»

فأبوا وخرجوا إلى خجندة، وخرج كارزنج[1]، وكشر[2]،وشاركث[3] ، وثابت بأهل إشتيخَن[4]. وأرسلوا إلى ملك فرغانة، وهو الطَّار، يسألونه أن يمنعهم ويُنزلهم مدينتَه. فأرسل إليهم:

ـ «سَمُّوا لى رُستاقًا أفرِّغه لكم، وأجِّلونى عشرين يومًا، وإن شئتم فرغتُ لكم شِعبَ عصام بن عبدالله الباهلىِّ.»

وكان قتيبة خلَّفه فيه، فقيل: شِعب عصام. فأرسلوا إليه:

ـ «فرِّغْهُ لنا.» قال:

ـ «نعم، وليس لكم علىَّ عقدُ ولاجِوارُ حتَّى تدخلوهُ، وإن أتتكم العربُ [593] قبل أن تدخلوه لم أمنعهم.»

فرضُوا، ففرَّغ لهم الشِّعب. وقد كان هذا الشِّعب من رستاق أسفرة، وأسفرةُ يومئذٍ إلى ولىِّ

---

١) كارزنج: مهملة فى الأصل ومط، فأعجمناها كما فى الطبرى ٩: ١٤٤٠. وفى حواشى الطبرى عن الأصول: كازرنج (بتقديم الزاء على الراء).

٢) كشر: كذا فى الأصل وبعض هوامش الطبرى. وفى متن الطبرى: كشين. وفى مط: كشير.

٣) شاركث: الحرف الأخير مهمل فى الأصل. وما فى الطبرى بياركَثْ وفى هوامشه عن الأصول: شاركث، بياركت شاركمت، وفى مط: شادلب.

٤) اشتيخن: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: مهمل من النقط. وفى تعاليق الطبرى عن الأصول والنسخ: استخر، اسحر (بالإهمال الكامل)، استحن.

عهد ملك فرغانة وهو بلاذا، وكان قال لهم كارزنج:

ـ «أخيُركم[١] ثلاث خصال إن تركتموها هلكتم. إنّ سعيدًا فارس العرب، وقد وجّه على مقدّمته عبدالرّحمان بن عبدالله القشيريّ فى كماة[٢] أصحابه، فبيّتوهُ واقتلُوهُ. فإنّ الحرشيّ إن أتاهُ خبره لم يغزُكم.»

فأبوا عليه. قال:

ـ «فاقطعوا إليه نهر الشّاش، وسلُوهُ: ماتريدون؟ فإن أجابكم، وإلاّ مضيتم إلى سرباب[٣].» قالوا:

ـ «لا.» قال:

ـ «فأعطوهم الخراج.»

فأبوا. ولحق كارزنج وأهل السُّغد بخُجَندَة.

***

★ تمّت المجلدة الثانية من كتاب تجارب الأمم وعواقب الهمم. ويتلوها فى المجلدة الثالثة: «و دخلت سنة أربعٍ ومائة.» والحمد لله ربّ العالمين وصلواته على النبيّ محمّدٍ وآله الطّيبين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

★ فرغ من انتساخه محمّد بن عليّ بن محمد أبو طاهر البلخى فى (السابع والعشرين؟) من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسمائة.

★ وفرغ من انتساخه الحسن بن منصور فى منتصف شوّال سنة ستٍ و (...؟)

★ وفرغ من انتساخه ابنُه محمد بن الحسن بن منصور فى ثالث جمادى الأولىٰ سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

---

١) أخيركم (بالياء): كذا فى الأصل والطبرى ٩: ١٤٤١. وما فى مط: أخبركم (بالباء الموحدة).

٢) كماة: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: حماة.

٣) سرباب: ما فى الأصل مهمل من النقط والاعجام من مط. وما فى الطبرى: سوياب. وفى تعاليقه عن الأصول: سونات، سوبات.

الفهارس العامّة لهذا الجزءِ والأَجزاءِ الأُخرى

سنقدّمها فى مجلّدٍ خاصٍّ

بعد الفراغ من طبع الكتاب بكامله.

MISKAWAYH
(932-1030)

TAJARIB AL-UMAM

(Experiences of Nations)

EDITED, ANNOTATED & INTRODUCED

by

A. Emami, Ph.D.

Vol. 2

Soroush Press
1987
P.O. Box 15875-1163 Tehran, IRAN

DATE DUE

SEP 30 2005			
OCT 17 2005			
MAR 25 2008			

GAYLORD PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0047127473

V. 2

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU17904080

MISKAWAYH
(932-1030)

TAJARIB AL-UMAM

(Experiences of Nations)

EDITED, ANNOTATED & INTRODUCED
by
A. Emami, Ph.D.